

فَتْحُ الطَّيْبِ مِنْ

غَضَنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التليساني

حققه
الدكتور إحسان عباس

المجلد السادس

دار صادر
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ - ۱۹۶۸ م

الإمام الميراني

الباب الرابع

في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية ، وثناء غير واحد من
أعلام أهل عصره عليه ، وصرف القاصدين وجوه التأمل إليه ، واجتلائهم
أنوار رياسته الجليلة ، وكتبهم بعض المؤلفات باسمه ، ووقوفهم عند إشارته
ورسمه ، وما يضاهي ذلك في حظه وقسمه ، وسعيهم بين يديه .

اعلم — سلك الله بي وبك الطريق الأقوم الأقوى ، وحلّى صدور جميعنا
بزينة التقوى — أن لسان الدين ذكر في كتبه كالإحاطة ونفاضة الجراب وغيرهما
جملة ممّا خاطبه به الملوك وغيرهم ، من تبجيل وتنويه ، ولنذكر بعض ذلك
من كتبه ومن غيرها تميماً للمقصود وتبليغاً لنفوس الناظرين في هذه العجالة
ما تؤمله وتنويه .

[١ — ظهر من أبي زيان المريني لسان الدين]

فمن ذلك ما ذكره في «الإحاطة» من إكرام السلطان أبي زيّان المريني ابن
الأمير أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن له ، وسرد ما كتب له به من قوله :
هذا ظهير ، إلى قوله : أيده الله ونصره ، وسنّى له الفتح المبين ويسّره ،

وبعده ما صورته^١ : « للشيخ الفقيه الأجل الأسنى ، الأعز الأحدثى الأرفع الأجلد
الأسنى الأواحد الأنوه الأرقى ، العالم العلم الرئيس الأعرف المتفنن الأبرع
المصنف المفيد الصدر الأحفل الأفضل الأكل أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير
الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأجلد الوجيه الأنوه الأحفل الأفضل الحسيب
الأصيل الأكل المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب ، قابله أيده الله بوجه القبول
والإقبال ، وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال ، ورعى له خدمة السلف
الرفيع الجلال ، وما تقرر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال ، وأمر في جملة
ما سوّغه من الآلاء الوارفة الظلال ، الفسيحة المجال ، بأن يجدد له حكم ما بيده
من الأوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية^٢
في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مَجْبِي مدينة سلا حرسها الله
في كل شهر ، ومن حيث جرت العادة أن يتمشى له ، ورفع الاعتراض ببابها
فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه ، وفيما يستفيده
خدامه^٣ بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك ،
فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف^٤ ، ولا يتوجه فيه إليه بتكليف ،
يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديداً تاماً ، واحتراماً عاماً ،
أعلن بتجديد الخطوة واتصالها ، وإتمام النعمة وإكمالها ، من تواريخ الأوامر
المذكورة إلى الآن ، ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام ، واتصال الأيام ، وأن
يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السُخَرِ مهما
عرضت ، والوظائف إذا افترضت ، حتى يتصل له تالد العناية بالطارف ،

١ ورد هذا الظهير في الاستقصا ٤ : ٤٨ .

٢ العشرية : لعلها العاشرية وهي ما كان في كل دينار منها عشرة دراهم (انظر « عاشر » في ملحق
المعاجم لدوزي) .

٣ ق : خدمه .

٤ الوظيف أو الوظيفة : الضريبة المقررة .

وتتضاعف أسباب المِنَن والعَوَاف ، بفضل الله ، وتحرَّر له الأزواج^١ التي يحرثها بتالمغت من كل وجيبة^٢ وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة ، بالتحريير التام بحول الله وعونه ، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه ، وليُتمِّض ما أمضاه ، إن شاء الله ، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، وكتب في التاريخ » ؛ انتهى .

وقوله « وكتب في التاريخ » هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان ، يكتب بقلم غليظ ، وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة « صح في التاريخ »^٣ .

[ترجمة أبي زيان المريني]

وقد عرَّف لسان الدين في « الإحاطة » بهذا السلطان بما نصَّه : محمد بن يعقوب أبي عبد الرحمن بن علي أمير المسلمين بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أمير المسلمين بالمغرب إلى هذا العهد ، يكنى أبا زيان^٤ ، وصل الله نصره على عدوِّ الدين ، وأرشده إلى سنن الخلفاء المهتدين .

حاله - فاضل سَكُون منقاد ، مشغل بخاصة نفسه ، قليل الكلام ، حسن الشكل ، دَرَب بركض الخيل ، مفوض للوزراء ، عظيم التأثي لأغراضهم ، ووكل الأمور لمن استكفاه منهم ، استقدم من أرض النصارى بالأندلس وقد فر

١ الأزواج : هي ما يسمى في المشرق « الأفدنة » ، أخذت من زوج البقر للحرث أي (الفدان) .

٢ الوجيبة : الضريبة .

٣ قال ابن الأحمر عند تعريفه العلامة : « فإذا رأيت الصك المريني وعلامته : كتب في التاريخ المؤرخ به ، فهي بخط يد السلطان ، وإذا كانت : وكتب في التاريخ ، فهي بخط يد صاحب العلامة (مستودع العلامة : ٢١) .

٤ بويج أبو زيان الملقب بالمتوكل ١١ صفر سنة ٧٦٣ وقتل غرقاً في السانية التي بروض الغزلان ٢٢ ذي الحجة سنة ٧٦٧ وسنه ٢٨ سنة ودفن بجامع قصره (روضة النسرین : ٣٢ وانظر الاستقصا ٤ : ٥١) .

إليهم خوفاً على نفسه ، فسمح به ملك الروم بعد اشتراط واشتطاط ، فكان وصوله إلى مدينة الملك بفاس يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، ودخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الأعظم كوكب المشتري من الكواكب السيارة ، وقد كان الوزير قيم الأمر والمثل في الكفاية والاضطلاع بالعظيمة عمر بن عبد الله بن علي اليباني^١ لما ثار بعمه السلطان أبي سالم رحمه الله تعالى وأقام الرسم بأخيه المعتوه المدعو بأبي عمر استدعى هذا المترجم به ، وقد نازله الأمير عبد الحليم ابن عمهم ، وتوجه عنه رسوله أثناء الحصار لما رأى الأمر لا يستقيم بمن نصبه ، فتلطف فيه إلى طاغية النصارى ، واستعان بالسلطان أبي عبد الله ابن نصر ، وقد جمعتهم إيالته ، فتم له اللحاق بالمغرب ، وانصرف الأمير عبد الحليم إلى سجلماسة فتملكها ، وتم الأمر للأمير أبي زيان يقوم به عنه وزيره ومستدعيه المذكور مصنوعاً له في خدمته ، أعانه الله تعالى وأصلح حاله وأحوال الخلق على يديه ، ووفدت عليه من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولي^٢ :

لَمَنْ عَلِمَ فِي هَضْبَةِ الْمَلِكِ خَفَاقُ	أَفَاقَتْ بِهِ مِنْ غَشْيَةِ الْهَرَجِ آفَاقُ
تُقِلُّ رِيَّاحَ النَّصْرِ مِنْهُ غَمَامَةٌ	تَمُدُّ لَهَا أَيْدٍ وَتَخْضَعُ أَعْنَاقُ
وَبِيعَةُ شُورَى أَحْكَمِ السَّعْدِ عَقْدَهَا	وَأَعْمَلُ إِجْمَاعٍ عَلَيْهَا وَإِصْفَاقُ
قَضَى عَمْرٍ فِيهَا بِحَقِّ مُحَمَّدٍ	فَسُجِّلَ عَهْدُ لِلْوَفاءِ وَمِيثَاقُ
أَحْلَمًا تَرَى عَيْنَايَ أُمِّ هِيَ فِتْرَةٌ	أَعْنَدُكُمَا فِي مَشْكِ الْأَمْرِ مَصْدَاقُ
وَفَاضُ ^٣ لِفَضْلِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ تُبْتَغَى	وَمَجْتَمَعَاتُ لَا تَرِيبُ وَأَسْوَاقُ
وَسَرَّحُ تَهْنِيهِ الْكَلَاءَةُ بِالْكَلا	وَفَلَحُ لِسْقِي الْغَيْثِ قَامَ لَهُ سَاقُ

١ راجع أخبار هذا الوزير في العبر ٧ : ٣١٩ ، ٣٢٣ .

٢ انظر القصيدة في الاستقصا ٤ : ٤٦ - ٤٨ .

٣ الوفاض : جمع وفضة وهي المكان الذي يمسك الماء ؛ وفي ص : رفاض .

وقد كان طيفُ الحلم لا يعمل الخطأ
وللغيث إمساكٌ وفي الأرض رَجَّةٌ
فكلُّ فريقٍ فيه للبغي رايةٌ
أجل إنه من آل يعقوب وارثٌ
له من جناح الروح ظلٌ مسجفٌ
أطلَّ على الدنيا وقد عادَ ضوءُها
فأشرقت الأرجاء من نور ربها
فمن ألسنِ الله بالشكر أعلنت
وليس لأمر أبرم الله ناقضٌ
محمدٌ قد أحييت دينَ محمد
ولو لم تثب غطى على شفق الضحى
فأيمنَ بمشحونٍ من الفلك سابعٌ
أقلك والدأماءُ تَظهر طاعة
إلى هدف السعد أنبرى منه والدجى
فخُطَّتْ لتقويم القوامِ جداولٌ
تبارك من أهداك للخلق رحمة
هو الله يبلو الناسَ بالخيرِ فتنةٌ
سمت منك أعناقُ الورى لخليفة

وللفتنة العمياء في الأرض إطباق
وللدين والدنيا وجومٌ وإطراق
وكلُّ طريقٍ فيه للغيث طراق^١
يحنُّ له البيتُ العتيقُ ويشتاق^٢
ومن رفرف العزَّ الإلهي رُستاق^٣
دُجى وعلى الأحداق للذعر إحداق
وساح بها لله لطفٌ وإشفاق
وكان لها من قبلُ همسٌ وإطباق
وليس لمسعى أنجحَ الله إخفاق
وللخلق أذماء تفيضُ وأرماق
دمٌ لسيوفِ البغي في الأرض مُهراق
له باختيارِ الله حطٌّ وإيساق^٣
إليك وصفح الماء أزرق رقراق
يضلُّ الحجى سهمٌ من السعد رشاق
وصحَّت من التوفيق واليمن أوفاق^٤
ومستبعدٌ أن يهمل الخلقَ خلاق
وبالشرِّ ، والأيامُ سمٌّ وترياق
له في مجال السعدِ وخدٌ وإعناق

١ سقط البيت من ق .

٢ الرستاق : معربة عن الفارسية بمعنى الناحية أو الكورة .

٣ الخط : الرسو في الميناء ، والإيساق : مصدر أوسق بمعنى ملأ بالأحمال .

٤ الدأماء : البحر .

٥ يعني بالجداول : الجداول الفلكية ، والأوفاق : جمع وفق وهو المربع الذي يقسم إلى « خانات » ترتب فيها الأرقام .

وقالوا بنانٌ ما استقلَّ بكفه
وأطنب فيك المادحون وأغرقوا
ألستَ من القوم الذين أكفَّهم
ألستَ من القوم الذين وجَّههم
رياض إذا العافي استظل ظلالها
أبوك وليُّ العهد لو سالم الردى
فمن ذا له جدٌ كجدِّك أو أب
وحسبُ العلا في آل يعقوب أنهم
أسودُ سروحٍ أو بدور أسرة
يطولُ لتحصيل الكمالِ سهادهم

ومنها :

لئن نسيَّت إحسانَ جدِّك فرقةٌ
أجازت خُروجَ ابنِ ابنه عن ترائه
ومن دُونِ ما راموه لله قدرة
خذ العفو وابدلْ فيهم العرفَ ولتسعُ
فربَّما تنبو مهندةُ الظُّبي
وما الناسُ إلا مذبذبٌ وابنٌ مذبذبٍ
ولا ترجُ في كلِّ الأمور سوى الذي
إذا هو أعطى لم يضرْ منعُ مانعٍ
عرفت الردى واستأثرت بك للعدا
فيسرَّ لليسرى وأحيا بك الورى
فجازر صنيعَ الله وازدد بشكره
وأوفٍ لمن أوفى وكافٍ الذي كفى

تفيضُ على العافين أم هي أرزاق
فلم يُجدِ إطنابٌ ولم يُغنِ إغراق
غمامٌ ندَى إن أخلف الغيث غيداق
بدورٌ لها في ظلمة الروع إشراق
ففيها جنَّى ملء الأكف وإبراق
وجدك قد فاق الملوك وإن فاقوا
لآلئ والمجدُ المؤثِّل نساق
هم الأصل في العلياء والناس إلحاق
فإن حاربوا راعوا وإن سالموا راقوا
فهم للمعالي والمكارم عشاق

تُزَرُّ على أعناقهم منه أطواقُ
ولم تدرِ ما ضمت من الذكر أوراق
ومن دون ما أمَّوه للفتح أغلاق
جريرة من أبدى لك الغدر أخلاق
وتهفو حلوم القوم والقوم حذَّاق
ولله إرفاد عليَّهم وإرفاق
خزائنه ما ضرها قط إنفاق
وإن حشدت طسَمٌ وعادٌ وعملاق
تخومٌ بمخطط الصليب وأعماق
وللروع إرعاد عليك وإبراق
مواهب جود غيَّثها الدهر دفاق
فأنت كريم طهرت منك أعراق

وتهنيك يا مولى الملوك خلافة
فقد بلغت أقصى المنى بك نفسها
فلا راعٍ منها السُّرْبَ للدهر رائع
أمولاي راع الدهر سِرْبِي وغالتي
وليس لكسري غيرك اليوم جابر
ولي فيك ودٌّ^١ واعتدادٌ غرسته
وقد عيل صبري في ارتقابي خليفة
وأنت حسامُ الله والله ناصر
وأنت الأمان المستجار من الردى
وأهونُ ما تُرجى لديك شفاعَةٌ
ودونكها من ذائع الحمد مخلص
إذا قالَ أما كلُّ سمعٍ لقوله
ودُمٌ خافق الأعلام بالنصر كلما

شجتها تباريح إليك وأشواق
وكم فازَ بالوصلِ المهني مشتاق
ولا نال منها جدَّة السَّعدِ إخلق
فطَرَفِي مذعورٌ وقلبي خفاق
ولا ليدي إلا بمجدك أعلاق
فراقت به من يانع الحمد أوراق
تُحلُّ به للضرِّ عني أوهاق^٢
وأنت أمينُ الله والله رزاق
إذا راعَ خطبٌ أو تُوقَّع إملاق
إذا لم يكن عزمٌ حثيث وإرهاق
له فيك تقييد يروق وإطلاق
فمُصنَّعٌ ، وأما كلُّ أنفٍ فنشاق
ذهبت لمسعى لم يكن فيه إخفاق

وُعدتُ منه ببر كثير ، واحترام شهير .

دخوله غرناطة - لحق بها مُفلتاً عند القبض على قرابته وبني عمته وتقريبهم
إلى مصارعهم ، فكان وصوله في رمضان من عام خمسين وسبعمائة ، ثم رابه
رائب لحق لأجله بصاحب قشتالة ، وأقام في جملته إلى حين استدعائه المقرر
آنفاً ، وهو لهذا العهد أمير المسلمين بالمغرب ، أعانه الله تعالى على الخير ،
وأطلق به يده ، وألهمه لما يرضى منه بفضله وكرمه ؛ انتهت الترجمة .

ورأيت على هامش هذا المحل من « الإحاطة » بخط الخطيب الشهير الإمام

١ ق : أصل .

٢ الأوهاق : جمع وهم وهو الانشودة .

أبي عبد الله ابن مرزوق التلمساني رحمه الله ما صورته : توفي - يعني السلطان
أبا زيان - مغتالاً عام ستة وستين على يد مظاهره الخائن عمر بن عبد الله
ابن علي الوزير ، ردّاه في بئر ، وأشاع أنّه أفرط في السكر ، وألقى نفسه في
البئر المعروفة برياض الغزلان ، وباع لعمّه عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ،
فسلطه الله عليه ، وأخذ حقوق الخلائق على يديه ، فقتله غيلة بعد أن كان تغلب
عليه ، فأعمل الحيلة في قتله ، واستمر ملك عبد العزيز ظاهراً ظافراً قد جمع
بين المغرب إلى أقصاه وبين ملك تلمسان وقد شرّد أهلها كلّ مُشرّد ، فعندما
أقبلت الدنيا عليه ، واستقام ملكه ، وكاد يلحق ملك أبيه أو يزيد مات رحمه
الله تعالى ، قيل : مطعوناً ، وقيل غير ذلك ، وذلك في حدود أربع وسبعين ،
وولي ولده ، ثم عُزل بآبن عمّه أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، وحاز ملك
المغرب إلى حين كتب هذا سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، انتهى ما ألفيته بخط
سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق .

ورأيت تحته بخط ابن لسان الدين أبي الحسن علي ما صورته : رحمة الله عليك
يا عمر بن عبد الله بن علي ، فلقد كنت غسّلت ملك المغرب من درّان كبير ،
وقمت على ملك هو وضعف شهير ، وشهّرت سيف الحق ، على الزواكرة
الحرق ، فابتهج منبر الدين ؛ انتهى .

ومراده بهذا الكلام الرد على ابن مرزوق في ذمّه للوزير عمر ، وقوله
« الزواكرة » لفظ يستعمله المغاربة ، ومعناه عندهم المتلبس الذي يُظهر النسك
والعبادة ، ويبطن الفسق والفساد ، وعند الله تجتمع الخصوم .

[٢ - رسالة من أبي سالم إلى لسان الدين]

ولنرجع إلى ما كنّا بسبيله فنقول :

وممّا خوطب به ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، من قبل سلطان المغرب المستعين بالله أبي سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد البسملة والصلاة^١ :

« من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق ، أيد الله أمره وأعز نصره ، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأخطى الأوجه الأنوه الصدر الأحفل المصنف البليغ الأعرف الأكل أبي عبد الله ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكل المرحوم المبرور أبي محمد ابن الخطيب ، وصل الله عزته ووالى رفعتة ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

« أما بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الكريم المصطفى ، والرضى عن آله وصحبه أعلام الإسلام وأئمة الرشد والهدى ، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعيني بالنصر الأعز والفتح الأسنى ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمل ، ونُجَحَ القول والعمل - من منزلنا الأسعد بضفة وادي ملوية بمنه الله ، وصنعُ الله جميل ، ومنّه جزيل ، والحمد لله ، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة برعني الوسائل ، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالحناب العليّ ، المولوي العلوي ، جدّة الله تعالى عليه ملابس غُفْرانه ، وسقاهُ غِيُوثَ رحمته وحنّانه ؛

١ وردت هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ٢٩ - ٣٠ وأزهار الرياض ١ : ٢٨٢ .

وما أهديتم إلينا من التقرب لدينا ، بخدمة ثراه الطاهر ، والاشتغال بمطارف حرمة السامية المظاهر .

« وإلى هذا وصل الله حظوتكم ووالى رفعتكم ، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابل بالإسعاف المستعذب وردّه ، فوقنا على ما نصّه ، واستوفينا ما شرحه وقصّه ، فأثرنا حسن تطفكم في التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجنب العزيز علينا ، وفي الحين عيّنّا لكم مطلبكم ، وتمام مأربكم ، والتوجه بخطابنا في حقكم ، والاعتماد بوقفكم ، خديمينا أبا البقاء ابن تاشكورت^١ وأبا زكريا ابن فرقاجة ، أنجدهما الله وتولاهما ، وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم ، بعد التأكيد عليهما فيه ، وشرح العمل الذي يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابسطوا له جملة آمالكم ، وإنّا لندرجو ثواب الله في جبر أحوالكم ، وبرء اعتلالكم ، والله سبحانه وتعالى يصل مبرّتكم ، ويتولى تكرمتكم ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ كتب في الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة . »

[٣ - جواب لسان الدين]

فراجع ابن الخطيب بما نصّه^٢ : « مولاي خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض عن حجة ، ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله تعالى عالي الدرجة في المنعمين ، وافير الحظ عند جزاء المحسنين ، وأراكم ثمرة برّ أبيكم في البنين ، وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الأليم من أراد في مثابتكم بإلحاد ، عبدكم الذي ملككم رقه ،

١ الاستقصا والأزهار : تاشكورت .

٢ انظر هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ٣٠ - ٣١ والأزهار ١ : ٢٨٤ .

وأوتيت غرْبته ، وسترتم أهله وولده ، وأسْنِيتُم رزقه ، وجبرتم قلبه ، يُقبَلُ موطىء الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر ، الفارعة هَضْبَةَ العز ، المعملة الخطو في مجال السعد ، وميسر^١ الحظ ابن الخطيب ، من شالة^٢ التي تأكد بملككم الرضي احترامها ، وتجدد برعيكم عهدا ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق بحسناتكم نورها .

« وقد ورد على العبد الجوابُ المولوي البر الرحيم ، المنعم المحسن بما يليق بالملك الأصيل والقدر الرفيع والهمة السامية والعزة القعساء ، من رَعِي الدخيل والنصرة للذِّمام والاهتزاز لبر الأب الكريم ، فثاب الرجاء وانبعث الأمل وقوي العَضُد وزار اللطف ، فالحمد لله الذي أجرى الخير على يدكم الكريمة ، وأعانكم على رعي ذمام الصالحين ، المتوسِّل إليكم أولاً بقبورهم ومتعبداتهم وتراب أجدادهم ، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذي تسبب^٣ في وجودكم ، واختصكم بحبّه ، وغمركم بلطفه وحنانه ، وعلمكم آداب الشريعة ، وأورثكم ملك الدنيا ، وهياتكم دعواته بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساح البقاء ، وفي علومكم المقدسة ما تضمنت الحكاياتُ عن العرب من النعرة^٤ عن طائر دانستُ أفراخه ناقة في جوار رئيس منهم ، وما انتهى إليه الامتعاظُ لذلك ممّا أهنت فيه الأنفس وهلكت الأموال ، وقُصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا ، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولاً إلى رُحماكم بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم الحرية

١ ق والاستقصا : ومسير .

٢ شالة : تعد اليوم من ضواحي الرباط ، وفيها قبور المرينيين . وإليها لجأ لسان الدين عندما نبت به الأندلس .

٣ ق : الذي هو سبب .

٤ ق : النفرة ؛ الاستقصا : النصرة .

على بذلها ؟ ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين خافق القلب واهي الفرعة ، يتغلى بردائه ، ويستجير بعليائه ، كأنتي تراميت عليهم في الحياة أمام الذعر الذي يذهل العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقاده ، ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة : يا ليعقوب ، يا المرين^١ ، نسأل الله تعالى أن لا يقطع عني معروفكم ، ولا يسلبني عنايتكم ، ويستعملني ما بقيت في خدمتكم ، ويتقبل دعائي فيكم .

« ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعت بإزائه ، وقلت : يا مولاي ، يا كبير الملوك ، وخليفة الله ، وبركة بني مرين ، صاحب الشهرة والذكر في المشرق والمغرب ، عبدك المنقطع إليك ، المترامي بين يدي قبرك ، المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك ، ابن الخطيب ، وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعي وجهك ، والتقرب إلى الله تعالى برعيك ، والاشتجار في مشرق الدنيا وغربها ببرك ، وأنتم من أنتم من إذا صنع صنعة كلها ، وإذا من منة تممها ، وإذا أبدى يداً أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقضة ، وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك ، حتى يتم أملي ، ويخلص قصدي ، وتحف نعمتك بي ، ويطمئن إلى مأملك قلبي .

« ثم قلت للطلبة : أيها السادة ، بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التأليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم ، فأمنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم ، واندفعت في الدعاء والتوسل الذي نرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه ، وخاطب العبد مولاه شاكيراً لنعمته مشيداً بصنيعته مسروراً بقبوله ، وشأنه من التعلق والتطارح شأنه حتى يكمل القصد ويتم الغرض ، معمور الوقت بخدمة يرفعها ، ودعاء يردده ، والله المستعان » ، انتهى .

١ ص ف : يا آل يعقوب ، يا آل مرين ؛ ولا خلاف .

[٤ - رسالة من لسان الدين إلى أبي سالم]

وكان تقدم من لسان الدين كتاب للسلطان المذكور ، وكان ما سبق من كتاب السلطان جواباً له ، وذلك بعد رجوع لسان الدين من مراکش واستقراره في مدينة سلا برباط شالة مدفن السلاطين من بني مرين ، ومنهم السلطان أبو الحسن والد السلطان أبي سالم المذكور ، ونص الكتاب ^١ :

« مولاي المرجو لإتمام الصنيعة وصلة النعمة وإحراز الفخر ، أبقاكم الله تعالى تُضْرَبُ بكم الأمثال في البر والرضى وعلو الهمة ورعي الوسيلة ، مُقَبَّلٌ موطىء قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب من الضريح المقدس بشالة ، وقد حط رحل الرجاء في القبة المقدسة ، وتذمم ^٢ بالتربة الزكية ، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إياه من الوجهة المباركة وزيارة الربط المقصودة والترب المعظمة ، وقد عزم أن لا يبرح طوعاً من هذا الحوار الكريم والدخيل المرعي حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم ، والتماس شفاعته في أمر سهّل عليكم لا يجر إنفاد مال ولا اقتحام خطر ، إنما هو إعمال لسان ، وخط بنان ، وصرف عزم ، وإحراز فخر وأجر ، وإطابة ذكر ، وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر ممّا يفتح الله تعالى فيه ، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب ، وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب - يعني ابن مرزوق - سنّي الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم : أنت يا فلان والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر ، جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين .

١ قارن بما ورد في الاستقصا ٤ : ٢٤ وأزهار الرياض ١ : ٢٧٧ .

٢ الاستقصا : وتيمم .

« وقد تقدم تعريفُ مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم ، والعبدُ الآن يعرض عليكم الجواب ، وهو أنني لما فرغت من مخاطبته بمراي من الملائكة الكبير ، والحم الغفير ، أكبت على اللحد الكريم داعياً ومخاطباً ، وأصغيت بأذني عند قبره ، وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله ، فكأنني به يقول لي : قل لمولاي : يا ولدي وقرّة عيني المخصوص برضاي وبري ، و [من] ستر حريمي ورد ملكي وصان أهلي وأكرم صنائعي ووصل عملي ، أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويُقبِلَ عليك ، الدنيا دار غرور ، والآخرة خير لمن اتقى :

وما الناس إلا هالك وابن هالك^١

« ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ، ومثلك من ذكر فتذكر ، وعرف فما أنكر ، وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبري ، وتهنّم بي ، وسبق الناس إلى رثائي ، وأنشدني ومجدني وبكاني ، ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك ، وعفّر وجهه في تربّي ، وأملني لما انقطعت مني آمال الناس ، فلو كنتُ يا ولدي حياً لما وسّعني أن أعمل معه إلا ما يليق بي ، وأن أَسْتَقِل فيه الكثير ، وأُحْتَقِر العظيم ، لكن لما عجزت عن جزائه وكلّته إليك ، وأحلته يا حبيب قلبي عليك ، وقد أخبرني أنه سلبُ المال ، كثير العيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن ، وأمل أن ينقطع بجواري ، ويستتر بدخيلي وخدمتي ، ويرد عليه حقه بخدمتي ، ووجهي ووجوه من ضاجعني من سلفي ، ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتي ، وقد كنت تشوّفت إلى استخدامه في الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة ، وخطيبنا العظيم المزية القديمُ القربة ، أبو عبد الله ابن مرزوق ، فاسأله يذكرك ،

١ صدر بيت لأبي نواس ، وتمامه : « وذو نسب في الهالكين عريق » .

واستخبره يخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات ،
إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء ، وله
يا ولدي ولد نجيب يخدم ببابك ، وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك ، وقد
استقر بدارك قراره ، وتعين بأمرك مرتبه ودشاره^١ ، فيكون الشيخ خديم الشيخ
والشباب خديم الشاب ، هذه رغبتني منك ، وحاجتي إليك ، واعلم أن هذا الحديث
لا بد له أن يُذكر ويُتحدث به في الدنيا وبين أيدي الملوك والكبار ، فاعمل ما يبقى
لك فخره ، ويتخلد ذكره ، وقد أقام مجاوراً ضريحاً ، تالياً كتاب الله تعالى
علي ، منتظراً ما يصله منك ويقرؤه علي ، من السعي في خلاص ماله ، والاحتجاج
بهذه الوسيلة في جبره ، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة ،
فالله الله يا إبراهيم ، اعمل ما يسمع عني وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان
المقال ؛ انتهى .

« والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمة وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء
حاجته ، ولتعلموا وتحققوا أنني لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ،
وسفكت الدماء ، وأخذت حسائف^٢ الملوك الأعزة ممن وراء النهر من الططر
وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله تعالى مني من
غير عهد بعد أن بلغهم تدمي بهذا الدخيل ، ومقامي بين هذه القبور الكريمة .
ما وسع أحداً منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب
الحقوق التي لا يُغفلها الكبار للكبار إلا الجود الذي لا يتعقبه البخل ، والعفو
الذي لا تفسده المؤاخذة ، فضلاً عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى بموالاتكم ،
فهو فاضل ، وابن ملوك أفاضل ، وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم وقدر
سلفكم ، لا سيما مولاي والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم ، فقد كان
يتبنتي مولاي أبا الحجاج ، ويشمله بكنفه ، وصارخه بنفسه ، وأمدّه بأمواله ،

١ الدشار : المزرعة أو الأرض المستأجرة ، والجمع دشر .

٢ الحسائف : العداوات والضغائن .

ثم صيّر الله تعالى ملكه إليكم ، وأنتم من أنتم ذاتاً وقبلاً ، فقد قرّرت يا مولاي عينُ العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعددكم ، زادكم الله تعالى من فضله ؛ ولا شكّ عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه . « وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان ، وتعلقي بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم ، وشهرة حرمة شالة معروفة ، حاش لله أن يضيعها أهلُ الأندلس ، وما توسل إليهم قط بها إلا الآن ، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ، وأملّي منكم أن يتعين من بين يديكم خديم ، بكتاب كريم ، يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي ، ويخبر بمشوّاي مترامياً على قبر والدكم ، ويقرر ما ألزمتكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منه عادة المكارمة بحلّ هذه العقدة ، ومن المعلوم أنّي لو طلبت بهذه الوسائل من صلب ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن ، فالحياء والحشمة بأبّيان العذر عن هذا في كل ملّة ونحلة .

« وإذا تمّ هذا الغرضُ - ولا شكّ في إتمامه بالله تعالى - تقع صدقتكم على القبر الكريم بي وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدّه ، ومدح النبي صلى الله عليه وسلّم ليلة المولد في جواره وبين يديه ، وهو غريب^١ مناسب لبركم به ، إلى أن أحجّ بيت الله بعناية مقامكم ، وأعود داعياً مثنياً مستدعياً للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب ، وأتعوّض من ذمتي بالأندلس ذمّة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتي ، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظراً ثمنه ممّا يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعي أيضاً لوالدكم ممّا لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه ، وها أنا أرتقب جوابكم بما لي عندكم

١ غريب : يعني أنه عمل بديع .

من القبول ، ويسعني مجدكم في الطلب وخروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض ، والله سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به ، والسلام . وكتب في الحادي عشر من رجب عام أحد وستين وسبعمائة .

وفي مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة ^١ :

مولاي ها أنا في جوار أبيكا	فابذل من البرّ المقدر فيكا
أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى	والله يسمعك الذي يرضيكا
واجعل رضاه إذا نهدت كتيبة	تهدي إليك النصر أو تهديكا
واجبر بجبري قلبه تنل المني	وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذي سنّ البرور بأمره	وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منذراً ومحدراً	وبما تؤمل نيله يأتيكا
قد هزّ عزمك كل قطر نازح	وأخاف مملوكاً به ومليكا
فإذا سموت إلى مرام شاسع	فغصونه ثمر المني تجنيكا
ضمنت رجال الله منك مطالبي	لما جعلتك في الثواب شريكا
فلئن كفيت وجوهها في مقصدي	ورعيتها بركاتها تكفيكا
وإذا قضيت حوائجي وأريتني	أملأ فربك ما أردت يريكا
واشدّد على قولي يداً فهو الذي	برهانه لا يقبل التشكيكا
مولاي ما استأثرت عنك بمهجتي	إنني ومهجتي التي تفديكا
لكن رأيت جناب شالة مغنماً	يُضفي عليّ العز في ناديكَا
وفروض حقل لا تفوت فوقتها	باق إذا استجزيته يجزيكا
ووعدتني وتكرّر الوعد الذي	أبت المكارم أن يكون أفيكا
أضفي عليك الله ستر عناية	من كل محذور الطريق يقيكا

ببقائك الدنيا تُحاطُ وأهلها فاللهُ جلَّ جلاله يُبقيكَا

فلَمَّا وصل الكتاب إلى السلطان أجابه بما مر آنفاً .

ورأيت بخط الفقيه الأديب المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي أشي
نزِيل تلمسان على هامش قول ابن الخطيب في هذه الرسالة « ولا شك عند عاقل
أنكم إن انحَلَّت عروة تأمِلْكم - إلخ » ما صورته : كذلك وقع آخر الأمر ،
وكان الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في
محرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، فرحم الله تعالى ابن الخطيب ، العاقل اللبيب ،
وغفر له برحمته ؛ انتهى .

وممَّا خاطب به لسان الدين السلطان أبا سالم في الغرض المتقدم قوله :

عن باب والدك الرضى لا أبرحُ	يأسو الزمانُ لأجلِ ذا أو يجرحُ
ضربتُ خيامي في حماه فضيبي	تجني الحميمَ به وبهمني تسرحُ
حتى يراعى وجهه في وجهي	بعناية تشفي الصدورَ وتشرحُ
أيسوغُ عنْ مشواه سيري خائباً	ومنابرُ الدنيا بذكركَ تصدحُ
أنا في حماه وأنت أبصرُ بالذي	يرضيه منك فوزنُ عقلك أرجحُ
في مثلها سيفُ الحمية ينتضى	في مثلها زندُ الحفيظة يُقدحُ
وعسى الذي بدأ الحميلَ يعيده	وعسى الذي سدَّ المذاهبَ يفتحُ

[ترجمة أبي سالم المريني]

وقد عرّف في « الإحاطة » بالسلطان أبي سالم فقال بعد كلام : أملاك المسلمين ،
وحماة الدين ، وأمراء المغرب الأقصى من بني مرّين ، غيوث المواهب وليوث العرين ،
ومعتمد الصريخ وسهام الكافرين ، حفظ الله تعالى على الإسلام والمسلمين ظلهم ،
وزين بيدور الدنيا والدين هالتهم ، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم أو من

أقاربهم ، فما عسى أن يُطْنِبَ اللسانُ في مدحهم ؟ وأين تقع العبارة ؟ وماذا^١
يُحصر الوصف ؟ إلى أن قال : وفاته — وفي ليلة العشرين من ذي القعدة^٢ من
عام اثنين وستين وسبعمائة^٣ ثار عليه بدار الملك وبلد الإمارة المعروف بالبلد
الحديد من مدينة فاس الحائنُ الغادرُ مخلفه عليها عمر بن عبد الله بن علي نسمة
السوء ، وجملة الشؤم ، والمثل البعيد في الجراءة على الله تعالى ، وقد اهتبل غيرة
انتقاله إلى القصر السلطاني بالبلد القديم متحولاً إليه حذراً من قاطع^٤ فلكي كان
يحذر منه ، استعجله بضعف نفسه ، وأعانه على فرض صحة الحكم به ، وسد
الباب في وجهه ، ودعا الناس إلى بيعة أخيه المعتوه ، وأصبح حائراً بنفسه ، يروم
ارتجاع أمر ذهب من يده ، ويطوف بالبلد يلتمس وجهاً إلى نجاح حيلة ، فأعياه
ذلك ، ورشقت من معه السهام ، وفرت عنه الأجناد والوجوه ، وأسلمه الدهر ،
وتبرأ منه الحد ، وعندما جنَّ عليه الليل فر لوجهه ، وقد التفَّ عليه الوزراء ،
فسفحت حلومهم ، وقالت آراؤهم ، ولو قصدوا به بعض الجبال المنيع لولوا
أوجههم شطر مظنة الخلاص ، واتصفوا بإبلاغ الأعذار ، ولكنهم نكلوا عنه .
ورجعوا أدراجهم وتسلَّلوا راجعين إلى يد غادر الحملة ، قد سلبهم الله سبحانه
لباسَ الحياء والرجولية وتأذن الله تعالى لهم بعدُ بسوء العاقبة . وقصد بعض
بيوت البادية وقد فضحه نهارُ الغد ، واقتفى المتبعة أثره حتى وقعوا عليه ، فسيق إلى
مصرعه ، وقُتِل بظاهر البلد ثاني اليوم الذي غدر به فيه ، جعلها الله تعالى له
شهادةً ونفعه ، فلقد كان^٥ بقية البيت وآخر القوم دَماً وحياء ، وبعداً عن

١ ق : وما .

٢ ص : قعدة .

٣ قال ابن الأحمر : وقتل رحمه الله تعالى وأنا أنظر إليه وأتوجع وأبكي يوم الخميس ٢١ الذي

القعدة سنة ٧٦٢ وله ٢٨ سنة (روضة السرين : ٣٠) .

٤ القاطع والقطع في مصطلح المنجمين ما يدل على نحس وخسارة .

٥ انظر أزهار الرياض ١ : ٢٧٠ .

الشرور ، وركوناً للعافية ، وأنشدت على قبره الذي ووريت به جثته بالقلعة من
ظاهر المدينة قصيدةً أدتُ فيها بعض حقه :

بني الدنيا بني لمع السراب « لدوا للموت وابنوا للخراب »

انتهى المقصود من الترجمة .

وكان يصف لسان الدين بمقرَّبِي وجليسي ، كما سبقت الإشارة إليه من كلام
لسان الدين فيما خاطب به ابن أبي رمانة ، والله يسبل على الجميع رداء عفوه
سبحانه .

وقد تقدم أنه شفع لابن الخطيب عند أهل الأندلس ، ولذلك قال يخاطبهم :

سَمِيَّ خَلِيلَ اللَّهِ أَحْيَيْتَ مُهْجَتِي وَعَاجَلْتَنِي مِنْكَ الصَّرِيخُ عَلَى بُعْدِ
فَإِنْ عَشْتُ أَبْلِغْ فِيكَ نَفْسِي عَذْرَهَا وَإِنْ لَمْ أَعِشْ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ مِنْ بَعْدِي

[ثناء المغاربة والمشاركة على لسان الدين]

وقال الرئيس الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر في حق ابن
الخطيب ما صورته^١ : هو شاعر الدنيا ، وعالم المفرد والثنيا ، وكاتب الأرض ،
إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه في الكتُب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من
تقدم في الماضي ، وسيف مقوله ليس بالكهام إذ هو الماضي ، وإلا فانظر
كلام الكتاب الأول من العصبه ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبه ،
للبراعة ، بالبراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حُمدت بُكرهم وأصائلهم ،
للجزالة المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العُدوتين ،
ورئيس الدولتين ، بالإطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية ، لكن

١ هذا نص ما قاله في نثر فرائد الجمان ٢٤٢ وانظر أزهار الرياض ١ : ١٩١ .

صِلَّ لسانه في الهجاء لسع ، ونجاد نطقه في ذلك اتسع ، حتى صدمني ، وعلى القول فيه أقدمني ، بسبب هجوه في ابن عمي ملك الصقع الأندلسي ، سلطان ذلك الوطن في النفر الجنسي ، المعظم في الملوك بالقول الجني والإنسي ، ثم صفحت عنه صفحة القادر ، الوارد من مياه الظفر غير القادر ، لأن مثلي لا يليق به إظهار العورات ، ولا يحمل له تتبع العثرات ، اتباعاً للشرع في تحريم الغيبة ، وضرباً عن الكريهة وإثباتاً لحظوظ النقيبة الرغبة ، فما ضره لو اشتغل بذنوبه ، وتأسف على ما شربه من ماء اللهو بذنوبه ^١ ، وقد قال بعض الناس : من تعرض للأعراض ، صار عريضه هدفاً لسهام الأغراض ؛ انتهى .

ومثل هذا في لسان الدين لا يقدر ، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح ^٢ ، وعلى تقدير صدور ما يחדش وجه جنابه الرفيع ، فالأولى أن ينشد :

وإذا الحبيب أتى بذنوب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وممن أثنى على لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - بعض أكابر علماء تلمسان ، ولم يحضرني الآن اسمه ، في تأليف عرف فيه بالشيخ العلامة سيدي أبي عبد الله الشريف التلمساني وابنيه العالمين أبي يحيى وسيدي عبد الله ، فقال بعد كلام في حق الشريف ما نصّه : وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره ، وأكثرهم تعظيماً له ، حتى إن العالم الشهير لسان الدين ابن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة ، والتأليف البديعة ، كلما ألف تأليفاً بعثه إليه ، وعرضه عليه ، وطلب أن يكتب عليه بخطه ، وكان الشيخ الإمام الصدر المفتي أبو سعيد ابن لب شيخ علماء الأندلس وآخرهم كلما أشكلت عليه مسألة كاتبه بها ، وطلب منه بيان ما أشكل عليه ، مقرأً له بالفضل ؛ انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

١ الذنوب : الدلو .

٢ عجز بيت ، صدره : « هجوت زهيراً ثم إني مدحته » .

رجع :

وكتب لسان الدين ابن الخطيب متمثلاً بشيخه الأوحى قاضي الجماعة أبي البركات ابن الحاج البليقي رحمهما الله تعالى^١ :

أيتها النفس إليه اذهبي فحبه المشهور من مذهبي
أيأسني التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

ويغلب على ظني أنه خاطبه بذلك عند قدومه ، أعني لسان الدين ، من المغرب إلى الأندلس ، والله تعالى أعلم .

وكان قاضي القضاة برهان الدين الباعوني الشامي^٢ ، كثير الثناء على لسان الدين رحمه الله تعالى ، لأنه تلقى أخباره من قاضي القضاة ابن خلدون حسبما ذكرناه في غير هذا الموضع ، ولقد رأيت بخطه على هامش بعض تأليف لسان الدين في الإنشاء ما نصّه : هذا بليغ إلى الغاية ؛ انتهى .

وكتب أثره بعض أكابر علماء المشرق ما نصّه : هذا خط العلامة قاضي القضاة برهان الدين الباعوني ، وهو شديد الاعتناء والمدح للمصنف ابن الخطيب الأندلسي ، معظم له وإنشائه ، وهو خليق بالتعظيم ، جدير بمزيد التمجيد والتكريم ، وكيف لا وهو شاعر مقلق^٣ ، وخطيب مصقع^٤ ، وكاتب مترسل بليغ ، لولا ما في إنشائه من الإكثار ، الذي لا يكاد يخلو من عثار ، والإطناب . الذي يفضي إلى الاجتناب ، والإسهاب ، الذي يقدر الإهاب ، ويورث الالتهاب ؛ انتهى .

١ . قد تقدم القول في البيتين ونسبتهما ج ٤ : ١٤ ؛ ٥ : ٣٤٨ ، ٤٨٢ .

٢ . هو إبراهيم بن أحمد الباعوني (- ٨٧٠) الصفدي المولد الدمشقي الدار ، كان ينعت بقاضي

القضاة مع أنه رفض تولي القضاء ، وله ديوان شعر ومؤلفات أخرى (الضوء اللامع ١ : ٢٦

والبدر الطالع ١ : ٨ ونظم العقيان : ١٣) .

قلت : وهذا الانتقاد غير مُسَلِّم ، فإن لسان الدين وإن أطنب وأسهب ، فقد سلك من البلاغة أحسنَ مذهب ، ويرحم الله تعالى العلامة البرهان الباعوني المذكور أعلاه ، إذ كتب بخطه في آخر بعض تأليف لسان الدين في الإنشاء ما صورته : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعوني لطف الله تعالى به : الحمد لله على ما ألهم من البيان وعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم ، وقفتُ على هذا الكتاب من أوله إلى آخره ، وعمتُ من بحر بلاغته في زاحره ، وعددته من مناقب مؤلفه ومفاخره ، فإنه برز فيه غاية التبريز ، وأتى بما هو أحسن من الذهب الإبريز ، لا بل هو أبهى من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، وعجبت من تلك الألفاظ ، المشبهة لسحر الأحاظ ، ورقة المعاني ، المحكمة المباني ، انتهى .

فانظر — أيدك الله تعالى — بعين الإنصاف إلى كلام هذا الفاضل ، المنصف الكامل ، وقِسْهُ مع كلام ذلك المنتقد المتعصب الناقص الحامل ، مع أن الكلام الذي تعرض له ذاك بالقدح ، هو الذي تصدى له الباعوني بالمدح ، وكل إناء بالذي فيه ينضح ، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل أهل الفضل ، والأمر أجلى من أن يقام عليه دليل وأوضح .

رجع إلى ما كنا بصدده :

وقال الوزير ابن عاصم عندما أجرى ذكر سلطان ابن الخطيب أمير المسلمين الغني بالله بعد كلام كثير ما صورة محل الحاجة منه : وكان هذا السلطان من نيل الأغراض على أكمل ما يكون عليه مثله ممن نزع غرقاً في قوس الخلافة ، حكى لي شيخنا القاضي أبو العباس الحسني أن كبير ولده الأمير أبا الحجاج طلب من الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب أن يطلب من أبيه الغني بالله أن يبادر بإعذاره ، إذ كان قد جاوز سنّ الإثغار ، دون إعذار ، لمكان ما لحق والده من التمحيص وغير ذلك من الحوادث المهمة ، فأسعده الشيخ بذلك . وقال

للغني بالله : يا مولانا إن سيدي يوسف وكتني على طلب إعداره من مولانا نصره الله على ما يليق بك وبه ، فقال له الغني بالله : حسبي الله ، وسكت سكتة لطيفة تُشعر بفصل الكلام بعضه من بعض ، ثم قال : ونعم الوكيل ! فعدّها الأكناس من مدارك نبله ، ومحاسن قوله وفعله ، انتهى .

قلت : هذا من السلطان في حق لسان الدين غاية التبجيل ، أعني قوله « ونعم الوكيل » فأين هذا من سماع كلام أعدائه فيه بعد ، حتى آل أمره إلى النحس بعد ذلك السعد ؟ وسقاه دهره بعد الحلاوة ما مر ، ولم يكن قتله إلا بتسبب السلطان المذكور كما مر :

ثلاثة " ليس لها أمان " البحر والسلطان والزمان

[٥ - رسالة ابن خاتمة إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى ^١ : ولما قضى الله عز وجل بالإدالة ، ورجعنا إلى أوطاننا من العُدوة ، واشتهر عني ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة ، والته على السلطان والدولة ، والتكبر على أعلى رتب الخدمة ، وتطارحت على السلطان في استنجاز وعد الرحلة ، ورغبت في تبرئة الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالحملة ، خاطبني - يعني أبا جعفر ابن خاتمة - بعد صدر بلّغ من حسن الإشارة وبراعة الاستهلال الغاية بقوله : « وإلى هذا يا سيدي ومحل تعظيمي وإجلالي ، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم ، وضاعف في العز درجات ارتقائكم ، فإنه من الأمر الذي لم يغب عن رأي العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ، أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطيراز مملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام

١ انظر الإحاطة ١ : ١٢٤ وأزهار الرياض ١ : ٢٦٥ .

زيتها على العموم والخصوص ، ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ،
وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبّ مارستانها ، والذي عليه عقد إدارتها ،
وبه قوام إمارتها ، فليده يحل المشكل ، وإليه يلجأ في الأمر المعضل ، فلا غرو أن
تتقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحقق نحوكم الأذهان والأفكار ، ويؤجّر عنكم
السانح والبارح ، ويستنبأ ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح ، استقراء
لمرامكم ، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم ، واستكشافاً عن مرامي سهامكم ،
لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق ، وظهوركم في ملتصع بروق ،
واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق ، حتى تستقر بكم الديار ، ويلقي
عصاه التسيار ، ولها العذر في ذلك إذ صدّعها بفراقكم لم يندمل ، وسرورها
بلقائكم لم يكتمل ، ولم يبرأ بعد جناحها المهيض ، ولا جَمَّ ماؤها المغيض ،
ولا تميزت من داجيها لياليها البيض ، ولا استوى نهارها ، ولا تألفت أنهارها ،
ولا اشتملت نعمائوها ، ولا نسيت غمائمها ، بل هي كالناقة ، والحديث العهد
بالمكارة ، يستشعر نفس العافية ، ويتمسح منكم باليد الشافية ، فبحنانكم عليها ،
وعظيم حرمتكم على من لديها ، لا تشوبوا لها عذّب المُجّاج بالأجاج ، وتفظموها
عمّا عودت من طيب المزاج ، فما لدائها وحياة قربكم غير طبكم من علاج .
« وإنّي ليخطر بخاطري محبة فيكم ، وعناية بما يعينكم ، ما نال جانبكم
صانه الله تعالى بهذا الوطن من الجفاء ، ثمّ أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم
الوفاء ، وأن الوطن إحدى المواطن الأظّار التي يحقّ لهنّ جميل الاحتفاء ، وما
يتعلّق بكم من حرمة أولياء القرابة وأوداء الصفاء ، فيغلب على ظني أنكم لحسن
العهد أجنح ، وبحق نفسكم عن حق أوليائكم أسمح ، وليّتي هي أعظم قيمة
من فضائلكم أوهب وأُسجَحُ ، وهب أن الدُرّ لا يحتاج في الإثبات ، إلى شهادة
النحور واللبّات ، والياقوت غني في المكان ، عن مظاهرة القلائد والتيجان ،
أليس أنه أعلى للعيان ، وأبعد عن مكابرة البرهان ، تألقها في تاج الملك أنوشروان ؟
فالشمس وإن كانت أم الأنوار ، وجلاء الأبصار ، مهما أغمى مكانها من الأفق

قيل : أليلٌ هو أم نهار ، وكما في علمكم ما فارق ذوو الأرحام ، وأولو الأحلام ،
مواطن استقرارهم ، وأما كن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم ، واستبدال
دار خير من دارهم ، ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يعوّض عنها إلا بمكة
أو يثرب ؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُباد ، وما فوقه مرابط جهاد ،
ومعاهد ألوية في سبيل الله ومضارب أوتاد ، ثم يبوأ ولده مبوأ أجداده ، ويجمع
له بين طارفه وتلاده ، أعيد أنظاركم المسددة من رأي فائل ، وسعي طويل
لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد ، وهي
طويلة .

[٦ - من لسان الدين إلى ابن خاتمة]

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : فأجبتَه بقولي ^١ :

لَمْ فِي الْهُوَى الْعَذْرَى أَوْ لَا تَلُمُ فَالْعَذْلُ لَا يَدْخُلُ أَسْمَاعِي
شَأْنُكَ تَعْنِيْقِي وَشَأْنِي الْهُوَى كُلُّ أَمْرٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

أهلاً بتحفة القادم ، ورَبْحانة المنادم ، وذكر الهوى المتقادم ، لا يصغر
الله مسراك ، فما أسْرَاكَ ، لقد جبت إليّ من همومي ليلاً ، وجست رجلاً
وخَيْلاً ، ووفيت من صاع الوفاء كيلاً ، وظننت بي الأسف على ما فات ، فأعملت
الالتفات ، لكيلاً ^٢ ، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدي ، أو كانت اللّمة السوداء
من عُدَدِي ، ما أفلتت أشراكي المنصوبة لأمثالك ^٣ ، حول المياه وبين المسالك ،
ولا علمت ما هنالك ، لكنك طرقت حمي كَسَعَتُهُ الغارة الشعواء ، وغيرت

١ الإحاطة ١ : ١٢٦ والأزهار ١ : ٢٦٧ .

٢ هذا من الاكتفاء ، فهو يشير إلى الآية الكريمة « لكي لا تأسوا على ما فاتكم . . . الآية » .

٣ نثر بيت الشريف الرضي :

لو كانت اللمة السوداء من عددي يوم الغيم لما أفلتت أشراكي

رَبْعُهُ الْأَنْوَاءُ ، فَخَمْدٌ بَعْدَ ارْتِجَاجِهِ ، وَسَكَتٌ أَذِينُ دُجَاجِهِ ، وَتَلَاعَبَتِ الرِّيحُ
الْهُوجُ فَوْقَ فِجَاجِهِ ، وَطَالَ عَهْدُهُ بِالزَّمَنِ الْأَوَّلِ ، وَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ
مُعَوَّلٍ ؟ وَحَيَّا اللَّهَ نَدْبًا إِلَى زِيَارَتِي نَدَبَكَ ، وَبَادَابِهِ الْحَكْمِيَّةَ أَدَبَكَ :

فَكَانَ وَقَدْ أَفَادَكَ بِكَ الْأَمَانِي كَمَنْ أَهْدَى الشِّفَاءَ إِلَى الْعَلِيلِ

وَهِيَ شِيْمَةٌ بِوَرَكْتَ مِنْ شِيْمَةٍ ، وَهَبَةُ اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَهُ مِنْ لَدُنِ الْمَشِيْمَةِ ،
وَمَنْ مَثَلُهُ فِي صَلَةِ رَعِي ، وَفَضْلِ سَعِي ، وَقَوْلِ وَعِي ^١ :

قَسَمًا بِالْكُوَاكِبِ الزُّهْرُ وَالزُّهْرُ عَاتِمُهُ
إِنَّمَا الْفَضْلُ مِلَّةٌ خُتِمَتْ بِابْنِ خَاتِمِهِ

كَسَانِي حِلَّةَ فَضْلِهِ ، وَقَدْ ذَهَبَ زَمَانُ التَّجَمُّلِ ، وَحَمَلْتَنِي شُكْرُهُ وَكَتَدِي
أَوَاهٍ عَنِ التَّحْمِلِ ، وَنَظَرْنِي بِالْعَيْنِ الْكَلِيلَةِ عَنِ الْعَيْبِ ، فَهَلَّا أَجَادَ التَّأَمُّلِ ، وَاسْتَطْلَعَ
طِلْعَ نَثِّي ^٢ ، وَوَالِي فِي مَبْرَكِ الْمَعْجَزَةِ حَثِي ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾ :

وَلَوْ تَرُكَ الْقَطَا لَيْلًا لَنَامَا ^٣

وَمَا حَالُ شَمْلٍ وَتَدِهِ مَفْرُوقٍ ، وَقَاعِدَتُهُ فَرُوقٍ ، وَصُوعَ بَنِي أَبِيهِ مَسْرُوقٍ ،
وَقَلْبَ قَرَحِهِ مِنْ عَضَّةِ الدَّهْرِ دَامٍ ، وَجَمْرَةَ حَسْرَتِهِ ذَاتِ احْتِدَامٍ ، هَذَا وَقَدْ
صَارَتِ الصَّغْرَى ، الَّتِي كَانَتْ الْكُبْرَى ، لَمْشِيبٌ لَمْ يَدْعُ أَنْ هَجَمَ لَمَّا نَجْمٌ ، ثُمَّ
تَهَلَّلَ عَارِضُهُ وَانْسَجَمَ :

لَا تَجْمَعِي هَجْرًا عَلَيَّ وَغُرْبَةً فَالْهَجْرُ فِي تَلَفِ الْغُرْبِ سَرِيعٌ

١ ق ص : وَمَرَعَى .

٢ النث : مَا يَذِيْعُهُ الْمَرْءُ مِنْ سِرِّ .

٣ مِنْ أَمْثَالِهِمْ ؛ وَصَدْرُهُ : « أَلَا يَا قَوْمَنَا ارْتَحِلُوا وَسِيرُوا » يَرِيدُ أَنْ وَرَاءَ إِثَارَةِ الْقَطَا فِي اللَّيْلِ أَمْرًا
رَهِيْبًا . انْظُرْ فَصْلَ الْمَقَالِ : ٣٠٥ - ٣٠٦ .

نظرت فإذا [الجنب ناب ، و]^١ النفس فريسة ظُفُر وناب ، والمال أكلة
انتهاب ، والعمر رهن ذهاب ، واليد صفر من كل اكتساب ، وسوق المعاد
مترامية ، والله سريع الحساب :

ولو نُعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيارَ مع الزمان

وهب أن العمر جديد ، وظلّ الأمن مديد ، ورأي الاغتباط بالوطن سديد ،
فما الحجة لنفسي إذا مرت بمطّارح جفوتها ، وملاعب هفوتها ، ومثاقف
قناتها ، ومظاهر عزّاها ومَنّاتها ، والزمان وَلُود ، وزناد الكون غير صلُود :

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرّة^٢ تركته حين يُجرّ حبلٌ يَفَرِّقُ^٢

ثم إن المرغب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وهب ، والعارض قد
اشتبه ، وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة ، وأسماءه على الحوار مخفوضة ،
والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة ، والتوبة بفضل الله عز وجل
منقودة ، والمعاملة سامرية ، ودروع الصبر سابرية ، والاقتصاد قد قرت العين
بصحبه ، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته ، فإذا راجعها مثلي من بعد الفراق ،
وقد رَقَى لدغتها ألف راق ، وجمعتني بها الحجرة ، ما الذي تكون الأجرة ؟
جل شاني ، وإن رضي الوامق وسخط الشاني ، إنني إلى الله تعالى مهاجر ،
وللعرض الأدنى هاجر ، ولأطعان السُّرى زاجر ، لنجد إن شاء الله تعالى وحاجر ،
لكن دعاني للهوى ، إلى هذا المولى المنعم هوى ، خلعت نعلي الوجود وما خلعت ،
وشوقي أمرني فأطعته ، وغالبٌ والله صبري فما استطعته ، والحال أغلب ،
وعسى أن لا يخيب المطلب ، فإن يسر رضاه فأمر كمل ، وراحل احتمل ، وحادٍ
أشجى الناقة والجمل ، وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العلائق ، والتسليم

١ انفردت بها ص ، ووردت في المصدرين المذكورين .

٢ البيت لصالح بن عبد القدوس (تاريخ بغداد ٩ : ٣٠٤) .

بمقامي لائق :

ما بين غَمُضَةِ عين وانتباهتها يُصَرِّفُ الأمرُ من حال إلى حالٍ

وأما تفضيله هذا الوطن ليُمن طيِّره ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ،
وعمران رباه ووهاده ، بأشلاء عبَّاده وزُهَّاده ، حتى لا يفضلهُ إلا أحد الحرمين ،
فحقُّ برىء من الميَّن ، لكنني للحرمين جنحت ، وفي جوِّ الشوق إليهما سنحت ،
فقد أفضتُ إلى طريق قَصْدِي محجته ، ونصرتني والمنة لله تعالى حُجَّتُهُ ، وقصد
سيدي أسنى قصد توخَّاه الحمد والشكر ، ومعروف عرف به النكر ، والآمال
من فضل الله بعدُ تُمْتَار ، والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ودعاؤه بظهر الغيب
مدد ، وعدة وعدد ، وبره حالِي الظعن والإقامة معتمِل معتمد ، ومجال المعرفة
بفضله لا يحصره أمد ، والسلام ؛ انتهى .

ومن خط ابن الصباغ ما صورته : يكفي ابن خاتمة الغايةُ التي سلمها له
إمام الطريقة ، وواحدها الفذ على الحقيقة ، حيث قال :

إنما الفضلُ ملَّةٌ خُتِمَتْ بابن خاتمة

ومن نظمه وقد تَخلى عن الكتابة وطُلب منه أن يعود فأبى وأنشد :

تَقَضَّى في الكتابة لي زمانٌ كشأن العبدِ يَنْتَظِرُ الكتابةُ
فمنَّ الله من عِتْقِي بما لا يطيقُ الشكرُ أن يملا كتابه
وقالوا هل تعود فقلت كلا وهل حرٌّ يعود إلى الكتابه

فانظر حُسْنَ هذه التورية العجيبة ؛ انتهى .

[رسالة ابن خاتمة إلى ابن جزري]

ولابن خاتمة يخاطب ابن جزري : يا أخي الذي سما ودُّه أن يُجَازَى ،

وسيدي الذي علا مجده عن أن يُوازي ، وصل الله تعالى لك أسباب الاعتلاء والاعتزاز ، وكافاً ما لك من الاختصاص بالفضائل والامتياز ، أمّا إنّه لو وسع التخلف عن جواب أخ أعز ، ولم يجب التكلف عن قد عجز ، لغطيت عجزى عن عين تعجيزك ، ولما تعاطيت المثل بين يدي مناهزك أو مجيزك ، لكنّه في حكم الود المكنون المكنوز ، ممّا لا يحل ولا يجوز ، فلکم الفضل في الإغضاء عن عاجز ، دعاه حكم التكلف إلى القيام مقام مُناجز ، وإن لم يكن ذلك عند الإنصاف ، وحميد الأوصاف ، من السائح الجائر ، فعن جهد ما بلغ وليك إلى هذه الأحواز ، ولم يحصل الحقيقة إلّا على المجاز . أمّا ما ذهبتم إليه من تخميس القصيدة التي أعجزت ، وبلغت من البلاغة الغاية التي عزت مُناهضتها وأعوزت ، فلم أكن لأستهدف ثانياً لمضاضة الإعجاز ، وأسجل على نفسي بالإفلاس والإعواز ؛ انتهى .

وكتب قبلها قصيدة زائية أجابه بها عن قصيدة زائية ، التزم فيها ابن جزي ترك الرائ ، لأنّه كان ألشغ يبدلها غيناً ، رحم الله تعالى الجميع .
وقال لسان الدين في ترجمة ابن خاتمة المذكور^١ : إنّه الصدر المتفنن المشارك ، القوي الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الذهن ، الكثير الاجتهاد ، الموفور الأدوات ، المعين الطبع ، الجيد القريحة ، الذي هو حسنة من حسنات الأندلس ، أحمد بن علي بن خاتمة ، من أهل المرية .

[٧ - رسالة من ابن خاتمة إلى لسان الدين]

إلى أن قال : « وممّا خاطبني به بعد إمام الركاب السلطاني ببلده وأنا صحبته ، ولقائه إياي بما يلقي به مثله من تأنيس وبر ، وتودد وتردد :

يا من حصلت على الكمال بما رأت عيناى منه من الجمال الرائع

١ انظر الإحاطة ١ : ١١٤ ، ١١٦ .

قمرٌ يروقُ وفي عطاقي بردِه
أشكو إليك من الزمان تحاملاً
ما شئتَ من كرم ومجد بارع
في فضٍّ شمل لي بقربك جامع
هَجَمَ البعاد عليه ضناً باللقا
حتى تقلصَ مثل برقٍ لامع
فلو آنتي ذو مذهبٍ لشفاعة
ناديتهُ يا مالكي يا شافعي

« شكواي إلى سيدي ومُعَظَمي - أقر الله تعالى بسنائه أعين المجد ، وأدرَ بثنائه
ألسنَ الحمد - شكوى ظمآنٍ صُدَّ عن القَراح العَذْب لأوّل وروده ، والهيمان
رد عن استرواح القرب لمعضل صدوده ، من زمان هجم عليّ بإبعاده ، على حين
إسعاده ، ودهمني بفراقه ، غبّ إنازة أفقي به وإشراقه ، ثم لم يكفِه ما اجترم في
ترويع خياله الزاهر ، حتى حرم عن تشييع كماله الباهر ، فقُطِع عن توفية حقّه ،
ومُنِع من تأدية مستحقّه ، لا جرَم أنه أنف لشعاع ذُكائه ، من هذه المطالع
النائية عن شريف الإنارة ، وبخل بالإمتاع بذكائه ، عن هذه المسامع النائية^١ عن
لطيف العبارة ، فراجع أنظاره ، واسترجع مُعاره ، وإلا فعهدي بغروب
الشمس إلى الطلوع ، وأن البدر يتصرف بين الإقامة والرجوع ، فما بال هذا
النير الأسعد ، غرَبَ ثمّ لم يطلع من الغد ، ما ذاك إلا لعدوى الأيام وعدوانها ،
وشأنها في تغطية إساءتها وجه إحسانها ، وكما قيل : عادت هيف إلى أديانها ،
أستغفر الله أن لا يعد ذلك من المغتفر ، في جانب ما أولت من الأثر ، التي أزرى
العيان فيها بالأثر ، وأربى الخبر على الخبر ، ففسدت مشوّفات الخواطر ،
وأقرت مستشرفات النواظر ، بما حوت من ذلكم الكمال الباهر ، والجمال
الناضر ، الذي قيد خطأ الأبصار ، عن التشوّف والاستبصار ، وأخذ بأزيمة
القلوب ، عن سبيل كل مأمول ومرغوب ، وأنتى للعين ، بالتحوّل عن كمال
الزَيْن ؟ أو بالطرف ، بالتّنقل عن خلال الظرف ؟ أو للسمع من مراد ، بعد

ذلكم الإصدار الأدبي والإيراد ، أو للقلب من مراد ، غير تلكم الشيم الرافلة من ملابس الكرم في حُلل وأبراد ، وهل هو إلا الحسن جُمع في نظام ، والبدر طالع لتمام ، وأنواع الفضل ضمها جنس اتفاق والتثام ، فما ترعى العين منه في غير مرعى خصيب ، ولا تستهدف الأذن بغير سهم في حديق البلاغة مصيب ، ولا تستطلع النفس سوى مطلع له في الحسن والإحسان أوفر نصيب ، لقد أزرى بناظم حلاه فيما يتعاطاه التقصير ، وانفسح مدى علاه بكل باع قصير ، وسفه حلم القائل إن الإنسان عالم صغير ، شكراً للدهر على يد أسداها بقرب مزاره ، وتحفة أهداها بمطلع أنواره ، على تغاليه في ادخار نفائسه وبخله بنفائس ادخاره ، لا غرو أن يضيق عنا نطاق الذكر ، ولا يتسع لنا سوار الشكر ، فقد عمت هذه الأقطار بما شاءت من تحف بين تحف وكرامة ، واجتنت أهلها ثمرة الرحلة في ظل الإقامة ، وجرى لهم الأمر في ذلك مجرى الكرامة .

« ألا وإن مفاتيحي لسيدي ومعظمي - حرس الله تعالى مجده ، وضاعف سعده - مفاتيحة من ظفر من الدهر بمطلوبه ، وجرى له القدر على وفق مرغوبه ، فشرع له إلى أهله باباً ، ورفع له من خجله جلباباً ، فهو يكلف بالاحتحام ، ويأنف من الإحجام ، غير أن الحصر عن درج قصده يقيده ، والبصر يبهرج نقده فيقعده ، فهو يُقَدِّم رجلاً ويؤخر أخرى ، ويجدد عزماً ثم لا يتحرى ؛ فإن أبطأ خطابي فلواضح الأعذار ، ومثلكم مَنْ قبل جليات الأقدار ، والله سبحانه يصل لكم عوائد الإسعاد والإسعاف ، ويحفظ بكم ما للمجد من جوانب وأكناف ، إن شاء الله تعالى . وكتب في عاشر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة » ؛ انتهى .

ومن خاتمة رسالة من إنشاء ابن خاتمة المذكور : فلنصرف عنان البطالة عن الإطالة ، ونسلم على السيادة الطاهرة الأصالة ، بأطيب تسليم ، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور^١ :

هو الدهرُ لا يُبقي على عائدٍ به فمن شاء عيشاً يصطبرُ لنوائبه^٢
فمن لم يُصَبِّ في نفسه فمُصَّابه بفوتِ أمانيه وفقدِ حبايبه^٣

ومنه قوله :

ملاكُ الأمرِ تقوى الله ، فاجعلْ تُقاه عُدَّةً لصلاحِ أمرِك^٤
وبادرْ نحو طاعتهِ بعزمٍ فما تدري متى يقضى بعمرِك^٥

[٨ - رسالة أخرى من ابن خاتمة إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين : وكتب إلي - يعني ابن خاتمة المذكور - عقب انصرافه من غرناطة في بعض قدماته عليها ما نصّه^٢ : ممّا قلته بديهة عند الإشراف على جنابكم السعيد ودخوله مع نفر الذين أتحفتهم سيادتكم بالإشراف عليه ، والدخول إليه ، وتنعيم الأبصار في المحاسن المجموعة لديه ، وإن كان يوماً قد غابت شمسُه ، ولم يتَّفِقْ أن كل أنسه ، وأنشدته حينئذ بعض من حضر ولعلّه لم يبلغكم ، وإن كان قد بلغكم ففضلكم يحملني في إعادة الحديث :

أقولُ وعينُ الدّمعِ نصبُ عيوننا ولاحَ لبستانِ الوزارةِ جانبُ
أهذي سماءُ أم بناء سما به^٣ كواكبُ غصّتْ عن سناها الكواكبُ
تناظرتِ الأشكالُ منه تقابلاً على السّعدِ وسُطى عقده والحبايبُ
وقد جرتِ الأمواهُ فيه مجرّةً مزانِبُها شهبٌ لهن ذوائبُ
وأشرفَ منَ علياه بهوٌ تحفه شماسي زجاجٍ وشيها متناسبُ

١ القطعتان في الإحاطة : ١٢٢ - ١٢٣ .

٢ المصدر السابق : ١٢٣ والكتيبة : ٢٤٤ .

٣ الإحاطة : سداؤه .

يطلّ على ماء به الآسُ دائراً^١ كما افترّ ثغراً أو كما اخضرّ شاربُ
هنالك ما شاء العلّا من جلاله بها يزدهي بستانها والمراتبُ

ولما أحضر الطعام هنالك دعي شيخنا القاضي أبو البركات فاعتذر أنّه صائم
قد بيّته من الليل ، فحضرني أن قلت :

دعونا الخطيبَ أبا البركات لأكلِ طعامِ الوزير الأجلِ
وقد ضمّنا في نداه جناناً به احتفل الحسنُ حتى كملَ
فأعرض عنا لعذرِ الصيام وما كلَّ عذرٍ له مستقلّ
فإنّ الجنانَ محلُّ الجزاء وليس الجنانُ محلُّ العملِ

وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخنا أبا البركات ، فقال لي :
لو أنشدتنيها وأنتم بعد لم تفرغوا منه لأكلت معكم ، برّاً بهذه الأبيات ، والحوالة
في ذلك على الله تعالى ؛ انتهى .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور في فرّان :

ربّ فرّانٍ جلا صفحتهُ هبُ الفرّانِ جلاء العسجدِ
يضرّمُ النارَ بأحشاء الوري مثلما يضرّم في المستوقدِ
فكأنّ الوجه منه خبزةٌ فوقها الشعرُ كقدر أسودِ

[أحمد بن صفوان]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى^٢ : ولما قدمت مالقة آيياً من السفارة إلى
ملك المغرب محفوفاً بفضل الله تعالى وجميل صنّعه ، موفّى المآرب ، مصحّباً

١ ق : دائر .

٢ انظر ترجمة ابن صفوان في الإحاطة ١ : ١٠٠ والكتيبة : ٢١٦ .

بالإعانة ، لقيني على عادته مهنيًا ، يعني أحمد بن صفوان أحد أعلام مالقة وبقية
أدبائها وصدور كتابها ، وأنشدني معيداً في الود مبدياً ، وضمن غرضاً له تعجل
قضاءه والحمد لله تعالى :

قدمت بما سرّ النفوس اجتلاؤه
قدوماً بخير وافر وعناية
ورفعة قدر لا يداني محلّها
عنيت بأمر المسلمين فكلّهم
بلغت الذي أمّلت من صلاحهم
فيا واحداً أغنت عن الجمع ذاته
تشوّك الملك الذي بك فخره
فلا زال مُزّداً بحليك جوده
وخصّصت من ربّ العباد بنعمة
وعشت عزيزاً في النفوس محبباً
وقد جاءني داعي السرور مؤدياً
ولي بعد هذا مأرب متوقف
هزرت له عطف البطرني راجياً
ولم يدر أني من علائك منتض
يصمم إن هزته كفي لمعضل
فحقّق له دامت سعودك حرمتي
وشارك محباً خالصاً لك حبه
وصلّ بجزيل الرعي جبل ذمامه
بقيت وصنع الله يدني لك المني
بحرمة من حقّت سيادته على

فهنت ما عمّ الجميع هناؤه
وعزّ مشيد بالمعالي بناؤه
رفيع وإن ضاهى السماك اعتلاؤه
بما يرتجيه قد توالى دعاؤه
فأدركت مأمولاً عظيماً جزاؤه
وقام بأعباء الأمور غناؤه
وأنت حقيقاً حسنه وبهاؤه
ولا زال موفوراً عليك اصطفاؤه
ينيلكها تخصيصه واحتفاؤه
يلبّي بتبجيل وبرّ نداؤه
لحقّ هناء قرّض عين أداؤه
على فضلك الرحب الجنب قضاؤه
له النجح فاستعصى وخاب رجاؤه
حساماً كفيلاً بالنجاح انتضاؤه
فيكفي العنا تصميمه ومضاؤه
لديك يرحني مطّله والتواؤه
قديماً كريماً عهدّه ووفاءؤه
يصلك جزيلاً شكره وثناؤه
ويوليك من مصنّوعه ما تشاؤه
بني آدم والخير منه ابتسداؤه

وجمعت^١ ديوان شعره أيام مقامي بمالقة عند توجهي صحبة الركاب السلطاني إلى إصراخ الحضراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وقدمت صدره خطبة ، وسميت الجزء بـ « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » .

[٩ - إجازة ابن صفوان للسان الدين]

وطلبت منه أن يجيزني وولدي عبد الله رواية ذلك عنه ، فكتب بخطه الرائق بظهر المجموع ما نصّه : الحمد لله مستحق الحمد ، أجبت سؤال الفقيه الأجل الأفضل السري الماجد الأوحد الأحفل الأديب البارع الطالع في أفق المعرفة والنباهة ، والرفعة المكيئة والوجاهة ، بأبهى المطالع ، المصنف الحافظ العلامة الحائز في في النظم والنثر ، وأسلوب الكتابة والشعر ، رتبة الرياسة والإمامة ، محلي جيد العصر بتأليفه الباهرة الرواء ، ومجلّي محاسن بنيه الرائقة على منصة الإشادة والأنباء أبي عبد الله ابن الخطيب ، وصلّى الله تعالى سعادته ، وحرس مجادته ، وسنّى من الخير الأوفر ، والصنع الأبر ، مقصده وإرادته ، وبلغه في نجله الأسعد ، وابنه الراقي بمحتده الفاضل ومنشئه الأطهر محلّ الفرقّد ، أفضل ما يؤمل نخلته إياه من المكرمات وإفادته ، وأجزت له ولابنه عبد الله المذكور أبقاهما الله تعالى في عزّة سنية الحلال ، وعافية ممتدّة الأفياء وارفة الظلال ، رواية جميع ما تقيد في الأوراق المكتتب على ظهر أوّل ورقة منها من نظمي ونثري ، وما توليت إنشاءه ، واعتمدت بالارتجال والرواية اختياره وانتقاه ، أيام عمري ، وجميع ما لي من تصنيف وتقييد ، ومقطوعة وقصيد ، وجميع ما أحمله عن أشياخي رضي الله تعالى عنهم من العلوم ، وفنون المنثور والمنظوم ، بأي وجه تأدّى ذلك إليّ ، وصح حملي له وثبت إسناده لديّ ، إجازة تامة ، في ذلك كله عامة ، على سنن الإجازات الشرعي ، وشرطها

١ الإحاطة : ١٠٥ .

المأثور عند أهل الحديث المرعي ، والله ينفعني وإياهما بالعلم وحمله ، وينظمننا جميعاً في سلك حزبه المفلح وأهله ، ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله ؛ قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية العبدُ الفقير إلى الله الغني به أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان ، ختم الله تعالى له بخير ، حامداً الله تعالى ، ومصلياً ومسلماً على نبيه المصطفى الكريم ، وعلى آله الطاهرين ذوي المنصب العظيم ، وصحابته البررة أُولي الأثره والتقديم ، في سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ انتهى .

[١٠ - من العذري إلى لسان الدين]

وكتب الفقيه أبو جعفر ابن عبد الملك العذري من أهل سبته إلى لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض الأغراض :

إنني بمجديك لم أزل مُسْتَيْقِناً أن لا يهدم بالتغير ما بتي
إذ أنت أعظم ماجد يعزى له صفح وأكرم من عفا عن جني
وكتب أيضاً :

إن كان دهري قد أساء وجارا فذمام مجديك لا يضيع جارا
فلأنت أعظم ملجأ يُنْجِي إذا ما الدهر أنجد موعداً وأغاراً

[١١ - رسالة من لسان الدين إلى ابن نفيس]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبتُ الشيخَ الشريفَ الفاضلَ أبا عبد الله ابن نفيس صحبة ثمن مسكن اشتريته منه ، وكان قد أهداني فرساً عتيقاً :

جزيت يا ابن رسول الله أفضل ما جزى الإلهُ شريف البيت يوم جزى

إن أعجزَ الشكرُ منِّي منَّةٌ ضعفت عن بعضِ حقك شُكْرُ الله ما عجزا

« سيدي ، أبقي الله شرفك تشهد به الطباع ، إذا بعدت المعاهد المقدسة
والرباع ، وتعترف به الأبصار والأسماع ، وإن جمحت عارضها الإجماع ،
بأي لسان أني ؟ أم أي الأفنان أهصر وأجني ؟ أم أي المقاصد الكريمة أعني ؟
أمطيت جوادك المبارك ، وأسكنت دارك ، وأوسعت مطلبي اصطبارك ،
وهضمت حقك وبوأت جوارك ، ووصلت للغرباء إيثارك ، أشهد بأنك الكريم
ابن الكريم ، لا أقف في تعدادها عند حد^١ إلى خير جد ، فإن أعان الدهر على
مجازاة ، وإن ترفع كرمك عن موازاة ، فحاجة نفس قضيت ، وأحكام
آمال أمضيت ، وإن اتصل العجز فعين على القذى أغضيت ، ومناصل عزم
ما انتضيت ، وعلى كل حال فالثناء ذائع والحمد شائع ، واللسان والحمد لله
طائع ، والله مشتر ما أنت بائع^٢ ، وقد وجهت من يحاول لسيدي ثمن ما اكتسبه
مجده ، وسفر عنه حمده ، والعقيدة بعد التراضي ، وكمال التقاضي ، وحميد
الصبر وسعة التغاضي ، وكونه الخصم والقاضي ، أنه هبة سوغها إنعامه ، وأكلة
هناها مطعامه ، نسأل الله تعالى أن يعلي ذكره ، ويتولى شكره ، وينمي ماله ،
ويرفع قدره ، والولد جاره الغريب الذي برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة قاصرة ،
وتجربة غير منجدة على الدهر وناصره ، قد جعلته وديعة في كرم جواره ، ووضعته
في حجر إيثاره ، فإن زاع فيده العليا في تبصيره ، ومؤاخذته بتقصيره ، ومن
نبه مثله نام ، ومن استنام إليه بمهمة أكرم بمن إليه استنام ، وإن تشوف^٣ سيدي
لحال محبه فمطلق للدنيا من عقال ، ورافض أثقال ، ومؤمل اعتياض بخدمة
الله تعالى وانتقال » انتهى .

١ وهضمت . . . عند حد : سقطت من ق .

٢ والحمد . . . بائع : سقطت من ق .

٣ ق : تشوق .

[١٢ - من لسان الدين إلى ابن رضوان]

وقال رحمه الله تعالى : ممّا خاطبت به صدر الفضلاء الفقيه المعظم أبا القاسم
ابن رضوان بما يظهر داعيته من فحواه :

مرضت فأيامي لديك مريضة وبرؤك مقرون ببراء اعتلاها
فلا راع تلك الذات للضر رائع ولا وسمت بالسقم غرّ خلاها

« وردت علي من فثي التي إليها في معرك الدهر أتميز ، وبفضل فضلها في
الأقدار المشتركة أتميز ، سحابة سرت وساءت ، وبلغت من القصدين ما شاءت ،
أطلع بها سيدي صنعة ودّه من شكواه على كل عابث في السويداء ، موجب
اقتحام البيداء ، مضرّم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل ، ولا
من إفصاح لسانه إلا الأنين والأليل ، ونوى مدت الغير ضرورة يرضاهما الخليل ،
فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع متقبل أعماله ،
أو آمل ضويق في فذلّة آماله ، لكنني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ،
وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطّ يبهر والحمد لله تعالى ويروق ،
واللفظ الحسن تومض في حبره للمعنى الأصيل بروق ، فقلت : ارتفع الوصب ،
وردّ من الصحة المغتصب ، وآلة الحس والحركة هي العصب ، وإذا أشرق سراج
الإدراك دل على سلامة سكيطة ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى
ذلك فلا يقنع بليد احتياطي إلا الشرح ، ففيه يسكن الظمأ البرح ، وعذراً عن
التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزند القلق
في مثلها أورى ، والشفيق بسوء الظن مغرّى ، وسيدي هو العمدة التي سلمت
لي الأيام فيها ، وقالت : حسب آمالك ويكفيها ، فكيف لا أشفق ، ومن أنفق من عينه
فأنا من عيني لا أنفق ، والله لا يحبط سعبي في سؤال عصمتها ولا يخفق ، ويرشد
إلى شكره على ما وهب منها ويوفق ، والسلام الكريم على سيدي البر الوصول ،

الذي زكت منه الفروع لما طابت الأصول ، وخلص من ودّه لابن الخطيب
المحصل ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

[١٣ - جواب ابن رضوان]

قال : فراجعني حفظ الله سيادته بما نصّه :

متى شئت أُلقي من علائك كلّ ما ينيل من الآمال خير منها
كبرء اعتلال من دعائك زارني وعادات برّ لم ترم عن وصاها
« أبقي الله ذلك الجلال الأعلى متطوّلاً بتأكيد البر ، متفضلاً بموجبات الحمد
والشكر ، ورَدَّتْني سَحاءته المشتملة على معهود تشریفه ، وفضله الغني عن
تعريفه ، متحفياً في السؤال ، عن شرح الحال ، ومُعلنّاً بما تحلى به من كرم
الجلال ، والشرف العال ، والمعظم على ما يستر ذلك الجلال الوزاري الرياسي
أجراه الله تعالى على أفضل ما عودّه ، كما أعلى في كل مكرمة يده ، ذلك ببركة
دعائه الصالح ، وحبّه المخيم بين الجوانح ، والله سبحانه المحمود على نعمه ،
ومواهب لطفه وكرمه ، وهو سبحانه المسؤول أن يهبني لسيدي قرار الخاطر ،
على ما يسره في الباطن والظاهر ، بمنّ الله تعالى وفضله ، والسلام الكريم على
جلاله الأعلى ورحمة الله وبركاته ، كتبه المعظم الشاكر الداعي الذاكر المحب
ابن رضوان ، وفقه الله تعالى ، في ذي الحجّة ختام عام واحد وستين وسبعمائة » ،
انتهى .

[١٤ - من لسان الدين إلى الجنان]

وقال رحمه الله تعالى : وفاتحته - يعني الشيخ الجنان - محرّكاً قريحته ومستثيراً
ما عنده ، بقولي :

إن كانت الآدابُ أضحتُ جَنَّةً فلقد غدا جناها الجنانُ
أقلامه القُصْبُ اللِّدان بدوَحها والزهرُ ما رَقَمَتْهُ منه بنانُ
وذكر بعد البيتين سَجْعاً بليغاً .

[١٥ - جواب الجنان]

ثمَّ قال : فراجعني الجنان بما نصَّه :

يا خاطبَ الآدابِ مهلاً فقد ردَّك عن خطبتها ابن الخطيبُ
هل غيره في الأرض كفاء لها وشرطها الكفاةُ قولُ مصيبُ
أصبح للشرطِ بها معرساً فاستفتِ في الفسخ فهل من مجيبُ

أيها السيد الذي يُتنافس في لقائه ويُتغالي ، ويصادم بولائه صرف الزمان
ويتعالى ، وتُسْتنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه ، وتُقْتَنَص شوارد العلوم
بروايات كلامه فكيف بمدانة عيانه ، جلوت عليَّ من بنات فكرك عقائل نواهد ،
وأقمت بها على معارفك الجمة دلائل وشواهد ، واقتنصت بِشَرَك بديهتك من
المعاني أوابد شَوَّارد ، وفَجَرْتَ من بلاغتك وبراعتك حياضاً عذبة الموارد ،
ثمَّ كلفتني من إجراء ظالعي^١ في ميدان ضليعها ، مقابلة الشمس المنيرة بسراج
عند طلوعها ، فأخلدت^٢ إخلاد مهيبض الجناح ، وفررت فرار الأعزل عن شاكي
السلاح ، وعلمت أني إن أخذت نفسي بالمقابلة ، وأدليت دلو قريحتي للمُساجلة ،
كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها ، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها ،
وإن رضيت من القريحة بسجيتها ، وأظهرت القَدَرَ الذي كنت امتَحْتُ من
رَكِيَّتِها ، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين ، ونبت عن أسمى دواوينهم

١ ق ص : طالعي .

٢ ق ص : فأخذت .

كما تنبو عن الأشيب عيون العين ؛ ثم إن أمرك يا سيدي لا يُحَلُّ وثيق مبرمه ، ولا
يَحِلُّ نسخ محكمه ، فامتثلته امتثال من لم يجد في نفسه حزجاً من قضائك ، ورجوت
حسن تجاوزك وإغضائك ، أبقاك الله تعالى قطباً لفلك المكارم والمآثر ، وفصلاً
لخاتم المحامد والمفاخر ، والسلام « انتهى .

[ترجمة ابن الجنان]

والجنان المذكور^١ مغربي من مكناسة الزيتون ، وهو الشيخ الفقيه العدل
الأديب الأخباري المشارك ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي ،
الجنان ، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، كاتب عاقل ناظم ناثر مشارك
في فنون من العلم ، له تصنيف حسن في ثلاث مجلدات سماه « المنهل المورود
في شرح المقصد المحمود » شرح فيه وثائق أبي القاسم الجزيري المالكي ، فأربنى
على غيره بياناً وإفادة ، قال في « نفاضة الجراب » : وناولني إياه ، وأذن لي
في حملي عنه ، وأنشدني كثيراً من شعره ، فمن ذلك ما صدر به رسالة يهنيء
بها ناقهاً من مَرَضٍ^٢ :

البسِ الصِّحَّةَ بُرداً قشيباً	وارشفِ النعمةَ ثغراً شنيباً
واقطفِ الآمالَ زهراً نصيراً	واعطفِ الإقبالَ غصناً رطيباً
إن يكنْ ساءك وَعَكُكَ تقضى	تجدِ الأجرَ عظيماً رحيباً
فانتعشْ في دهرنا ذا سرورٍ	يصبحِ الحاسدُ منه كثيباً

[مقطعات وقصائد تكتب على المباني]

وقال أيضاً لسانُ الدين في النفاضة : قرأت بالدور الحشبي في الدار التي

١ انظر ترجمته في نيل الابتهاج : ٥٠ .

٢ الأبيات في المصدر المذكور .

نزلت بها بمكناسة الزيتون أبياتاً منقّشة استحسنتها لسهولةها فأخبرني أنها من نظمه ، وهي :

انظر إلى منزل متى نظرت	عيناك يعجبك كل ما فيه
ينبىء عن رفعة لملكه	وعن ذكاء الحجى لبانيه
يناسب الوشي في أسافله	ما يرقم النقش في أعاليه
كأنه روضة مدبّجة	جاد لها وابل بما فيه
فأظهرت للعيون زخرفها	ووافقتها على تجليّه
فهو على بهجة تلوح به	ورونق للجمال يديه
يشهد للساكنين أن لهم	من جنة الخلد ما يحاكيه

قلت : قد تذكرت هنا ، والشيء بالشيء يُذكر ، ما رأيته مكتوباً على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياني ، وهي من بدائع الدنيا ، وهو :

انظر بعينك بهجتي وسنائي	وبديع إتقاني ، وحسن بنائي
وبديع شكلي ، واعتبر فيما ترى	من نشأتي بل من تدفق مائي
جسم لطيف ذائب سيلانه	صاف كذوب الفضة البيضاء
قد حفّ بي أزهار وشي نمقت	فغدت كمثل الروض غبّ سماء

وما أنشده بعض أهل العصر في المغرب بقصد أن يرسم في الأستار المذهبة المحكمة الصنعة التي جعلها السلطان المنصور أبو العباس الشريف الحسني رحمه الله تعالى لكي يستر بها النواحي الأربع من القبة الكبيرة بالبديع ، وتسمى هذه الستور عند أهل المغرب بالحائطي ، ففي الجهة الأولى :

متع جفونك من بديع لباسي وأدر على حسني حميّا الكاس

هذي الرُّبى والروضُ من جرَّعائها
أننى لروضٍ أن يروقَ بهاؤه
فالروضُ تغشاه السوامُ ، وإنما
مما اغتذى^١ بالعارضِ البجاسِ
مثلي وأن يجري على مقياس؟
تأوي إلى كنفى ظباء كناس

وعلى الجهة الثانية :

من كلِّ حسنا كالقضيب إذا انثى
ولقد نشرتُ على السماكِ ذوايى
وجررتُ ذيلي بالمجرة عابثاً
ما نيطَ مثلي في القباب ولا ازدهت
تُزري بغصنِ البانة الميَّاسِ
ونظرتُ من شَرُر إلى الكناسِ
فخراً بمخترعي أبي العباسِ
بفتى سواه مراتبٌ وكراسي

وعلى الجهة الثالثة :

ملكٌ تقاصرتِ الملوكُ لغزه
غيثُ المواهبِ بحرٌ كلُّ فضيلةٍ
فردُ المحاسنِ والمفاخرِ كلِّها
ملكٌ إذا وافى البلادَ تأرجتْ
ورماهمُ بالذلِّ والإتعاسِ
ليثُ الحروبِ مسعرُ الأوطاسِ
قطبُ الجمالِ أخو الندى والباسِ
منه الوهادُ بعاطرِ الأنفاسِ

وعلى الجهة الرابعة :

وإذا تطلَّعَ بدرُهُ من هالةٍ
أيامُهُ غرراً تجلَّتْ كلُّها
لا زال للمجدِ السنيّ يشيده
ما مال بالغصنِ النسيمُ وحيبتُ
يُعشي سناه نواظرَ الجلاسِ
أبى من الأعيادِ والأعراسِ
ويقيمُ مبناه على الآساسِ
دُررُ الندى في جيده الميَّاسِ

وما أنشدنيهِ بعضُ العصريين من المغاربة لصاحبنا المرحوم الفقيه الكاتب

١ في ص : علماً اغتذى ؛ ق : على ما اغتدى .

المحقق أبي محمد الحسن بن أحمد المسفيوي المراكشي^١ أحد مشاهير الكتاب
يباب أمير المؤمنين المنصور بالله أبي العباس الشريف الحسيني ملك المغرب ، صَبَّ
الله تعالى على الجميع أمطار الرضوان مما كتب في بعض مباني صاحبنا الوزير
العلامة الأجل سيدي عبد العزيز الفشتالي رحمه الله تعالى ، وهو :

أَجَلِ المَعْلَى من قِداحِ سُرُوري	وأَدِرْ كؤُوسَ الأَنْسِ دونِ شرورِ
خَلَعْتُ على عِطْفِ البهاءِ محاسني	فَكَسْتُ به الآفاقَ ثوبَ حُبورِ
وتَناسَقَ الوَشْيُ المَفُوفُ حَلَّتِي	نَسَقَ الشُّدُورِ على نَحُورِ الحُورِ
شَأوِ القُصورِ قُصورُها عن رتبة	لي بالسَّنا الممدودِ والمَقْصورِ ^٢
في المَبْنَى المراكشيِّ وأُفْقِه	أُزْرِ على الزوراءِ والخابورِ
أَعلى مقامي البارِعُ الأَسمَى الذي	قَد حاز سَبقَ النَظْمِ والمُنثورِ
فإذا أَقْلٌ بَنانُهُ أَقلامُهُ	نَقَشَتْ ^٣ عَقودَ السَّحرِ بين سَطُورِ
عَبْدُ العَزِيزِ أَخو الجِلالَةِ كاتبٌ	سِرَّ الخَليفةِ أَحْمَدَ المَنصورِ
لا زالَ في يَمَنِ وأَمَنِ ما شَدَّتْ	وَرُقٌ بَرُوضٍ بالندَى مَمطورِ

وبعضه كتبه بالمعنى من حفظي لطول العهد ، والغاية في هذا الباب ما أنشدنيه
لنفسه الوزير أبو فارس عبد العزيز الفشتالي المذكور ، وهي جملة من قصائد
كتبت في المباني الملوكية المنصورية بالحضرة المراكشية ، حاطها الله تعالى ، فمنها
ما كتب خارج القبة الحمسينية أي التي فيها خمسون ذراعاً بالعمل ، وذلك قوله
رحمه الله تعالى على لسان القبة^٤ :

١ ترجم له المقرئ في روضة الآس : ١٦٣ . وأورد جملة من شعره ، وانظر درة المجال : ١ : ١٢٨
وله قصائد في مناهل الصفا .

٢ يريد : بالسنا (مقصوراً) وبالسنا (ممدوداً) .

٣ ق : نقشت .

٤ وردت القصيدة في روضة الآس : ١٣٨ - ١٣٩ .

سموتُ فخرَ البدرِ دونيَ وانحطاً
وصُغتُ من الإكليلِ تاجاً لمفرقي
ولاحتُ بأطواقِ الثريا كأنَّها
وعديتُ عن زهرِ النجوم لأنني
وأجريتُ من فيضِ السماحةِ والندی
عقدتُ عليه الجسرَ للفخرِ فارتمتُ
تنضنضُ ما بين الغروسِ كأنَّه
حواليه من دَوْحِ الرياضِ خرائدُ
إذا أرسلتُ لدنُ الفروعِ وفتحتُ
يرنحها مرُّ النسيمِ إذا سرى
يشقّ رياضاً جادها الجودُ والندی
وسالتُ بسلسالِ اللّجينِ حياضه
تطلّعَ منها وسطَ وُسطاهُ دُمية
حكّتُ وحبابُ الماءِ في جنباتها
إذا غازلتها الشمسُ ألقى شعاعها
توسمتُ فيها من صفاء أديمها
إذا اتسقتُ بيضُ القبابِ قلادة
تكنّني بيضُ الدُمى فكأنَّها
قدودٌ ولكن زانها الحسن عريها
نمتُ صُعداً تيجانها فتكسرتُ
فيا لكَ شأواً بالسعادة أهلاً^٢

وأصبحَ قرصُ الشمسِ في أذني قرطاً
ونيطتُ بي الجوزاءُ في عنقي سمطاً
نثرتُ جُمانَ قد تبعته لقطاً
جعلتُ على كيوانِ رحلي منحطاً
خليجاً على نهرِ المجسرةِ قد غطى
إليه وفودُ البحرِ تغرفُ ما أنطى
وقد رقرقتُ حصاؤه حيةً رقطاً
وغيدُ تجرّ^١ من خمائلها مِرطاً
جنى الزهرِ لاح في ذوائبها وخطاً
كما مال نشوانُ تشربَ إسفنطاً
سواءً لديها الغيثُ أسكبَ أم أخطأ
بحاراً غدا عرضُ البسيطِ لها شطاً
هي الشمسُ لا تخشى كسوفاً ولا غمطاً
سنا البدرِ حلّ من نجوم السما وسطاً
على جسمها الفضيّ نهرأ بها لطاً
نقوشاً كأنَّ المسكَ ينقطها نقطاً
فلئنّي لها في الحسنِ دُرَّتُها الوسطى
عذارى نصّتُ عنها القلائدَ والريطا
وأجملَ في تنعيمها النحتَ والحرطا
قواريرُ أفلاكِ السماحِ بها ضغطاً
بأكنافه رَحَلُ العُلا والهُدى حُطاً

١ ص ق : تجرر ، ولا يصلح للوزن .

٢ ق ص : شأو ... أهل .

وكعبةٌ مجدٍ شادها العزُّ فانبرت
ومسرحٌ غزلان الصَّريم كناسُها
فليكن به ما طاب لا الأثيل والحمط
تراهُ من المسكِ الفتيتِ مدبراً
وإن باكرته نسمةٌ سحرأ سرياً
أقرت لهُ الزهراء والخلدُ وانتقت
جنابُ رواقِ المجدِ فيه مطنَّب
إمامٌ يسيرُ الدهرُ تحت لوائه
وفتّاحُ أقطارِ البلادِ بفيلقِ
تطلعُ من خرصانه الشَّهبُ فانشت
كتائبُ نصرٍ إن جرتُ للممةِ
إذا ما عقدنَ رايةَ علويةً
فما للسا تلكَ الأهلةُ إنما
يطاوعُ أيدي المعلواتِ عنانها
يدُ لأميرِ المؤمنين بكفها
أدارَ جداراً للعلّاء وسرادقاً

تطوفُ بمغناها أماني الوري شوطا
جنايا قبابٍ لا الكثيبَ ولا السَّقْطا
ووسَّدن فيه الوشي لا السدْر والأرطى
إذا مازجته السَّحبُ عاد بها خلطا
إلى كل أنفٍ عرْفُ غيره قسْطا
أواوينُ كسرى الفرسِ تغبطه غبطا
على خير من يعزى لخير الوري سبطا
وترسى سفانٌ للعلّاء حيثما وطأ
يفلقُ هاماتِ العدا بالظبي خبطا
ذوائبُ أرض الزنج من ضوئها شُمطا
جرتُ قبلها الأقدارُ تسبقها فرطاً
جعلن ضمانَ الفتحِ في عقدتها شرطاً
سناكبها أبقتُ مثلاً بها خطاً
فيعتاضُ من قبضِ الزَّمان بها بسطاً
زمامٌ يقود الفرس والروم والقبطا
يحوط جهات الأرض من رعيه جوطا

وقوله ممّا كتب بيّهوها بمرمر أسود في أبيض ٢ :

لله بهوٌ عزٌّ منه نظيرُ
رُصِفَتْ نقوشُ حلاه رَصِفَ قلائدُ^٣
فكأنّها والتبر سالَ خلاها
لما زها كالروضِ وهو نصيرُ
قد نضدتها في النحورِ الحورِ
وشيٌ وفضّةٌ تربها كافور

١ روضة الآس : نسمة لسرى بها .

٢ روضة الآس : ١٣٦ .

٣ ق : قلادة .

وكانَّ أرضَ قراره ديباجةً
 وإذا تصعد ندُّه نوءاً ففي
 شأو القصور قصورها عن وصفه
 فإذا أجلت اللحظ في جنباته
 وكانَّ موجَ البركتين أمامه
 صُفَّت بِصُفَّتِها تماثلُ فضة
 فتديرُ من صفو الزلال معتقاً
 ما بين آسادٍ يهيجُ زئيرها
 ودحتُ من الأنهار أرضَ زجاجةٍ
 راقتُ فمن حصباتها وفواقعٍ
 يا حُسْنَه من مَصْنَعٍ فيهاؤه
 وكأنَّما زهرُ الرياضِ بجنبه
 ولدسته الأسمى تخيّرَ رصفه
 ملكٌ أناف على الفراقِدِ رتبة
 قطبُ الخلافةِ تاجُ مفرقِ دولة
 وجرى إلى أقصى العراق لرعيها^١
 نجلُ النبيِّ ابنُ الوصيِّ سليلُ مَنْ
 بحرُ الندى ، لكنَّه متموجٌ
 طَوْدٌ يخفُّ لحلمه ووقاره
 دامتُ معاليه ودام ومجده
 وتعاهدته عن الفتوح بشائرُ

قد زان حُسْنَ طرازها تشجير
 أنماطيه نورٌ به ممطور
 سيَّان فيه خورنقٌ وسدير
 يرتدُّ وهو بحسنه محسور
 حركاتُ سجدٍ صافحته دبور
 ملكَ النفوسِ بحسناها تصوير
 يسري إلى الأرواح منه سرور
 وأساود يُسلي لهن صغير
 وأظللها فللك يضيء منير
 تطفوا عليها اللؤلؤ المنشور
 باهى نجومَ الأفقِ وهي تنور
 حيثُ التفت كواكبٌ وبدور
 فخرُ الورى وإمامها المنصور
 وأقلَّه فوقَ السَّماءِ سرير
 رُميت بحفَلها اللُّهَامُ الكور
 جيشٌ على جسرِ الفراتِ عبور
 حقنَ الدماءِ وعَفَّ وهو قدِير
 سيفُ العُلا ، لكنَّه مطرور
 ولحيشه يومَ النزالِ ثبير
 طوقٌ على جيدِ العُلا مزرور
 يغدو عليه بها المسا وبكور

١ ق والروضة : يطفو .

٢ الروضة : لرعيها .

ما دامَ منزلُ سعدِه يرقى به^١ نصرٌ يرفُّ لواءُه المنشور
ومشتاً به مرحاً جِيادُ مسرَّةٍ وأدار كاسَ الأَنس فيه سَمير

وقوله ممّا كتب بداخل القُبَّة المذكورة^٢ :

جَمالُ بدائي سحرَ العيونا	ورونقُ منظري بهرَ الجفونا
وقد حسنت نقوشي واستطارت	سنّاً يُعشي عيونَ الناظرينا
وأطلع سَمكي الأعلى نجوماً	ثواقبَ لا تغورُ الدهرَ حيناً
وجوي من دخانِ النَّدّ ألقى	على أرضي الغياهبَ والدُّجونا
علوتُ دوائرَ الأفلاكِ سبعاً	لذاك الدهرَ ما ألفتُ سكونا
فصغتُ من الأهلَّةِ والحنايا	أساورَ والحلاخلَ والبُرينا
تكنّفي حياضُ مائحاتُ	أمامي والشمالَ أو اليمينَا
يُقَيِّدُ حسنُها الطرفَ انفساحاً	ويجري الفلكُ فيها والسفينا
تدافعَ نهرُها نحوي فلمّا	تلاقى البحرُ في جري دفينَا
ترى شهبَ السماءِ بهنَّ غرقى	فتحسبها بها الدُّرَّ المصونا
وقد نشرَ الحبابُ على سماها	لآلئَ تزدري العقدَ الثمينا
فخرتُ وحقّ لي لمّا اجتبانِي	لمجلسه أميرُ المؤمنينَا
هو المنصورُ حائزُ خصلِ سَبَقِ	وباني المجدِ بنياناً مكينا
وليثُ وغى إذا زأر امتعاضاً	يروعُ زثيره هنداً وصينا
إذا أمتَ كتابُه الأعادي	بعثَ برعبيهِ جيشاً كمينَا

١ الروضة : يرتاده .

٢ ق : وجرت .

٣ روضة الآس : ١٣٥ .

٤ ص : جنحها . ٥ ص : ويكري .

٦ ق : نثر .

يديرُ عليهمُ من كلِّ حربٍ
إمامٌ بالمغربِ لاحَ شمساً
بقيتَ بذي القصورِ الغُرِّ بدرأ
تحفَ بكم عواكفُ عند بابي
لك البشرى أميرَ المؤمنينِ ادُ
تدقُّهم رحي أو منجنونا
بها الشرقُ اكتسى نوراً مبينا
تلوحُ بأفقهن مدى السنينَا
ملائكة كرام كاتبوننا
خلوها بسلام^١ آميننا

وقوله في بعض المباني المنصورية^٢ :

معاني الحسنِ تظهرُ في المغاني
مِشابه في صفاتِ الحسنِ أضحتْ
بكلِّ عمودٍ صبحٍ من لحنٍ
مفصَّلة القُدودِ مثلثاتِ
تردَّتْ سابريَّ الحسنِ يزري
وتعطو الخيزرانةً من دُماها
لمجدك تنتمي لكنْ نماها
يدينُ لك ابنُ ذي يَزَنٍ ويعنو
غدت حَرَمًا ولكن حلَّ فيها
مبانٍ^٣ بالخلافةِ أهلاتِ
هي الدنيا وساكنها إمامُ
قصورٍ ما لها في الأرضِ شبه^٤
ظهورَ السحرِ في حدَقِ الحسانِ
تمتُّ بها المغاني للغواني
تكوِّنَ في استقامةٍ خُوطِ بان
مواصلةِ العناقِ من التداني
بحسنِ السابريِّ الحسرواني
بسالفَةِ القطيعِ البرهماني
إلى صنعاء ما صنع اليدانِ
لها غُمدانُ في أرضِ اليمانِ
لوفدكم الأمانُ مع الأمانِ
بها يتلو الهدى السَّبْعَ المثاني
لأهل الأرضِ من قاصٍ وداني
وما في المجدِ للمنصورِ ثاني

وقوله رحمه الله تعالى مما كتب في المصرية^٤ المطة على الرياض المرتفعة

١ الروضة : مع سلام .

٢ روضة الآس : ١٣٣ .

٣ ق : منازل .

٤ المصرية : منزل يبنى شبه عليّة .

على القبة الخضراء من بديع^١ المنصور ، وكان إنشاؤها في جمادى الأولى من عام خمسة وتسعين وتسعمائة^٢ :

باكر لديّ من السرور كؤوسا	وارضِ النديمَ أهلةً وشموسا
واعرجْ على ^٣ غُرْفِي المنيفِ سماؤها	تلقَ الفراقِدَ في حمايَ جلوسا
وإذا طلعتْ بأوجِها قمرَ العلّا	لا ترتضي غيرَ النجومِ جليسا
شرقَ القصورُ بريقها لما اجتلتْ	منّي على بسطِ الرياضِ عروسا
واعتضتْ بالمنصورِ أحمدَ ضيغماً	ورداً تحيّرَ من بديعي خيسا
ملكٌ أرى كلَّ الملوكِ ممالكاً	لِعُلاه والدُّنيا عليه حبّيسا
دامت وفودُ السعدِ وهي عواكفٌ	تصلُ المقيّلَ لديّ والتعريسا
وهناك يا شرفَ الخلافةِ دولةٌ	تلقى برايتها طلائعَ عيسى

وقوله من جملة قصيدة من نمط ما تقدم لم أستحضر أولها^٤ :

سلبت تماثيلها الحجى لما اغتدت	تزهو بحسنِ طرازها تذهيبا
ولقد تشامخَ في العلو سماكها	فجرى على الفلكِ المنيرِ جنّيبا
وسما إلى الشهبِ الزواهرِ فاغتندى الـ	إكليلٌ منها تاجها المعصوبا
هذا البديعُ يعزّ شبه بدائعِ	أبدعتهن بهِ فجاء غريباً
أضنى الغزالةَ حسنه حسداً لذا	أبدى عليها للأصيلِ شحوبا
وانقضّت الزهُرُ المنيرةُ إذ رأتْ	زهرَ الرياضِ بهِ ينور عجبيا
شيدتهن مصانعا وصنائعا	أنجزن وعدك للعُلا المرقوبا

-
- ١ البديع : أحد المنشآت الثلاث التي بناها المنصور ، والاثنان الآخران هما : المسرة والمشتهى .
٢ روضة الآس : ١٣٤ .
٣ الروضة : إلى .
٤ هذا ما قاله أيضاً في الروضة : ١٣٥ وزاد هناك : « ولعلي أجد أولها إن شاء الله فألحقه بها » وانظر القصيدة في مناهل الصفا ٢ : ٢٨١ .

وجريت في كلّ الفخار لغاية
 فأنعم بملكك فيه دام مؤبداً
 وإليكها عذراء فكرٍ أهديت
 ونظمت من درر البلاغة عقدها
 ورفعتها لمقامكم تمشي على اس
 فأتت على شرف لكم فتوقفت
 شفعت إليك بحب جدك أحمد
 دامت بك الدنيا يروق جمالها
 وكلاكُم اللهُ العظيمُ كلاءةً
 أدركتها أو ما مست لغوبا
 تجني به فنّ النعيم رطيبا
 وجعلت مدحك مَهْرَها الموهوبا
 فغدا يروق بجيدها ترتيبا
 تحيا فيزعجها الولا ترغيبا
 لما رأت ذاك الجلال مهيبا
 لتُنيّلها منك الرضى المرغوبا
 وإلى القيامة أمركم مرهوبا
 يرعى بها خلفاً لكم وعقبا

[رسالة من الفشتالي إلى المؤلف]

ومحامن صاحبنا المذكور في النظم والنثر يضيق عنها هذا التأليف ، وكنت
 أثبت منها جملة في غير هذا الموضع .
 ولما أحس بعزمي على الرحلة إلى الحجاز ، واقتضائي من سلطان المغرب في
 وعده لي بها النجاز ، كتب إليّ من حضرة مراکش وأنا حينئذٍ بفاس ، ما
 صورته بعد سطر الافتتاح :

يا نَسْمَةَ عَطَسَتْ بِهَا أَنْفُ الصَّبَا
 هبِّي على ساحات أحمد واشرحي
 وصفي له بالمنحني من أضلعي
 بان الأُحبة عنه ، حيّ قد تَوَى
 فعساك تُسَعِّدُ يا زمانُ بقربهم
 فتضخخت بعيرها قُننُ الرُّبَى
 شوقي إلى لقياء شرحاً مُطَنِّبَا
 قلباً على جمر الغضا متقلِّبَا
 منهم ، وآخرُ قد نأى وتغيّبا
 فأقول أهلاً باللقاء ومرحبا

« السيادة التي سواها الله من طينة الشرف والحسب ، وغرس دَوْحَتِها الطيبة
 بمعدن العلم الزاكي المحتد والنسب ، سيادة العالم الذي تمشي تحت علم فتياه

العلماء الأعلام ، وتخضع لفصاحته وبلاغته صيافة النثر والنظام ، وحملة الأقلام ، كلما خطاً أو كتب ، وإذا استطار بفكره الوقاد سواجع السجع انثالت عليه من كل أوكارها ونسلت من كل حدب ، وحكت بانسجامها السيل والقطر في صيب ، الفقيه العالم العليم ، والمحصل الذي ساجلت العلماء لتدرك في مجال الإدراك شأوه فلم ، سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفتيا ، ومالك المملكة في المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثنيا ، أبو العباس سيدي أحمد بن محمد المقرئ أبقاه الله تعالى للعلم يفتض أبكاره ، ويحتجني من روضه اليانع ثماره ، سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتبه المحب الشاكر عن ودّ راسخ العِماد ، ثابت الأوتاد مزهر الأغوار والأنجاد ، ولا جديد إلا الشوق الذي تحنّ إلى لقاءكم ركائبه وترتاح ، وتحوّم على مورد الأنس بكم حوّم ذات الجناح على العذب القراح ، جمع الله تعالى الأرواح المؤتلفة على بساط السرور وأسرّة الهنا ، وأتاح للنفوس من حُسن محاضرتكم قطفَ المشتهى وهو غَضٌّ الجتنى .

» وقد اتصل بالمحب الودود الرقيم الذي راقّت من سواد النقش وبياض الطرس شيباته ، وأرانا معجز أحمد فبهرت آياته ، وخبا سقطُ الزند لما أشرقت من سماء فكركم آياته ، فأطربنا بتغريد طيور همزاته على أغصان ألفاته ، وعودنا بالسبع المثاني بنائاً أجادت نثر زهراته على صفحاته ، ثم مررنا بتضاعيفه بسوق الرقيق ، فرمّنا السلوك على منحاها فعُمّي علينا الطريق ، وقلنا : واهاً على سوق ابن نباتة وكساد رقيقها ، واستلاب البهجة عن نفيس دررها وأنيقها ، لا كسوق نفق فيها سوق الغزل ، وعلا كعب الرامح والأعزل ، وتضافر على سحر النفوس والألباب هاروت الجدد وماروت الهزل ، وقد ألقينا السلاح وجنحنا للسلم ، وتهيأنا للسباحة فوقفنا بساحل اليم ، وسلمنا لمن استوت به سفينة البلاغة على الجوديّ ، فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهاة والعي ، وقلنا : ما لنا وللإنشاء ، فهو فضل الله يؤتيه من يشاء .

» وعذراً أيها الشيخ عن البيت الذي عطست به أنفُ الصبا فقذفت به البديهة

من الفم ، وشرقت به صدْرُ قنّاة القلم ، كما شرقت صدر القنّاة من الدم .
« وأما ما تحمّل الرسول من كلام ، في صورة ملام ، لا بل مدام ، أترع
به من سلاف المحبّة كأسٌ وجام ، فلا وربك ما هي إلاّ نفحة نفحت ، لا سموم
لفحت ، هزّزنا بها جذع أدبكم كي يتساقط علينا رطباً جنيّاً ، ويهمني
ودّقه على الرّبع المحيل من أفكارنا وسُميّاً ووليّاً ، فجاد وأروى ، وأجاد
فيما روى ، وأحيا من القرائح ميتاً كان حديثاً يُروى ، وطرساً بين أنامل الأيام
يُنشر ويطوى ، أحيا الله تعالى قلوبنا بمعرفته ونواسم رحمته ، وعرج بأرواحنا عند
الممات إلى المحل الأخصّ بالمؤمن من حضرته . وأهدي السلام ، المزري بمسك
الختام ، إلى الفقيهِين الأُمّجدين ، الصّدرين الأنجدين ، الفذين التّوأمين ، الفاضلين
المجيدين ، فارسي البراعة واليراعة ، ورئيسي الجماعة في هذه الصّناعة ، رضيحي
لبان الأدب وواسطي عقده ، ومُجِليّ قِدْحِه المعلّى ومُورِبيّ زَنْدِه ،
المتعّين بشميم عرّاره ورَنْدِه ، الكارعين بالبحر الفياض من هزله وجِدّه ،
الآتين بالجنس والفصل من رسمه وجِدّه ، الكاتب البارِع أبي الحسن سيدي علي
ابن أحمد الشامي ، والكاتب البليغ أبي عبد الله سيدي محمد بن علي الوجدي ^١ ،
وأقرّر لهما الود المستحكم المعاهد ، الصافي المناهل العذب الموارد ، وأنّي قائم
بورد الثناء عليكم وعليهما لدى المقام العلي ، الإماميّ الناصري ، دام سلطانه ،
وتمهّد أوطاره وأوطانه .

« ونُنتهي إليكم أن الفقيه المحبّ الأستاذ سيدي محمد بن يوسف ^٢ طَلّقُ
اللسان بالشكر ، صادحٌ على أيلك الثناء عن تلكم السيادة بما واليتموه به من جزيل
الإحسان ، وقابلتموه به عند الورود والصدر من البشر والكرامة وجميل الامتنان ،
والسلام التام مُعاد عليكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبه وجب الكتّاب إليكم ،

١ ترجمة الوجدي في روضة الآس : ٧١ وانظر ص (لب) من المقدمة .

٢ راجع المجلد الثاني ص : ٤٧٠ .

والله سبحانه يرعاكم ، في يوم الخميس موفي عشرين من محرم الحرام فاتح
سبعة وعشرين وألف ، المحب الودود الشاكر عبد العزيز بن محمد الفشتالي لطف
الله تعالى به ، وخار له بمنه وكرمه « انتهى .

ومن أراد شيئاً من أخباره فعليه بكتابي الموسوم بـ « روضة الآس العاطر
الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراکش وفاس » وقد بلغتني وفاته رحمه
الله تعالى وأنا في مصر بعد عام ثلاثين وألف ، رحمه الله تعالى ؛ فلقد كان أوجد
عصره ، حتى إن سلطان المغرب كان يقول : إن الفشتالي نفتخر به على ملوك
الأرض ، ونباري به لسان الدين ابن الخطيب ، رحم الله تعالى الجميع .

[تعريف بأبي الحسن الشامي]

والشامي الذي أشار إليه هو من أعيان أهل فاس وذوي البيوت بها ، وجدّه
قدم من الشام على حضرة فاس ، فشهروا بنوه بالنسبة إلى الشام ، وقد بلغتني وفاته
أيضاً بعد الثلاثين بعد الألف ، وقد أجاب عن الأبيات البائية التي خاطبني بها
الوزير سيدي عبد العزيز الفشتالي المذكور رحم الله تعالى الجميع بقوله :

نَمَتْ نَوَافِحُ عَرَفِ أَنْفَاسِ الصَّبَا	فَنَمَى بِهَا رَوْضُ الْوَدَادِ وَأَخْصَبَا
نَثَرَتْ جَوَاهِرَ سَلَكِهَا فَتَوَجَّاهَا	فَخَصَنُ النُّصَيْرِ بِدَرِّهَا وَتَعْصَبَا
وَرَمَتْ مُحَاجِرَ مَنْحَى ذَاكَ الْحَمَى	فَغَدَا بِهَا خَيْفُ الْقُلُوبِ مُحَصَّبَا
وَرَوَتْ أَحَادِيثَ الْغَرَامِ صَحِيحَةً	فَشَفَتْ فَوَادَاً مِنْ بَعَادِكَ مَوْصَبَا
لَا غَرَوَ أَنْ طَارَتْ حُشَّاشَةُ لَبِّهِ	طَرِبَاً فَمَا خَلَوُ الْغَرَامِ كَمَنْ صَبَا
لَا زَلَمُ وَالزَّهْرُ يَنْشَقُّ عَرَفَكُمْ	وَالزَّهْرُ تَحْسَدُ مِنْ كَمَالِكَ مَنْصَبَا

ولنُمْسِكَ عِنانَ البنان ، ونرجع إلى ما كنا بصددده من شأن لسان الدين
ابن الخطيب المريع منه بمزُن البلاغة والفصاحة جنان الجنان ، فنقول والله سبحانه
ولي التوفيق والإمداد ، وليس إلاّ عليه الاعتماد :

[١٦ - بين ابن الحباب ولسان الدين]

وقال ابن الصباغ العقيلي^١ : كان أبو الحسن ابن الحباب رئيس كتاب الأندلس وهم رؤساء غيرهم ، واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب اختصاصاً تاماً ، وأورثه رتبة من بعده ، وعهد بها إليه ، مشيراً بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور عمره ، وتدرّب بذكائه حتى استحق أزمته فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور ، ونال التي لا فوقها من الحظوة ، وبعد الصيت وسعادة البخت ، اتفق له يوماً بعدما عزم النصراني على ورود البلد وضافت به الصلور ، فأنشد ابن الحباب بديهاً بمحضر الكتاب :

هذا العدو قد طفى وقد تعدى وبغى

وقال لابن الخطيب : أجزأ عبد الله ، فأنشده بديهاً :

وأظهر السلم وقد أسرّ حسناً في ارتغا
فبلغ الرحمن سي ف النصر فيه ما ابتغى
ورده ردّ ثمسو د والفصيل قد رغا
حتى يرى وليمة لكل مرهوب الشغا

فقال ابن الحباب : هكذا وإلا فلا ، وعجب الحاضرون من هذه البديهة ؛

انتهى .

[١٧ - قصيدتان للبلوي يخاطب بهما لسان الدين]

ومما خوطب به لسان الدين قول الفقيه أبي يحيى البلوي المري^٢ رحم الله

الجميع :

١ أزهار الرياض ١ : ١٩٢ .

٢ ص : المري .

عللوني ولَوْ بوعدٍ محالٍ
 واعلموا أنِّي أسيرُ هواكمُ
 فدموعي من بينكم في انسكابٍ
 يا أهيلَ الحمى كفاني غرامي
 مَنْ مُجيري من لحظِ ريمٍ ظلومٍ
 ناعسِ الطرفِ أسهرَ الحفنِ منِّي
 بابليَّ اللحاظِ أصمى فؤادي
 وكسا الجسمَ من هواه نحولاً
 ما ابتدى في الوصالِ يوماً بعطفٍ
 ليس لي منه في الهوى من مجيرٍ
 علم الدين عزه وسنانه
 هو غيثُ الندى ، وبحرُ العطايا
 إن وشى في الرقاع بالنقشِ قلنا
 أو دجا الخطبُ فهو فيه شهابٌ
 أو نبا الأمرُ فهو في الأمرِ عَضْبٌ
 لستَ تلقى مثاله في زمانٍ
 قد نأى بي حبي له عن ديارٍ
 لكن اشتقتُ أن أرى منه وجهاً
 وكما هيمتُ فيه ألثمُ كفاً
 ها كها ابن الخطيب عذراء جاءتُ
 وتوفي حقَّ الوزارةِ عمّن
 وصلوني ولَوْ بطيفِ خيالٍ
 لستُ أنفكُ دائماً عن عقالٍ
 وفؤادي من هجركم في اشتعالٍ
 لا تزيدوا حسبي بما قد جرى لي
 حللَ الهجر بعد طيب الوصالِ
 طالَ منه الجفا بطولِ الليالي
 ورماهُ من غُنجهِ بنبالٍ
 قصده في النوى بذاك انتحالي
 مذ روى في الغرامِ بابَ اشتغالي
 غيرُ تاجِ العلا وقطب الكمالِ
 ذروةُ المجد ، بدرُ أفقِ الجلالِ
 هو شمسُ الهدى ، فريدُ المعالي
 صفحةُ الطرسِ حُلَّيتُ باللآلي
 زانه الصبحُ في ظلامِ الضلالِ
 صادقُ العزمِ عند ضيقِ المسجالِ
 جلَّ في الدهرِ يا أخي عن مثالٍ
 لا لحدوى ولا لنيلِ نوالٍ
 نوره فاضحٌ لنورِ الهلالِ
 جاد لي بالنوالِ قبل السؤالِ
 تلثمُ الأرضَ قبل شيسعِ النعالِ
 هو ملكٌ لها على كلِّ حالٍ

ومن نظمه قوله يخاطبه مهنثاً في إعداره أولادهُ بعد نثر نصّه : يعتذر عن
 خدمة الإعدار ، ويصل المدح والثناء على بُعد الدار ، بتاريخ الوسط من شهر

شعبان عام تسعة وأربعين وسبعمائة :

لا عُدْرَ لي عن خدمة الإعذارِ
أو عاقبي عنه الزمانُ وصرفه
قد كنتُ أرغبُ أن أفوزَ بخدمتي
بادي المسرة بالصنيع وأهله
من شاء أن يلقي الزمانَ وأهله
فليأتِ حيَّ ابن الخطيب ملياً
كم ضمَّ من صيدٍ كرامٍ قدرهم
إن جئتَ ناديةً فنبُ عني وقلْ
يا من له الشرفُ القديم ومن له الـ
يهنيك ما قد نلتَ من أمل به
نجلاك قطبا كلَّ مجدٍ باذخِ
عبد الإله وصنوه قمر العلا
ناهيك من قمرين في أفقِ العلا
زاكي الأرومة مُعرقٌ في مجده
رَقَّتْ طبائعهُ وراق جماله
وحلتْ شمائلُ حسنه فكأنما
فإذا تكلم قلتَ طَلَّ ساقطُ
أوفتَ حبر المسك في قرطاسه
تبسمُ الأقلامُ بينَ بنانه
فتخالُ من تلك البنانِ كمائماً

ولئن نأى وَطَنِي وشطَّ مَزَارِي
تقضي الأمانِي عادة الأعصارِ
وأحطَّ رحلي عندَ بابِ الدارِ
متشمرأ فيه بفضلِ إزارِي
ويرى جلالاً شاع في الأقطارِ
فيفوزَ بالإعظام والإكبارِ
يسمو ويعلو في ذوي الأقدارِ
نلتَ المني بتلطُّفِ ووقارِ
حسبُ الصميمِ العِدُّ يومَ فخارِ
في الفرقدين النيرين لساري
أملانِ مَرَجُوانِ في الإعصارِ
فرعانِ من أصلِ زكا ونجارِ
ينميها نورٌ من الأنوارِ
جمُ الفضائلِ طيبُ الأخبارِ
فكأنما خُلِقا من الأزهارِ
خلعتُ عليه رقةَ الأسحارِ
أو وَقَعُ دُرٌّ من نحورِ جَوَارِي
فالروضُ غيبُ الواكفِ المدرارِ
فتريكَ نظم الدرِّ في الأسطارِ
ظَلَّتْ تفتَحُ ناضراً النُّوَارِ

تلقاهُ فيأضَ الندى متهللاً
 بحرُ البلاغة قُسُها وإيادُها
 إن ناظرَ العلماءَ فهوَ إمامُهم
 أربى على العلماءِ بالصيتِ الذي
 ما ضرّه أن لم يجيء متقدماً
 إن كان أخره الزمانُ لحكمة
 الشمسُ تُحجبُ وهي أعظمُ نيرٍ
 يا ابنَ الخطيبِ خطبتُها لعُلاكمُ
 جاءتك من خجل على قدم الحيا
 وأنت تؤدي بعضَ حقٍّ واجبٍ
 مدَّت يدَ التطفيلِ نحو عُلاكمُ
 فابذلْ لها في النقدِ صفحكِ إنها
 لا زلتَ في دعةٍ وعزٍّ دائمٍ
 يلقاك بالبشرى والاستبشار
 سحبانُها حبرٌ من الأحبار
 شرفُ المعارفِ ، واحدُ النظائر
 قد طارَ في الآفاقِ كلَّ مطار
 بالسبقِ يُعرفُ آخرُ المضمار
 ظهرتُ وما خفيت كضوءِ نهار
 وترى من الآفاقِ إثر دراري
 بكرأ ترفُّ لكم من الأفكار
 قد طيبت بثنائك المعطار
 عن نازحِ الأوطان والأوطار
 فتوشحت من حلتكم بنُصار
 تشكو من التقصير في الأشعار
 ومسرّةٍ تترى مع الأعمار

[ترجمة أبي يحيى البلوي]

قال لسان الدين في حق المذكور في « الإحاطة » : هو محمد بن محمد بن عبد
 الواحد بن محمد البلوي ، من أبناء النعم وذوي البيوتات ، كثير السكون والحياء ،
 آل به ذلك أخيراً إلى لوثة لم يستفق منها ، لطفَ الله به ، حسن الخط ، مطبوع
 الأدب ، سيال الطبع معينه ، وناب عن بعض القضاة ، وهو الآن رهين ما ذكر
 يتمنى أهله موته ، والله ولي المعافاة .

وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصّه : من أولي الاتصال ، بأولى الخلال
 البارة والحصال ، خطأ رائقاً ، ونظماً بمثله^١ لائقاً ، ودعابة يسترها تَجَهُّمٌ ،

وسكوناً في طيه إدراك وتفهم ، غني بالدراية والتقيد ، ومال في النظم إلى بعض التوليد ، وله أصالة نبتت في السرو عروقتها ، وتألفت في سماء المجادة بروقها ، وتصرف بين النيابة في الأحكام الشرعية ، وبين الشهادات العلمية المرعية ؛ انتهى . ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين علي هامش هذا المحل من « الإحاطة » ما صورته : رحمة الله عليه ما أعذب حلاوته ، وأعظم مروءته ، وأكرم أصالته ، وبنو البكوى ذوو حسب ، وأهل نعيم ، وتربية ملوكية ، حيّاهم الله وبيّاهم ! قال ذلك حبيهم وأخوهم علي بن الخطيب ؛ انتهى .

[١٨ - من ابن مرزوق إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى عند ذكر الخطيب الرئيس أبي عبد الله محمد ابن مرزوق التلمساني ما صورته : ولما قدمت على مدينة فاس في غرض الرسالة خاطبني بمنزل^١ الشاطبي على مرحلة منها بما نصّه :

يا قادماً وافى بكلّ نجاح	أبشّر بما تلقّاه من أفراح
هذي ذُرى ملك الملوك فلذّ بها	تلّ المنى وتفزّ بكلّ سماح
مغنى الإمام أبي عنان يَمَمَن	تظفّر ببحرٍ في العلا طفاح
من قاس جودَ أبي عنان في الندى	بسواه قاس البحر بالضّحاح
ملك يُفيضُ على العفاة نواله	قبل السّؤال وقبل بسطة راح
فلجود كعب وابن سعدى ^٢ في الندى	ذكر مَحاه عن نداه ماحي
ما إن سمعتُ ولا رأيتُ بمثله	من أريحي للندى مرتاح
بسط الأمان على الأنام فأصبحوا	قدّ الحفوا منه بظلّ جناح
وهَمَى على العافين سيّب نواله	حتى حكى سحّ الغمام الساحي

١ ص : بمنزلة .

٢ ابن سعدى : أوس بن حارثة الطائي .

فَنَوَالُهُ وَجَلَالُهُ وَفَعَالُهُ فَاقَتْ وَأَعَيْتَ أَلْسَنَ الْمُدَّاحِ
 وَبِهِ الدُّنَا أَضْحَتْ تَرُوقُ وَأَصْبَحَتْ كُلُّ الْمُنَى تَنْقَادُ بَعْدَ جَمَاحِ
 مَنْ كَانَ ذَا تَرَحٍّ فَرُؤِيَّةٌ وَجْهَهُ مِتْلَافَةٌ الْأَحْزَانِ وَالْأَتْرَاحِ
 فَانْهَضَ أَبَا عَبْدَ الْإِلَهِ تَفَزُّ بِمَا تَبْغِيهِ مِنْ أَمَلٍ وَنِيلٍ نَجَاحِ
 لَا زِلْتَ تَرْتَشِفُ الْأَمَانِي رَاحَةً مِنْ رَاحَةِ الْمَوْلَى بِكُلِّ صَبَاحِ

فالحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تُحصى ، حمداً يؤمُّ به جميعنا
 المقصد الأسنى فيبلغ الأمد الأقصى ، فطالما كان معظم سيدي للأسى في خبال ،
 وللأسف بين اشتغال بال ، واشتغال بلبال ، ولقد ومكم على هذا المقام المولوي
 في ارتقاب ، ولمواعيدكم بذلك في تحقق^١ وقوعه من غير شك ولا ارتياب ،
 فها أنت تجتلي من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرات صباحاً ، وتلتقى أحاديث
 مكارمه ومواهبه مُسَنِّدَةً صَاحَاحاً ، بحول الله تعالى ، ولسيدي الفضل في قبول
 مركوبه الواصل إليه بسرجه ولجامه ، فهو من بعض ما لدى المعظم من إحسان
 مولاه وإنعامه ، ولعمري لقد كان وافداً على سيدي في مستقره مع غيره ،
 فالحمد لله الذي يستر في إيصاله ، على أفضل أحواله .

[١٩ - جواب لسان الدين]

فراجعته بما نصَّه :

رَاحَتْ تَذَكَّرُنِي كَوْوَسَ الرَّاحِ وَالْقَرَبُ يُخَفِّضُ لِلْجَنُوحِ جَنَاحِي
 وَسَرَتْ تَدُلُّ عَلَى الْقَبُولِ كَأَنَّمَا دَلَّ النَّسِيمُ عَلَى انْبِلَاجِ صَبَاحِ
 حَسَنَاءُ قَدْ غَنِيَتْ بِحَسَنِ صِفَاتِهَا عَنْ دُمْلُجٍ وَقِلَادَةٍ وَوَشَاحِ
 أَمَسَتْ تَحْضُ عَلَى اللَّيَازِ بِمَنْ جَرَتْ بِسَعُودِهِ الْأَقْلَامُ فِي الْأَلْوَاكِ

١ ص : ولمواعيدكم . . . محقق .

بِخَلِيفَةِ اللَّهِ الْمُؤَيَّدِ فَارِسٍ
 مَا شَتَّ مِنْ شَيْمٍ وَمِنْ هَمٍّ غَدَتْ
 فَضَّلَ الْمُلُوكَ فَلَيْسَ يُدْرِكُ شَأُوهُ
 أَنْسَى بَنِي عَبَّاسِهِمْ بِلِوَانِهِ
 وَغَدَتْ مَغَانِي الْمَلِكِ لَمَّا حَلَّتْهَا
 وَحْيَاةٍ مِنْ أَهْدَاكَ تَحْفَةً قَادِمٍ
 مَا زِلْتُ أَجْعَلُ ذِكْرَهُ وَثَنَاءً
 وَلَقَدْ تَمَازَجَ حُبُّهُ بِجَوَارِحِي
 وَلَوْ أَنِّي أَبْصَرْتُ يَوْمًا فِي يَدِي
 فَالآنَ سَاعِدَنِي الزَّمَانُ وَأَيَّقَنْتُ
 إِلَيْهِ أَبَا عَبْدٍ الْإِلَهِ ، وَإِنَّهُ
 أَمَا إِذَا اسْتَجَدْتَنِي مِنْ بَعْدِ مَا
 فَالِيكُهَا مَهْزُولَةٌ وَأَنَا أَمْرٌ

شَمْسِ الْمَعَالِي الْأَزْهَرِ الْوَضَّاحِ
 كَالزُّهْرِ أَوْ كَالزُّهْرِ فِي الْأَدْوَاكِ
 أَنْتَ يَقَاسُ الْغَمْرُ بِالضَّحْضَاحِ
 مَنْصُورٌ ، أَوْ بِحُسَامِهِ السَّفَاحِ
 تَزْهَى بِبَدْرِ هَدًى وَبِحَرْ سَمَاحِ
 فِي الْعَرْفِ مِنْهَا رَاحَةُ الْأَرْوَاحِ
 رُوحِي وَرِيحَانِي الْأَرِيحَ وَرَاحِي
 كَتَمَازَجِ الْأَجْسَامِ بِالْأَرْوَاحِ
 أَمْرِي لَطَرْتُ إِلَيْهِ دُونَ جَنَاحِ
 مِنْ قُرْبِهِ نَفْسِي بِفُوزٍ قَدَاحِي
 لَنَدَاءٍ وَدٍّ فِي عِلَاكَ صُرَاحِ
 رَكِدْتُ لَمَّا جَنَّتِ الْخُطُوبُ رِيَاحِي
 قَرَرْتُ عَجْزِي وَاطَّرَحْتُ سِلَاحِي

« سَيِّدِي أَبْقَاكَ اللَّهُ لِعَهْدٍ تَحْفَظُهُ ، وَوَلِيَّ بَعِينِ الْوَفَاءِ تَلَحُّظُهُ ، وَصَلْتَنِي
 رَقْعَتِكَ الَّتِي أَبْدَعْتَ ، وَبِالْحَقِّ مِنْ مَوْلَى الْخَلِيقَةِ صَدَعْتَ ، وَأَلْفَتَنِي وَقَدْ سَطَّتْ
 بِي الْأَوْجَالُ ، حَتَّى كَادَتْ تَتْلَفُ الرِّحَالُ ، وَالْحَاجَةُ إِلَى الْغِذَاءِ قَدْ شَمَرَتْ كَشَحِ
 الْبَطْنِ ، وَثَانِيَةِ الْعَجْمَاوِينَ قَدْ تَوَقَّعَ فَوَاتَ وَقْتُهَا وَإِنْ كَانَتْ صَلَاتُهَا صَلَاةَ الطِّينِ ،
 وَالْفِكْرُ قَدْ غَاضَ مَعِينُهُ ، وَضَعْفٌ وَعَلَى اللَّهِ جِزَاءُ الْمَوْلَى الَّذِي يُعِينُهُ ، فَغَزَتْنِي
 بِكُتَيْبَةِ بَيَانَ أَسَدُهَا هَضُورٌ ، وَعَلَمُهَا مَنْصُورٌ ، وَالْفَاطِظُهَا لَيْسَ فِيهَا قُصُورٌ ،
 وَمَعَانِيهَا عَلَيْهَا الْحَسَنُ مَقْصُورٌ ، وَاعْتِرَافٌ مِثْلِي بِالْعَجْزِ فِي الْمَضَاقِ حَوْلَ مُنَّةٍ ،
 وَقَوْلُ « لَا أَدْرِي » لِلْعَالَمِ فَكَيْفَ لغيره جُنَّةٌ ، لَكِنَّا بَشَرْتَنِي بِمَا يَقِلُّ لِمُؤَدِيهِ
 بِذُلِّ النُّفُوسِ وَإِنْ جَلَّتْ ، وَأُطْلَعْتَنِي مِنَ السَّرَاءِ عَلَى وَجْهِ تَحْسُدِهِ الشَّمْسِ
 إِذَا تَجَلَّتْ ، بِمَا أَعْلَمْتَنِي بِهِ مِنْ جَمِيلِ اعْتِقَادِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللَّهُ فِي

عبده ، وصدق المَخيلة في كرم مجده ، وهذا هو الجود المتحضر ، والفضل الذي شكره هو الفرض ، وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات مَنْ يبدأ بالنوال ، من قبل الضراعة والسؤال ، من غير اعتبار للأسباب ولا مجازاة للأعمال ، نسأل الله تعالى أن يبقى منها على الإسلام أوفى الظلال ، ويبلغها من فضله أقصى الآمال ، ووصل ما بعثه سيدي صحبتها من الهدية ، والتحفة الودية ، وقبلتها امثالاً ، واستجلبت^١ منها عتقاً وجمالاً ، وسيدي في الوقت أنسب لاتخاذ ذلك الجنس ، وأقدر على الاستكثار من إناث البهيم والإنس ، وأنا ضعيف القدرة ، غير مستطيع على ذلك إلا في النادرة ، فلو راء سيدي ورأيه سداد ، وقصده فضل ووداد ، أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة ، مع وجود الحقوق المترتبة ، لبسط خاطري وجمعه ، وعمل في رفع المؤونة على شاكلة حالي معه ، وقد استصحبت مركوباً يشق عليّ هجره ، ويناسب مقامي شكله ونجره ، وسيدي في الإسعاف على الله أجره ، وهذا أمر عرض ، وفرض فرض ، وعلى نظره المعول ، واعتماد إغضائه هو المعقول الأول ، والسلام على سيدي من معظم قدره ، وملتزم برّه ، ابن الخطيب ، في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي قعدة خمس وخمسين وسبعمائة ، والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان ، وظنّ أنه الطوفان ، واللحاق في غدها بالباب المولوي مؤمل بحول الله « انتهى .

[٢٠ - من البرجي إلى لسان الدين]

وكتب القاضي أبو القاسم البرّجي^٢ لسان الدين في غرض الشفاعة لبعض قرابته قوله^٣ :

١ ص ق : واستجلبت .

٢ ترجمة البرجي في الإحاطة ٢ : ٢١٥ والكتيبة : ٢٥٠ ونيل الابتهاج : ١٧٢ .

٣ الكتيبة : ٢٥١ .

أيا سابقاً في مجال البراعة وفارس مَيِّدان أهل البراعة
ومن بذره في سماء المعالي يزين بوصف الكمال ارتفاعه
بما لك في الفضل من حجة ومن إمرة في ذويه مطاعه
قضاءك في معسر حل دين عليه فإرجاؤه قد أضاعه
وقد كان ينبغي لديكم شفيعاً توسط عندكم في شفاعه
على أنه في اقتضاء الوداد يوفى موازينه أو صواعه
وما هو في سوق تقيظكم ونشر حلاككم بمنزجتي البضاعة

« كتبت يا سيدي - أدام الله تعالى علاكم ، وحرس مجدكم الطاهر وسناكم -
وأنا بين خجل مفحم ، وعجل مقحم ، أتذكر تسويقي بلقائكم ، حين
سمح الدهر باقترابكم ، فأحجم وأفكر في أن إحجامي عند ذلك بإرجائي ،
عسى أن يكون وفق رجائي ، أفاتني المقصود فأرى الحزم في أن أقدم ، وموقفها
بين يديكم فلان ، يطالبني مطالبة الغريم ، وأروم مطاله فلا يبرح ولا يريم ،
والانقياد في زمام طاعته مما توجه المروءة بعدما أوجه الشارع إذ جعل له حظاً
في الأبوة ، وقد أعلقت من ذمام علائكم بالحبل المتين ، وأنزلته من حماكم
بربوة ذات قرار ومعين ، فإن أعزتموه من لحظكم الحميل طرّف اهتبال ،
وأقبلتموه من اعتنائكم الحزيل وجه إقبال ، فقد عاد دهره بعد النفار مؤاتياً ،
ونزل على أهل المهلب شاتياً ، ومجدكم كفيل بتبليغ أمله ، وتوسيع جذله ،
وذلكم يد على معظمكم شكرها ، وعلى الله أجرها » انتهى .

[ترجمة أبي القاسم البرجي]

والبرجي المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم ،
الغساني البرجي ، يكنى أبا القاسم ، من أهل غرناطة ، قال في « الإحاطة » :
هو فاضل مجتمّع على فضله ، صالح الأبوة ، طاهر النشأة ، بادي الصيانة والعفة ،

طرف في الخير والحشمة ، صدر في الأدب ، جم المشاركة ، ثاقب الفهم ، جميل العشرة ، ممتع المجالسة ، حسن الشعر والخط والكتابة ، فذ في الانطباع ، صنّاع اليد^١ ، محكم لعمل الكثير من الآلات العلمية ، ويجيد تفسير الكتب ، رَحَلَ إلى العُدْوَة ولقي جلة ، وتوسَّل إلى ملكها مجدِّدِ الرسم ومعتام أولي الشهرة وعامر دست الشعر والكتابة ، أمير المسلمين أبي عنان ، فاشتمل عليه ، ونوّه به وملاً بالخير يده ، فاقتنى جِدَّة وحُظْوَة ، وذكرأ وشهرة ، وانقبض مع استرسال الملك لفضل عقله ، حتى تشكى إلى سلطانهِ بَثَّ ذلك عند قدومي عليه ، وآثر الراحة ، وجهد في التماس الرحلة الحجازية ، ونبذ الكل ، وقصر الخطوة^٢ ، وسلا الخطوة ، فأسعفه سلطانه بغيرَضه ، وجعل حَبْلَ هَمِّهِ^٣ على غاربه ، وأصبحه إلى النبي الكريم صلوات الله عليه رسالةً من إنشائه وقصيدة من نظمه ، وكلاهما يعلن في الخلفاء ببعث شأوه ، ورسوخ قَدَمِ علمه ، وعِراقة البلاغة في نسب خصله ، ولما هلك وولي ابنه [قدمه] قاضياً بمدينة^٤ ملكه وضاعف له التنويه ، فأجرى الخطة على سبيل من السداد والنزاهة ، ثم لما ولي السلطان أبو سالم عمّه أجراه على الرسم المذكور ، واستجلى المشكلات بصدقه ، وهو الآن بحاله الموصوفة مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدد مفاخره .

شعره - ثبت في كتاب «نفاضة الجراب» من تأليفنا عند ذكر المدعى الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر مَنْ أنشد ليلتئذٍ من الشعراء ما نصّه : وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي جملة السذاجة^٥ وكرم الخلق وطيب النفس وخدن العافية وابن الصلاح والعبادة ونشأة القرآن

١ الإحاطة : اليدين .

٢ ص : الخطو .

٣ ق والإحاطة : نعمه .

٤ قدمه . . . بمدينة : سقطتا من ق ، ولفظة « قدمه » سقطت من ص .

٥ ص : السذاجة .

المتحيز إلى حزب السلامة المنقبض عن الغمار العزوف عن فضول القول والعمل
جامع المحاسن الأشتات^١ من عقل رصين وطلب ممتع وأدب نقاوة ويد صنّاع أبو
القاسم ابن أبي زكريا البرّجي ، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة
الفريدة^٢ :

أَصْغَى إِلَى الْوَجْدِ لَمَّا جَدَّ عَاتِبُهُ صَبَّ لَهُ شُغْلٌ عَمَّنْ يِعَاتِبُهُ
لَمْ يَعْطِ لِلصَّبْرِ مِنْ بَعْدِ الْفِرَاقِ يَدَا فَضْلٌ مَنْ ظَلَّ إِرْشَادًا يَخَاطِبُهُ
لَوْلَا النَّوَى لَمْ يَبْتَ حَرَّانَ مَكْتَبًا يَغَالِبُ الْوَجْدَ كَتَمًا وَهُوَ غَالِبُهُ
يَسْتَوْدِعُ اللَّيْلَ أَسْرَارَ الْغَرَامِ وَمَا تَمْلِيهِ أَشْجَانُهُ فَالْدَمْعُ كَاتِبُهُ
لِلَّهِ عَصْرٌ بَشْرُقِي الْحَمَى سَمَحَتْ بِالْوَصْلِ أَوْقَاتُهُ لَوْ عَادَ ذَاهِبُهُ
يَا جِيرَةً أَوْدَعُوا إِذْ وَدَّعُوا حُرْقًا يَصْلِي بِهَا مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ ذَائِبُهُ
يَا هَلْ تُرَى تَجْمَعُ^٣ الْأَيَّامُ أَلْفَتَنَا كَعَهْدِنَا أَوْ يَرُدُّ الْقَلْبَ سَالِبُهُ
وَيَا أَهْيَلْ وَدَادِي ، وَالنَّوَى قَذَفُ وَالْقُرْبُ قَدْ أَهْمَتْ دُونِي مَذَاهِبُهُ
هَلْ نَاقِضُ الْعَهْدِ بَعْدَ الْبَعْدِ حَافِظُهُ وَصَادِعُ الشَّمْلِ يَوْمَ الشَّعْبِ شَاعِبُهُ
وَيَا رَبُّوعَ الْحَمَى لَا زِلْتَ نَاعِمَةً يَبْكِي عَهْدَكَ مُضْنَى الْجِسْمِ شَاحِبُهُ
يَا مَنْ لِقَلْبٍ مَعَ الْأَهْوَاءِ مُنْعَطِفِ فِي كُلِّ أَوْبٍ لَهُ شَوْقٌ يَجَازِبُهُ
يَسْمُو إِلَى طَلَبِ الْبَاقِي بَهْمَتِهِ وَالنَّفْسُ بِالْمَيْلِ لِلْفَانِي تُطَالِبُهُ
وَفْتَنَةُ الْمَرْءِ بِالْمَأْلُوفِ مَعْصِلَةٌ وَالْأَنْسُ بِالْإِلْفِ نَحْوَ الْإِلْفِ جَازِبُهُ
أَبْكِي لِعَهْدِ الصَّبَا وَالشَّيْبُ يَضْحَكُ بِي يَا لِلرَّجَالِ سَبَبَتْ جَدِّي مَلَاعِبُهُ
وَلَنْ تَرَى كَالْهَوَى ، أَشْجَاهُ سَالِفُهُ وَلَا كَوَعْدِ الْمُنَى ، أَحْلَاهُ كَاذِبُهُ
وَهَمَّةُ الْمَرْءِ تُغْلِيهِ وَتُرْخِصُهُ مَنْ عَزَّ نَفْسًا لَقَدْ عَزَّتْ مَطَالِبُهُ

١ الأشتات : ثبتت في ق ص وسقطت من الإحاطة .

٢ القصيدة في الإحاطة وبعضها في الكتيبة .

٣ الكتيبة : ترجع .

ما هانَ كسبُ المعالي أو تناولها
 لولا سُرَى الفلكِ السامي لما ظهرت
 في ذمّة الله ركبٌ للعلا ركبوا
 يرمون عرضَ الفلا بالسير عن عرضٍ
 كأنّهم في فؤادِ الليلِ سرٌّ هوى
 شدّوا على لُهبِ الرمضاء وطأهم
 وكلفوا الليل من طولِ السرى شططاً
 حتّى إذا أبصروا الأعلامَ مائلةً
 بحيثُ يأمنُ مَنْ مولاهُ خائفهُ
 فيها وفي طيبة الغراء لي أملٌ
 إن أنسَ ٢ لا أنسَ أياماً بظلهما
 شوقي إليها وإن شطّ المزارُ بها
 إن ردّها الدهر يوماً بعدما عبثت
 معاهدٌ شرفتُ بالمُصطفى فلّها
 محمّدُ المُجتبى الهادي الشفيعُ إلى
 أوفى الورى ذمماً ، أسماهمُ همماً
 هو المُكملُ في خلقٍ وفي خلقٍ
 عنايةٌ قبلَ بدءِ الخلقِ سابقةٌ
 جاءتْ تُبشّرنا الرّسلُ الكرامُ به
 أخباره سرٌّ علمِ الأولين وسلٌ
 تطابقَ الكونُ في البُشرى بمولده

بل هانَ في ذاكَ ما يلقاهُ طالِبهُ
 آثارهُ ولما لاحَت كواكبهُ
 ظهرَ السرى فأجابتهم نجائبهُ
 طيّ السجلِ إذا ما جدّ كاتبهُ
 لولا الضّرامُ لما خفّت جوانبه
 فغاص في لُجّة الظلماء راسبه
 فخلّفوه وقد شابَت ذوائبهُ
 بجانبِ الحرمِ المحميّ جانبهُ
 من ذنبهِ وينالُ القصدَ راغبهُ
 يُصاحبُ القلبَ منه ما يُصاحبه
 سقى ثراهُ عَميمُ الغيثِ ساكبهُ
 شوقُ المقيمِ وقد سارت حبايبهُ
 في الشّملِ منّا يداهُ لا نُعاتبهُ
 من فضله شرفٌ تعلّو مراتبه ٣
 ربّ العباد أمينُ الوحي عاقبه
 أعلاهمُ كرمًا ، جلّت مناقبه
 زكّت حُلاهُ كما طابت مناسبه
 من أجلّها كان آتية وذاهبه
 كالصبحِ تبدّو تباشيراً كواكبهُ
 بديرِ تيّماء ما أبداه راهبه
 وطبقَ الأرضَ أعلاماً تجاوبه

١ سقط البيت من ص .

٢ ق ص : لا أنس ؛ الإحاطة : لم أنس .

٣ ص : مراقبه .

فالجنُّ تهتفُ إعلاناً هواتفهُ
 ولمْ تزل عصمةُ التأييد تكتفه
 سرى وجنحُ ظلامِ الليلِ منسدلٌ
 يَسْمُو لكلِّ سماءٍ منه منفردٌ
 لمتهى وقفَ الروحُ الأمينُ بهِ
 لقابِ قوسينِ أو أدنى فما علمتُ
 أراهُ أسرارَ ما قد كان أودعه
 وآبَ والبدرُ في بحرِ الدجى غرقٌ
 فأشرقَتْ بسناهُ الأرضُ واتبعتُ
 وأقبلَ الرشيدُ والتاحتْ زواهره
 وجاءَ بالذِّكرِ آياتٍ مَفَصَّلةٌ
 نورٌ منَ الحكمِ لا تخبو سواطعه
 لهُ مقامُ الرضى المحمودِ شاهدُهُ
 والرُّسلُ تحتَ لواءِ الحمدِ يقدمها
 لهُ الشِّفاعاتُ مقبولا وسائلُها
 والخوضُ يروي الصدى من عذبٍ مورده
 محامدُ المصطفى لا ينتهي أبداً
 فضلٌ تكفلَ بالدارينِ يوسعها
 حسبي التوسلُ منها بالذي سمحتُ
 حيَّاهُ من صلواتِ الله صوبُ حياً
 وخلدَ اللهُ ملكَ المستعينِ بهِ
 إمامٌ عدلٍ بتقوى الله مشتملٌ
 مسددُ الحكمِ ، ميمونٌ نقيته

والجنُّ تقذفُ إحراقاً ثوابهُ
 حتى انجلي الحقُّ وانزاحتْ شوائبهُ
 والنجمُ لا يهتدي في الأفقِ ساربه
 عنِ الأنامِ وجبرائيلُ صاحبه
 وامتاز قُرباً فلا خلُقٌ يقاربهُ
 نفسٌ بمقدارِ ما أولاهُ واهبه
 في الخلقِ والأمرُ باديه وغائبه
 والصُّبحُ لما يؤبُ للشرقِ آيبهُ
 سُبُلَ النِّجاةِ بما أبدتْ مذاهبه
 وأدبرَ الغيُّ فأنجابتْ غياهبه
 يَهْدِي بها من صراطِ الله لاجبه
 بحرٌ منَ العلمِ لا تفي عجائبهُ
 في موقفِ الحشرِ إذ نابت نوائبه
 محمدٌ أحمدُ السامي مراتبه
 إذا دهمي الأمرُ واشتدتْ مصاعبه
 لا يشتكي غلةَ الظمانِ شاربهُ
 تعدادُها ، هل يعدُّ القطرَ حاسبهُ ؟
 نَعْمى ورُحمى فلا فضلٌ يناسبهُ
 بهِ القوافي وجلَّتْها غرائبهُ
 تُحْدِي إلى قبره الزاكي نجائبهُ
 مؤيِّدُ الأمرِ منصوراً كتائبهُ
 في الأمرِ والنهي يرضيه يراقبه
 مظفرُ العزمِ ، صدقُ الرأيِ صائبهُ

مُسَمَّرٌ لِلتَّقَى أَذْيَالٌ مَجْتَهِدٌ
 قَدْ أَوْسَعَتْ أَمَلَ الرَّاجِي مَكَارِمُهُ
 وَغَازَ بِالْأَمَنِ مَجْبُوراً مُسَالِمَهُ
 كَمْ وَافِدٍ آمَلَ مَعَهُودَ نَائِلِهِ
 وَمُسْتَجِيرٍ بَعَزَ مِنْ مَثَابَتِهِ
 وَجَاءَهُ الدَّهْرُ يَسْتَرْضِيهِ مُعْتَذِراً
 لَوْلَا الْخَلِيفَةُ إِبْرَاهِيمُ لَانْبَهَمَتْ
 سَمَتْ لَنِيلِ تَرَاثِ الْمَجْدِ هَمَّتْ
 يَنْمِيهِ لِلْعَزِّ وَالْعَلْيَا أَبُو حَسَنِ
 مِنْ آلِ يَعْقُوبَ حَسْبَ الْمَلِكِ مُفْتَخِراً
 أَطْوَادُ حِلْمٍ رَسَا بِالْأَرْضِ مُحْتَدُهُ
 تَحْفَهَا مِنْ مَرَيْنِ أَبْحَرُ زَخَرَتْ
 بِكُلِّ نَجْمٍ لَدَى الْهَيْجَاءِ مُلْتَهَبِ
 أَكْفُهُمْ فِي دِيَاجِيهَا مَطَالَعُهُ
 يَا خَيْرَ مَنْ خَلَصَتْ لَهِ نَيْتُهُ
 جَرَدَتْ وَالْفِتْنَةُ الشَّعْوَاءُ مُلْبَسَةُ
 وَخَضَّتْهَا غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَكَلٍ
 صَبَرَتْ نَفْساً لِعَقْبِي الصَّبْرِ حَامِدَةُ
 فْلِيهِنَّ دِينَ الْهُدَى إِذْ كُنْتَ نَاصِرَهُ
 لَا زَالَ مَلِكِكَ وَالتَّأْيِيدُ يَخْدُمُهُ
 وَدَمَتْ فِي نِعَمٍ تَضْفُو مَلَابِسُهَا
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَا

جَرَّارُ أَذْيَالِ سُحْبِ الْجُودِ سَاحِبُهُ
 وَأَحْسَبَتْ رَغْبَةَ الْعَافِي رَغَائِبُهُ
 وَبَاءَ بِالْخَزْيِ مَقْهُوراً مُحَارِبُهُ
 أَثْنَى وَأَثْنَتْ بِمَا أُولَى حَقَائِبُهُ
 عَزَّتْ مَرَامِيهِ وَانْقَادَتْ مَآرِبُهُ
 مُسْتَغْفِراً مِنْ وَقُوعِ الذَّنْبِ تَائِبُهُ
 طُرُقُ الْمَعَالِي وَنَالَ الْمَلِكُ غَاصِبُهُ
 وَالْمَلِكُ مِيرَاثُ مَجْدٍ وَهُوَ غَاصِبُهُ
 سَمَحُ الْخَلَائِقِ مُحَمَّدٌ ضَرَائِبُهُ
 بِيَابِ عَزِّهِمْ السَّامِيُّ تَعَاقِبُهُ
 وَزَاحَمَتْ مِنْكَ الْجُوزَا مَنَاكِبُهُ
 أَمْوَاجُهَا وَغَمَامٌ ثَارَ صَائِبُهُ
 يَنْقُضُ وَسْطَ سَمَاءِ النَّقْعِ ثَاقِبُهُ
 وَفِي نَحُورِ أَعَادِيهِمْ مَغَارِبُهُ
 فِي الْمَلِكِ أَوْ خَطَبَ الْعَلِيَاءِ خَاطِبُهُ
 سَيْفًا مِنَ الْعِزِّ لَا تَنْبُو مُضَارِبُهُ
 وَقَلَمًا أَدْرَكَ الْمَطْلُوبَ هَائِبُهُ
 وَالصَّبْرُ مَذْكَانَ مُحَمَّدٍ عَوَاقِبُهُ
 أَمْنٌ يُوَالِيهِ أَوْ خَوْفٌ يَجَانِبُهُ
 تَقْضِي بِخَفْضِ مُنَاوِيهِ قَوَاضِيهِ
 فِي ظِلِّ عِزٍّ عَلَا تَضْفُو مَشَارِبُهُ
 سَارَتْ إِلَيْهِ بِمُشْتَاقٍ رَكَائِبُهُ

ومن شعره ما قيده لي بخطه صاحبُ قلم الإنشاء بالحضرة المرينية الفقيه الرئيس
الصدر المتفنن أبو زيد ابن خلدون^١ :

صحبا القلبُ عما تعلمين فأقلعا	وعطلّ من تلك المعاهد أربعا
وأصبح لا يُلّوي على حدّ منزلٍ	ولا يتّبع الطرفَ الخليّ المودعا
وأضحى من السلوان في حرزٍ معقلٍ	بعيدٍ عن الأيام أن يتضعضا
يردُّ الحفونَ النّجلَ عن شرفاته	وإن لحظتُ عن كل أجيدٍ أتّلعا
عزيزٌ على داعي الغرام انقياده	وكان إذ ناداه للوجدٍ أهطعا
أهابَ به للشيبِ أنصحُ واعظٍ	أصاخ له قلباً منيباً ومسمعا
وسافر في أفقِ التفكيرِ والحجى	زواهره لا تبرحُ الدهرَ طُلعا
لعمري لقد أنضيتُ عزمي تطلّبا	وقضيتُ عمري رِقبةً وتطلّعا
ونخضتُ عبابَ البحرِ أخضرَ مزبداً	ودستُ أديمَ الأرضِ أغبرَ أسفعا

وقال حسبما قيده المذكور^٢ :

نهاهُ النّهيَ بَعْدَ طولِ التّجاربِ	ولاحَ لهُ منهجُ الرّشدِ لاحبُ
وخطبَه دهرُهُ ناصحاً	بالسنةِ الوعظِ من كلِّ جانبُ
فأضحى إلى نُصحه واعياً	وألفى حديثَ الأمانِ الكواذبُ
وأصبح لا تستبيهُ الغواني	ولا تزدريه حظوظُ المناصبُ

ثم قال في « الإحاطة » : وإحسانه كثير في النثر والنظم والقصار والمطولات ،
واستعمل في السفارة إلى ملك مصر وملك قشتالة ، وهو الآن قاضي حضرة الملك

١ الإحاطة : ٢٢٠ .

٢ المصدر السابق : ٢٢١ والكتيبة : ٢٥١ وقد حولت في ق إلى و زن الطويل مثل « ولاح له نهج
من الرشد لاحب » أو « وخطبه دهر له كان ناصحاً » . . . إلخ .

نسيجُ وَحْدِهِ في السلامة والتخصص واجتناب فضول القول والعمل ، كان الله له ؛ انتهى .

وكتب ابن المصنف بهامش ترجمة المذكور من « الإحاطة » ما صورته :
سيدي وشيخي علامة المغرب اليوم ، وحائز رتبة العليّة من خطابة وقضاء وعلامة
وهو أحق بها ، لخلاله الحميدة ، أبقاه الله تعالى ، قاله محبه علي بن الخطيب ؛
انتهى .

وكتب على القصيدة الميلاية المتقدمة ما نصّه : رويتها عنه ، وسمعتها من
لفظه ، وأجازني إياها بتلمسان ؛ انتهى .

وكتب على حاشية قصيدته « صحا القلب - إلى آخره » ما صورته : سمعتها
من لفظ سيدي وشقيق روعي الإمام العلامة الرئاس أبي زيد ابن خلدون بالأندلس
أمتع الله به تعالى ؛ قال ذلك أخوه علي بن الخطيب ؛ انتهى .

[٢١ - مخاطبات ابن زمرك للسان الدين]

وقال في « الإحاطة » في ترجمة ابن زمرك ما صورته^١ : وشعره مترامٍ إلى
هَدَفِ الإِجَادَةِ ، خفاجي التزعة ، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة ،
غزير المادة ، فمن ذلك ما خاطبني به وهي من أول ما نظمه قصيدة مطلعها :

أَمَّا وَانصِدَاعِ النورِ من مطلعِ الفجرِ

يقول فيها بعد أبيات :

لكَ اللهُ من فَذِّ الجلالةِ أَوْحدَ	تطاوعه الآمالُ في النهي والأمرِ
لكَ القلمُ الأعلى الذي طالَ فخرُهُ	على المُرَهفاتِ البيضِ والأسلِ السُّمرِ
يقلّدُ أجيادَ الطروسِ تَمائمًا	بصِنْفِي لآلٍ من نظامٍ ومن نثرِ

١ الإحاطة ٢ : ١٨٤ وانظر القصيدة في الكتيبة : ٢٨٤ وأزهار الرياض ٢ : ١٦٤ .

تَهَيَّبَكَ الْقَرطاسُ فاحمرَّ إذ غدا
كأنَّ رياضَ الطَّرسِ خدٌّ مورَّدٌ
فشارةُ هذا الملكِ رائقةُ الحلَى
وما روضةٌ غنَّاءَ عاهدَها الحيا
تُغْنِي قِيانُ الطيرِ في جنباتها
تمدُّ لأكواسِ العَرارِ أناملًا
وبحرسٍ خدَّ الورْدِ صارمٍ نهرها
يفخرُ مرآها السماء محاسنًا
إذا مسحت كَفُّ الصَّبَا جفنَ نورها
بأعطرَ من رِيّا ثنائِكَ في السُّرى
عجبتُ لهُ يحكي خلالَ خميلةٍ
إذا أضرمتُ من بأسها الحربُ جاحمًا
وإن كَلَحَ الأبطالُ في حومةِ الوغى
لك الحسبُ الوضاحُ والسُّوددُ الذي
تَشَرَّفَ أفقُ أنتَ بدرُ كماله
تكلَّلَ تاجُ المُلْكِ منك محاسنًا
بعزْمَةِ مضمونِ السَّعادةِ أوحدٍ
طوى الحيفَ منشورَ اللواءِ مؤيدًا
ومدَّ ظلالَ الأمنِ إذ قصرَ العدا
إذا احتفلَ الإيوانُ يومَ مَشُورَةٍ
صدعتَ بفصلِ القولِ غيرَ منازعٍ
فإن تظفرَ الحَيْلُ المغيرةُ بالضحي
فلا زلتَ للعَلِياءِ تحمي ذمارها

يُقلُّ بحوراً من أناملِك العشر
يطرّزه وشيُّ العذارِ من الخبر
بالويةِ حُمُرٍ وبالصُّحُفِ الحمر
تَحُوكُ بها وشيَّ الربيعِ يدُ القَطَرِ
فيرقصُ غصنُ البانِ في حُللٍ خضر
من السوسنِ الغضِّ المختَمِ بالتبر
وَيُمنَعُ ثغرُ النورِ بالذابلِ النضر
وتزري نجومُ الزَّهرِ منها على الزَّهرِ
تنفَسُ ثغرُ الزهرِ عن عنبرِ الشَّحرِ
وأبهرَ حسناً من شَمائلك الغُرِّ
وتفرقُ منه الأسدُ في موقفِ الذعر
تأججَ منه العُصبُ في بلحّةِ البحر
ترقرقُ ماءُ البِشْرِ في صفحةِ البدر
يضيقُ نطاقُ الوصفِ فيه عن الحصر
فغرناطةٌ تختالُ تيهًا على مصر
وفاخرتِ الأملاكُ منك بنو نصر
وغرّةُ وضاحِ المكارمِ والنَّجَرِ
فعرَّ حِمى الإسلامِ بالطيِّ والنَّشرِ
فيُتلى سناء الملكِ بالمدِّ والقصر
وتضطربُ الآراءُ من كل ذي حِجَرِ
وأطلعت آراءَ قبسَنَ من الفجر
فعنَّ رأيك الميمونِ تظفرُ بالنصر
وتسحبُ أذيالَ الفخارِ على النسر

وللعلم فخر الدين والفتك بالعدا
 فيهنك عيدُ الفطر من أنت عيده
 جبرت مهيضاً من جناحي ورشته
 وبوأتني من ذروة العزّ معتلى
 وسوغني الآمالَ عذباً مسلسلاً
 فدهري عيدٌ بالسرور وبالمنى
 فأصبحت مغبوطاً على خيرِ نعمةٍ
 وبأوتَ به يا ابن الخطيب على الفخر
 ويشني بما أوليت من نعيمٍ غرّ
 وسهّلت لي من جانب الزمن الوعر
 وشرفّني من حيث أدري ولا أدري
 وأسميت من ذكرى ورفعت من قدرى
 وكلُّ ليالي العمر لي ليلة القدر
 يقلُّ لأدناها الكثير من الشكر
 وهي طويلة ؛ انتهى .

قلت : هذا الرئيس ابن زمرّك صرح هنا بأنّه بجاه لسان الدين ابن الخطيب
 أدرك من العز ما أدرك ، ثم انقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته وبها أشرك ،
 وحرك من دواعي قتله ما حرك ، وكم من صديق لك ضرّك ، وعقّك بعدما
 برّك ، وساءك إثر ما سرّك ، ولذا رأيت بخط ابن لسان الدين على هامش قوله
 في هذه القصيدة « ومد ظلال الأمن - إلخ » ما صورته : هذا مدحه لحاه الله ؛
 وعلى قوله « وبوأتني من ذروة العزّ - إلخ » ما مثاله : هكذا شهادتك لحقه ،
 ثمّ تحوّل عنه ، وكفر نعمته ، اغرب أخزأك الله ؛ انتهى .

وكتب بهامش أول ترجمته من « الإحاطة » ما نصّه : أتبعه الله خزيّاً ،
 وعامله بما يستحقّه ؛ فهذا ترجمه والذي مولاه الذي رفع من قدره فيه ، ولم
 يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شرّاً من أحسنّا إليه .

وكتب أيضاً تحت هذا ما مثاله : هذا الوغد ابن زمرّك من شياطين الكتاب
 ابن حداد بالبيازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضرباً فمات من ذلك ، وهو أخسُّ
 عباد الله تربية ، وأحقّهم صورة ، وأخملهم شكلاً ، استعمله أبي في الكتابة
 السلطانية ، فجئنا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شرّ ، وهو كان السبب في
 قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي ربّاه وأدّبه واستخدمه ، حسبما هو معروف ،

وكفانا الله شرًّا من أحسننا إليه وأساء إلينا ؛ انتهى .

وقد ألمنا بترجمته في هذا الكتاب في باب تلامذة لسان الدين فلتراجع هنالك .

ومما كتب به ابن زمرك المذكور إلى لسان الدين ابن الخطيب جواباً عن

رسالة قوله ^١ :

حيَّتْ صباحاً فأحيت ساكني القصبه ^٢	واسترجعت أنفساً بالشوقِ مُغتصبه ^٢
قضى البيانُ لها أن لا نظيرَ لها	فأحرزتُ من معاني خصله قصبه ^٢
ناجت طليحَ سرى لا يستفيقُ لها	هدَّت جوارحه واستوهنت عصبه ^٢
فحرَّكنه على فتك الكلالِ به	وأذهبتُ بسرورِ الملتقى نصبه ^٢
وأذكرت عهدَ مُهديها على شحط ^٢	فعاود القلب من تذكاره وصبه ^٢
ما كنتُ أسمعُ من دهرى بجوهره	لو كان يسمعُ لي بالقلبِ من غصبه ^٢
سل أدمع الصبِّ من أعدى السحابِ بها	وقلبه بجمارِ الشوقِ من حصبه ^٢
فالله يحفظُ مهديها ويشكره	فوجهها بعصابِ الحسنِ قد عصبه ^٢
من كان وارثَ آدابِ يشعشعها	بالفرضِ إنِّي في إرثي لها عصبه ^٢
هو الملاذُ ملاذُ الناسِ قاطبة ^٢	سبحان من لغياثِ الخلقِ قد نصبه ^٢

وخاطبه كذلك بقوله ^٢ :

يكلّفني مولاي رجّع جوابه	وما لتعاطي المعجزاتِ وما ليا
أجيبك للفضلِ الذي أنتَ أهله	وأكتبُ مما قد أفدتُ الأماليا
فأنتَ الذي طوقتني كلَّ منة ^٢	وأحسبتُ آمالي وأكسبتُ ماليا
وأنتَ الذي أعدى الزمانَ كماله	وصيرتَ أحرارَ الزمانِ مواليا
فلا زلتَ للفعلِ الجميلِ مواصلاً	ولا زلتُ للشكرِ الجزيلِ مواليا

١ الأزهار ٢ : ١٦٦ .

٢ الكتيبة : ٢٨٨ والأزهار ٢ : ١٦٧ .

وخاطبه كذلك بقوله ١ :

طالعتها دون الصُّباحِ صباحا
ولقد رأيتُ ، وما رأيتُ كحُسْنِها
عذراءَ أرضَها البَيانُ لِبَانهُ
فأتتْ كما شاءت و شاء نجيبها
لا بل كمثلِ الروضِ باكره الحيا
وطوت بساطَ الشوقِ مني بعدما

لما جلتُ غُررَ البَيانِ صباحا
وجهاً أغرَّ ومبسمًا وضاحا
وأطالَ مَغْدَى عندها ومراحا
تذكي الحجي وتُنعم الأرواحا
وسقى به زهرَ الكمام ففاحا
نشرتُ عليَّ من القبولِ جناحا

وخاطبه كذلك بقوله ٢ :

ذروني فإنني بالعلاء خبيرُ
وكم بتُّ أطوي الليلَ في طلبِ العلاءِ
بعزمٍ إذا ما الليلُ مدَّ رواقه
أخو كلفٍ بالمجدِ لا يستفزه
إذا ما طوى يوماً على السرِّ كشحه
وإنني وإن كنتُ الممنعَ جارهُ
وما تعتريني فترةٌ في مدى العلاءِ
وفي السَّربِ من نجدٍ تعلقْتُ ظبيةً
وتمنعُ ميسورَ الكلامِ أخا الهدى
أسكَّانَ نجدٍ جادها واكفُ الحيا
ويا سكني بالأجرعِ الفردِ من مِنى
ذكرتك فوقَ البحرِ والبعدِ بيننا

أسيرُ فإنَّ النـيَّراتِ تسيرُ
كأنني إلى نجمِ السماءِ سفيرُ
يكرُّ على ظلماته فينيرُ
مِهَادٌ إذا جنَّ الظلامُ وثيرُ
فليسَ لهُ حتى الممانِ نُشورُ
لتسبي فؤادي أعينُ وثُغورُ
إلى أن أرى لحظاً عليه فتورُ
تصولُ على ألبابنا وتغيرُ
وتبخلُ حتى بالخيالِ يزورُ
هواكم بقلبي مُنْجِدٌ ومُغِيرُ
وأيسرُ حظٍّ من رضاك كثيرُ
فمدَّتْهُ من فيضِ الدُّموعِ بحورُ

١ الأزهار ٢ : ١٦٧ .

٢ الأزهار ٢ : ١٦٧ .

وأومضَ خَفَّاقُ الذَّوَابَةِ بَارِقُ
ويَهْفُو فؤادي كلما هبَّتِ الصَّبَا
ووالله ما أدري أذكرك هزني
فمَنْ مُبْلَغٌ عني النوى ما يسوءها
بأنَّا غَدًّا أو بعده سوف نلتقي
إلى كم أرى أكني ووجدي مصرح
أمنجد آمالي ، ومغلي كاسدي
أنسى ، ولا أنسى ، مجالسك التي
نزورك في جنح الظلام ونشئي
على أنني إن غبتُ عنك فلم تغب
نروح ونغدو كلَّ يومٍ وعندها
فظلك فوق حيشما كنتُ وارف
وعذراً فلاني إن أطلتُ فإنما

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك :

وحقك ما استطعت بعدك غمضة
وعارضتُ مسرى الريح قلتُ لعلها
إلى أن بدا وجهُ الصَّبَاحِ كأنه
فقلتُ لقلبي استشعرِ الأنسَ وابتهج
وسِرْ في ضمان الله حيثُ توجهتُ
من النوم حتى آذن النجمُ بالغروب
تمُّ برياً منك عاطرةِ الهبوب
حيّاك إذ يجلو بغرته الخطوب
فإن تبعد الأجسامُ لم تبعدِ القلوب
ركابك لا تخش الحوادث أن تنوب

قلت : هذه غاية في معناها ، لولا خروجها عن القواعد في ترتيب قافيتها ومبناها ، فانظر إلى تحوُّله عن لسان الدين بعد هذه المدائح ، ونسبته إليه بعده القبائح ، والإنسان خَوَّان ، إلا النادر من الإخوان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال في « الإحاطة » في ترجمة ابن سلبطور ما نصّه : ومما خاطبني به :

تالله ما أورى زنادَ القلقِ سوى بريقٍ لاحَ لي بالأبرقِ
أيقنتُ بالحَيْنِ فلوْلا نفحةٌ نجديّةٌ منكمْ تلافتَ رَمَقِي
لكنتُ أقضي بتلظّي زفرةٍ وحسرةٍ بينَ الضلوعِ تلتقي
فأه من هَوَلِ النوى وما جنى على القلوبِ موقفُ التفرّقِ
يا حاكّي الغصنِ انثنى متوجّاً بالبدرِ تحتَ لمّةٍ من غسقِ
الله في نفسٍ معنّى أقصّدتُ من لالعجِ الشوقِ بما لم تُطِقِ
أتى على أكثرها بَرَحُ الأسى دعْ ما مضى منها وأدركْ ما بقي
ولو بِلِمامِ خيالٍ في الكرى إن ساعدَ الحفنَ رقيبُ الأرقِ
فربّ زورٍ من خيالٍ زائر أقرّ عينيَّ وإن لَمْ يصدقِ
شقيتُ من برحِ الأسى لو أنَّ مَنْ أصبحَ رِقِي في يديه مُعْتَقِي
ففي معاناةِ الليالي عائقٌ عن التصابي وفنونِ العلقِ
وفي ضمانٍ ما يُعاني المرءُ من نوائبِ الدهرِ مشيبُ المفرّقِ
هذا لعمرى معَ أنّي لم أبتُ منها بشكوى روعةٍ أو فرّقِ
فقد أخذتُ من خطوبِ غدرها بآبن الخطيبِ الأمنَ ممّا أتقي
فخرُ الوزارة الذي ما مثله بدرّ علا في مغربٍ أو مشرقِ
ومذ أرائيه زماني لم أبلُ منْ صَرفهٍ بمُرْعِدٍ أو مُبْرِقِ
لا سيّما منذُ حطّطتُ في حمى مقامِه^١ الأمتعِ رحلَ أينُقي
أيقنتُ أنّي في رجائي لم أخبُ وأنّ مسمّى بغيتي لم يُخَفِقِ
ندبٌ له في كلِّ حُسنٍ آيةٌ تناسبتُ في الخلقِ أو في الخلقِ

١ سقطت هذه الكلمة من ص ، وفي ق : مسماء .

في وجهه مسحة بشر إن بدت
 تعتبر الأبصار في اللألاء ما
 كالدهر في استينائه وبطشه
 إن بخل الغيث استهلّت يده
 وإن وشت صفحة طرس انجلي
 بمثلها من حبرات أنجلت
 ما راق في الآذان أشناف سوى
 تود أجساد الغواني أن يرى
 فسّل به هل آده الأمر الذي
 إذا رأى الرأي فلا يخطئه
 إليه أبا عبد الإله هاكها
 خذها إليك بكرر فكر يزدرى
 لا زلت مرهوب الجنب مرتجى
 مبلغ الآمال فيما تبغي

تبهرجت أنوار شمس الأفق
 عليه من نور السماح المشرق
 كالسيف في حدّ الظبي والرونق
 بوابل من غيث جود غدق
 ليل دجاها عن سنا مؤتلق
 حواشي الروض خدود المهرق
 ملتقطات لفظه المفرق
 حليتها من درّ ذاك المنطق
 حمل في شرح الشباب المونق
 يمتن اختيار للطريق الأوفق
 عذراء تحثو في وجوه السبق
 لديك بالأعشى لدى المخلّق
 موصول عزّ في سعود ترتقي
 مؤمن الأغراض ممّا تتقي

[ترجمة ابن سلبطور]

وابن سلبطور هو : محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمي .
 قال في « الإحاطة » : من أهل المرية ، يكنى أبا عبد الله ، من وجوه بلده
 وأعيانه ، نشأ نبيه البيت ساحباً بنفسه وبماله ذيل الخطوة ، متحلياً بنخصل
 من خط وأدب ، وزيراً متجنداً ظريفاً ، درباً على ركوب البحر وقيادة
 الأساطيل ، ثم انحطّ في هواه انحطاطاً أضاع مروءته واستهلك عقاره وهدّ
 بيته ، وألجأه أخيراً إلى اللحاق بالعدوة فهلك بها .
 وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصّه : مجموع شعر وخط ، وذكاء عن

درجة الظرفاء غير منحط ، إلى مجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحي والميت ، نشأ في حجر الترف والنعمة ، محفواً بالمالية الجمّة ، فلما عقل عن ذاته ، وترعرع بين لِداته ، أجرى خيول لذاته ، فلم يدع منها ربّعا إلا أقفره ، ولا عقارا إلا عقره ، حتى حطّ بساحلها ، واستولى بسفر الإنفاق على جميع مراحلها ، إلا أنّه خلص بنفس طيّبة ، وسراوة سماؤها صيّبة ، وتمتّع ما شاء من زير وجم ، وتأنّس لم يُعطِ القيادة لهم ، وفي عفو الله سعة ، وليس مع التوكل عليه ضعة .

شعره — من شعره قوله يمدح السلطان ، وأنشدها إيّاه بالمضارب من وادي الغيران عند قدومه المرية :

أثغرُك أم سِمِطٌ من الدرّ يُنظمُ	وريقُك أم مسكٌ به الراحُ تُختَمُ
ووجهُك أم بادٍ من الصبح نيرٌ	وفرعُك أم داجٍ من الليلِ مُظلمُ
أعلل منك الوجدَ واللّيلُ مُتلفي	وهل ينفعُ التعليلُ والخطبُ مؤلمُ
وأقنعُ من طيفِ الحَيالِ بزورةٍ	لو أنّ جفوني بالنامِ تنعمُ

ثم سرد لسان الدين القصيدة ، وهي طويلة .

ثم قال : ومن شعره مديلاً على البيت الأخير حسبما نُسب إليه ببلده :

نامت جفونُك يا سؤلي ولم أنمِ	ما ذاك إلا لفرطِ الوجدِ والسقمِ
أشكو إلى الله ما بي من محبتكم	فهو العليمُ بما ألقى من الألمِ
« إن كان سفكُ دمي أقصى مرادكم »	فما غلّت نظرةٌ منكم بسفكِ دمي »

ومما يُنسب إليه كذلك :

قفُ بي ونادِ بينَ تلك الطلولِ	أينَ الألى كانوا عليها نزولُ
أينَ ليالينا بهم والمُنى	نجنه غصّاً بالرضى والقَبولِ

لا حُمِّلُوا بعضَ الذي حَمَلُوا يومَ تولَّتْ بالقِبابِ الحُمُولُ
إنْ غبتمُ يا أهلَ نَجْدٍ ففِي قلبي أنتم وضلوعي حُلُولُ^١

ثم قال : ناب في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي الرنداحي ، وولي
أسطول المنكب^٢ برهة ، وتوفي بمراكش عام خمسة وخمسين وسبعمائة ،
رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[٢٣ - من ابن راجح إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين : كتب إليَّ أبو عبد الله ابن راجح التونسي بما يظهر من
أبياته ، وهي :

أما والذي لي في حُلاك من الحمد ومالك ملاكي لديَّ من الردِّ
لقد أشعرتني النفسُ أنك مُعرضٌ عن المسرفِ الآتي لفضلك يستجدي
فإنْ زلةٌ مني بدتْ لك جهرةً فصفحاً فما والله أذنبتُ عن قصدِ

[٢٤ - جواب لسان الدين]

فراجعته بقولي :

أجلُّك عن عتبٍ يغضُّ من الودِّ وأكرمُ وجهَ العذرِ منك عن الردِّ
ولكنني أهدي إليك نصيحتي وإن كنتُ قد أهديتها ثم لم تُجدِ
إذا مِقْوَلُ الإنسانِ جاوزَ حدَّهُ تحوَّلتِ الأغراضُ منه إلى الضدِّ
فأصبح منه الحدُّ هزلاً مذمماً وأصبح منه الهزلُ في معرضِ الحدِّ
فما اسطعتَ قبضاً للعنانِ فإنَّه أحقُّ السجايا بالعلاء وبالمجدِ

١ ق : نزول ؛ ص : حمول .

٢ هذه رواية ص ؛ وفي ق : المبكم .

[ترجمة ابن راجح]

وقال في « الإحاطة » في حق ابن راجح المذكور ما محصّله ^١ : محمد بن علي ابن الحسن بن راجح ، الشريف الحسيني باعترافه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الزمر : ٧ ، والإسراء : ١٥ ، والأنعام : ١٦٤) تونسي ، أبو عبد الله ، يُعرف بابن راجح ، صاحب رُواء وأبهة ^٢ ، نظيف البزة ، فاره المركب ، مطفف مكيال الإطراء ، جَمُوحٌ في إيجاب الحقوق ، مترامٍ إلى أقصى آماذ التوغّل ، سخي اللسان بالثناء ثرثاره ، مرسلٌ لعنائه في كل المحافل ، متواضع متودد فكه مطبوع حسن الخلق عذب الفكاهة ، مخصوص حيث حلّ من الملوك والأمراء بالأثرة ، وممّن دونهم بالمداخلة والصحبة ، ينظم الشعر ، ويحاضر بالأبيات ، ويقوم على تاريخ بلده ، ويثابر على لقاء أهل المعرفة ، والأخذ عن أولي الرواية ، قدم الأندلس عام خمسين وسبعمائة مفلتاً من الوقعة بالسلطان أبي الحسن ، فمهد له سلطانها كَنَفَ برّه ، وآواه إلى سَعَةِ رعيه ، وتأكدت بيني وبينه صحبة .

[٢٥ - من لسان الدين إلى ابن راجح]

كتبتُ إليه أولَ قدومه بما نصّه أخذو حذو أبيات ذكر أن شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطبه بها :

أَمِنْ جَانِبِ الْغَرْبِيِّ نَفْحَةٌ بَارِحِ	سَرَتْ مِنْهُ أَرْوَاحُ الْحَوَى فِي الْخَوَارِحِ ؟
قَدَحْتُ بِهَا زَنْدَ الْغَرَامِ وَإِنَّمَا	تَجَافَيْتُ فِي دِينِ السُّلُوكِ لِقَادِحِ
وَمَا هِيَ إِلَّا نَسْمَةٌ حَاجِرِيَّةٌ	رَمَى الشُّوقُ مِنْهَا كُلَّ قَلْبٍ بِقَادِحِ
رَجَحْنَا لَهَا مِنْ غَيْرِ شَكٍّ كَأَنَّهَا	شَمَائِلُ أَخْلَاقِ الشَّرِيفِ ابْنِ رَاجِحِ

١ ق : حاصله .

٢ ق : وبديهة .

ففي هاشم سبقا إلى كل غاية
أصيل العلاء جسم السيادة ، ذكره
وفرقان مجد يصدع الشك نوره
وفارس ميدان البيان إذا انتضى
رقيق كما راقتك نعمة ساجع
إذا ما احتبي مستحضرا في بلاغة
وقد شرعت في مجمع الحقل نحوه
فما ضعفت منه لصولة صاعد
تذكرت قسما قائما في عكاظه
ليهلك شمس الدين ما حزت من علا
رعى الله ركبا أطلع الصبح مسفرا
ولله ما أهدته كومات أوضعت
أقول لقومي عندما حط كورها
ذروها وأرض الله لا تعرضوا لها
إذا ما أردنا القول فيه فمن لنا
بقيت مني نفس وتحفة قادم
ولا زلت تلقى البر والرحب حيثما

[٢٦ - جواب ابن راجح]

فأجاني بما نصّه :

وصبرا ، مغار الفتل في كل فادح
طراز نضار في برود المدائح
حبا الله منه كل صدر بشارح
صحائفه أنست مضاء الصفائح
وجزل كما راقتك صولة جارح
وخوض خضم القول منه بسابع
أسنة حرب للعيون اللوامح
ولا ذهبت منه بحكمة ناصح
وقد غص بالشم الأنوف الحجاجح
خواتمه موصولة بالفواتح
لمراك من فوق الربى والبطائح
برحلك في قفر عن الأنس نازح
وساعدها السعدان وسط الأباطح
بمعرض سوء فهي ناقة صالح
بطوع القوافي وانبعث القرائح
ومورد ظمان وكعبة ماح
أرحت السرى من كل غاد ورائح

تعاد لمفؤود عن الحي نازح
غليل غليل للتواصل جانح

أمن مطلع الأنوار لمحة لامح
وهل بالمنى من مورد الوصل يرتوي

١ ق : الحصل .

فيا فيضَ عينِ الدمعِ مالكَ والحمى
مربعُ آرامي وموردُ ناقتي
سقى الله ذاك الحيَّ ودقاً فإنه
وأبدى لنا حورَ الخيامِ تُزفُ في
تري حيَّ تلك الحورِ للهورِ مهيعٌ
ويا دوحةَ الريحانِ هل لي عودة
وهل أنتِ إلا حلةٌ حاتميةٌ
أقامَ بها الفخرَ الخطيبُ منابراً
وشفعَ بالإنجيلِ حمدَ مديحه
وفرَّقَ بالفرقانِ كلَّ فريقَةٍ
وهل هو إلا للبريةِ مرشدٌ
فبشرى لسانَ الدين ساد بك الورى
متى قلتَ لم تتركِ مقالاً لقائل^١
فمن حامَ بالحيِّ الذي أنتَ ربُّه
يحقُّ له أن يشفعَ الحمدَ بالثنا
ويا فوزَ ملكٍ دمتَ صدرَ صدوره
بأرائكَ اللاتي تدلُّ على الهدى
ملكْتَ خصالَ السبقِ في كلِّ غايةٍ
مطامح^٢ آمالٍ لأشرفِ همّةٍ
فدونكها يا مهدي المدحِ مدحةٌ

ورندَ الحمى والشيخَ شيخَ الأشايحِ
فسقياً لها سقياً لناقةٍ صالحِ
حمى لمحاتِ العينِ عن لمحِ لامحِ
حلى الحسن والحسنى وحلّي الملامحِ
يدلّ ، وهل حسمٌ لداء التّبارحِ
لعفْرِ عفارِ الأنسِ بين الأباطحِ
تغصّ نواديها بغادٍ ورائحِ
لترتيلِ آياتِ النّدى والمنايحِ
وأوترَ بالتوراةِ شفعَ المدائحِ
نأت عن رشاد فيه محضُ النصائحِ
لكلّ هدًى هادٍ لأرجحِ راجحِ
وأورى الهدى للرشدِ أوضحَ واضحِ
وإن لم تقلْ لم يُغنِ مدحٌ لمادحِ
وعامَ ببحرٍ من عطايك طافحِ
ويغدو بذاك البحرِ أسبحَ سابحِ
وبشرى له قد راح أربح رابح^٣
وتبدي لمن خصصت سُبُلَ المناجحِ
ومُلكتَ ما ملكت يا ابنَ الجحاجحِ
أقلُّ مراميها أجلُّ المطامحِ
أجبتُ بها عن مدحِ أشرفِ مادحِ

١ من قول حسان في مدح ابن عباس :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل

بملقطات لا ترى بينها فصلاً

٢ سقط البيت من ص .

٣ ق : مطالب .

تُهَنِّيكَ بالعام الذي عَمَّ مدحُهْ مواهبُ هاتيكَ البحار الطوافحِ
فخذُها سميَّ الفخر يا خيرَ مسبلٍ على الخلقِ إغضاءً ستور التسامحِ
ودُمُ خاطبِ العليا بها خيرَ خاطبٍ وأتوقَ تَوَاقٍ وأطمحَ طامحِ

[بقية ترجمة ابن راجح]

ثمَّ قال لسان الدين : توفي يوم الخميس ثالث شعبان سنة خمس وستين
وسبعمائة ، وقد ناهز السبعين ، ودفنَّاه بروضتنا بباب البيرة ، وأُعفي شارب الشعر
من ثاني^١ مقصَّه ، عفا الله تعالى عنا وعنه ؛ انتهى .

قلت : رأيت بخط البدر البشتكي في اختصاره لإحاطة لسان الدين وسمَّاه
بـ « مركز الإحاطة » في هذا المحل ما نصَّه : قال كاتبه : لو وفق الله تعالى هذا
الرجل لم يجب عن مثل تلك الحائية بهذا الهُذاء ، ولعل ما في كتاب أبي البركات
الذي اسمه « شعر مَنْ لا شعر له » أنزل من هذه الطبقة ؛ انتهى .

وقد أشار لسان الدين لهذا بقوله السابق : وأُعفي شارب الشعر من ثاني^١ مقصَّه ،
فله دره من لودعي زان خاتم البراعة بفصَّه ، فلکم له من عبارة وجيزة يقضي
بها ما لم يستطع غيره أن يعبر عنه بإطنابه ، فعلى كل مَنْ يروم التعبير ، عما في
الضمير ، أن يتمسك بأطنابه .

وقال ابن خاتمة : حدثني الشريف الأديب أبو عبد الله ابن راجح التونسي
مقدِّمَه علينا بالمرية قال : سجن القاضي أبو عبد الله ابن عبد السلام شاباً وسيماً
لحقَّ تعين عليه ، فأنشدته مداعباً :

أقاضي المسلمين حكمتَ حكماً غداً^٢ وجهُ الزَّمانِ له عبُوسا

١ ص : نابي .

٢ ق : بدا .

سجنتَ على الدراهم ذا جمال ولم تسجنه إذ غَصَبَ النفوسا
فأجاني بأن قال : إنَّما شكاه لي أربابُ الدراهم ، دون أرباب النفوس ؛
انتهى .

رجع إلى ما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى :

[٢٧ - من العشاب إلى لسان الدين]

وممَّا خاطبه به أبو عبد الله العشاب^١ التونسي في بعض الأعياد قوله :

يُمنُّ أبي عبد الإلهِ محمدٍ	تيمَّنَ هذا القطرُ وانسجم القطرُ
أفاضَ علينا من جزيلِ عطائه	بحوراً تديمُ المدَّ ليس له جزرُ
وآنسنا لما عدنا مغانياً	إذا ذُكرت في القلب ليس لها ^٢ دعر
هنيئاً بعيدِ الفطرِ يا خيرَ ماجدٍ	كريمٍ به تسمو السيادةُ والفخر
ودمتَ مدى الأيام في ظلِ نعمة	تطيع لك الدنيا ويعنُّوك الدهر

[٢٨ - من محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين في ترجمة ابن عبد الملك المراكشي ما صورته : وخاطبني
بقوله :

وليتَ ولايةٌ أحسنتَ فيها	ليُعلم أنها شَرُفَتْ بقدركَ
وكم والٍ أساءَ فقل فيهِ	دنيَّ القدرِ ليس لها بمدركُ

وقال أيضاً يخاطبني في المعنى :

١ ق : الفشتالي .

٢ ص : من ذكرها .

وليتَ فقيلَ أحسنَ خيرُ والِ ففاقَ مَدَى مداركها بفضله
وكم والِ أساءَ فقيلَ فيه دَنَا فمَحَا محاسِنَها بفعله

[ترجمة ولد ابن عبد الملك]

وفي « الإحاطة » ما محصله أن المذكور محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأنصاري الأوسي ، كان شديد الانقباض ، محجوب المحاسن ، تنبو العين عنه جهامة ووحشة ظاهر وغرابة شكل ، وفي طي ذلك أدب غض ، ونفس حرّة ، وحديث ممتع ، وأبوّة كريمة ، أحد الصابرين على الجهد ، المستمسكين بأسباب الحشمة ، الراضين بالخصاصة ، وأبوه قاضي القضاة نسيجٌ وحُدّه الإمام العالم التاريخي المتبحر في الآداب ، تقلبت به أيدي الليالي بعد وفاته لتبعة سلطت على نشبه ، فاستقر بمالقة مقدوراً عليه ، لا يهتدي لمكان فضله إلا من عثر عليه ، ومن شعره قوله :

من لم يصنْ في أملٍ وجههْ عنك فصنْ وجهك عن ردهْ
واعرفْ له الفضلَ وعرفْ له حيثُ أحلَّ النفسَ من قصدهْ

ثم قال : توفي في ذي القعدة عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٢٩ - من المكودي إلى لسان الدين]

ومما مُدِح به لسان الدين قولُ أبي عبد الله محمد المكودي الفاسي رحمه الله تعالى :

رُحماك بي فلقد خَلَدتَ في خَلدي هوى أكابدُ منه حُرقةَ الكبدِ
حللتَ عَقْدَ سُلُوي عن فؤادي إذ حللتَ منه محلَّ الروح من جسدي
مرآك بدري ، وذكراك التذاذُ فمي ودين حبك إضماري ومعتقدي

ومن جمالك نورٌ لاحَ في بصري
لا تحسبنَ فؤادي عنكَ مصطبراً
وهاكَ جسمي قد أودى النحولُ به
بما بطرفك من غُنْجٍ ومن حَوَرٍ
كنُ بينَ طرفي وقلبي منصفاً فلقد
فقال لي : قد جعلتَ القلبَ لي وطناً
وكيف تطلبُ عدلاً والهوى حَكَمُ
من لي بأغيدٍ لا يرثي لذي شجنٍ
ما كنتُ من قبلٍ إذعاني لسطوته
إن جاد بالوعدِ لم تصدقْ مواعده
شكوته عِلَّتِي منهُ فقال : ألا
فقلتُ : إن شئتَ برثي أو شفا ألي
وإن بخلتَ فلي مولى يجودُ على

ومن وداذك روحٌ حلَّ في خلدي
فقبلَ حُبِّكَ كان الصبرُ طوعَ يدي
فلو طلبتَ وجوداً منه لم تجدِ
وما بشغركَ من دُرٍّ ومن برَدِ
حابتَ بعضهما فاعدلْ ولا تحدِ
وقد قضيتَ على الأجفانِ بالسُّهْدِ
وحكمه قطُّ لم يعدلْ على أحدٍ
وليسَ يعرفُ ما يلقاه ذو كمدٍ
إخالُ أنَّ الرشا يسطو على الأسدِ
فإن قنعتُ بزورِ الوعدِ لم يعدِ
سرٌّ للطبيبِ فما برء الضنى بيدي
فبارتشافٍ لماك الكوثرِيَّ جدِ
ضعفي ويبريء ما أضنيتَ من جسدي

وخرج بعد هذا إلى مدح لسان الدين فأطال وأطاب ، وكيف لا وقد ملأ
من إحسانه الوطاب ، رحم الله تعالى الجميع .

[٣٠ - من اليتيم إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين : كتبت إلى أبي عبد الله اليتيم^١ أسألُ منه ما أثبت في
كتاب « التاج » من شعره ، فكتب إليَّ بهذه الأبيات :

أما الغرامُ فلمَ أُخلِلْ بمذهبهِ فلمَ حرمتَ فؤادي نيلَ مطلبهِ

١ هو محمد بن علي بن محمد العبدري ، وسينقل المقرئ ترجمته عن التاج فيما يلي ، وبعضها مثبت أيضاً
في الكتيبة : ٥٩ .

يا مُعرضاً عن فؤاد لم يزل كَلِفاً
قطعت عنه الذي عودته فغدا
أيامَ وصلك مبدول ، وبرك بي
وسمع ودك عن إفاك العواذل في
لا أنت تمنعني نيل الرضى كرمأ
لله عرّفك ما أذكى تنسمه
أنت الحبيب الذي لم أتخذ بدلاً
يا ابن الخطيب الذي قد فُقت كل سنا
محمد الحسن في خلق وفي خلق
حضرت^١ أو غبت ما لي عن هواك غنى
سيان حال التداني والبعاد ، وهل
يا من أحسن ظني في رضاه وما
إن كان ذنبي الهوى فالقلب مني لا

بحبه ، ذا حذار من تجنبه
وحظه من رضاه برق خلبه
مجدد ، قد صفا لي عذب مشربه
شغل وبدر الدجى ناس لمغربه
ولا فؤادي بوان في تطلبه
لو كنت تمنحني استنشاق طيبه
منه وحاشا لقلبي من تقلبه
أزال عن ناظري إظلام غيبه
أكملت باسمك معنى الحسن فازه به
لا ينقص البدر حسناً في تغيبه
لمبصر البدر نيل في ترقبه ؟
ينفك يهدي قبيحاً من تغضبه
يصغي لسمع ملام من مؤنبه

[٣١ - من لسان الدين إلى اليتيم]

فأجبت بهذه الرسالة ، وهي ظريفة في معناها : « يا سيدي الذي إذا رُفعت
راية ثنائته تلقيتها باليدَيْن^٢ ، وإذا قُسمت سهامُ وداده على ذوي اعتقاده كنت
صاحبَ الفريضة^٣ والدين ، دام بقاؤك لطرفة تَبْدِيها ، وغريبة تردفها بأخرى
تليها ، وعقيلة بيان تجليها ، ونفس أخذ الحزن بكظمها ، وكلف الدهر
بشت نظمها ، تؤنسها وتسليها ، لم أزل أشدُّ على بدائعك يدَ الضنين ، وأقتني

١ ص : نأيت .

٢ فيه إشارة إلى قول الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمن

٣ الفريضة : الإرث أو الحصة منه .

درر كلامك ، ونفثات أقلامك ، اقتناء الدر الثمين ، والأيام بلفائك تعدد
ولا تسعد ، وفي هذه الأيام انثالت عليّ سماءك بعد قحط ، وتواترت لدي
آلاؤك على شحط ، وزارتي من عقائل بيانك كل فاتنة الطرف ، عاطرة
العرف ، رافلة في حلل البيان والظرف ، لو ضربت بيوتها بالحجاز ، لأقرت
لها العرب العاربة بالإعجاز ، ما شئت من رصف المبنى ، ومطاوعة اللفظ لغرض
المعنى ، وطيب الأسلوب ، والتشبيث بالقلوب ، غير أن سيدي أفرط في التنزل ،
وخلط المخاطبة بالتغزل ، وراجع الالتفات ، ورام استدراك ما فات ، ويرحم
الله تعالى شاعر المعرة فلقد أجاد في قوله ، وأنكر مناجاة الشوق بعد انصرام
حوّله^١ :

أبعد حوّل تناجي الشوق ناجية^٢ هلاًّ ونحن على عشر من العشر^٣

« ولقد تجاوزت في الأمد ، وأنسيت أخبار صاحبك عبد الصمد ، فأقسم
بألفيات القدود ، وهمزات الحفون السود ، وحامل الأرواح مع الألواح ،
بالغدو والرواح ، لولا بُعد مزارك ، ما أمنت غائلة ما تحت إزارك ، ثم إنني
حققت الغرض ، وبجئت عن المشكل الذي عرّض ، فقلت : للخواطر^٣ انتقال ،
ولكل مقام مقال ، وتختلف الحوائج باختلاف الأوقات ، ثم رفع اللبس خبر
الثقات » .

ومنها - « وتعرفت ما كان من مراجعة سيدي لحرفة التكتيب والتعليم ،
والحنين إلى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، وإن لاحظ

١ من قصيدته التي مطلعها :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أغواناً على السهر

(شروح السقط : ١١٤) .

٢ الناجية : الناقة السريعة ؛ والعشر : شجر ، وأراد به هنا المكان الذي ينبت فيه .

٣ ق : للخاطر .

اللاحظ ، ما قال الجاحظ ^١ ، فاعترض لا يرد ، وقياس لا يطرد ، حبذا والله عيش التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجدب ، معاهدة الإحسان ، ومشاهدة الصور الحسان ^٢ . يمينا إن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وإنني لأنظر منهم كلما خطرت على المكاتب ، أمراء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدرة ، متقطب الأسرّة ، متنمر للوارد تنمر الهرة ، يغدو إلى مكتبه ، كالأمير في موكبه ، حتى إذا استقل في فرشه ^٣ ، واستوى على عرشه ، وترنم بتلاوة قالونه وورثه ^٤ ، أظهر للخلق احتقاراً ، وأزرى بالرجال وقاراً ، ورفعت إليه الحصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم ، فتقول : كسرى في إيوانه ، والرشيد في أوانه ، أو الحجاج بين أعوانه ، فإذا استولى على البدر السرار ، وتبين للشهر الغرار ، تحرك إلى الخرج ، تحرك العود إلى الفرج ، أستغفر الله مما يشق على سيدي سماعه ، وتشمئز من ذكره طباعه ، شيم اللسان ، خلط الإساءة بالإحسان ، والغفلة من صفات الإنسان ، فأبي عيش كهذا العيش ؟ وكيف حال أمير هذا الجيش ؟ طاعة معروفة ، ووجوه إليه مضرّوفة ، فإن أشار بالإنصات ، لتحقق القصّات ، فكأنما طمس على الأفواه ، ولأم بين الشّفاه ، وإن أمر بالإفصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحف به كما حف بالبيت الحجيج ، وكم بين ذلك من رشوة تدس ، وغمزة لا تحس ، ووعد يستنجز ، وحاجة تستعجل وتحفز ، هنا الله سيدي ما خوّله ، وأنساه بطيب أخراه أوّله ، وقد بعثت بدُعابتي هذه مع إجلال قدره ، والثقة بسعة صدره ، فليتلقها بيمينه ، ويفسح لها في المرتبة بينه وبين خدينه ، ويفرغ لمراجعتها وقتاً من أوقاته عملاً بمقتضى دينه ، وفضل يقينه ، والسلام .

١ يومئ إلى أن الجاحظ قد ذم معلمي الصبيان ، ويداعب ابن اليتيم في عودته إلى هذه الحرفة .

٢ ومشاهدة . . . الحسان : سقطت من ق .

٣ ق : استقبل على فرشه .

٤ قالون وورث : مقرئان اختص كل منهما بقراءة من القراءات .

[ترجمة أبي عبد الله البتيم]

ثم قال : ومن المداعبة التي وقعت إليها الإشارة ما كتب به إليه صديقه
أبو علي ابن عبد السلام :

أبا عبد الإله نداء خيل^١ وفي جاء يمنحك النصيحة^٢
إلى كم تألف الشبان غياً وخذلانا، أما تخشى الفضيحة؟

فأجابه بقوله :

فديتك صاحب السمة المليحة^١ ومن طابت أرومته الصريحة^٢
ومن قلبي وضعت له محلاً^٣ فما عنه يحل بأن أزيحه
نأيت قدمي عيني في انسكاب وأكبادي لفرقتكم قريحه
وطرفي لا يتأخ له رقاد^٤ وهل نوم لأجفان جريحه
وزاد تشوقي أبيات شعر^٥ أتت منكم بالفاظ فصيحه^٦
ولم تقصد بها جدّاً ، ولكن قصدت بها مداعبة وقبحه
فقلت : أتألف الشبان غياً^٧ وخذلانا ، أما تخشى الفضيحة ؟
ففيهم حرفتي وقوام عيشي^٨ وأحوالي بخلطتهم^٩ نجيحهم
وأمر فيهم أمر مطاع^{١٠} وأوجههم مصاييح^{١١} صبيحه^{١٢}
وتعلم أنني رجل حصور^{١٣} وتعرف ذلك معرفة صحيحة^{١٤}

ثم قال لسان الدين - بعد إirاده ما مر - ما صورته : ولما اشتهر المشيب
بعارضه ولمته ، وخفر الدهر بعهود صباه وأذيمته ، أقلع واسترجع ، وتألم لما
فرط وتوجع ، وهو الآن من جلة^٢ الخطباء طاهر العريض والثوب ، خالص

١ سقط هذان البيتان من ق .

٢ ق : جملة .

من الشَّوْب ، بادٍ عليه قبول قابل التوب ، وتوفي في أخريات صفر سنة
 خمسين وسبعمائة في الطاعون ، رحمه الله تعالى وغفر له ؛ انتهى .
 واليتيم المذكور هو أبو عبد الله محمد بن علي العبدري المالقي ، وفي حقه
 يقول لسان الدين في « التاج » ما مثاله : هو مجموع أدوات حسان ، من خط ونعمة^١
 لسان ، أخلاقه رَوْضٌ تتضوَّع نسَماته ، وبشره صبح تتألق قَسَماته ، ولا تخفى
 سِماته ، يُقَرِّطِيسُ أغراض الدعاة ويُضْمِيها ، ويفوق سهام الفكاهة إلى
 مَرَامِيها ، فكلَّما صدرت في عصره قصيدة هازلة ، أو أبيات منحطة عن
 الإجادة نازلة ، خَمَسَ أبياتها وذيلها ، وصَرَفَ معانيها وسيَّلها ، وتركها سَمَر
 الندمان ، وأضحوكة الأزمان ، وهو الآن خطيبُ المسجد الأعلى بمالقة ،
 متحلٍّ بوقار وسكينة ، حالٌّ من أهلها بمكانة مَكِينة ، لسهولة جانبه ، واتضح
 مقاصده في الخير ومذاهبه ، واشتغل لأوَّل أمره بالكتيب ، وبلغ الغاية في التعليم
 والترتيب ، والشباب لم ينصل خضابُه ، ولا سُلَّت للمشيب عِضابُه ، ونفسه
 بالمحاسن كَلِيفَة صَبَّة ، وشأنه كلّه هوى ومَحَبَّة ، ولذلك ما خاطبه بعض
 أودائه ، وكلاهما رمى أخاه بدائه ، حسبما يأتي خلال هذا القول وفي أثنائه ؛
 انتهى .

وذكر نحو ما تقدّم ذكره ، سامح الله الجميع بفضله .

[٣٢ - مخاطبة الكرسوطي لسان الدين]

وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي
 الفاسي^٢ نزيل مالقة ما صورته : وأنشدني وأنا بمالقة أحاول لوثَّ العمامة ،
 وأستعين بالغير على الإحكام لها :

١ ق : من حفظ ونعمة .

٢ ترجمة الكرسوطي في الإحاطة ، الورقة : ٥٠ وفيه البيتان .

أعممًا قمرًا تكاملَ حُسْنُهُ أربى على الشمسِ المنيرة في البَها
لا تلتمسُ ممّن لديك زيادةً فالبدرُ لا يمتارُ من نور السّها

[ترجمة أبي عبد الله الكرسوطي]

قال لسان الدين : وهو فقيه محدث متكلم ، ألف كتباً منها « الغرر في تكميل الطُّرر » طُرر أبي إبراهيم الأعرج ، ثم كتاب « الدرر في اختصار الطُّرر » المذكور ، وتقييدان على الرسالة كبير وصغير ، ولخص « التهذيب » لابن بشير ، وحذف أسانيد المصنّفات الثلاثة ، والتزم إسقاط التكرار ، واستدرك الصحاح الواقعة في الترمذي على البخاري ومسلم ، وقيد على مختصر الطليطلي ، وشرع في تقييد على قواعد الإمام أبي الفضل عياض بن موسى برسم ولدي ، ويصدر منه الشعر مصدراً لا تكنفه منه العناية ، وكانت له اليد الطولى في عبارة الرؤيا ، ومولده بفاس عام تسعين وستمائة ؛ انتهى ملخصاً .

[٣٣ - مخاطبة ابن الزبير لسان الدين]

وقال في ترجمة أبي عمرو ابن الزبير ما صورته : وممّا خاطبني به عند إياي
من العُدْوَةِ في غرض الرسالة قوله :

نوالي الشكرَ للرحمن فرضاً	على نِعَمٍ كَسَتَ طولاً وعرضاً
وكم لله من لطفٍ خفيٍّ	لنا منه الذي قد شا وأمضى
بمقدمك السعيدِ أتت سعدٌ	ننال بها نعيمَ الدهرِ محضاً
فيا بشرى لأندلس بما قد	به والاك بارينا وأرضي
ويا لله من سفرٍ سعيد	قدَ أقرضك المهيمنُ فيه قرضاً
ورحتَ بنيةٍ أخلصتَ فيها	فأبتَ بكلّ ما يبغى ويرضى
وثُبَّتَ لنصرة الإسلام لما	علمت بأنّ الأمر إليك أفضى

لقد أحييتَ بالتقوى رُسُوماً كما أرضيتَ بالتمهيد أرضاً
وقمتَ بسنةٍ المختارِ فينا تُمَهِّدُ سنةً وتقيمُ فرضاً
ورضتَ من العلوم الصَّعبَ حتى جنيتَ ثمارها رطباً وغيضاً
فرأيكَ راجحٌ فيما تراهُ وعزمتَ من مواضي الهند أمضى
تدبرُ أمرَ مولانا فيلقى الـ مسيءَ لديك إشفاقاً وإغصاً
فأعقبنا شفاءً وانبساطاً وقد كانت قلوبُ الناس مرضى
ومن أضحى على ظلمٍ وأمسى يَرِدُ إن شاء من نعماك حوضاً
أبا عبد الإله إليك أشكو زمني حين زاد الفقرُ عضاً
ومن نُعماك أستجدي لباساً تُفيضُ به عليَّ الجاهَ فيضاً
بقيتَ مؤملاً تُرجى وتخشى ومثلك من إذا ما جاد أرضى

[ترجمة أبي عمرو ابن الزبير]

وأبو عمرو المذكور هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، أبوه الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير أستاذ الزمان شيخ أبي حيان وغيره ، وقال في « الإحاطة » في حقه : إنه فكه حسن الحديث ، ركضَ طرفَ الشبية في ميدان الراحة منكباً عن سنن أبيه وقومه ، مع شغوف إدراك ، وجودة حفظ ، كانا يُطمعان والده في نجابته ، فلم يعدم قادحاً ، شرقَ فنال حظوة ، وجرت عليه خطوب ، ثم عاد إلى الأندلس ، فتطور بها ، وهو الآن قد نال منه الكبر يزجي لوقته^١ بمالقة متعللاً برمتق من بعض الخدم المخزنية^٢ ، استجاز له والده الطم والرم من أهل المغرب والمشرق ، وبضاعته في الشعر مُزجاة ، ثم قال : مات تاسع المحرم عام خمسة وستين وسبعمائة ؛ انتهى .

١ ق : الوقت .

٢ المخزنية : نسبة إلى المخزن وهو الدولة .

[ترجمة أبي يحيى الأكل]

وقال في ترجمة أبي يحيى محمد بن أحمد بن محمد بن الأكل ما صورته :
 شيخ هيدوري^١ الذقن ، خدوع الظاهر ، خلوب اللفظ ، شديد الهوى إلى
 الصوفية ، والكلف بإطراء أهل الخير ، من بيت صَوْن وحشمة ، متقدم في
 معرفة الأمور العلمية ، خائض في غمار التصوف ، وانتحال كيمياء السعادة ،
 راكب متن دعوى عريضة في مقام التوحيد ، تكذبها أحواله الراهنة ، لمعاصرة
 خلقه على الرياضة ، واستيلاء الشره ، وغلبة سلطان الشهوة ، والمشاحة أيام
 الولاية ، والسباب^٢ الشاهد بالشدة ، والحلف المتصل بياض اليوم في ثمن
 الحردلة باليمين التي فيها فساد الأنكحة ، والغضب الذي يقلب العين .

[٣٤ - مخاطبة الأكل للسان الدين]

خاطبني بين يدي نكته ولم أكن أظن الشعر مما تلوكه جَحْفَلته^٣ ، ولكنه
 من أهل الكفاية :

رجوتك بَعْدَ الله يا خير مُنْجِدٍ	وأكرم مأمولٍ وأعظم مُرْفِدٍ
وأفضل مَنْ أَمَلْتُ للحادث الذي	فقدتُ به صبري وما ملكت يدي
وحاشا وكلاً أن يخيب مؤملي	وقد علقَتُ بابن الخطيب محمد
وما أنا إلا عبدُ نعمته التي	عهدتُ بها يُمْنِي وإنجاح مقصدي
وأشرف من حَضَّ الملوك على التقى	وأبدى لهم رشداً نصيحة ^٤ مرشدٍ

١ ق : هيدري ؛ ولعلها هيدوري من قولهم هدر النبت إذا كثر وطال .

٢ ص : والسيد ولعلها محرفة عن « والسب » .

٣ الجحفلة للدابة بمنزلة الشفة للإنسان .

٤ ق : رشد النصيحة .

وساس الرعايا الآن خير سياسة
 وأعرض عن دنياه زهداً وإنها
 وما هو إلا الليث والغيث إن أتى
 وبحر علوم دره كلماته
 صقيل مرائي الفكر رب لطائف
 بديع عروج النفس للملا الذي
 شفيق رفيق دائم الحلم راحم
 صفوح عن الجاني على حين قدرة
 أيا سيدي يا عمدي عند شدتي
 حنانيك والطف بي وكن لي راحماً
 رجاك رجاء للذي أنت أهله
 وأمك مضطراً لرحماك شاكياً
 وعندي افتقار لا يزال مواصلاً
 ترفق بأولاد صغار بكاؤهم
 وليس لهم إلا إليك تطلع
 أنلهم أيا مولاي نظرة مشفق
 وعامل أخا الكرب الشديد برحمة
 ولا تنظرن إلا لفضلك ، لا إلى
 وإن كنت قد أذنبت إني تائب
 بقيت بخير لا يزال وعزة
 وسخرك الرحمن للعبد ؛ إنه

ثم قال : وهو الآن من مسطري الأعمال على تهوّر واقتحام كبرة^٢ ، من

١ سقط البيت من ص .

٢ ق : كبرة .

خط لا غاية وراءه في الركافة ، كما قال المعري ^١ :

تمشت ^٢ فوقه حُمْرُ المنايا ولكن بعدما مُسِخَتْ نَمَلا ^٣

[٣٥ - مخاطبة ابن عياش للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عياش بن مشرف الأُمي :
إنه من أهل الأصالة والحسب ، ظهرت منه على حداثة السن أبيات ، ونُسب
إليه شعر توسل به ، وتصرف في الإشراف ، فحمدت سيرته ، وكتب إلي
بقوله :

سِفَرَتْ شَمُوسُ الْيَمَنِ وَالْإِقْبَالِ	وبدت بدورُ السعدِ ذاتِ كمالِ
لِقُدُومِ سَيِّدِنَا الْوَزِيرِ مُحَمَّدِ	أعزُّ بهِ من سيدِ مفضالِ
قَمَرٌ تَجَلَّى بَيْنَ زُهْرٍ تَجَلَّى	يهدي لفعلِ الخيرِ لا الإضلالِ
سِرَّ آمِنًا لَا تَكْثُرُ ، فَلَأَنْتَ فِي	حَفَظِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ الْمُتَعَالِي
بِرًّا وَبِحِرًّا لَا تَخَافُ مُلَمَّةً	وعدوّ ذاتك خلفَ ظهرك صالي
لَا يَسْتَقِرُّ لَهُ قَرَارٌ بَعْدَكُمْ	مِمَّا يَحِلُّ بِهِ مِنَ الْأَوْجَالِ
وَالْآنَ تَرْجِعُ سَالِمًا وَمَبْشَرًا	يَبْلُوغُ كُلَّ مَسْرَةٍ وَمَنَالِ

وهي طويلة ، نَمَطُهَا متخلف عن الإجادة ، وهي من مثله ممّا يُستظرف ،
انتهى .

[٣٦ - مخاطبة أبي عبد الله الوادي آشي للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد العراقي الوادي آشي : فاضل

١ شروح السقط : ١٠٤ .

٢ السقط : ودبت .

٣ البيت في وصف السيف ؛ أي أن إفرنده وكأنما دبّت فوقه النمل .

الأبوة ، بادي الاستقامة ، حسن الأخلاق ، تولّى أعمالاً ، كتب إلي وقد أبى
عملاً عرض عليه بقوله :

أَصُمْتُ أَلْفًا ثُمَّ أَنْطَقُ بِالْخَلْفِ	وَأَفْقَدُ أَلْفًا ثُمَّ آتِسُ بِالْخَلْفِ
وَأَمْسِكُ دَهْرِي ثُمَّ أَفْطِرُ عَلَقَمًا	وَيُمَحِّقُ بَدْرِي ثُمَّ أُلْحِقُ بِالْخَسْفِ
وَعَزَّكُمُ لَا كُنْتُ بِالذَّلِّ عَامِلًا	وَلَوْ أَنَّ ضَعْفِي يَنْتَهِي بِي إِلَى الْحَتْفِ
فَإِنْ تَعْمَلُونِي فِي تَصْرِفِ عِزَّةٍ	وَعَدْلٍ وَإِلَّا فَاحْشَمُوا عِلَّةَ الصَّرْفِ
بَقِيَّتُمْ وَسُحِبُ الْعَفْوِ مِنْكُمْ تُظِلُّنِي	وَحِظُّ ثَنَائِي دَائِمًا ثَانِي الْعِطْفِ

[٣٧ - مخاطبة أبي محمد الأزدي للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي ما صورته : وخاطبني
لما وليت خطة الإنشاء وغيرها في أواخر عام تسعة وأربعين وسبعمئة بما نصه :
حُشَاشَةُ نَفْسٍ أَعْلَنْتْ لَمَذِيبِهَا بَتَذْكَارِ أَيَّامِ الْوَصَالِ وَطِيبِهَا
وَنَادَتْهُ رَحْمَى أَحْيَيْهَا نَفْسَ مَدْنَفٍ تَمُوتُ إِذَا لَمْ تَحْيِهَا بِوَجِيبِهَا
فَدَاوِ بِقَرَبٍ مِنْكَ لَا عِجَاجَ وَجَدَهَا وَفِيضَ أَمَاقِهَا ، وَطُولَ نَحْيِهَا
وَقَدْ بَلَغْتَ حَدًّا بِهِ صَحَّ فِي الْهَوَى وَأَحْكَامِهِ ثَوْبُ الضَّنَى فِي نَصْبِهَا
وَهَلْ يَتَدَاوَى دَاءُ نَفْسٍ تَعِيسَةٍ إِذَا كَانَ يَوْمًا دَاوَاهَا مِنْ طِيبِهَا
لَعَلَّ أَوَارِ الْوَجْدِ تَحْمَدُ نَارَهُ فَيَرِدَ عَنْهَا مَا بَهَا مِنْ لُحْيِهَا
إِلَيْكَ حَدَاها الشَّوْقُ يَا بَدْرَهَا الَّذِي يَغْزُّ عَلَيْهَا مِنْهُ طَوْلُ مَغْيِهَا
سَلَكْتَ بِهَا سَبِيلَ الْهَوَى فَهِيَ تَبْتَغِي لِقَاكَ وَتَبْغِي غَفْلَةً مِنْ رَقِيبِهَا
أَجْبِهَا بِإِبْقَاءِ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا سَتَفْنِي إِذَا مَا لَمْ تَكُنْ بِمَحْيِيبِهَا
وَمِلْ نَحْوَهَا بِالْوَدِّ فَهِيَ قَدْ آذَعَتْ كَمَا تَدْعُنُ الْأَقْلَامُ لَابْنَ خَطِيبِهَا
وَحِيدَ الزَّمَانِ الْمَاهِرِ الْبَاهِرِ الْحَلِيِّ وَجَهْدِ آدَابِ الْعُلَا وَأَدْيِهَا
إِمَامُ مَعَالِيهَا ، وَبَحْرُ عُلُومِهَا وَبَدْرُ دِيَاجِيهَا ، وَصَدْرُ شَعُوبِهَا

مُصَرَّفُهَا كَيْفَ انْثَنَتْ وَمَعِيدُهَا
وَرَافِعُ أَعْلَامِ الْبَلَاغَةِ وَالَّذِي
وَحَامِلُ رَايَاتِ الرِّيَاسَةِ رَفْعَةً
مِنَ الْغُرِّ مَمَّنْ أَوْجَبَتْ لَشَبَابِهَا
مِنْ أَبْنَاءِ أَرْبَابِ الْمَنَابِرِ وَالْأُولَى
خِلَالَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ طُودَ الْحَجَى أَبِي
أَجَادٍ وَأَجْدَى فَاسَلُ عَنْ ذِكْرِ طِيٍّ
فَقِي كُلِّ مَا يَيْسِدِي مُحَمَّدٌ عِبْرَةٌ
تَجِيبُ الْقَوَافِي إِنْ دَعَا بِبَعِيدِهَا
تَخَيَّرَ أَخْلَاقَ الْكِرَامِ فَلَمْ يَكُنْ
تَقْدَمُ فِي دَارِ الْخَلَاقَةِ حَاجِبًا
وَقَامَ لَهَا فِي سَاحَةِ الْغُرِّ كَاتِبًا
فَأَبْدَى مِنْ أَنْوَاعِ الْفَضَائِلِ أَوْجُهَا
هَنِيئًا بِهِ يَمْنًا بِأَسْعَدِ مَائِلِ
فَلِلْسَعْدِ تَأْثِيرٌ يَجِيءُ إِذَا جَرَى
أَمَوْقَدَ نَارِ الْفِكْرِ يَقْدَحُ زَنْدَهَا
حَدَانِي إِلَيْكَ الْحُبُّ قِدَمًا وَمَالٌ بِي
فَقَدَّمْتُهَا نَظْمًا قَوَافِي قَصْرَتْ
وَكُنْتُ كَمَنْ وَافَى لَدَى الدَّارِ بِالْحَصَى
فَصَلَّهَا وَخَذَ بِالْعَفْوِ فِيهَا فَلَمْ أَصِلْ

وَمَبْدُثُهَا حَيْثُ انْتَهَتْ وَمُصِيبُهَا
أَتَى نَائِرًا أَوْ نَاطِمًا بِعَجِيبِهَا
قَضَى الْمَجْدُ تَخْصِيصًا لَهُ بِوَجُوبِهَا
مَعَالِيهِمُ الْفَضْلَ الْعَظِيمَ وَشَبِيبِهَا
سَمَا فَخْرَهُمْ بَيْنَ الْوَرَى بِرُكُوبِهَا
مُحَمَّدٌ بَادٍ حَسْنُهَا مِنْ ضَرْبِهَا
وَحَاتِمُهَا زَهْوًا بِهِ وَحَبِيبِهَا
مُحَاسِنُهَا تَنْبِي بَسْرَ غُيُوبِهَا
وَتَنْقَادُ طَوْعًا إِنْ دَعَا بِقَرِيبِهَا
نَهَى وَلَهُمَّ يَرْضَى بِغَيْرِ رَحِيبِهَا
لِيَنْجِدَهَا فِي سَلْمِهَا وَحُرُوبِهَا
بِمَحْضَرِهَا أَسْرَارَهَا وَمَغِيبِهَا
تَقَرُّ لَهَا بِالْحَسَنِ عَيْنُ لَبِيبِهَا
لِغَرْنَاطَةِ قَاضٍ بِصَرْفِ خَطُوبِهَا
بِهِ قَدَرٌ كَالرَّيْحِ عِنْدَ هَبُوبِهَا
فِي سَبِي بِهِ الْأَلْبَابَ سَحَرُ نَسِيبِهَا
حَدِيثُ لَأَمَالٍ خَلَّتْ عَنْ غَرِيبِهَا
لَدَيْكَ بِذَاوِي فِكْرَتِي وَرَطِيبِهَا
يَرْفَعُ مِنْهَا سَاهِيًا عَنْ عِيُوبِهَا
لَأَبْلَغَ مِنْهَا فَاغْتَفَرَ مِنْ ذُنُوبِهَا

[قَطْعٌ مِنْ شَعْرِ الْأَزْدِيِّ]

وصاحب هذا النظم من أهل بلش ، وله اقتدار على النظم والنثر ، قال في

« الإحاطة » ما حصَّله : ومما وقع له أثناء مقامات وأغراض تشهد باقتداره مهملًا :

رعى الله عهداً حوى ما حوى	لأهل الوداد وأهل الهوى
أراهم أموراً حلاً وردها	وأعطاهم السؤلَ كلاً سوا
ولما حلا الوصلُ صالوا له	وراموه مأوى وماء رِوا
وأوردهم سرّاً أسرارهم	وردّ إلى كلّ داء دوا
وما أملّ طال إلا وهى	وما أملّ صال إلا هوى

وقال معجمة :

بثُّ بني يَبْثني فيض جفني	شغفي شَفْتي فشَبْتُ بيَّتي
فَتَنَّتني بغنَجٍ ظي تجني	تَبْغني نقْضَ نيّتي بتجني
بزّةٌ زِينَتْ قَضِيبَ تَشْني	قُضِيتْ بُغْيَتي ففَزْتُ بفنّ
خفتُ تَشْتيتَ بنيّ فجَفَّتني	ثَقّةٌ تَنْثني فَخُيَّبَ ظني

وقال كلمة وكلمة :

الهوى شَفْتي وأهملَ جفني	أدمعاً تَشْني دَمّاً بتْني
أحورٌ شَبَّ حرّاً بيّ لَمّا	نقْضَ العهدَ بينَ طولِ تجني
حاكمٌ يُتَقَى ولا ذنبَ إلا	شغفٌ لم يَخْبُ لمسعاه ظني
ماله ينقْضُ العهودَ فيشْجي	ولها يَنْثني مُسَهَّدَ جفنٍ
لم يَجْزُ وصله فبتٌ محالاً	يقتْضي حلَّ بغْيَتي كلُّ فنّ

وقال يرثي ديكاً فَقَدَه ، ويصف الوجد الذي وَجَدَه ، ويبكي عدم أذانه ،

إلى غير ذلك من مستظرف شانه :

أودى به الحنفُ لَمّا جاءه الأجلُ ديكاً فلا عِوَضُ منه ولا بَدَلُ

قد كان لي أملٌ في أن يعيشَ فلم
فقدته فلمعري إنها عظةٌ
ما كانَ أبدعَ مرآهُ ومنظرهُ
كأنَّ مطرَفَ وشي فوقَ ملبسه
كأنَّ إكليلَ كسرى فوقَ مفرقه
موقتٌ لم يكنْ يُغزى له خطأ
كأنَّ زرقال^١ فيما مرَّ علَّمه
يرحلُ الليلُ ، يحيي بالصراخ فما
رأيتُه قد وهتَ منه القوَى فهو
لو يُفتدى بديوكِ الأرضِ قلَّ له
قالوا الدواء فلم يغنِ الدواء ولم
أملتُ فيه ثواباً أجرَ محتسبٍ

يثبتُ مع الحتفِ في بقاءه لي أملٌ
وبالمواعظِ تذكري دمعها المقلُ
وصفاً به كلَّ حينٍ يضربُ المثلُ
عليه من كلِّ حسنٍ باهرٍ حللُ
وتاجه فهو عالي الشكلِ محتفلُ
فيما يرتبُ من وردٍ ولا خللُ
علمَ المواقيتِ ممَّا رتبَ الأولُ
يصده ككلِّ عنه ولا مللُ
للأرضِ فعلا يريه الشاربُ الثملُ
ذاك الفداء ولكن فاجأ الأجلُ
ينفعه من ذاك ما قالوا وما فعلوا
إن نلتُ ذلك صحَّ القولُ والعملُ

وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النصريين ، وقد نظر إلى شلير
وقد تردى بالثلج وتعمم ، وكمل ما أراد من بزته وتمم ، أن ينظم في وصفه ،
فقال بديها :

وشيوخ جليل القدر قد طال عمرهُ
عليه لباسٌ أبيضٌ باهرُ السنَا
فطوراً تراهُ كله كاسياً به
وطوراً تراهُ عارياً ليس يكتسي
وكم مرَّت الأيامُ وهو كما ترى
وذاك شليرُ شيخُ غرناطة التي

وما عنده علمٌ بطولٍ ولا قصرُ
وليس بثوبٍ أحكمته يدُ البشرُ
وكسوته فيها لأهلِ النهى عبرُ
بحرٌ ولا بردٌ من الشمسِ والقمرِ
على حاله لم يشكُ ضعفاً ولا كبرُ
لبهجتها في الأرضِ ذكرٌ قد اشتهرُ

١ يريد إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقال وقد وضع صحيفة في الرصد اسمها الزرقلة
(أو الزرقالة) .

بها ملك سامي المراقي ، أطاعه كبارُ ملوك الأرض في حالة الصغر
تولاه ربُّ العرش منه بعصمة تقيه مدَى الأيام من كلِّ ما ضررُ
وتوفي المذكور في بلده بلش في طاعون عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٣٨ - من لسان الدين إلى ابن رضوان]

وقال في « الإحاطة » في ترجمة صاحب القلم الأعلى بالمغرب أبي القاسم
ابن رضوان النجاري^١ ما صورته : ولما ولي الإنشاء بباب ملك المغرب ظهر
لسلطاننا بعض قصور في المراجعات ، فكتبت إليه^٢ :

أبا قاسم^٣ لا زلتَ للفضلِ قاسماً بميزان عدلٍ ينصرُ الحقَّ من نصَرُ
مدادك وهو المسك طيباً ومنظراً وإلاَّ سوادُ القلبِ والفؤادِ والبصرُ
عهدناه في كلِّ المعارفِ مطناً فما باله في حرمة الود مختصرُ
أظنك من ليل الوصالِ انتخبته إلينا ، وذاك الليلُ يوصفُ بالقصرُ
أردنا بك العذرَ الذي أنتَ أهله ومثلك لا يرُمى بعي ولا حصرُ

[٣٩ - جواب ابن رضوان]

فراجعي ، ولا أدري أهي من نظمه أم نظم غيره :

١ هو صاحب كتاب « الشهب اللامعة في السياسة النافعة » وترجمته في الإحاطة ، الورقة : ٢٤٤
والكتيبة : ٢٥٤ ونيل الابتهاج ١٢٣ والتعريف ٤١ (و ض : ٢٠) وفهرسة السراج (ك :
١٢٤٢ د : ٢٦٤٣) الورقة : ١٣٩ ، ١٤٨ ومستودع العلامة : ٥٢ ونشير الجمان ، الورقة :
٦٥ (نسخة دار الكتب) وجذوة الاقتباس : ٢٤٧ وقد كتبنا عنه دراسة مفصلة (نشرت في كتاب
العيد الصادر ببيروت سنة ١٩٦٧) .
٢ الأبيات وجوابها في الكتيبة : ٢٥٦ .
٣ كناه في الإحاطة بأبي محمد .

حقيقٌ أبا عبد الإله بك الذي لمذهبه في البر يتضح الأثر
وإن الذي نبهت مني لم يكن نؤوماً وحاشا الود أن أغمط الأثر
ورب اختصار لم يشين نظم ناظم ورب اختصار لم يعب نثر من نثر
وعذرک عنّي من محاسنک التي نظام حلاها في المماح ما انتثر
ومن عرف الوصف المناسب منصفاً تأتي له نهج من العذر ما دثر

[ترجمة ابن رضوان]

وهو عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النجاري ، من أهل مالقة ، صاحب العلامة العلية والقلم الأعلى بالمغرب ، قرأ على جماعة منهم بتونس قاضي الجماعة ابن عبد السلام ، قال في « التاج » فيه أيام لم يفهم حوضه ، ولا أزهر روضه ، ما نصّه : أديب أحسن ما شاء ، ومتح قلبه فملاً الدلو وبلاً الرشاء ، وعانى على حدائته الشعر والإنشاء ، وله ببلده بيت معمور بفضل وأمانة ، ومجد وديانة ، ونشأ هذا الفاضل على أتم العفاف والصون ، فما مال إلى فساد بعد الكون ، وله خط بارع ، وفهم إلى الغوامض مسارع ، وقد أثبت من كلامه ، ونفثات أقلامه ، كل محكم العقود ، زار بابنة العنقود ، فمن ذلك قوله ^١ :

لعلكما أن ترعيا لي وسائل فبالله عوجا بالركاب وسائل

ومنها :

لقد جار دهري إذ نأى بمطالبي وظلّ بما أبغي من القرب ماطلا
عتبت عليه فاغتندي لي عاتباً وقال : أصخ لي لا تكن قط عاذلاً
أتعبني أن قد أفدتك موقفاً لدى أعظم الأملاك حلماً وناثلاً

١ القصيدة في الإحاطة : ٢٤٦ - ٢٤٨ .

ملكٌ حباه الله بالخلق الرضى وأعلى له في المكرمات المنازل
وهي طويلة .

ومن نظم ابن رضوان المذكور^١ :

تبرأت من حوْلي إليك وأيقنتُ برحماك آمالي أصحَّ يقين
فلا أَرهبُ الأيامَ إذ كنتَ ملجأً وحسي يقيني باليقين يقيني

وكلفه أبو عنان وصف صيد من غدير فقال من أبيات^٢ :

ولربَّ يومٍ في حِمَاكَ شهدته والسرْحُ ناشرةٌ عليك ظلالها
حيثُ الغديرُ يريك من صفحاته درعاً تجيدُ بهِ الرياحُ صِقَالها
والمنشآتُ بهِ تديرُ حبالاً للصيد في حَيْلٍ تديرُ حبالها
وتُريكَ إذ يلقي بها اليمُّ الذي أخفتُ جوانحه وغاب خلاها
فحسبتها زَرَدًا وأنَّ^٣ عواليها تركتُ بهِ عند الطعانِ نصالها

وقال فيه أيضاً :

أبصرتُ في يومِ الغديرِ عجائباً جاءت بآياتِ العجائب مُبْصِرةً
سمكاً لدى شَبَكٍ فقلَّ ليلٌ بدت فيه الزواهرُ للتواظُرِ نيره
فكأنَّ ذا^٤ زَرَدٌ تضاعفَ نسجه وكأنَّ تلكَ أسِنَّةٌ متكسره

ومما نظمه عن أمر الخلافة المستعينية ليُكتب في طُرَّة قبة رياض الغزلان

١ الإحاطة : ٢٥٠ والكتيبة : ٢٥٩ .

٢ الكتيبة : ٢٥٧ .

٣ ق ص : لو أن .

٤ ق : فكأنه .

من حضرته ١ :

هذا محلُّ المُنَى بالأمنِ مَعْمُورُ
مَأْوَى النعيمِ به ما شئتَ من تَرَفٍ
ويطلعُ الروضُ منهُ مصنَعاً عَجَباً
ويسطعُ الزهرُ من أرجائه أرجاً
مَغْنَى السرورِ سقاه الله ما حَمَلَتْ
انظر إلى الروضِ تنظرُ كلَّ معجبةٍ
مرَّ النسيمُ به يبغي القِرَى فقَرَى
وهامتِ الشمسُ في حسنِ الظلالِ به
والدوحُ ناعمةٌ تهتزُّ من طربٍ
كأنَّما الطيرُ في أفنائها صَدَحَتْ
والنهرُ شقٌّ بساطَ الروضِ تحسبه
ينسابُ للثَّجَّةِ الخضراءِ أزرقه
هذي مصانعُ مولانا التي جمعتُ
وهذه القبة الغراءُ ما نظرت
ولا يصورُها في الفهمِ ذو فِكْرٍ
ولا يرامُ بحَصْرِ وصفٍ ما جمعتُ
فيها المقاصيرُ تحميها مهابته
كأنَّها الأفقُ تبدو النيراتُ به
وينشأُ المزنُ في أرجائه وله
وينهمي القَطْرُ منه وهو منسكبُ

مَنْ حَلَّه فهو بالآمالِ محبورُ
تَهْوَى محاسنهُ الولدانُ والخورُ
يضاحكُ النُّورَ من لآلئه النُّورُ
ينافحُ الندَّ نشرٌ منه منشورُ
غرُّ الغمامِ وحلَّتْهُ الأزاهيرُ
مما ارتضاه لرأي العينِ تحبيرُ
دراهمَ النورِ تبديدٌ وتنثيرُ
ففرَّقَتْ فوقها منه دنانيرُ
همساً ، وصوتُ غناء الطيرِ مجهورُ
بشكرِ مالِكها ، والفضلُ مشكورُ
سيفاً ولكنهُ في السلمِ مشهورُ
كالأيمِ جدَّ انسياباً وهو مذعورُ
شملَ السرورُ ، وأمرُ السعدِ مأمورُ
لشكلها العَيْنُ إلاَّ عزَّ تنظيرُ
إلا ومنه لُكُلُ الحسنِ تصويرُ
من المحاسنِ إلاَّ صدَّ تقصيرُ
لله ما جمعتُ تلك المقاصيرُ
ويستقيمُ بها في السعدِ تسييرُ
من عنبرِ الشَّحْرِ إنشَاءً وتَسْخِيرُ
ماءٌ من الوردِ يذكو منه تقطيرُ

وتتحقق الريحُ منهُ وهي ناسمةُ
ويشرق الصبحُ منه وهو من غُررِ
وتطلعُ الشمسُ فيه من سَناءِ ملكِ
لله منهُ إمامٌ عادلٌ بهرتُ
غيثُ السماحِ وليثُ البأسِ فالتقَ به
قلُ للمُباري وإن لم تلقه أبدأ
فخر الأنامِ أحلَّ الفخرَ منزله
إذا أبو سالم مولى الملوك بدأ
فأيَّ خطبٍ يخافُ الدهرَ آملهُ
بشراكِ بشراكِ يا نجلَ الخلافةِ ما
لكِ الخلودُ بعزِّ الملكِ في نعمِ
فانعمِ هنيئاً بِلذاتِ مواصلةِ
لا زلتَ تلقى المُنَى في غبطةِ أبدأ
وقال وكتب به على قلم فضة :

إذا شهدتُ بالنصرِ خطيئةَ القنا
كفى شاهداً مني بفضلكِ ناطقاً
وقال وكتب به على سكين :

أروحُ بأمرِ المستعينِ وأغتدي
ويفعل في الأقلامِ حَدِّي مصلحاً
لإذهابِ طغيانِ البراعِ الرواقمِ
كفعل ظبي أسيافه في الأقالِمِ
قال : ومما كتب به على قصيدة عيدية :

لما رأيتُ هدايا العيدِ أعظمها
هديةُ الطيبِ في حُسنٍ وتعجيبِ

ولم أجد في ضروب العاطرات شذا
أهديتُ نحوك منه كل ذي أرج
وفي القبول منال السعد فالتق به
وقال في رجل يلقب بالبعير :

وذي لقب عنت له عند صحبه
دعوه بعيراً فاستشاط فقال مه
فقلت له عد نحوهم لتعود من
فقال وقد غص الفضاء بصوته
لئن عدت نادوني بعيراً كمثلها
وقال ٢ :

وبخيل لما دعوه لسكني
قال لي مخزن بداري فيه
قلت وفقت للصواب فحاذر
لا تعرج على الجنان بسكني
وقال رحمه الله تعالى في مركب :

يا رب منشأة عجبت لشأنها
سكنت بجنيها عصابة شدة
فتحركت بإرادة مع أنها
وقد احتوت في البحر أعجب شأن
حلت محل الروح في الجثمان
في جنسها ليست من الحيوان

١ يوري بكلمة « العود » وهو البعير أيضاً . وفي ص : لا تمش .
٢ الأبيات في الإحاطة : ٢٥٤ وكذلك القطعتان التاليتان . والثانية منهما في الكتيبة : ٢٥٨ .
٣ يوري بمالك التي تعني المال ، ومالك هو خازن النار .

وَجَرَّتْ كَمَا قَدْ شَاءَ سُكَّانُهَا فَعَلِمْتُ أَنَّ السَّرَّ فِي السُّكَّانِ^١
وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

وَذِي خُدَعٍ دَعَا دَعْوَهُ لَاشْتِغَالٍ وَمَا عَرَفُوهُ غَثًّا مِنْ سَمِينٍ
فَأَظْهَرَ زَهْدَهُ وَغَنَى بِمَالٍ وَجِيشُ الْحَرْصِ مِنْهُ فِي كَمِينٍ
وَأَقْسَمَ لَا فَعَلْتُ يَمِينَ خَبٍّ فَيَا عَجَبًا لِحِلَافٍ مَهِينٍ
يَغُرُّ بَيْسَرَهُ وَيَمِينُ حَنْثٍ لِيَأْكُلَ بِالْيَسَارِ وَبِالْيَمِينِ
وَهُوَ الْآنَ بِحَالِهِ الْمَوْصُوفَةِ ؛ انْتَهَى .

[٤٠ - مخاطبة أبي بكر ابن عبد الملك للسان الدين]

وَقَالَ لِسَانُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : خَاطَبَنِي أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ
الْمَلِكِ مُسْتَدْعِيًّا إِلَى إِعْذَارِ وَلَدِهِ بِقَوْلِهِ :

أُرِيدُ مِنْ سَيِّدِي الْأَعْلَى تَكْلُفَهُ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى دَارِي صَبَاحَ غَدٍ
يَزِيدُنِي شَرْفًا مِنْهُ وَيُبْصِرُنِي صِنَاعَةَ الْقَاطِعِ الْحِجَامِ فِي وَلَدِي
فَأَجَبْتُهُ :

يَا سَيِّدِي الْأَوْحَدَ الْأَسْمَى وَمُعْتَمِدِي وَذَا الْوَسِيلَةَ مِنْ أَهْلِي وَمَنْ بَلَدِي
دَعَوْتَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ الصُّحَابَ ضَحَى وَفِيهِ مَا لَيْسَ فِي سَبْتٍ وَلَا أَحَدٍ
يَوْمُ السَّلَامِ عَلَى الْمَوْلَى وَخِدْمَتِهِ فَاصْفَحْ وَإِنْ عَثَرْتُ رَجُلِي فَخَذْ بِيَدِي
وَالْعَذْرُ أَوْضَحُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ فَعَدْتُ إِنْ غَبْتُ عَنْ لَوْمٍ وَعَنْ فَنَدٍ
بَقِيَتْ فِي ظِلِّ عَيْشٍ لَا نَفَادَ لَهُ مَصَاحِبًا غَيْرَ مُحْصُورٍ إِلَى أَمَدٍ

١ التورية في السكان من المثل « الشأن في السكان لا في المكان » والسكان أيضاً « دقة السفينة » .

[ترجمة أبي بكر ابن عبد الملك]

وأبو بكر المذكور أصله من باغُه ، ونشأ بلوشة ، وهو محسوب من الغرناطين .

وفي « التاج » في حقّه ما صورته : فارضٌ هاجي ، مُداهن مداجي ،
أخبث من نظر من طرف خفي ، وأغدر من تلبس بشعارٍ وفي ، إلى مكيدة مبثوثة
الحبائل ، وإغراء يقطع بين الشعوب والقبائل ، من شيوخ طريقة العمل ، المتقلبين
من أحوالها بين الصّحُو والثلُم ، المتعللين برسومها حين اختلط المرعيُّ بالهمَل ،
وهو ناظمٌ أرجاز ، ومستعمل حقيقة ومجاز ، نظم مختصر السيرة ، في الألفاظ
اليسيرة ، ونظم رجزاً في الزجر والقال ، نبّه به تلك الطريقة بعد الإغفال ؛ انتهى .

قال : ومن شعره :

إنَّ الولايةَ رفعةٌ لكنّها أبدأ إذا حققتها تنقلُ
فانظر فضائلَ من مضى من أهلها تجد الفضائلَ كلّها لا تغزلُ
توفي بالطاعون بغرناطة عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٤١ - مخاطبة أبي سلطان للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي سلطان عبد العزيز بن علي الغرناطي بن يشت ما صورته ١ :
ومما خاطبني به قوله :

أطلتُ عتبَ زمانٍ فلّ من أُملي وسُمته الذمّ في حلّ ومرتحلٍ
عاتبته ليُلين العتبُ جانبَه فما تراجعَ عن مَطل ولا بخَلٍ

١ ترجمته في الإحاطة ، الورقة : ٣١٥ .

فعدتُ أَمْنَحَهُ العُتْبَى ليشفقَ لي
فالعُتْبُ عِنْدِي كَالْعُتْبَى فَلَسْتُ أَرَى
فقلتُ لِلنَّفْسِ كُفِّي عَن مَعَاتِبَةٍ
مَنْ يَعْتَلِقُ فِي الدُّنْيَا بَابِنَ الْحَطِيبِ فَقَدْ
قَالَتْ فَمَنْ لِي بِتَقْرِيبي لخدمته
فقال للناسِ كُفُّوا عَن مُحَادِثِي
قَدْ اشْتَغَلْتُ عَنِ الدُّنْيَا بِآخِرَتِي
وَقَدْ رَعَيْتُ وَمَا أَهْمَلْتُ مِنْ مَنَحٍ
وَلَسْتُ أَرْجِعُ لِلدُّنْيَا وَزَخْرَفَهَا
أَلَسْتَ تَبْصُرُ أَطْمَارِي وَبَعْدِي عَن
فقلتُ ذَلِكَ قَوْلٌ صَحَّ مَجْمَلُهُ
مَا أَنْتَ جَالِبُ أَمْرٍ تَسْتَعِينُ بِهِ
وَلَا تَحِلُّ حَرَامًا أَوْ تَحْرِمَ مَا
وَلَا تَبْعُ آجَلَ الدُّنْيَا بِعَاجِلِهَا
وَأَيْنَ عِنكَ الرِّشَا إِنْ ظَلَمْتَ تَطْلُبُهَا
هَلْ أَنْتَ تَطْلُبُ إِلَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى
فَمَا لِأَوْحَدٍ هَذَا الْكُونِ قَاطِبَةً
لَمْ يَلْتَفِتْ نَحْوَ مَا تَبْغِيهِ مِنْ وَطَرٍ
إِنْ لَمْ تَقَعْ نَظَرُهُ مِنْهُ عَلَيْكَ فَمَا
فَدُونُكَ السَّيِّدَ الْأَعْلَى فَمَطْلَبُكُمْ
فَقَدْ خَبَّرْتُ بَنِي الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهِمْ
فَمَا رَأَيْتُ لَهُ فِي النَّاسِ مِنْ شَبَهٍ
وَقَدْ قَصِدْتُكَ يَا أَسْمَى الْوَرَى هَمَمًا
فَمَا سَوَاكَ لِمَا أَمَلْتُ مِنْ أَمَلٍ

فقال لي إِنَّ سَمْعِي عِنكَ فِي شُغْلٍ
أُصْغِي لِمَدْحِكَ إِذْ لَمْ أُصْغِ لِلْعَدَلِ
لَا تَنْقُضِي وَجُوبَ صَبْغٍ مِنْ وَجَلٍ
سَمَا عَنِ الذِّلِّ وَاسْتَوَلَى عَلَى الْجَذَلِ
فَقَدْ أَجَابَ قَرِيبًا مِنْ جَوَابِكَ لِي
فَلَيْسَ يَنْفَعُكُمْ حَوْلِي وَلَا حِيلِي
وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ أَيَّامِي الْأَوَّلِ
فَكَيْفَ يَخْتَلِطُ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ
مِنْ بَعْدِ شَيْبِ غَدَا فِي الرَّأْسِ مُشْتَعِلٍ
نِيلِ الْحُظُوظِ وَإِغْذَاذِي إِلَى أَجَلِي
لَكِنَّ مِنْ شَأْنِهِ التَّفْصِيلُ لِلْجُمَلِ
عَلَى الْمَظَالِمِ فِي حَالٍ وَمُقْتَبَلِ
أَحْلَى رَبُّكَ فِي قَوْلٍ وَلَا عَمَلِ
كَمَا الْوَلَاةُ تَبِيعُ الْيَمَّ بِالْوَشَلِ
هَذَا لِعَمْرِي أَمْرٌ غَيْرُ مَنْفَعَلِ
كُتِبَ الْمَقَامُ الرَّفِيعُ الْقَدْرُ فِي الدُّوَلِ
وَأَسْمَحُ الْخَلْقِ مِنْ حَافٍ وَمَنْتَعَلِ
وَلَمْ يَسُدَّ الَّذِي قَدْ بَانَ مِنْ خَلَلِ
يَصْفُو لَدَيْكَ الَّذِي أَمَلْتُ مِنْ أَمَلِ
قَدْ نَيْطَ مِنْهُ بِفَضْلِ غَيْرِ مَنْفَصَلِ
مِنْ عَالَمٍ وَحَكِيمٍ عَارِفٍ وَوَلِي
قَلَّ النَّظِيرُ لَهُ عِنْدِي فَلَا تَسَلِ
وَلَيْسَ لِي عَنْ حَمِي عَلَيْكَ مِنْ حَوْلِ
وَلَيْسَ لِي عِنكَ مِنْ زَيْغٍ وَلَا مَيْلِ

فانظرُ لحالي فقد رقَّ الحسود لها
ودمٌ لنا ولدينِ الله ترفعُهُ
لا زلتَ معتلياً عن كلِّ حادثةٍ
كما علتَ ملّةُ الإسلام في المللِ
واحسم زمانةً ما قد ساء من عللِ
ما أعقبتُ بُكرُ الإصباح بالأصلِ
انتهى .

[ترجمة عبد العزيز أبي سلطان]

والمذكور هو عبد العزيز بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن يشت ، من غرناطة ، يكنى أبا سلطان ، قال في « الإحاطة » في حقه : فاضل حي حسن الصورة بادي الحشمة ، فاضل البيت سريته ، كتب في ديوان الأعمال فأتقن ، وترقى إلى الكتابة السلطانية ، وسفر في بعض الأغراض الغربية ، ولازم الشيخ أبا بكر عتيق بن مقدم من مشيخة الصوفية بالحضرة فظهرت عليه آثار ذلك في نظمه ومقاصده ، فمن نظمه ما أنشده ليلة الميلاد المعظم :

القلبُ يعشق والمسمعُ تنطقُ
إن كنتُ أكنم ما أكنُ من الجوى
وتدلّني عندَ اللقا وتملّقي
فلكم سترتُ عن الوجود محبتي
ولكم أمّوه بالطلول وبالكني
ظهر الحبيبُ فلستُ أبصرُ غيره
ما في الوجود تكثّرٌ لمكثّرٍ
فمتى نظرتُ فأنتَ موضعُ نظرتي
يا سائلي عن بعض كنه صفاته
فاسلكُ مقاماتِ الرجالِ محققاً
مزقُ حجابَ الوهم لا تحفلُ به
برحَ الخفاء فكلُّ عضو منطقُ
فشحوبُ لوني في الغرام مصدقُ
إنَّ المحبَّ إذا دنا يتملّقُ
والدمعُ يفضحُ ما يسِرُّ المنطقُ
وأخوضُ بحرَ الكتم وهو الأليقُ
فبكلِّ مرثيٍ أرى يتحققُ
إنَّ المكثّرَ بالأباطلِ يعلقُ
ومتى نطقْتُ فما بغيرك أنطقُ
ككلِّ اللسانِ وكلِّ عنه المنطقُ
إنَّ المحققَ شأوه لا يلحقُ
فالوهمُ يسترُ ما العقولُ تحققُ

واخلص إذا شئت الوصول ولا تثل^١
 إن التحلي في التحلي فاقصد
 ولتقبس نار الكليم ولا تخف
 ومتى تجلّى فيك سرّ جماله
 دع رتبة^٢ التقليد عنك ولا ته
 واقطع حبال علائق وعوائق
 جرّد حسام النفس عن جفن الهوى
 فإذا فهمت السرّ منك فلا تبخ
 بالذوق لا بالعلم يدرك علمنا
 وبما أتى عن خير من وطىء الثرى
 خير الورى وابن الذبيحين الذي
 من أخبر الأنبا قبل بيعته
 رفعت له الحجب التي لم ترتفع
 ورقى مقاماً قصرت عن كنهه
 وطىء البساط تدلاً وجرى إلى
 إنسان عين الكون مبلغ سرّه
 سرّ الوجود ونكته الدهر الذي
 من جاء بالآيات يسطع نورها
 يا سيّد الأرسال غير مدافع
 بالفقر جثك موثلي لا بالغنى
 فاجبر كسير جرائر وجرائم

فالعجز عن طلب المعارف موبق
 ذاك الجناب ، فبابه لا يغلّق
 والغ السوى إن كنت منها تفرّق
 وصعقت خوفاً فالمكلم يصعق
 تلقّ الذي قيّدت وهو المطلق
 إنّ العوائق بالمكاره تطرق
 إنّ العوائد بالتجرد تحرق
 فالسيف من بثّ الحقائق أصدق
 سرّ بمكنون الكتاب مصدق
 سرّ الوجود وغيثه المتدفق
 أنواره في هديها تتألق
 ولنصّه سرّ الكتاب يصدق
 إلا إليه فكلّ سرّ يحرق
 رتب الوجود وكعّ عنه السبق
 أمد تنهى ما إليه مسبّق
 قطب الجمال وغيثه المتدفق
 كلّ الوجود بحوده يتعلّق
 والذكر فهو عن الهوى لا ينطق
 وأجلّهم سبقاً وإن هم أعنقوا
 فالذلّ والإذعان عندك ينفق
 فالقلب من عظم الخطايا يقلّق

١ لا تثل : لا تقصر .

٢ ق : رتبة .

أرجوك يا غوث الأنام فلا تدع
 حاشاك تطرد من أذاك مؤملاً
 ومحبتي تقضي بآنك منقذي
 يا هل تساعدني الأماني والمني
 إن كان ثبطني القضا بمقيّد
 ولئن ثوى شخص بأقصى مغرب
 فعليك يا أسنى الوجود تحية
 وعلى صحابتك الدين تأنقوا
 وعلى الألى آووك في أوطانهم
 أعظم بأنصار النبي وحزبه
 من مثل سعد أو كقيس نجله
 أكرم بهم وبمن أتى من سرهم
 من مثل نصر أو بنه ملوكنا
 بمحمد نجل الخليفة يوسف
 مولى الملوك وتاج مفرق عزهم
 ملك يرى أن التقدم مغنم
 تروى أحاديث الوغى عن بأسه
 ملك البسالة والمكارم والنهى
 ملئت قلوب عداه منه مهابة
 مولاي يا أسنى الملوك ومن غدت
 لا تقطعوا عني الذي عودتم
 لا تحرموني مطلبي فمحبتي
 فأنعم بردي في بساطك كاتباً
 فاسلم أمير المسلمين لأمة

باب الرضى دوني يسد ويغلق
 فلأنت لي مني أحن وأرفق
 مما أخاف فما بغيرك أعلق
 وأحل حيث سنا الرسالة يشرق
 فعنان عزمي نحو مجدك مطلق
 فتشوقي مني إليك يشرق
 من طيب نفحتها البسيطة تعبق
 رتب الكمال ومثلهم يتأنق
 نالوا بذلك رتبة لا تلحق
 وبمن أتى بعباءة يتعلق
 عرف السيادة من حماهم ينشق
 عز النظر فمجدهم لا يلحق
 كل الأنام لعزهم يتملق
 عز الهدى فحماه ما إن يطرق
 وأجل من تحدى إليه الأيتق
 مهما تعرض موكب أو فيلق
 فالسيف يسند والعوالي تطلق
 فعُداته منه تغص وتفرق
 فمغرب من خوفه ومشرق
 عين الزمان إلى سناه تحديق
 فالعبد من قطع العوائد يشفق
 تقضي لسعيي أنه لا يخفق
 وأعد لما قد كنت فهو الأليق
 أفواههم ما إن بغيرك تنطق

واهناً بها من ليلة نبوية جاءت بأكرم من به يتعلق
صلّى عليه الله ما هبت صباً واهتز غصن في الحديقة مورك

ثم قال : وهو الآن بحالته الموصوفة ؛ انتهى .

[٤٢ - رسالة من النباهي للسان الدين]

ومما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ما حكاه في « الإحاطة » في
ترجمة القاضي أبي الحسن النباهي ، إذ قال ما نصّه : وخاطبني بسبته وأنا يومئذ
بسلاً بقوله : يا أيتها الآية البالغة وقد طُمست الأعلام ، والغرة الواضحة وقد
تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة وقد ذهب الكرام ، أبقاكم الله تعالى البقاء
الجميل ، وأبلغكم غاية المراد ومُنْتَهَى التأميل ، أبى الله أن يتمكن المقام بالأندلس
بعدكم ، وأن يكون سكون النفس إلا عندكم ، سرّ من الكون غريب ،
ومعنى في التشاكل عجيب ، أختصر لكم الكلام ، فأقول بعد التحية والسلام :
تفاقت الحوادث ، وتعاضمت الخطوب الكوارث ، واستأسدت الذئاب الأخابث ،
ونكث الأكثر من ولد سام وحام ويافث ، فلم يبق إلا كاشح باحث ، أو مكافح
عابث ، ويا ليت شعري من الثالث ؟ فحينئذ وجهت وجهي للفاطر الباعث ،
ونجوت بنفسي لكنّ منجى الحارث ، وقد عبرت البحر كسير الجناح ،
دامي الجراح ، وإنّي لأرجو الله سبحانه بحسن نيتكم أن يكون الفرج قريباً ،
والصنع عجيباً ، فعِمادي أعان الله على القيام بواجبه ، هو الركن الذي ما زلت
أميل على جَوَانِبه ، ولا تزيدني الأيام إلا بصيرة في الإقرار بفضله والاعتداد به ،
وقد وصلني خطابُ سيدي الذي جلتى الشكوك بنور يقينه ، ونصح النصيح
اللائق بعلمه ودينه ، وكأنّه نظر إلى الغيب من وراء حجاب ، فأشار بما أشار به
على سارية عمر بن الخطاب ، ومن العجب أنّي عملت بمقتضى إشارته ، قبل
بلوغ إضبارته ، فله ما تضمّنه مكتوبكم الكريم من الدر ، وحرّره من الكلام

الحر ، وايم الله لو تجسم لكان مَلَكًا ، ولو تنسم لكان مسكًا ، ولو قبس لكان شهابًا ، ولو لبس لكان شابًا ، فحلّ مني علم الله تعالى محل البرء من المريض ، وأعاد الأنس بما تضمّنه من التعريض ، والكلم المُرّية بقطّع الروض الأريض ، فقبلته عن راحتكم ، وتخيلت أنّه مُقيم بساحتكم ، ثم وردتُ معينه الأصفى ، وكلت من بركات مواعظه بالمكيال الأوفى ، وليست بأول أياديكم ، وإحالتكم على الله فهو الذي يجازيكم ، وبالجملّة فالأمور بيد الأقدار ، لا إلى المراد والاختيار :

وما كلُّ ما ترجو النفوسُ بنافعٍ ولا كلُّ ما تخشى النفوسُ بضرّارٍ انتهى .

قلت : أين هذا الكتاب من الذي قدمناه عنه في الباب الثاني ، حين أظلم بينه وبين لسان الدين الجوّ وعِطْفه إلى مُهاجاته ثاني ، وسفّر في أمره إلى العُدوة ، واجتهد في ضرره بعد أن كان له به القدوة ، وقد قابله لسان الدين بما أذهب عن جفنه الوَسَن ، وألف فيه كما سبق « خَلَع الرسن » .

[ترجمة النباهي]

على أنّه عرف به في « الإحاطة » أحسن تعريف ، وشرّفه بحلاه أجمل تشريف ، إذ قال ما ملخصه^١ : علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله ابن الحسن بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي أبو الحسن ، ويُعرف بالنباهي ، هذا الفاضل قريعُ بيت مَجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، خاطب للشيخوخة ، مستعجل للشيبة ، ظاهر الحياء ، متحرّك مع السكون ، بعيد الغرور ، مرهف الجوانب

١ قارن بما كتبه عنه في الكتيبة : ١٤٦ بعد أن تغيرت النفوس .

مع الانكماش ، مقتصد في الملبس والآلة ، متظاهر بالسذاجة ، بريء من النوك والغفلة ، يقظ للمعارض ، مهتد إلى الملاحن ، طرف في الجود^١ ، حافظ مقيّد طلعة إخباري ، قائم على تاريخ بلده ، شرع في تكميل ما صنف فيه ، ملازم للتقييد والتطير^٢ ، منقّر عن الإجازات والفوائد ، استفدت منه في هذا الغرض وغيره كثيراً ، حسن الخط ، ناظم ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير ، استظهر محفوظات منها « النوادر » للقالي ، وناهيك به محفوظاً مهجوراً ، ومسلماً غفلاً ، فما ظنك بسواه ، نشأ ببلده حرّ الطعمة فاضل الأبوة ، وقرأ به ، ثم ولي القضاء بملتاس^٣ ثم ببلش وعملها ، فسيح الخطّة مطلق الجراية ، بعيد المدى في باب النزاهة ، ماضياً غير هيوب ، حتى أربى في الزمن القريب على المحتكنين ، وغبّر في وجوه أهل الدربة ، وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا ، جارية على المسائل المشهورة ، ثم نُقل منها إلى النظر في أمور الحل والعقد بمالقة مضافة إليه الخطط النبيهة ، وصدر له منشور من إملائي ، إلى أن قال في ترجمة نظمه : قال نظمت سمح الله تعالى لي قطعتين مؤطّناً فيهما على البيتين المشهورين ، إحداهما :

بنفسي من غزلان حزّوى غزالة	جمالٌ محيّاها عن النسك زاجرٌ
تصيدُ بلحظ الطرف من رام صيدها	ولو أنّه النسر الذي هو طائرٌ
مُعطرّة الأنفاس رائقة الحلّى	هواها بقلبي في المهامه سائرٌ
« إذا رمت عنها سلوة قال شافع »	من الحبّ : ميعاد السلو المقابر »

والأخرى :

وقائلة لما رأت شيب لمتي لئن ملّت عن سلمى فعذرك ظاهرٌ

١ ق : المجون .

٢ التطير : التقييد في طرر الكتب .

٣ ق : بملتامو .

زمانُ التصابي قد مَضَى لسبيله وهل لك بعد الشيبِ في الحبِّ عاذرُ
فقلتُ لها : كلا وإن تلفَ الفتى فما لهواها عند مثلي آخرُ
« سيبقى لها في مضمر القلب والحشا سريرةٌ ودَّ يومَ تبلى السرائرُ »

وكتب على مثال النعل الكريم ، وأهداه لزمع سفر :

فديتك لا يهدى إليك أجل من حديث نبي الله خاتم رُسُلِهِ
ومن ذلك الباب المثال الذي أتى به الأثرُ المأثورُ في شأنِ نعلِهِ
ومن فضله مهما يكن عند حاملٍ له نال ما يهواه ساعة حمله
ولا سيما إن كان ذا سفرٍ به فقد ظفرت يمناه بالأمنِ كله
فدونك منه أيها العلمُ الرضى مثلاً كريماً لا نظيرَ لمثله

وقال مراجعاً عن أبيات يظهر منها غرضها :

إذا كنت بالقصد الصحيح لنا تهوى فسلم لنا في حكمنا ودع الشكوى
ولا تتبع أهواء نفسك والتفت لنا حيث كنا في الرخاء وفي اللأواء^١
وكم من محبة في رضانا وحبنا محاً كل ما يبدو سوانا له محوا
رأنا عياناً عين معنى وجوده فعاج عن الشكوى وفوض في البلوى
وقال تحكّم كيف شئت بما ترى رضيت بما تقضي وهمت بما تهوى
فحلّ لدينا بالخلوص وبالرضى محلّ اختصاص نال منه المنى صفوا
فإن كنت ترجو في الصبابة والهوى لحاقاً بهم فاسلك طريقهم الأضواء
ومت في سبيل الحب إن كنت مخلصاً لنا في الهوى تحيا حياة أولي التقوى
هنالك تؤتى ما تريد وتقتضي ديونك منّا دون مَطلٍ ولا دعوى
وتشرب من عين اليقين وتغتذي بنخمر الصفا الصرف الزلال لكي تروى

١ اللأواء : الشدة .

وقال :

لا تلجأَنَّ لمخلوقٍ منَ الناسِ من يافثٍ كان أصلاً أو من الياسِ
وثقُ بربِّكَ لا تيأسُ تجدُ عجباً فلا أضربُ على عبدٍ من الياسِ

وقال :

فديتك لا تصحبُ لثيماً ، ولا تكنُ مُعيناً له إنَّ اللثيمَ خثونُ
فلا عهدَ يرعى ، لا ، ولا نعمةَ يرى ولا سرّاً خلٍّ عن عداه يصونُ

وقال يخاطب أبا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان :

لكَ اللهُ قلبي في هواكَ رهينُ وروحي غني إن رحلتَ ظعِينُ
ملكْتَ بحكم الفضلِ كلِّي خالصةً وملككَ للحرِّ الصريحِ يزينُ
فهبْ لي من نطقي بمقدارٍ ما بهِ يترجم سرٌّ في الفؤادِ دفينُ
فقد شملتنا من رضاكَ ملابسُ وسحَّ لدينا من نَدَاكَ مَعِينُ
أعنتَ على الدهرِ الغشومِ ولم تزلْ بدُنياكَ في الأمرِ المهمِّ تعينُ
وقصَّرَ من لم تعلم النفسُ أَنه خذولُ إذا خان الزمانُ يخونُ
وإني بحمدِ اللهِ عنه لفي غنى وحسبي صبرٌ عن سواكَ يصونُ
أبى لي مجدٌ عن كرامِ ورثته وقوفاً ببابِ للكريمِ يهينُ
ونفسٌ سمتْ فوقَ السماكينِ همةً وما كلُّ نفسٍ بالهوانِ تدينُ
ولما رأتْ عيني مُحَيَّاكَ أقسمتْ بأنك للفعلِ الجميلِ ضمينُ
وعاد لها الأنسُ الذي كان قد مضى بريّةً إذ شرخُ الشبابِ خدينُ
يحيث نشأنا لابسين حلى التقى وكلُّ بكلٍّ عند ذاكِ ضنينُ
أما وسنا تلكَ الليالي وطبيها ووجد غرامي ، والحديثُ شجونُ
وفتيانِ صدق كالشموسِ وكالحيا حديثهم ما شئتَ عنه يكونُ
لئن نرحتُ تلكَ الديار فوجدنا عليها له بين الضلوعِ أنينُ

إذا مرَّ حينٌ زاده الشوقُ جِدَّةً
 وأننى بمسلاها ، وللبين لذعةُ
 لقد عبثتُ أيدي الزمانِ بجمعنا
 وبعدُ التقينا في محلٍّ تغرَّبُ
 فقابلتَ بالفضلِ الذي أنتَ أهله
 وغبتَ وما غابت مكارمك التي
 يميناً لقد أوليتنا منك نعمةً
 ويقصرُ عنها الوصفُ إذ هي كلُّها
 ولما قدمتَ الآن زاد سرورنا
 لأنك أنتَ الروحَ منا وكلنا
 ولو كان قدر الحبِّ فيك لقاءنا
 ولكن قصَّدنا راحةَ المجد جهداً
 هنيئاً هنيئاً أيَّها العلمُ الرضى
 لك الحسنُ والإحسانُ والعلمُ والتقى
 وكم لك في بابِ الخلافةِ من يدٍ
 وقامتُ عليها للملوكِ أدلةُ
 فلا وجهَ إلا وهو بالبشرِ مُشرقُ
 بقيتَ لرَبِّ الفضلِ تحمي ذماره
 ودونك يا قطبَ المعالي بُنيَّةُ
 أبتك ابنَ رضوانٍ تمتُّ بودها
 فخلَّ انتقادَ البحثِ عن هفواتها
 وخذها على علاتها فحديثُها

وليسَ بعابٍ للربوعِ حنينُ
 أقلُّ أذاهاً للسَّليمِ جنونُ
 وحانَ افتراقُ لم نخلهُ يحينُ
 وكلُّ الذي دونَ الفراقِ يهونُ
 وما لك في حُسْنِ الصنيعِ قرينُ
 على شكرها الربُّ العظيمُ يعينُ
 تلذُّ بها عندَ العيانِ عيونُ
 لها وجهُ حرٍّ بالحياءِ مصونُ
 ومقدمك الأسنى بذاك قمينُ
 جسومٌ ، فعند البعدِ كيف نكونُ
 إليك لكننا باللسزومِ ندينُ
 فراحتُهُ شَمَلُ الجميعِ تصونُ
 بما لك في طيِّ القلوبِ كمينُ
 فحبِّك دنيا للمحبِّ ودينُ
 أقرتَ لها بالصدقِ منك مرَّينُ
 فأنتَ لديها ما حيتَ مَكينُ
 ولا نطقَ إلا عن عَلاكِ مَينُ
 صحيحاً كما قد صَحَّ منك يقينُ
 من الفكرِ عن حالِ المحبِّ تبينُ
 وما لسوى الإغضاءِ منك ركونُ
 ومَهْدُها بالسمعِ حيثُ تكونُ
 حديثُ غريبٍ قد عراه سكونُ

وهو بحاله الموصوفة ؛ انتهى باختصار .

ولما كتب لسان الدين الى شيخه الرئيس الكاتب أبي الحسن الجياب قصيدة أولها^١ :

أُستخرجاً كنزَ العقيقِ بآماقي أناشدك الرحمنَ في الرَّمَقِ الباقي
فقد ضعفتُ عن حملِ صبري طاقي عليك وضافتُ عن زفيري أطواقي

وهي طويلة أجابه عنها بقوله :

سقاني فأهلاً بالمدامة^٢ والساقِ سُلَفاً بها قام السرورُ على ساقِ
ولا نَقْلَ إلا من بدائعِ حكمةِ ولا كأسَ إلا من سطورِ وأوراقِ
فقد أنشأتُ لي نشوةً بعد نشوةِ تمدُّ بروحانيةِ ذاتِ أذواقِ
فمن خطُّها الفاني^٣ متاع لناظري وسمعي، وحظ الروح من خطها الباقي
أعادتُ شبابي بعد سبعين حجةً فأثوابه قد جدَّت بعد إخلاقِ
وما كنتُ يوماً للمدامةِ صاحباً ولا قبلتها قطُّ نشأةً أخلاقي
ولا خالطتُ لحمي ولا مازجتُ دمي كفى شرّها مولاي فالفضلُ للواقي
وهذا على عهدِ الشبابِ ، فكيف لي بها بعد ماءٍ للشبيبةِ مُهرَاقِ ؟
تَبَصَّرُ فحكما القهوتين تخالفا فكم بين إثباتِ لعقلٍ وإزهاقِ
وشتان ما بين المُدامين فاعتبرُ فكم بين إنجاحِ لسعي وإخفاقِ
فتلك تهادى بين ظلمٍ وظلمةِ وهذي تهادى بين عدلٍ وإشراقِ
أيا علَمَ الإحسانِ غيرَ منازعِ شهادةَ إجماعٍ عليها وإصفاقِ

١ انظر الكتيبة : ١٨٦ .

٢ الكتيبة : بالسقاية .

٣ الكتيبة : الباهي .

٤ الكتيبة : وإطباق .

فضائلك الحُسنَى عليّ تواترتُ
خزائنُ آدابٍ بعثتُ بدُرّها
ولا مثلَ بكرٍ حرّةٍ عربيّةٍ
فأقسم ما البيضُ الحسانُ تبرّجتُ
بدورُ بدتُ من أفق أطواقها على
فناظرٍ منها الأحقوانُ ثغورها
وناسبَ منها الوردُ خدّاً مورّداً
وألبسَ من صنعاء وشياً منمنماً
بأحلى لأفواه ، وأبهى لأعين
رأيتُ بها شهبَ السماء تنزلت
ألا إنّ هذا السحرُ لا سحرُ بابلٍ
لقد أعجزتُ شكري فضائلُ ماجدٍ
تقاضى ديونَ الشعرِ مني منها
فلو نشر الصادان من ملحدَيْهما
فخذُ بزمام الرفقِ شيخاً تقاصرتُ
فلا زلتُ تحيي للمكارم رسمها
بمنهمرٍ من سُحب فكرك غيّدقِ
إليّ ولم تمننُ بخشية إنفاقِ
زكيةٍ أخلاقٍ كريمةٍ أعراقِ
تناجيك سرّاً بين وحي وإطراقِ
رياض شدّت في قطبها ذاتُ أطواقِ
وقابل منها نرجسٌ سحرّاً أحداقِ
سقاء الشبابُ النضرُ بورك من ساقِ
وحلّين من درّ نفائسٍ أعلاقِ
وأحيى لألباب ، وأشهى لعشاقِ
إليّ تحييني تحيةً مشتاقِ
فقد سحرت قلبي المعنى فَمَن راقِ
أبرّ بأحباب وأوفى بميثاقِ
رويدك لا تعجلُ عليّ بإرهاقِ
لإنصافِ هذا الدّينِ لاذا بإملاقِ^٢
خطاه وعاهده بمعهود إشفاقِ
وقدرك في أهل العلّا والنهي راقِ

قال : وكتبت إليه في غرض العتاب قصيدة أولها :

أدرنا وضوء الأفق قد صدع الفضا
مدامة عتب بيننا نقلها الرضى
فلله عينا من رآنا وللحيا
حيّ بأفاق البشاشة أومّضا

١ الكتيبة : حسن .

٢ الصادان : الصابي أبو إسحاق والصاحب بن عباد .

نفرُّ إلى عدلِ الزمانِ الذي أتى
ونأسو كلومَ اللفظِ باللفظِ عاجلاً

فراجعني عنها بهذه القصيدة :

ألا حبذا ذاك العتابُ الذي مضى
أغارَتْ له خيلٌ فما ذَعَرَتْ حمى
تألق منه بارقٌ صابٌ مُزْنُهُ
تألاً نوراً للصدقةِ حافظاً
فإن سَوَدَ الشيطانُ منه صحيفةً
وما كان حبُّ أحكمِ الصدقِ عهدهُ
أُعِيدُ وداداً زاكياً القصدِ وافيةً
ونيةً صدقٍ في رضى الله أخلصتْ
مَنْ الآفكُ الساعي ليخفي نورها
وكيف يحلُّ المبتلون بلافكهم
تعرض يبغى هدمها فكأنه
وَحَرَّضَ في تنفيره فكأنما
وأوقد ناراً فهو يصلى جحيمها
أيا واحدي المعداد بالآلف وحده
بعثت من الدرِّ النفيسِ قلائداً
نتيجةُ آدابٍ وطبعٍ مهذبٍ
ولا مثلَ بكرٍ بكرتني أنفاً
هي الروضةُ الغناءُ أينعَ زهرها
أو الغادةُ الحسناءُ راقَتْ فينقضي
تطابقٌ منها شعرها وجبينها

ونبرأ من جورِ الزمانِ الذي مضى
كذا قدَحُ الصهباءِ داوى وأمرضا

وإن جرّةُ واشٍ بزورٍ تمضمضا
ولكنّها كانت طلائعَ للرضى
على معهدِ الحبِّ الصميمِ فروضاً
وإن ظُنَّ سيفاً للقطيعةِ مُنتَضِياً
أتى ملكُ الرُحْمى عليها فيبّضا
ليُرْمى بوسواسِ الوشاةِ فيرفضاً
تخلصَ من أدرانه فتحمضاً
سناها بآفاقِ البسيطةِ قد أضاً
أينفى شعاعُ الشمسِ قد ملأَ الفضا ؟
معاقدَ حبٍّ أحكمتها يدُ القضا
لتشييدِ مبناها الوثيقِ تعرضاً
على البرِّ والتسكينِ والحبِّ حرّضاً
يقلبُ منها القلبَ في موقدِ الغضا
ويا ولدي البرِّ الزكيّ إن ارتضى
على ما ارتضى حكمَ المحبةِ واقتضى
أطالَ مداه في البيانِ وأعرضاً
كزورةِ خيلٍ بعدما كان أعرضاً
تناظرُ حسناً مذهباً ومفضضاً
مدى العمرِ في وصفي لها وهو ما انقضى
فذا الليلُ مسودّاً وذا الصبحُ أبيضاً

أو الشُّهْبُ منها زينةٌ وهدايةٌ
أتت ببدیع الشعرِ طوراً مصرحاً
ومَهَّدَتِ الأعذارَ دونَ جنايةٍ
لكَ اللهُ من بَرٍّ وفِيٍّ وصاحبٍ
لسانك في شكري مفيضٌ تفضلاً
وقلبك فاضت فيه أنوارُ خلتي
وقصدك مشكورٌ، وعهدك ثابتٌ
فهل معَ هذا ريبةٌ في مودةٍ
فثقْ بولائي إنني لك مخلصٌ
عليك سلامُ اللهِ ما هبتِ الصبا

ورَجَمُ لَشَيْطَانٍ إذا هو قِيضاً
بآياتك الحسنَى ، وطوراً معرّضاً
ولو أنك الجاني لكنتُ المغمّضاً
محضتُ له صدقَ الضميرِ فأمحضاً
فيا حُسنَ ما أهدى وأسدى وأقرضاً
فألقي يَدَيَّ تسليمه لي مفوضاً
وفضلك منشورٌ ، وفعلك مُرتَضَى
بحال ؟ وإن رابت فما أنا معرّضاً
هوئى ثابتاً يبقى فليس له انقِضاً
وما بارقُ جنحَ الدجنةِ أومضاً

وقال لسان الدين : من غريب ما خاطبني به قوله ١ :

أقسم بالقيسين والنابعين
وبابن حجرٍ وزهيرٍ وابنه
ثم بعشاق الثريا والرة
وبأبي الشيص ودعلجٍ ومن
وولدِ المعتز والرضي والـ
واختم بقُسّ وبسحبانٍ وإن
وحلبتي نثرهم ونظمهم
إن الخطيبَ ابنَ الخطيبِ سابقٌ
راقتني الصحيفةُ الحسنَى التي
تجمعُ من براعةِ المعنى إلى

وشاعري طيبي المولدَيْن
والأعشين بعدُ ثم الأعميين
يَّاتِ وعِزةٍ وميٍّ وبثين
كشاعري خُزاعةَ المخضرمين
سريٍّ ثم حسنٍ وابنِ الحسين
أوجب حقٌ أن يكونا أولين
في مشرقٍ أقطارهم والمغربين
بنثره ونظمه للحلبتين
شاهدتُ فيها المكرماتِ رأيَ عين
براعةِ الألفاظِ كلتا الحسينين

أشهدُ أنكَ الذي سبقتَ في طريقَيِ الآدابِ أقصى الأمدِين
 شعرٌ حوى جزالةً ورقّةً تصاغُ منه حلّةٌ للشّعريين
 رسائلٌ أزهارها منشورةٌ سرورُ قلبٍ ومتاعُ ناظرين
 يا أحوذياً يا نسيجَ وحدهِ شهادةٌ تنزهتُ عن قولِ مَيّن
 بقيتَ في مواهبِ الله التي تقرأُ عينيكِ وتملأُ اليدين
 انتهى .

[٤٤ - من سعيد الغرناطي إلى لسان الدين]

وحكى لسان الدين أن سعيد بن محمد الغرناطي الغساني استعار منه كتاباً ،
 فأرسله إليه وعلى ظهره هذه الأبيات :

هذا كتابٌ كله معجمٌ أفحمني معناهُ إفحاماً
 أعجمه منشئه أولاً وزاده الناسخُ إعجاماً
 أسقط من إجماله جملةً وزاد في التفصيلِ أقساماً
 وغيرَ الألفاظِ عن وضعها وصيّرَ الإيجادَ إعداماً
 فليس في إصلاحه حيلةٌ تُرجى ، ولو قبل أعواماً

ولم أقف على جواب لسان الدين له عنها ، والله تعالى أعلم .
 وولد سعيد المذكور سنة ٦٩٩ .

[٤٥ - مخاطبات بين ابن البناء ولسان الدين]

ومما خوطب به لسان الدين لما تقلد الكتابة العليا قولُ أبي الحسن علي بن
 محمد بن علي بن البناء الوادي أشي رحمه الله تعالى :

هو العلاء جرى باليمن طائرُهُ فكان منك على الآمالِ ناصرُهُ

ولو جرى بك ممتدّاً إلى أمد
لقد حباه منيع العزّ خالقه
فليزه فخراً فما خلّق يعارضه
لله أوصافك الحسنى لقد عجزت
هيهات ليس عجيباً عجزُ ذي لسنٍ
هل أنت إلا الخطيبُ ابن الخطيب ومن
فإن يقصّر عن الأوصافِ ذو أدبٍ
يا ابن الكرام الألى ما شبّ طفلهم
مهلاً عليك فما العليا قافية
ولا المكارم طرساً أنت راقمه
ماذا على سابق يسري إلى سنن
سرٍ حيث شئت من العليا متثداً
أنت الإمام لأهل الفخر إن فخرُوا
ما بعد ما حُزّته من عزة وعلاً
نادت بك الدولة النصريّ محتداً
حلّيتها برداء البرّ مرتدياً
فالملك يرفل في أبراده مراحاً
فاهناً بها نعمة ما إن يقوم لها
وليهنها أنها ألفت مقالدها
فإنه بدر تمّ في مطالعها

لأعجزَ الشمسَ ما آبت عساكره
بفاضلٍ منك لا تحصى مآثره
ولا علاء مدى الدنيا يفاخره
من كلّ ذي لسن عنها خواطره
عن وصف بحر رمى بالدرّ زاخره
زانت حلّى الدين والدنيا مفاخره
فما بدا منك في التقصير عاذره
إلا وللمجد قد شدّت مآزره
ولا العلاء بسجع أنت ناثره
ولا المناقب طباً أنت ماهره
إن كان من رقيقه خلّ يسايره
فما أمامك سباق تحاذره
أنت الجواد الذي عزّت أوافره
شأؤ يطارد فيه المجد كابره
نداء مستنجد أزرأ يوازره
وصبحُ يملك فجر السعد سافره
قد عمّت الأرض إشراقاً بشائره
من اللسان ببعض الحق شاكره
إلى زكيّ زكت منه عناصره
قد طبّق الأرض بالأنوار ناثره

وقال لسان الدين : وأهدى إلي قباقيب خشب جوز وكتب معها :

هاكها ضمّراً مطايا حسانا
نشأت في الرياض قُضباً لِدانا
وثوت بين روضةٍ وغديرٍ
مرضعاتٍ من النّـمير لبانا

لابسات من الظلال بروداً
ثمّ لمّا أراد إكرامها الله
قصدت بابك العليّ ابتداراً
دونها القُضْبُ رقّةً وليانا
وسنّى لها المني والأمانا
ورجّت في قبلك الإحسانا

قال : فأجبتة :

قد قبلنا جيادك الدُّهُمَ لمّا
أقبلتْ خلفَ كلِّ حِجْرٍ تبع
فعنينا برعيها وفسحنا
وأردنا امتطاءها فاتخذنا
قدمتْ قبلها كتيبة سحر
مثلما تجنّبُ الجيوشُ المذاكي
لم يرقْ مقلتي ولا راق قلبي
من يكنْ مُهدياً فمثلك يهدي
أن بلونا منها العتاق الحسانا
خلعتْ وصفها عليه عيانا
في ربوع العلا لها ميدانا
من شراك الأديم فيها عنانا
من كتاب سبّتْ به الأذهانا
عدّةً للقاء مهما كانا
كعلاها براعةً وبيانا
لم أجدُ للشنا عليك لسانا

وقال لسان الدين : ومن أبدع ما هز به إلى إقامة سوقه ، ورعي حقوقه ،

قوله :

يا معدنَ الفضلِ موروثاً ومكتسباً
بياب مجدكم الأسمى أخو أدب
ذلّ الزمانُ له طوراً فبلّغه
والآن أركبه من كلّ نائبة
فحملته دواعي حبكم وكفى
فهّلْ سرى نسمةً من جاهكم فيها
وكلّ مجدٍ إلى عليائه انتسبا
مستصرخٌ بكم يستنجدُ الأدبا
من بعض آماله فوق الذي طلبا
صعبَ الأعنة لا يألو به نصبا
بذاك شافعُ صدقٍ يبلغ الأربا
خليفةُ الله فينا يُمطر الذهبا

[ترجمة ابن البناء]

وقال لسان الدين في « الإكليل » في حق المذكور ما صورته : فاضل يروقك وقاره ، وصقر بعد مطاره ، قدم من بلده يروم اللحاق بكتّاب الإنشاء وتوسل بنظم أنيق ، ونسيب في نسب الإجادة عريق ، تُعرب براعته عن لسان ذليق ، وطبع طليق ، وذكاء بالأثرة خليق ، وبينما هو يلحّم في ذلك الغرض ويُسدي ويعيد ويبيدي ، وقد كادت وسائله أن تنجح ، وليل رجائه أن يصبح ، اغتاله الحِمَام ، وخانته الأيام ، والبقاء لله تعالى والدوام ، توفي بالطاعون في عام واحد وخمسين وسبعمائة وسنه دون الثلاثين ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[٤٦ - رسالة من لسان الدين إلى سلطان تونس]

ولما خوطب لسان الدين من سلطان تونس بما لم يحضرني الآن أجاب عنه بما نصه : « المقام الإمامي الإبراهيمي المولوي المستنصري الحفصي ، الذي كرم فرعاً وأصلاً ، وشرف جنساً وفصلاً ، وتملّى في ظلّ رعاية المجد ، من لدن المهّد ، كرماً وخصلاً ، وصرفت متجردة الأقلام ، إلى مثابة خلافته المنصورة الأعلام ، وجوه عبارة الكلام ، فاتخذ من مقام إبراهيم مُصلّي ، مقام مولانا أمير المؤمنين الخليفة الإمام أبي إسحاق ابن مولانا أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين ، أبقاه الله تعالى تهوي إليه الأفتدة كلما انتشت بذكره ، وتنافس الألسنة في إحراز غاية حمده وشكره ، وتكفل الأقدار بإنفاذ نبيه وأمره ، وتغرى عوامل عوامله بحذف زيد عدوّ وعمّره ، ويتبرع أسمر الليل وأبيض النهار بإعمال بيضه وسُمره ، ولا زال حُسامه الماضي يغني يومه في النصر عن شهره ، والروض يحيه بمباسم زهره ، ويرفع إليه رُقع الحمد ببنان قضبه الناشئة من معصم نهره ، وولي الدنيا والآخرة يمتعنا بهما بعد الإعانة على مهّره ، يُقبّلُ بساطه المعوّد الاستلام بصفحات الحدود ، الرافع

عماده ظلُّ العدل الممدود ، عبدُ مقامه المحمود ، وواردُ غمَرُ إنعامه غير
المتزور ولا المثلود ، المُثني على نعمه العميمة ، ومِنْحه الجسيمة ، ثناء الروض
المَجُود ، على العُهود ، ابنُ الخطيب ، من باب المولى الموجب حقّه ، المتأكّد
الفروض ، الثابت العهد ، المعتدّ منه بالود الجامع الرسوم والحدود ، والفضل
المتوارث عن الآباء والحدود ، يسلم على مثابتها سلامَ متلو على مثلها إن وجد
المثل في الثاني ، ويعوّد كماها بالسبع المثاني ، ويدعو الله تعالى لسلطانها بتشيد
المباني ، وتيسير الأماني ، وينهي إلى علوم تلك الخلافة الفاروقية المقدّسة
بمناسب التوحيد ، المستولية من مدارك الآمال على الأمد البعيد ، أن مخاطبتها
المولوية تاهت على الملوك فارعة العلا ، مزَعَفرة الحلل والحلى ، ذهبية المجلى ،
تفيد العز المكين ، والدنيا والدين ، وتُرعى في الآباء والبنين ، على مر السنين
﴿صَفراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسرُّ الناظرين﴾ (البقرة : ٦٩) وقد حملت من مدحها
الكريم ما أخفى للمملوك من قرّة عين ، ودرّة زين ، جبين الشرف الوضاح ،
ومستوجب الحق على مثله من الخلق بالنسب الصّراح ، والغُرر والأوضاح ،
والأراجِ الفوّاح ، فاقتنى دره النفيس ، ووجد المروع^١ في جانب الخلافة التنفيس ،
وقراه لما قرأه التعظيم والتقدّيس ، وقال ﴿يا أَيّها المَلأُ إِنّي أَلقيَ إلی كِتابٌ
كَريمٌ﴾ (النمل : ٢٩) وإن لم يكن بلقيس ، أعلى الله تعالى تلك اليد مُطوّقة
الأيادي ، ومخجلة الغمام والغواصي ، وأبقاها عامرة النوادي ، غالبية الأعادي ،
وجعل سيفها السفاح ورأيها الرشيد وعلمها الهادي ، ووصل ما ألطف به رعيها
من أشتات بر بلغت ، وموارد فضل سوّغت ، أمدتها سعادة المولى بمدد لم
يضر معه البحر الهائل ، ولا العدو الغائل ، وأقام أودّها عند الشدائد الفلّك
المائل ، لا بل الملك الذي له إلى الله الوسائل ، وحَسِبَ الجفن رسالتكم الكريمة
لحظاً فصان وأكرم ، وعُوذَة فتعوّد بها وتحرم ، وتولى المملوك تنفيق عروضها

بأنشراح صدره ، وعلى قدره ، فوقعت الموقع الذي لم يقعه سواها ، فأما الخيل
فأكرم مثواها ، وجُعِلت جنان^١ الصون مأواها ، ولو كسيت الربيع المزهر حلاً ،
وأوردت في نهر المجرة عللاً ونهلاً ، وقلدت النجوم العوالم صحلاً ، ومسحت
أعطافها بمنديل النسيم ، وألحفت بأردية الصباح الوسيم ، وافترشت لمرباطها
الحشايا ، وأقضمت حبات القلوب بالعشايا ، لكان بعض ما يجب ، لحقها الذي
لا يجحد فضله ولا يحتجب ، وما عداها من الرقيق والفتيان ، رعاة ذلك الفريق
تكفله الاستحسان ، وأطنب الاعتقاد وإن قصر اللسان ، تولى الله تعالى تلك
الخلافة بالشكر الذي يُحسبُ العطاء ، والحفظ الذي يُسبَلُ الغطاء ، والصنع
الذي ييسر من مطا الأمل الامتطاء ، وأما ما يختص بالمملوك فقد خصه بقبوله
تبركاً بتلك المقاصد التي سدها الدين ، وعددها الفضل المبين ، وأنشد الخلافة
التي راق من مجدها الجبين :

قلدتني بفرائد أخرجتها من بحر جودك وهو ملتطم^٢ الثَّبَجُ
ورعيت نسبته فإن سبيكة مما يلائم لونها قطع السَّبَجُ

والمملوك بهذا الباب النصري أعزّه الله تعالى على قدم خدمة ، وقائم بشكر
منة لكم ونعمة ، وحاضر في جملة الأولياء بدعائه وحبّه ، ومتوسل في دوام
بقاء أيامكم ونصر أعلامكم إلى ربّه ، وإن بُعدَ بجسمه فلم يبعد بقلبه ، والسلام
الكريم ، الطيب البر العميم ، يخلصها دائماً متصلاً ، ورحمة الله تعالى وبركاته »
انتهى .

[٤٧ - مخاطبة من ابن البربري المالقي إلى لسان الدين]

ومما خوطب به لسان الدين قول أبي الحسن علي بن يحيى الفزاري المالقي

١ ص : جنات .

المعروف بابن البربري ، وكان ممن يمدح الملوك والكبراء :

لِبَابِكَ أَمَّ الْأَمْلُونُ وَيَسْتَمُوا
وَمَنْ رَاحَتِي كَفَيْكَ جَدْوَاكَ تَنْهَمِي
وَأَنْتَ لَمَّا رَامُوهُ كَعْبَةٌ حَجَّهْمُ
يَطُوفُونَ سَبْعًا حَوْلَ بَابِكَ عِنْدَمَا
فِيْمَنَّكَ يَمْنٌ لِلرَّعَايَا وَمِنَّةٌ
وَلَقِيَاكَ بِشَرٍّ لِلنَّفُوسِ وَجَنَّةٌ
فِيهَا وَاحِدَ الْأَزْمَانِ عِلْمًا وَمَنْصِبًا
وَمَنْ وَجْهَهُ كَالْبَدْرِ يَشْرُقُ نُورُهُ
وَمَنْ ذَكَرَهُ كَالْمَسْكَ فُضْ خَتَامُهُ
لَقَدْ حُزَّتْ فَضْلَ السَّبْقِ غَيْرَ مَنَازِعِ
حَوِيَتْ مِنْ الْعِلْيَاءِ كُلِّ كَرِيمَةٍ
وَبَاهَيْتْ أَقْلَامَ الْأَنَامِ بَرَاةً
إِذَا فَاخَرَ الْأَمْجَادُ يَوْمًا فَإِنَّمَا
وَلَوْ سَكْتُوا كُنْتَ الْبَلِيغَ لَدَيْهِمْ

ومنها :

فِيَا صَاحِبِي نَجْوَايَ عُوْجَا بَرَامَةٍ
وَقَوْلَا لَهُ عَبْدٌ بِبَابِكَ يَرْتَجِي
فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا عُلَاكَ وَسِيلَةٌ
فَجَدُّ بِالَّذِي يَرْجُوهُ مِنْكَ فَمَا لَهُ
بَقِيَتْ وَنَجْمُ السَّعْدِ عِنْدَكَ طَالِعٌ
عَلَى رَبْعِهِ حَيْثُ النَّدَى وَالتَّكْرُمُ
قَضَاءُ لُبَانَاتٍ لَدَيْكَ تُتَمِّمُ
وَلَا شَيْءَ أَسْمَى مِنْ عِلَاكَ وَأَعْظَمُ
كَعْقَدِ ثَمِينٍ مِنْ ثَنَائِكَ يُنْظَمُ
يُضِيءُ لَهُ بَدْرٌ وَتَشْرُقُ أَنْجَمُ

توفي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٤٨ - مخاطبة من الحرالي إلى لسان الدين]

وممّا خوطب به قولُ أبي القاسم قاسم بن محمد الحرالي المالقي القاضي
بانتقيرة^١ قبل وفاته :

عليك قصرت المدح يا خيرَ ماجدٍ	وأفضلَ موصوفٍ بكلِّ المحامدِ
ويا كهفَ ملهوفٍ ، وملجأَ خائفٍ	وموردَ جودٍ قد كفى كلَّ واردٍ
لقد شهّرت بالمجدِ منك شمائلٌ	محاسنها أزكى وأعدلُ شاهدٍ
وكلُّ الذي يبدو من الفضلِ بعضٌ ما	حييت به ، أعظمُ بها من محامدِ
إذا أملت منك المكارمُ ألفتُ	تُنادي هلمّوا فزتمُ بالمساعدِ
عطاؤكم جزلٌ فمن أملَ الغنى	فمثلكم يبغي فيا سعدَ قاصدِ
وراثَةُ مجدٍ كابرًا بعد كابرٍ	وأصلُ زكيّ الفرع عذبُ المواردِ

[ترجمة أبي القاسم الحرالي]

وتوفي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ، وفي حقّه يقول في
« الإكليل » : مشمر في الطلب عن ساق ، مُثابر على اللحاق بدرجات الحذاق ،
منتحل للعربية ، جادٌ في إحصاء خلافتها ، ومُعاطاة سُلّافها ، وربما شرست في
المذاكرة أخلاقه ، إذا بُهّرت أعلّاقه ، ونوزع تمسّكه بالحجة واعتلاقه .
وقال لسان الدين في ترجمة شعر المذكور : إنّه ضعيف مهزول ؛ انتهى .

[٤٩ - رسالة من المنتشاقري إلى لسان الدين]

وممّا خوطب به قول أبي الحجاج يوسف بن موسى الجذامي المنتشاقري
من أهل رُنْدَة ، ونصّه :

حَبَاكَ فؤادي نيلَ بشرى وأحياكا وحيدٌ بآدابٍ نفائسَ حيّاكا

١ انتقيرة (Antequera) تبعد عن مالقة حوالي ٦٠ كيلومتراً شمالاً .

بدائعُ أبدائها بديعُ زمانه فطاب بها يا عاطرَ الروض رَيًّا كا
أمهديها أودعتَ قلبي علاقةً وإن لم يزل مُغرًى قديماً بعلياً كا
إذا ما أشار العصرُ نحو فريده فإياك يعني بالإشارة إياكا
لأتحنفي لقياك أسنى مؤملي وهل تُحفةٌ في الدهر إلا بلياً كا
وأعقتَ إتحافي فرائدك التي وجوبُ ثناها يا لساني أعياً كا

ووصل هذا النظم بنثر صورته : « خصصتني أيها المخصوص بمآثر أعيا
عدُّها وحصرُها ، ومكارم طيبَ أرواح الأزاهرِ عطرُها ، وسارت الركبان
بثنائها ، وشملت الخواطر محبة علائها ، بفرائدك الأنيقة ، وفوائدك المزرية جمالاً
على أزهار الحديقة ، ومعارفك التي زكت حقاً وحقيقة ، وهَدَّت الضالَّ عن
سبيل الأدب مهتبعه وطريقه ، وسبق تحفتك أعلى التحف عندي وهو مأمول
لقائك ، والتمتع بالتماح سنَّك الباهر وسنائك ، على حين امتدت لذلكم اللقاء
أشواقِي ، وعظم من فوت استنارتي بنور محيَّاك إشفائي ، وتردد لهجتي بما يبلغني
من معاليك ومعانيك ، وما شاده فكرك الوقاد من مبانيك ، وما أهلت به بلاغتك
من دراسه ، وما أضيفت^١ على الزمان من رائق ملابسه ، وما جمعت من أشتاته ،
وأحييت من أمواته ، وأيقظت من سِنَّاته ، وما جاد به الزمان من حسنَّاته ،
فلترداد هذه المحاسن من أنبائك ، وتصرُّف الألسنة بثنائك ، علقت النفسُ من
هواها بأشدَّ علاقة ، وجنحت إلى لقائك جنوحَ والهة مشتاقة ، والحوادث الجارية
تَصْرِفُها ، والعوائق الحادثة كلَّما عطفت أملها إليه لا تتحفها به ولا تعطفها ،
إلى أن ساعد الوقت ، وأسعد البخت ، بلقائكم في هذه السفرة الجهادية ، وجاد
إسعاف الإسعاد من أمنيتي بأسنى هدية ، فلقيتكم لُقياً خَجَل ، ولمحت
أنواركم لمحة على وَجَل ، ومحبتني في محاسنكم الرائقة ، ومعاليكم الفائقة ، على

١ ق ص : أضيف .

ما يعلمه ربنا عز وجل ، وتذكرت عند لقاءكم المأمول ، لإنشاء قائل يقول :

كانت مساءلة الركبانِ تخبر عن محمد بن الخطيب أطيّب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعتُ أذني بأحسن مما قد رأى بصري

قسمٌ لعمري أقوله وأعتقده ، وأعتده وأعتمده ، فلقد بهرت منك المحاسن ،
وفقت من يحاسن ، وقصّر عن شأوك كل بليغ لسن ، وسبقت فطنتك
النارية النورية بلاغة كل فطين ، وشهد لك الزمان أنك وحيد ، ورئيس
عصبة الأدبية وفريده ، فبورك لك فيما أنلت من الفضائل ، وأوتيت من آيات
المعارف التي بها نور الغزاة ضائل ، ولا زلت ترقى في مراتب المعالي ، موقى
صروف الأيام والليالي . انتهى .

[٥٠ - رسالة لسان الدين إلى المنتشاقري]

وهذا الخطاب جواب من المذكور لكلام خاطبه به لسان الدين نصّه :

حمدتُ على فرطِ المشقةِ رحلةً أتاحتُ لعينيّ اجتلاءً محيّاكا
وقد كنتُ بالتذكّارِ في البعدِ قانعاً وبالريحِ إن هبتُ بعاطر ريتاكا
فحلتُ لي النعمى بما أنعمتُ به عليّ فحيّاها الإلهُ وحيّاكا

« أيها الصدر الذي بمخاطبته يُباهى ويتشرف ، والعلم الذي بالإضافة إليه
يتعرف ، والروض الذي لم يزل على البعد بأزهاره الغضة يُتّحف ، دمت
تتراحم على موارد ثنائك الألسن ، ويروي الرواة من أنبائك ما يصح ويحسن ،
طلما مالت إليك النفوسُ منّا وجنّحتْ ، وزجرت الطائر الميمون من رقاعك
كلّما سنّحتْ ، فالآن اتضح البيان ، وصدق الأثر العيان ، ولقد كنّا للمقام
بهذه الرحال نرتمض ، ويجنّ الظلام فلا نغمض ، هذا يقلقه إصفار كيسه ،
وهذا يتوجّع لبعده أنيسه ، وهذا تروعه الأهوال ، وتضجره بتقلباتها الأحوال ،

فمن أنّة لا تنفع ، وشكوى إلى الله تعالى تُرفع ، فلمّا ورد بقُدومك البشير ،
وأشار إلى ثنية طلوعك المشير ، تشوّفت النفوس الصّدّة إلى جلائها وصيقاها ،
والعقول إلى حلّ عيقاها ، والأنفس المُفحّمة إلى فصل مقاها ، ثم إن الدهر
راجع التفاته ، واستدرك ما فاته ، فلم يسمح من لقائك إلا بلمحة ، ولا بعث
من نسيم روضك بغير نفحة ، فما زاد أن هيّج الأشواق فالتهبت ، وشنّ
غاراتها على الجوانح فانتهدت ، وأعلّ القلوب وأمراضها ، ورمى ثغرة الصبر
فأصاب غرَضها ، فإن رأيت أن تنفّس عن نفسٍ شد الشوق مُخَنّقها ،
وكدّر مشارب أنسها وأذهب رَوْنَقها ، وتتحف من آدابك بدرر تُقتنى ، وروضة
طيبة الجتنى ، فليست بيدع في شيمك ، ولا شاذة في باب كرمك ، ولولا شاغل
لا يبرح ، وعوائق أكثرها لا يُشرح ، لنافست هذه السّحابة في القدوم عليك ،
والمثول بين يديك ، فتشوّقي إلى اجتلاء أنوارك شديد ، وتشيعي إلى إبلاء الزمان
جديد « انتهى .

[ترجمة أبي الحجاج المنتشاقري]

ووصف لسان الدين في « التاج المحلّي » أبا الحجاج المذكور بما صورته^١ :
حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتوبة الزمان الجهمّ الذنوب ، ما شئت من أدب
يتألّق ، وفضل تتعطر به النسمات وتتخلّق ، ونفس كريمة الشمائل والضرائب ،
وقريحة يقذف بحرّها بدرر الغرائب ، إلى خشية لله تعالى تحول بين القلوب
وقرارها ، وتثني النفوس عن اغترارها ، ولسان يبوح بأشواقه ، وجفن يسخو
بدرر آماقه ، وحرص على لقاء كل ذي علم وأدب ، ومن يمتّ إلى أهل الديانة
والعبادة بسبب ، سبق بقُطره الحلّبة ، وفرع من الأدب الهضبة ، ورفع الراية ،

١ انظر ترجمة أبي الحجاج المنتشاقري في الكتيبة : ١١٩ ؛ وهذه النسبة الى منتشاقر (Monte - Sacro) في مقاطعة أكشونية .

وبلغ في الإحسان الغاية ، فطارت قصائده كلَّ المطار ، وتغنّى بها راكب الفُلك وحادي القطار ، وتقلد خُطّة القضاء ببلده ، وانتهت إليه رئاسة الأحكام بين أهله وولده ، فوضحت المذاهبُ بفضل مذهبه وحُسن مقصده ، وله شيمة في الوفاء تعلّم منها الآس ، ومؤانسة عذبة لا تستطيعها الأكواس ، وقد أثبت من كلامه ما تتحلى^١ به مراتب المهارق ، ويجعل طيبه فوق المفارق ، وكنت أتشوق إلى لقائه ، فلقيته بالمحلة من جبل الفتح لقياً لم تبل صدّي ، ولا شفت كدأ ، وتعذر بعد ذلك لقاءه ، فخاطبته بهذه الرقعة :

حمدت على فرط المشقة رحلة

فذكر لسان الدين ما قدمنا إلى آخره .

وقد أورد جملة من مطولاته وغيرها ومؤلفاته ، ولنلخص بعض ذلك فنقول :
ومن شعر أبي الحجاج المذكور يمدح الجهة الكريمة النبوية ، مُصدِّراً بالنسب لبسط الخواطر النفسانية ، قوله :

لما تنهى الصبُّ في تشويقه	دررُ الدموعِ اعتاضها بعقيقه
متلهفٌ وفؤاده متلهبٌ	كيف البقا بعد احتدام حريقه
متموجٌ بحرُ الدموعِ بخده	أنّى خلاصٌ يرتجى لغريقه
متجرعٌ صاب النوى من هاجر	ما إن يحنُّ للاعيجات مشوقه
يسبي الخواطرَ حسنه ببديعه	يُضَيِّبُ النفوسَ جماله بأنيقه
قيّدُ النواظرِ إذ يلوحُ لرامقٍ	لا تشي الأحداقُ عن تحديقهِ
للبدْرِ لَمَحَتُهُ كبشر ضيائه	للمسكِ نَفْحَتُهُ كنشرِ فتيقه
سكرتُ خواطرُ لامحِه كأنهم	شربوا من الصهباء كأسَ رحيقه
عطشوا لثغْرِ لا سبيلَ لريقهِ	إلا كلمحهمُ للمع بريقهِ

١ ق : تتجلى .

ما ضرَّ مولى عاشقوه عبيدُه
عنه اصطباري ما أنا بمطيعه
سجعَ الحمامُ بشوق ترجيع الهوى
وبكتُ هديلاً راعها تفريقه
وبكاء أمثالي أحقُّ لأنتي
وغفلتُ في زمن الشباب المنقضي
وبدا المشيبُ وفيه زجرُ ذوي النهى
حسبي ندامةُ آسفٍ ممّا جنى
ويروم ما خرم الهوى زمن الصبا
ويردّد الشكوى لديه تذلاًّ
فيصحُّ من سكر التصابي سكره
لو كنتُ يمتُّ الثقى وصحبته
لأفدتُ منه فوائداً وفرائداً
لله أربابُ القلوب فإنهم
قاموا وقد نام الأنام فنورهم
وتأنّسوا بحبيهم فلم به
قَصَّرتُ عنهم عندما سبقوا المدى
لولا رجاء تلمّح من نورهم
وتأرج يستاف من أرواحهم
لفيتُ من جرّاً جرّاً ثريّ التي
ومعي رجاء توسّل أعدده
حي ومدحي أحمد الهادي الذي
أسمى الورى في منصبٍ وبمنسب
الحقُّ أظهره عقيب خفائه

لو رقّ إشفاقاً لحال رقيقه
مثل السلوّ ولا أنا بمطيعه
فأثارَ شجوة مشوقه بمشوقه
ويحقُّ أن يبكي أخو تفريقه
لم أقصر للمولى أكيدَ حقوقه
أقبحُ بنسخ بروره بعقوقه
لو كنتُ مزدجراً لشيم بروقه
يصلُ النسيج لوزره بشهيقه
ويروم من مولاه رتق فتوقه
علّ الرضى يحيه درك لحوقه
نسجاً لحكم صبوحة وغبوقه
وسلكتُ إيثاراً سواء طريقه
عرضتُ تسامُ لرابح في سوقه
من حزب منّ نال الرضى وفريقه
هتك الدجى بضيائه وشروقه
بشرٌ لصدق الفضل في تحقيقه
ولسابق فضل على مسبوقه
يحبي الفؤاد بسيره وطروقه
سبب انتعاش الروح طيبُ خلقه
من خوفها قلبي حليف خفوقه
ذخراً لصدمات الزمان وضيقه
فوزُ الأنام يصحُّ في تصديقهِ
من هاشم زاكى النجار عريقه
والدينُ نظمه لدى تفريقه

ونفى هُداه ضلالةً من جائر
سبحان مرسله إلينا رحمةً
والمعجزاتُ بدت بصدقِ رسوله
كالظبي في تكليمه ، والجدع في
النار إذ خمدتُ بنورِ ولادةٍ
والزادُ قلَّ فزاد من بركاته
ونبوعُ ماء الكفِّ من آياته
والنخلُ لما أن دعاه مشى له
والأرضُ عاينَها وقد زويت له
وكذا ذراعُ الشاةِ قد نطقت له
ورمى عداه بكفِّ حصبا فانشت
وعليه آياتُ الكتابِ تنزلت
وأذيق من كأسِ المحبةِ صِرفها
حاز السناء وناله بعروجه
ولكم له من آيةٍ من ربِّه
يا خيرةَ الأرسالِ عندِ إلهه
علَّقتُ آمالي بجاهك عدَّةً
وعلَّقتُ من جبلِ اعتمادي عمدةً
ولئن غدوتُ أخيدَ ذنبي لئنني
وكسادُ سوقي مذ لحأت لبابكم
ويحنُّ قلبي وهو في تغريبه
وتزيد لوعته متى حثَّ السرى
وأرى قشيبَ العمرِ أمسى بالياً

مستوثق بيغوثه ويعوقه
يهدي ويهدي الفضلُ من توفيقه
وحقيقه بالمآثرات خليفه
تحنيه ، والبدر في تشقيقه
وأجاج ماءٍ قد حلا من ريقه
فكفى الجيوشَ بتمره وسويقه
وسلامُ أحجارٍ غدت بطريقه
ذا سرعةٍ بعدوقه وعروقه
فقريب ما فيها رأى كسحقه
نطقَ اللسانِ فصيحِه وذليقه
هرباً كمذعورِ الجنانِ فَروقه
تُتلى بعلو جلاله وبُسوقه
سبحان ساقيه بها ومذيقه
جاز السماء طباقتها بخروقه
وعنايةٍ ورعايةٍ بحقوقه
يا محرزَ العلى على مخلوقه
والقصدُ ليس يخيبُ في تعليقه
لتمسكي بقويته ووثيقه
أرجو بقصدك أن أرى كطليقه
يقضي حصولَ نفوذه ونفوقه
لمزاره لرُباك في تشريقه
حادٍ حداً بجماله وبنوقه
ومرورَ دهري جدًّا في تمزيقه

وأخافُ أن أقضي ولم أقضِ المني
فمتى أخطُ على اللوى رحلي وقد
وأمرغُ الخدين في تربِ غدا
وأعيدُ إنشائي وإنشادي الثنا
حتى أميلُ العاشقين تطرباً
وتحيّةُ التسليم أبلغُ شافعٍ
ولذي الفخار وذو الحلى ووزيره
مني السلامُ عليهم كالزهرِ في

وقال ١ :

بنفوذِ سَهْمٍ منيتي ومُروقه
بلغتُ ركابي للحمى وعقيقه
كالمسكِ في أرجِ شذا منشوقه
بيديعِ نظمٍ قريحتي ورقيقه
كالغصنِ مرَّ صَباً على ممشوقه
وثنا المديحِ حديثه وعقيقه
صديقه وأخي الهدى فاروقه
تأليفها والزهرِ في تأنيقه

هواكمُ بقلبي ما لمحكمه نسخُ
ومن نشأتي ما إن صحتُ منه نشوتي
عليه حياتي مُذْ تَمادت وميتي
ولي خلّدُ أضحي قنيصَ ٣ غرامه
قتلتُ سلوي حين أحييتُ لوعتي
وأغدو إلى سعدى بكرخِ علاقتي
وناصحُ كتمي ٤ إذ زكت بيّناته ٥
وأرجو بتحقيقي هواكم بأن أفي
وما الحبُّ إلا ما استقلَّ ثبوته

ومن أجليه جفني بمدمه يسخو
سواءً به عصر المشيب ٢ أو الشرخُ
وبعني إذا بالصُّور يتفقُ النفخُ
ولا شَرَكُ يدني إليه ولا فحُ
وما اجتبح بالإقرار في حالي لطحُ
وقصدي قصدي ليس سعدى ولا الكرخُ
يجولُ عليه من دموع الأسي نضخُ
فعهدُ ولا نقضُ ٦ ، وعقدُ ولا فسخُ
لمناه رصُ في الجوانح أو رسخُ ٦

١ القصيدة في الكتيبة : ١٢١ .

٢ ق والكتيبة : الشباب .

٣ ق ص : يبيض .

٤ الكتيبة : وما صح جسمي .

٥ ق ص : أدركت ؛ ص : بيناته .

٦ ق : رص . . . أو رصخ .

إذا مسلكٌ لم يستقم بطريقه
 بدا لضميري من سناكم تلمح
 على عود ذاك اللحم ما زلت نادياً
 يدي بأياديكم وقلبي شاغل

وقال :

إليك تحنُّ النُّجُبُ والنُّجَبَاءُ
 تحبُّ بركاب تحبُّ وصولها
 فأنفاسها ما إن تني صُعداؤها
 همُّ عالجوا إذ عجل السير داءهم
 فعدت ودوني للحبيب ترحلوا
 له وعليه حبُّ قلبي وأدمعي
 بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها
 شذا نفحها واللحم منها كأنه
 فيا حادياً غنى وللركب حادياً
 بسكع فسل عما أقاسي من الهوى
 وفي عالج مني بقلبي لاعج
 وللرقتين أرقم الشوق لادغ
 أما كن تمكين وأرض بها الرضى

وقال ١ :

أدبُ الفتى في أن يرى متيقظاً
 فإذا تمسك بالهوى يهوى به
 لأوامرٍ من ربّه ونواه
 والحبل منه لمن تيقن واه

١ هذه المقطوعة واثنان تاليتان في الكتيبة : ١٢٢ .

وقال :

يا من بدُنياء ظلّ في لججٍ حقّقْ بأنّ النجاةَ في الشاطي
تطمعُ في إرثك الفلاحَ وقد أضعتَ ما قبله منَ أشراطِ
كن حذراً في الذي طمعتَ بهِ من حجبِ نقصٍ وحجبِ إسقاطِ

وقال :

تُرى شعروا أنّي غبطتُ نُسَيْمَةً ذكّتْ بتلاقي الروضِ غيبَ الغمامِ
كما قابلتُ زهرَ الرياضِ وقبّلتُ ثغورَ أقاحيهِ بلا لومٍ لائمِ

وقال :

وَرَدَ المشيبُ مُبَيَّضاً بورودهِ ما كان من شعرِ الشيبةِ حالكا
يا ليتَه لو كان بَيَّضَ بالتقى ما سوّدَتَه مآثمٌ من حالكا
إنّ المشيبَ غدا رداً للردى فإذا علاك أجدّ في ترحالكا

وقال ١ :

لوعةُ الحبّ في فؤادي تعاصتُ أن تُداوى ولو أنّي ألفُ راقِ
كيفَ يَبْرأ منْ علةٍ وعليها زائدٌ علةُ النوى والفراقِ
فانسكابُ الدموعِ جارٍ فجارٍ والتهابُ الضلوعِ راقٍ فراقِ

ومن غرائب الاتفاق أنّه قال : كنت جالساً بين يدي الخطيب أبي القاسم
التاكروني صبيحة يوم بمسجد مالقة ، فقال لنا في أثناء حديثه : رأيت البارحة
في عالم النوم كأنّ أبا عبد الله الجلياني يأتيني بيّتي شعر في يده ، وهما :

كل علم يكون للمرء شُغلاً بسوى الحق قاذح في رشاده
فإذا كان فيه لله حظ فهو مما يُعَدُّه لمعاده

قال : فلم ينفصل المجلس حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجلياني ،
والبيتان معه ، فعرضهما على الشيخ ، فأخبره أنه صنعهما البارحة ، فقال له كل
من في المجلس : أخبرنا بهما الشيخ قبل مجيئك ، فكان هذا من العجائب .
ولأبي الحجاج المذكور تواليف ، منها كتاب « ملاذ المستعين في بعض
خصائص سيد المرسلين » أربعون حديثاً ، وكتاب « تخصيص القرب وتحصيل
الأرب » و « قبول الرأي الرشيد في تخميس الوترية النبوية لابن رشيد »
و « انتشاق النسمات النجدية واتساق النزعات الجدية » و « غرر الأمانى المسفرات
في نظم المكفَّرات » و « النفحات الرندية واللمحات الرندية » مجموع شعره ،
و « حقائق بركات المنام في مرأى المصطفى خير الأنام » و « الاستشفاء بالعدة
والاستشفاع بالعمدة في تخميس البردة » و « توجع الراثي في تنوع المراثي »
و « اعتلاق السائل بأفضل الوسائل » و « ملح البهيج ونفح الأريج » في ترجيز
كلام الشيخ أبي مدين من عبارات حكمية وإشارات صوفية ، وكتاب « تجريد
رؤوس مسائل البيان والتحصيل لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصل » وفهرسة
روايته ، ورجز ذكر مشايخ أبي عمر الطنجي ، وكتاب « أرج الأرجاء في مزج
الخوف والرجاء » أربعون حديثاً في الرجاء والخوف .

وكان رحمه الله تعالى حياً حين ألف لسان الدين « الإحاطة » رحمه الله تعالى
الجميع .

ورأيت على ظهر أول ورقة من « الريحانة » بخط الإمام الكبير الشهير الشيخ
إبراهيم الباعوني الدمشقي رحمه الله تعالى ما نصّه : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد
الباعوني - غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه ، وبلغه من فضله مطلوبه - صاحب
كتاب الريحانة ، آية من آيات الله سبحانه ، لوجه أدبه طلاقة ، وللسان ذلاقة ،

وللقلوب به علاقة ، وفي خطّه غلاقة ، يعرفها مَنْ عرف اصطلاحه بمطالعته ،
وينفتح له باب فهمها بتكرير مراجعته ، فليتأمل الناظر إليه ، والمقبل عليه ، ما
فيه من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، بل الآيات البواهر ، وليسبح الله تعالى تعجباً
من قدرته جل وعلا ، ومواهبه التي عذب ماؤها النّـميرُ وحلاً ، وليقل عند
تأمل دره النّـظيم ﴿ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد : ٢١) ؛ انتهى .

وقوله رحمه الله تعالى « وفي خطّه غلاقة » ليس المراد به إلا صعوبة الخط
المغربي على أهل المشرق حسبما يُعلم ممّا بعده ، وإلاّ فإن خط لسان الدين رحمه
الله تعالى محمود عند المغاربة ، ولنقتصر من هذا الغرض على ما ذكر ، فإن تتبعه
يطول ؛ إذ هو بحر لا ساحل له .

[نقل من الروض الأريض لابن عاصم]

وكان لسان الدين رحمه الله تعالى مؤثراً لقضاء حاجة مَنْ أمّله ، وقصد
بابه وأمّ له ، سواء كان من أودائه ، أو من أعدائه ، وقد ذكر الوزير الرئيس
الكاتب أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى عنه في ذلك حكاية في أثناء كلام
رأيت أن أذكر جملة لما اشتمل عليه من الفائدة ، وهو أنّه ذكر في ترجمة
شموس العصر من ملوك بني نصر من كتابه المسمّى بـ «الروض الأريض» في
اسم السلطان الذي كان ابن الخطيب وزيره ، وهو الغني بالله محمد بن يوسف بن
إسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجي ، بعد كلام ما صورته^١ : كان قد جرى
عليه التمحيص الذي أزعجه عن وطنه إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بني
مَرّين ، فأفادته الحنكة والتجربة هذه السيرة التي وقف شيوخنا على حقيقتها ،
وانتهجوا واضح طريققتها ، وبلغتنا منقولة باللسنة صدقهم ، معبراً عنها في عرف

١ أزهار الرياض ١ : ٥٨ - ٦٠ .

التخاطب بالعادة ، فلم يكن الوزير الكيس والرئيس الجهد يجريان من الاستقامة على قانون ، ولا يطردان من الصواب على أسلوب ، إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والمطابقة لما ثبت من العوائد ، وكان ذوو النبل من هذه الطبقة وأولو الحذق من أرباب هذه المهن السياسية يتعجبون من صحة اختياره لما رسم ، وجودة تمييزه لما قصد ، ويرَوْن المفسدة في الخروج عنها ضربة لازب ، وأن الاستمرار على مراسمها أكد واجب ، فيتحرونها بالالتزام كما تتحرى السنن ، ويتوخونها بالإقامة كما تتوخى الفرائض ، وسواء تبادرَ لهم معناها ففهموه ، أو خفي عليهم وجهُ رسمها فجهلوه ، حدثني شيخنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسيني أن الرئيس^١ أبا عبد الله ابن زَمْرَك دخل على الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله ابن زَمْرَك ، قال الشريف : فأَمْضَاهَا كُلَّهَا لَهُ ، ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب : لا ، والله يا رئيس أبا عبد الله لا آذن في هذا ، لأننا ما استقمنا في هذه الدار إلا بحفظ العوائد .

ثم قال صاحب الروض : فلمَّا تَأَذَّنَ اللهُ تعالى للدولة بالاضطراب ، واستحكم الوهن بتمكن الأسباب ، عَدَلَ عن تلك القواعد الراسخة ، واستخف بتلك القوانين الثابتة ، فنشأ من المفاصد ما أعوزَ رَفْعُهُ ، وتعدد وتره وشفعه ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دَفْعُهُ ، وتعذر فيه الدواء الذي يُرْجَى نفعه ، وكان قد صحبه من الجدد ما سنّى آماله ، وأنجح بإذن الله تعالى أقواله وأعماله ، فكان يجري الأمر على رسم من السياسة واضح ، ونظر من الآراء السديدة راجح ، ثم يحفّه من الجدد سياج لا يفارقه إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله ، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروعه وأصوله ؛ انتهى كلام ابن عاصم .

١ ص : الرانس ، حيثما وقعت .

وإذ جرى ذكره فلا بأس أن نلمع بشيء من أحواله ، لأن أهل الأندلس كانوا يسمونه ابن الخطيب الثاني ، فنقول :

[ترجمة أبي يحيى ابن عاصم]

هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلق النائر الحجة ، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ، ومالك خدم البراعة بالاسترقاق ، أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم ، القيسي الأندلسي الغرناطي ، قاضي الجماعة بها ، كان - رحمه الله تعالى - من أكابر فقهاءها وعلمائها ورؤسائها ، أخذ عن الإمام المحقق أبي الحسن ابن سمعت ، والإمام القاضي أبي القاسم ابن سراج ، والشيخ الراوية أبي عبد الله المنتوري ، والإمام أبي عبد الله البياني ، وغيرهم ، ومن تأليفه شرح تحفة والده ، وذكر فيه أنه ولي القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، ومنها كتاب « جنة الرضى في التسليم لما قدر الله تعالى وقضى » وكتاب « الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض » كأنه ذيل به إحاطة لسان الدين ابن الخطيب ، وله غير ذلك ، وقد أطلت الكلام في ترجمته من كتابي « أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل للنفس به ارتياح وللعقل ارتياض »^١ .

ووصفه ابن فرج السبتي بأنه الأستاذ العَلَمَ الصدر المفتي القاضي رئيس الكتاب ، ومعدن السماحة ، ومنبع الآداب ، انتهى .

[نموذج من نثر ابن عاصم]

وقد تقدم بعض كلامه فيما مرّ ، ومن بديع نثره الذي يسلك به نهج ابن

١ انظر ص : ١٤٥ وما بعدها من الجزء الأول من أزهار الرياض .

الخطيب رحمه الله تعالى قوله من كلام جلبت جملة في «أزهار الرياض» ،
واقتصرت هنا على قوله بعد الحمدلة الطويلة ما صورته^١ : أمّا بعدُ فإن الله على
كل شيء قدير ، وإنه بعباده لخبير بصير ، وهو لمن أهل نيّته ، وأخلص
طويّته ، نعم المولى ونعم النصير ، بيده الرفع والخفض ، والبسط والقبض ،
والرشد والغى ، والنشر والطي ، والمنح والمنع ، والضر والنفع ، والبطء والعجل ،
والرزق والأجل ، والمسرّة والمساءة ، والإحسان والإساءة ، والإدراك والفوت ،
والحياة والموت ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وهو الفاعل على
الحقيقة وتعالى الله عما يقول الآفكون ، وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين
كله ولو كره المشركون ، وإن في أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له
قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعبرة لمن يفهم قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يَشَاءُ﴾ (الحج : ١٨) و﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة : ١) بينما الدسوت
عامرة ، والولاية آمرة ، والفئة مجموعة ، والدعوة مسموعة ، والإمرة مطاعة ،
والأجوبة سمعاً وطاعة ، وإذا بالنعمة قد كُفِرَتْ ، والذمة قد خُفِرَتْ .
إلى أن قال : والسعيد من اتعظ بغيره ، ولا يزيد المؤمن عمره إلاّ خيراً
جعلنا الله تعالى ممّن قضى عمره بخيره ، وبينما الفرقة حاصلة ، والقطيعة فاصلة ،
والمضرة واصله ، والحبل في انبتات والوطن في شتات ، والخلاف يمنع رعني
مات ، والقلوب شتى من قوم أشتات ، والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه ،
ويلحظه لحظ الخائف على هضمه ، والآخذ بكظمه ، ويتوقع الحسرة أن يأذن
الله بجمع شمله ونظمه ، على رغم الشيطان ورغمه ، وإذا بالقلوب قد اختلفت ،
والمنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت ، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله تعالى
وازدلفت ، والمتضرعة إلى الله تعالى قد ابتهلت ، في إصلاح الحالة التي سَلَفَتْ ،
فألقت الحرب أوزارها ، وأدنت الفرقة النافرة مزارها ، وجلت الألفة الدينية

١ أزهار الرياض ١ : ١٦٠ .

أنوارها ، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ، ورفعت الوحشة الناشئة أظفارها
أعذارها ، وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها ، وغضت الفئة المتعرضة أبصارها ،
وأصلح الله تعالى أسرارها ، فجمعت الأوطان بالطاعة ، والتزمت نصيحة الدين
بأقصى الاستطاعة ، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة ، وألقت إلى الإمامة الفلانية
يَدَ التسليم والضراعة ، فتقبلت فيأتهم ، وأحمدت جيأتهم ، وأسعدت
آمالهم ، وارتضيت أعمالهم ، وكملت مطالبهم ، وتممت مآربهم ، وقضيت
حاجاتهم ، واستمعت مناجاتهم ، وألستهم بالدعاء قد انطلقت ، ووجهتهم في
الخلوص قد صدقت ، وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت ، وأكفهم بهذه
الإمامة الفلانية قد اعتلقت ، وكانت الإدالة في الوقت على عدو الدين قد ظهرت
وبرقت ، إلى أن قال : وكفّت القدرة القاهرة ، والعزة الباهرة ، من عدوان
الطاغية غوائل ، بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل ،
ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود ،
﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) دليل على ما سوغ من
الكرم والجود ؛ انتهى المقصود منه ، وهو كلام بليغ ، ومن أراد جملة فعلية
بأزهار الرياض .

[من نظم ابن عاصم]

ومن نظم ابن عاصم المذكور قوله مخاطباً شيخه قاضي الجماعة أبا القاسم
ابن سراج ، وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة ، فظن أنه يستخبره عن سر من
أسرار السلطان ، فأعده معتذراً ، ولم يصدق الظن :

فديتك لا تسأل عن السرّ كاتباً فتلقاه في حال من الرشد عاطل
وتضطره إمّا لحالة خائن أمانته أو خائض في الأباطل
فلا فرق عندي بين قاضٍ وكاتبٍ وشيٍّ ذا بسرٍّ أو قضيٍّ ذا بياطل

[قصيدة لابن الأزرق في مدحه]

ومن بديع ما نُظِم في مدح الرئيس أبي يحيى ابن عاصم المذكور قول العلامة
ابن الأزرق رحمه الله تعالى :

خضعت لمعطفه الغصون الميسر
ذو مبسم زهر الربى في كسبه
ومورّد من ورده أو ناره
فالورد فيه من دموعي يرتوي
كملت محاسنه فقد ناضر
صعب التعطف بالغرام حبيته
غرس التشوق ثم أغرى الوجد بي
ما كنت أشقى لو حلت بجنة
الحاظه ورضابه وعذاره
وليال أنس قد أمنت بهن من
أطلعت شمس الراح فيها فاهتدى
صفراء كالعقيان في الألوان لا
صبت شقيقاً فاستحالت نرجساً
وحباها يغنى بأسنى جوهر
يُجلى بها للغم منها حنّداً
حتى إذا عمشت مِرْآة البدر من
ناديته وسنا الصباح مُحْصَحْص
يا مطلع الأنوار زهراً يجتنى
بك مجلس الأنس اطمأن وبابن غا
بدر بأنوار الهدى متطلع

ورنا فهام بمقلتيه الرجس
متنافس عن طيبه متنفس
يتنعم القلب العميد ويأس
والنار فيه من ضلوعي تُقبَس
ولوا حظ نُجَلْ وثغر العس
فالحب يُحْبِي والتعطف يُحبس
فالوجد يُغْرِى والتشوق يُغرس
من وصله تحيا لديها الأنفس
حور بها أو كوثر أو سندس
واش ينم ومن رقيب يحرس
عاش إلينا في الدجى ومُغْلَس
ندمان كالشهبان منها أكّوس
في مزجها فمورّد ومورس
أنفى لغم المعدمين وأنفس
قمر عليه من الذؤابة حنّداً
صبح بدا تلقاه إذ يتنفس
ينجاب عنه من الظلام معس
ومشعشع الصهباء ناراً تلمس
صم اطمأن من الرياسة مجلس
غيث بأشتات الندى متبجس

حامى فلم نرتع لخطب يعترى
 شيم مهذبة ، وعلم راسخ
 لو كان شخصاً ذكره لبدا على
 ذاكم أبو يحيى به تحمى العلا
 بيت على عمد الفخار مطنب
 خيم وعرس في حماه فكم حوى
 إنا لنغدو هيماً فينبيلنا
 حتى أقمنا والأمانى منهضا
 لم ندر قبل يراعيه وبنانه
 هن اليراع بها يؤمن خائف
 مهما انبرت فهي السهام يورى لها
 يشفى بمأمله الشكى المعترى
 فتقص حين تشق منها ألسن
 من كل وشاء بأسرار النهى
 قد جمع الأضداد في حركاته
 عطشان ذو ري ، يبيس مثمر ،
 لله من تلك اليراع جواذب
 رضىنا شماس القول في أوصافها
 وإليكها حللاً تشابه نسجها
 واهناً بعيد باسم متهلل
 واحبس لواء الفخر موقوفاً فإن
 ووفى فلم نحفل بدهر يبخس
 ومكارم هتن ، ومجد أقعس
 أعطافه من كل حمد ملتبس
 وبه خلال الفخر طراً تحرس
 مجد على متن السماك مؤسس
 فيه المراد خيم ومعرس
 رياً ويوحشنا النوى فيؤنس
 ت وابتسمنا والزمان معبس
 أن الدوابل بالغمام تبجس
 ويحاط مذعور ، ويغنى مفلس
 وقع لأغراض البيان مقرطس
 يحيا بمأمنه الحمام المؤيس
 وتسير حين تقط منها أروس
 درب بإظهار السرائر يهجس
 فلذا اطراد فخاره لا يعكس
 غضبان ذو صفح ، فصيح أخرس
 للسحر منك كأنها المغنيطس
 فهي التي راضت لنا ما يشمس
 مثلي يفصلها ومثلك يلبس
 وافاك يجر بالسرور ويهمس
 الحمد موقوف عليك محبس

قلت : وعندي الآن شك في صاحب هذه القصيدة ، هل هو قاضي الجماعة
 بغرناطة محمد بن الأزرق أو ابن الأزرق الثاني القائل فيما يكتب على السيف :

إِنْ عَمَّتِ الْأَفْقَ مِنْ نَقَعِ الْوَغَى سَحْبٌ فَشِمٌ بِهَا بَارِقاً مِنْ لَمَعِ إِيْمَاضِي
وَلِنْ نَوَتْ حَرَكَاتُ النَّصْرِ أَرْضَ عِيداً فَلَيْسَ لِلْفَتْحِ إِلَّا فَعْلِي الْمَاضِي
وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

[رسالة ابن عاصم إلى ابن تركاط]

وَمِنْ إِنْشَاءِ الرَّئِيسِ ابْنِ عَاصِمٍ الْمَذْكُورِ مَا كَتَبَ بِهِ يَخَاطِبُ الْكَاتِبَ أَبَا الْقَاسِمِ
ابْنَ طُرْكَاطٍ ، وَهُوَ : « الْقَضَاءُ - حَفِظَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَالَكَ ، وَأَنْجَحَ آمَالَكَ - إِذَا
لَمْ يَحْطُطْهُ الْعَدْلُ مِنْ كَلَا جَانِيهِ سَبِيلٌ مُعَوِّجٌ ، وَمَذْهَبٌ لَا يُوَافِقُ عَلَيْهِ مُنَاطِرٌ
وَلَا يَنْصُرُهُ مُحْتَجٌّ ، كَمَا أَنَّه إِذَا حَاطَهُ الْعَدْلُ جَادَةً لِلنَّجَاةِ ، وَسَبَبٌ فِي حَصُولِ
رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُرْتَجَاةِ ، وَسَوْقٌ لِنَفَاقِ بِضَاعَةِ الْعَبْدِ الْمُزْجَاةِ ، وَأَجْمَلُ الْعَدْلِ
مَا تَحْلَى بِهِ فِي نَفْسِهِ الْحَكْمُ ، وَجَرَى عَلَى مَقْتَضَى مَا شَهِدَتْ بِهِ الْآرَاءُ الْمَشْهُورَةُ
وَالْحِكْمُ ، حَتَّى يَكُونَ عَنِ الْبَغْيِ رَادِعاً ، وَبِالْقِسْطِ صَادِعاً ، وَلَأَنْفِ الْأَنْفَةِ
مِنْ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ جَادِعاً ، وَأَنْتَ أَجَلُّكَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَعَةِ إِطْلَاعِكَ ، وَشِدَّةِ سَاعِدِ
قِيَامِكَ بِالطَّرِيقَةِ وَاضْطِلَاعِكَ ، مِمَّنْ لَا يُنَبِّهَ عَلَى مَا يَنْبَغِي ، وَلَا يَرُدُّ عَلَى طَلِبَتِهِ
مِنْ الْإِنْصَافِ الْمُبْتَغَى ، فَلَكَ فِي الطَّرِيقَةِ الْقَاضِيَةِ التَّبَرُّيزُ ، وَأَنْتَ إِذَا كَانَ غَيْرُكَ
الشَّبَهَ الذَّهَبُ الْإِبْرِيزُ ، وَلِعِلْمِيَةِ عَدْلِكَ التَّوْشِيَةُ بِالنِّزَاهَةِ وَالتَّطَرُّيزُ ، وَلِيَتْنِي كُنْتُ
لِمُظْهَرِكِ الْحَكْمِيِّ حَاضِراً ، وَلِإِعْلَامِ الْقَضَاةِ بِأَرَائِكِ الْمُرْتَضَاةِ مُحَاضِراً ، وَالْوَاظِعُ
قَدْ تَمَرَّسَ بِالْخَصُومِ ، وَجَعَلَ الْمُتَصَدِّي لِلْإِذْنِ فِي مَحَلِّ الْمَخْصُومِ ، وَأَنْتَ حَفِظْتَكَ
اللَّهُ تَعَالَى قَدْ قَمْتُ مِنْ غِلْظِ الْحِجَابِ بِالْمَقَامِ الْمَعْصُومِ ، وَمِثَلْتُ مِنْ سَعَةِ الْمَنْزِلِ
فِي الْفَضْلِ وَالطُّوْلِ كَالشَّهْرِ الْمَعْصُومِ ، وَالبَابُ قَدْ سُدَّ ، وَدَاعِي الشِّفَاعَةِ قَدْ رُدَّ ،
وَالْمِيقَاتُ لِلْإِذْنِ قَدْ حُدَّ ، وَمَطْلَبُ الْأَجْرَةِ الْمُتَعَارِفَةِ قَدْ بَلَغَ الْأَشَدَّ ، حَتَّى إِذَا قَضِيَ
الْوَاجِبُ ، وَأُذِنَ فِي دُخُولِ الْخَصْمَيْنِ الْحَاجِبِ ، وَكَبِحَ السَّابِقَيْنِ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي

لا يَعدُّونه ، وحفز^١ إيماءه مَنْ تعداه أو وقف دونه ، وقد حصل باللحظ واللفظ التساوي ، وأنتج المطالب الأربعة هذا اللازم المساوي ، ومجلسك قد رجح وقاره برضوى ، ومجتلاك قد فضح نوره البدر الأضوا ، وقد امتزت عن سواك من القضاة بمراسم لا تليق بجملتهم معارفها ، وتخصصت عنهم بملابس تعج عجيماً من جذامهم مطارفها^٢ ، بحيث تحد لخلع النعلين حدّاً لا يتجاوز طوَاه ، وتسد في بعض الأوقات الباب سدّاً لا تُرقع بالمحاجر كُوَاه^٣ ، وتفصل بين الخصمين أحياناً بالنية^٤ دون الكلام ولكل امرئ ما نَوَاه .

« وهذه أعانك الله تعالى مكملات من العدل في الحكم وقف عياض دون تحقيق مناطها ، وأعيت ابن رُشدٍ فلم يهتد بيانه ولا تحصيله لاستنباطها ، فما بال النازحة^٥ عنك حسّاً ومعنى ، النازلة من تقاضي دَيْنك بمنزلة المطول المعنى ، المعتقلة من ملكة رفقك بحيث أقصاها لاجع الشوق ، المعذبة من الصبابة فيك بما شب عمُرُه عن الطوق ، تتنفس الصعداء مما تشاهده منك من مبتدعات الجور ، وتردد البكاء على ضياع ما استعار الحسن لصفاتها من النجد والغور ، وتقضي العجب ممّا تسمع من عدلك الذي لم تجتلي لمحةً من نوره ، ومن حلمك الذي أشقاها^٦ فلم تحضر لدكة طوره ، وتستصوب أنظار النحاة في منع التهيئة والقطع في العامل ، وتستجلب اصطلاح العروضيين في المديد والبسيط دون الطويل والكامل ، فهلاًّ راجعت فيها النظر ، وأنجزت لها الوعد المنتظر ، وكففت من

١ ص : وأحفز ؛ ق : وأحقر .

٢ إشارة إلى قول الشاعرة :

شكا الخز من روح وأنكر ريحه وعجت عجيماً من جذام المطارف

٣ من قول الشاعر : « ورقن الكوى بالمحاجر » وأصله قول المثقب العبدى « وثقبن الوساوص للعيون » .

٤ ق ص : بالبيئة .

٥ أخذ يتحدث هنا - بضمير المؤنث - عن رسالة لم يحفل القاضي برد جوابها .

٦ ص : أشقاها المجد .

عيونها دموعاً مستهلة ، واجتليت من جبينها الوضاح ما أخجل بدوراً مشرقة وأهيلة ، ولم تحوجها إلى أن ينطق قرينها^١ الروحاني بالشعر على لسانها ولسانك ، ولم تضطرها في هذه المعاملة إلى ما لا ترتضيه من كفر إحسانك ، والعذر أظهر ، والبرهان أبهر ، وخلافك في العالم أشهر ، وأنت إن لم يكن ما يعصم الله تعالى منه لمقتضى الطبيعة أقهر .

« وقد أدرجتُ لك في طي هذا ما يصل إلى يدك ، وتلهج به في يومك وغدك ، منتظرة منك إطفاء الجوى بالجواب ، ومحو ما سبق من الخطأ بالخطاب ، إن شاء الله تعالى ، والله تعالى يصل سعادته ، ويحفظ مجادته ، ومعاد السلام من الشاكر الذاكر ابن عاصم وفقه الله تعالى في أوائل ذي الحجة عام خمسة وأربعين وثمانمائة » انتهى ، وهو مما لم أذكره في « أزهار الرياض » .

[ظهير بتقديم ابن عاصم للنظر في أمور الفقهاء]

ولنذكر هنا الظهير الذي جلبته فيها^٢ بتقديم المذكور للنظر في أمور الفقهاء وغيرهم ، ونصّه : هذا ظهير كريم إليه انتهت الظواهر شرفاً عليّاً ، وبه تقررت المآثر برهاناً جليّاً ، وراقت المفاخر قلائد وحليّاً ، وتميزت الأكابر الذين افتخرت بهم الأقاليم والمحابر ، اختصاصاً مولويّاً . فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت ، وتوالت المنشورات وتجددت ، أكبر^٣ مرسوم تم في الاعتقاد نظراً خطيراً ، وأحكم في التفويض أمراً كبيراً ، وأبرم في الاستخلاص عزماً أليّاً . اعتمد بمسطوره العزيز ، واختص^٤ بمنشوره الذي تلقاه اليُمنُ بالتعزيز ، من لم يزل

١ قرينها : سقطت من ق .

٢ فيها : يعني في أزهار الرياض ؛ انظر ج : ١ ص : ١٧٢ .

٣ ق : أكرم .

٤ ق : واختبر .

بالتعظيم حقيقاً ، وبالإكبار خليقاً ، وبالإجلال حرّياً . فهو شهير لم يزل في
 الشهرة سابقاً ، هادٍ لم يزل بالهدى ناطقاً ، بليغ لم يزل بالبلاغة درّياً ، عظيم
 لم يزل في النفوس معظماً ، علم لم يزل في الأعلام مقدماً ، كريم لم يزل في الكرام
 سنيّاً . اشتملت منه محافل الملك على العقد الثمين ، وحلت به المشورة في الكنف
 المحوط والحرم الأمين ، فكان في مشكاة الأمور هادياً ، وفي ميدان المرشد
 جرّياً . فإلى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص ، وإلى مرتبته تنتهي مراتب
 الاختصاص ، فيمن حاز خصلاً ، وزين حَقلاً ، وشرف نديّاً . واستكمل
 همماً ، واستحمل قلماً ، واستخدم مشرفياً . فله ما أعلى قدر هذا الشرف ،
 الجامع بين المتلد والمطرف^١ ، السابق في الفضل أمداً قصيباً . الحال من الاصطفاء
 مظهرأ ، الفارع من العلاء منبرأ ، الصاعد من العز كرسياً . حاز الفضل إرثاً
 وتعصياً ، واستوفى الكمال حقاً ونصيباً ، ثناء أَرَجُه كالروض لو لم يكن
 الروض ذابلاً وهدياً . نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلاً ، ومجد علوه كالسُّها
 لو لم يكن السُّها خفياً . فما أشرف الملك الذي اصطفاه ، وكمل له حق التقريب
 ووفاه ، وأحلّه قرارة التمكين ، ومن اختصاصه بالمكان المكين ، فسبق في
 ميدان التفويض وشأى^٢ ، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى ، صادعاً بالحق
 إماماً علماً ، موضحاً من الدين نهجاً أمماً ، هادياً من الواجب صراطاً سويّاً . بانياً
 للمجد صرحاً مُشيداً ، مشهراً للعدل قولاً مؤيداً ، مبرماً للخير سبباً قوياً . فالله
 تعالى يصل لمقام هذا الملك الذي طلع في سمائه بدرأ دونه البدور ، وصدرأ تلوذ
 به الصدور ، سعداً لا تَمُطُّله الأيام في تقاضيه ، ونصرأ يمضي به نصل الجهاد فلا
 يزال ماضيه ، على الفتح مبنياً . ويوالي له عزّاً يذُودُ عن حرم الدين ويمنحه
 تأييداً^٣ يصبح في أعناق الكفر حديث سيفه قطعياً .

١ ق : والطارف .

٢ الأزهار : وسما ؛ ق : وشاء .

٣ هكذا في الأزهار ؛ وفي ص : وخيفة وتأيداً ، واللفظتان على الرفع في ق .

أمر به مرسوماً عزيزاً لا تبلغ المرسومات إلى مداه ، ولا يبدى بآثار الاختصاص مثل ما أبداه ، عبد الله أمير المسلمين محمد الغالب بالله أيّد الله تعالى مقامه ، ونصر أعلامه ، وشكر إنعامه ، ويسرّ مرامه ، لإمام الأئمة وعلم الأعلام ، وعماد ذوي العقول والأحلام ، وبركة حملة السيوف والأقلام ، وقدوة رجال الدين وعلماء الإسلام ، الشيخ الفقيه أبي يحيى ابن كبير العلماء ، شهير العظماء ، حجة الأكابر والأعيان ، مصباح البلاغة والبيان ، قاضي القضاة وإمامهم ، أوجد الحيلة وطود شمامهم ، الشيخ الفقيه أبي بكر ابن عاصم أبقاه الله تعالى ، ومناطق الشكر له فصيحة اللسان ، ومواهب الملك به معهودة الإحسان ، وقلائد الأيادي منه متقلدة بجيد كل إنسان ، قد تقرر والمفاخر لا تُنسب إلا لبنيتها ، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيد أركانها ويبنيها ، والكمال لا يُصفي شربه ، إلا لمن يؤمن سرّبه ، أن هذا العلم الكبير ، الذي لا يفي بوصفه التعبير ، علم بآثاره يقتدى ، وبأنظاره يهتدى ، وبإشارته يستشهد ، وبإدارته يسترشد ، إذ لا أمد علو^١ إلا وقد تخطاه ، ولا مركب فضل إلا وقد تمطاه ، ولا شارقة هدى إلا وقد جلاها ، ولا لبة فخر إلا وقد حلاها ، ولا نعمة إلا وقد أسداها ، ولا حرمة إلا وقد أبداها ، لما له في دار الملك من الخصوصية العظمى ، والمكانة التي تسوغ النعمى ، والرتب التي تسمو العيون إلى مرّتها ، وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتلقاها ، حيث سر الملك مكتوم ، وقرطاسه مختوم ، وأمره محتوم ، والأقلام قد روضت الطروس وهي ذاوية ، وقسمت الأرزاق وهي طاوية ، شقت ألسنتها فنطقت ، وقطت^٢ أرجلها فسبقت ، ويبست فأثمرت إنعاماً ، ونكست فأظهرت قواماً ، وخطت فأعطت ، وكتبت فوهبت ، ومشقت فرفقت ، وأبرمت فأنعمت ، فكم يسرت الجبر ،

١ ص : على (علا) .

٢ ق : وقطعت .

وعفرت الهزبر ، وشنتت المسامع ، وكيّفت المطامع ، وأقلت فيما ارتفع
من المواضع ، وأحلت لما امتنع من المراضع ، فهي تنجز النعم ، وتحجز النقم ،
وتبث المذاهب ، وتحث المواهب ، وتروض المراد ، وتنهض المراد ، وتحرس
الأكناف ، وتغرس الأشراف ، مصيخة لنداء هذا العماد الأعلى ، طامحة لمكانه
الذي سما واستعلى ، فيما يملئ عليها من البيان الذي يقر له بالفضل ، الملك الضليل ،
ويشهد له بالإحسان ، لسان حسان ، ويحكم له بيري القوس^١ ، حبيب بن أوس ،
ويهم بما من الأساليب عنده ، شاعر كنده ، ويستمطر سحبه الثرة ، فصيح
المعرة ، إلى منشور تزيل الفقر فقره ، وتدرّ الرزق درره ، لو أنهي إلى قس
إياد لشكر في الصنعة أياديه ، واستمطر سحبه وغواديه ، أو بلغ إلى سحبان
لسحره ، وما فارقه عشيته ولا سحره ، ولو رآه الصابي لأبدى إليه من صبوته
ما أبدى ، أو سمعه ابن عباد لكان له عبدا ، أو بلغ بديع الزمان لهجر بدائعه ،
واستنزر بضائعه ، أو أتحف به البستي لاتخذه بستاناً ، أو عرض على عبد الحميد
لأحمد من صوبه هتّاناً ، فأعظم به من عال لا ترقى ثنيته ، ولا تحاز مزيته ،
ولا يرجم أفقه ، ولا يكتم حقه ، ولا ينأى عنه عن اكتساب الحمد ناظر ، ولا
ينقاس به في الفضل مُناظر ، وهل تقاس الأجادل بالبغاث ، أو الحقائق بالأضغاث ؟
ألا وإن بيته هو البيت الذي طلع في أفقه كل كوكب وقاد ، ممن وشج
به للعلوم اتقاء واتقاد ، وترامى به للمدارك ذكاء وانتقاد ، فأعظم بهم أعلاماً
وصدوراً ، وأهلاً وبدوراً ، خلدت ذكرهم الدواوين المُسطرة ، وسرت في
محامدهم الأنفاس المعطرة ، إلى أن نشأ في سمائهم هذا الأوحى ، الذي شهرة
فضله لا تجحد ، فكان قمرهم الأزهر ، ونيرهم الأظهر ، ووسيلة عقدهم
الأنفس ، ونتيجة مجدهم الأقدس ، فأبعد في المناقب آماده ، ورفع الفخر وأقام
عماده ، وبني على تلك الأساس المشيدة ، وجرى لإدراك تلك الغايات البعيدة ،

١ ق : بيرة النفوس .

فسبق وجلّتي ، وشنّف بذكره المسامع وحلّتي ، ورفع المشكل ببيانه ، وحرر
 الملتبس ببرهانه ، إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أفقه الأصعد^١ ، وبوّاه عزيز
 ذلك المقعد ، فشرّف الخطوة ، وأخذ على الأيدي المشتطة ، لا يراقب إلا ربّه ،
 ولا يضمّر إلا العدل وحبّه ، والمجلس السلطاني أسماه الله تعالى يختصه بنفسه ،
 ويفرغ عليه من حلل الاصطفاء ولبسه ، ويستمطر فوائده ، ويجرب بأنظاره
 حقوق الملك وعوائده ، فكان بين يديه حكماً مُقَسِّطاً ، ومقسماً لحظوظ
 الإنعام مُقَسِّطاً ، إلى أن خصّه بالكتابة المولوية ، ورأى له ذلك حق الأولوية ،
 إذ كان والده المقدس نعم الله تعالى ثراه ، ومنحه السعادة في أخراه ، مشرّف ذلك
 الديوان ، ومعلي ذلك الإيوان ، يحبّر رقاع الملك فتروق ، وتلوح كالشمس
 عند الشروق ، فحلّ ابنه هذا^٢ الكبير شرفاً ، الشهير سلفاً ، مرتبته التي سمّت ،
 وافترت به عن السعد وابتسمت ، فسحبت به للشرف مطارف ، وأحرزت به
 من الفخر التالد والطارف ، فهو اليوم في وجهها غرّة ، وفي عينها قرّة ، والله
 هو في ملاحظة الحقائق ورعيها ، وسمع الحجج ووعيتها ، فلقد فضل بذلك أهل
 الاختصاص ، وسبقهم في تبين ما يشكل منها وما يعتاص ، إذ المشكلة معه
 جليلة الأغراض ، والآراء لديه آمنة من مأخذ الاعتراض ، فكم رتبة عمرها
 بذويها ، فأكسبها تشريفاً وتنويها ، وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن ، ومن عبّر
 منهم وقطن ، مع أقدارهم السامية ، ومعاليهم التي هي للزهر مسامية ، إنما
 رقتهم وساطته التي أحسنت ، وزينت بهم المجالس وحسّنت ، فيه^٣ أمضوا
 أحكامهم ، وأعملوا في الأباطيل احتكامهم ، وكتبوا الرسوم ، وكتبوا
 الحصوم ، وحلوا دسّت القضاء ، وسلوا سيف المضاء ، وفي زمانه تخرّجوا ،

١ ق : الأسعد .

٢ ص : ذلك .

٣ كذا في ص ق ؛ وفي الأزهار : فبه .

وفي بستانه تأرجوا ، ومن خلقه اكتسبوا ، وإلى طرقة انتسبوا ، وعلى موارد
حاموا ، وحول فوائده قاموا ، وبتعريفه عُرِفوا ، وبتشريفه شرفوا ، وبصفاته
كَلِفُوا ، وبعرفاته وقفوا ، فأَمِنُوا مع انسكاب سحب إفادته من الجَدْب ،
وقاموا بذلك الفرض بسبب ذلك النَّدْب ، وهل العلماء وإن عمت فوائدهم ،
وانتظمت بزيادة الأذهان فرائدهم ، إلا من أنواره مستمدون ، وإلى الاستفادة
من أنظاره ممتدون ، وببركاته معتدون ، وبأسبابه مشتدون ، فيه اجْتُنِيتْ من
أفنان المناير ثمراتهم ، وتأرجتْ في روضات المعارف زهراتهم ، وبه عمروا
الحلق ، واثلق من أنوارهم ما اثلق ، إذ كلٌّ من اصطناعه محسوب ، وإلى
بركته منسوب ، فهو بدرهم الأهدى ، وغيثهم الأجدى ، وعقدتهم المقتنى ،
وروضهم المجتنى ، وبدر منازلهم ، وصدر محافلهم .

وعلى ما أعلى المقام المولوي من مكانه ، وقضى به من استمكانه ، واعتمد
من إبرامه ، وأبرم من اعتماده ، ومهد من إكرامه ، وكرم من مهاده ، واختص
من علاه ، وأعلى من اختصاصه ، واستخلص من حُلاه ، وحلا من استخلاصه ،
ووفى من تكريمه ، وكرم من وفائه ، واصطفى من مجده ، ومجد من اصطفاؤه ،
وقدم من براعته ، وحكم من يراعته ، وشقق من كتابته ، وأنطق من خطابته ،
وسجل من أنظاره ، وعجل من اختياره ، فذكا ذكره ، وسطا سَطَره ، وأمعن
معناه ، وأغنى مغناه ، أشار أيَّده الله تعالى باستئناف خصوصيته وتجديدها ،
وإثبات مقاماته وتحديداتها ، لتُعرف تلك الحدود فلا تُتخطى ، وتُكبر تلك
المراتب فلا تُستعطى ، فأصدر له شكر الله تعالى لإصداره ، وعمر بالنصر داره ،
هذا المنشور الذي تأرج بمحامده نشره ، وتضمن من مناقبه البديع فراقَ
طيه ونشره ، وغدا وفرائد المآثر لديه موجدة مكوَّنه^١ ، وأصبح للمفاخر مالكا
لما أتى به مدونه ، وخصَّه فيه بالنظر المطلق الشروط ، الملازم للتفويض ملازمة

١ ق : مكنونه ؛ ص : مكنونه .

الشرط للمشروط ، المستكمل الفروع والأصول ، المستوفي الأجناس والفصول ،
في الأمور التي تختص بأعلام القضاة الأكابر ، وكتاب القضاة ذوي الأعلام
والمحابر ، وشيوخ العلم وخطباء المنابر ، وسائر أرباب الأعلام القاطن منهم
والعابر ، بالحضرة العلية ، وجميع البلاد النصرية ، تولى الله تعالى جميع ذلك بمعهود
ستره ، ووصل لديه ما تعود من شفع اللطف ووتره ، يحوط مراتبهم التي قُطفت
من روضاتها ثمرات الحكم وجُنِيَت ، ويراعي أمورهم التي أُقيمت على العوائد
وبُنيت ، وحقوقهم التي حُفظت لهم في المجالس السلطانية ورُعيت ، ويحل كل
واحد منهم في منزلته التي تليق ، ومرتبته التي هو بها خَلِيق ، على ما يقتضي ما يعلم
من أدواتهم ، ويخبر من تباين ذواتهم ، ويُرشح كل واحد إلى ما استحقّه ،
ويؤتي كل ذي حق حقه ، اعتماداً على أغراضه التي عدلت ، وصدحت على
أفنانها من الأفواه طيور الشكر وهَدَلَت ، واستناداً في ذلك إلى آرائه ، وتفويضاً
له في هذا الشأن بين خلصاء الملك وظُهرآئه ، وذلك على مقتضى ما كان عليه
أعلام الرياسة الذين سبقوا ، وانتهضوا بهمهم واستبقوا ، كالشيخ الرئيس
الصالح أبي الحسن ابن الحِيَّاب ، والشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب ،
رحمهما الله تعالى .

فليقم أبقاه الله تعالى بهذه الأعمال التي سَمَت واعتزّت ، ومالت بها أعطاف
العدل واهتزّت ، وسار بها الخبر حيث السُرى ، وصار بها الحق مشدود
العُرى ، وعلى جميع القضاة الأمضياء ، والعلماء الأرضياء ، والخطباء الأولياء ،
والمقرئين الأذكياء ، وحملة الأعلام الأحظياء ، أن يعتمدوا هذا الولي العماد في
كل ما يرجع إلى عوائدهم ، ويختص في دار الملك من مراتبهم وفوائدهم ، وما
يتعلق بولاياتهم وأمنياتهم ، ويليق بمقاصدهم ونياتهم ، فهو الذي يسوغهم
المشارب ، ويبلغهم المآرب ، ويستقبل العلي بالعلي ، والعاطل بالحلي ، والمشكل
بالحلي ، والمفرق بالتاج ، والمقدمة بالإنتاج ، وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد
أقرهم على ولاياتهم وأبقاهم ، ولقاهم من حفظ المراتب ما رقاهاهم ، فليَجْرُوا

على ما هم بسبيله ، وليهتدوا بمرشد هذا الاعتناء ودليله ، وكتب في صفر عام
سبعة وخمسين وثمانمائة ؛ انتهى .

قلت : وإنما أتيت به لوجوه : أحدها ما يتعلق بلسان الدين إذ وقعت
الإشارة إلى مرتبته في آخره ، والثاني ما اشتمل عليه من الإنشاء الغريب ، والثالث
معرفة حال الرئيس أبي يحيى ابن عاصم وتمكنه من الرياسة ، لأننا بنينا هذا الكتاب
على ذكر ما يناسبه من أنباء أهل المغرب ، لكون أهل هذه البلاد المشرقية ليس
لهم بها عناية ، والرابع أن بعض أكابر شيوخنا ممن ألف في طبقات المالكية
لما عرف بأبي يحيى ذكره في نحو أسطر عشرة ، وقال : هذا الذي حضرني من
التعريف به ، والخامس أن ابن عاصم المذكور كما قاله الوادي أشي وغيره كان
يدعى في الأندلس بابن الخطيب الثاني ، ويعنون بذلك البلاغة والبراعة والرياسة
والسياسة .

رجع إلى أخبار لسان الدين فنقول :

وأما كتب التأليف باسم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فقد قال في « الإحاطة » لما
أجرى ذكر ذلك ما صورته : وأما ما رفع إليّ من الموضوعات العلمية ، والوسائل
الأدبية ، والرسائل الإخوانية ، لما أقامني الملك صنماً يعتمد ، وخيالاً إليه
يستند ، صادرة عن الأعلام ، وحملة الأقلام ، ورؤساء النثر والنظام ، فجَمَّ
يضيق عنه الإحصاء ، ويعجز عن ضم نشره الاستقصاء ، وربما تضمن هذا الكتاب
كتاب « الإحاطة » منه كثيراً ، ومنظوماً أثيراً ، ودرّاً ثيراً ، جرى في أثناء الأسماء ،
وانتمى إلى الإجابة أكرم الانتماء ، غفر الله تعالى لي ولقائله ، فما كان أولاني
ولياه بستر زوره ، وإغراء الإضراب بغروره ، فأهون بما لا ينفع ، وإن ارتفع
الكلم الطيب لا يرفع ، اللهم تجاوز عنا بفضلك وكرمك ؛ انتهى .

وقد تقدم في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي
نزيل مألقة وصاحب التأليف العديدة أنه ألف تقييداً على قواعد الإمام القاضي

أبي الفضل عياض رحمه الله تعالى برسم ولد لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، وكذلك غير واحد من أهل عصره ، قصدوه بالنظم والنثر ، وهي سنة الله سبحانه وتعالى في عباده ، إذ السلطان سوق يُجْلَب إليها ما ينفق فيها ، والله سبحانه وتعالى وليُّ المكافأة ، لا ربَّ غيره ، ولا مأمول سواه^١ ؛ انتهى .

١ ص : ولا . . . سواء : سقطت من ص ؛ وإلى هنا انتهت نسخة ص ، وفي آخرها « انتهى الجزء الثالث من نفع الطيب تاريخ الإمام العالم العلامة أحمد المقرئ المالكي » .

الباب الخامس

في إيراد جملة من نثره الذي عبقّ أريجُ البلاغة من نفحاته ، ونظمه الذي تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته ، وما يتصل به من أزجاله وموشحاته ، ومناسبات رائقة في فنون الأدب ومصطلحاته .

اعلم — سلك الله تعالى بي وبك أوضح محجّة ، وجعلنا ممّن انتحى صوب الصواب ونهجه — أن هذا الباب ، هو المقصود بتأليف هذا الكتاب ، وغيره كالتبّع له ، وها أنا أذكر ما حضرني الآن من بنات أفكار لسان الدين التي هي بالمحاسن متقنة ، وللبدائع متعلة ، فأقول :

أما نثره فهو البحر الزخار ، بل الدر الذي به الافتخار ، وناهيك أن كتبه الآن في المغرب قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يصلّون ، وسوق دررهم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم ويحلون ، وخصوصاً كتابه «ريحانة الكتاب ونجعة المتاب» فإنه ، وإن تعددت مجلداته ، على فن الإنشاء والكتابة مقصور ، وقد اشتمل على السلطانيات وغيرها ومخاطباته لأهل المشرق والمغرب على لسان ملوك الأندلس الذين علّم بلاغتهم منصور ، وقد تركت نسختي منه في المغرب ، ولو حضرتني لكفتني عن هذه الفوائد التي أتعبت خاطري في جمعها من مقيداتي التي صحبتها معي ، وهي قليلة .

وقد مرّ في هذا الكتاب جملة من نثره ونظمه ، والذي نجلبه هنا زيادة على

ما سبق .

وقال رحمه الله تعالى في «الإحاطة» عند ترجمة نثره ما صورته : وأما النثر

فبحر زانحر ، ومدى طوله مستانحر ، وإنك لم يفخر عليك كفانحر ، وقد مرّ
منه في تضاعيف هذا الديوان كثير ، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مُشير ؛ انتهى .

١ - فمن ذلك قوله في غرض التّحميد ممّا افتتح به الكتاب في التاريخ المتضمن
دولة بني نصر^١ : « الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك ، ودول الأملاك كأنجم
الأحلاك ، تطلعها من المشارق نيرة ، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة ، ثم تذهب
بها غائرة متغيرة ، السائق^٢ عَجَل ، وطبع الوجود مرتجل ، والحي من الموت
وجِل ، والدهر لا معتذر ولا خَجَل ، بينما ترى الدّست عظيم الزحام ،
والموكب شديد الالتحام ، والوزعة تشير ، والأبواب يقرعها البشير ، والسرور
قد شمل الأهل والعشير ، والأطراف تلمها الأشراف ، والطاعة يشهرها الاعتراف ،
والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف ، والرايات تُعقّد ، والأعطيات
تُنقّد ، إذ رأيت الأبواب مهجورة ، والدسوت لا مؤمّلة ولا مزورة ، والحركات
قد سكنت ، وأيدي الإدالة قد تمكنت ، فكأنما لم يسمر سامر ، ولا نهي
ناه ولا أمر آمر ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ﴿ إنما مثلُ الحياة
الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلف به نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾
(الكهف : ٤٥) .

٢ - ومن نثره قوله في استدعاء إمداد وحضّ على الجهاد : « أيها الناس
رحمكم الله تعالى ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قصمه الله تعالى
ساحتهم ، ورام الكفرُ خذله الله تعالى استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت
إليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى ، وأنتم
المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم الغريب فلا
تخفروه ، وسبيل الرشْد قد وضح فلتبصروه ، الجهادَ الجهادَ فقد تعين ،

١ يريد كتاب اللّحة البدرية ، انظر مقدمته ص : ٩ .

٢ اللّحة : السابق .

الجارَ الجارَ فقد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تنادىكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله سبحانه يقول فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم ﴾ (الصف : ١٠) ومما صح عنه قوله « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرّهما الله على النار » « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم » « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا » ، أدركوا رَمَقَ الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته ، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده :

ماذا يكون جوابكم لنيكم وطريقُ هذا العذر غير ممهدٍ
إن قال لم فرطتم في أمتي وتركتموهم للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحمية في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبائك وأوليائك ، يا خير الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . انتهى .

٣ - ومن ذلك قوله في صداق أمره السلطان بإنشائه لكبير الشرفاء بفاس في فصل منه تضمن ذكر أوليتهم واستيطانهم لتلك المدينة ما صورته :
« فضرِب بفاس - عمرها الله تعالى - حلته ، وأورث منها بالبقعة الزكية

الرفيعة سرائه وجيلته ، فتبوأوا من ذلك الغور ، المعشب الروض الأرج النور ،
هالة سعد ، وأفق برق ورعد ، ودست وعيد ووعد ، يتناقلون رُتَبَ الشرف
الصريح كابرآ عن كابر ، ويروي مسلسل المجد عن بيتهم الرفيع الجدد كل حريص
على عوالي المعالي مثابر :

فالكف عن صلة ، والأذن عن حسن والعين عن قرّة ، والقلب عن جابر .
حيث الأنوف الشّم والوجوه الغر ، والعزة القعساء والنسب الحر ، والفواطم في
صدف الصون من لدن الكون كأنهن الدر ، آل رسول الله ونعم الآل ، والموارد
الصادقة إذا كذب الآل ، ومن إذا لم يُصلّ عليهم في الصلاة حبّطت منها الأعمال ،
طلّبة الراكب ، ونشدة الطالب ، وسراة لؤي بن غالب ، وملتقى نور الله
تعالى ما بين فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب . انتهى ، وهو طويل لم يحضرني
منه الآن سوى ما ذكرته .

٤ - ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى : كتبت إلى بعض السادة الفضلاء ،
وقد بلغني مرضه أيام كان الانزعاج عن الأندلس إلى الإيالة المرينيّة^١ :
« وردت علي من فثي التي إليها في معركة الدهر أتميز ، وبفصل فضلها في
الأقدار المشتركة أتميز ، سحابة سرّت وساءت ، وبلغت من القصدين^٢ ما
شاءت ، أطلع بها سيدي صنيعة وده من شكواه على كل عابث في السويداء ، موجب
اقتحام البيداء ، مضرم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلاّ القليل ، ولا من
إفصاح لسانه إلاّ الأنين والأليل ، ونوى مدت لغير ضرورة يرضها الخليل ،
فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع في تقبل أعماله ،
أو آمل ضويق في فذلكة آماله ، لكني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ،
وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطّ يبهر والحمد لله تعالى ويروق ،

١ مر في الباب الرابع ص : ٤٣ أن هذا النص من رسالة خاطب بها أبا القاسم ابن رضوان .

٢ ق : القصد .

واللفظ الحسن تومض في خبره للمعنى الأصيل بروق ، فقلت : ارتفع الوصب ، وردّ من الصحة المقتصب ، وآلة الحس والحركة هي العصب ، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سليطه ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى ذلك فبليد احتياطي لا يقنعه إلاّ الشرح ، فبه يسكن الظمأ البرح ، وعُذراً عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزندُ القلق في مثلها أورى ، والشفيق بسوء الظن مغرى ، والسلام .

٥ - ومن نثر لسان الدين ما ذكره في «الإحاطة» في ترجمة أبي عبد الله الشّدِيد وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري الجباني الأصل ثم المالقي إذ قال ما صورته^١:

« جملة جمال^٢ من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله ، بلبل دَوْح السبع المثاني ، وماشطة عروس أبي الفرج ابن الجوزي ، وآية صُقعهِ ونسِيج وحْدِهِ في حسن الصوت وطيب النغمة ، اقتحم لذلك دسوت الملوك ، وجر أذيال الشهرة^٣ ، عذب الفكاهة ، ظريف المجالسة ، قادراً على المحاكاة ، متسوِّراً حمى الوقار ، مليئاً داعي الانبساط ، قلّد شهادة الديوان بمالقة فكان مغار حبّل الأمانة ، شامخ مارن التزاهة ، لوحاً للألقاب ، وعزّزت ولايته ببعض الألقاب النبيلة ، وهو الآن الناظر في أمور الحِسْبَةِ ببلده ، ولذلك خاطبته برقعة أداعبه بها وأشار إلى أضداده بما نصه :

يا أيها المحتسبُ الجزلُ ومن لديه الجدُّ والهزلُ
يهنيك والشكرُ لمولى الورى ولايةٌ ليس لها عزلُ

كتبت أيها المحتسب ، المنتمي إلى النزاهة المنتسب ، أهنيك ببلوغ تمليك ، وأحذرك

١ الإحاطة ، الورقة : ١٢ .

٢ الإحاطة : مجموع خلال .

٣ الإحاطة : الصفحة .

من طمع نفس بالغرور تمنيك ، فكأنني بك وقد طافت بركابك الباعة ، ولزم
أمرك السمع والطاعة ، وارتفعت في مصانعتك الطماعة ، وأخذت أهل الريب
بغته كما تقوم الساعة ، ونهضت تقعد وتقيم ، وسطوتك الريح العقيم ، وبين
يديك القسطاس المستقيم ، ولا بد من شرك يُنصب ، وجماعة على ذي جاه تعصب^١ ،
ودالة يمت بها الجناح الأخصب ، فإن غضضت طرفك ، أمنت على الولاية
صرفك ، وإن ملأت ظرفك^٢ ، رحلت عنها حرفك ، وإن كففت فيها كفك ،
حفك الغر فيمن حفك ، فكن^٣ لقالي المجبنة قالياً ، ولحوت السلة سالياً ، وأبد
لدقيق الحواري زهداً حواري^٤ ، وازهد فيما بأيدي الناس من العواري ، وسر
في اجتناب الحلواء ، على السبيل السواء ، وارفض في الشواء ، دواعي الأهواء^٥ ،
وكن على الهراس^٤ وصاحب ثريد الراس شديد المراس ، وثب^٥ على طبيخ الأعراس
ليثاً مرهوب الافتراس ، وأدب أطفال الفسوق في السوق ، لا سيما من كان قبل
البلوغ والبسوق ، وصمم على استخراج الحقوق ، والناس أصناف فمنهم خسيس
يطمع منك في أكلة ، ومُسْتَعْدٍ عليك بوكزة أو ركلة ، وحاسد في مطية تُركب
وعطية تُسكب ، فاخفض للحاسد جناحك ، وسدد إلى حربه رماحك ، وأشبع
الخسيس منهم مرقه فإنه حنق ، ودُسَّ له فيها عظماً لعله يخنق ، واحفر لشريرهم
حفرة عميقة ، فإنه العدو حقيقة ، حتى إذا حصل ، وعلمت أن وقت الانتصار
قد اتصل ، فأوقع وأوجع ولا ترجع ، وأولياءه من الشياطين^٥ فافجع ، والحق^٥
أقوى ، وأن تعفو أقرب للتقوى ، سددك الله تعالى إلى غرض التوفيق ، وأعلّقك

١ الإحاطة : تتصعب .

٢ ملأ ظرفه : كناية عن قبول الهدية والرشا .

٣ الإحاطة : وارفض في الشوا دواعي الهوى .

٤ الهراس : صانع الهريسة .

٥ الإحاطة : من حزب الشيطان .

من الحق بالسبب الوثيق ، وجعل قدومك مقروناً برخص اللحم والزيت والدقيق » ؛
انتهى .

٦ - ومما كتب به لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي بن موسى
ابن رحو بن عبد الله بن عبد الحق من مدينة سلا ما نصه :

« يا جملة الفضل والوفاء ما بمعاليك من خفاء
عندي بالود فيك عقدٌ صحفه الدهرُ باكتفاء
ما كنت أقضي حلاك حقاً لو جئت مدحاً بكل فاء
فأول وجه القبول عذري وحسبك^١ الشك في صفاء

سيدي الذي هو فصل جنسه ، ومزية يومه على أمسه ، فإن افتخر الدين من أبيك
بيدرة افتخر منك بشمسه ، رحلت على المنشأ والقرارة ، ومحل الصبوة والفرارة ،
فلم تتعلق نفسي بذخيرة ، ولا عهد جيرة خيرة^٢ ، كتعلقها بتلك الذات التي
لطفت لطافة الراح ، واشتملت بالمجد الصُّراح ، شفقة أن تصيبها معرة والله تعالى
يقيها ، ويحفظها ويُبقيها ، إذ الفضائل في الأزمان الرذلة غوائل ، والضد عن ضده
منحرف بالطبع ومائل ، فلما تعرفت خلاص سيدي من ذلك الوطن ، وإلقاءه
وراء الفرضة^٣ بالعطن ، لم تبق لي تعلية ، ولا أحرضتني له علة ، ولا أوتي جمعي
من قلة ، فكتبت أهنيء نفسي الثانية بعد هناء نفسي الأولى ، وأعترف للزمان
باليد الطولى ، فالحمد لله الذي جمع الشمل بعد شتاته ، وأحيا الأنس بعد مماته ،
سبحانه لا مبدل لكلماته ، وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدي ونصيبه ، فلا
يستطيع حادث أن يصيبه ، وأنا أخرج له عن بث كمين ، ونصح أنا به قمين ،

١ ق : وجنب .

٢ خيرة : سقطت من ق .

٣ ق : العرصة .

بعد أن أسبر غوره ، وأخبر طوره ، وأرصد دوره ، فإن كان له في الشريق أمل ، وفي ركب الحجاز ناقة وجمل ، والرأي فيه قد نجحت منه نية وعمل ، فقد غني عن عرف البقرات ، بأزكى الثمرات ، وأطفأ هذه الجمرات ، برمي الجمرات ، وتأنس بوصل الشرى ووصال السراة ، وأنا به إن رضيني أرضى مرافق ، ولواء عزي به خافق ، وإن كان على السكون بناؤه ، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه ، فأمر له ما بعده ، والله يحفظ من الغير سعده ، والحق أن تحذف الأبهة وتختصر ، ويحفظ اللسان ويغضّ البصر ، وينخرط في الغمار ، ويخلّي عن المضمار ، ويجعل من المحذور مداخلة من لا خلاق له ، ممن لا يقبل الله تعالى قوله ولا عمله ، فلا يكمّ سرّاً ، ولا يتطوق من الرجولة زراً ، ويرفض زمام السلامة^١ ، وترك العلامة على النجاة علامة ، وأما حالي فكما علمتم مُلّازم كين^٢ ، ومهبط تجربة وسن^٣ ، أزجي الأيام ، وأروم بعد التفرق الالتئام ، خالي اليد ، مليء القلب والخلد ، بفضل الواحد الصمد ، عامل على الرحلة الحجازية التي أختارها لكم ولنفسي ، وأصّل في التماس الإعانة عليها يومي بأمسي ، أوجب ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من ود قررته الأيام والشهور ، والخلوص المشهور ، وما أطلت في شيء عند قدومي على هذا الباب الكريم إطالتي فيما يختص بكم من موالاته ، وبذل مجهود القول والعمل في مرضاته ، وأما ذكركم في هذه الأوضاع فهو ممّا يقر عين المجادة ، والوظيفة التي ينافس فيها أولو السيادة ، والله يوصل بقاءكم ، ويسر لقاءكم ، والسلام « انتهى .

٧ - ومن نثر لسان الدين ما أثبتته في « الإحاطة » في ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ الذي تكرر نقلنا منه في هذا التأليف :
ولنذكر الترجمة بجملتها فنقول : قال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » ما نصه : « عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن

١ ق : الصعبة زمان السلامة .

إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نبهاء ثوار الأندلس ، ويُنسب سلفُهم إلى وائل بن حجر ، وحاله عند القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة ، انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك ، فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين محمد بن الحسن ، وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة ، وتصرف جدُّ المترجم به في القيادة . وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الحصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصيُّ الزي ، عالي الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوي الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مغرّى بالتجلة ، جواد حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رعي خلال الأصالة ، مفخر من مفاخر التّخوم المغربية . قرأ القرآن ببلده على المكتّب ابن برال ، والعربية على المقرئ الزواوي وغيره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن المحدث أبي عبد الله ابن جابر الوادي آشي ، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله ابن عبد السلام ، وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطّي ، والرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي ، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الآبلي وانتفع به ، انصرف من إفريقية منشئه بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة ، وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة ، عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، وعرف فضله ، وخطبه السلطان مُنفقٌ سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان ، واستحضره^١ بمجلس المذاكرة فعرف حقه وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ، ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التّأني ، وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك ، فأغروا به

١ ق : واستقدمه واستحضره .

السلطان إغراء عَصْدَه ما جُبِل عليه عهدئذٍ من إغفال التحفظ ممّا يريب لديه ، فأصابته شدة تخلصه منها أجله ^١ ، كانت مغربة في جفاء ذلك الملك وهناة جواره ، وإحدى العواذل لأولي الهوى في القول بفضله وعدم الخشوع وإهمال التوسل وإبادة المكسوب في سبيل النفقة والإرضاخ على زمن المحنة وجار المنزل الحشن ، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده ، فأعتبه قيّم الملك لحينه ، وأعادته إلى رسمه ، ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم ، وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حظوته ، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات محرر السهام نبيه الرتبة ، إلى آخر أيامه . ولما ألفت الدولة مقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر ، وله إليه وسيلة وفي حليه شركة وعنده حق ، رابه تقصيره عمّا ارتقى إليه أمله ، فساء ما بينهما بما آل إلى انفصالة عن الباب المريني ، وورد على الأندلس في أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة ، واهتز له السلطان ، وأركب خاصته لتلقيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخر عنه برّاً ومؤاكلة ومراكمة ومطايبة وفكاهة .

٨ - وخاطبني لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرني الآن ، فأجبتة عنها بقولي ^٢ :

حللت حلول الغيث في البلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل
يمينا بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهدأ والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطة تُنسي اغتباطي بالشبية والأهل
أقسمت بمن حجت قريش لبيته ، وقبر صُرفت أزيمة الأحياء لميته ، ونور ضُربت
الأمثال بمشكاته وزيتته ، لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمانة السنية ، والعارفة

١ ق : الأجل .

٢ أوردها ابن خلدون في التعريف : ٨٢ .

الوارفة ، واللطيفة المطيفة ، بين رجع الشباب يقطر ماء ويرفُ نماء ، ويغازل
عيون الكواكب فضلاً عن الكواكب إشارة وإيماء ، بحيث لا الوخط يلمُ بسياج
لمته ، أو يقدح ذُبالةً في ظلمته ، أو يقوم حواريه في ملته ، من الأحابش وأمته ،
وزمانه رَوْح وراح ، ومغدى في النعيم ومراح ، وقصف صراح ، ورقى وجراح ،
وانتخاب واقتراح ، وصدور ما بها إلاّ انشراح ، ومسرات تردفها أفراح ، وبين
قدومك خليع الرسن ، ممتعاً والحمد لله باليقظة والوسن ، محكماً في نسك الجنيد
أو فتك الحسن ، ممتعاً بظرف المعارف ، مالتاً أكف الصيارف ، ماحياً بأنوار
البراهين شُبّه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن راقى^١ زمنه ، وأعياي ثمنه ،
وأجرت سحائب دمي دمنه ، فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي ، وملّكني
أزمة آرابي ، وغبطني بمائي وترابي ، ومألف أترابي ، وقد أغصني بلذيد شرابي ،
ووقع على سطورهِ المعبرة إضرابي ، وعجلتُ هذه مُغَبَّطَةً بمناخ المطية ،
ومنتهى الطية ، وملتقى السعود غير البطية ، وتنهى الآمال الوثيرة الوطية ، فما
شئت من نفوس عاطشة إلى ربّك ، متجملة بزيّك ، عاقلة خطى مَهْرِيّك ، ومولى
مكارمه نشيدة أمثالك ، ومظان مثالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل
مجدك في التخلف عن الإصحار^٢ ، لا بل اللقاء من وراء البحار ، والسلام .

٩ - ولما استقر بالحضرة جرت بيني وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه ،
وأوضح الأدب مذاهبه ، فمن ذلك ما خاطبته به وقد تسرّى جارية رومية اسمها
هند صبيحة الابتناء بها :

أوصيك بالشيخ أبي بكره لا تأمنن في حالة مكره
واجتنب الشك إذا جثته جنبك الرحمن ما تكره

١ ق والتعريف : شاقى .

٢ الإصحار : الخروج لتلقيه خارج البلد .

سيدي لا زلت تتصف بالوالج ، بين الخلاخل والدمالج ، وتركض فوقها
ركض الهمالج ، أخبرني كيف كانت الحال ، وهل حُطَّت بالقاع من خير
البقاع الرحال ، وأحكم بمروءة المراودة الاكتحال ، وارتفع بالسقيا الإمحال ،
وصح الانتحال ، وحصحص الحق وذهب المحال ، وقد طولعت بكل بشرى
وبشر ، وزفّت هند منك إلى بشر ، فله من عشية ، تمتعت من الربيع بفُرُش
مَوْشِيَّة ، وأبدلت منها أي آسادٍ وحشية ، وقد أقبل ظبي الكناس ، من الديماس ،
ومطوق الحمام ، من الحمام ، وقد حسّنت الوجهَ الجميلَ التطرية ، وأزيلت
عن الفرع الأثيث الأبرية ، وصُقلت الحدود فكأنها الأمرية ^١ ، وسلّط الدّلاكُ
على الجلود ، وأغرّيت النورة بالشعر المولود ، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللمس ،
ولا تنالها البنان ^٢ الخمس ، والسحنة يجول في صفحتها الفضية ماء النعيم ، والمسواك
يلبي من ثنية التنعيم ، والقلب يرمى من الكف الرقيم ^٣ بالمقعد المقيم ، وينظر
إلى نجوم الوشوم فيقول : إني سقيم ، وقد تفتح ورد الحفر ، وحكم لزنجي
الضفيرة بالظفر ، واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر ، ورش بماء الطيب ،
ثم أعلق بباله دخان العود الرطيب ، وأقبلت الغادة ، يهديها اليُمن وتزفها السعادة ،
فهي تمشي على استحياء ، وقد ذاع طيب الريّا وراق حسن المحيّا ، حتى إذا نُزِعَ
الحف ، وقُبِلَت الأكف ، وصخب الزمار وتجاوب الدف ، وذاع الأرج ،
وارتفع الحرج ، وتجوّز اللوى والمنعرج ، ونزل على بشر بزيارة هند الفرج ،
اهتزت الأرض وربت ، وعوصيت الطباع البشرية فأبت ، ولله در القائل ^٤ :

ومرّت فقالت : متى نلتقي ؟ فهشّ اشتياقاً إليها الحبيثُ
وكاد يمزّقُ سرباله فقلت : إليك يساق الحديثُ

١ لعل الأبرية جمع برى بمعنى التراب ؛ والأمرية : المرايا جمع مرآة .

٢ البنان : سقطت من ق .

٣ الرقيم : المزين .

٤ ينسب البيتان لبشار (فصل المقال : ٤٦) وفي الثاني منهما المثل «إليك يساق الحديث» .

فلما انسدل جنح الظلام ، وانتصفت من غريم العشاء الأخيرة فريضة السلام ،
وخاطت خيوط المنام عيون الأنام ، تأتَّى دنو الجلسة ، ومسارقة الجلسة ، ثم عضه
النهد ، وقبله الفم والحد ، وإرسال اليد من النجد إلى الوهد ، وكانت الإمامة القليلة
قبل المد ، ثم الإفاضة فيما يغبط ويرغب ، ثم الإمامة لما يشوش ويشغب ، ثم
إعمال المسير ، إلى السرير^١ :

وصرنا إلى الحسنى ، ورقّ كلامنا ورُضتْ فذلتْ صعبةٌ أيّ إذلالٍ

وهذا بعد منازعة للأطواق يسيرة ، يراها الغيد من حسن السيرة ، ثم شرع
في التكة ، ونزع الشكة^٢ ، وتهيئة الأرض العزاز^٣ عمل السكة ، ثم كان الوحي
والاستعجال ، وحمي الوطيس والمجال ، وعلا الجزء الخفيف ، وتضافرت
الخصور الهيف ، وتشاطر الطبع العفيف ، وتواتر التقييل ، وكان الأخذ الوبيل ،
وامتاز الأنوك من النبيل ، ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل ، فيا لها من نعم
متداركة ، ونفوس في سبيل القحة متهالكة ، ونفَس يقطع حروفَ الحلق ،
وسبحان الذي يزيد في الحلق ، وعظمت الممانعة ، وكثرت باليد المصانعة ، وطال
التراوغ والتزاور ، وشُكي التحاور ، وهنالك تختلف الأحوال ، وتعظم الأحوال ،
وتخسر أو تربح الأموال ، فمن عصاً تنقلب ثعباناً مبيناً ، ونونة^٤ تصير تينياً ،
وبطل لم يهمله المعترك الهائل ، والوهم الزائل ، ولا حال بينه وبين قرنه الحائل ،
فتعدى فتكة السُّلَيْك إلى فتكة البرّاض ، وتقلد مذهب الأزارقة من الحوارج
في الاعتراض^٥ ، ثم شق الصف ، وقد خضب الكف ، بعد أن كان يصيب البوسى

١ البيت لامرئ القيس ، ديوانه : ٣٢ .

٢ ونزع الشكة : سقطت من ق .

٣ العزاز : الصلبة .

٤ النونة : السمكة ؛ وفي العبارات كنايات تنطوي على الغمز والسخرية .

٥ الاعتراض : عدم المبالاة بالقتل في حال الخروج أو الإقدام على القتل الجماعي .

بطعنته ، ويبوء بمقت الله ولعنته :

طعنت ابن عبد الله طعنة ناثرة لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها^١

وهناك هدأ القتال ، وسكن الحبال ، ووقع المتوقع فاستراح البال ، وتشوف إلى مذهب الثنوية من لم يكن للتوحيد بمبال ، وكثر السؤال عن المبال ، بما بال ، وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دمه ، يسيل على قدمه :

إني له عن دمي المسفوك معتذر أقول حَمَلْتُهُ في سفكه تعباً^٢

ومن سنان^٣ عاد عناناً ، وشجاع صار جباناً ، كلما شابهته شائبة ريبه ، أدخل يده في جيبه ، فأنجحرت الحية ، وماتت الغريزة الحية ، وهناك يزيغ البصر ، ويخذل المنتصر ، ويسلم الأشر ، ويغلب الحصر ، ويحفّ اللعاب ، ويظهر العاب^٤ ، ويخفق الفؤاد ، ويكبو الجواد ، ويسيل العرق ، ويشتد الكرب والأرق ، وينشأ في محل الأمن الفراق ، ويدرك فرعون الغرق ، ويقوى اللجاج ويعظم الحرق ، فلا تزيد الحال إلا شدة ، ولا تعرف تلك الجائحة المؤمنة إلا ردة :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده^٥

فكم مغرى بطول اللبث ، وهو من الحبث ، يؤمّل الكرة ، ليزيل المعرة ، ويستنصر الخيال ، ويعمل باليد الاحتيال :

إنك لا تشكو إلى مصمّتٍ فاصبر على الحمل الثقيل أو مت^٦

١ البيت لقيس بن الخطيم ، ديوانه : ٧ .

٢ ق : التعبا .

٣ عطف على قوله فيما سبق : « فمن عصا تنقلب . . . إلخ » .

٤ ق : اللغاب ؛ والغاب : العيب .

٥ ق : فأكثر .

٦ المصمت : الذي يهتم إذا شكوت إليه ؛ وهذا من الأمثال ، (انظر اللسان - صمت -) .

ومعتذر بمرض أصابه ، جرعته أوصابه ، ووجع طرقه ، جلب أرقه ، وخطيب
أرتج عليه أحياناً ، فقال : سيحدث الله بعد عسر يسراً وبعد عي بياناً ؛ اللهم إنا
نعوذ بك من فضائح الفروج إذا استغلقت أقفالها ، ولم تتسم بالنجيع أغفالها ، ومن
مَعَرَّات الأقدار ، والنكول عن الأبرار ، ومن التزول عن البطون والسرر ،
والجوارح الحسنة الغرر ، قبل ثقب الدرر ، ولا تجعلنا ممن يستحيي من البكر
بالغداة ، وتعلم منه كلال الأداة ، وهو مجال فضحت فيه رجال ، وفراش
شكبت فيه أوجال ، وأعملت روية وارتجال ، فمن قائل :

أرفعه طوراً على إصبعي ورأسه مضطرباً أسفله
كالخنش المقتول يلقى على عودٍ لكي يطرح في مزبله

وقائل :

عدمتُ من أيري قوى حسه يا حسرة المرء على نفسه
تراه قد مال على أصله كحائطٍ خرَّ على أسفه

وقائل :

أبحسني إبليسُ داءين أصبحا برجلي ورأسي دُملاً وزكاما
فليتهما كانا به وأزيدُهُ رخاوةَ أيرٍ لا يطيقُ قياما
إذا نهضتُ للنيك أزبابُ معشري توسدَ إحدى خصيتيه وناما

وقائل :

أقولُ لأيري وهو يرقب فتكةً به : خبتَ من أير وعالتك داهيه
إذا لم يكن للأير بختٌ تعذرت عليه وجوهُ النيك من كل ناحيه

وقائل :

تعقفَ فوقَ الحصيتين كأنه رِشاءٌ إلى جنبِ الركبةِ ملتفٌ

كفرخ ابن ذي يومين يرفع رأسه إلى أبويه ثم يدركه الضعف
وقائل :

تكرش أيري بعدما كان أملسا وكان غنياً من قواه فأفلسا
وصار جوابي للمها إن مررن بي «مضى الوصل لإمنية تبعث الأسي»
وقائل :

بنفسي من حييته فاستخف بي ولم يخطر الهجران يوماً على بالي
وقابلني بالغور والتجد بعدما حططت به رحلي وجردت سربالي
وما أرتجي من موسر فوق تكة عرضت له شيئاً من الحشف البالي
هموم لا تزال تبكي ، وعلل الدهر تشكى ، وأحاديث تقص وتُحكي ، فإن
كنت أعزك الله سبحانه من النمط الأول ، ولم تقل :

وهل عند رسم دارس من معول^١

فقد جنيت الثمر ، واستطبت السمر ، فاستدع الأبواق من أقصى المدينة ، واخرج
على قومك في ثياب الزينة^٢ ، واستبشر بالوفود ، وعرف المسمع عازفة الجود ،
وتبجح بصلابة العود ، وإنجاز الوعود ، واجن رمّان النهود ، من أغصان القدود ،
واقطف بينان اللثم أقاح الثغور وورد الحدود ، وإن كانت الأخرى فأخف الكمد ،
وارض الثمد ، وانتظر الأمد ، وأكذب التوسم ، واستعمل التسم ، واستكتم
النسوة ، وأفض فيهن الرشوة ، وتقلد المغالطة وارتكب ، وجيء على قميصه
بدم كذب ، واستنجد الرحمن ، واستعن على أمرك بالكتمان :

١ صدر هذا البيت « وإن شفائي عبرة مهراقة » وهو من معلقة امرئ القيس .

٢ يشير إلى زهوه كأنه قارون .

لا تُظْهَرَنَّ لِعَاذِلٍ أَوْ عَاذِرٍ حَالِيكَ فِي الضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ^١
فَلرَحْمَةُ الْمُتَفَجِّعِينَ حَرَارَةٌ^٢ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ

وَانْتَشَقِ الْأَرْجَ ، وَارْتَقِبِ الْفَرْجَ ، فَكَمْ غَمَامٌ طَمَأَ ﴿ وَمَا رَمِيَتْ إِذْ رَمِيَتْ وَلَكِنَّ^٣
اللَّهَ رَمَى ﴾ (الأنفال : ١٧) وَامْلِكْ بَعْدَهَا عِنَانَ نَفْسِكَ حَتَّى تَمَكِّنَكَ الْفُرْصَةُ ،
وَتَرْفَعُ إِلَيْكَ الْقِصَّةَ ، وَلَا تُشْرِهِ إِلَى عَمَلٍ لَا تَفِيءُ مِنْهُ بِتَمَامٍ ، وَخُذْ عَنِ إِمَامٍ ،
وَلِلَّهِ دَرُّ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ^٤ :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا مَهْرِي بِأَشْقَرٍ مَزِيدٍ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ دُونَهُمْ أَقْتُلُ ، وَلَمْ يَضُرَّرْ عَدُوِّي مُشْهَدِي
فَفَرَرْتُ مِنْهُمْ وَالْأَحْبَةُ فِيهِمْ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدٍ

وَاللِّبَانَاتُ تَلِينَ وَتَجْمَحُ ، وَالْمَأْرَبُ تَدْنُو وَتَنْزَحُ ، وَتَحْرُنُ ثُمَّ تَسْمَحُ ، وَكَمْ مِنْ
شَجَاعٍ خَامٍ^٥ ، وَيَقْظُ نَامٍ ، وَدَلِيلٌ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ ، وَأَضَلَّ الْفَرِيقَ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
يَجْعَلُهَا خَلَّةَ مَوْصُولَةٍ ، وَشِمْلًا أَكْنَفَهُ بِالْخَيْرِ مَشْمُولَةً ، وَبُنْيَةً أَرْكَانَهَا لِرُكَاثِبِ الْيُمْنِ
مَأْمُولَةً ، حَتَّى تَكْثُرَ خِدْمُ سَيِّدِي وَجَوَارِيهِ ، وَأَسْرَتُهُ وَسِرَارِيهِ ، وَتُضَفُّوا عَلَيْهِ نَعَمُ
بَارِيهِ ، مَا طَوَّرِدَ قَنِيصُ ، وَاقْتَحَمَ عَيْصُ ، وَأَدْرَكَ مَرَامَ عَوِيصُ ، وَأَعْطَى زَاهِدُ
وَحَرَمَ حَرِيصُ ؛ وَالسَّلَامُ .

[بَقِيَّةُ تَرْجُمَةِ ابْنِ خُلْدُونِ عَنِ الْإِحَاطَةِ]

تَوَالِيْفُهُ — شَرْحُ الْبُرْدَةِ شَرْحًا بَدِيعًا دَلَّ بِهِ عَلَى انْفِسَاحِ ذَرَعِهِ ، وَتَفَنُّنِ إِدْرَاكِهِ

١ ق : السَّاءِ وَالضَّرَاءِ .

٢ قَالَهَا حِينَ فَرَّ عَنْ أَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ حَسَانٌ بِالْفِرَارِ بِقَوْلِهِ :

إِنْ كُنْتُ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي فَتَنْجُوتُ مِنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ

وَانْظُرْ حِمَاةَ الْبَحْتَرِيِّ : ٤٠ .

٣ خَامٌ : حَادٍ وَجَبِنٌ .

وغزارة حفظه ، ونلخص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره في العقلیات تقييداً مفيداً في المنطق ، ونلخص محصل الإمام فخر الدين الرازي ، وبه داعبته أول لقيه ، فقلت له : لي عليك مطالبة فإنك نلخصت محصلي ، وألّف كتاباً في الحساب ، وشرع في هذه الأيام في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه في الكمال .

وأما نثره وسلطانياته السجعية فخلّج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع ، يفرغ عنها يراعه الجريء ، شبيهة البداءات بالخواتم ، في نداوة الحروف ، وقرب العهد بحرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة ، واسترسال الطبع .

وأما نظمه فنهض لهذا العهد قدماً في ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه فائثال عليه جوّه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة .

خاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة أولها^١ :

أسرفن في هجري وفي تعذيبي	وأطلن موقف عبرتي ونحيبي
وأبين يوم البين وقفة ساعة	لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الطاعنين وغادروا	قلبي رهين صباة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعي سافح	فشرق بعدهم بماء غروبي ^٢
يا ناقعاً بالعتب غلة شوقهم	رحماك في عذلي وفي تأنيبي
يستعذب الصب الملام وإنني	ماء الملام لدي غير شريب ^٣
ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى	لولا تذكر منزل وحبيب
أهفو إلى الأطلال كانت مطلقاً	للبدري منهم أو كناس ريب

١ القصيدة في التعريف : ٧٠ .

٢ الغروب : الشئون ، أي مجاري الدموع .

٣ الشريب : العذب ؛ وفي التعريف : شروب .

عشتُ بها أيدي البلى وترددتُ
تبلى معاهدها وإنَّ عهودها
وإذا السديارُ تعرضتُ لمتيمٍ
إليه على الصبرِ الجميلِ فإنه
لم أنسها والدهرُ يثني صرْفَه
والدارُ مونيقةٌ محاسنها بما
يا سائقَ الأظعانِ تعسفُ الفلا
متهافتاً عن رحلِ كلِّ مذللٍ
تتجاذبُ النفحاتُ فضلَ رداه
إن هام من ظمإِ الصبابةِ صحبهُ
أو تعرض مسراهمُ سدُفُ الدجى
في كلِّ شعبٍ مُنيّةٌ من دونها
هلاً عطفتْ صدورهنَّ إلى التي
فتؤمُّ من أكنافِ يثربَ مأمناً
حيثُ النبوةُ آياها مَجْلُوءَةٌ
سرٌّ غريبٌ لم يحجبهُ الثرى

في عطفها للدهرِ آيُ خطوبِ
ليُجدُّها وصفي وحسنُ نسيبي
هزَّتهُ ذكراها إلى التشيبِ
ألوى بدَيْنِ فؤادي المنهوبِ
ويغضُّ طرفي حاسدٍ ورقبِ
لبستُ من الأيامِ كلَّ قشيبِ
وتواصلُ الإسَادَ بالتأويبِ^١
نشوانَ من أينِ ومَسَّ لُغوبِ
في ملتقاها من صبا وجنوبِ
نهلوا بموردٍ دمعهِ المسكوبِ
صدعوا الدجى بغرامهِ المشوبِ
هجرُ الأمانِ أو لقاءُ شعوبِ
فيها لُبانةُ أعينِ وقلوبِ
يكفيك ما تخشاهُ من تريبِ
تتلو من الآثارِ كلَّ غريبِ
ما كان سرُّ الله بالمحجوبِ

ومنها بعد تعديد معجزاته صلى الله عليه وسلم :

يا سيّدَ الرُّسلِ الكرامِ ضراعةُ
عاقَتُ ذنوبي عن جنابك والمني
لا كالأُلى صرَفوا العزائمَ للتقى
تقضي مني نفسي وتُذهبُ حُوبي^٢
فيها تعلّني بكلِّ كذوبِ
فاستأثروا منها بخيرِ نصيبِ

١ الإسَادَ : سير الليل ، والتأويب : سير النهار .

٢ الحوب : الإثم .

لم يخلصوا لله حتى فرّقوا
هب لي شفاعتك التي أرجو بها
إنّ النجاة وإنّ أُنِحتْ لامرئ
إنّي دعوتك واثقاً بإجابتي
قصرت في مدحي فإنّ بك طيباً
ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى
يا هلّ تبلّغني الليالي زورة
أحمو خطيئاتي بإخلاصي بها
في فتية هجروا المنى وتعودوا
يطوي صحائف ليهم فوق الفلا
إنّ رنم الحادي بذكرك رددوا
أو غردّ الركب الخلي بطيبة
ورثوا اعتساف البید عن آبائهم
الطاعنون الخيل وهي عوابس
والواهبون المقربات صوافس
والمانعون الجار حتى عرضهم
تخشى بواذرهم ويرجى حلمهم
ومنها :

سائل به طامي العباب وقد سرى
تهديه شهب أسنة وعزائم

في الله بين مضاجع وجنوب
صفحة جميلة عن قبيح ذنوبي
فبفضل جاهك ليس بالتسبب
يا خير مدعو وخير مجيب
فما لذكرك من أريج الطيب
في مدحك القرآن كل مطيب
تُذني إليّ الفوز بالمرغوب
وأحط أوزاري وإصر ذنوبي
إنضاء كل نجاسة ونجيب
ما شئت من خبب ومن تقرب
أنفاس مشتاق إليك طروب
حنوا لمغناهما حين النيب
إرث الخلافة في بني يعقوب
يغشى مثار النقع كل سيب^١
من كل خوار العنان^٢ لعب
في متدى الأعداء غير معيب
والعز شيمة مرتجى ومهيب

تُرجى بريح العزم ذات هبوب
يصدعن ليل الحادث المرهوب

١ السيب : شعر عرف الفرس .

٢ خوار العنان : لين العطف .

حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه
 يا ابن الألى شادوا الخلافة بالتقى
 جمعوا بحفظ الدين آي مناقب
 لله مجدك طارفاً أو تالداً
 كم رهبة أو رغبة لك والعلا
 لا زلت مسروراً بأشرف دولة
 تحيي المعالي غادياً أو رائحاً
 وسطا الهدى بفريقها المغلوب^١
 واستأثروك بتاجها المعصوب
 كرموا بها في مشهد ومغيب
 فلقد شهدنا منه كل عجب
 تُقتاد بالترغيب والترهيب
 يبدو الهدى من أفقها المرقوب
 وجديد سعدك ضامن المطلوب

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان إليه وفيها الزرافة^٢:

قدحت يد الأشواق من زندي
 ونبتت سلواني على ثقة
 ولرب وصل كنت آمله
 لا عهد عند الصبر أطلبه
 يلحى العذول فما أعنفه
 وأعارض النفحات أسألهما
 يهدي الغرام إلى مسالكها
 يا سائق الوجناء معتسفاً
 أرح الركاب ففي الصبا نبأ
 وسك الربوع برامة خيراً
 ما لي تلام على الهوى خلقي
 لأبيت إلا الرشدة مذ وضحت
 نعم الخليفة في هدى وتقى
 وهفت بقلبي زفرة الوجد
 بالقرب فاستبدلت بالبعد
 فاعتضت منه مؤلم الصد
 إن الغرام أضاع من عهدي
 وأقول ضل فأتبني رشدي
 برّد الجوى فتزيد في الوقْد
 لتعلي بضعف ما تهدي
 طي الفلاة لطية الوجد
 يغني عن المستنة الجرد
 عن ساكني نجد وعن نجد
 وهي التي تأبى سوى الحمد
 بالمستعين معالم الرشْد
 وبناء عز شامخ الطود

١ ق : المطلوب .

٢ التعريف : ٧٤ ، وانظر الاستقصا ٤ : ٣٥ .

نجلُ السِراةِ الغُسرَ شأَهمُ كسبُ العلا بمواهبِ الوجدِ

ومنها :

لله مِنِّي إِذْ تَأَوَّبَني شَهْمٌ يَفْلُ بَوَاتِرًا قُضْبًا
أُورِيتُ زَنْدَ الْعِزْمِ فِي طَلْبِي وَوَرَدْتُ عَنْ ظِلِّ مَنَاهِلِهِ
هِيَ جَنَّةُ الْمَأْوَى لِمَنْ كَلَفَتْ لَوْ لَمْ أَعْلَ بِوَرْدِ كَوَثَرِهَا
مَنْ مُبْلِغٌ قَوْمِي وَدُونَهُمْ أَنِّي أَنْفَتُ عَلَى رَجَائِهِمْ

ومنها ١ :

ورَقِيمَةُ الْأَعْطَافِ حَالِيَةً وَحَشِيَّةُ الْأَنْسَابِ مَا أَنْسَتْ
تَسْمُو بِجَيْدٍ بِالْغِ صُعْدًا طَالَتْ رُؤُوسَ الشَّامِخَاتِ بِهِ
قَطَعْتُ إِلَيْكَ تَنَائِفًا وَصَلْتُ تَخْذِي عَلَى اسْتِصْعَابِهَا ذُلًّا
بِسَعُودِكَ اللَّائِي ضَمَنْ لَنَا جَاءَتْكَ فِي وَفْدِ الْأَحَابِشِ لَا
وَافَوْكَ أَنْضَاءُ تُقَلِّبُهُمْ كَالطِّيفِ يَسْتَقْرِي مَضَاجِعَهُ

مَوْشِيَّةٌ بَوْشَائِعِ الْبُرْدِ فِي مُوحَشِ الْبِيدَاءِ بِالْقَرْدِ
شَرَفَ الصُّرُوحِ بِغَيْرِ مَا جَهْدٍ وَلَرَبَّمَا قَصُرَتْ عَنْ الْوَهْدِ
إِسَادَهَا بِالنَّصِّ وَالْوَحْدِ وَتَبَيْتُ طَوْعَ الْقَنْ وَالْقَدِّ
طُولَ الْحَيَاةِ بَعِيشَةً رَغْدٍ يَرْجُونَ غَيْرَكَ مُكْرِمَ الْوَفْدِ
أَيْدِي السُّرَى بِالْغُورِ وَالنَّجْدِ أَوْ كَالْحَسَامِ يُسْكُ مِنْ غَمْدِ

١ ومنها : سقطت من ق .

يثنون بالحسنى التي سبقت
 ويرون لحظك من وفادتهم
 يا مستعينا جل في شرف
 جازاك ربك عن خلقته
 وبقيت للدنيا وساكنها
 من غير إنكار ولا جحد
 فخراً على الأثر الك والهند
 عن رتبة المنصور والمهدي
 خير الجزاء فنعم ما تسدي
 في عزة أبدأ وفي سعد

وقال يخاطب عمر بن عبد الله مدير ملك المغرب :

يا سيد الفضلاء دعوة مشفق
 ما لي وللإقصاء بعد تلة
 وأرى الليالي رنقت لي صافياً
 ولقد خلصت إليك بالقرب التي
 ووثقت منك بأي وعد صادق
 وسما بنفسي للخليفة طاعة
 حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم
 رغمت أنوفهم بنجح وسائلي
 وبغوا بما نقموا علي خلاثقي
 لا تطمعنهم ببدل في التي
 أنى أضام وفي يدي القلم الذي
 ولي الحصائص ليس تأبى رتبة
 قسماً بمجدك وهو خير ألية
 إني لتضطحب الهموم بمضجعي
 عطفاً علي بوحدتي عن معشر
 أغدو إذا باكرتهم متجلداً
 حيران أوجس عند نفسي خيفة
 نادى لشكوى البث خير سميع
 بالقرب كنت لها أجل شفيع
 منها فأصبح في الأجاج شروعي
 ليس الزمان لشمها بصدوع
 أني المصون وأنت غير مضيع
 دون الأنام هواك قبل نزوع
 فصددتهم عني وكنت منيعي
 وتقطعت أنفاسهم بصنيعي
 حسداً فراموني بكل شنيع
 قد صنتها عنهم بفضل قنوعي
 ما كان طيعه لهم بمطيع ؟
 حسبي بعلمي ذاك من تفريعي
 أعندها لفؤادي المصدوع
 فتحول ما بيني وبين هجوعي
 نقت الإباء صدودهم في روعي
 وأروح أعثر في فضول دموعي
 فتر في الأوهام كل مروع

أطوي على الزفراتِ قلباً آدهُ
ولقد أقولُ لصرفِ دهرٍ رابني
مهلاً عليكِ فليس خطبك ضائري
إني ظفرتُ بعصمةٍ من أوحدي
حملُ الهومِ تجولُ بين ضاوعي
بحوادثٍ جاءت على تنويعِ
فلقد لبست له أجنَّ دروعِ
بدَّ الجميعَ بفضلِهِ المجموعِ

وقال يخاطب بعض الوزراء في حال وحشة^١ :

هنيئاً بصومٍ لا عداه قبُولُ
وهنيئها من عزَّةٍ وسعادةٍ
سقى الله دهرأ أنت إنسانُ عينه
فعصركَ ما بين الليالي مواسمُ
وجانبُكَ المأمولُ للجودِ مَشْرَعُ
عساكَ وإن ضنَّ الزمانُ منوَّلي
أجِرني وليس الدهرُ لي بمسالمٍ
وأوليتني^٢ الحسنَى بما أنا آملُ
ووالله ما رُمْتُ الترحلَ عن قلِّي
ولا رغبةً عن هذه الدارِ إنها
ولكن نأى بالشَّعبِ عني حبابُ
يهيجُ بهنَّ الوجدَ أني نازحُ
عزيزُ عليهنَّ الذي قد لقيته
توارتُ بأنبائي البقاعُ كأنني
وبشري بعيدٍ أنت فيه مُنيلُ
تتابعُ أعوامُ بها وفصولُ
ولا مسَّ ربعا في حماكَ محولُ
لها غررٌ وضاحَّةٌ وحُجُولُ
يحومُ عليه عالمٌ وجهولُ
فرسمُ الأمانِ من سواكَ محيلُ
إذا لم يكن لي في ذراكٍ مَقِيلُ
فمثلكَ يولي راجياً وينيلُ
ولا سَخَطٍ للعيشِ فهو جزيلُ
لَظِلُّ على هذا الأنامِ ظليلُ
دعاهنَّ^٣ خطبُ للفراقِ طويلُ
وأنَّ فؤادي حيث هنَّ حلُولُ
وأنَّ اغترابي في البلادِ يطولُ
تُخْطِفْتُ أو غالت ركابي غولُ

١ هو الوزير عمر بن عبد الله ، ويستجير بصديقه ورديفه الوزير مسعود بن رحو بن ماسي ،

والقصيدة في التعريف : ٧٧ .

٢ التعريف : وأولني .

٣ التعريف : شجاهن .

ذكرتك يا مغنى الأحبة والهوى
وحيتت عن شوق ربك كأنما
أحبابنا والعهد بيني وبينكم
إذا أنا لم ترض الحمل مدامعي
إلام مقامي حيث لم ترد العلا
أجاذب فضل العمر يوماً وليلة
ويذهب فيما بين يأس ومطمع
تعلطني منه أمان خوادع
أما لليال لا ترد خطوبها
يروغني من صرفها كل حادث
أداري على رغم العدا لا لريبة
وأغدو بأشجاني عليلاً كأنما
ولاني وإن أصبحت في دار غربة
وصدّنتي الأيام عن خير منزل
لأعلم أن الخير والشر ينتهي
وأني عزيز بآب ماساي مكر

وقال يمدح^١ :

هل غير بابك للغريب مؤمل
هي همّة بعثت إليك على النوى
متبواً الدثيلاً ومنتجع المنى
حيث القصور الزاهرات منيفة

فطارت بقلبي أنّة وعويل
يمثل لي نوي بها وطلول
كريم، وما عهد الكريم يحول
فلا قربتني للقاء حمول
مرادي ولم تعط القيادة ذلول؟
وساء صباح بينها وأصيل
زمان بنيل المعلوات بنخيل
ويؤسني ليلان منه مطول
ففي كبدي من وقعهن فلول
تكاد له صم الجبال تزول
يصانع واش خوفها وعذول
تجود بنفسي زفرة وغيل
تحيل الليالي سلوتي وتزيل
عهدت به أن لا يضم نزيل
مداه وأن الله سوف يديل
وإن هان أنصار وبان خليل

أو عن جنابك للأمان معدل
عزماً كما شحذ الحسام الصيقل
والغيث حيث العارض المتهلل
تعتى بها زهر النجوم وتحفل

١ قالها يمدح أبا العباس سلطان تونس عندما قدم إليه نسخة من كتابه « العبر » ، انظر التعريف : ٢٣٣ .

حيثُ الخيامُ البيضُ يُرفعُ للغلا
حيثُ الحمى للغزِّ دونَ مجاله^١
حيثُ الكرامُ ينوبُ عن نارِ القيرى
حيثُ الجيادُ أملتْهُنَّ بنو الوغى
حيثُ الوجوهُ الغرُّ قنَّعها الحيا
حيثُ الملوكُ الصيِّد والنفرُ الألى
والمكرماتِ طِرافُها المتهدِّلُ
ظلُّ أفاعته الوشيجُ الذُّبَلُ
عرَفُ الكِباءِ بحيتهم والمندَلُ
مما أطلوا في المغارِ وأوغلوا
والبشرُ فوق جبينها يتهلَّلُ
عزَّ الجوارُ لديهمُ والمنزلُ

وأنشد السلطان أبا عبد الله ابن الحجاج لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم عام
أربعة وستين وسبعمائة هذه القصيدة^٢ :

حيَّ المعاهدَ كانت قبلُ تحييني
إنَّ الألى نرحت داري ودارهمُ
وقفتُ أنشدُ صبراً ضاعَ بعدهمُ
أمثلُ الرَّبْعَ من شوقٍ وألثمهُ
وينهبُ الوجدُ مني كلَّ لؤلؤةٍ
سَقَّتْ جفوني مغاني الرَّبْعِ بعدهمُ
قد كان للقلبِ عن داعي الهوى شغل
أحبابنا هل لعهدِ الوصلِ مدَّ كَرُّ
ما لي وللطيفِ لا يعتادُ زائرهُ
يا أهلَ نجدٍ وما نجدُ وساكنها
أعندكمُ أنْتي ما مرَّ ذكركمُ
أصبو إلى البرقِ من أنحاء أرضكمُ
بواكفِ الدمعِ يرويا ويُظْمِني
تحمَّلوا القلبَ في آثارهمُ دوني
فيهمُ وأسألُ رسماً لا يناجيني
وكيفَ والفكرُ يدينه ويقصيني
ما زالَ جَفَنِي عليها غيرَ مأمونٍ
فالدمعُ وقَّفَ على أطلاله الجونِ
لو أنَّ قلبي إلى السلوان يدعوني
منكم وهل نسمةٌ منكم تحييني
وللنسيمِ عَليلاً لا يسداويني
حسناً سوى جنة الفردوس والعينِ
إلاَّ انشيتُ كأنَّ الراحَ تشيني
شوقاً ، ولولاكمُ ما كان يصبيني

١ التعريف : في ساحاته .

٢ التعريف : ٨٥ .

يا نازحاً والى تُدنيه من خلّدي
أسلى هواك فؤادي عن سواك وما
ترى الليالي أنستك ادّكاري يا
حتى لأحسبه قرباً يناجيني
سواك يوماً بحال عنك يسليني
من لم يكن ذكره الأيام تنسيني
ومنها :

أبعد مرّ الثلاثين التي ذهبتُ
أضعتُ فيها نفيساً ما وردت به
واحسرتي من أمانٍ كلّها خُدعُ
أولى الشباب بإحساني وتحسيني
إلاّ سراب غرورٍ لا يروّيني
تريش غيّي ومرّ الدهر يبرّيني
ومنها في وصف المشور^١ المبني لهذا العهد :

يا مصنّعاً شيدتُ منه السعودُ حمى
صرحٌ بحارٍ لديه الطرفُ مفتشاً
بعداً لإيوان كسرى إنّ مشوركِ
ودّع دمشق ومغناها فقصرك ذا
لا يطرقُ الدهرُ مبناهُ بتوهينٍ
فيما يروقك من شكلٍ وتكوينٍ
سامي لأعظم من تلك الأواوين
« أشهى إلى القلب من أبواب جيرون »

ومنها في التعريض بالوزير الذي كان انصرافه بسببه :
مَنْ مبلغٌ غنيّ الصحب الألى جهلوا
أنّي أويتُ من العليا إلى حرّمٍ
وأنتي ظاعناً لم ألقَ بعدهمُ
لا كالتّي أخفرتُ عهدي ليالي إذ
سقيّاً ورعيّاً لأيامي التي ظفرتُ
أرتادُ منها مليّاً لا يماطلني
ودّي وضاع حماهم إذ أضاعوني
كادت مغانيه بالبشرى تحيّيني
دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكيني
أقلبُ الطرفَ بين الخوف والهون
يداي منها بحظٍّ غير مغبونٍ
وعداً وأرجو كريماً لا يُعنيّني

١ المشور : المكان الذي يجلس فيه السلطان للحكم .

ومنها :

وهاكـ منها قوافـ طيها حكم مثلُ الأزاهرِ في طيِّ الرياحينِ
تلوحُ إن جليتْ درّاً ، وإن تليتْ تشي عليكـ بأنفاسِ البساتينِ
عانيتُ منها بجهدِي كلَّ شاردةٍ لولا سعودُكـ ما كانت تواتيني
يَمْنَعُ الفكرَ عنها ما تقسّمهُ من كلِّ حزنٍ بطيِّ الصدرِ مكنونِ
لكنَّ بسعدكـ ذلتُ لي شواردها فرُضتُ منها بتحبيرِ وتزيينِ
بقيتْ دهرُكـ في أمنٍ وفي دعةٍ ودام ملكُكـ في نصرٍ وتمكينِ

وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة قد استعمل في السفارة إلى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه .

مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين في حق ابن خلدون .

[تعليق للمقري والباعوني]

قلت : هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادئ أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذي نقلنا منه في مواضع وسماه « ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » ورأيته بفاس وعليه خطه في ثماني مجلدات كبار جداً ، وقد عرّف في آخره بنفسه ، وأطال ، وذكر أنه لما كان بالأندلس وحظي عند السلطان أبي عبد الله شمس من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوض الرحال ولم يرض من الإقامة بحال ، ولعب بكرته صوالجة الأقدار ، حتى حل بالقاهرة المعزية واتخذها خير دار ، وتولى بها قضاء القضاة وحصلت له أمور ، رحمه الله تعالى .

وكان — أعني الولي ابن خلدون — كثير الثناء على لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى .

ولقد رأيت بخط العالم الشهير الشيخ إبراهيم الباعوني الشامي فيما يتعلق بابن خلدون ما نصّ محل الحاجة منه : تقلبت به الأحوال حتى قدم إلى الديار المصرية ، وولي بها قضاء قضاة المالكية ، في الدولة الشريفة الظاهرية ، وصحبته — رحمه الله تعالى — في سنة ٨٠٣ عند قدومه إلى الشام صحبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق في فتنة تمرلنك عليه من الله تعالى ما يستحقه ، وأكرمه تمرلنك غاية الإكرام ، وأعادته إلى الديار المصرية ، وكنت أكثر الاجتماع به بالقاهرة المحروسة للمودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين ابن الخطيب ، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأطماع ، فرحمة الله تعالى عليهما ، وأزكى تحياته تهدي إليهما . ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان ، وله من النظم والنثر ما يزري بعقود الجمان ، مع الهمة العلية ، والتبحر في العلوم الثقيلة والعقلية ، وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة ٨٠٧ ، سقى الله تعالى عهده ، ووطأ في الفردوس مهّده . قاله وكتبه الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن أحمد الباعوني الشافعي ، غفر الله تعالى له زلله ، وأصلح خلله ؛ انتهى .

١٠ — ومن نثر لسان الدين ما ذكره في « الإحاطة » في ترجمة يحيى بن إبراهيم ابن يحيى البرغواطي من بني الترجمان ، ولذكر الترجمة بجملتها لاشتمالها على ما ذكر وغيره في حق المذكور بعد قوله « إنه من بني الترجمان » ما صورته : « عزف عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين ، وصحبة الفقراء المتجردين ، وكان نسيجَ وَحْدِهِ في طلاقة اللسان ، حافظاً لكل غريبة من غرائب الصوفية ، يتكلم في مشكلاتهم ، حفظ « منازل السائرين » للهروي ، وتائية ابن الفارض ؛ مليح الملبس ، مترفع عن الكُدية ، حسن الحديث ، صاحب شهرة ، ومع ذلك

فمغضوض منه ، محمول عليه ، لما جبل عليه من رفض الاصطلاح ، واطّراح التغافل ، مؤلّع بالنقد ، والمخالفة في كل ما يطرق سمعه ، مرشحاً ذلك بالجدل المبرم ، ذاهباً أقصى مذاهب القحّة ، كثير الفلتات ، نالته بسبب هذه البلية محن ، ووُسْم بالرهق في دينه مع صحة العقل ، وهو الآن عامر الرباط المنسوب إلى اللجام على رسم الشياخة ، عديم التابع ، مهجور الفناء ، قيد الكثير من الأجزاء منها في نسبة الذنب إلى الذاكر جزء نبيل غريب المأخذ ، ومنها فيما أشكل من كتاب أبي محمد ابن الشيخ ، وصنف كتاباً كبير الحجم في الاعتقادات جلب فيه كثيراً من الحكايات ، رأيت عليه بخط شيخنا أبي عبد الله المقرّي ما يدل على استخسانه . ومن البرسام الذي يجري على لسانه ، بين الجدل والقحّة والجهالة والمجانة ، قوله لبعض خدام باب السلطان وقد ضويق في شيء أضجره منقولاً من خطّه — بعد ردّ كثيرٍ منه للإعراب — ما نصه : الله نور السموات من غير نار ولا غيرها ، والسلطان ظلُّ له وسراجُه في الأرض ، ولكل منهما فرّاش مما يليق به ويتهافت عليه ، فهو تعالى محرق فرّاشه بذاته ، مغرقهم بصفاته وسراجُه ، وظله هو السلطان محرق فرّاشه بناره ، مغرقهم بزيتِه ونواله ، ففرّاش الله تعالى ينقسم إلى حافّين ومسبّحين ومستغفرين وأمناء وشاخصين ، وفرّاش السلطان ينقسمون إلى أقسام لا يشذ أحدهم عنها ، وهم وزغة ابن وزغة ، وكلب ابن كلب ، وكلب مطلقاً ، وعار ابن عار ، وملعون ابن ملعون ، وقط ، فأما الوزغة فهو المغرق في زيت نواله المشغول بذلك عما يليق بصاحب النعمة من النصيح وبذل الجهد ، والكلب ابن الكلب هو الكيّس المتحرز في تهافته من إحراق وإغراق يعطي بعض الحق ويأخذ بعضه ، وأما الكلب مطلقاً فهو المواجه وهو المشرّد للسفهاء عن الباب المعظم القليل النعمة ، وأما العار ابن العار فهو المتعاطي في تهافته ما فوق الطوق ، ولهذا امتاز هذا الاسم بالرياسة عند العامة إذا مر بهم جلف أو متعاطم يقولون : هذا العار ابن العار ، يحسب نفسه رئيساً ، وذلك لقرب المناسبة ؛ فهو موضوع لبعض الرياسة ، كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة ، وأما الملعون

ابن الملعون فهو المغالط المعاند المشارك لربه المنعم عليه في كبريائه وسلطانه ، وأما القط فهو الفقير مثلي المستغني عنه لكونه لا تختص به رتبة ، فتارة في حجر الملك ، وتارة في السنداس^١ ، وتارة في أعلى الرتب ، وتارة محسن ، وتارة مسيء ، تُغفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة ، إذ هو من الطوافين ، متطير بقتله وإهانته ، تياه في بعض الأحيان بعزة يجدها من حرمة أبقاها له الشارع ، وكل ذلك لا يخفى .
وأما الفراش المحرق فهو عند الدول نوعان : تارة يكون ظاهراً وحصته مسح المصباح وتصفية زيتته وإصلاح فتيله وستر دخانه ومسايسة ما يكون من المطلوب منه ، ووجود هذا شديد الملازمة ظاهراً ، وأما المحرق الباطن فهو المشار إليه في دولته بالصلاح والزهد والورع فيعظمه الخلق ويترك لما هو بسبيله ، فيكون وسيلة بينهم وبين ربهم وخليفته الذي هو مصباحهم ، فإذا أراد الله تعالى إهلاك المروءة وإطفاء مصباحها تولى ذلك أهل البطالة والجهالة ، وكان الأمر كما رأيتم ، والكل فراش متهافت ، وكل^٢ يعمل على شاكلته .

١١ — قال الوزير لسان الدين : وطلب مني الكتب عليه بمثل ذلك ، فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره ، واستدعاء لفكاهة انزعاجه ، ما نصه :
« وقفت من الكتاب المنسوب لصاحبنا أبي زكريا البرغواطي على برسام محموم ، واختلاط مذموم ، وانتساب زنج في روم ، وكان حقه أن يتهيب طريقاً لم يسلكها ، ويتجنب عقيلة لم يملكها ، إذ المذكور لم يتلق شيئاً من علم الأصول ، ولا نظر من الإعراب في فصل من الفصول ، إنما هي قحّة وخلاف ، وتهاون بالمعارف واستخفاف ، غير أنه يحفظ في طريق القوم كل نادرة ، وفيه رجولية ظاهرة ، وعنده طلاقة لسان ، وكفاية قلماً تتأني لإنسان ، فإلى الله نضرع أن يعرفنا مقادير الأشياء ، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء ، وقد قلت مرتجلاً من أول نظرة ، واجتزاءً بقليل من كثرة :

١ السنداس : بيت الراجة .

كلُّ جارٍ لغايةٍ مرَّجوةٌ فهو عندي لم يعدُّ حقَّ الفتوةِ
وأراك اقتحمتَ ليلاً بهيماً موبحاً منك ناقةً في كوةِ
لا اتِّباعاً ولا اختراعاً أتنا إذْ نظرنا عروسكَ المجلوةِ
كلُّ ما قلتهُ فقد قاله النا سٌ مقالاً آياتهُ متلوةِ
لم تزدْ غيرَ أن أبحتَ حمى الإء رابٍ في كلِّ لفظةٍ مقروءةِ
نسألُ اللهَ فكرةً تلزمُ العقه لَ إلى حشمةٍ تحوطُ المروءةِ
وعزيرٌ عليَّ أن كنتَ يحيى ثم لم تأخذ الكتابَ بقوةِ «

١٢ - ومن بديع نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة سينية حازت قصب السبق ، ولنثبت الكل هنا فنقول : قال الإمام الحافظ عبد الله التنسي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ، عندما جرى ذكر أمير المسلمين السلطان أبي حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يغمّراسن بن زيان رحمه الله تعالى ، ما صورته : وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب كثيراً ما يوجه إليه بالأمداح ، ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة ، وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه ، فجعلها مقدمة بين يدي نجواه ، لتمهد له مثواه ، وتحصل له المستقر ، إذا أُلجأه الأمر إلى المفر ، فلم تساعد الأيام ، كما هو شأنها في أكثر الأعلام ، وهي هذه ^١ :

أطلعنَ في سُدَفِ الفروعِ شموسا ضحكَ الظلامُ لها وكان عبوسا
وعطفنَ قُضباً للقدودِ نواعماً بوثنَ أدواحِ النعيمِ غُروسا
وعدلنَ عن جهرِ السلامِ مخافةً ال واشي فجثنَ بلفظه مَهْموسا
وسفّرنَ من دهشِ الوداعِ وقومُ هُنَّ إلى الترحلِ قد أناخوا العيسا
وخلصنَ من خللِ الحجالِ إشارةً فركنَ كلَّ حجالها مخلصا
لم أنسها من وحشةٍ والحيُّ قد زجرَ الحمولَ وآثرَ التغليسا

١ أزهار الرياض ١ : ٢٥٠ وبغية الرواد ٢ : ٢٨٧ .

لا الملتقى من بعدها كَثَبٌ ولا
فوقفتُ وقفةً هائمٍ برحاؤه
ودَعَوْتُ عيني عاتياً وعيونها
نافستِ يا عيني درَّ دموعهم
ما للحمى بعدَ الأوبةِ موحشاً
وليسرَّبه حولَ الحميلةِ نافرأ
ولظلهِ المورودِ غمرُ قلبيه
حيثنهُ فأجاني رَجْعُ الصدى
ما إن يزيدُ على الإعادةِ صوتهُ
نَضَبَ المعينِ وقلصَ الظلُّ الذي
نتواعدُ الرجعى ونغتنمُ اللقا
فإذا سألتَ فلا تسألُ مخبراً
عهدي بهِ والدهرُ يتحفُ بالني
والعيشُ غَضُّ الرِّيعِ والدُّنيا قد اج
أُترى يعيدُ الدهرُ عهداً للصِّبا
أوطانُ أوطارٍ تعوضُ أفقها
هيهاتَ لا تغني لعلَّ ولا عسى
والدهرُ في دستِ القضاءِ مدرَّسُ
تفنُّ في جُمْلِ الورى أبحائه
وسجيةُ الإنسانِ ليسَ بناصل
يغترُّ مهماً ساعدتُ آمالهُ

عُوجُ الركائبِ تسأمُ التَّخْيِيساً^١
وُقِفَتْ عليه وحبَّستُ تحييساً
بعصا النوى قد بجَّستُ تبجيساً
فعرضتِ درأً للدموعِ نفيساً
ولكمُ تراءى أهلاً مسأنوساً
عَمَّنْ يحسُّ بهِ وكان أنيساً
لا يقتضي ورداً ولا تعريساً
لا فرَّقَ بينهما إذا ما قيساً
حرفاً فيشفي بالمزيدِ نسيساً^٢
ظَلْنَا عكوفاً عندهُ وجلوساً
ونديرُ من شكوى الغرامِ كؤوساً
وإذا سمعتَ فلا تحسَّ حسيساً
وقد اقتضتْ نعماهُ أن لا بوساً
تليتُ بمغناهُ عليَّ عروساً
درستُ مغاني الأنسِ فيه دروساً
من رونقِ البشرِ البهي عبوساً
في مثلها إلا لآيةِ عيسى
فإذا قضى يستأنفُ التدريساً
لا سيَّما في بابِ نعمِ ويساً
من صبغها حتى يرى مرموساً
فإذا عراهُ الخطبُ كان يؤوساً

١ ق ص : التجنيسا ، والتصويب عن الأزهار والبغية ؛ التخييس : تذليل الدابة .

٢ النسيس : غاية الجهد ؛ قلت ولعل الصواب « رسيساً » .

فَلَوْ أَنَّ نَفْسًا مَكَّنَتْ مِنْ رَشْدِهَا
لَمْ تَسْتَفْزَ رَسُوخَهَا النِّعْمَى وَلَا
قُلْ لِلزَّمَانِ إِلَيْكَ عَنْ مُتَذَمِّمٍ
فَإِذَا اسْتَحَرَّ جَلَادُهُ فَأَنَا الَّذِي اسْدُ
وَإِذَا طَغَى فِرْعَوْنُهُ فَأَنَا الَّذِي
أَنَا ذَا أَبُو مَثْوَاهُ^٣ مَنْ يَحْمِي الْحَمَى
بِحِمَى أَبِي حَمَوٍ حَطَّطْتُ رِكَائِي
أَسَدُ الْهِيَاجِ إِذَا خَطَا قُدُمًا سَطَا
بَدْرُ الْهَدَى يَأْبَى الضَّلَالِ ضِيَائُهُ
جَبَلُ الْوَقَارِ رَسَا وَأَشْرَفَ وَاعْتَلَى
غَيْثُ النِّوَالِ إِذَا الْغَمَامُ حَلُوبَةٌ
تَلْقَاهُ يَوْمَ الْأَنْسِ رَوْضًا نَاعِمًا
كَمْ غَمْرَةٍ جَلَّتْ وَكَمْ خُطْبٍ كَفَى
كَمْ حِكْمَةٍ أَبَدَى وَكَمْ قَصْدٍ هَدَى
أَعْلَى بَنِي زَيْتَانَ وَالْفَدَى الَّذِي
جَمَعَ الْهَدَى وَالْبَاسَ وَالشِّيمَ الْعَلَا
وَالْحَلَمُ لَيْسَ يَبَايِنُ الْخَلْقَ الرِّضَى
وَالسَّعْدُ يَغْنِي حِكْمَهُ عَنْ نَصْبَةٍ
كَمْ رَاضٍ صَعْبًا لَا يَرَاغِبُ مُعَاصِيًا

يَوْمًا وَقَدَّسَهَا الْهَدَى تَقْدِيسًا
هَلَعْتُ إِذَا كَثُرَتْ^١ إِلَيْهَا الْبُوسَى
بِضْمَانٍ عَزَّ لَمْ يَكُنْ لِيَخِيسَا^٢
تَغَشَّيْتُ مِنْ سَرْدِ الْيَقِينِ لَبُوسًا
مِنْ ضُرِّهِ وَأَذَاهُ عُدْتُ بِمُوسَى
لَيْثًا وَيَعْلَمُ بِالزَّيْثَرِ الْخَيْسَا
لَمَّا اخْتَبَرْتُ اللَّيْثَ وَالْعَرِيسَا
فَتَخَلَّفَ الْأَسَدَ الْهَزْبَرَ فَرِيسَا
أَبْدَأَ فَيَجْلُو الظُّلْمَةَ الْخَنْدِيسَا
وَسَمَا فِطَاطَاتِ الْجِبَالِ رُؤُوسَا
مَثَلْتُ بِأَيْدِي الْحَالِبِينَ بَسُوسًا^٤
وَتَرَاهُ بَاسًا فِي الْهِيَاجِ بَيْسَا
إِنْ أَوْطَأَ الْجُرُودَ الْعِتَاقَ وَطِيسَا
لِلسَّالِكِينَ أَبَانَ مِنْهُ دَرِيسَا^٥
لَبِيسَ الْكَمَالِ قَزِينَ الْمَلْبُوسَا
وَالسُّودَدَ الْمُتَوَاتِرَ الْقُدُوسَا
وَالْعِلْمُ لَيْسَ يِعَارِضُ النَّامُوسَا
تَسْتَخْبِرُ التَّرْبِيعَ وَالتَّسْدِيسَا
كَمْ خَاضَ بَحْرًا لَا يَخَاضُ ضَرُوسَا

١ ق : كثرت .

٢ خاس : خفر العهد . ٣ البقية : نادى أبا مثواي .

٤ البسوس : التي تتطلب إيساساً أي تسكيناً كي تدر .

٥ الدريس : الطريق الخفي .

بَلَّغَ التي لا فوقها متمهلاً
يا خيرَ مَنْ خَفَقَتْ عليه سحابةٌ
وأجلٌ من حملته صهوةُ سابحٍ
قسماً بمن رفع السماء بغير ما
ودحا البسيطة فوق لُجٍّ مُزبدٍ
حتى يهيبَ بأهله الوعدُ الذي
ما أنتَ إلاّ ذخِرُ دهرِكَ دمتَ في الـ
لو ساومتَهُ الأرضُ فيكَ بما حوتْ
حلفٌ^٣ البرورُ بها أليّةٌ صادق
مَنْ قاسَ ذاتكَ بالنواتِ فإنه
لا تستوي الأعيانُ فضلَ مزيةٍ
لعنايةِ التخصيصِ سرٌّ غامضٌ
من أنكرَ الفضلَ الذي أُوتيتهُ
من دان بالإخلاصِ فيكَ فَعَقَدَه
والمتنمى العَلَوِيَّ عيصُكَ لم تكنْ
بيتُ البتولِ ومنبتُ الشرفِ الذي
أمتاً سياستكَ التي أحكمتها
فلَو أنْ كسرى الفرسِ أبصرَ بعضها
لو سار عدلك في السنين لما اشتكتْ

وعلا السُّها واستسفل البرجيسا^١
للتصيرِ تُمطرهُ أجشٌ بجيسا^٢
إن كَرَّ ضعُفَ كَرُّهُ الكُردوسا
عمدٍ ورفَعَ فوقها إدريسا
ما إن يزالُ على القرارِ جيسا
حشرَ الرئيسِ إليه والمرؤوسا
صونَ الحريرِ مُمتعاً محروسا
لَرَآكَ مستاماً بها مبخوسا
ويمينُ مَنْ عقدَ اليمينَ غموسا
جهلَ الوزانِ وأخطأَ التقييسا
وطبيعةِ فطرَ الإلهِ وسُوسا^٤
من قبلَ ذرءِ الخلقِ خَصَّ نفوسا
جَحَدَ العيانِ وأنكرَ المحسوسا
لا يَقْبَلُ التَّمويهَ والتلبيسا
لترى دخيلاً في بنيه دَيسا
تحمي الملائكُ دوحَهُ المفروسا
ورميتَ بالتقصيرِ أسطاليسا
ما كان يَطْمَعُ أنْ يُعَدِّي سوسا^٥
بخساً ، ولم يكُ بعضهن كيبسا

١ البرجيس : المشتري .

٢ البجيس : المتدفق بغزارة .

٣ ق والبغية : كلف .

٤ السوس : الخليقة والسجية .

٥ يعدي سوسا : يتجاوز السوس ، منطقة تستر ، وفي الأزهار : يعد سؤوسا أي ذا سياسة .

ولو الجوّاري الحُنسُ انتسبت إلى
قُدّت الصعابَ فكلُّ صعبٍ سامحٌ
تلقى الليوثَ وللقَتَامِ غَمَامَةٌ
وكأنّها تحتَ الدروعِ أرقامٌ
ما لابنِ مامةٍ في القديمِ وحاتمٍ
مَنْ جاءَ منهمُ مثلَ جودكَ كلَّما
أنتَ الذي افتكَّ السفينَ وأهله
أنتَ الذي أمددتَ ثغرَ اللهِ بالصـ
وأعنتَ أندلساً بكلِّ سبيكةٍ
وشحينةٍ بالبرِّ في سُبُلِ الرضى
إنْ لم تجرَّ بها الحميسَ فطالما
وملأتَ أيديها وقد كادت على
صدقتَ للآمالِ صنعةَ جابرٍ
والحلَّ والتقطيرَ والتصعيدَ والـ
فسبكتَ من آمالها مالا ، ومن
بُهِتُوا فلما استخبروا لم ينكروا
وتُدِيرُ من قلبِ السطورِ سبائكا
ونحوتَ نحوَ الفضلِ تعضدُ منه بالـ
وجبرتَ بعدَ الكسرِ قومكَ جاهداً

إقدامِ عزمكَ ما خنسنَ خنوساً^١
لكَ بالقيادِ وكانَ قبلُ شَموساً
قدَحَ الصفيحِ وميضها المَقبوساً
ينظرونَ من خللِ المغافرِ شوساً
ضربَ الزمانُ بجودهم ناقوساً
حسبوا المكارمَ كسوةً أو كيساً
إذْ أوسعتُ سبُلُ الخلاصِ طموساً
مدقاتِ تَبْلِسُ كَرَّةً إيليساً
موسومةٍ لا تعرفُ التَّدْلِيساً
والبرِّ قاربِ قاعها القاموساً
جَهَّزَتْ فيها للنَّوالِ خميساً
حكمَ القضاءِ تُشافِهُ التَّفْلِيساً
وكفيتُها التَّشْمِيعَ والتَّشْمِيساً^٢
تخميرَ والتصويلَ والتَّكْلِيساً^٣
أوراقها ورِقاً ، وكنَّ طُروساً
وزناً ولا لوناً ولا ملموساً
منها ومن طبعِ الحروفِ فلوساً
مسموعٍ ما أَلْفِيتَ منه مَقِيساً
تُغْثِي العديمَ وتُطْلِقُ المحبوساً

١ هذا البيت والذي بعده سقطا من ق .

٢ ذكر جابر بن حيان وأردف ذلك بذكر بعض المصطلحات الكيميائية ؛ فالتشميع : تليين الشمع ،
والتشميس : تعريض المواد للشمس .

٣ الحل : التحليل الكيميائي ؛ والتقطير والتصعيد متشابهان . والتصويل : جعل الرواسب طافية
وهو تال للتكليس .

ونشرت راية عزهم من بعد ما
أحكمت حيلة برئهم بلطافة
وفللت من حد الزمان وإنه
وشحذت حداً كان قبل مثلاً
لم ترج إلا الله جل جلاله
قدمت صباحاً فاستضأت بنوره
ما أنت إلا فالح متيقن
ومتاجر جعل الأريكة سهوة
ما إن تباع أو تشاري واثقاً
والعزم يفرع النجوم بناؤه
ومقام صبرك واتكالك مذكر
ومن ارتضاه الله وفق سعيه
ما ازددت بالتمحيص إلا جدة
ولطالما طرق الحسوف أهلة
ثم انجلت قسماتها عن مشرق
خذها إليك على النوى سيئة
إن طوولت بالدر من حول الطل
لولاك ما أصغت لخطبة خاطب
قصدت سليمان الزمان وقاربت
لي فيك ود لم أكن من بعد ما
كم لي بصحة عقده من شاهد

دال الزمان فسامها تنكيسا
قد أعجزت في الطب جالينوسا
أوحى وأمضى من غرار موسى
ونعشت حداً كان قبل تعيسا
في شدة تكفى وجرح يوسى
ووجدت عند الشدة التنفيسا
بالنجاح تعمر ممرعاً ويبسا
عريّة والمتكا القربوسا
بالربح إلا المالك القدوسا
مهما أقام على التقى تأسيسا
بحديثه الشبل أو طساووسا
فرأى العظيم من الحظوظ خيسا
ونضوت من خلع الزمان ليسا
ولطالما اعترض الكسوف شموسا
للسعد ليس بحاذر تنعيسا
ترضى الطباق وتشكر التجنيسا
يوماً تشكت حظها الموكوسا
ولعنست في بيتها تعنيسا
في الخطو تحسب نفسها بلقيسا
أعطيت صفقة عهده لأخيسا
لا يحذر التجريع والتدليسا

يقفوا الشهادة باليمين ، وإنه
لا يستقرُّ قرارُ أفكاري إلى
وأرى تجاهك مستقيم السير لا
هي دينُ أيامي فإن سَمَحْتَ بهِ
لا زال صنعُ اللهِ مجنوباً إلى
مُتتَابِعاً كَتَّابُعِ الأيامِ لا
فلَو أَنصَفْتَكَ إِيالَهُ الملكِ التي
قرنتُ بذكرك والدعاء لك الذي
القلبُ أنتَ لها رئيسُ حياتها
لمؤمنٌ من أن يُعَدَّ فسيساً^١
أن أستقرَّ لدى عُلَاكَ جليسا
قصدِ الذي أعملتُهُ معكوسا
لم يبق من شيءٍ عليه يوسى
مثنواكَ يهدي البشرَ والتأنيسا
يذرُ التعاقبَ جمعةً وخميسا
رُضْتُ الزمانَ لها وكان شريسا
تختاره التسبيح والتقديسا
لم تُعتبرُ مهما صلحت رئيسا

ثمَّ قال الحافظ التنسي رحمه الله تعالى بعد سرد هذه القصيدة ما معناه : إن
لسان الدين ابن الخطيب حدّا في هذه القصيدة السنية حدّو أبي تمام في قصيدته
التي أولها^٢ :

أَقْشِبَ رَبْعَهُمْ أَرَاكَ دَرِيسَا تَقْرِي ضِيُوفَكَ لَوْعَةً وَرَسِيسَا

واختلس كثيراً من ألفاظها ومعانيها ؛ انتهى .
ووصل لسان الدين هذه القصيدة بنثر بديع نصه :
« هذه القصيدة — أبقى الله تعالى أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل
المجموع ، والثناء المسموع ، والملك المنصور الجموع — نفثة مَنْ باح بسر
هَوَاهُ^٣ ، ولبي دعوة الشوق العابث بلبه وقد ظفر بمن يُهدي خبر جواه ، إلى
محلِّ هَوَاهُ ، ويختلس بعث تحيته ، إلى مثير أريحته ، وهي بالنسبة إلى ما يعتقد

١ الفيس : الضيف ؛ وفي ق ص : قيسا .

٢ ديوانه ٢ : ٢٦٢ .

٣ البنية : سر حبه .

من ذلك الكمال ، الشاذ عن الآمال ، عنوانٌ من كتاب ، وذواق من أوقار ذات أقتاب ، وإلاّ فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه ، أو يكافئ إحسانها إحسانه ، أو يستقل بوصفها يراعه ، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه ؟ ولا مكابرة بعد الاعتراف ، والبحر لا ينفدُ بالاغتراف ، لا سيما وذاتكم اليومَ والله تعالى يبقِيها ، ومن المكاره يقيها ، وفي معارج القرب من حضرة القدس يرقِيها ، يا قوّة اختارها واعتبرها ، ثمّ ابتلاها بالتمحيص في سبيل التخصيص واختبرها ، وسبيكة أخلصها مسجرها ، فخلصها بتسجيرها من الشوب ، وأبرزها من لباب الذوب ^١ ، وقصرت عن هذه الأثمان ، وسُرَّ بصدق دعواه البهرمان ^٢ ، ليفاضل بين الجهام والصيّب و﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (الأنفال : ٣٧) فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة ، وعرفكم بنفسه في حال الشدة ، ثمّ فسح لكم بعد ذلك في المدة ، لتعرفوه إذا دال الرخاء ، وهبّت بعد تلك الزعازع الريحُ الرُّخاء ، وملاكم من التجارب ، وأوردكم من الطافه أعذب المشارب ، ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلاله ، ولم يسلبكم إلاّ حقيراً عند أوليائه ، وأعادكم المعاد المُطهر ، وألبسكم من أثواب اختصاصه المُعلم المشهر ، فأنتم اليوم بعين العناية ، بالإفصاح والكناية ، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالحناية ، فإن كان الملك اليوم علماً يُدرس ، وقوانين في قوّة الحفظ تُغرس ، وبضاعة برصد التجارب تُحرس ، فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة ، وأصمعي شعوبه المنسوبة ، إلى ما حزتم من أشتات الكمال ، المُربّية على الآمال ، فالبيت علوي المنتسب ، والملك بين الموروث والمكتسب ، والجود يعترف به الوجود ، والدين يشهد به الركوع والسجود ، والبأس تعرفه التهائم والنُّجود ، والخلق يحسده الروض المتجود ، والشعر يغترف من عذب نَمير ، ويصدق ما قال : بدىء بأمير وختم بأمير ، وإن مملوككم حوّم

١ ق : أخلصها وشجرها فخلصتها الشخيرة من الشوب وأبرزتها من الباب الذوب ؛ وكذلك هي في

أصول الأزهار ؛ وفي البغية : خلصها وشجرها فخلصتها السخيرة من الشوب . . . إلخ .

٢ البغية : يصدق دعوته البرهان ؛ والبهرمان : العصفور .

من بآبكم على العذب البرود ، فعاقه الدهر عن الورود ، واستقبل أفقه ليحقق الرصد ، ولكنه أخطأ القصد ، ومن أخطأ الغرض أعاد ، ورجا من الزمان الإسعاد ، فربما خبيء نصيب ، أو كان مع الخواطيء سهم مصيب^١ ، وكان يؤمل صحة ركاب الحجاز ، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز ، وقطعت القواطع التي لم ينلها الحساب ، ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب ، ومن طلب الأيام أن تجري على اقتراحه ، وجب العمل على أطراحه ، فلانما هي البحر الزاخر ، الذي لا يدرك منه الآخر ، والرياح متغيرة ، والسفينة الحائرة ، فتارة يتعذر من المرسى الصرف ، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتد الطرف ، هذا إن سالمها عطبها ، وأعفي من الوقود حطبها ، ولقد علم الله جل جلاله أن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب ، ممن يجبر كسر القلوب ، فإنه مما انعقد على كماله الإجماع ، وصح في عوالي معاليه السماع ، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع ، أخلاقاً هذبها الكرم الوضاح ، وسجية كلف بها الكمال الفضاح ، وحرصاً على الذكر الجميل وما يتنافس فيه إلا من سمت هممه ، وكرمت ذممه ، وألفت الخلد رممه ، إذ الوجود سراب ، وما فوق التراب تراب ، ولا يبقى إلا عمل راق ، أو ذكر بالجميل يسطر في أوراق ، حسبما قلت من قصيدة كتبها على ظهر مكتوب موضوع أشار به من كانت له طاعة ، فوفت بمقترحه استطاعة :

يمضي الزمان وكلُّ فانٍ ذاهبٌ	إلا جميلُ الذكرِ فهو الباقي
لم يبقَ من إيوانٍ كسرى بعد ذا	كـ الحفلِ إلا الذكر في الأوراقِ
هل كان للسفاح والمنصور والـ	مهدي من ذكر على الإطلاقِ
أو للرشيد وللأمين وصنوه	لولا شبابة يراعة الوراقِ
رجع التراب إلى التراب بما اقتضتْ	في كلِّ خلقٍ حكمةُ الخلائقِ

١ أصله من المثل « مع الخواطيء سهم صائب » .

إلاّ الثناء الخالد العطر الشذا يهدي حديث مكارم الأخلاق

والرغبة من مقامكم الرفيع الجنب ، أن يمكنها من حسن المناب ، فتحظى بحلول
ساحته ، ثمّ بلثم راحته ، ثمّ بالإصغاء ، ولا مزيد للابتغاء ، إلى أن ترتفع الوساطة ،
وتغني عن التركيب البساطة ، ويُنسى الأثر بالعين ، ويحسن الدهر قضاء الدين ،
ونسأل الذي أغرى بها القريحة ، ولم يجعل الباعث إلاّ المحبة الصريحة ، أن يبقى
تلك المثابة زينة للزمان ، وذخراً مكنوفاً باليمن والأمان ، مظلاًّ برحمة الرحمن ،
بفضله وكرمه ، انتهى .

١٣ - ومما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى إلى الشيخ الرئيس الخطيب
شيخه أبي عبد الله ابن مرزوق رحمه الله تعالى حين كانت أزمة أمر المغرب بيده
أيام السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني رحم الله تعالى الجميع ، ما
صورته :

« سيدي بل مالكي بل شافعي ، ومُنْتَشلي^١ من الهفوة ورافعي ، وعاصمي
عند تجويد حروف الصنائع ونافمي ، الذي يجاهه أجزلت المنازل قيراي ، وفَضَلت
أولاي والمنة لله تعالى أخراي ، وأصبحت وقول الحسن^٢ هَجِيراي :

علقتُ بجبلٍ من جبالِ محمدٍ أمنتُ به من طارقِ الحدّثانِ
تغطيتُ من دهري بظلّ جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تُسأل الأيامُ ما اسمي ما درتُ وأين مكاني ما عرفن مكاني

وصلت مكناسة حرسها الله تعالى حداني حدو نذاك ، سحائب لولا الخصال المبرة
قلت : يداك^٣ ، وكان الوطن لاغتيابه بجواري ، أو ما رآه من انثياب زوّاري ،

١ ق : ومنثلي .

٢ يعني أبا نواس ، والأبيات في ديوانه : ٩٧ .

٣ ق : قبلت يداك ؛ فاقتضى التصويب ، والمبرة : الزائدة على خصال السحائب هنا .

أوغر إلى بهت يقطع الطريق ، وأطلع يده على التفريق ، وأشرق القوافل مع كثرة الماء بالريق ، فلم يسع إلاّ المقام أياماً قعوداً في البر وقياماً ، واختياراً لضروب الأنس واعتياماً ، ورأيت بلدة معارفها أعلام ، وهوأؤها برد وسلام ، ومحاسنها تعمل فيها السنة وأقلام ، فحيّا الله تعالى سيدي فلکم من فضل أفاد ، وأنس أحياء وقد باد ، وحفظ منه على الأيام الذخر والعَتَاد ، كما ملكه زمام الكمال فاقتاد ، وأنا أطارح عليه في صِلَات تَفَقَّدِهِ ، وموالاة يده ، بأن يُسهمني في فرض مخاطبته مهما خاطب معتبراً بهذه الجهات ، ويصحبني من مناصحته بكَؤُوس مسرة يعمل فيها هالك وهات ، فالعز بعزه معقود ، والسعد بوجوده موجود ، ومنهكُ السرور بسروره مورود ، والله عز وجل يُبقيه بقاء الدهر ، ويجعل حُبّه وظيفة السر وحمّده وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزهر ، ويصل لنا تحت إيايته العام بالعام والشهر بالشهر ، آمين آمين « انتهى .

١٤ — وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى صاحب الأشغال بالمغرب أبا عبد الله ابن أبي القاسم بن أبي مدّين يهنيه بتقلد المنصب من رسالة قوله :

تعودُ الأمانى بعدَ انصرافِ ويعتدلُ الشيءُ بعد انحرافِ
فإن كان دهرُكَ يوماً جَنَى فقد جاء ذا خجلٍ واعترافِ

طلع البشير أبقاك الله تعالى بقبول الخلافة المرينية ، والإمامة السنية ، خصها الله تعالى ببلوغ الأمنية ، على تلك الذات التي طابت أرومتها وزكت ، وتأوّمت العلياء لتذكر عهداً وبكت ، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارث الذي تركت ، فلولا العذر الذي تأكدت ضرورته ، والمانع الذي ربما تقررت لديكم صورته ، لكنت أول مشافه بالهناء ، ومصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ، بنقود الحمد لله والثناء ، وهي طويلة .

١٥ — وممّا خاطب به رحمه الله تعالى قاضي الجماعة وقد نالته مشقة

جرّها غلطُ الخدّامِ السوءِ واشتراك الأسماء ، أعتبه عندها السلطان وخلع عليه
وأشاد بقدره بما نصه :

تعرفتُ أمراً ساءني ثمّ سرّني وفي صحّة الأيام لا بد من مرضٍ
تعمّدك المحبوب بالذات بعدما جرى ضده ، والله يكفيه بالعرض

في مثلها سيدي يُحمّد الاختصار ، وتُقصّر الأنصار ، وتُصرف^١ الأبصار ،
إذ لم يتعين ظالم ، ولم يتبين يقظ ولا حالم ، وإنما هي هدية أجر ، وحقيقة وصل
أعقت مجاز هجر ، وجرح جُبار ، وأمر ليس به اعتبار ، ووقية لم يكن فيها
إلاّ غُبار ، وعثرة القدم لا تُنكر ، والله سبحانه يُحمّد في كلّ حالة ويشكر ،
وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يشبّه شائب ، وحسن الولاية لم يعبه عائب ، والرعي
دائب ، والجاني تائب ، فما هو إلاّ الدهر الحسود ، لمن يسود ، خَمَشَ بيد ثمّ
سترها ، ورمى عن قوس ما أصلحها - والحمد لله - ولا أوترها ، إنما باء بشينه ،
وجنى من مزيد العناية محنة عينه ، ولا اعتراض على قدر ، أعقب بحظ معذر ،
وورّد نُغصَ بكدر ، ثمّ أنّسَ بإكرام^٢ صدر ، وحسبنا أن نحمد الدفاع من
الله تعالى والذب ، ولا نقول مع الكَظْم إلاّ ما يُرضي الرب ، وإذا سابق أولياء
سيدي في مضمار ، وحماية ذمار ، واستباق إلى بر وابتدار ، بجهد اقتدار ،
فأنا ولا فخر متناول القصبة ، وصاحب الدّين من بين العصبة^٣ ، لما بلوت من
بر أوجبه الحسب ، والفضل الموروث والمكتسب ، ونصح وضح منه المذهب ،
وتنفيق راق منه الرداء المذهب ، هذا مُجمل وبيانه إلى وقت الحاجة مؤخّر ،
ونبذة شرّه لتعجيلها يراعٍ مسخّر ، والله سبحانه يعلم ما أنطوي عليه لسيدي من
إيجاب الحق ، والسير من إجلاله على أوضح الطرق ، والسلام ؛ انتهى .

١ ق : وتطرف .

٢ ق : بأكرم .

٣ العصبة : الأقرباء من جهة الأب .

١٦ - وقال رحمه الله تعالى : خاطبتُ بعض الفضلاء بقولي ممّا يظهر
من الحملة غرضه :

تعرفتُ قُرْبَ الدارِ ممّن أحبّه فكنتُ أجيدُ السيرَ لولا ضرورة
لأتلوّ من آي المحامدِ سورة وأبصر من شخص المحاسن صوره

كنت أبقاك الله تعالى لاغباطي بولائك ، وسروري بلقائك ، أود أن أطوي إليك
هذه المرحلة ، وأجدّد العهد بلُقياك المؤمّلة ، فمَنع مانع ، وما ندري في الآتي
ما الله صانع ، وعلى كل حال فشأني قد وضح منه سبيل مسلك ، وعلمه مالك
ومملوك ، واعتقادي أكثر ممّا تسعه العبارة ، والألفاظ المستعارة ، وموصّلتها
ينوب عني في شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة ، المتصفة بالعفاف
والطهارة ، والسلام .

١٧ - وقال ساعحه الله تعالى يخاطب السلطان أبا عبد الله ابن نصر جبره الله
تعالى عند وصول ولده من الأندلس :

الدهرُ أضيقُ فُسحةً من أن يرى بالحزن والكمد المضاعف يقطعُ
وإذا قَطَعْتَ زمانه في كربة ضيعتَ في الأوهام ما لا يرجعُ
فاقنع بما أعطاك ربك واغتم منه السرورَ وخلّ ما لا ينفعُ

مولاي الذي له المنن ، والخلق الجميل والخلق الحسن ، والمجد الذي وضح
منه السنن ، كتبه عبدك مهنئاً بنعم الله تعالى التي أفاضها عليك ، وجلبها إليك ،
من اجتماع شملك ، بنجلك ، وقضاء دينك ، من قرّة عينك ، إلى ما تقدم
من إفلاتك ، وسلامة ذاتك ، وتمزق أعدائك ، وانفرادك بأودائك ، والزمن ساعة
في القِصر ، لا بل كلمّح البصر ، وكأني بالبساط قد طوي ، والتراب على
الكل قد سوي ، فلا تبقى غبطة ولا حسرة ، ولا كربة ولا يسرة ، وإذا نظرت

ما كنت فيه تجددك لا تنال منه إلا أكلة وفراشاً ، وكيناً ورياشاً ، مع توقع الوقائع وارتقاب الفجائع ، ودعاء المظلوم وصُداع الجائع ، فقد حصل ما كان عليه التعب ، وأمن الرهب ، ووضح الأجر المذهب ، والقدرة باقية ، والأدعية راقية^١ ، وما تدري ما تحكم به الأقدار ، ويتمخض عنه الليل والنهار ، وأنت اليوم على زمانك بالخيار ، فإن اعتبرت الحال واجتنبت المحال ، لم يخفَ عليك أنك اليوم خير منك أمس ، من غير شك ولا لبس ، وكان من أجلي التوجه إلى رؤية ولدكم ولكن عارضتني موانع ، ولا ندري في الآتي ما الله تعالى صانع ، فاستنبت هذه في تقبيل قدّمه ، والهناء بمقدمه ، والسلام .

١٨ — وقال رحمه الله تعالى : قلت أناطب محمد بن نوار ، وقد أعرس بنت مزوار الدار السلطانية ، وهو معروف بالوسامة وحسن الصورة :

إن كنتُ في العُرسِ ذا قصورٍ فلا حضورٌ ولا دخالة^٢
ينوبُ نظمي منابَ تيسٍ والنثرُ عن قُفّةِ النخالة^٣

هناكم الله سبحانه دعاء وخبراً ، وألبسكم من السرور حبراً ، وعودكم بالخمس ، حتى من عين الشمس ، فلعمري لقد حصلت النسبة ، ورضيت هذه المعيشة الحسبة ، ومن يكن المزوار ذواقه^٣ ، كيف لا يشق البدر أطواقه ، وينشر القبول عليه رواقه ، وأنتم أيضاً بركان جمال ، وبقية رأس مال ، ويمين في الانطباع وشمال ، بمنزلكم اليوم بدرٌ وهلال ، ولعقد التوفيق بفضل الله تعالى استقلال ، فأنا أهنيكم بتسني أمانيكم ، والسلام .

١٩ — وقال رحمه الله تعالى مخاطباً عميد مراکش المتميز بالرأي والسياسة

١ كذا في ق ، ولعلها أن تقرأ « واقية » .

٢ الدخالة : الهدية .

٣ لست مطمئناً إلى أن اللفظة صحيحة .

والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافي عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي
الھنتائي^١ :

تقولُ ليَ الأظعانُ والشوقُ في الحشا لهُ الحكمُ يمضي بين ناهٍ وأمرٍ
إذا جبلَ التوحيدِ أصبحتَ فارعاً فخيمَ قرارَ العينِ في دارِ عامرٍ
وزُرَ تربةَ المعلومِ إنَّ مزارها هو الحجُّ يُفضي نحوهُ كلُّ ضامرٍ
ستلقَى بمثوى عامرٍ بن محمدٍ ثغورَ الأمانِ من ثنايا البشائرِ
وللهِ ما تبلوه من سَعَدٍ وجهه وللهِ ما تلقاه من يُمْنٍ طائرِ
وتستعملُ الأمثالُ في الدهرِ منكما بخيرِ مزورٍ أو بأغبطِ زائرِ

لم يكن همي أبقاك الله تعالى مع فراغ البال ، وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام
والليال ، إذ الشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهرُ مطيع سميع ، إلا
زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان ،
وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية ، وكانت إليه العودة ومنه البداية ،
فلما حمَّ الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع ، وأصبحت ديار
الأندلس وهي البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياي المواقع ، وقوي العزم وإن
لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفاً ، والتمست
الإذن حتى لا نرى في قبة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند
للعزم مقدوح ، والله سبحانه يحقق السؤل ، ويسهل بمثوى الأمائل المثول ، ويهيئ
من قبل هنتاة القبول ، بفضلته .

٢٠ — وللسان الدين ابن الخطيب مقامة عظيمة بديعة وصف بها بلاد الأندلس

١ كان أبو ثابت عامر بن محمد الھنتائي كبير جبل درن والبلاد المراكشية ، وقد وفد على أبي زيان
ابن أبي عبد الرحمن فأكرمه سنة ٧٦٣ ، فلما عاد إلى بلده كان كأنه حاكم مستقل فيها ، وكان
ذلك فاتحة انتقانات كثيرة إلى أن هلك عامر على يد السلطان عبد العزيز ، كما يذكره المقرئ في
ما يلي (ص: ٢١٩) وهذه القصيدة والرسالة في الاستقصا ٤ : ١٧ ومشاهدات لسان الدين : ١٢٠ .

والعدوة ، وأتى فيها من دلائل براعته بالعجب العُجاب ، وقد تركتها مع كتيبي
 بالمغرب ، ولم يحضرني منها الآن إلاّ قوله في وصف مدينة سبتة ما صورته :
 « قلت : فمدينة سبتة ، قال ^١ : عروس المجلى ، وثنية الصباح الأجلى ،
 تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة ، واختص
 ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ، وإذا قامت بيض أسوارها ، وكان جبل بنيونش ^٢
 شَمَامَة أزهارها ، والمنازة منارة أنوارها ^٣ ، كيف لا ترغب النفوس في جوارها ،
 وتهيم ^٤ الخواطر بين أنجادها وأغوارها ؟ إلى المينا الفلّكية ، والمراقى ^٥ الفلّكية ،
 والركية الزكية ، غير المتزورة ولا البكية ، ذات الوقود الجزل ، المعد للأزل ، والقصور
 المقصورة على الجدد والهزل ، والوجوه الزُّهر السَّحَن ، المضمون بها عن المحن ،
 دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحرب الناشبة ، والأسطول المرهوب ، المحذور
 الأهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والأثر المعروف المنسوب ، كرسى
 الأمراء والأشراف ، والوسيلة ، لخامس أقاليم ^٦ البسيطة ، فلا حظّ لها في الانحراف ،
 بصرة علوم اللسان ، وصنعاء الحُلل الحسان ، وثمرّة امتثال قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ
 يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (النحل : ٩٠) الأمانة على الاختزان ، القويمة المكيال
 والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل العصير والحرير والكتّان ، وكفاها
 السكّنى بنيونش في فصول الأزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان ،
 والمدفن المرحوم ، غير المرحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبثة عن أصالة
 الحلوم ، إلاّ أنها فاعرة أفواه الجنوب ، للغيث المصبوب ^٧ ، عرضة للرياح ذات

١ انظر هذا النص في مشاهدات لسان الدين : ١٠١ .

٢ بنيونش (Baliunech) : قرية إلى الغرب من سبتة .

٣ المشاهدات : شوارها .

٤ المشاهدات : وتهيم .

٥ المشاهدات : والمراسي .

٦ ق : الأقاليم .

٧ ق : المصبوب .

الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب ،
وناهيك بحسنة تُعدُّ من الذنوب ، فأحوال أهلها رقيقة ، وتكلّفهم ظاهر مهما
ظهرت وليمة أو عقيقة ، واقتصادهم لا تلبس منه طريقة ، وأنساب نفقاتهم في
تقدير الأرزاق عريقة ، فهم يمحسون البلالة مصّ المحاجم ، ويجعلون الخبز في
الولائم بعدد الحماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم ، وراعي
الجديب بالمطر الساجم ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة ، الشك عندي في مكة
والمدينة « انتهى .

وقد سلك في هذه المقامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتقفية ، ووفّأها
من المدح وضده أكمل توفية ، وعكس هذه الطريقة في « نفاضة الجراب »
فوصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع ، مع كونه أقطع من السيف
إذا بان عنه القُرَاب .

٢١ - فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينة « مكناسة الزيتون » :
وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد ، رافلة في حلل الدوح ، مبتسمة عن شنب
المياه العذبة ، سافرة عن أجمل المراد ، قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى ،
قيد النص وفذلكة الحسن ، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً
من بلد دارت به المداشر^١ المغلّة ، والتفت بسوره الزياتين المفيدة ، وراق بخارجه
للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف ، ورحب ساحة والتفاف شجرة
ونباهة بنية وإشراف ربوة ، ومثلت بإزائها الزاوية القدّمي المعدة للوراد^٢ ،
ذات البركة النامية ، والمثدنة السامية ، والمرافق المتيسرة ، يضاقبها الحان البديع
المنصب الحصين الغلق الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض يتغنون من فضل الله

١ المداشر : القرى أو المزارع .

٢ ق : للوارد .

تعالى ، تقابلها غرباً الزاوية الحديثة المربية بروثق الشيبية ومزية الجدة والانفساح
وتفنن الاحتفال ، إلى أن قال : وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم ، كلفت
بها الملوك الجلة الهمم ، وأخذها التنجيد ، فجاءت فائقة الحسن ، ما شئت من
أبواب نحاسية ، وبرك فياضة تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية ، وفيها خزائن
الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين ، وتفضل هذه المدينة كثيراً من
لِداتها بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداومة البر
لحوار ترابها سليماً من الفساد معافى من العفن ، إذ تقام ساحات منازلها غالباً
على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث ويصحبها التعمير وتتجافى عنها
الأرض ، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمّة ، قال ابن عبدون من أهلها والله دره :

إن تفتخر فاسٌ بما في طيّها وبأنّتها في زيّها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها والأطيان : هواؤها والماء

ويُسَامَتها شرقاً جبل زرهون ، المنبجس العيون ، الظاهر البركة ، المتراحم
ال عمران ، الكثير الزياتين والأشجار ، قد جلله سكرأ ورزقاً حسناً ، فهو عنصر
الخير ، ومادة المجبى ، وفي المدينة دور نبيهة ، وبنى أصيلة ، والله سبحانه
ولي من اشتملت عليه بقدرته ، وفيها أقول :

بالحسن من مكناسة الزيتون	قد صحَّ عذُرُ الناظرِ المفتون
فضلُ الهواءِ وصحةُ الماءِ الذي	يجري بها وسلامةُ المخزونِ
سَحَتْ عليها كلُّ عينٍ ثرّةٍ	للمزنِ هاميةِ الغمامِ هتونِ
قاحمرٌ خدُّ الوردِ بينَ أباطحِ	وافترَّ ثغرُ الزهرِ بين غصونِ
ولقد كفاها شاهداً مهما ادعتُ	قصبَ السباقِ القربُ من زرهونِ
جبلٌ تضاحكتِ البروقُ بجوّه	فبكتُ عذابُ عيونه بعيونِ

وكأنما هو بربريٌّ فاقد^١ في لوحه والتين والزيتون
حيَّيتَ من بلدٍ خصيبٍ أرضه^٢ مَثوى أمانٍ أو مُناخٍ أُمونٍ
وضفتُ عليك من الإلهِ عنايةً تكسوك ثوبَي أمانةٍ وسكونٍ

٢٢ - وقد وصفها في مقامة البلدان على منوال السجع فقال^١ : مكناسة
مدينة أصيلة ، وشُعَب للمحاسن وفصيلة ، فضَّلها الله تعالى ورعاها ، وأخرج
منها ماءها ومرعاها ، فجانبُها مَرِيع ، وخيرها سريع ، ووضعها له في فقه
الفضائل تفرِيع ، اعتدل فيها الزمان ، وانسدل الأمان ، وفاقت الفواكه فواكهها
ولا سيما الرمان ، وحفظ أقواتها الاختزان ، ولطفت فيها الأواني والكيزان ،
ودنا من الحضرة جوارها ، فكثُر قصَّادها من الوزراء وزوَّارها ، وبها المدارس
والفقهاء ، ولقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء .

[تعليق للمقري]

ويعني بالحضرة مدينة فاس المحروسة لأنها إذ ذاك كرسي الخلافة ، ومكناسة
مقر الوزارة ، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التي فيها كرسي الخلافة بالحضرة .
قلت : دخلت مكناسة هذه مراراً عديدة ، وقد أبلى الدهر محاسنها التي كانت
في زمان لسان الدين^٢ ابن الخطيب جديدة ، واستولى عليها الخراب ، وتكدر منها
بالفتن الشراب ، وعاث في ظاهرها الأعراب ، وفي باطنها سماسرة الفتنة العائقة
عن كثير من الآراب ، حتى صار أهلها حزينين ، لبس كثير من أهلها ثياب
البعد عنها والبين ، والله تعالى يجبرُ حالها ، ويعقب بالخصب إمحالها ، ويرحم الله
تعالى ابن جابر إذ قال :

لا تنكرنَّ الحسنَ من مكناسةٍ فالحسنُ لم يبرحْ بها معروفا
ولئن محتْ أيدي الزمانِ رسومها فلربما أبقتْ هناك حروفا

١ كذا في ق ، ولعلها « ناقد » .

٢ انظر مشاهدات لسان الدين : ١٠٩ .

على أن ضواحيها كانت في زمان لسان الدين مأوى للمحاربين والاصوص ، ومثوى للأعراب الذين أعضل داؤهم بأقطار المغرب على العموم والخصوص ، ولذلك يقول لسان الدين رحمه الله تعالى :

مكناسةٌ حُشِرَتْ بها زُمُرُ العدا فمدى بريدٍ فيه ألفُ مريدٍ
من واصلٍ للجوعٍ لا لرياضةٍ أو لابسٍ للصوفِ غير مُريدٍ
فإذا سَلَكَتَ طريقَهَا متصوفاً فانوِ السلوكَ بها على التجريدِ

وما أشار إليه رحمه الله تعالى فيما سبق من ذكر الزاوية القُدْمي والحديدة أشار به إلى زاويتين بناهما السلطان أبو الحسن المريني الكثير الآثار بالمغرب الأقصى الأوسط والأندلس ، وكان بنى الزاوية القُدْمي في زمان أبيه السلطان أبي سعيد والحديدة حين تولى الخلافة ، وله في هذه المدينة غير الزاويتين المذكورتين عدة آثار كثيرة جميلة من القناطر والسقايات وغيرها ، ومن أجل مآثره بها المدرسة الحديدة ، وكان قدَّم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ، ولما أخبر السلطان بتمام بنائها جاء إليها من فاس ليراها ، فقعده على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها ، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها ، فغرقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها ، وأنشد :

لا بأسَ بالغالي إذا قِيلَ حَسَنُ ليسَ لما قَرَّتْ بهِ العينُ ثَمَنُ

وهذا السلطان أبو الحسن أشهر ملوك بني مرين ، وأبعدهم صيتاً ، وكان قد ملك رحمه الله تعالى المغرب بأسره وبعض الأندلس ، وامتد ملكه إلى طرابلس الغرب ، ثم حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل أعراب إفريقية ، فغدره بنو عبد الواد الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان ، وانتهزوا الفرصة فيه ، وهربوا إلى الأعراب عند المصافة ، فاختل مصافه ، وهُزِمَ أقبح هزيمة ، ورجع إلى تونس مغلوباً ، وركب البحر في أساطيله ، وكانت نحو الستمائة من السفن ، فقضى الله تعالى أن غرقت جميعاً ، ونجا على لوح ، وهلك من كان معه من أعلام المغرب ،

وهم نحو أربعمئة عالم^١ ، منهم السطي شارح الحوفي ، وابن الصباغ الذي أُملي في مجلس درسه بمكناسة على حديث « يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْر^٢ » أربعمئة فائدة . قال الأستاذ أبو عبد الله ابن غازي رحمه الله تعالى : حدثني بعضُ أعيان الأصحاب أنه بلغه أن الفقيه ابن الصباغ المذكور سُمِعَ بمنصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاتب لنفسه^٣ :

يا قلبُ كيف وقعتَ في أشراكهم ولقد عهدتُكَ تحذُرُ الأشراكا
أرضيَ بذلٍ في هوى وصبايةٍ هذا لعمرُ الله قدْ أشقاكا

ومات رحمه الله تعالى غريقاً في أسطول السلطان أبي الحسن المريني على ساحل تدلس^٥ هو والفقيه السطي والأستاذ الزواوي وغير واحد في نكبة السلطان أبي الحسن المعروفة .

ومن نظم ابن الصباغ المذكور في العلاقات المعبرة في المجاز وفي المرجحات له قوله رحمه الله تعالى :

يا سائلاً حَصَرَ العلاقاتِ التي	وضعُ المجازِ بها يَسُوغُ ويجملُ
خُذْهَا مرتبةً وكلُّ مقابلٍ	حكمُ المقابلِ فيه حقّاً يحملُ
عن ذكر ملزومٍ يعوّضُ لازمٌ	وكذا بعلته يعاضُ معللُ
وعن المعمّمِ يستعاضُ مخصّصٌ	وكذاك عن جزءٍ ينوبُ المكملُ
وعن المحلَّ ينوبُ ما قد حلّه	والحذفُ للتخفيفِ ممّا يسهلُ
وعن المضافِ إليه نابٌ مضافه	والضدُّ عن أضداده مُستعملُ

١ عرف ابن خلدون في كتاب التعريف ببعض من كان في صحبة أبي الحسن من العلماء ، وانظر كلامه عن ابن الصباغ ص : ٤٥ .

٢ النغير : تصغير نغر وهو طائر صغير أحمر المنقار .

٣ ورد البيتان دون نسبة في مشارق أنوار القلوب : ٦٠ .

٤ مشارق : أبدأ تعالى الله ما .

٥ تدلس : مدينة على ساحل الجزائر .

والشبه في صفة تبيين وصورة
والشيء يسمى باسم ما قد كانه
وضعه المجاور في مكانه جاره
واجعل مكان الشيء آله ، وجيء
ومعترف عن مطلق وبه انتهت
وبكثرة وبلاغة ولزومه
ومن المقيّد مطلق قد يُبدل
وكذلك يُسمى بالبديل المبدل
وبهذه حكم التعاكس يكمل
بمنكر قصد العموم فيحصل
وبحلّها حكم التداخل يشمل
لحقيقة رجحانه يتحصل

انتهى كلام شيخ شيوخ شيوخنا الإمام أبي عبد الله محمد بن غازي رحمه الله تعالى .
وقد حكى ابن غازي المذكور عن شيخه القوري عن شيخه ابن جابر أن ابن
الصباغ المذكور اعترض على القاضي ابن عبد السلام التونسي ، قال : لما لقي ابن
الصباغ بتونس اعترض عليه ابن الصباغ أربع عشرة مسألة لم ينفصل عن واحدة
منها ، بل أقر بالخطأ فيها ، إذ ليس ينبغي اتصاف بالكمال ، إلاّ لربي الكبير
المتعال ؛ انتهى .

وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبّي رحمه الله تعالى في « شرح مسلم » عند
تكلمه على أحاديث العين ما معناه أن رجلاً كان بتلك الديار معروفاً بإصابة العين ،
فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين ، وكانت
كثيرة نحو الستمائة ، فنظر إليها الرجل العائن ، فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل
ما يشاء ، ونجا السلطان برأسه ، وجرت عليه محن ، واستولى ولده السلطان أبو
عنان فارس على ملكه ، وكان خلفه بتلمسان ، ولم يزل في اضطراب حتى ذهب
إلى سجلماسة ، ومنها خلص إلى جبل هنتاة قرب مراکش ، فذهب إلى حربه
ابنه السلطان أبو عنان فارس بجيوشه ، وأناخ على الجبل بكتلكه ، ولم تخفر أهل
هنتاة جواره لديهم ، ولا كبيراهم عامر بن محمد وأخوه ، وصبروا على الحصار
وخراب الديار ، وحرقت الأماكن ، حتى مات هناك رحمه الله تعالى ونُقل بعد
إلى شالة سلا مدفن أسلافه ، ومن أراد الوقوف على أخباره فعليه بكتاب الخطيب

ابن مرزوق الذي ألفه فيه وسماه « المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن » .

ولما ذهب لسان الدين ابن الخطيب إلى عامر بن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور ، وقد ألمّ بذكر ذلك في « نفاضة الجراب » إذ قال : وشاهدت بجبل هنتاة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله تعالى ، حيث أصابه طارق الأجل ، الذي فصل الحطة ، وأصمت الدعوة ، ورفع المنازعة ، وعايته مرفعاً عن الابتذال بالسكنى مفترشاً بالحصباء ، مقصوداً بالابتهاال والدعاء ، فلم أبرح يوم زيارة محل وفاته أن قلت ! :

يا حسنها من أربُعٍ وديارٍ	أضحت لباغي الأمنِ دارَ قرارٍ
وجبالٍ عزٍّ لا تذُلُّ أنوفها	إلا لعزِّ الواحدِ القهارِ
ومقرٍّ توحيدٍ وأُسٍّ خلافةٍ	آثارها تُنبِي عن الأخبارِ
ما كنتُ أحسبُ أنَّ أنهارَ الندى	تجري بها في جملةِ الأنهارِ
ما كنتُ أحسبُ أنَّ أنوارَ الحجى	تلتاحُ في قُنٍ وفي أحجارِ
مَحَّتْ جوانبها البرود ، وإن تكنْ	شَبَّتْ بها الأعداءُ جَذْوَةَ نارِ
هَدَّتْ بناها في سبيلِ وفائها	فكأنها صرعى بغيرِ عُقارِ
لما توعدها على المجدِ العدا	رضيتُ بعَيْثِ النارِ لا بالعارِ
عمرتُ بجِلَّةِ عامرٍ وأعزَّها	عبدُ العزيزِ بمرهفٍ بتارِ
فرسا رهانٍ أحرزا قصبَ الندى	والبأسَ في طلقٍ وفي مضمارِ
ورثا عن النَّدْبِ الكبيرِ أبيهما	مَحْضُ الوفاءِ ورفعةَ المقدارِ
وكذا الفروعُ تطولُ وهي شبيهةٌ	بالأصلِ في ورقٍ وفي أثمارِ
أزرتُ وجوهُ الصَّيْدِ من هنتاةٍ	في جَوِّها بمطالعِ الأقمارِ
للهِ أيُّ قبيلةٍ تركتُ لها الـ	نظراءُ دعوى الفخرِ يومَ فخارِ

نصرت أمير المسلمين وملكه
وارت^١ علياً عندما ذهب الردى
وتخاذل الجيش اللهم واصبح الـ
كفرت صنائعه فيتم دارها
وأقام بين ظهورها لا يتقي
فكانها الأنصار لما أنست^٢
لما غدا لحظاً وهم أجفانه
حتى دعاه الله بين بيوتهم
لو كان يمنع من قضاء الله ما
قد كان يأمل أن يكافيء بعض ما
ما كان يقنعه لو امتد المدى
فيعيد ذاك الماء ذائب فضة
حتى تفوز على النوى أوطانها
حتى يلوح على وجوه وجوههم
ويسوغ الأمل القصي كرامها
ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى
أو أن يتوج أو يقلد هامها
حق على المولى ابنه إثار ما
فلمثلها ذخير الجزاء ، ومثله
وهو الذي يقضي الديون وبره
حتى تحج محلة رفعوا بها

قد أسلمته عزائم الأنصار
والروح بالأسماع والأبصار
أبطال بين تقاعد وفرار
مستظهاً منها بعز جوار
وقع الردى وقد ارتدى بشرار
فيما تقدم غربة المختار
نابت شفا رهم عن الأشفار
فأجاب ممثلاً لأمر الباري
خلصت إليه نوافذ الأقدار
أولوه لولا قاطع الأعمار
إلا القيام بحققها من دار
ويعيد ذاك الترب ذوب نصار
من ملكه بجلال الأوطار
أثر العناية^٣ ساطع الأنوار
من غير ما ثنيا ولا استعمار
عن درهم فيهم ولا دينار
ونحورها بأهلة ودراري
بذلوه من نصر ومن إشار
من لا يضيع صنائع الأحرار
يرضيه في علن وفي إسرار
علم الوفاء لأعين النظار

١ المشاهدات : آوت ؛ ق : وأوت . . . بعدما .

٢ ق : أن سبت .

٣ المشاهدات : الرعاية .

فيصير منها البيتُ بيتاً ثانياً للطائفين إليه أيّ بدارٍ
تغني قلوبُ القومِ عن هدي به ودموعُهُم تكفي لرمي جمارِ
حييت من دارٍ تكفل سعيها الـ محمود بالزلّفى وعقبى الدارِ
وضفت عليك من الإله عناية ما كرّ ليل فيك إثر نهارِ

ويعني بالمولى ابنه السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن .

ومن العجائب أن الرئيس عامر بن محمد الذي جرى في هذه الأبيات ذكره
كان يؤمل بإيوائه للسلطان أبي الحسن ونصرتة له وعدم إخفار ذمته فيه أن ينال
من أولاده الملوك بذلك عزّاً مستطيلاً ورياسة زائدة على ما كان فيه ، فقضى
الله تعالى أن كان حنقه على يد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، إذ
نازله بجنوده ، وحاصره بمعتقله ، حتى استولى عليه وقتله ، حسبما استوفى ذلك
الشيخ الرئيس قاضي القضاة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي
نزيل مصر في تاريخه الكبير الذي سماه بـ « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » فمن
شاء فليراجعه ثمّة .

وكان الرئيس أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاتي المذكور خرج على السلطان
عبد العزيز بالسلطان المعتمد على الله أبي الفضل محمد ابن أخي السلطان عبد العزيز
المذكور ، فكان من قتله ما ذكر ، والله غالب على أمره .

ولنرجع إلى ما كنا فيه من نثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى
عنه ، فنقول :

٢٣ - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في كتابه « أعمال الأعلام »
ما صورته :

« وفي غرضي إذا منّ الله تعالى بانفراج الضيقة الوقتية ، ومُعَاوَدَةِ الأَزمانِ
الهنية ، والنسبة النقية ، أن نصنف في التاريخ كتاباً مبنياً على التطويل ، مستوعباً

للكثير والقليل ، نسميه « بضاعة المهولين في أساطير الأولين » يكون هذا الكتاب بالنسبة إليه الحصاة من الرمال ، والقطرة من الغيث المثال ، بإعانة ذي القدرة والجلال ؛ انتهى .

٢٤ - ومن كلامه رحمه الله تعالى : فما استبعد المرام ، مَنْ قصد الكرام ، وما فقد الإيناس ، من أَمَل الناس ؛ انتهى .

وقد سلك لسان الدين رحمه الله تعالى في كثير من كتبه كـ « الكتيبة الكامنة » و « التاج المحلى » و « الإكليل الزاهر » وغيرها تحلية الأعلام من حملة السيوف والأقلام ، بالكلام المسجّع الآخذ بحظه من الإتقان على طريقة صاحب « القلائد » و « المطمح » أبي نصر الفتح بن عبيد الله المدعو بابن خاقان بليغ الأندلس غير مدافع وعلى نهج مباريه ابن بسّام صاحب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وهو كتاب ينبغي أن يراجع ، وقد رأيت أن آتي بشيء من كلام لسان الدين فيما ذكر ، ونُلم بعد تحليته بالتعريف بحال مَنْ حلاه من الأعلام ، بحسب ما من به ويسره لي الملك العلام ، سبحانه وتعالى ، فنقول :

٢٥ - قال لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض كتبه في وصف بعض من عرف به ما نصه : أي نفس صافية من الكدر ، وصدر طيب الورد والصدّر ، ودوحة عهد تندى أوراقها ، وميشكاة فضل يستطلع إشراقها ، تمسك برضاع الكأس ، يرى ذلك من حسن عهده ، وقسم لحظاته بين آس الرياض وورده ، فلما حوّم حمامه للوقوع ، وكاد يقوّض رحله عن الربوع ، وشعر بجبائل المنية تعقله ، وسرعان خيل الأجل ترهقه ، أقلع عن فنه ، وأمر بسفك دنته ، ولجأ إلى الله تعالى بأوبته ، وضرع إلى الله تعالى في قبول توبته وغفران خوبته ، فكان ذلك عنوان الرضى ، وعلامة عفو الله تعالى عما مضى ، دخلت عليه في مرضه ، وأشرتُ باستعمال الدواء المسمى بلحية التيس عند الأطباء ، فاستعمله ، فوجد بعض خفة .

٢٦ - وقال في آخر : كثيف الحاشية ، معدود في جنس السائمة والماشية ، تُلّيت على العمال به سورة الغاشية ، تولّى الأشغال السلطانية فدُعرت الجُباة لولايته ، وقامت قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا : جاءت الدابة تكلمنا وهي إحدى الشروط ، من رجل صائم الحشوة ، بعيد من المصانعة والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخاطبة : لا مِساس ، وعلى مسافة نجهه ، وتجهّم وجهه ، فكان خالطاً إساءته بإحسانه ، مشغلاً بشانه ، غاضاً من عنان لسانه ، عهدي به في الأعمال يقدرّ فيها ويدبّر ، ويرجع ويعبر ، ويحبط ويتبرّ ، وهو مع ذلك يكبر ، ويحسن من الأزمنة ويقبّح ، وهو يسبّح ، ولما شرع في البحث والتنقير ، والمحاسبة على القِطير والنّقير ، أتاه قاطع الأجل ، فحنّ ركابه فأقضى العجل ، وصدرت عنه أبيات خَصَم فيها وقضم ، وحصل تحت القدر المشترك مع من نظم .

٢٧ - وقال في آخر : كودن حلبة الآداب ، وسنّور عبد الله بيع بقيراط لما شاب^١ ، هام بوادي الشعر مع مَن هام ، واستمطر منها الجهام ، فجاء بأبيات أوهى من بيت العنكبوت نسجاً ، ومقاصد لا تبين قصداً ولا نهجاً ، وله بيت معمور بقضاة أكابر ، فرسان أقلام ومحابر ، وعمال قادوا الدهر بأزمة أزمّتهم ، وفرعوا الزهر بهمتهم ، وتكاثرت عليه رحمه الله الإحن ، وتعاورته المِحن ، وتصرف آخر عمره في بعض الأعمال المخزنية فتعلّل بترر القوت ، إلى الأجل الموقوت .

٢٨ - وقال في آخر : معدود في وقته من أدبائه ، ومحسوب في أعيان بلده وحُسابائه ، كان رحمه الله تعالى من أهل العدالة والخير ، سائراً على منهج الاستقامة

١ يشير إلى قول بعضهم :

كسنور عبد الله بيع بدرهم صغيراً فلما شب بيع بقيراط
انظر الحيوان ٥ : ٣١٥ وتعليق الجاحظ على البيت ، والحاشية رقم : ٤ .

أحسن السّير ، وله أدب لا يقصر عن السداد ، وإن لم يكن بطلاً فمن يكثر
السواد ، قد أثبت له ما عثرت عليه ، ممّا ينسب الناس إليه .

٢٩ - وقال في آخر : معتر غير قانع ، ومنجع كل شهم وخانع ، نشأ
ببلده مالقة أبرع من أورد اليراعة في نِقَس ، وهز غصنها في روضة طِرْس ،
إلا ما كان من سخافة عقله ، وقعوده تحت المثل « اخبر ثقليه » ، لا يرتبط إلى
رتبة ، ولا ينتمي إلى عَصبة ، ولا يتلبس بسمت ، ولا يستقيم من أمت^١ ،
أخبرني من عني بخبره ، وذكر عِبره ، من صباه إلى كبره ، أنه رشح في بعض
الدول ، وعرض لاكتساب الخيل والحوال ، وخلعت عليه كسوة فاخرة ،
وشارة بزهر الرياض ساخرة ، فانقاد طَوّع حرمانه ، ونبذ صفقة زمانه ، وحمله
فرطُ النهم ، على أن ابتاع في حجره طعاماً كثير الدّسم ، وأقبل وأذباله منه
تقطر ، كما اختلفت باللبن الأشطر ، فطُرد ونُبذ ، وطُرح بعدما جُبذ ، لقيته
بمالقة وقد قلب له زمانه عينيه ، وسقط في يديه ، فانتابني بأمداحه ، وتعاورني
بأجاجة وقرّاحه .

٣٠ - وقال في آخر : أديبٌ نار فكره تتوقد ، وأريب لا يُعرض كلامه
ولا يُنقَد ، أما الهزل فهو طريقته المثلى ، ركض في ميدانها وجلّى ، وطلع في
أفقاها وتجلّى ، فأصبح علّم أعلامها ، وعابر أحلامها ، إن أخذ بها في وصف
الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألمّ بالربيع وفصله ، والحبيب ووصله ، والروض
وطيبه ، والغمام وتقطيبه ، شقّ الجيوبَ طَرَباً ، وعلّ النفوس شرباً وضرباً ،
وإن ابتغى لاعتلال العشيّة ، في فرش الربيع الموشيّة ، ثمّ تعدّاها إلى وصف
الصّبوح ، وأجهز على الزق المجروح ، وأشار إلى نغمات الورق ، يرفلن في
الحلل الزُّرق ، وقد اشتعلت في عنبر الليل نارُ البرق ، وطلعت بنودُ الصباح في

١ الأمت : الاعوجاج .

شرفات الشرق ، سَلَبَ الحليم وقاره ، وذكر الخليع كأسه وعقاره ، وحرك
الأشواق بعد سكونها ، وأخرجها من وكونها ، بلسان يتزاحم على موارد الخيال ،
ويتدفق من حافاته الأدب السيال ، وبيان يقيم أود المعاني ، ويشيد مصانع اللفظ
محكمة المباني ، ويكسو حلل الإحسان جسوم المثلث والمثاني ، إلى نادرة لمثلها
يشار ، ومحاضرة يُجنى بها الشهد ويُشار ، وقد أثبت من شعره المعرب وإن كان
لا يتعاطاه إلا قليلاً ، ولا يجاور إلا تعليلاً ، أبياتاً لا تخلو عن مسحة جمال على
صفحاتها ، وهبة طيب ينم في نفحاتها .

٣١ - وقال أيضاً في آخر : ظريفُ السجية ، كثير الأريحية ، ارتحل من
لورقة فتحها الله تعالى واتخذ المرية داراً ، وألف بها استقراراً ، إلى أن دعاه بها
داعيه ، وقام فيها ناعيه .

٣٢ - وقال في وصف آخر : شيخ أخلاقه لينة ، ونفسه - كما قيل في
نفس المؤمن - هيئة ، ينظم الشعر عذباً مساقه ، محكماً اتساقه ، على فاقة ،
وحال ما لها من إفاقة ، أنشد المقام الكريم بظاهر بلده قصيدة استغرب منه منزعها ،
واستعذب من مثله مشرعها .

٣٣ - وقال في آخر : من أئمة أهل الزمام ، خليق برعني المتات والذمام ،
ذو خط كما تفتح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام ، كان يبilde
رحمه الله تعالى بدار إشرافه محاسباً ، ودرة في لجة الإغفال راسباً ، صحيح العمل ،
يلبس الطروس من براعته حُسْنِ الحلل ، وله شعر لا بأس به ، ولا خفاء بفضل
مذهبه .

٣٤ - وقال في آخر : خير من استبق إلى داعي الفلاح استباقاً ، وانتمى
إلى القوم الذين هم في الآخرة أطول أعناقاً ، وإن كانوا في الدنيا أضيق أرزاقاً ،
مردد أذكار ، ومُسَبَّح أسحار ، وعامر مثذنة ومنار ، كان يبilde مؤذناً بجامعها ،

ومؤقتاً بأُم صوامعها ، ومعتبراً فيمن كان بها من السدنة ، ومن مثله قوله : فكأنما
قربَ بدنة ، وله لسان مخيف ، وشعر سخيّف ، توشح بحليته ، وجعله وسيلة
كُديته .

٣٥ - وقال في آخر : عظيم الهيئة حسن اللقاء ، أغرب في حسن المداراة
من العنقاء ، استمر عمره للحكم ، وصبر على حجج الصم والبكم ، وأفرط
في هشته وهزته ، وتنزل عن نخوة القضاء وعزته ، وله سلف في القضاء عالي
المراقب ، مزاحم للنجم الثاقب ، وقد أثبت من شعره ما تيسر إثباته ، ونجح
بروض هذا المجموع نباته .

٣٦ - وقال في آخر : قاضٍ توارث كل جلالة ، عن كلاله ، وجمع في
العلم الحسب ، بين الموروث والمكتسب ، أشرق بجيدٍ معمٍ في العشرة مخول ،
وألقت عليه مقاليدها من منقول ومتأول ، إلى نزاهة لا تغرها البيضاء ولا الصفراء ،
وحلم لا تستهويه السعاية ولا يستفزه الإغراء ، ووقار يستخف الجبال الراسية ،
ونظر يكشف الظلم الغاشية ، تولى قضاء الحضرة فأنفذ الأحكام وأمضاها ، وشام
سيوف الجزالة وانتضاها ، ولبس أثواب التزاهة والانقباض فما نضاها ، وسلك
الطريق التي اختارها السلف وارتضاها ، فاجتمعت الأهوال المفترقة عليه ، وصرف
الثناء أعنة الألسن إليه ، ثم كرّ إلى بلده ، واستقر خطيباً بقرارة أهله وولده .

٣٧ - وقال في آخر : مُنتمٍ إلى معرفة ، متصف من الذكاء بأحسن صفة ،
أقرأ ببلده علم اللسان ، وما حاد عن الإحسان ، وعانى الشعر فنظم قوافيه ، وما
تكلف فيه ، وعلى غزارة مادته ، ووضوح جادته ، فشعره قليل البشاشة ، ذاهبُ
الحُشاشة ، وذو الإكثار ، كمثل العثار ، وله سلف يخوض في الحقائق ، ويتنحل
بعض الكلام الرائق .

٣٨ - وقال في آخر : مُنتمٍ لدين وعفة ، وإلى نفس بالعرّض الأدنى

مستخفّة ، ممّن نزع إلى سلوك ورياضة ، ويفيض في طريق القوم بعض إفاضة .

٣٩ - وقال في آخر : ممّن يتشوق إلى المعارف والمقالات ، ويرتاح إلى الحقائق والمحالات ، ويشتمل على نفس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعاني من الشعر ما يشهد بنبله ، ويستظرف من مثله .

٤٠ - وقال في آخر : مشمر في الطلب عن ساق ، مثير على اللحاق بدرجات الحُذّاق ، متحل للعربية جادّ في إحصاء خلافتها ، ومعاطاة سُلّافها ، وربما شرست في المذاكرة أخلاقه ، إذا بُهرجت أعلاقه ، ونوزع تمسكه بالحجة واعتلاقه ، ورحل إلى المغرب فاستجدى بالشعر سلطانه ، ثم راجع أوطانه .

٤١ - وقال في آخر : منتم إلى زهد ، باذل في التماس الخير الجهد ، نظمه لا يخلو من حلاوة ، ومعانيه في طريقه عليها بعض طلاوة .

٤٢ - وقال في آخر : كاتب سجلات لا يساجل في صحة فصولها ، وتوقيع فروعها على أصولها ، وكلما طلب بالنظم القريحة ، وأعمل الفكرة الصريحة ، مع إقلاله ، وعدم استعماله ، أجابت ولبتت ، وتنسّمت رباحها وهبتت .

٤٣ - وقال رحمه الله تعالى وسامحه في بعض العدول الصوفية الأخيار ، الذين وحدوا الله وفنّوا عن سائر الأغيار : خير عدل ، وممّن له وقار وفضل ، متّسم بخير ، معرض عن غير ، مشتمل بصفات مرضية ، ملّم بالنظم في الطريقة الصوفية .

وللسان الدين رحمه الله تعالى ركض في هذا الميدان لا يجارى فيه ، وثبوت فضل لا يستند إلى دليل جاحده ونافيه .

٤٤ - وقال رحمه الله تعالى في كتابه « التاج المحلّي في مساجلة القيدح

المعلّى « في ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمي المري^١ ، ما صورته :
لُجُّ معرفة لا يَغِيضُ ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويفيض ، نشأ ببلده مشمراً عن
ساعد اجتهاده ، وسائراً في قُنن العلم ووهاده ، حتى أينع روضه ، وفهق حوضه ،
ثمّ أخذ في راحة ذاته ، وشام بارق لذاته ، ثمّ سار في البطالة سير الحموح ،
وواصل الغبوق بالصَّبوح ، حتى قضى وطره ، وسثم بطره ، وركب الفُلك ،
وخاض اللجج الحُلك ، واستقر بمصر على النعمة العريضة ، على شك في قضاء
حجة الفريضة ، وهو اليوم بمدرستها الصالحة نبيه المكانة ، معدود في أهل العلم
والديانة ؛ انتهى .

وقال في « الإحاطة » في حق المذكور ما نصه : من خط شيخنا أبي البركات
في الكتاب « المؤتمن على أبناء أبناء الزمن » : كان سهلاً سلس القياد ، لذيذ
العشرة ، دمث الأخلاق ، ميالاً إلى الدّعة ، نفوراً عن النصب ، يركن إلى فضل
نباهة وذكاء يحاسب بهما عند التحصيل والدراسة والدؤوب على الطلب ؛
من رجل يجري من الألحان على مضمار لطيف ، ولم يكن له صوت رخيم يساوق^٢
انطباعه في التلحين ، فجبر ذلك بالأوتار ، وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ما
لاذ به الظرفاء منهم ، واستعمل بدار الأشراف بالمرية ، فأحكم تلك الطريقة في
أقرب زمان ، وجاء زمame يروق من ذلك العمل من شأنه ، ثمّ نهضت به همته
إلى أرفع من ذلك ، فسار إلى غرناطة ، فقرأ بها العربية وغيرها ، وانخرط في
سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة ، ثمّ رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة
فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها علة كان يشكوها ، وأخذ في إقراء العربية بها ،
وعُرف بها إلى أن صار يدعى بأبي عبد الله النحوي . قال شيخنا المذكور : ورأى
في صغره فارة أنثى فتمال : هذه قرينة ، فلقّب بذلك ، وصار هذا اللقب أغلب

١ انظر ترجمته في الكتيبة : ٨٨ وبغية الوعاة : ٦٠ والدرر : ٤ : ١٠٣ (ط . القاهرة) .

٢ ق : يصادق .

عليه من اسمه ومعرفته .

ثم قال لسان الدين في حق المذكور ما ملخصه : إنه قرأ بالحضرة على الخطيب أبي علي القيجاطي وطبقته ، وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبي حيان ، وانتفع بجاهه ، نقل إلينا الحاج الحافظ أبو جعفر ابن غصن من شعره حسبما قيده عنه بمصر :

بُعْدُ المزار وَلَوْعَةُ الأشواقِ حَكَمًا بَفَيْضِ مدامِ الآماقِ
وَحْفُوقُ نُجْدِي النسيمِ إِذَا سَرَى أَذْكَى لَهيبَ فَوَادِي الخفّاقِ
أَمْعَلِّي أَنْ التَّوَاصلَ فِي غَدِ مِنْ ذَا الَّذِي لَغْدٍ فديتُكَ باقِ
إِنَّ اللَّياليَ سُبَّاقُ وَإِذَا تَوَلَّتْ لَمْ تُنَلِّ بلحاقِ
عَجَّ بِالْمَطِيِّ عَلَى الحمى ، سَقَى الحمى صَوَّبَ الغمامِ الواكفِ الرقراقِ
فِيهِ لَذِي القلبِ السليمِ ودادةُ قَلْبٌ سَلِيمٌ مَا لَهُ مِنْ راقِ
قَلْبٌ غَدَاةُ فراقهم فارقته لَا كَانَ فِي الأيامِ يَوْمُ فراقِ
يَا سَارِيًّا وَاللَّيْلُ سَاجٍ عَاكِفُ يَفْرِي الفَلاَ بِنِجائبِ ونياقِ
عَرَّجَ عَلَى مَثْوَى النَبِيِّ مُحَمَّدٍ خَيْرِ البريّةِ ذِي المَقامِ الرّاقِ
وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَنْ لَهُ حَفْظُ العُهودِ وَصَحَّةُ الميثاقِ
الظَّاهِرُ الْآيَاتِ قَامَ دَلِيلُهَا وَالطَّاهِرُ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْرَاقِ
بَدْرُ الْهُدَى وَهُوَ الَّذِي آيَاتُهُ وَجَبِينُهُ كَالشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ
الشَّافِعُ الْمَقْبُولُ مَنْ عَمَّ الْوَرَى بِالْجُودِ وَالْإِرْفَادِ وَالْإِرْفَاقِ
الصَّادِقُ الْمَأْمُونُ أَكْرَمُ مَرْسَلِ سَارَتْ رِسالَتُهُ إِلَى الْآفَاقِ
أَعْلَى الْكِرَامِ نَدَى وَأَبْسطَهُمْ يَدًا قَبْضَتُ عَنانَ المَجدِ بِاسْتِحقاقِ
وَأَشَدَّ خَلْقِ اللَّهِ إِقْدَامًا إِذَا حَمَى الوَطيسُ وَشَمَرَتْ عَنْ سَاقِ
أَمْضَاهُمْ وَالْحَيْلُ تَعَثُّ فِي الْوَغَى وَتَجُولُ سَبْحًا فِي الدَّمِ المِهْرَاقِ

مَنْ صَيَّرَ الْأَدْيَانَ دِيناً وَاحِداً
وَأَحْلَتْنَا مِنْ حُرْمَةِ الْإِسْلَامِ فِي
لَوْ أَنَّ الْبَدْرَ الْمُنِيرَ كَمَالَهُ
لَوْ أَنَّ الْبَحْرَيْنِ جُودَ يَمِينِهِ
لَوْ أَنَّ لِلْآسَادِ شِدَّةَ بَأْسِهِ
لَوْ أَنَّ لِلْآبَاءِ رَحْمَةَ قَلْبِهِ
ذُو الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ الْخَفِيِّ الْمُنْجَلِيِّ
آيَاتُهُ شَهْبٌ وَغُرٌّ بِنَانِهِ
مَاجَتْ فُتُوحُ الْأَرْضِ وَهُوَ غِيَاثُهَا
ذُو رَأْفَةٍ بِالْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٍ
وِخْصَالِ مَجْدٍ أَفْرَدَتْ بِالْخِصْلِ فِي
ذُو الْمَعْجَزَاتِ الْغُرِّ وَالْآيِ الَّتِي
ثَنَّتِ الْمُعَارِضُ حَائِراً لَمَّا حَكَتْ
يَقْظُ الْفُؤَادِ سَرَى وَقَدْ هَجَعَ الْوَرَى
وَسَمَا وَأَمْلَأَ السَّمَاءَ تَحْفَهُ

ومنها :

يَا ذَا الَّذِي اتَّصَلَ الرَّجَاءُ بِجَبَلِهِ
حُبِّي إِلَيْكَ وَسِيلَتِي وَذَخِيرَتِي
وَالِإِلَيْكَ أَعْمَلْتُ الرُّوَاحِلَ ضُمُراً
نُجُباً إِذَا نَشَدْتُ حَلِي تِلْكَ الْعَلَا
يَحْدُو بَيْنَ مَنْ النَّحِيبِ مَرْدَدٌ
غَرَضٌ إِلَيْهِ فَوَقَّتْنَا أَسْهَماً
فَأَنْخَتَهَا بِفَيْنَائِكَ الرَّحْبِ الَّذِي

مَنْ بَعْدَ إِشْرَاكِ مَضَى وَنِفَاقِ
ظِلٍّ ظَلِيلٍ وَارِفِ الْأُورَاقِ
مَا نَالَهُ كَسْفٌ وَنَكْسٌ مُحَاقِ
أَمِنْ السَّفِينِ غَوَائِلِ الْإِسْأَقِ
لَثَّتْ عَنِ الْإِنْجَادِ وَالْإِعْرَاقِ
ذَابَتْ نَفُوسُهُمْ مِنْ الْإِشْفَاقِ
وَالْجَاهِ وَالشَّرَفِ الْقَدِيمِ الْبَاقِ
سُحِبَ النُّوَالِ تَدْرُجاً بِالْأَرْزَاقِ
وَرَبَّتْ رَبِّي الْإِيمَانَ وَهُوَ السَّاقِ
وَهْدَى وَتَأْدِيبِ بِحَسَنِ سِيَاقِ
مَرَمَى الْفَخَارِ وَغَايَةِ السُّبَّاقِ
كَمْ آيَةٍ فُقِدَتْ وَهْنٌ بِوَاقِ
فَلَقَّ الصَّبَاحَ وَكَانَ ذَا إِفْلَاقِ
لِقَامِ صَدَقٍ فَوْقَ ظَهْرِ بُرَاقِ
حَتَّى تَجَاوَزَهُنَّ سَبْعَ طَبَاقِ

وَأَنْبَتَ مِنْ هَذَا الْوَرَى بِطَلَاقِ
لَأَنِّي مِنَ الْأَعْمَالِ ذُو إِمْلَاقِ
تَخْتَالُ بَيْنَ الْوُخْدِ وَالْإِعْنَاقِ
تَطْوِي الْفَلَاحَ مَمْتَدَّةَ الْأَعْنَاقِ
وَتَقُودُهُنَّ أَرْمَتُهُ الْأَشْوَاقِ
وَهِيَ الْقَسِيُّ بُرِينَ كَالْأَفْوَاقِ
وَسِعَ الْوَرَى بِالنَّائِلِ الدَّفَاقِ

وقرى مؤمّلك الشفاعةُ في غدٍ
وعليك يا خير الأنام تحيةٌ
تتأرج الأرجاء من نفحاتها
ومنها :

قسماً بطيب تراب طيبة ؛ إنه
وبشأن مسجدها الذي يرجى به
لأجود فيه بأدمع أسلاكها
أغدو بتقبيل على حصائبه
ومنها :

وعليك ذا النورين تسليم له
كفو النبي وكفو أعلى جنة
وكفاه ما في الفتح جاء ومصحف
وعلى أبي السبطين من سبق الألى
الطاهر الطهر ابن عم المصطفى
مبدي القضايا من وراء حجابها
يغزو العداة بغلظة فيهدّهم
راياته لا شيء من عقبانها
وعلى كرام ستة عشر بهم
ما بين أروع ماجد نيرانه
وأخي حروب صده رشق القنا
ما غرّدت شجوا مطوّقة وما
وعلى القرابة والصحابة كلهم

نورٌ يلوح بصفحة المهرق
حيزت له بشهادة وصدّق
في الفتح يحمده وفي الإطباق
سبقوا إلى الإسلام يوم سباق
شرف على التخصيص والإطلاق
ومفتح الأكمام عن أعلاق
بصوارم تفري الفقار رفاق
بمطار يوم وغى ولا بمطابق
عند النظام لآلى النساق
جنح الظلام تشب للطرّاق
عما قدود مثلهن رفاق
شقت كمام الروض عن أطواق
والتابعين لهم ليوم تلاق

وذكر في « الإحاطة » غير هذه .

٤٥ - وقال لسان الدين في « التاج » في ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادي أشي^١ ما صورته : ناظم أبيات ، وموضع غرر وشيات ، وصاحب توقيعات وقيعات ، وإشارات ذوات شارات ، وكان شاعراً مكثراً ، وجواداً لا يخاف عثاراً ، دخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه ، بعد انتشار سلكه ، وخروج الحضرة عن ملكه ، واستقراره بوادي آش مروّع البال ، متعللاً بالآمال ، وقد بلغه دخول طبرنش^٢ في طاعته ، فأنشده من ساعته :

خُذْهَا إِلَيْكَ طبرنشا شَفَّعَ بِهَا وادي الأشا
والأمُّ تأتي بنتَهَا والله يفعلُ ما يشا

ومن نوادره العذبة ، ما كتبه إليه يطلب منه الحسبة :

أنلني أيا خير البرية خطةً ترفعني قدراً وتكسبني عزاً
فأعتر في أهلي كما اعتر ببدق على سفرة الشطرنج لما انشئ فرزا

فوقع له بما ثبت في ترجمته ؛ انتهى .

٤٦ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله ابن العطار المزني ما صورته : ممّن نبغ ونجب ، وحق له البر بذاته ووجب ، تحلّى بوقار ، وشعشع للأدب كأس عقار ، إلاّ أنّه احترّم في اقتبال ، وأصيب للأجل بنبال ؛ انتهى .

٤٧ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد ابن علي بن يحيى بن خاتمة الأنصاري المزني^٣ ، ما صورته : ممّن ثكلته البراعة ، وفقدته البراعة ، تأدب بأخيه وتهذب ، وأراه في النظم المذهب ، وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقتفى واقتدى ، وراح في الحلبة واغتدى ، حتى

١ ترجمته في الدرر ٤ : ١٣٣ (ط . القاهرة) .

٢ طبرنش (Tabernas) شرقي المرية . ٣ ترجمته في الدرر ٤ : ٢٠١ .

نبل وشدا ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأما خطه فقيد الأبصار ، وطرفة
من طرف الأمصار ، واعتبط يانع الشبية ، مخضر الكتبية ، مات عام خمسين
وسبعمائة .

وأورد له في « الإحاطة » قوله :

وَمَضَى النَّوْمُ وَحَلَّ الْأَرْقُ	وَمَضَى الْبَرْقُ فَتَارَ الْقَلْقُ
مَدُّ تَذَكَّرْتُ لَأَيَّامٍ خَلَّتْ	وَعَشِيَّاتٍ تَقَضَّتْ بِاللَّوَى
وَرِيَّاضُ الْأَنْسِ غَضُّ مَوْزِقُ	إِذْ شَبَابِي وَالتَّصَابِي جُمِعَا
خُلِقَ الْبَيْنُ لِقَلْبٍ يَعِشُقُ	شَتَّ يَوْمُ الْبَيْنِ شَمْلِي لَيْتَ مَا
شَابَ مِنِّي يَوْمَ حَلَّتْ مَفْرَقُ	أَهْ مِنْ يَوْمٍ قَضَى لِي فَرْقَةً

وقوله ١ :

الرَّفْعُ نَعْتُكُمْ لَا خَائِكُمْ أَمْلُ	وَالْخَفْضُ شِيمَةُ مِثْلِي وَالهَوَى دَوْلُ
هَلْ مِنْكُمْ لِي عَطْفٌ بَعْدَ بَعْدِكُمْ	إِذْ لَيْسَ لِي مِنْكُمْ يَا سَادَتِي بَدَلُ

قلت : البيت الثاني غاية في معناه ، وأما الأول فساقل وإن أسس على الرفع مبناه ،
والله أعلم .

٤٨ — وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم
ابن عيسى بن داود الحميري المالقي ٢ ما صورته : علّم من أعلام هذا الفن ،
ومشعشع راح هذا الدن ، مجموع أدوات ، وفارس يراعة ودواة ، ظريف
المنزع ، أنيق المرأى والمسمع ، اختص بالرياسة فأدار فلك إمارتها ، واتسم

١ البيتان في الدرر الكامنة .

٢ انظر أيضاً ترجمته في الكتبية : ١٥٨ والدرر ٤ : ٢٧١ (ط . القاهرة) .

باسم كتابتها ووزارتها ، ناهضاً بالأعباء ، صاعداً في درج التقريب والاجتباء ،
مصانعاً دهره في راح وراحة ، آوياً إلى فضل وسماحة ، وخصب ساحة ، كلما
فرغ من شأن خدمته ، وانصرف عن رب نعمته ، عقد شرباً ، وأطفأ من الاهتمام
بغير الأيام حرباً ، وعكف على صوت يستعيده ، وظرف يبيده ويعيده ، فلماً
تقلبت بالرياسة الحال ، وقوضت منها الرحال ، استقر بالمغرب غريباً ، يقلب
طرفاً مستريباً ، ويلحظ الدنيا تبعة عليه وتثريباً ، وإن كان لم يُعَدَم من أمرائه حظوة
وتقريباً ، وما برح يروح بشجنه ، ويرتاح إلى عهود وطنه ، ومما أعرب به ،
عن براعة أدبه ، قوله ^١ :

« يا نازحين ولم أفارق منهم ^١ شوقاً تأجج في الضلوع ^٢ ضرامه ^٣
غيبتم عن ناظري وشخصكم ^٤ حيث استقر من الضلوع مقامه ^٥
رمت النوى شملي فشتت نظمه ^٦ والبين رام لا تطيش سهامه ^٧
وقد اعتدى فينا وجداً مبالغاً ^٨ وجرت بمحكم جوره أحكامه ^٩
أترى الزمان مؤخرأ في مدتي ^{١٠} حتى أراه قد انقضت أيامه ^{١١} »

تحميلها يا نسيم نجديّة النفحات ، وجديّة اللّفحات ، تؤدي غني إلى الأوبة نفحها
سلاماً ، وتورد عليهم لفحها برداً وسلاماً ، ولا تقل كيف تحملني ناراً ، وترسل
على الأوبة مني إعصاراً ، كلاً إذا أهديتهم تحية إيناسي ، وأنسوا من جانب
هبوبك نار ضرام أنفاسي ، وارتاحوا إلى هبوبك ، واهتزوا في كف مسرى
جنوبك ، وتعلّلوا بك تعليلاً ، وأوسعوا آثار مهبك تقبيلاً ، أرسلها عليهم
بليلاً ، وخاطبهم بلطافة تطفك تعليلاً ، ألم تروني كيف جثتكم بما حماني
عليلاً :

١ الكتيبة : ١٦١ ؛ والبيتان الأولان في الدرر : ٢٧٢ .

٢ الكتيبة : في الفؤاد .

٣ ق : شمله .

كذلك تركته^١ مُلقًى بأرضٍ له فيها التعلُّلُ بالرياحِ
إذا هبَّتْ إليه صبا إليها وإن جاءته من كلِّ النواحي
تساعده الحمائمُ حينَ يبكي فما ينفكُ موصولَ النواحي^٢
يخاطبهنَّ مهما طرُنَ شوقاً أما فيكنَّ واهبةً الجناحِ

ولولا تعلله بالأمني ، وتحدث نفسه بزمان التداني ، لكان قد قضى نجه ، ولم
أبلغكم إلا نعيه أو ندبه ، لكنه يتعلل من الآمال بالوعد الممتول ، ويتطرح
باقتراحاته على الزمن المجهول ، ويحدث نفسه وقد قنعت من بروق الآمال بالحلِّب ،
ووثقت بمواعيد الدهر القلِّب ، فيناجيتها بوحى ضميره ، وإيماء تصويره :
كيف أجذك يوم الالتقاء بالأحباب ، والتخلص من رِبقة الاغتراب ، أبائنة
الحضور أم بادية الاضطراب ، كأني بك وقد استفزك وله السرور ، فصرفك
عن مشاهدة الحضور ، وعائتك غشاوة الاستعبار للاستبشار ، عن اجتلاء محيّا
ذلك النهار :

يومٌ يُداوي زماناتي منَ آزماني أزالَ تنغيصَ أحياني فأحياني
جعلتُ لله نذراً صومه أبدأً أفي به وأوفي شرطَ إيماني
إذا ارتفعنا وزال البعد وانقطعتُ أشطانُ دهرٍ قد التفتُ بأشطاني
أعدّه خيرَ أعيادِ الزمانِ إذا أوطاني السعدُ فيه ترب أوطاني

أرأيت كيف ارتياحي إلى التذكار ، وانقيادي إلى معلّلات توهمات الأفكار ؟
كأن البعد باستغراقها قد طويت شقته ، وذهبت عني مشقته ، وكأني بالتخيل بين
تلك الحمائل أتسّم صباها ، وأتسّم رباها ، وأجتني أزهارها ، وأجتلي أنوارها ،
وأجول في خمائلها ، وأتعمّ بكرها وأصائلها ، وأطوف بمعالمها ، وأنتشق

١ الكتيبة : غريب بعدكم .

٢ الكتيبة : التياح .

أزهار كرائمها ، وأصيح بأذن الشوق إلى سجع حنائمها ، وقد داخلني الأفراح
ونالت مني نشوة الارتياح ، ودنا السرور لتوهم ذهاب الأتراح ، فلما أفقت
من غمرات سكري ، ووثبت من هفوات فكري ، وجدت مرارة ما شابه لي
في استغراق دهري ، وكأني من حينئذٍ عابجت وقفة الفراق ، وابتدأت منازعة
الأشواق ، وكأنما أغمضني النوم ، وسمح لي بتلك الفكرة الحلم :

ذكرَ الديارَ فهاجَهْ تذكَّرهُ وسرتُ به من حينه أفكارهُ
فاحتلَّ منها حيث كان حلولهُ بالوهم منها واستقرَّ قرارهُ
ما أقربَ الآمالَ من غفَواته لو أنها قُضيتُ بها أوطارهُ

فإذا جثتها أيها القادم والأصيلُ قد خلع عليها بُرداً مُورساً ، والربيع قد مدَّ على
القيعان منها سندساً ، فاتخذها - فديتُكَ - معرَّساً ، واجرر ذبولك فيها متبخترأ ،
وبث فيها من طيب نفحاتك عنبرأ ، وافتق عليها من نوافج أنفاسك مسكا أذفرأ ،
واعطف معاطف بانها ، وأرقِصْ قُضْبَ ريحانها ، وصافح صفحات نهرها ،
ونافحْ نفحات زهرها ، هذه كلها أمارات ، وعن أسرار مقاصدي عبارات ،
هنالك تنتعش بها صُبايات ، تعالج صبايات ، تتعلل بإقبالك ، وتعكف على لثم
أذيالك ، وتبدو لك في صفة الفاني المتهالك ، لاطفها بلطافة اعتلاك ، وترفق
بها ترفق أمثالك ، فإذا مالت بهم إلى هواك الأشواق ، ولَوُوا إليك الأروُس
والأعناق ، وسألوك عن اضطرابي في الآفاق ، وتقلَّبي بين الإشام والإعراق ،
فقل لهم : عرض له في أسفاره ، ما يعرض للبدر في سراه ، من سرار السرار ،
ولحاق المحاق ، وقد تركته وهو يسامر الفرقدين ، ويساير النيرين ، وينشد إذا
راعه البين :

وقد نكونُ وما يُخشى تفرُّقنا فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا

لم يفارق وعشاء الأسفار ، ولا ألقى من يده عصا التسيار ، يتهاداه الغور والنجد ،

ويتداوله الإرقال والوَخْدُ ، وقد لفحته الرَّمْضاء ، وسئمه الإنضاء ، فالجهات
تلفظه ، والآكام تبْهظه ، يحمل همومه الرواسم ، وتحياته البواسم :

لا يستقرُّ بأرضٍ حين يبلغها ولا له غير حدِّ العيسِ إيناسُ

ثم إذا استوفوا سؤالك عن حالي ، وتقلَّبي بين حلِّي وترحالي ، وبلغت القلوب
منهم الحناجر ، وملأت الدموع المحاجر ، وابتلت ذبولك بمائها ، لا بل تضرجت
بدمائها ، فحيَّتهم عني تحيةً منفصل ، ووداعَ مرتحل ، ثم اعطف عليك ركابك ،
ومَهَّد لهم جنابك ، وقل لهم إذا سألتني عن المنازل بعد سكانها ، والربوع بعد
ظعن أظعانها ، بماذا أجيبه ؟ وبماذا يسكن وجيبه ، فسيقولون لك هي البلاقع
المقفرات ، والمعارف التي أصبحت نكرات :

صَمَّ صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطق السائلِ

قلْ لهم : كيف الروض وآسُه ؟ وعمَّ تتأرج أنفاسُه ؟ عهدي به والحمام يردد به
أسجاعه ، والذباب يغني به هزجاً فيحك بذراعه ذراعه ، وغصونه تعتق ، وأحشاء
جداوله تصطَفق ، وأسحارُه تنسم ، وأصاله تتوسم ، كما كانت بقية نضرته ،
وكما عهدتها أنيقة خضرته ، وكيف التفاته عن أزرق نهره ، وتأنقه في تكليل
إكليله بيانع زهره ، وهل رقَّ نسيمُ أصائله ، وصفت موارد جداوله ؟ وكيف
انفساح ساحاته ، والتفاف دوحاته ؟ وهل تمتدَّ كما كانت مع العشي فينانةُ
سرحاته ، وعهدي بها المديدة الظلال ، المزعفرة السربال ؟ وهل تحدَّق الآن به
عيون نرجسه ، ويمد بساط سندسه ؟ وأنتى منه مجالس لِداتي ، ومعاهد غدواتي
وروحاتي ، إذ أباري في المجون لمن أباري ، وأسابق إلى اللذات كلَّ من أباري ،
فسيقولون لك : ذوتُ أفنانه ، وانقصفت أغصانه ، وتكدَّرت غدرانه ، وتغير
رَوْحُه ورِيحانه ، وأقفرت معالمه ، وأخرست حمائمه ، واستحالت حلَّلُ
خمائله ، وتغيرت وجوه بُكره وأصائله ، فإن صلَّصلَ حنين رعد فعن قلبي

لفراقه خَفَقَ ، وإن تَلَأَّأَ برقٌ فَعَنَ حرَّ حشاي ائتلق ، وإن سَحَّتِ السحب
فمُسَاعِدَةٌ لِحَفْيي ، وإن طال بكَاؤُهَا فَعَنِي ، حَيَّاهَا اللهُ تعالى منازل ، لم تزل بمنظوم
الشمْل أَوَاهِل ، وحين انتثرت نثرت أزهارها أَسْفَاً ، ولم تثن الريح من أغصانها
مِعْطَفَاً ، أعاد الله تعالى الشمْل فيها إلى محكم نِظَامِهِ ، وجعل الدهر الذي فرقه
يَتَأَنَّقُ في إحكامه ، وهو سبحانه يجبر الصَّدْعَ ، ويعجل الجمع ، إنه بالإجابة
جدير ، وعلى ما يشاء قدير .

إيه بُنَيَّ كيف حال من استودعتهم أمانتك ، وألزمتهم صونك وصيانتك ،
وألبتهم نسبك ، ومهدت لهم حسبك ، الله في حفظهم فهو اللائق بفعالك ،
المناسب لشرف خلالك ، ارعَ لهم الاغتراب لديك ، والانقطاع إليك ، فهم
أمانة الله تعالى في يديك ، وهو سبحانه يحفظك بحفظهم ، ويوالي بلحظك أسباب
لحظهم ، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال ، فَنِعَمُ اللهُ تعالى ممتدة الظلال ، وخيراته
وارفةُ السربال ، لولا الشوق الملازم ، والوجدُ الذي سكن الحيازم .

٤٩ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي بكر محمد بن محمد بن عبد الله
ابن مقاتل المالقي^١ ما نصه : نابغة مالقية ، وخَلَفَ وبقية ، ومغربي الوطن أخلاقه
مَشْرِقية ، أزمع الرحيل إلى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المَفرق ، فلما
توسطت السفينة اللُّجَج ، وقارعت الثَّبَج ، هال عليها البحر فسقاها كأس
الحمام ، وأولدها قبل التمام ، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على
نوره سوادها ، من جملة الطلبة والأدباء ، وأبناء السراة الحسباء ، أصبح كلٌّ
منهم مطيعاً ، لداعي الردى وسميعاً ، وأحيوا فرادى وماتوا جميعاً ، فأجروا
الدموع حزناً ، وأرسلوا العبرات عليهم مُزْنًا ، وكأن البحر لما طَمَسَ سبيلَ
خلاصهم وسدَّها ، وأهال هضبة سفينتهم وهَدَّها ، غار على نفوسهم النفيسة
فاستردَّها ، والفقير أبو بكر مع إكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره ، لم أظفر من أدبه

١ ترجمته في الدرر ٤ : ٣١٣ (ط . القاهرة) .

إلا بالقليل التافه ، بعد وداعه وانصرافه ، فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عاثراً .

ومهفهف هافي المعاطفِ أحور
زَلْتُ له قدمٌ فأصبحَ عاثراً
لو كنتُ أعلمُ ما يكونُ فرشتُ في
فصحتُ أشعةُ نوره الأقمارا
بينَ الأنامِ لَعاً لَذاك عِثارا
ذاك المكانِ الحدَّ والأشفارا

وقال :

أيا لبني الرفاء تنضي ظباؤهم
لقد قطعَ الأحشاءَ منهم مهفهفٌ
يسدد إذ يرمي قسيَّ حواجبٍ
وتسقمني عيناهُ وهي سقيمةٌ
ويذبُلُ جسمي في هواهُ صباةٌ
جفونَ طباهم فالفؤادُ كليمٌ
له التبرُ خدٌّ واللُّجينُ أديمٌ
وأُسهُمُها من مقلتيه تسومُ
ومن عجبٍ سقمٌ جناهُ سقيمٌ
وفي وصلهِ للعاشقين نعيمٌ

كان غرقه في أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى .

٥٠ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد الشَّديد

المالقي ما نصه : شاعرٌ مُجيدٌ حَوَّكُ الكلام ، ولا يقصر فيه عن درجة الأعلام ،
رحل إلى الحجاز لأول أمره فطال بالبلاد المشرقية ثَوَاؤه ، وعُمِيَّتْ أنباؤه ،
وعلى هذا العهد وقفتُ له على قصيدة بنحطه غرضُها نبيلٌ ، ومرعاها غير وَبِيلٌ ،
تدل على نَفْسٍ ونَفَسٍ ، وإضاءة قَبَسٍ ، وهي :

لنا في كلِّ مكرمةٍ مَقَامٌ ومن فوقِ النجومِ لنا مَقَامٌ

ومنها :

رَوينا من مياهِ المجدِ لما
فنحن همٌ ، وقلُّ لي من سوانا
لنا الأيدي الطَّوالُ بكلِّ صوبٍ
ونحنُ اللابسونَ لكلِّ درعٍ
وردناها وقد كَثُرَ الزحامُ
لنا التقديمُ قدماً والكلامُ
يُهَنِّزُ به لدى الروعِ الحسامُ
يصيبُ السُّمَرَ منهم انثلامُ

بأندلس لنا أيامُ حرب
ثوى منها قلوبَ الرومِ خوفاً
حمينا جانبَ الدينِ احتساباً
وتحتَ الرايةِ الحمراءً مناً
بنو نصر وما أدراك ما هم
لهم في حربهم فتكات عمرو
يقولُ عُداتهمُ مهما أَلَمُوا
إذا شرعوا الأُسنةَ يومَ حرب
كأنَّ رماحهم فيها نجومُ
أناسٌ تُخَلِّفُ الأيامُ ميتاً
رأينا من أبي الحجاج شخصاً
موقى العرضِ محمودُ السجايا
يجولُ بذهنه في كلِّ شيءٍ
قويمُ الرأي في نوبِ الليالي
له في كلِّ معضلةٍ مضاءٌ
رؤوفٌ قادرٌ يُغْضي ويغفو
تطوفُ بيتِ سُودده القوافي
وتسجدُ في مقامِ علاه شكراً
أفارسها إذا ما الحربُ أختُ
وممطرها إذا ما السَّحْبُ كَفَّتْ
لك الذكرُ الحميلُ بكلِّ قطرٍ
لقد جُبْنَا البلادَ فحيثُ سرنا
فضلتَ ملوكها شرقاً وغرباً
فأنتَ لكلِّ معلوَةٍ مدارُ

مواقفهن في الدنيا عظامُ
يخوفاً منه في المهدي الغلامُ
فها هو لا يهان ولا يضامُ
كتائبُ لا تطاق ولا ترامُ
أسودُ الحربِ والقومُ الكرامُ
فللأعمارِ عندهمُ انصرامُ
أتونا ما من الموتِ اعتصامُ
فحقَّقْ أنَّ ذاكَ هو الحِمَامُ
إذا ما أشبهَ الليلَ القتامُ
بحيٍّ منهمُ فلهمُ دوامُ
على تلك الصفاتِ له قيامُ
كريمُ الكفِّ مقدامُ همامُ
فيدركهُ وإنْ عَزَّ المَرَامُ
إذا ما الرأيُ فارقه القوامُ
مضاءُ الكفِّ ساعدها الحسامُ
وإنْ عَظُمَ اجتناءُ واجترامُ
كما قد طافَ بالبيتِ الأنامُ
ونعمَ الركنُ ذلكَ والمقامُ
على أبطالها ودنا الحِمَامُ
وكفُّ أخي الندى أبداً غمامُ
لك الشرفُ الأصيلُ المستدامُ
رأينا أنَّ ملكك لا يرامُ
وبتَ لملكها يقظاً وناموا
وأنتَ لكلِّ مكرمةٍ إمامُ

جَعَلْتَ بِلَادَ أُنْدَلُسَ إِذَا مَا ذُكِرْتَ تَغَارُ مِصْرُ وَالشَّامُ
مَكَانُ أَنْتَ فِيهِ مَكَانُ عَزٍّ وَأَوْطَانُ حَلَّتْ بِهَا كِرَامُ
وَهَبْتَكَ مِنْ بَنَاتِ الْفِكْرِ بَكَرًا لَهَا مِنْ حُسْنِ لَقِيَاكَ ابْتِسَامُ
فَنَزَّ طَرْفَ مَجْدِكَ فِي حِلَاهَا فَلِلْمَجْدِ الْأَصِيلِ بِهَا اهْتِمَامُ

٥١ - وقال في «الإكليل» في ترجمة الشريف محمد بن الحسن العمراني من أهل فاس^١ ما صورته : كريم الانتماء ، متظلل بأغصان الشجرة الشماء ، من رجل سليم الضمير ، ذي باطن أصفى من الماء النّـمير ، له في الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله ، ومضاء نصوله .

وذكر في «الإحاطة» أن الشريف المذكور توفي في حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة.

٥٢ - وقال في «الإكليل» في ترجمة محمد بن أحمد بن إبراهيم المرادي العشاب ، وهو قرطبي الأصل تونسي المولد والمنشأ ، ما صورته : جواد لا يتعاطى طلقه ، وصبح فضل لا يماثل فلقه ، كانت لأبيه رحمه الله تعالى من الدول الحفصية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة في العقد والحل ، ولم يزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل إلى الحجابة ، ونشأ ابنه هذا مقضي الديون ، مفدًى بالأنفس والعيون ، والدهر ذو ألوان ، ومارقُ حرب عوان ، والأيام كُرات تُتلقف وأحوال لا تتوقف ، فألوى بهم الدهر وأنحى ، وأغام جوهم بعقب ما أصحى ، فشملمهم الاعتقال ، وتعاورتهم النّوب الثقال ، واستقرت بالمشرق ركابه ، وحطّت به أقتابه ، فحجج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعمّر ، وعكف على كتاب الله تعالى فجوّد الحروف ، وقرأ المعروف ، وقيد وأسند ، وتكرر إلى دور الحديث وتردّد ، وقدم على هذا الوطن قدوم النسيم البليل ، على كبد العليل ، ولما استقر به قراره ، واشتمل على جفنه غراره ، بادرت إلى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته ، فاجتليت للسر شخصا ، وطالعت ديوان الوفاء مُستقصى ،

١ ترجمته في الدرر ٤ : ٤٦ (ط . القاهرة) .

وشعره ليس بحائد عن الإحسان ، ولا غفل عن النكت الحسان ؛ انتهى .

٥٣ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر بن علي ابن إبراهيم المليكشي^١ ما صورته : كاتب الخلافة ، ومُشعشع الأدب الذي يزري بالسلافة ، كان بطل مجال ، وربّ روية وارتجال ، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عطنه ، فتلوّم تلوّم النسيم بين الحمائل ، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ، ولبت مدة إقامته تحت جراية واسعة ، وميرة^٢ يانعة ، ثمّ أثر قطره ، فولّى وجهه شطره ، واستقبله دهره بالإنابة ، وقلده خُطّة الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحطّت رحاله ، وله شعر أنيق ، وتصوّف وتحقيق ، ورحلة إلى الحجاز سعيها في الخير وثيق ، ونسبها في الصالحات عريق ، ومن شعره قوله :

رضي نلت ما ترضين من كل ما يهوى	فلا توقفني موقف الذلّ والشكوى
وصفحاً عن الجاني المسيء لنفسه	كفاه الذي يلقاه من شدّة البلوى
بما بيننا من خلوة معنوية	أرقّ من النجوى وأحلى من السلوى
قفي أتشكى لوعة البين ساعة	ولا يكُ هذا آخر العهد بالنجوى
قفي ساعة في عرصة الدار وانظري	إلى عاشق ما يستفيق من البلوى
وكم قد سألت الريح شوقاً إليكم	فما حنّ مسراها عليّ ولا ألوى
فيا ريح حتى أنت ممّن يغارُ بي	ويا نجد حتى أنت تهوى الذي أهوى
خلقتُ ولي قلبٌ جليدٌ على النوى	ولكنّ على فقدٍ الأحبة لا يقوى

وحدث بعض من غني بأخباره ، أيام مقامه بمالقة واستقراره ، أنه لقي بباب الملعب من أبوابها ظبيةً من ظبيات الإنس ، وقينة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نصالها ، حتى همّت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن

١ ترجمته في نيل الابتهاج : ٢٣٧ ورحلة البلوي (الورقة : ٢٢) والدرر : ٤ : ٢٢٦ (ط . القاهرة) .

٢ ق : ومبرة .

الميّاد ، فأبقى على نفسه وأمسك ، وأنيفَ من خلع العِذار بعدما تنسك ، وقال :

لم أنسَ وقفنا ببابِ الملعبِ
وعدتُ فكنتُ مراقباً لحديثها
وتدلتُ فذلتُ بعد تغزّي
بدويةً أبدى الجمالُ بوجهها
تدنو وتبعدُ نفرةً وتجنياً
ورنتُ بلحظِ فاتنٍ لك فاترٍ
وأرتكَ بابلُ سحرها يجفونها
وتضاحكتُ فحكّتُ بنيرِ ثغرها
بمنظّمٍ في عقدِ سمطيّ جوهرٍ
وتمايلتُ كالغصنِ أخضله الندى
تشنيه أرواحُ الصبابةِ والصبّا
أبتِ الروادفُ أنْ تميلَ بميله
متوجاً بهلالٍ وجهٍ لاح في
يا من رأى فيها محباً مغرماً
ما زالَ مذوً ولّى يحاولُ حيلةً
فأجالَ نارَ الفكرِ حتى أوقدتُ
فتلاقتِ الأرواحُ قبلَ جسومها

وقال :

أرى لك يا قلبي بقلبي محبةً
فقابلهُ بالبشرى ، وأقبلُ عشيةً
ولا تعتذر بالقطرِ أو بللِ الندى
بعثتُ بها سرّي إليك رسولا
فقد هبَّ مسكياً النسيمُ عليلاً
فأحسنُ ما يأتي النسيمُ بليلاً

توفي عام أربعين وسبعمائة بتونس ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

٥٤ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر العبدري التونسي الشاطبي الأصل^١ ، ما نصه : غَدِيَّ نعمة هامية ، وقريع رتبة سامية ، صُرفت إلى سلفه الوجوه ، ولم يبق من إفريقية إلا مَنْ يخافه ويرجوه ، وبلغ هو مدة ذلك الشرف ، الغاية من الترف ، ثم قلب الدهر له ظهر المِجَنِّ ، واشتد به الحُمار عند فراغ الدَّيْن ، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مُبيرة ، وشدة كبيرة ، فامترج بسكانه وقُطّانه ، ونال من اللذات به ما لم ينله في أوطانه ، واكتسب الشمائل العذاب ، وكان كابن الجَهْم بُعث إلى الرصافة ليرقّ فذاب ، ثم حوّم على وطنه تحويم الطائر ، وألمّ بهذه البلاد إلام الحيال الزائر ، فاغتنمت صفقة وده لحين وروده ، وخطبت موالاته على انقباضه وشروده ، فحصلت منه على درة تُقشّتي ، وحديقة طيبة الجتنى ، أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا بیره :

للكلّ أناسٍ مذهبٌ وسجيةٌ	ومذهبٌ أولادِ النظامِ المكارمُ
إذا كنتَ فيهم ثاوياً كنتَ سيداً	وإن غبتَ عنهم لم تنلِكَ المظالمُ
أولئك صحبي لا عدمت حياتهم ،	ولا عدموا السعدَ الذي هو دائمُ
أُغني بذكراهم وطيبِ حديثهم	كما غرّدت فوق الغصون الحمائمُ

وقال :

أحببتنا بمصرٍ لو رأيتُم بكائي عند أطرافِ النهارِ
أكنتم تشفقون لفرطِ وجدي وما ألقاهُ من بُعدِ الديارِ

٥٥ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي القاسم محمد بن أبي زكريا يحيى ابن أبي طالب عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي السبتي^٢ ، ما صورته : فرع تأود من الرياسة في دَوْحة ، وتردد بين غدوة في المجد ورَوْحة ، نشأ والرياسة العزفية

١ ترجمته في الدرر ٤ : ١٩٨ (ط . القاهرة) .

٢ الدرر : ٥٢ .

تعله وتنهله ، والدهر يسر أمله الأقصى ويُسَهله ، حتى اتسقت أسبابُ سَعده ،
وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده ، فألقت إليه رحالها وحطَّتْ ، ومتعته بقربها بعدما
شطَّتْ ، ثمَّ كلح له الدهر بعدما تبسم ، وعاد زَعَزَعاً نسيمةً الذي كان يتنسم ،
وعاق هلاله عن تيمِّه ، ما كان من تغلب ابن عمِّه ، واستقر بهذه البلاد نازح الدار ،
بحكم الأقدار ، وإن كان نبيه المكانة والمقدار ، وجرت عليه جراية واسعة ،
ورعاية متتابعة ، وله أدب كالروض باكرتهُ الغمام ، والزهر تفتحت عنه
الكمام ، رفع منه راية خافقة ، وأقام له سوقاً نافقة ، وعلى تدفق أنهاره ،
وكثرة نظمه واشتهاره ، فلم أظفر منه إلا باليسير التافه ، بعد انصرافه ؛ انتهى .

٥٦ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن [عبد الرحمن]
المكودي الفاسي ما نصه : شاعر لا يُتقاصى ميدانه ، ومرعى بيان رف غضاهُ وأينع
سعدانه ، يدعو الكلام فيهِطيع لداعيه ، ويسعى في اجتلاب المعاني فتنجح مساعيه ،
غير أنه أفرط في الانهماك ، وهوى إلى السمكة من أوج السَّمَاك ، قدم على هذه البلاد
مفلتاً من رهق تلمسان حين الحصار ، صفر اليمين واليسار من اليسار ، فلَّ
هَوَى أنحى على طريفه وتلاده ، وأخرجه من بلاده ، ولما جدَّ به البين ، وحلَّ هذه
البلدة بحال تقتحمها العين ، والسيف بهزته لا بحسن بزته ، دعونه إلى مجلس أعاره
البدر هالته ، وخلع عليه الأصيلُ غلالته ، وروض تفتَّح كمامه ، وهمى عليه غمامه ،
وكأس أنس تدور ، فتلقى نجومها البدور ، فلما ذهبت المؤانسة بخجله ، وتذكر
هواه ويوم نواه حتى خفنا حلول أجله ، جذبنا للمؤانسة زمامه ، واستسقيناه منه
غمامه ، فأمتع وأحسب ، ونظر ونسب ، وتكلم في المسائل ، وحاضر بطرْف
الآبيات وعيون الرسائل ، حتى نشر الصباح رايته ، وأطلع النهار آيته ، فمما
نسبه إلى نفسه وأنشدناه قوله :

غرامي فيكَ جلَّ عن القياسِ وقد سقيتنيه بكلِّ كأسِ
ولا أنسى هواكَ ولو جفاني عليكَ أقاربي طرّاً وناسي

ولا أدري لنفسي من كمالٍ سوى أنني لعهدك غيرُ ناسي

وقال :

بَعَثْتُ بِخَمْرٍ فِيهِ مَاءٌ وَإِنَّمَا بَعَثَ بِمَاءٍ فِيهِ رَائِحَةُ الْخَمْرِ
فَقَلَّ عَلَيْهِ الشُّكْرُ إِذْ قَلَّ سَكْرُنَا فَنَحْنُ بِلَا سَكْرِ ، وَأَنْتَ بِلَا شَكْرِ

٥٧ — وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي عبد الله محمد بن

محمد بن محمد بن بيش العبدري الغرناطي^١ ما صورته : معلم مدرّب ، مسهل
مقرب ، له في صنعة العربية باعٌ مديد ، وفي هدفها سهم سديد ، ومشاركة في
الأدب لا يفارقها تسديد ، خاصي المنازع مختصرها ، مرتب الأحوال مقررها ،
تميز أول وقته بالتجارة في الكتب فسُلِّطَتْ منه عليها أرضة آكلة ، وسهم أصاب
من رميتها الشاكلة ، أثرى بسببها وأثرّب ، وأغنى جهة وأفقر أخرى ، وانتقل
لهذا العهد الأخير إلى سكنى مسقط رأسه ، ومنبت غرسه ، وجرت عليه جراية
من أحباسها ، ووقع عليه قبول من ناسها ، وبها تلاحق به الحمام ، فكان من
ترابها البداية وإليها التمام ، وله شعر لم يقصر فيه عن المدى ، وأدب توشح
بالإجادة وارتدى ، أنشدني بسبته تاسع جمادى الأولى عام اثنين وخمسين وسبعمائة
يجيب عن بيتي ابن العفيف التلمساني :

يا ساكناً قلبي المعنى وليسَ فيه سواك ثاني
لأي معنى كسرت قلبي وما التقى فيه ساكنان

فقال :

نَحَلْتُني طائِعاً فؤاداً فصار إذ حُرَّتْهُ مكاني
لا غرو إذ كان لي مضافاً أني على الكسرِ فيه باني

وقال يخاطب الشريف أبا العباس وأهدى أقلاماً :

١ انظر أيضاً ترجمته في الكتيبة : ٩٠ وبنية الوعاة : ١٠٠ والدرر ٤ : ٣٥٨ (ط . القاهرة) وراجع
ما تقدم في النفع ٥ : ٣٨٤ .

أنا ملك الغرُّ التي سيبُ جودها
أنتي منها تحفةٌ مثلُ حدِّها
هي الصفرُ لكن تعلمُ البيضُ أنها
مهذَّبةُ الأوصالِ ممشوقةٌ كما
فقبلتها عشراً ومثلتُ أنتي
يفيض كفيض المزنِ بالصيبِ القطرِ
إذا انتضيتُ كانت كرهفة السُّمرِ
محكمةٌ فيها على النفعِ والضررِ
تصوغ سهام الرمي من خالص التبرِ
ظفرتُ بلثمٍ في أناملك العشرِ

وقال في ترتيب حروف الصحاح :

أساجعةً بالواديين تبوئي
دعي ذكرَ روض زاره سقي شربه
غرامُ فؤادي قاذفٌ كلَّ ليلةٍ
ثمراً جنتها حالياتٌ خواضبُ
صباح ضحى طيرٌ ظمأٌ عواصبُ
متى ما نأى وهنا هواهُ يراقبُ

مولده في حدود ثمانين وستمائة ، وتوفي بغرناطة في رجب عام ثلاثة وخمسين
وسبعمائة ؛ انتهى .

قلت : رأيت بخط الجلال السيوطي على هامش جوابه عن بيتي ابن العفيف
التلمساني ما صورته : قلت : في هذا البيت تصريح بأن المضاف إلى الياء مبني على
الكسر ، وهو رأي مرجوح عند النحاة ، ذهب إليه الجرجاني ، والصحيح أنه
معرب ، على أن ذاك لا يحتاج إلى جواب كما يظهر بالتأمل ، قاله عبد الرحمن
السيوطي ؛ انتهى . ويعني بذلك أن الساكنين إنما يكسر أحدهما ، لا محلهما ،
والله سبحانه أعلم .

٥٨ - وقال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن
هانيء اللخمي السبتي ، وأصله من إشبيلية ، ما صورته : علم تشير إليه الأكف ،
ويُعْمَلُ^٢ إلى لقائه الحافر والخف ، رفع للعريية ببلده راية لا تتأخر ، ومرج

١ الكتيبة : أو خالص .

٢ الإحاطة : وينتقل .

منها بلحة تزخر ، فانفسح مجالُ درسه ، وأثمرت أنواع غرسه ، فركض ما شاء ومرح ، ودوّن وشرّح ، إلى شمائل يملك الظرف زمامها ، ودعابة راشت الحلاوة سهامها ، ولما أخذ المسلمون في مُنازلة الجبل وحصاره ، وأصابوا الكفر منه بجارحة إبطاره ، ورموا بالثُّكل فيه نازح أمصاره ، كان ممّن انتدب وتطوّع ، وسمع النداء فأهطع ، فلازمه إلى أن نفذ لأهله القوات ، وبلغ من فسحة الأجل الموقوت ، فأقام الصلاة بمحرابه ، وحيّاه وقد غير محياه طول اغترابه ، وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الإسلام في قِرابه ، أو يعلق أصل الدين في ترابه ، وانتدب إلى الحصار ربه وتدرّع ، ودعاه أجله فلبّى وأسرع ، ولما هدر عليه الفنيق ، وركع إلى قبلة المنجنيق ، أصيب بحجر دوّم عليه كالجراح المخلّق ، وانقضّ إليه انقضاض البارق المتألق ، فاقتنصه واختطفه ، وعمد إلى زهره فاقتطفه ، فمضى إلى الله تعالى طوع نيّته ، وصحبته غرابة المنازع حتى في أمنيته ؛ انتهى .

وقد جوّد ترجمته في « الإحاطة »^١ وقال : إنّه ألف كتباً منها شرح « تسهيل الفوائد » لابن مالك ، مبدع تنافس الناس فيه ، وكتاب « الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة » ، وكتاب « إنشاد الضوال وإرشاد السوّال » في لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب « قوت المقيم »^٢ ودوّن ترسيل أبي المطرّف ابن عميرة وضمه في سفرين ، وله جزء في الفرائض ، وحدثني شيخنا الشريف القاضي أبو القاسم قال : خاطبت ابن هانيء بقصيدة من نظمي أولها :

هاتِ الحديثَ عن الركبِ الذي شَخَصَا

فأجاني بقصيدة على رويها ، أولها :

لولا مشيبٌ بفودي للفؤادِ عصي أنضيتُ في مهمه التشيبِ لي قُلُصا

١ ترجمته في الورقة : ٦٠ وقد نقل فيها ما قاله في الإكليل .

٢ وكتاب . . . المقيم : سقط هذا من الإحاطة .

واستوقفت عبراتي وهي جارية
مسائلاً عن لياليه التي انتهزت
وكنتُ جاريتُ فيه من جرى طلقاً
أصابَ شاكلةَ المرميِّ حين رمى
ومن أعدَّ مكانَ النبلِ نبلَ حجِّي
ثم انشئ ثانياً عطفَ النسبِ إلى
فظلتُ أرفلُ فيها لبسةً شرفتُ
يقولُ فيها وقد خولتُ منحتها
هذي عقائلُ وافتُ منك ذا شرفٍ
فقلتُ هلاًّ عكستَ القولَ منك له
وقلتُ ذي بكرٍ فكرٍ من أخي شرفٍ
لها حلَّى حُسناتٍ على حلٍ
خولتها وقد اعتزّتْ ملابسها
خذها أبا قاسمٍ مني نتيجةً ذي
جاءتُ تجاوبُ عما قد بعثتُ به
وهي طويلة .

ومما ينسب إليه :

ما للنوى مدّتْ لغير ضرورة
إنَّ الخليلَ وإن دعتْ ضرورة
وقال مضمناً للثاني :

لا تلمني عاذلي^١ حين ترى

وكفاء توهمُ ربعاً للحبيبِ قصا
أيدي الأمانِي بها ما شئتَ فُرصا
من الإجادةِ لم يجمع ولا نكصا
من الشواردِ ما لولاهُ ما اقتنصا
لم يرضَ إلاّ بأبكارِ النّهي قنصا
مدحٍ به قد غلا ما كان قد رخصا
ذاتاً ومنتسباً أعزّزُ بها قُمصا
وجرّع الكاشح المغرى بها غُصصا
لولا أياديه بيعَ الحمدُ مرتخصا
ولم يكن قابلاً في مدحه الرُّخصا
يردي ويرضي بها الحساد والخلصا
حُسنيةً تستبي من حلٍّ أو شخصاً
بالبختِ ينقادُ للإنسان ما عوصا
ودّ إذا شئتَ ودّاً للورى خلصا
إن كنتَ تأخذ من درّ النحورِ حصي

ولقبل ما عهدي بها مقصورة
لم يرض ذاك فكيف دون ضرورة

وجه من أهوى فلومي مستحيل

١ الإحاطة : خلني يا عاذلي .

لو رأى وجهَ حبيبي عاذلي لتفارقنا على وجهٍ جميلٍ

وأجاب الشريف المذكور عن قصيدة مهموزة بقوله :

يا أوحـد الأـدبـاء أو يا أوحد الـ	فضلاء أو يا أوحد الشرفاء
من ذا تراه أحقّ منك إذا التوت	طرق الحـجـاج بأن يجيب ندائي
أدبٌ أرقّ من الهواء وإن تشا	فمنّ الهواء والماء والصهباء
وألذّ من ظلّم الحبيب وظلمه	بالظاء مفتوحاً وضمّ الظاء
ما السحر إلا ما تصوغُ بنانه	ولسانه من حلية الإنشاء

وهي طويلة يقول فيها بعد جملة أبيات :

لله نفثةٌ سحرٍ ما قد شدّت لي	من نفثٍ سحرك في مشادٍ ثناء
عارضت صفواناً بها فأريت ^١ ما	يستعظمُ الراوي لها والرائي
لو راء لؤلؤك المنظم لم يفز	من نظم لؤلؤه بغير عناء
بوأتني منها أجلّ مبراً	فلأخمصني مستوطىء الجوزاء
وسما بها اسمي سائراً فأنا بما	أسديت ذو الأسماء في الأسماء
وأشدت ذكرى في البلاد فلي بها	طولُ الثناء وإن أطلت ثوائي
ولقومي الفخرُ المشيدُ بنيتُهُ	يا حُسْن تشيدٍ وحُسْن بناء
فليهن هانيهم ^٢ يدٌ بيضاء ما	إن مثلها لك من يدٍ بيضاء
حليت أبياتاً له لخميّة	تُجلى على مضرية غراء
فليشمخوا أنفاً بما أوليتهم	يا محرز الآلاء بالإيلاء

ووصلها بنثر نصه : « هذا بُنيَّ - وصل الله سبحانه لك ولي بك علو المقدار ،

١ ق : فارتك .

٢ : فلتنهها بهم .

وأجرى وفق إرادتك وإرادتي لك جاريات الأقدار — ما سنح به الذهن الكليل ،
واللسان القليل ، في مراجعة قصيدتك الغراء ، الجالبة السراء ، الآخذة بمجامع
القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيّج والأسلوب ، المتحلية بالحلى
السنية ، العريقة المنتسب في العلا الحسنية ، الجالية لصدى القلوب ران عليها الكسل ،
وخانها المسعدان السؤل والأمل ، فمتى حامت المعاني حولها ، ولو أقامت حولها ،
شكت ويلها وعوّلها ، وحرمت من فريضة الفضيلة عوّلها ، وعهدي بها والزمان
زمان ، وأحكامها الماضية أمانى مقضية وأمان ، تتوارد ألافها ، ويجمع إجماعها
وخلافها ، ويساعدها من الألفاظ كل سهل ممتنع ، مفترق مجتمع ، مستأنس
غريب ، بعيد الغور قريب ، فاضح الحلى ، واضح العلا ، وضاح الغرة والجبين ،
رافع عمود الصبح المين ، أيد من الفصاحة بأيادٍ ، فلم يحفل بصاحبي طيىء
وإياد ، وكسي^١ نصاعة البلاغة ، فلم يعبأ بهتّام وابن المراغة ، شفاء المحزون ،
وعلم سر المخزون ، ما بين منشوره والموزون ، والآن لا ملهج ولا مبهج ، ولا
مرشد ولا منهج ، عكست القضايا فلم تُنتج ، فتبلّد القلب الذكي ، ولم يرشح
القلم الزكي ، وعم الإفحام وغم الإحجام ، وتمكن الإكداء والإجبال ، وكورت
الشمس وسيرت الجبال ، وعلت سامة ، وغلبت ندامة ، وارتفعت ملامة ،
وقامت لنوعي الأدب قيامة ، حتى إذا ورد ذلك المهرّق ، وفرّع غصنه المورق ،
وتغنى به الحمام الأورق ، وأحاط بعداد عداته الغصص والشرّق ، وأمن من ذلك
الغصب والسرّق ، وأقبل الأمن وذهب لإقباله الفرّق ، نفخ في صور أهل المنظوم
والمنثور ، وبُعْث ما في القبور وحُصّل ما في الصدور ، وتراءت للأدب صور ،
وعمرت للبلاغة كور ، وهَمّت للبراعة درر ، ونظمت البراعة درر ، وعندها تبين
أنك واحد حلبة البيان ، والسابق في ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القَدَم ، وأقر
لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوحق نصاعة ألفاظ أجدها حين أوردتها ، وأسلتها

حين أرسلتها ، وأزنتها حين وزنتها ، وبراعة معان سلكتها حين ملكتها ، وأرويتها حين رويتها أو رويتها^١ ، وأصلتها حين فصلتها أو وصلتها ، ونظام جعلته يجسد البيان قلباً ، ولمعصمه قلباً ، وهصرت حدائقه غلباً ، وارتكبت رويته صعباً^٢ ، ونثار أتبعته له خديماً ، وصيرته لمدير كأسه نديماً ، ولحفظة ذمامه المدامي أو مدامه الذمامي مديماً ، لقد فتنني حين أتني ، وسببتني حين اطبتني ، فذهبت خفتها بوقاري ، ولم يرعها بعد شيب عذاري ، بل دعت للتصابي فقلت مرحبا ، وحللت لفتنتها الحبا ، ولم أحفل بشيب ، وألفت ما ردّ تصابي نصيب^٣ ، وإن كنا فرسي رهان ، وسابقي حلبة ميدان ، غير أن الجلدة بيضاء ، والمرجو الإغضاء بل الإرضاء . بُني كيف رأيت للبيان هذا الطوع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ؟ أين صفوان بن إدريس ، ومحل دعواه بين رحلة وتعريس ؟ كم بين ثغاء بقر الفلاة وبين الليث ذي الفريس ؟ كما أني أعلم قطعاً وأقطع علماً ، وأحكم مضاء وأمضي حكماً ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارضة بها قصيدته ، المنتسخة بها فريدته ، لذهب عرضاً وطولا ، ثم اعتقد لك اليد الطولى ، وأقر فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك العلاقات والأطماع ، ونسي كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربه من تلك الآلية . بُني وهذا من ذلك الجري في تلك المسالك ، والتبسط في تلك المآخذ والمثارك ، أينزع غيري هذا المتزع ؟ أم المرء بنفسه وابنه مولع ؟ حيا الله الأدب وبنيه ، وأعاد علينا من أيامه وسنيه ، ما أعلى منازعه ، وأكبي منازعه ، وأجل مأخذه ، وأجهل تاركه وأعلم آخذه ، وأرق طباعه ، وأحق أشياعه وأتباعه ، وأبعد طريقه ، وأسعد فريقه ، وأقوم نهجه ، وأوثق نسجه ، وأسمح ألفاظه ، وأفصح عكاظه ، وأصدق معانيه وألفاظه ، وأحمد نظامه ونثاره ،

١ حين . . . رويتها : سقطت من ق .

٢ أشار إلى صعوبة القافية ، وإن كانت همزية ، وهي غير صعبة .

٣ يشير إلى قول نصيب (الأغاني ١٦ : ١٠٩) :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسني النثر الصغار

وأغنى شعاره ودثاره ، فعائبه مطرود ، وعائبه مصفود ، وجاهله محصود ، وعالمه محسود ، غير أن الإحسان فيه قليل ، ولطريق الإصابة فيه علم ودليل ، مَنْ ظفر بهما وصل ، وعلى الغاية القصوى منه حصل ، ومن نكب عن الطريق ، لم يُعَدَّ من ذلك الفريق ، فليهنك أيها الابن الذكي ، البرُّ الزكي ، الحبيب الحفي ، الصفيّ الوفي ، أنك حاملُ رايته ، وواصل غايته ، ليس أولوه وآخره لذلك بمنكرين ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، ولولا أن يطول الكتاب ، وينحرف الشعراء والكتاب ، لفاضت ينابيع هذا الفضل فيضاً ، وخرجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضاً ، قرَّت عيونُ أودائك ، وملئت غيظاً صدور أعدائك ، ورقيت درج الآمال ، ووقيت عين الكمال ، وحفظ منصبك العالي ، بفضل ربك الكبير المتعالي ، والسلام الأتم الأنم الأكمل الأعم ، ينحك به من طال في مدحه إرقالك وإغذاذك ، وراد روض حمدك وابلك وطلُّك ورذاذك ، وغدت مصالح سعيه في سعي مصالحك ، وسينفعك بحول الله وقوته وفضله ومنته معاذك ، ووسمت نفسك بتلميذه فسمت نفسه بأنه أستاذك ، ابن هانيء ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكانت وفاته شهادة في أواخر ذي القعدة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، ورثاه شيخنا أبو القاسم الحسني بقصيدة أثبتت في اسمه منها :

سقى الله بالخضراء أشلاء سوددِ تضمّنهنَّ التربُّ صوبَ الغمام

ورثاه شيخنا أبو بكر ابن شبرين فقال :

قد كان ما قال البريدُ فاصبرُ فحزنك لا يفيدُ
أودى ابن هانيء الرضى فاعتادني للثكل عيدُ
بحر العلوم وصدرها وعميدها إذ لا عميدُ

قد كان زيناً للوجو العِلْمُ والتَّحْقِيقُ والتَّ
 تَنَدَى خَلَاتِقَهُ فَقُلْ مُغْضٍ عَنِ الْإِخْوَانِ لَا
 أَوْدَى شَهِيداً بِأَذْلًا لَمْ أَنْسَهُ حِينَ الْمَعَا
 وَلَهُ صَبُوبٌ فِي طَلَا لِلَّهِ وَقْتُ كَانَ يَنْ
 أَيَّامَ نَغْدُو أَوْ نَرُو وَإِذَا الْمَشِيخَةُ جُثِمَ
 وَمَرَادِنَا جَمُّ النَّبَا لَهْفِي عَلَى الْإِخْوَانِ وَالْ
 لَوْ جِئْتُ أَوْطَانِي لِأَنْزُ وَلِرَاعِ نَفْسِي شَيْبُ مَنْ
 وَلَطُفْتُ مَا بَيْنَ اللَّحْوِ سِرْعَانِ مَا عَاثَ الْحِمَا
 كَمْ رُمْتُ إِعْمَالَ الْمَسِيهِ وَالْآنَ أَخْلَفْتُ الْوَعُو
 مَا لِلْفَتَى مَا يَبْتَغِي أَعْلَى الْقَدِيمِ الْمَلِكِ يَا
 يَا بَيْنُ قَدْ طَالَ الْمَدَى دَفِيهِ قَدْ فُجِيعَ الْوُجُودُ
 وَفِيْقُ الْحَسْبُ التَّلِيدُ فِيهَا هِيَ الرُّوضُ الْمَجُودُ
 جَهْمُ اللَّقَاءِ وَلَا كَنُودُ مَجْهُودُهُ ، نِعَمَ الشَّهِيدُ
 رَفُ بِاسْمِهِ فِينَا تُشِيدُ بَ الْعِلْمِ يَتْلُوهُ صَعُودُ
 ظَمْنَا كَمَا نُظِمَ الْفَرِيدُ حُ وَسَعَيْنَا السَّعْيُ الْحَمِيدُ
 هَضْبَاتُ حِلْمٍ لَا تَمِيدُ تِ وَعِيشُنَا خَضِرٌ بَرُودُ
 أَتْرَابٍ كُلْهُمْ فَقِيدُ كَرْنِي التَّهَائِمِ وَالنَّجُودُ
 غَادِرَتُهُ وَهُوَ الْوَلِيدُ دِ وَقَدْ تَكَاثَرَتِ الْأَحُودُ
 مٌ وَنَحْنُ أَيْقَاطُ هَجُودُ رِ فَقِيدَتُ عَزْمِي قِيُودُ
 دُ ، وَأَخْلَقْتُ تِلْكَ الْبُرُودُ فَاللَّهُ بِفَعْلٍ مَا يَرِيدُ
 وَيَلَاهُ يَعْتَرِضُ الْعَبِيدُ ؟ أَبْرَقُ وَأَرْعَدُ يَا يَزِيدُ^١

١ أخذه من قول الكميث :

أرعد وأبرق يا يزيد د فما وعيدك لي بضائر

ولكلّ شيء غايةً ولربما لان الحديدُ
إليه أبا عبدٍ إلا هـ ودونا مرمى بعيدُ
أينَ الرسائلُ منكَ تأ تينا كما نُسِقَ العقودُ
أينَ الرسومُ الصالحا ت ؟ تصرمت أين العهودُ
أنعمُ مساء لا تخطي لك البشائرُ والسعودُ
وأقدمُ على دارِ الرضى حيثُ الإقامةُ والخلودُ
والقَ الأحبّةَ حيثُ دا رُ الملكِ والقصرُ المشيدُ
حتى الشهادةُ لم تفتُ لك فنجمك النجم السعيدُ
لا تبعدنْ وعداً لو أنّ البدء في الدنيا يعودُ
فلئن بليتَ فإنّ ذك رك في الدُّنا غَضٌّ جديدُ
تالله لا تنساكَ أذ لديةُ العلا ما اخضرَّ عودُ
وإذا تسومحَ في الحقو قِ فحقُّك الحقُّ الأكيدُ
جادتْ صدّاك غمامةً يرمي بها ذاك الصعيدُ
وتعهدتْكَ مِنْ المهيةِ من رحمة أبداً وجودُ

وقوله أول هذه الرسالة « عارضت صفوان بها ، إلى آخره » يعني بذلك همزية صفوان بن إدريس المشهورة بين أدباء المغرب ، ولنذكرها إفادة للغرض ، وهي :

جادَ الرُّبى من بانةِ الجرعاء نوءان من دمعي وغيم سماء
فالدَّمعُ يقضي عندها حقَّ الهوى والغيمُ حقَّ البانةِ الغناء
خلتِ الصدورُ من القلوبِ كما خلتْ تلكَ المقاصرُ من مها وظباء
ولقد أقولُ لصاحبي وإنما ذخِرَ الصديقُ لا كد الأشياء
يا صاحبي ولا أقلَّ إذا أنا ناديتُ من أن تُصغيا لندائي

عوجا نجاري الغيث في سقي الحمى
ونسُن في سقي المنازل سنة
يا منزلاً نشطت إليه عبرتي
ما كنت قبل مزار ربك عالماً
يا ليت شعري ، والزمان تنقل
هل نلتقي في روضة موشية
ونسال فيها من تألفنا ولو
في حيث أتعت الغصون سوالفاً
وبدت ثغور الياسمين فقبلت
والورد في شطّ الخليج كأنه
وكان غصن الزهر في خضر الربى
وكأنما جاء النسيم مبشراً
فكساه خلة طيبه ورمى له
وكأنما احتقر الصنيع فبادرت
والغصن يرقص في حلى أوراقه
وافتر ثغر الأقحوان بما رأى
أفديه من أنس تصرّم فانقضى
لم يبق منه غير ذكرى أو منى
أو رقعة من صاحب هي تحفة
كبطاقة الوشقي إذ حيا بها
ما كنت أدري قبل فض ختامها
حتى ثبتت معاطفي طرباً بها
فجعلت ذاك الطرس كأس مدامة
وعجبت من خل يعاطي خلّه

حتى يرى كيف انسكاب الماء
نمضي بها حكماً على الظرفاء
حتى تبسم زهره لبكائي
أن المدامع أصدق الأنواء
والدهر ناسخ شدة برحاء
خفاقة الأغصان والأفياء
ما فيه سخنة عين الرقباء
قد قلدت بلالء الأنداء
عني عذار الآسة الميساء
رمد ألم بمقلّة زرقاء
زهر النجوم تلوح بالخضراء
للروض يخبره بطول بقاء
بдраهم الأزهار رمي سخاء
للعذر عنه نغمة الورقاء
كالخود في موشية خضراء
طرباً وقهقه منه جري الماء
فكأنه قد كان في الإغفاء
وكلاهما سبب لطول عناء
إن الرقاع لتحفة النبهاء
إن الكتاب تحية الخلطاء
أن البطائق أكوس الصهباء
وجررت أذيالي من الخيلاء
وجعلت مهديه من الندماء
كأساً وراء البحر والبيداء

ورأيتُ رونقَ خطِّها في حُسْنِها
فوحقَّتْها من تسعِ آياتٍ لقد
فكأنِّي موسى بها ، وكأنَّها
لو جاء فكرُ ابنِ الحسينِ بمثلها
سوداءُ إذْ أبصرتها لكنها
ولقد رأيتُ وقد تأوَّبني الكرى
أنَّ السَّماءَ أتى إليَّ رسولُها
بالفرقدينِ وبالثريا أدرجا
فكفى بذاك الطَّرسِ من كافورةٍ
قسماً بها وبنظمها وبنثرها
وعلمتُ أنك أنتَ في إبداعها
لا ما تعاظتُ بابلٌ من سحرها
ولقد رميتُ لها القيادة وإنها
وطلبتُ من فكري الجوابَ فعقني
فلذا تركتُ عروضها ورويتها
ويَعَثَّتْها ألفيةٌ همزيةٌ
علمتُ بقدركِ في المعارفِ فانبرتُ

كالوشي نَمَّقَ معصمُ الحسناءِ
جاءت بتأييدي على أعدائي
تفسيرُ ما في سورةِ الإسراءِ
صحتُ نبوتُهُ لدى الشعراءِ
كم تحتها لك من يدٍ بيضاءِ
في حيثُ شابتُ لمةُ الظلِّماءِ
بهديَّةٍ ضاءتُ بها أرجائي
في الطيِّ من كافورةٍ بيضاءِ
وبنظمِ شعركَ من نجومِ سماءِ
لقد انتحتني ملءَ عينِ رجائي
لفظاً وخطاً معجزُ النبلاءِ
لا ما ادعاهُ الوشيُّ من صنعاءِ
لقضيةٍ أعيَّتْ على البلغاءِ
وكبا بكفِّ الذَّهنِ زَنَدُ ذكائي
وهجرتُ فيها سُنَّةَ الأدباءِ
خدعاً لفكرٍ جامعٍ إيبائي
من خجلةٍ تمشي على استحياءِ

انتهت القصيدة ، ومن خط ناظمها صفوان نقلتها .

رجع :

٥٩ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي في « التاج » ما صورته : طويل القوادم والخوافي ، كَلِّفَ على كبر سنه بعقائل القوافي ، شاب في الأدب وشبَّ ، ونشق ريح البيان لما هبَّ ، فحاول رقيقه وجزله ، وأجاد جدّه وأحكم هزله ، فإن مدح ،

صدح ، وإن وصف ، أنصف ، وإن عصف ، قصف ، وإن أنشأ ودون ، وتقلب
 في أفانين البلاغة وتلون ، أفسد ما شاء الله وكون ، فهو شيخ الطريقة الأدبية
 وفتاها ، وخطيب حفلها كلما أتاها ، لا يتوقف عليه من أغراضها غرض ، ولا
 يضع لدية منها مفترض ، ولم تزل بروقه تتألق ، ومعانيه بأذيال الإحسان تتعلق ،
 حتى برز في أبطال الكلام وفرسانه ، وذُمرت القلوب بسطوة لسانه ، وألقت
 إليه الصناعة زمامها ، ووقفت عليه أحكامها ، وعبر البحر منتجعاً بشعره ،
 ومنفقاً في سوق الكساد من سعره ، فأبرق وأرعد ، وحذر وأوعد ، وبلغ جهد
 إمكانه ، في التعريف بمكانه ، فما حرك ولا هز ، وذل في طلب الرغد وقد عز ،
 وما برح أن يرجع إلى وطنه الذي اعتاده ، رجوع الحديث إلى قتاده ، وقد أثبت
 من نزعاته ، وبعض مخترعاته ، ما يدل على سعة باعه ، ونهضة ذراعه ، فمن
 النسيب قوله :

ما للمحب دواء يذهب الألما	عنه سوى لم فيه ارتشاف لمي
ولا يرد عليه نوم مقلته	إلا الدنو إلى من شفه سقما
يا حاكماً والهوى فينا يؤيده	هواك في بما ترضاه قد حكما

ثم سردها . وقال في المديح :

إليك جدّ بي التسيار تأميلا	فلي على فضلك المأمول تعويلا
الحمد لله حمداً لا كفاء له	بسعد أيامك المأمول قد نيلا
يا راغباً مرتجاً دفع معضلة	فصبره بصروف الدهر قد عيلا
ألم بحضرة ملك كل مفتخر	بالمملك يوليه بالتعظيم ترسيلا
فرع من الدوحة النصرية اجتمعت	فيه الفضائل تميماً وتكميلا
لديه ممّا لدى الصديق تسمية	وميسم وكفاه ذاك تفضيلا

وهي طويلة ؛ انتهى .

٦٠ - وقال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة أبي الحسن علي بن إبراهيم ابن علي بن خطاب السكاك من أهل غرناطة ، ما صورته : متسور على بيوت القريض ، في الطويل من الكلام والعريض ، ممن أطاعته براعة الخط ، وسلمت لأقلامه رماح الخط ، عانى كتابة الشروط لأول أمره ، ثم ألظت به محنته على توفر خصاله ، ونبل خلاله ، وهو الآن من كتاب ديوان الحساب ، يتعلل من الأمور المخزنية ببعض الألقاب ؛ انتهى .

٦١ - وقال في « التاج » في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحق ابن الصباغ العقيلي الغرناطي^١ ما صورته : اللسن العارف ، الناقد لجواهر المعاني كما يفعل بالسكة الصيارف ، والأديب المجيد ، الذي تحلى به للعصر النحر والجيد ، إن أجال جياذ براعته فضح فرسان المهارق ، وأخجل بين يياض طيرسه وسواد نيقسه الطرر تحت المفارق ، وإن جلا أبكار أفكاره ، وأثار طير البيان من أوكاره ، سلب الرحيق المقدّم فضل إسكاره ، إلى نفس لا يفارقها ظرف ، وهمة لا يرتد إليها طرف ، وإبانة لا يفل لها غرب ولا حرف ، وله أدب غض ، زهره على مجتنه منفض ، كتبت إليه أستنجز وعده في الإتحاف برائقه ، والإمتاع بزهر حدائقه ، قولي :

عندي لموعدك افتقارٌ محرجٌ وعهودك افتقرت إلى إنجازها
والله يعلم فيك صدق مودتي وحقيقة الأشياء غير مجازها

فأجابني بقوله :

يا مُهدي الدرّ الثمين منظماً كليماً حلال السحر في إيجازها
أدركت حَلَباتِ الأوائل وانيأً ورددت أولاهـا على أعجازها

١ انظر ترجمته أيضاً في الكتيبة : ٢٢٨ .

أحرزت في المضمارِ خصل سباقها ولأنتَ أسبقهم إلى إحرازها
حلّيتَ بالسمطينِ منّي عاطلاً وبعثتَ من فكري فتاة مفاها
فلأنجزنَّ مواعدي مستعطفاً فاسمحْ ، وبالإغضاء منك فجازها

وقال في « الإحاطة » في حق المذكور : إنه من أهل الفضل والسراوة والرجولة والجزالة ، فذو في الكفاية ، ظاهر السذاجة والسلامة ، مُصعَّبٌ لأضداده ، شديد العصبية لأولي وداده ، يشتمل على خلال من خط بارع وكتابة حسنة وشعر جيد ومشاركة في فقه وأدب ووثيقة ومحاضرة ممتعة ، ناب عن بعض القضاة وكتب الشروط ، وارتسم في ديوان الجند ، وكتب عن شيخ الغزاة أبي زكريا يحيى بن عمر على عهده ، ثمّ انصرف إلى العُدوة سابع عشر جمادى الأولى من عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فارتسم في الكتابة السلطانية منوهاً به مستعملاً في خدم مجدية بان غناؤه فيها وظفرت كفايته ، انتهى .

وقد وصفه بصاحبنا ، ثمّ قال : ومن شعر المذكور قوله :

ليت شعري ، والهوى أملٌ وأماني الصبُّ لا تقفُ
هلْ لذاك الوصلِ مرتجعٌ أو لهذا الهجرِ منصرفٌ ؟

وقال :

وظبي سبي بالطرفِ والعطفِ والجيد^١ وما حاز من غنَجٍ ولينٍ ومن غيدٍ
أشرتُ إليه بالدنوِّ مداعباً فقال : أيدنو الظبي من غابة الأسد ؟

وقال في مبدأ قصيدة مطولة :

حديثُ المغاني بعدهنَّ شجون^٢ وأوجُههُ أيامِ التباعدِ جُونُ

١ الكتيبة : زها بالطرف ... والطلا .

٢ ق : شؤون .

لما الله أيامَ الفراقِ فكم شجّتُ
وحياً دياراً في رُبى أغرناطة
لأرخصتُ فيها من شبابي ما غلا
خليليّ - لا أمرٌ - بأربُعها قفا
ألم ترياني كلما ذرّاً شارقُ
إذا لم يساعدي أخٌ منكما فلا
أليسَ عجيباً في البريّة مَنْ له
فلا تثقنْ من ذي وفاء بعهدِهِ
لقلبي عذرٌ في فراقِ ضلوعهِ
ومن تركَ الحزمَ المعينَ فإنّه
رعى الله أيامي الوثيقَ ذمامُها
ولم أرَ مثلَ الدهرِ أمّا عدوّهُ
ولولا أبو عمرو وجودُ بنانهِ

وقال :

زار الخيالُ ويا لها من لذّة
ما زلتُ أَلُمُّ مَبَسِماً منظومه
وأضمّ غصنَ البانِ من أعطافهِ
لكنّ لَذَاتِ الخيالِ مَنَامُ
درٌّ ومورده الشهيُّ مُدَامُ
وأشمُّ مسكاً فُضَّ عنه خَتَامُ

مولده عام ستة وسبعمائة ، وتوفي بفاس ، وقد تخلفه السلطان كاتب ولده عند
توجهه لإفريقية في العشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة ، رحمه الله
تعالى .

١ ق : فخب .

وقد وهم لسان الدين في شهر وفاة المذكور ، وإنما الصواب أنه توفي يوم
الأحد ثامن شوال ، فاعلم ذلك ، والله سبحانه أعلم .

رجع :

٦٢ - وقال في « التاج المحلى في مساجلة القيدح المعلقى » وفي « الإكليل
الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر » وغيرهما مما ثبت في حلى
رؤساء الكتاب ، وحاملي ألوية الآداب ، في ترجمة شيخه ابن الحبيب^١ ، ما نصه :
« صدر الصدور الجلّة ، وعلم أعلام هذه الملة ، وشيخ الكتابة وبانيها ، وهاصر^٢
أفنان البدائع وجانيها ، اعتمدته الرياسة فناء بها على جبل ذراعه ، واستعانت به
السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شبة يراعه ، فتفياً للعناية ظلاً ظليلاً^٣ ،
وتعاقبت الدول^٢ فلم تر به بديلاً ، من ندب على علوه متواضع ، وحبر لثدي
المعارف راضع ، لا تمر مذاكرة^٣ في فن إلا وله فيه التبريز ، ولا تعرض جواهر
الكلام على محكات الأفهام إلا وكلامه الإبريز ، حتى أصبح الدهر راوياً لإحسانه
وناطقاً بلسانه ، وغرب ذكره وشرق ، وأشأم وأعرق ، وتجاوز البحر الأخضر
والخليج الأزرق ، إلى نفس هذبت الآداب شمائلها ، وجادت الرياضة خمائلها ،
ومراقبة لربه ، واستنشاق لروح الله من مهبة ، ودين لا يُعجم عوده ، ولا
تخلف وعوده ، وكل ما ظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلى بها العين ، أو إشارة
كما سبك اللّجين ، فهي إليه منسوبة ، وفي حسناته محسوبة ، فإنما هي أنفس^٣
راضها بآدابه ، وأعلقها بأهدابه ، وهذب طباعها ، كالشمس تلقي على النجوم
شعاعها ، والصور الحميلة ، ترك في الأجسام الصقيلة انطباعها ، وما عسى أن أقول

١ انظر المجلد ٥ : ٤٣٤ .

٢ الكتيبة : دول العدل .

٣ الكتيبة : لا يمر الكلام .

في إمام الأئمة ، ونور الدياجي المذلهمة ، والمثل السائر في بُعد الصيت وعلو الهمة ، وقد أثبت من عيون قصائده ، وأدبه الذي علق الإحسان في مصايد ، كل وثيق المعنى ، كريم المجنى جامع بين حصافة اللفظ ولطافة المعنى ؛ انتهى .
والمذكور له ترجمة في هذا الكتاب في باب مشيخة لسان الدين فلتراجع .

٦٣ - وقال في « الإكليل » في حق عمر بن علي بن غفرون الكلبي من أهل منتفريد^١ ما صورته : شيخ خدم ، قام له الدهر فيها على قدم ، وصاحب تعريض ، ودهاء عريض ، وفائز من الدول النصرية بأياد بيض ، أصله من حصن منتفريد ، خدم به الدولة النصرية عند انتزاع أهله ، وكان ممن استنزلهم من حزنه إلى سهله ، وحكم الأمر الغالي في يافعه وكهله ، فكسب حظوة أرضته ، ووسيلة أرهفته وأمضته ، حتى عظم جاهه وماله ، وبسقت آماله ، ثم دالت الدول ، وتنكرت أيامه الأول ، وتغلب من يجانسه ، وشقي بمن كان ينافسه ، فجف عوده ، والثالث سعوته ، وهلك والحمول يُظِلّه ، والدهر يقوته من صباة حرث كان يستغله ، وله شعر لم يتقنه النظر ، ولا وضحت منه الغرر ، توفي في ذي الحجة عام أربعة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

٦٤ - وقال في « الإكليل » في حق قاسم بن محمد بن الجحد الفهري المري ما صورته : هو من أئمة أهل الزمام ، خليف برعي الزمام ، ذو حظ كما تفتح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام ، كان ببلده حاسباً ، ودراً في بلحة الإغفال راسباً ، صحيح العمل ، يلبس الطروس من براعته أسنى الحلل ، قال بمدح السلطان :

أرى أوجه الأيام قد أشرقت بشرا فقل لي رعاك الله ما هذه البشري
وما بال أنفاس الخزامى تعطرت فأرجت الأرجاء من نفحها عطرا

١ ق : منتفريد ؛ ومنتفريد (Montefrio) تقع شمال مدينة لوشة واسمها القديم (Mons Frigidus) .

ونقبت الشمس المنيرة وجهها قصوراً عن الوجه الذي أنجل البدر

وهي طويلة ، توفي المذكور عام خمسين وسبعمائة بالطاعون .

٦٥ - وقال في « الإكليل » في حق أبي عثمان سعيد الغساني ما صورته :
هو ممن يتشوق إلى المعرفة والمقالات ، ويتسق إلى الحقائق والمُحالات ، ويشتمل
على نفس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعاني من الشعر
ما يشهد بنبله ، ويستظرف من مثله ؛ انتهى .

٦٦ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي الحجاج يوسف بن علي
الطرطوشي^١ ما صورته : روض أدب لا تعرف الذواء أزهاره ، ومجموع فضل لا
تخفى آثاره ، كان في فنون الأدب مُطلق الأعنة ، وفي معاركه ماضي الظبي
والأسنة ، فإن هزل ، وإلى تلك الطريقة اعتزل ، أبرم من الغزل ما غزل ،
وبزل من دنان راحه ما بزل ، وإن صرف إلى المغرب غرب لسانه ، وأعاره
لمحة من إحسانه ، أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه ، وردّ على الحضرة
الأندلسية والدنيا شابة ، وريح القبول هابة ، فاجتلى محاسن أوطانها ، وكتب عن
سلطانها ، ثمّ كرّ إلى أوطانه وعطف ، وأسرع اللحاق كالبارق إذا خطف ،
وتوفي عن سنّ عالية ، وبرود من العمر غالية .

٦٧ - وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن المتأهل العذري من
أهل وادي آش ما صورته^٢ : رجل غليظ الحاشية ، معدود في جنس السائمة
والماشية ، تليت على العمال به سورة الغاشية ، وليّ الأشغال السلطانية فذعرت
الحياة لولايته ، وأيقنوا بقيام قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا :
جاءت الدابة تكلمنا وهي إحدى الشروط ، من رجل صائم الحشوة ، بعيد عن
المصانعة والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخالطة لهم : لا مساس ، عهدي

١ ترجمته في الدرر ٥ : ٢٤٢ وفيه : مات بعد ٧٤٠ .

٢ قد مرت هذه الفقرة (رقم : ٢٦) .

به في الأعمال يحبط ويُتَبَّر ، وهو يهَلِّل ويكَبِّر ، ويحسِّن ويقبِّح ، وهو يسبِّح ، وقال يخاطب بعض أمراء الدولة :

عمادي ، ملاذي ، موثلي ، ومؤملي ألا انعم بما ترضاه للمتأهل
وحقق بنيل القصد منك رجاءه على نحو ما يرضيك يا ذا التفضل
فأنت الذي في العلم يُعرف قدره بخير زمان فيه لا زلت تعثلي
فهنيئت يا معنى الكمال برتبة تقرر لكم بالسبق في كل محفل

توفي عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

وتذكرت بقوله « ويحسن ويقبح ، وهو يسبح » قول الآخر :

قد بلينا بأمر ظلم الناس وسبَّح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويدبح

رجع :

٦٨ - وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله ابن باق^١ من « التاج » ما صورته : مدير أكؤس البيان المعتق ، ولعوب بأطراف الكلام المشقق ، انتحل لأول أمره الهزل من أصنافه ، فأبرز درر معانيه من أصدافه ، وجنى ثمرة الإبداع لحين قطفه ، ثم تجاوزه إلى المغرب وتخطاه ، فأدار كأسه المترع وعاطاه ، فأصبح لفنيه جامعاً ، وفي فلكيه شهاباً لامعاً ، وله ذكاء يطير شرره ، وإدراك تتلج غرره ، وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض ، وعلى ذلاقة لسانه ، وانفساح أمد إحسانه ، فشديد الصبابة بشعره ، مغفل لسعره ؛ انتهى .
والمذكور هو محمد بن إبراهيم بن علي باق الأموي ، مرسى الأصل ، غرناطي النشأة ، مالقي الاستيطان .

وقال في « عائد الصلة » : كان رحمه الله تعالى كاتباً أديباً ذكياً لودعياً يجيد

١ ترجمته في الدرر ٣ : ٣٧٦ (ط . القاهرة) .

الخط ويرسل النادرة ، ويقدم على العمل ، ويشارك في الفريضة ، وبذَّ السَّبَّاق في الأدب الهزلي المستعمل بالأندلس ، غير زماناً من عمره محارفاً للفاقة يعالج بالأدب الكُندية ، ثمَّ استقام له الميسم ، وأمكنه البخت من امتطاء غاربه ، فأنشبت الحُطوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد وحاسب ومدير تجر ، فأثرى ونما ماله ، وعظمت حاله ، عهد عندما شارف الرحيل بجملة تناهر الألف من العين ، لتصرف في وجوه من البر ، فتوهم أنها كانت زكاة أمسك بها ؛ انتهى .
وقال أيضاً : أخبرني الكاتب أبو عبد الله ابن سلمة أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله في رَوِيَّه :

أحرز الحصلَ من بني سلمة°	كاتبٌ تخدمُ الظُّبى قَلَمَه°
يحملُ الطُّرسُ من أنامله°	أثرَ الحسنِ كلما رَقَمَه°
وتمدُّ البيانَ فكرته°	مرسلاً حيث يمت ديمه°
خَصَّني متحفاً بخمسٍ إذا°	بسمِ الروضِ فُقِنَ مبتسمه°
قلت أهدي زهر الرُّبى خضلاً°	فإذا كلُّ زهرةٍ كلمه°
أقسم الحسنُ لا يفارقها°	فأبرَّ انتقاؤها قسمة°
خطَّ أسطارها ونمَّقها°	فأتت كالعقودِ منتظمة°
كاسياً من حلاه لي حللاً°	رسمُها من بديعٍ ما رسمه°
طالباً عند عاطشٍ نهلاً°	ولديه الغيوثُ منسجمه°
يبغي الشعرَ من أخي بلكه°	أخرسَ العبيِّ والقصورُ فَمَه°
أيها الفاضلُ الذي حفظت°	ألسنُ المدحِ والثنا شيمه°
لا تكلفُ أخاكَ مقترحاً°	نشرَ عارٍ لديه قد كتمه°
وابقَ في عزةٍ وفي دعة°	ضافيَ العيشِ وارداً شَبِمَه°
ما ثنى الغصنُ عِطْفَه طرباً°	وشدا الطيرُ فوقه نغمه°

ورأيت على هامش هذه القصيدة بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين ما صورته :

نعم ما خاطب به شيخنا وبركة أهل الأندلس وصدر صدورهم أبا عبد الله ابن سلمة ، ومن لفظه سمعتها بالقاهرة ، وإنها لمن النظم العالي المتسق نسق الدرّ في العقود ، رحمه الله تعالى ، قاله ابن المؤلف ؛ انتهى .

وقرأ ابن باق المذكور على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير والخطيب أبي عثمان ابن عيسى ، وتوفي بمالقة في اليوم الثامن والعشرين لمحرّم فاتح عام اثنين وخمسين وسبعمائة ، وأوصى بعد أن يحفر قبره بين شيخيه الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي وأبي عثمان ابن عيسى أن يُدفن به ، وأن يُكتب على قبره هذه الأبيات :

ترحمّ على قبر ابن باق وحيّه	فمن حقّ ميت الحيّ تسليمُ حيّه
وقل آمن الرحمن روعةً خائف	لتفريطه في الواجبات وغيه
قد اختار هذا القبر في الأرض راجياً	من الله تخفيفاً بقدر وليّه
فقد يشفع الجار الكريم لجاره	ويشمل بالمعروف أهل نديّه
ولاني بفضل الله أوثق واثق	وحسي وإن أذنبت حبّ نبيّه

انتهى .

٦٩ - وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن سالم ابن فضيلة المعافري المري^١ المدعو بالتوّ من « الإكليل » ما نصه : شيخ أخلاقه لينة ، ونفسه كما قيل هينة ، ينظم الشعر سهلاً مساقه ، محكماً اتساقه ، على فاقة ، ما لها من إفاقة ، أنشد المقام السلطاني بظاهر بلده قوله :

سرت ريحٌ نجد من رُبى أرضِ بابل	فهاجتُ إلى مسرى سَراها بلا بلي
وذكرني عَرَفُ النسيم الذي سرى	معاهدَ أحبابٍ سَراةٍ أفاضلِ
فأصبحتُ مشغوفاً بذكر منازل	ألفتُ ، فواشوقي لتلك المنازلِ
فيا ريحُ هُبِّي بالبطاح وبالرُبى	ومرّي على أغصانِ زهرِ الحمائلِ
وسيري بجسمي للتي الروحُ عندها	فروحي لديها من أجلِّ الوسائلِ

١ ترجمته في الدرر ٣ : ٣٦٧ (ط . القاهرة) .

وقولي لها عني مُعَنَّاك بالنوى له شوقٌ معمودٍ وعبرةٌ ثاكلِ
فيا بأبي هيفاء كالغصنِ تنشي تقدُّ بقدرٍ كاد ينقدُّ مائلِ
وهي طويلة .

ومن شعر المذكور قوله من قصيدة :

بَهَرَتْ كشمسٍ في غلالةٍ عسجد وكبدرٍ تمَّ في قضيبٍ زبرجد
ثمَّ انشتُ كالغصنِ هَزَّتْهُ الصَّبَا طرباً فتزري بالغصونِ الميِّدِ
حوراءُ بارعةُ الجمالِ غريرةٌ تزهى فتزري بالقضيبِ الأملدِ
إن أدبرتُ لم تُبقِ عقلَ مدبرٍ أو أقبلتُ قتلتُ ولكن لا تدي

قال القاضي أبو البركات ابن الحاج : وابتلي المذكور باختصار كتب الناس ، فمن ذلك مختصره المسمى « الدرر الموسومة في اشتقاق الحروف المرسومة » وكتاب حكايات يسمى « دوحة الحنان وراحة الحنان » وغير ذلك .

قال أبو البركات : وسألته عن مولده ، فقال : لي اليوم ستون سنة ، وقال ذلك ليلة الخميس السابع والعشرين لذي قعدة عام أربعين وسبعمائة ، وتوفي آخر رمضان من عام تسعة وأربعين ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

رجع :

٧٠ - قال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة الكاتب صاحب العلامة أبي العباس أحمد بن علي الملياني المراكشي ما نصه : الصارم الفاتك ، والكاتب الباتك ، أي اضطراب في وقار ، وتجهّم تحته أنس العقار ! اتخذهُ ملك المغرب صاحب علامته ، وتوجه تاج كرامته ، وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بثار عمه ، ويطوّقهم دمه بزعمه ، ويقصر على الاستنصار منهم بنات همه ، إذ سَعَوْا فيه حتى اعتُقل ، ثم جدوا في أمره حتى قُتل ، فترصد كتاباً إلى مراكش

يتضمن أمراً جزماً ، ويشمل من أمور الملك عزماً ، جعل فيه الأمر بضرب رقابهم ، وسبني أسبابهم ، ولما أكد على حامله في العَجَل ، وضايقه في تقدير الأجل ، تأتّى حتى علم أنه قد وصل ، وأن غرضه قد حصل ، فرّاً إلى تلمسان وهي بحال حصارها ، فاتصل بأنصارها ، حالاً بين أنوفها وأبصارها ، وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجّمتِ الظنون في آثاره ، ثم وصلت الأخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، فتركها شنيعة على الأيام ، وعاراً في الأقاليم على حملة الأعلام ، وأقام بتلمسان إلى أن حلَّ مُخَنَّق حصرها ، وأزيل هميان الضيقة عن خصرها ، فلحق بالأندلس ولم يعد برّاً ، ورعيّاً مستمراً ، حتى أتاه حِمَامُه ، وانصرفت أيامه ؛ انتهى .

والمذكور ترجمه في « الإحاطة »^١ بقوله : صاحب العلامة بالمغرب ، الكاتب الشهير البعيد الشأو في اقتضاء الثرة ، المثل المضروب في الهمة ، وقوة الصريمة ، ونفاذ العزيمة .

حاله — كان نبيه البيت ، شهير الأصالة ، رفيع المكانة ، على سجية غريبة من الوقار والانقباض والصمت ، أخذاً بحظ من الطب^٢ ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضاً للشعر ، تذهب نفسه فيه كل مذهب .

وصمته — فتك فتكة شهيرة أساءت الظن بحمكة الأعلام على ممر الدهر ، وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة .

شعره — من شعره الذي يدل على بأوه ، وانفساح خطاه في النفاسة وبُعْد شأوه ، قوله :

الغزُّ ما ضُرِبَتْ عليه قبايى والفضلُ ما اشتملتُ عليه ثيابي

١ انظر ج ١ : ١٤٩ ، والإعلام بمن حل مراکش ١ : ٣٧٣ .

٢ ق : الطلب ؛ وأثبتنا ما في الإحاطة .

والزهرُ ما أهداهُ غصنُ براعتي والمسكُ ما أبداهُ نِقْسُ كتابي
فالمجد يمنع أن يزاحمَ موردي والعزمُ يأبى أن يضامَ جنابي
فإذا بلوتُ صنيعَةً جازيتها بجميلِ شكري أو جزيلِ ثوابي
وإذا عقدتُ مودةً أجريتها مجرى طعامي من دمي وشرابي
وإذا طلبتُ من الفراقِدِ والسَّها ثأراً فأوشكُ أن أنالَ طلابي

وفاته - توفي بغرناطة يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة
ودُفن بجبانة باب البيرة ، تجاوز الله تعالى عنه ؛ انتهى .

رجع إلى نثر ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

٧١ - فمن ذلك قوله في « الروضة » في ترجمة « ضخام الغصون من
شجرة السر المصون » ما صورته : وهي التي أفاءت الظل الظليل ، وزانت المرأى
الجميل ، وتكفلت لمحاسن الشجرة الشماء بالتكفيل ، وتتعدد إلى غصون المحبوبات ،
وأقسام موضوعاتها المكتوبات ، وغصن المحيين ، أصنافهم المرتبين ، وغصن
علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصَّبة ، وغصن الأخبار المنقولة ، عن ذوي
النفوس المصقولة ، وعند تعين هذه الأغصان المقسومة ، كمل شكل الشجرة
المرسومة ، والسرحة الموصوفة الموسومة ، ففاءت الظلال ، وكرمت الحلال ،
فحيي من تفرد وتوحد ، واستظل من استهدى واسترشد ، ووقف الهائم فخطب
وأنشد^١ :

يا سَرَحَةَ الحَيِّ يا مَطولُ شَرَحُ الذي بيننا يطولُ
عندي مقالٌ فهل مقامُ تُصغينَ فيه لما أقولُ
ولي ديونٌ عليكِ حَلَّتْ لو أنهُ ينفعُ الحلولُ

١ أورد منها بيتين في النفع ٣ : ٥٠٦ ونسبهما لابن براق .

ماضٍ من العيشِ كان فيهِ متزلّنا ظلُّكَ الظليلُ
زالَ وماذا عليهِ ماذا يا سرحَ لو لم يكنْ يزولُ
حيّا عن المذنبِ المعنىِ منتكِرِ القَطْرُ والقَبولُ

وقال رحمه الله تعالى : فصول في المعرفة تغازل بها عيون الإشارة ، إذا
قصرت عن تمام المعنى ألسنُ العبارة ، والله درُّ القائل :

وإذا العقولُ تقاصرت عن مدركٍ لم تتكلَّ إلاّ على أذواقها

المعرفة اختراق المراتب الحسية ، والنفوس الجنسية ، والعقول القدسية ،
والبروز إلى فضاء الأزل ، إذا في من لم يكن وبقي من لم يزل ، مع عمران المراتب ،
ورؤية الجائز في الواجب :

ومن عجبٍ أني أحنُّ إليهمُ وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

المعرفة مقام يأتلف من جمع مفروق ، وأفول وشروق ، وسلّ عروق ، ورد
مسروق ، حتى يذهب الكيف والأين ، ويتعين العين ، فيجمع العدد ويحمل ،
وينحى السوى ومع ذلك لا يهمل :

للعدا منك نصيبُ ولك السهمُ المصيبُ
إنما يومك يوماً ن : خصيبٌ وعصيبُ

المعرفة مقام سامي المنعرج ، عاطر الأرج ، ينقل من السّعة إلى الحرج ، ومن
الشدة إلى الفرج :

طريقك لا تخفى به إن تتبعت خطاك ولا يخفى مبيتك فيه
متاعك منشورٌ على كل خيمة ورؤياك أمنٌ من ترفع تيه

المعرفة عين إن لم تبصر أجزاءها ، أحسن الله عزاءها ، وحقيقة إن لم يجعل الفراق
إزاءها ، كانت الغيرة^١ جزاءها ، فهي دائرة مركزها يجمع ، ومحيطها في التفريق
يطمع ، يستقل الملك أجمع ، ويرى من يرى ويسمع من يسمع :

بُعْدُ المحيط من المحدّد واحدٌ والكلُّ في حقِّ الوجودِ سواءُ
والحقُّ يعرفُ ذاته من ذاته صحَّ الهوى فتلاشتِ الأهواءُ

المعرفة صعود ونزول ، ووقوف ووصول ، فلا الوصول عن البداية يقطع ،
ولا البداية عن النهاية تمنع :

من له الأمر أجمعُ كلُّ ما شاء يصنعُ
حصلَ القصدُ واستقرَّ فلم يبقَ مطمعُ

العارف في البداية يشكر الراكع والساجد ، ثمَّ يعذر الواجد المتواجد ، ثمَّ يرجم
المنكر الجاحد ، فإذا انتهى ورُدَّ العدد إلى الواحد ، قال لسان حاله :

من رأى لي نشيدةً أو على عينها أثرُ
فله الحكم قل له ذهبَ العينُ والأثرُ

إلى أن قال : قال الرئيس : العارف هشّ بش بسّام ، فيجل الصغير من تواضعه
مثلما يجل الكبير ، ويبسط من الحامل مثلما يبسط من النبيه ، ثمَّ علل فقال :
وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق ، وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق ، إني لأجد
ريح يوسف^٢ :

لمعت نارهم وقد عسعسَ إليّ وضجَّ الحادي وحرَّ الدليلُ
فتأمّلتها وقلتُ لصحي هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا

١ ق : العزة .

٢ انظر مشارق أنوار القلوب : ٧٢ وهما من قصيدة للسهروردي .

العارف شجاع ، وكيف لا وهو بمغزل عن هيبة الموت ، وجواد ، وكيف لا وهو بمغزل عن صحبة الباخل ، وصفّاح ، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تخرجها زلة بشر ، ونساء للأحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق ، وقالوا : مَنْ عرف الله تعالى صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله رب العالمين .

الشبلي : ليس لعارف علاقة ، ولا لمحب شكوى ، ولا لعبد دعوى ، من عرف الله سبحانه انقطع ، بل خرس وانقمع ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ؛ انتهى .

٧٢ - وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة : الفرع الصاعد إلى الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ، إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجيرم شريف ، وأفنان ذوات ألوان ، قنوان وغير قنوان ، وطلّغ نضيد ، وجنّى سعيد ، فالقشر الحدود والرسوم ، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسوم ، والفنون التي يقوم عليها والعلوم ، والحرّم ظاهر الخلق المقسوم ، وعلاجه كما تعالج الجسوم ، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم ، وقلبه الرياضة والغصون المقامات فيها المقام المعلوم ، ومادتها السلوك الذي بتدريج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم ، والزهرات اللوائح والطوالع والبواده التي لها الهجوم ، والواردات التي تدوم أو لا تدوم ، ثمّ الجنى وهو الولاية التي كان الغارس عليها يحوم ؛ انتهى .

ثمّ فصل الكل رحمه الله تعالى فليراجع من أراد .

٧٣ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه على لسان سلطانه للأمير يلبغا الخاصكي^١ ، وهو : « إلى الأمير المؤمن على أمر سلطان المسلمين ،

١ كان مدبر الدولة أيام المنصور محمد والأشرف شعبان ، قتله غلمانه لعسفه وظلمه سنة ٧٦٨ .

المقلّد بتدبيره السديد قلادة الدين ، المثني على رسوم بره لمقامه لسان الحرم الأمين ،
الآوي من مرضاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى الربوة ذات القرار
والمعين ، المستعين من الله تعالى على ما تحمّله وأمله بالقوي المعين ، سيف الدعوة ،
ركن الدولة ، قوام الملة ، مؤمل الأمة ، تاج الخواص ، أسد الجيوش ، كافي
الكفاة ، زين الأمراء ، علم الكبراء ، عين الأعيان ، حسنة الزمان ، الأجل
المرفع الأسنى الكبير الأشهر الأسمى الحافل الفاضل الكامل المعظم الموقر الأمير
الأوحد يلبغا الخاصكي ، وصل الله له سعادة تشرق غرّتها ، وصنائع تسح فلا
تشحّ درتها ، وأبقى تلك المثابة قلادة الله تعالى وهو درتها .

« سلام كريم ، طيب برّ عسيم ، يخص إمارتكم التي جعل الله تعالى الفضل
على سعادتها أمانة ، واليسر لها شارة ، فيساعد الفلك الدوّار مهما أعملت إدارة ،
وتمثل الرسوم كلما أشارت إشارة .

« أما بعد حمد الله تعالى الذي هو يعلمه في كل مكان ، من قاصٍ ودان ،
وإليه توجه الوجوه وإن اختلفت السّير وتباعدت البلدان ، ومنه يلتمس الإحسان ،
وبذكره ينشرح الصدر ويطمئن القلب ويمرح اللسان ، والصلاة والسلام على
سيدنا ومولانا محمد رسول العظيم الشأن ، ونبّه الصادق البيان الواضح البرهان ،
والرضى عن آله وأصحابه وأحزابه أحلاس الخيل ، ورهبان الليل ، وأسود الميدان ،
والدعاء لإمارتكم السعيدة بالعز الرائق الخبر والعينان ، والتوفيق الوثيق البنيان ،
فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم حظاً من فضله وافرأ ، وصنعاً عن محيّا
السرور سافرأ ، وفي جو الإعلام بالنعم الجسام مسافرأ - من حمراء غرناطة
حرسها الله تعالى دار ملك الأندلس دافع الله سبحانه عن حوزتها كيد العداة ،
وأتحف نصلها ببواكر النصر المهداة ، ولا رائد إلا الشوق إلى التعارف بتلك
الأبواب الشريفة التي أنتم عنوان كتابها المرقوم ، وبیت قصيدها المنظوم ، والتماس
بركتها الثابتة الرسوم ، وتقرير المثل في سبيل زيارتها بالأرواح عند تعذره
بالجسوم ، وإلى هذا فإننا كانت بين سلفنا تقبّل الله تعالى جهادهم ، وقدس

نفوسهم ، وأمن معادهم ، وبين تلك الأبواب كما عرفتم من عدلها وإفضالها ، مراسلةً ينمُّ عَرَفُ الخلوص من خلالها ، وتسطع أنوار السعادة من آفاق كمالها ، وتلتمح من أسطار طروسها محاسن تلك المعاهد الزاكية المشاهد ، وتُعرب عن فضل المذاهب وكرم المقاصد ، اشتقنا إلى أن نجددها بحسن منابكم ، ونواصلها بمواصله جنابكم ، ونغنم في عودها الحميد مكانكم ، ونؤمل لها زمانكم ، فخطبنا الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجيلة من التقصير ، وجيلة من الناقد البصير ، ونؤمل الوصول في خفارة يدكم التي لها الأيادي البيض ، والموارد التي لا تغيض ، ومثلكم من لا تخيب المقاصد في شمائله ، ولا تضحى المآمل في ظل خمائله ، فقد اشتهر من حميد سيركم ما طبَّقَ الآفاق ، وصحب الرفاق ، واستلزم الإصفاق ، وهذه البلاد مباركة ، ما أسلف أحد فيها مشاركة ، إلاَّ وجدها في نفسه ودينه وماله وعباله ، والله سبحانه أكرم منّ وفي لامرئ بمكياله ، والله عز وجل يجمع القلوب على طاعته ، وينفع بوسيلة النبي صلى الله عليه وسلم الذي نعول على شفاعته ، ويبقي تلك الأبواب ملجأ للإسلام والمسلمين ، وظلاً لله تعالى على العالمين ، وإقامة لشعائر الحرم الأمين ، ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين ، ويجعلكم ممّن أنعم الله تعالى عليه من المجاهدين ، والسلام الكريم ينخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ انتهى .

٧٤ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في قضية امتناع بعض الموثقين من أكل طعامه بمدينة سلا ، وقد صدر به كتابه المسمى بـ « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » وهذا نصه : أما بعد حمد الله الذي قرر الحكم وأحكمه ، وبيّن الحلال من الحرام بما أوضحه من الأحكام وعلمّه ، ونوع جنس المعاش وقسمه ، وماز كل نوع منه ووسمه ، فأثبتته متفاوتاً في درجات التفضيل ورسمه ، والصلاة والسلام على مولانا محمد رسوله الذي فضّله على الأنبياء وقربّه وطهر من دنس الشبهات شيّمه ، فما استعمله في غير طاعته ولا استخدمه ، ولا أعمل في سوى

البر والهدى بَنَانَهُ وَلَا قَدَمَهُ ، وَالرَّضَى عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَعَوْا ذِمَّتَهُ ،
وَاسْتَمَطَرُوا دِيَمَتَهُ ، وَتَوَاصَوْا مِنْ أَجَلِهِ بِالْبِرِّ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ، فَهَذَا كِتَابُ
« مِثْلِي الطَّرِيقَةُ فِي ذِمِّ الْوَثِيقَةِ » دَعَا إِلَى جَمْعِهِ قَلَّةُ الْإِنْصَافِ مِنَ الْمُدَاهِنِ وَالْمَعَاصِرِ ،
وَالْمُبَاهِتِ فِي مَدْرَكِ النُّورِ الْبَاصِرِ ، وَرَضَى مِظْنَةَ النَّيْلِ مِنْهُمْ بِالْبَاعِ الْقَاصِرِ ، وَالْمُنَاضِلَةِ
عَنِ الْحَمَى الَّذِي لَمْ يُؤَيِّدْهُ الْحَقُّ بِالْوَلِيِّ وَلَا بِالنَّاصِرِ ، وَلَوْضَعَهُ حِكَايَةً ، وَلِنَفْسِهِ
شِكَايَةً ، إِذْ مَعْرِفَةُ الْأَشْيَاءِ بَعْلُهَا مِمَّا يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ ، وَيَحْرَصُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَنِّي لَمَّا
قَدِمْتُ عَلَى مَدِينَةِ فَاسٍ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، مُسْتَخْلَصاً بِشَفَاعَةِ الْخِلَافَةِ ، ذَاتِ الْإِنَافَةِ ،
مُسْتَدْعَى بِرِسَالَةِ الْإِيَالَةِ ، ذَاتِ الْجَلَالَةِ ، فَانْسَحَبَ وَالْمَنَّةُ لِلَّهِ السِّرِّ ، وَانْفَسَحَ الْفَتْرُ ،
وَشَفَعَ مِنَ النِّعَمِ الْوَتَرُ ، وَاقْتَدَى الْمَرْؤُوسُ بِالرَّئِيسِ ، وَتَنَافَسَ الْأَعْلَامُ فِي التَّائِيسِ ،
وَاتَّصَلَ الْإِحْتِفَاءُ وَالِاسْتِدْعَاءُ ، وَانْتَخَبَ الْمَوْعَى وَالْوَعَاءُ ، وَأَخَذَ أَعْقَابُ الطَّيِّبَاتِ
الْوَضُوءَ وَالطَّيِّبَ وَالِدْعَاءَ ، تَعَرَّفَتْ فِيمَنْ جَمَعَتْهُ الْأَخْوَانَةُ ، وَالْمَدَاعِي الْمَتَعِينَةُ ،
بِرَجُلٍ مِنْ نِيهَاةِ مَوْثِقِيهَا غَرَّرَنِي بِمَخِيلَةِ الْبَشَاشَةِ الَّتِي يَسْتَفِرُّ بِهَا الْغَرِيبُ ، وَيَسْتَخْلَصُ
هُوَ مَنْ لَمْ يَعْمَلِ التَّجْرِبَ ، فَأَنْسَتْ بِمَكَانِهِ ، وَاسْتَظْهَرَتْ عَلَى مَا يَعْرِضُ مِنْ
مَكْتَبٍ بِدَكَانِهِ ، وَشَأْنِي فِي الْإِغْتِبَاطِ بِمَنْ عَرَفْتُ شَأْنِي ، فَلَسْتُ لِلْمِقَّةِ بِشَأْنِي ،
وَاسْتَرْسَالِي ، حَتَّى لِمَنْ أَسَالِي ، طَوْعَ عَنَانِي :

أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ضَمِيرِي وَيَتْلُوهُ يَدِي وَلِسَانِي

وَلَمْ يَكْ إِلَّا أَنْ حَلَلْتُ بِمَدِينَةِ سَلَا حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى مَقْصُودَ الْمَحَلِّ وَإِنْ رَغِمَ الدَّهْرُ
الَّذِي رَمَى فَأَقْصَدَ ، مَعْتَمِداً بِفَتْوحَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ أُرْتَجَّ الْبَابُ بِزَعْمِهِ وَأَوْصَدَ ،
مُصْحَباً بِمَدَدِ عَنَانِيتهِ وَإِنْ كَمَنْ وَأَرْصَدَ ، لَا يَمُرُّ فَاضِلٌ إِلَّا عَرَجَ عَلَى مِثْوَايَ ، وَأَتَى
مَنْ الْبَرِّ فَوْقَ هَوَايَ ، وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ، وَتَعَرَّفْتُ عَنْ صَاحِبِي
الْفَاسِي أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ سَخَرِ عَمَلِيَةٍ فَلَا لَهَا الدَّرَسُ الْمَنْهُوبَةُ ، وَتَخْلَلُهَا الْمُسَبَّعَةُ الْمَرْهُوبَةُ ،
وَاعْتَذَى الْأَطْعَمَةُ الَّتِي مَرَّقَتْهَا الدَّمُوعُ ، وَمَطْبَخَتُهَا الْحَمَى الْمَرْوَعُ ، وَاسْتَقَرَّ
بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ لَانَ وَضَرَعَ ، وَجَدَّلَ وَضَرَعَ ، نَافَقَ الْبَقْلَةَ كَاسِدَ الْوَرَعِ ،

ونزل بمثوى خمول ، ومحط مجهول ، وكنف مقوت ، وجوار لا يبخل بغية
ولا يسمح بقوت ، فبادرت استدعائه بفاضل من الطلبة ممن يتلقى به الوارد ،
ويقتاد الشارد ، وقد أغرب بقراءة الاحتفاء والاحتفال ، وأجنب الإغفاء والإغفال ،
وجهازت السرايا إلى التماس نعم الله تعالى فحلت الأنفال ، فلما عرض عليه
الدعوة تعجرف ونفر ، ولما مسح عطفه بالاستئزال نزا وطفر ، حتى بهت
الرسول كما بهت الذي كفر ، وآب يحمل عذراً بلرداً ، واحتجاجاً شاردأ ،
فأقطعت جانب شماسه ، وخلت بينه وبين وسواسه ، ومن الغد قصدني فاعتذر ،
وأكثر الهذر ، ولم ينبت الله النبات الحسن شيئاً مما بذّر ، وكان جوابي إياه
ما نصه :

أبيتم دعوتي إما لبأ	وتأبى لومه مثلى الطريقة
وبالمختار للناس اقتداء	وقد حضر الوليمة والعقيقة
وغير غريبة أن رق حر	على من حاله مثلي رقيقة
ولما زاجر الورع اقتضاها	ويأبى ذاك دكان الوثيقة
وغشيان المنازل لاختيار	يطلب بالحليلة والدقيقة
شكرت مخيلة كانت مجازاً	لكم وحصلت بعد على الحقيقة

وذاع خبرها فقلبت عنها الجنوب ، وكلف بها الطالب والمطلوب ، وهش إلى
المراجعة عنها أحد الموثقين بسلا ممن يحوم حول حمى الإدراك ، ويروم درجة
الاختصاص ببعض الفنون والاشتراك ، وله في الأدب مساس ، وجلب الباس ،
بما نصه :

رسولك لم يبن لي عن طريقه	تقرب من حديقتك الأنيقه
فلا بأو لدي ولا إباء	ولكن ساء في الغرض الطريقه
وهب أني أسأت فكم صديق	تدلل واعتدى فجفا صديقه

فلا عجبٌ فديتَ لرفقٍ حرٍّ يسكنُ عندَ خجلته رقيقه°
ولاني فيكَ معتقدٌ ، ولكن أرى الأيامَ حاقدةً حنيقه°
على ذي الودِّ فيمن ودَّ حتى يفارقه وإن أضحي رقيقه°

فراجعته بما نصه لما أسلفته من جزاء مِصاعه ، وكِلْتُ له بصاعه :

من استغضبت من هذي الخليقة° بمغضبةٍ بإنكارٍ خليقته°
ولم يغضبُ فتيسٌ أو حمارٌ مجازاً ، لا ، لعمرى ، بل حقيقه°
بعثتُ بمرسلٍ لك مع عتيقي فلم تطعِ الرسولَ ولا عتيقه°
وطوقتَ السفيرَ الذنبَ لما عجلتَ به ولم تُبلعه ريقه°
إمامُ جماعةٍ وقريعُ تقوى ومُبلغُ حجةٍ ، وحفيظُ سيقه°
فبؤتَ بها على الأيامِ داءً عُضالاً لا تفيقُ عليه فيقه°
وقد عارضتَ عذرك باعترافٍ فزدتَ مذمةً تسمُ الطريقة°
وهل بعدَ اعترافٍ من نزاعٍ وهل بعدَ افتصالٍ من وثيقه°
ومن جهلِ الحقوقِ أطاعَ نفساً يبحرُ الجهلِ راسبةً غريقه°
ومنجى نيقةٍ أمرٌ بعيدٌ إذا نصبَ المهندسُ منجنيقه°

فأمسك حينئذ وأقصر ، ورأى الأمر يطول فاختصر ، إلا أنه نمي لي عنه قوله :
إن دكان الوثيقة إن° نافي الورع فغير بلده ، وأذهلته لذة لدده ، عما هو بصدده ،
فارتهمت له أن أنصر الدعوى بما يسلمه المنصف المساهل ، وينكره الأرعن الجاهل ،
وتشدّ به المنازل والمناهل ، والمعالم والمجاهل ، مستنداً إلى الحكم الشرعي ، والسّنن
المرعي ، والمشاهدة والحس ، وشهادة الجن والإنس .

١ السيقة : لعلها صورة اشتقاقية من السوق أو السياق بمعنى المهر الذي يساق إلى المرأة في صداقتها ؛
ومما يقرب هذا المعنى أن الرجل الذي وجهت إليه الأبيات من كتاب الوثائق .

ولو تُركَ القَطَا ليلًا لنا

والله يجعله موقظاً من السنّات ، وازعاً عن كثير من الهنات ، وينفع فيه بالنية
فإنما الأعمال بالنيات ، وها أنا أبتدىء وعلى الله الإعانة ، وبحوله وقوته الإفصاح
والإبانة .

قلت : ينحصر الكلام فيه في سبعة أبواب ، الباب الأول : في جواز الإجارة
فيها عند العلماء ، الباب الثاني : في الشركة المستعملة بين أربابها ، الباب الثالث : في
محلها من الورع إن سوّغها الفقه ، الباب الرابع : في منزلتها من الصنائع والمهن ،
الباب الخامس : في أحوال منتحليها من حيث العلم غالباً ، الباب السادس : في
أحوالهم من جهة استقامة الرزق وانحرافه ، الباب السابع : في رد بعض ما يحتاج
به فيها . انتهت الخطبة المقتطعة من تأليف لسان الدين رحمه الله تعالى .

وهذا التأليف في نحو كراسة ، وقال في آخره ما صورته : فإن قيل : ترك
الأجر وقبول العوض في هذا الأمر يدعو إلى تعطيله ، فيفقد الناس منفعة هذه
الطريقة وغنائها ، قلت : الإنصاف فيها اليوم أن لو كان متوليها يرتزق من
بيت المال وأموال المصالح والأوقاف التي تسع ذلك ، وحالُ الجماهير في فقدانها
والاضطرار إليها ورفع أمورهم بها إلى السلطان ورغبتهم في نصب من يتولى ذلك
حالهم في فقدان أئمة الصلاة في المساجد الراتبية في جريانه من بيت المال بعلّة التزامهم
وارتباطهم فقط ، حسبما نقل الإجماع فيه القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه
الله تعالى ومنع الارتزاق من غيره إجماعاً ، وقد كان بالمدن المعتمدة من بلاد
الأندلس — جبرها الله تعالى — ناس من أولي التعفف والتعين ، كبنّي الجند بإشبيلية
وبني الخليل وغيرهم بغيرها ، يتعيشون من فضول أملاكهم ، ووجائب رباعهم ،
ويقعدون بدورهم عاكفين على بر ، متباينين لرواية وفتيا ، يقصدهم الناس في
الشهادة فيجاملونهم ، ويُبْركون على صفقاتهم ، ويهدونهم إلى سبيل الحق فيها
من غير أجر ولا كلفة ، إلاّ الحفظ على المناصب ، وما يجريه السلطان من الحرمة

والتفقد^١ في الضرورة ، وما يهديهم الناس من الإطراء والتجلة ، والله سبحانه ينيلهم من الأجر والثوبة ، وبلغني اليوم أن حالها بمدينة سجلماسة ينظر إلى هذا الحال من طرف خفي ، ولم يفسد بها كل الفساد ، وكذلك لم نزل نتعرف أن الأمر في شأنها بمدينة تونس أقرب ، وبعض الشر أهون من بعض ، ولو بقيت بحالها لوجب تقرير فضلها وتقريظ منتحلها ، فالصدق أنجي ، والحق عند الله أحجى ، والله عز وجل يستعملنا فيما يرضيه ، ويلطف بنا فيما يجريه علينا من أحكامه وما يقضيه ، ويجعلنا ممن ختم له بالحسنى ، ويقربنا إلى ما هو أقرب من رحمته وأدنى ، وصلوات الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ؛ انتهى .

وكتب على ظهر الورقة الأولى من هذا التأليف شيخ شيوخ شيوخنا الإمام الكبير المؤلف الشهير سيدي أحمد الونشريسي رحمه الله تعالى ما صورته : الحمد لله ، جامع هذا الكلام المقيد هذا بأول ورقة منه قد كدّ نفسه في شيء لا يعني الأفاضل ، ولا يعود عليه في القيامة ولا في الدنيا بطائل ، وأفنى طائفة من نفيس عمره في التماس مساوئ طائفة بهم تُستباح الفروج ، وتملك مشيدات الدور والبروج ، وجعلهم أضحوكة لذوي الفتك والمجانة ، وانتزع عنهم جلابب الصدق والديانة ، سامحه الله تعالى وغفر له ، قال ذلك وخطّه بيمنى يديه عبيد ربه أحمد بن يحيى بن محمد بن علي الونشريسي خار الله سبحانه له ؛ انتهى ما ألفيته . وقد كان لسان الدين رحمه الله تعالى كثيراً ما يعرض ويصرح بهجوا بعض أهل سلا أو كلهم حتى قال :

أهل سلا صاحت بهم صائحه غادية في دورهم رائحه
يكفيهم من عوز أنهم ريحانهم ليست له رائحه

والله المرجو للعفو عن الزلات .

٧٥ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى خطبة كتابه في المحبة الذي ما

ألف في فنه أجمع منه ، ولنوردها فإن فيها دلالة على فضله وعظم قدر الكتاب ،
وهي : « اللهم طيب بريحان ذكرك أنفاسَ أنفسنا الناشقة ، وعلّل بجريال حبك
جوانح أرواحنا العاشقة ، وسدد إلى أهداف معرفتك نبالَ نبلنا الراشقة ، واستخدم
في تدوين حمدك شبا أقلامنا الماشقة ، ودلّ على حضرة قدسك خطرات خواطرنا
الذائقة ، وأبين لنا سبيلَ السعادة التي جعلتَ فيها الكمال الأخير لهذه الأنفس
الناطقة ، واصرفنا عند سلوكها عن القواطع العائقة ، حتى نأمن مخاوف أجبالها
الشاهقة ، وأحزابها المنافقة ، وأوهامها الطارئة الطارقة ، وبرازخها القاسية الغاسقة ،
فلا تسرق بضائعا العوائد السارية السارقة ، ولا تحجبنا عنك العوارض الجسمية
اللاحقة ، ولا الأنوار المغلظة البارقة ، ولا العقول المفارقة ، يا من له الحكمة البالغة
والعناية السابقة ، وصلّ على عبدك ورسولك محمد درة عقود أحبابك المتناسقة ،
وجالب بضائع توحيدك النافقة ، المؤيد بالبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة ،
ما أطلعت أفلاك الأدواح زهر أزهارها الرائقة ، وحدت قطار السحاب حداة
رعودها السائقة ، وجمعت ريح الصبا بين قدود أغصانها المتعائقة .

« أما بعد ، فإنه لما ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف الله
حدودها ، الصادقة بنصر الله للفتة القليلة على الفتة الكثيرة وعودها - وصلّ الله
تعالى عوائد صنعه الجميل لديها ، وأبقاها دار إيمان إلى أن يرث الله تعالى الأرض
ومنّ عليها - «ديوانُ الصبابة»^١ وهو الموضوع الذي اشتمل من أبطال العشاق
على الكثير ، واستوعب من أقوالهم الحديثة والقديمة كلّ تنظيم ونثر ، وأسدى
في غزل غزله وألحم ، ودلّ على مصارع شهدائهم من وقف وترحم ، فصدق
الخبر المخبر ، وطمت اللجة التي لا تُعبر ، وتأرجّج من مسراه المسك والعنبر ،
وقالت العشاق عند طلوع قمره : الله أكبر :

مررت بالعشاق قد كبروا وكان بالقربِ صبيّ كريم

١ كتاب من تأليف شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة .

فقلت : ما بالهم ؟ قال لي : ألقى للحب كتاباً كريم^١

ولا غرو أن أقام بهذه الآفاق ، أسواق الأشواق ، وزاحم الزفرات في مسالك
الأطواق ، وأسال جواهر المدامع من بين أطباق تلك الحقائق^٢ ، وفتك نسيمها
الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق :

جنى النسيم علينا وما تبيّنت عُذرة^٣
إذ صيرَ الخلق نجداً والأرض أبناء عذرة

فوقع للحجة المصرية التسليم^٢ ، وقالت ألسنة الأقلام معربة عن ألسنة الأقاليم :

سلمت لمصر في الهوى من بلد يهدي هواؤه لدى استنشاقه
من ينكر دعواي فقل عني له تكفي امرأة العزيز من عشاقه

فغمر المحافل والمجالس ، واستجلس الراكب واستركب الجالس ، يدعو الأدب
إلى مآدبه فلا يتوقف ، ويلقي عصا سحره المصري فتتلقف ، ما شئت من ترتيب
غريب ، وتطريب من بنان أريب ، يشير إلى الشعر فتتقاد إليه عيونه ، ويصيح
بالأدب الشريد فتلبيه فنونه ، وأنهى خبره للعلوم المقدسة ، ومدارك العز الموطدة
المؤسسة ، سما به الجدد صعداً إلى المجلس السلطاني مقر الكمال ، ومطمح الأبصار
والآمال ، حيث رفارف العز قد انسدت ، وموازين القسط قد عدلت ، وفصول
الفضل قد اعتدلت ، وورق أوراق المحامد قد هدلت ، مجلس السلطان المجاهد ،
الفتاح الماهد ، المتحلي في ريعان العمر الحديد ، والملك السعيد ، بحلى القانت
الزاهد ، شمس أفق الملة ، وفخر الخلفاء الجلّة ، بدر هالات السروج المجاهدة ،
أسد الأبطال البارزة إلى حومة الهياج الناهدة ، معشي الأبصار المشاهدة ، مظهر
رضي الله تعالى عن هذه الأمة الغريبة عن الأنصار والأقطار ، من وراء أمواج^٣

١ ق : الأطباق . ٢ كذا قال ، ولكن ابن أبي حجلة مغربي المولد ، استوطن القاهرة .

٣ أمواج : سقطت من ق .

البحر الزخار ، باختياره لها واعتيامه ، وملبسها برود اليمن والأمان ببركة أيامه ،
ومن أطلع الله تعالى أنوار الجبال من أفق جبينه ، وأنشأ أمطار السماح من غمام
يمينه ، وأجرى في الأرض المثل السائر بحلمه وبسالته ودينه ، أمين الله تعالى على
عهدة الإسلام بهذا القطر وابن أمينه وابن أمينه ، فخر الأقطار والأمصار ، ومطمح
الأيدي وملمح الأبصار ، وسلالة سعد بن عبادة سيد الأنصار ، ومن لو نطق
الدين الحنفي لحياه وفداه ، أو تمثل الكمال صورة ما تعداه ، مولانا السلطان
الإمام العالم العامل المجاهد أمير المسلمين أبو عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين أبي
الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر الأنصاري
الخرزجي ، جعل الله تعالى ثغر الثغر مبتسماً عن شنب نصره ، والفتح المبين
مذخوراً لعصره ، كما قصر آداب الدين والدنيا على مقاصير قصره ، وسوغه
من أشات مواهب الكمال ما تعجز الألسن عن حصره ، ولا زالت أفنان الأقلام
تتحف الأقاليم بجني فنون هصره ، فخصته عين استحسانه أبقاه الله تعالى بلحظة
لحظ ، وما يلقاها إلا ذو حظ ، وصدرت إلي منه الإشارة الكريمة بالإملاء في
فنه ، والمنادمة على بنت دته ، وحسب الشحم من ذي ورم والله سبحانه يجعلني
عند ظنه ، ومتى قورن المثري بالترب ، أو وزن المشرق بالمغرب ؟ شتان بين من
تجلى الشمس منه فوق منصتها ، وبين من يشره أفقه الغربي لابتلاع قرصتها ،
لكني امتثلت ، ورشت ونثلت ، ومكرهاً لا بطلاً مثلت ، وكيف يتفرغ
للتأليف ، ويتبرع للوفاء بهذا التكليف ، من حمل الدنيا في سن الكهولة على
كاهله ، وركض طرف الهوى بين معارفه ومجاهله ، واشترى السهر بالنوم ،
واستنفد سواد الليل وبياض اليوم ، في بعث يجهز ، وفرصة تنهز ، وثغر للدين
يُسَد ، وأزر للملك يشد ، وقصة ترفع ، ووساطة تنفع ، وعدل يحرص على
بذله ، وهوى يجهد في عدله ، وكريم قوم ينصف من نذله ، ودين تزاح الشوائب
عن سبيله ، وسياسة تشهد للسلطان بنبله وإصابة نبيله ، ما بين سيف وقلم ،
وراحة وألم ، وحرب وسلم ، ونشر علم أو علم ، وجيش يعرض ، وعطاء

يُفرض ، وقرض حسن لله تعالى يُقرَض ، في وطن توافر العدو على حصره ،
ودار به دَوَّر السوار على حصره ، وملك قصر الصبر والتوكل على قصره ، وعددُ
نسبته من العدد العظيم الطاقة ، الشديد الإضاقة ، نسبةُ الشعرة من جلد الناقة ،
وبالله نستدفع المكروه ، وإليه نمد الأيدي ونصرف الوجوه ، وسألت منه - أيده
الله تعالى - القنوع بما يسره الوقت ، ممّا لا يناله المَقْت ، والذهاب بهذا الغرض
لما يليق بالترب والسن ، ويؤمن من اعتراض الإنس والجن ، وما كنت ممن
أثر على الجلد الهزل ، واعتاض من الغَزَل الرقيق الغَزَل بشيمة الجزل ، ولا آنف
من ذكر الهوى بعد أن خُضتُ غماره ، واجتنت ثماره ، وأقمت مناسكه ورميت
جماره ، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة ، فالهوى أول تميمة قلّدتني الداية ،
والترب التي عرفتُها في البداية ، وأنا الذي عن عُروته نُبتُ ، وبُعثتُ إلى الرصافة
لأُرقّ فذُبْتُ ، إلى أن تبين الرشد من الغي ، وصار النشر إلى الطي ، وتصايح
ولّدان الحيّ ، كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم كما منّ عليّ :

جزى الله عني زاجرَ الشيب خير ما جزى ناصحاً فازت يدايَ بخبره
ألفتُ طريقَ الحبّ حتى إذا انتهى تعوضتُ حبّ الله عن حبّ غيره

حال السواد بحال الفؤاد ، وصوّح المرعى فانقطعت الرؤاد ، ونهاني ازورار خيال
الزوراء ، والتفات عاذل الشيب عن المقلة الحوراء ، وكيف الأمان ، وقد طلع
منه النذير العريان ، يدل على الخبر بخبره ، وينذر بهاذم اللذات على أثره ، والله
در القائل :

دعنيَ عينكَ نحو الصبّا دعاء يردد في كلّ ساعة
فلولا ، وحقّك ، عذر المشيب لقلتُ لعينيك : سمعاً وطاعة

ولولا أن طيف هذا الكتاب الوارد طَرَقَ مضجعي وقد كاد يبدو الحاجب ،
ويضيع من الفرض الواجب ، ويعجب من نوم الغفلة العاجب ، لحرّيت معه في

ميدانه ، وعقدتُ بناني بينانه ، وتركتُ شاني وإن رغم الشاني لشانه ، وقلت
معتذراً عن التهويم في بعض أحيانه :

أهلاً بطيفك زائراً أو عائداً تفديك نفسي غائباً أو شاهداً
يا مَنْ على طيف الخيالِ أحالي أتظنُّ جفني مثل جفحك راقداً
ما نمتُ ، لكنَّ الخيالَ يلمُّ بي فيجله طرفي فيُطرقُ ساجداً

ومن العصمة أن لا تجد ، هلاً قبل المشيب ، ومع الزمن القشيب ، وقبل أن تمخض
القربة ، وتبنى الخانقاه والتربة ، وتؤنس بالله الغربة ، وعلى ذلك فقد أثر ، وباء
قلبي المعثر ، اللهم لا أكثر :

وبدا له من بعد ما اندمك الهوى برقٌ تألقَ موهناً لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه صعبُ الذرا متمنعٌ أركانه
فبدا لينظر كيف لاح ، فلم يطق نظراً إليه ورددت أشجانه
فالنارُ ما اشتملت عليه ضلوعه والماءُ ما سمحت به أجفانه

وجعلت الإملاء على حمل مؤازرته أيدى الله تعالى علاوة ، وبعد الفراغ من ألوان
ذلك الخوان حلاوة ، وقلت أناطب مؤلف كتاب « الصبابة » بما يعتمده جانب
إنصافه ، ويغطي على نقصٍ إن وقع فيه كمال أوصافه :

يا مَنْ أدار من الصبابة بيننا قدحاً ينمُّ المسكُ من ريتاهُ
وأنى بريحان الحديث فكلما سمح النديمُ براحه حيّاهُ
أنا لا أهيم بذكر مَنْ قتل الهوى لكن أهيمُ بذكرٍ من أحياهُ

وعنَّ لي أن أذهب بهذا الحب المذهب المتأدي إلى البقاء ، الموصل إلى ذروة السعادة
في معارج الارتقاء ، الذي غايته نعيم لا ينقضي أمده ، ولا ينفد مدده ، ولا
يُفصل وصله ، ولا يفارق الفرع أصله ، حب الله المبلغ إلى قربهِ ، المستدعي لرضاه

وحبه ، المؤثر بالنظر إلى وجهه ، ويا لها من غاية ، الملقى رَحْلَ المتصف به بعد قطع بحار الفناء على ساحل الولاية .

« وكنت وقفت من الكتب المؤلفة في المحبة على جملة منها كتاب يشهده العوام ويستخفه الهوام ، ورسالة ابن واصل رسالة مهادرة ، تطفو من دارة إلى دارة ، في مطاردة هر وفارة ، وكتاب ابن الدباغ القيرواني^١ كتاب مفرقع ، ووجه المقصود منه متبرقع ، وكتاب ابن خلصون وهو أعد لها لولا بداوة تَسِيمُ الخُرطوم ، وتناسب الحمل المخطوم ، فكنت بما ذكر لا أقنع ، وأقول ما أصنع ، فالله يعطي ويمنع :

قلتُ للساخرِ الذي رفعَ الأنفَ واعتلى
أنتَ لم تأمنِ الهوى لا تُعَيِّرُ فتُبْتلى

شعر :

وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذُقْتُه^٢ فَعَجِبْتُ كيف يموت من لا يعشق^٣

ومن المنقول : لا تُظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك .

بلاني الحبُّ فيكَ بما بلاني فشاني أن تفيض غروب شاني

أجل بلاني بالعرض الذي هو من القلوب سر أسرارها ، ومن أفنان الأذهان بمنزلة أزهارها ، ومن الموجودات وأطوارها قطبُ مدارها ؛ ليكون كتابي هذا المقدم على المأزق المهلك ، المتشعب بما لا يملك ، وأن يقنع الاتصاف ، فعسى أن يشفع الإنصاف ، والاقتراف ، يدرؤه الاعتراف ، أنا عند المنكسرة قلوبهم ، ولا تجود يد ، إلا بما تجدد ، وكل يُنفق ممّا آتاه الله :

وابنُ اللبّونِ إذا ما لُزَّ في قرَنٍ لم يستطعُ صولةَ البُزلِ القناعيسِ^٣

١ لعله يشير إلى كتاب « مشارق أنوار القلوب » لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ (- ٦٩٦) . وقد نشره الأستاذ هـ . ريتير (دار صادر : ١٩٥٩) .

٢ البيت للنتبي من قصيدته التي مطلعها « أرق على أرق ومثلي يأرق » .

٣ البيت لحرير ، ديوانه : ٢٥٠ .

وعسى الذي أنطق شوقاً ، أن ينطق ذوقاً ، والذي حرك سفلاً أن يحرك فوقاً ،
والذي يسره مقالاً ، أن يكفيه حالاً .

فأولُ الغَيْثِ طَلٌّ * ثم ينسكب

* * *
الحرب أول ما تكون بحاجة

* * *
وإنَّ الحربَ أولها الكلام^١

نحمد الله سبحانه على الكلف بهذه الطريقة ﴿وما يُلْقَاهَا إِلَّا ذو حظٍّ عظيم﴾
(فصلت : ٣٥) وللأرض نصيب من كأس الكريم^٢ :

أليسَ قليلاً نظرةٌ إن نظرتها إِيَّكَ ؟ وكلاً ليس منكِ قليلُ

* * *
فاتني أن أرى الديارَ بطرفي فلعلِّي أرى الديارَ بسمعي^٣

وعلى ذلك فذهبت في ترتيبه أغرب المذاهب ، وقرعت في التماس الإعانة
باب الجواد الواهب ، وأطلعت فصوله في ليل طلوع نجوم الغياهب ، وعرضت
كتائب العزيمة عرضاً ، وأقرضت الله قرضاً ، وجعلته شجرة وأرضاً ، فالشجرة
المحبة مناسبة وتشبيها ، وإشارة لما ورد في الكتب المنزلة وتنبيها ، والأرض النفوس
التي تغرس فيها ، والأغصان أقسامها التي تستوفيها ، والأوراق حكاياتها التي
تحكيها ، وأزهارها أشعارها التي تحييها ، والوصول إلى الله تعالى ثمرتها التي ندخرها
بفضل الله ونقنتيها ، شجرة لعمر الله يانعة ، وعلى الزعازع متمانة ، ظلها ظليل ،
والطرف عن مداها كليل ، والفائز بجناها قليل ، رست في التخوم ، وسمت

١ صدره : فإن النار بالعودين تذكى ؛ يرد في رسالة لنصر بن سيار يستنجد بها الخليفة الأموي
عند ظهور المسودة .

٢ عكس قول الشاعر : وللأرض من كأس الكرام نصيب ، وكذلك ثبت النص في ق .

٣ البيت للشريف ، ديوانه ١ : ٦٥٨ وديوان الصبابة : ٤٩ .

إلى النجوم ، وتنزهت عن أعراض الجسوم ، والرياح الحسوم ، وسقيت بالعلوم ،
وغذيت بالفهوم ، وحملت كمائمها بالزهر المكتوم ، ووفيت ثمرتها بالغرض
المروم ، فاز من استأثر بجنائها ، وتعنّى من غني بلفظها دون معناها ، فمن استصبح
بدونها استضاء بسناها ، ما أبعدا وما أدناها ، عيناً ملأت الأكف بغناها ، كم
بين أوراقها من قلب مقلّب ، وفي هوائها من هوّ مغلّب ، وكم فوق أفنانها من
صادح ، وكم في التماس سقيطها من كادح ، وكم دونها من خطب فادح ،
ولأربابها من هاج ومادح ، تنوّعت أسماؤها ، ولم تتنوع أرضها ولا سماؤها ،
فسميت نخلة تهز وتجنّ ، وزيتونة مباركة يُستصبح بزيتها الأسنى ، وسِدرة إليها
ينتهي المعنى ، أصلها للوجود أصل ، وليس لها كالشجر جنس ولا فصل ، وتربتها
روح ونفس عقل ، وشرفها بعضده بديهة ونقل ، يحط الهائمون بفنائها ، ويصعد
السالكون حول بنائها ، تحترق السبع الطباق ببراقها ، وتمحى ظلّم الحس بنور
إشراقها ، فسبحان الذي جعلها قطب الأفلاك ، ومدافن الأضواء والأحلاك ،
ومغرد طيور الأملاك ، وسبب انتظام هذه الأسلاك ، لم يحلّ فيها طريد بعيد ،
ولا اتصف بصفاتهما إلا سعيد ، ولا اعتلق بأوجها هاوٍ في حضيض ، ولا بمحض
برهانها متخبط في شرك نقيض ، ولا تعرّض لشيم بوارقها متسم بسمة بغيض ،
الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ومنه نستزيد
الاستغراق في بحارها ، والاستنشاق لنواسم أسحارها ، والاستدلال بذرى أفنانها
عليه ، والوصول بسبب ذلك إليه ، إنه ولي ذلك سبحانه ، فطاب لعمرى المنبت
والنابت ، وسما الفرعُ الباسق ورسا الأصل الثابت ، وفاءت الأفنان ، وزخرفت
الحنان ، وتعددت الأوراق والزهرات والأغصان ، ولم أترك فنناً إلا جمعت
بينه وبين مناسبه ، ولا فرعاً إلا ضمّمته إلى ما يليق به ، واستكثرت من الشعر
لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عذبات أفنانها ، ويؤدي إلى الأنوف
روائح بستانها ، وهو الزمار الذي ينفخ الشوق في يراعتة ، والعزيمة التي تُنطق
مجنون الوجد من ساعته ، وسلعة ألسن العشاق ، وترجمان ضمير الأشواق ،

ومجتملى صور المعاني الرقاق ، ومكامن قنائص الأذواق ، به عبر الواجدون عن
وجدهم ، ومشى المحبون إلى قصدهم ، وهو رسول الاستلطاف ، ومترل
الألطاف ، اشتمل على الوزن المطرب ، والجمال المعجب المغرب ، وكان
للأوطان مركباً ، ولانفعال النفوس سبباً ، فلا شيء أنسب منه للحديث في المحبة ،
ولا أقرب للنفوس الصبّة ، واجتلبت الكثير من الحكايات وهي نوافل فروض
الحقائق ، ووسائل مجالس الرقائق ، ومراوح النفوس من كدّ الأفكار ، وإحماض
مسارح الأخبار ، وحظ جارحة السمع من منح الاعتبار ، وبعض الجواذب لنفوس
المحبين ، والبواعث لهمم السالكين ، وحجتها واضحة بقوله تعالى ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ
عَلَيْكَ ﴾ (هود : ١٢٠) في القرآن المبين ، ونقلت شواهد من الحديث والخبر
تجري صاحبها تجرى الزكاة من الأموال ، والخواطر من الأحوال ، ويجري ما
سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال ، ليكون هذا الكتاب لعموم خيره ، مسرحاً
للفاره وغيره ، ويجد كل ميداناً لسيره ، وملتقطاً لطيره ، ومحكاً لغيره ، فمن
فاق كلف بأصوله ، ومن قصر قنع بفصوله ، ومن وصل حمد الله تعالى على
وصوله ، وسميته « روضة التعريف بالحب الشريف » ويحتوي على أرض
زكية ، وشجرات فلكية ، وثمرات ملكية ، وعيون غير بكية .

« والحب حياة النفوس الموات ، وعلة امتزاج المركبات ، وسبب ازدواج
الحيوان والنبات ، وسر قوله عز وجل ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ
نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ (الأنعام : ١٢٢) ليس كالحب
الذي دوّن فيه المدوّنون ، ولعبت بكُرّة أقباسه صوالج الجنون ، وقاد الهوى أهله
بحبل الهون ، وسأقت فيه المنى للمنون ، حين نظرت النفوس من سفلى الجنبتين ،
ورضيت الأثر عن العين ، وباعت الحق بالمين ، ولم تحصل إلاّ على خفيّ حنين ،
وارحمنا لعشاق الصور ، وسبّاق ملاعب الهوى والهوى ، لقد كلفوا بالزخارف
الحائنة الحائلة ، والمحاسن الزائفة الزائلة ، وسليع الجبانة ، وبضائع الإهانة ،
أزمان التمتع بهم قصيرة ، والأنكاد عليهم مغيرة ، فتراهم ما بين طعين بعامل

قَدَّ ، ومضرج بدم خدَّ ، وأسير ثغر قد أعوز فداؤه ، وسقيم طَرْف قد
أعضل داؤه ، وما شئت من ليل يُسهر ، ونداء به يُجهر ، وجُيوب تُشق ، وبصائر
تخطف أبصارها إذا لمع البرق ، ونواسم تحمل التحيات ، وخلع أليك تتلقى
بخلع الأريحيات ، وربما اشتد الختل ، وأصاب النبل فكان الخبل ، قلوب اشتغلت
عن الله فشغلها الله بغيره ، وهب الحب الجسماني لا تبعث عليه شهوة بهيمية ،
ولا تدعو إليه قوة وهمية ، أليست الداعية مرتفعة ، والباعثة منقطعة ، وصورة
الحسن دائرة ، وأجزاؤه المتناظرة متناثرة؟ أليس الجراب العنصري عائداً إلى أصله؟
أليس الجنس مفارقاً لفصله؟ والله درُّ علي رضي الله تعالى عنه ، وقد نظر إلى قدح
الماء وقد أراد أن يشرب ، وعن الاعتبار أعرب ، فقال : كم فيك من خدَّ
أسيل ، وطرف كحيل ! فأواه مكررة مرددة ، ووالهفاء معادة مجددة ، على
قلب أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ، ويقول يا
ليتني لم أشرك بربي أحداً ، وحسبنا مرارة الفراق ذلاً ، وفقد النقد قلاً ، والغفلة
عن الله شقاء محتوماً ، والكآبة على الفائت شوماً :

صدّني عن حلاوة التشيع اتّقائي مرارة التوديع
لم يقم أنسُ ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميع

وإن كانت الشهوة فأخس بها داعية ، وإلى الفضيحة ساعية ، حسبك من حمار
يعلن بنداء المحبة نهاقه ، ويقذفه على السباق احتياجه إلى السّفاد واشتياقه ، أسير
خبال ، وصريع مبال ، أولى له ثم أولى لو تأمل محاسن الجسوم ما أكذب رائدها
المطّري ، وأخبت زخرفها المغّري ، وأقصر مدة استمتاعها ، وأكثر المساعي
تحت قناعها :

على وجه ميّ مسحة من ملاحه وتحت الثياب العار لو كان بادياً^١
ما ثمّ إلا أنفاس تركد وتخبث ، وعلل تنشأ وتحدث ، وزخارف حسن تُعاهد ثمّ

١ ينسب لذي الرمة (ديوانه : ٦٧٥) وقيل بل وضع على لسانه .

تنكث ، وتركيبٌ يطلبه التحليل بدّينه ، ويأخذ أثره بعد عينه ، وأنس يُفقد ،
واجتماع كأنّ لم يُعقد ، وفراق إن لم يكن فكأن قد :

ومن سرّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقد

* * *

منغصّ العيش لا يأوي إلى دعة من كان ذا بلد أو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم ترضَ همته سكنى مكان ولم يسكن إلى أحد

وقلت وقد مات سكن عزيز عليّ أيام التغرب بسلا عظم جزعي عليه :

يا قلبُ كم هذا الجوى والحفوت ذمّاءك استبقِ لثلاً يفوت
فقال لا حول ولا قول لي قد كان ما كان فحسبي السكوت
فارقني الرشد وفارقتُه لمّا تعشقتُ بشيء يموت

والزمان لا يعتبر ، وحاصله خبر ، والحازم من نظر في العواقب ، نظر المراقب ،
وعرف الإضاعة ، ولم يجعل الحلم بضاعة ، إنما الحب الحقيقي حبٌّ يصعدك
ويرقيك ، ويخلدك ويبقيك ، ويطعمك ويسقيك ، ويخلصك إلى فئة السعادة ممّا
يشقّيك ، ويجعل لك الكون روضاً ، ومشرب الحق حوضاً ، ويُجنّيك زهر المنى ،
ويُغنيك عن أهل الفقر والغنى ، ويخضع التيجان لنعلك ، ويجعل الكون متصرف
فعلك ، ليس إلّا الحب ، ثمّ الوصل والقرب ، ثمّ الشهود ، ثمّ البقاء بعدما
اضمحلّ الوجود ، فشفيت الآلام ، وسقط الملام ، وذهبت الأضغاث والأحلام ،
واختصر الكلام ، ومحيت الرسوم وخفيت الأعلام ، ولمن الملك اليوم والسلام ،
فالحنّ الحذر ، أن يُعجل النفس سيرها ، ويفارق القفص طيرها ، وهي بالعرّض
الفاني متشبّطة ، وبنائي الثقيل مرتبطة ، وبصحبة الفاني مغتبطة ﴿ أن تقول نفس ﴾

يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرامة فأكون من المحسنين ﴿ (الزمر: ٥٦-٥٨) وفي ذلك قلت :

أعشاق غير الواحد الآخر الباقي
جننتم بما يفنى وتبقى مضاضة
وتربط بالأجسام نفساً حياتها
فلا هي فازت بالذي علفت به
فراق وقسر وانقطاع وظلمة
كأنني بها من بعد ما كشف الغطا
تقلب كفتيها بخيط موصل
فلا تطعموها السم في الشهد ضلة
بما اكتسبت تسعى إلى مستقرها
وليس لها بعد التفرق حيلة
ولو كان مرمى الحزن منها إلى مدى
فجدوا فإن الأمر جد ، وشمروا
ولا تطلقوا في الحس ثني عنانها
ودسوا لها المعنى رويداً وأيقظوا
ومهما أفاقت فافتحوا لاعتبارها
وعاقبة الفاني اشرحوا وتلطّفوا
فإن سكرت واستشرفت عند سكرها
أطيلوا على روض الجمال خطورها
وخلّوا لهيب الشوق يطوي بها الفلا
فما هو إلا أن تحط رحالها

جنونكم والله أعياء على الراقي
تعذب بين البين مهجة مشتاق
مباينة الأجسام بالجواهر الراقي
ولا رأس مال كان ينفعها باقي
قني البعد من نيل السعادة يا وافي
صريعة أحزان لديغة أشواق
رشيقة قد دون سبعة أطباق
فذلك سم لا يداوى بدرياق
فإمّا بوفر محسب أو بإملاق
سوى ندم يذري مدامع آماق
لهان الأسى ما بين وخذ وإعناق
بفضل ارتياض أو بإصلاح أخلاق
وشيموا بها للحق لمحة إشراق
بصيرتها من بعد نوم وإغراق
مصاريع أبواب وأقفال أغلاق
بأخلاقها المرضي تلطف إشفاق
لماهيّة المسقى ومعرفة الساق
إلى أن يقوم الوجد فيها على ساق
إلى الوجد في مسرى رموز وأذواق
بمثنوى التجلي والشهود بإطلاق

وتفنى إذا ما شاهدت عن شهودها . وقد فني الفاني وقد بقي الباقي
هنالك تلقى العيش تضيفو ظلاله وتنعم من عين الحياة برقراق
وما قيسم الأرزاق إلا عجيبة فلا تطرد السؤال يا خير رزاق

وقد أخذ الكلام في هذا الافتتاح حدّه ، وبلغ النهر مدّه ، فلأخذ أثر هذا الذي
سردت ، في تقرير ما أردت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ،
فنقول : ينقسم هذا الموضوع إلى أرض ، وشجر غص ، وكل منها ميسور جدّة ،
وفنّ على حدّة ، ما شئت من مرأى ومستمتع ، فمن شاء أفرد ومن شاء جمّع ،
فلنبداً بالأرض والفلاحة ، والتكسير والمساحة ، وتعيين حدود تلك الساحة ، ثم
نأتي بالشجرة التي تؤمل جناها ، وننظر إناها ، ونجعل الزاد المبلغ معناها ،
قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

برنامج هذا الكتاب الذي يحصر الأجناس والفصول ، ويردّ الفروع إلى
الأصول ، ويسر الباحث عن مسائله بسبب الوصول ، بحول الله وقوته :

خطبة الأعراس ، وتوطئة الغراس ، وتنحصر في جملتين :
الحملة الأولى : في صفة الأرض وأجزائها ، وجعل الاختيار بإزائها ، وفيها رتب :

الرتبة الأولى — رتبة الأطباق المفروضة ، والاعتبارات المعروضة ، وفيه
مقدمة وأطباق :

المقدمة في تعيين الأرض المذكورة .

الطبق الأول : طبق القلب .

الطبق الثاني : طبق الروح .

الطبق الثالث : طبق النفس .

الطبق الرابع : طبق العقل .

الرتبة الثانية — رتبة العروق الباطنة ، والشعب الكامنة ، وفيها فصول :

- الفصل الأول : في العروق المعدنية .
- الفصل الثاني : في المقررات العينية .
- الفصل الثالث : في المدبرات البدنية .
- الفصل الرابع : في البحوث البرهانية .

الحملة الثانية : في صفة الفلاحة والعمل ، المتكفل فيها بنيل الأمل ، وفيها اختيارات :

- الاختيار الأول : فيما يصلح للاعتمار من هذه الأرض ، وفيه فصول :
- الفصل الأول : في أرض النفس المطمئنة .
- الفصل الثاني : في أرض النفس الأمارة .
- الفصل الثالث : في أرض النفس اللوامة .

الاختيار الثاني : في محركات العزيمة ، لاعتمار هذه الأرض الكريمة ، وفيه فصول :

- الفصل الأول : في الجذب وما يتصل بذلك .
- الفصل الثاني : في الوعظ المثمر لليقظة .
- الفصل الثالث : في ذم الكسل .

الاختيار الثالث : يشتمل على جلب الماء لسقي هذه الأرض من عين العلم في جدولي العقل المحرر والنقل المقرر ، وفيه مقدمة في فضل العلم وتعدد أجناسه ، وفصول :

- الفصل الأول : في جدول العقل .
- الفصل الثاني : في جدول النقل .
- الفصل الثالث : في مقدار الماء المجلوب ، للفلاح المطلوب .
- الفصل الرابع : في غبار التكوين ، وسبب التلوين .

الاختيار الرابع : في الحرث ، وإخراج لبن هذه الفلاحة من بين الدم
والفرث ، وفيه أقسام :

أولها : القلب الأول .

ثانيها : القلب الثاني الذي عليه المعول .

ثالثها : في سكة الازدراع والتعمير ، وهو مظنة التثمير .

الاختيار الخامس : في تنظيف الأرض المعتمرة من الأرض الحبيثة ، والحدرد
المعرضة والشعب المذمومة ، وفيه فصول :

الفصل الأول : في إزالة شكوك تسبق إلى المعتقد غالباً .

الفصل الثاني : في قلع الشجر التي تضر بهذه الأرض وتعاديها بالطبع .

الاختيار السادس : في أمور ضرورية تلزم لهذه الفلاحة ، وفيه فصول :
الفصل الأول : في أمراض يُشرع في علاجها ، مما يرجع لطبع الأرض
ومزاجها .

الفصل الثاني : في اختيار أنواعها وأجزائها .

الفصل الثالث : في أقوال تليق بأفخاص الفلاح وإصحاره ، عند ملاحظة
عجائب الكون وآثاره .

الفصل الرابع : في الوقت المختار لغراسة الأسباب ، في الحب اللباب ،
وتنحصر في مقدمة علمية ، وجرثومة جرمية : المقدمة العلمية في ترتيب المحبة
والمعرفة ، الجرثومة الجرمية تنقسم إلى بيان يعطي الصورة ، ويشرح الضرورة ،
وإلى بطن وظهر ، وسر وجهر ، وباسط ، وبرزخ واسط ، فالباطن الشرع
والنقل ، وينقسم إلى أصول :

الأصل الأول : الكلام في النبوة من حيث النقل .

الأصل الثاني : في الإيمان والاعتبار العامي .

الأصل الثالث : فيما يتبع ذلك من اليقظة والتوبة في حق غير المحتاج إلى ذلك .

الأصل الرابع : في تقرير العناية والتوفيق في حق غير المحتاج إلى ذلك .
الأصل الخامس : في الموعظة والسماع من حيث تهذيب الجميع ، والظاهر
الطبع والعقل ، وينقسم إلى أصول :

الأصل الأول : جزء الفلسفة العلمي والعملية .

الأصل الثاني : سلامة الفطرة في حق المستغني عن ذلك .

الأصل الثالث : في معرفة الجمال والكمال .

الأصل الرابع : في الاعتبار الخاصي .

الأصل الخامس : السلوك بالفكر .

الأصل السادس : في التشبيه بالمبدأ الأول ، باسط الذكر الباسط ، والبرزخ
الواسط ، الصاعد من التخوم ، إلى النجوم ، وهو من أخص الأشياء بباطن
الشجرة ، وأصولها المعتبرة ، ويشتمل على مقدمة وثلاثة أصول :

الأصل الأول : الأدعية والأذكار ، وله عشر شعب .

الأصل الثاني : أصل الأسماء ، وهي أصول الأرض والسماء ، وله تسع
وتسعون شعبة .

الأصل الثالث : أصل السِّمياء ، وهو الذي عفن بعضه وبقي الانتفاع ببعضه .

العمود المشتمل على القشر والعود ، والجنى المسوعود ، ينقسم قسمين :
قشر وخشب ، ودر مخشَلَب ، والقشر ظاهر يكسر ويخذو ، وباطن ينمي
ويغذو ، فظاهره الذي يكسر ويخذو يتضمن الكلام في المحبة وأقسامها من حيث
اللسان ، لا من حيث نوع الإنسان ، وباطنه الذي ينمي ويغذو يتضمن الثناء على
المحبة طبعاً وعقلاً ، وشرعاً ونقلاً .

الحشب الذي يُتخذ منه النشب ينقسم إلى أقسام :

القسم الأول : في الحدود والمعرفات ، والأسماء الدالة عليها والصفات .

القسم الثاني : معقول معناها ، المتجلى فيه نور سَنَاهَا .

القسم الثالث : ارتباطها بالمقامات ، واختصاصها فيها بالكرامات .
القسم الرابع : تبين ضرورتها ، وإيضاح مزيتها .
الفرع الصاعد في الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ،
إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجِرم شريف .
القشر : الحدود للمعرفة والرسوم ، وخواص العارف الذي هو المعروف بها
والموسوم ، وينقسم إلى فصول :
الفصل الأول : في حدود المعرفة ورسومها وما قيل فيها .
الفصل الثاني : في أوصاف العارف .
الفصل الثالث : في تفضيل العارف .
الفصل الرابع : في علوم العارف .
والجِرم الشريف ، من الفرع المنيف ، ينقسم إلى ظاهر ، وباطن ، وقلب .
فالظاهر ينقسم إلى أقسام : الكلام في الأخلاق ومنشئها وطباعها بحسب القوى
النفسانية وإفراطها وتفریطها واعتدالها وعلاجها ، وفيه المجاهدات .
والباطن يتضمن الكلام في أن النظر إلى وجه الله تعالى هو السعادة الكبرى
بكل نظر واعتبار .
والقلب قلب الغصن يتضمن الرياضة والسلوك على المقامات كلها ، ويتفرع
منه عشرة غصون :

- الغصن الأول : غصن فروع البدايات .
- الغصن الثاني : غصن فروع الأبواب .
- الغصن الثالث : غصن فروع المعاملات .
- الغصن الرابع : غصن فروع الأخلاق .
- الغصن الخامس : غصن فروع الأصول .
- الغصن السادس : غصن فروع الأدوية .

الغصن السابع : غصن فروع الأحوال .
الغصن الثامن : غصن فروع الولايات .
الغصن التاسع : غصن فروع الحقائق .
الغصن العاشر : غصن فروع النهايات ، ولكل فروع أوراق ، ويلحق به
صورة السلوك بالذكر حتى يتأتى الوصول ، وعلى المقصود الحصول ، والكلام
على زهرات الطوالع واللوائح والبواده والواردات ، ونختم بالحتى ، المقترن بنيل
المنى ، وهي الولاية .

تفرع ضخام الغصون ، من شجرة السر المصُون ، وهي :
غصن المحبوبات وأقسامها ، وتنقسم إلى أربعة أفنان :
الفن الأول : فن الرب المحبوب .
الفن الثاني : فن العبد المحبوب .
الفن الثالث : فن الدنيا المحبوبة .
الفن الرابع : فن الآخرة المحبوبة .
غصن المحبين ، وأصنافهم المرتبين ، ينقسم إلى مقدمة بيان ، وستة أفنان :
الفن الأول : في رأي الفلاسفة الأقدمين .
الفن الثاني : في رأي أهل الأنوار والإشراقين .
الفن الثالث : في رأي الحكماء الإسلاميين .
الفن الرابع : في رأي المكملين بزعمهم المتممين .
الفن الخامس : في أهل الوحدة المطلقة من المتوغلين .
الفن السادس : في الصوفية سادة المسلمين .
غصن علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصبّة ، وينقسم إلى ثلاثة أفنان :
الفن الأول : فيما يرجع إلى حقوق المحبوب .
الفن الثاني : فيما يرجع إلى باطن المحب .

الفن الثالث : فيما يرجع إلى ظاهره .

غصن اختيار المحبين في ميدان جهادهم ، وتباين أحوال أفرادهم ، وهو ثلاثة أفنان :

الفن الأول : فن المجاهد الصريح .

الفن الثاني : فن المنبت الجريح .

الفن الثالث : فن الصريح الطريح .

جوائح الشجرة ، ومضار فلاحتها المعتبرة ، وينقسم إلى جوائح من نسبتها ، بالنظر إلى مائها وتربتها ، وإلى ما هو راجع إلى الخواطر— وهي على عدد الرياح— وإلى ما سببه غفلة الفلاح ، عذر الطائر الصادح ، على فرض القادح ، ووجود الهاجي والمادح .

صورة الشجرة ذات الحسن الباهر ، والجنى والأزاهر ، وآثارها للحسن الظاهر ، بفضل المريد القاهر ، لا إله إلاّ هو سبحانه له الحمد ؛ انتهت الخطبة التي تدل على ما وراءها .

وقال رحمه الله تعالى في آخر هذا الكتاب ما نصه : ونختم الكلام في هذه الشجرة والاستدلال على شرف هذه الفلاحة الضمنية بهذه الأبيات :

فلاحتنا لها القِدْحُ المَعْلَى وسَرَحَتنا الضمينةُ للشَّجَاحِ
أَلستَ ترى منادي الخمس نادى بمختلفِ الجهاتِ أو النواحي
يرددُ في الأذانِ لكلِّ واعٍ على الأذانِ حَيَّ على الفلاحِ

وهذا طائر على الشجرة صادح ، ولاحق كادح ، ومعتذر إن قدح قادح ، وتعارض هاج ومادح . قال المؤلف : ولا بد لنا من دري صادح على هذه الأفنان ، وشادٍ يهيج أشجان الحنان ، ويثير شجو الرأفة والحنان ، ويبين مجال الضرورة لذوي الاتصاف ، بكرم الأوصاف ، والناظرين إلى الهنات بعيون الإنصاف ، فيرحم من قد كان شره النقْد ، ويعذر مَنْ تشوّف لاستضعاف هذا القصد ،

والأعداء التي تقرر عنا هذا الطائر عديدة ، ومبدئة في الصدق معيدة ، وقريبة من الحق لا بعيدة ، فمنها أن هذا الفرض اليوم بأكثر الأرض ، ميدانٌ عدم فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله من يُجِلُّ كما يحب جواداً ، ونفيرٌ لا يُجيبه إلا من يكثر سواداً ، قد طُمست الأعلام ، وسقط الحمد والملام ، وما لجرح بميت إيلام ، فمدلول هذا الفن بهذه التخوم عنقاء مغرب ، وإكسير يحدث عنه غير واصل ولا مجرب ، إنما يرجع فيه إلى كتب مُقفلة ، وأغراض مغفلة ، وما عسى أن يعول المسكين مثلي على قاصر إدراكه ، مع اقتسام باله واشتراكه ؟ قصر العلم والعمل ، فاختلط المرعي والهمل ، وأخفق المسعى وخاب الأمل ، ومنها شواغل الدنيا التي اختطفت من المكاتب ، وموّهت بالمراتب ، ولقبت بالوزير والكاتب ، وأقامت العبد الذي لا يملك شيئاً مقام العاتب ، ومن كان بهذه المثابة وإن عدّ يقظاً حازماً ، ونحريراً عالماً ، فإنما هو غريق ، وتائه لا يبدو له طريق ، ولا ينسأغ له ريق ، ولا يُطفأ ببرد اليقين منه حريق ، ولا يربح عليه من قصاد الله تعالى فريق ، ونستغفر الله ، فالذي ألهم لهذه العيوب ، يتكفل بإصلاح القلوب ، ومكاشفة الغيوب ، وإن كانت النفوس للمحق جاحدة ، فما أمري إلا واحدة :

لا تعجبنَ لطالب نال العلا كهلاً وأخفق في الزمان الأوّل
فالحرُّ تحكّم في العقول مُسنّة وتُداسُ أوّل عصرها بالأرجل

ومنها الاشتغال بالهذر ، عن العلم والنظر ، منذ أزمان عديدة ، ومُدّد مديدة ، فلم يبقَ ممّا حُصِّل ، وإليه ممّا في الزمان القديم تُوصل ، إلا رسم بلقع ، وسمل ما له مُرَقّع ، ومنها أنني لم أنتدب إلى هذا الوظيف الذي قلّ من يتعاطاه ، ويشير قطاه ، ويقتعد مطاه ، من تلقاء نفس جاهلة ببعده مداه ، ومطل جداه ، ومطالبة مدعيه بما كسبت منه يداه ، فلا يتجاوز طوره ولا يتعداه ، وإن طالب الحق من شرط وصوله ، سلب فصوله ، وحالة موته ، وانقطاع حسه فضلاً عن صوته ،

لكني خُضْتُ على عدم السباحة غمراً ، وامثلت مع سقوط الاستطاعة أمراً ،
وجثتُ بما في وسعي انقياداً وامثالاً ، ومثلت مثلاً ، فضرورتي بفضل الله تعالى
مشروحة ، والدعوى عن كتفي مطروحة ، وعلى ذلك فقد علم الذي يعلم الأسرار ،
ويقرب الأبرار ، ويقل العثار ، ويقبل الأعذار ، أن مدة الاشتغال به لم تجاوز
شهرين اثنين ، بين كتب وكم ، وابتداء وختم ، مع ما يتخلل الزمان من حمل
لو رُمي به رَضوى لتَدَعْدَع ، أو أنزل على ثبير لخشع من خشية الله تعالى
وتصدع : مداراة عدو قد تكالب على الإسلام ، وسياسة سواد صم عن الملام ،
وتعدى حدود النهى والأحلام ، وارتقاب هجوم جيش الآجال وراية الشَّيبِ
من الأعلام ، وقد أُنذر بالفجر انقشاع الظلام ، وكاد يصعد الخطيب فينقطع
الكلام ، جعلت لنقله حصّة من جنح الظلام الغاسق ، والليل الواسق ، وعاطيت
حميَّاه نديم الغارق^١ ، وتعرضت لاقتناص خياله الطارق ، وسرقته من أيدي الشواغل
والليل معين السارق ، ولم يعمل فيه عبد القيس^٢ نظراً مُعاداً ، ولا أنجز من تصحيحه
علم الله تعالى ميعاداً ، إنما هو كراس يفرغ من تسويده رجراج الخبر ، مختلط
الترب بالتبر ، فيدفع ملموم الماسخ ، إلى يد الناسخ ، وكلفة المتناقل ، إلى كف
الناقل ، وتُقذف صحيفته من الزبرة إلى الصاقل ، إذ كان الأمر — أيده الله تعالى
ونفعه — حريصاً على تعجيل المعارضة ، ومتحريراً سبيل الشرع في هذه المصارفة
والمقارضة ، والجفن المشرق يعلن بالتبريح ، ويتنظر مساعدة الريح ، فمن وقف
عليه من فاضل أنار الله بصيرته ، وجبل على الإنصاف سيرته ، أو مَنْ كان من
أهل الله الذي يعلم أن ما سوى الله تعالى ظل وفِيء ، ويتحقق معنى قوله ﴿ ليس
لك من الأمر شيء ﴾ ، فقد أوجب الإنصاف أن يمحوا اقترافي باعترافي ، ويغطي
أوصافي بإنصافي ، والرحماء يرحمهم الرحمن ، وقد عذر القنبرة سليمان ، ومع

١ كذا ، ولعل صوابه « العاتق » أي الحمر القديمة أو الشراب الجيد .

٢ حقه أن يقول عبد قيس ، لإشارته إلى قول الشاعر :

أعد نظراً يا عبد قيس فإنما أضاءت لك النار الحمار المقيدا

الاستسلام الأمان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولا بأس أن يُعرَضَ بتلك
الأخوينةِ الحصيةِ المثوى والمروج ، والحمل والفروج ، وفي السماء البروج ،
وفي الأرض الفروج ، والأعرج يُستندر منه العروج ، ونمد الأيدي المستعملة
في التقصير ، إلى الولي النصير والناقد البصير . اللهم استر بسترِكَ فضائِحنا المخلّفة ،
وقبائِحنا المجمعّة المؤلّفة ، فهو كله تحويمٌ حولَ حِمَاكَ ، ودندنةٌ يا كريم بباب
رُحْمَاكَ ، وزند أنت قدَحَتَه ، وتألّق بارقٍ أنت أَلَحَتَه ، فصلِ السبب يا واصل
الأسباب ، واجعلنا ممّن تذكّر فنفعته الذكرى وما يتذكر إلاّ أولو الألباب ،
اللهم دُلّ نفوسنا الحائرة على عين الخبر ، واجذبها إلى المؤثر بزمام الأثر ، اللهم
اجبر الضالة المُثقلّة الظهر ، وارفع عنها ملكةَ القهر ، وحيطة الدهر ، والسفر من بلد
السر إلى بلد الجهر ، اللهم أعلق بعروة الحق أيدينا الخابطة ، وأظفر بعدوّه الهوى عزائمنا
المرابطة ، اللهم أوصلْ سبينا بسببك ، واحملنا إليك بك ، لا إله إلاّ أنت ، وصلّ
على عبدك ونبيك محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله والصحابة أجمعين » انتهى .
وقال — رحمه الله تعالى — آخرَ بعضٍ تراجم هذا الكتاب ما صورته :
خاتمة تشتمل على إشارات ، وتختال من الحق في شارات ، قال بعض من يبطأ
بمطية السلوك ، حمى الملوك ، وينقض زوايا الغيوب ، عن المطلوب ، ببصر
بصائر القلوب : شهدت أصناف المحبين والعشاق ، على اختلاف البلاد وتباين
الآفاق ، لا أدري أقال كشفاً وشهوداً ، أو فرضاً أو وجوداً ، أو يقظة أو هجوداً ،
وقد ركضوا مطايا الأشواق ، وضربوا آباطها بعصيّ المشارب والأذواق ،
وتزوّدوا أزواد الحقائق ، وودعوا أحباب العوائد والعلائق ، وتساهلوا في
المحسوب اعتراض العوائق ، وتفاضلوا في اختيار الجوادِّ واقتحام المضائق ، والطرق
إلى الله تعالى عدد أنفاس الخلائق ، فمن خابط عشواء ، ومسقط أهواء ، يقول :

يا ليت أني أوقدُ النارا فإنّ من يهواك قد حارا^١

١ حور في قول عدي بن زيد :

يا لبني أوقدي النارا إن من تهوين قد حارا

فيجيبه الصدى :

ومن طلب الوصول لدار ليلي بغير طريقها وقع الضلالُ
ومثبت بحيث لا يبدو عَلمٌ ، ولا يُقتص خف ولا قدم ، في مفازة وجودُ
من حلتها عَدَمٌ ، وهو يصيح :

بأبي وأمي والذي ملكتُ يدي أفدي الذي يهدي الطريقَ الاحبا
ثم يقول :

ولقد سرَّيتُ إليك لكنْ حين لم يكن الدليلُ أجلَّ قصد السالك
ومن طاوٍ نقد زاده ، وفرغ مزاده ، قد استسلم ، وعجز أن يتكلم ، ولسان
حاله ينشد :

إذا أنتَ لم تزرع وأبصرتَ حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذرِ
وراكضٍ يقطع الدو ، ويعرف الجوّ ، يثبت الأعلام الخافية ، ويقصد
الموارد الصافية والظلال الضافية ، حاديه أمله ، ودليله علمه والراحلة عمله ،
ينشد بأعلى صوته :

قَرُبَ اللقاء فكيف لا ترتاحُ للقاء سكانِ الحمى الأرواحُ
وفرائقٍ يركض البريد ، ويصحب التفريد ، بلغ الطيَّة ، وأناخ المطيَّة ،
قبل وصول الرفقة البطيَّة :

سرى سلخ شهر في فُواق حلوبةٍ فله ما أنأى سَراهُ وما أدنى
﴿ لو اطلَّعتَ عليهِم لولَّيتَ مِنْهُم فِراراً ولملَّيتَ مِنْهُم رُعباً ﴾
(الكهف : ١٨) .

وقلت :

نَهَضُوا وقد جنَّ الدجى وتخالفت سبلُ الردى فمصدّون وضُلِّلُ

سلي عن المنبت حين تقطعت
قوم سَطَّتْ بهم السباع ، وفرقة
لفح الهجير وجوههم بسعيره
وجماعة ركبوا المفاوز دائماً
وركائب جعلوا الدليل أمامهم
والليل متلفة ، ومدرجة الهوى
والواصلون هم القليل وكيف لا
يا رحمة للعاشقين تقحموا
طارَتْ بهم أشواقهم فعقوهم
عذراً لكم يا أهل عذرة شأنكم
أسبابه تيهاً ولا من يسأل
عطشوا ، وأين من الظماء المنهل ؟
فتهافتوا بيلالة وتعللوا
عثروا على أثر فشط المنزل
وسرّوا ففازوا بالذي قد أمّلوا
لا يستقل بها المطي الذلل
قفر ومسبعة وليل النيل
خطر النوى وعلى الشدائد عولوا
معقولة عن شأنها لا تعقل
سَلِمْتُ فيه لكم فقولوا وافعلوا

حتى إذا خرجوا إلى قضاء القدر المشترك ، وأفلت من أفلت من الشرك ،
وسلم من قتل المعترك ، وأشرفوا بركاب الآمال ، على ثنية الجمال ، زعقوا
بإزاء الباب ، ونادوا من وراء الحجاب :

كُلُّ كَتَى عَنْ شَوْقِهِ بِلِغَاتِهِ وَلِرَبِّمَا أَبْكِي الْفَصِيحَ الْأَعْجَمَ

وأوصلوا رقاع شكواهم ، بسرّ هواهم ، وبرزوا صفات ، واستظهروا
بشفعائهم التي ظنوا أنها لا تخفى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾
(الزمر: ٣) وقد تعينت الأوصاف وتميزت ، وانتبذت الأصناف وتميزت ،
والعشاق نجت وسلمت ، مذ علمت ، منهم الصقوة والمجان ، والخرافيش
والبهلوان ، ممن يعول على ذراعه ، وملء كُمته وصواعه ، وطول باعه ،
وصلابة طباعه ، وسلطنة لسانه ، وامتزاج إساءته بإحسانه ، شأنه البحث عن
المحبوب ، مع الشروق والغروب ، والتوصل إلى وصله المطلوب ، بالحركة
الرشيقة واللفظ الخلوب ، ومن اتسم بإذاعة الأسرار ، وصحبة الشرار ،

واللسان المهذار ، حُسِبَ من الأغيار ؛ ومنهم بُذاة ، ليس لهم إلاّ المُنَادمة أداة ،
تعذر عليهم تمييز المحبوب فغلطوا ، وعكفوا على تنزيهه فأفرطوا :

ربما ضرَّ عاشقٌ معشوقاً ومن البرّ ما يكونُ عقوقاً

وغلبت على سجيّتهم السلامة ، ولم تنلهم لعدم الموصّل والمعرّف الملامة ،
وليس للقبول عليهم علامة ؛ ومنهم مَنْ شعاره الحشمة ، ولزيمه العفاف
والعصمة ، أولو الحياء والوقار ، والكمّ للأسرار ، ومخالطة الأبرار ، والتوسل
إلى المحبوب بالافتقار ، وصفاء الضمائر من الأكدار ، لا تختلجهم الشواغل ،
ولا يطرق شرابهم الواغل^١ ، أغنتهم الشواهد عن الدعوى ، وأصمتهم الرضى عن
الشكوى ، وتقسمت معاملاتهم الآداب ، وصحَّ منهم إلى مراتب المراقبة
الانتداب ، والناقد بصير ، وكلام النيات قصير ؛ ومنهم المغلوب الحال ،
المحمول من فوق الرحال ، رَقَصَ وشطح ، وسكر فافتضح ، فهو بلخ الرفقة ،
وملوع الحرقه ، دعني وعبدى بلخ ، فإنه يضحكنى سبع مرات في اليوم ؛
ومنهم من لم يأخذه نعت ، ولا تعين له فوق ولا تحت ، ولا حمد ولا مقت ،
ولا حين ولا وقت ، لو نطق لقال : أنا المعدوم الموجود ، والشاهد المشهود
﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدَّيْنِ كَمَا بَعُدَتْ ثُمُودٌ﴾ (هود : ٩٥) .

قضى وصلها لي ، وابتلاككم بحبّها وهل يأخذُ الإنسانُ غيرَ نصيبه

ولم يكنْ إلا أن خرجت الرقاع ، وفُضِّلَتِ البقاع ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ
مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران : ٢٥) .

فكان في رقعة طائفة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وما كان لبشرٍ
أن يكلمه الله إلاّ وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسلاً

١ الواغل : المتطفل على الشراب ، يكنى به عن الدخيل في فريق أهل الحياء من السالكين .

فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴿ (الشورى : ٥١) قلدتم العقل وله طَوْرٌ ، ورأيتم الحركات لا يتناهى لها دور ، وعالم الجزئيات لا يُسْبِرُ له غَوْرٌ ، وَحَوْرُ المعادِ في بعض الفروض لا يكونُ له كَوْرٌ^١ ، ويا شَرًّا ما أصبحتم في المعاد الأول تعتقدونه ، أن جعلتم التصرف في عالم الملك لمن دونه ، قفوا مكانكم ، ولوموا أنفسكم ودعوا شأنكم^٢ .

وكان في أخرى : أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ ارجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴿ (الحديد : ١٣) أساطين الحكمة المشرقية ، وفَرَاشُ الأنوار الحقيقية ، دعونا من استكثار الأنوار ، واحتشاد الأطوار ، الحقُّ نورٌ لإرشاد لا يطيقُ حُسْنَ ذاته ، إلا من ركب ظهر شتاته ، فارفعوا الكلف ، واذكروا مجرى من تقدم وسلف .

وكان في أخرى : أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ قُلِ اللّٰهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿ (الأنعام : ٩١) لَمْ تتركوا البراهين على أصلها ، ولا ناسبتهم جنسَ هذه الموضوعات بفصلها ، وأثرتم شغباً طويلاً ، وأوسعتم المُتشابه تأويلاً ، ولم تعتمدوا من العقل دليلاً ، ولا وقفتم في مجازات العقول قليلاً ، وهَوَلْتُمْ باصطلاح غيركم تهويلاً ، وادعيتم الشهود ولم يجعل الله تعالى في الاحتجاج به إلا للأنبياء سبيلاً ، وبنيتم الحقائق على قياسٍ ونظر ، من غير عين للعقل والنقل ولا أثر :

رُبَّ خَلٍّ أَدَارَ فِيَّ اعْتِقَادًا لَمْ أَكُنْ قَبْلَهُ عَرَفْتُ بِفَنِّهِ
حَكَمْتُ نَفْسَهُ عَلَى عِلْمٍ غَيْبِي جَعَلَ اللّٰهُ بَاطِنِي عِنْدَ ظَنِّهِ

وعسى أن تكونوا ممن أخطأ في اجتهاده فأُثِيب ، واستغفر فسمع « لا

١ الحور : النقصان ، والكور : التمام .

٢ ق : ولوموا مكانكم والزموا شأنكم .

تَشْرِيْب « ، فثمرتكم صحيحة ، والمقاصد من التبعة مريجة ، إذا كانت صريحة ،
ولولا الافتيات ، لوضحت في ميدان السبق لكم الشّيات ، لكنّ شأنكمُ
الهُدَيان ، وقلبت منكم بضعفائكم من المتأخرين الأعيان ، كابن قسيّ وابن
برّجان^١ ، فتبرأوا من أتباعكم المُطيفة ، وأحزابكم المخيفة ، وأخلصوا فعلَ
الأنصار يوم قتال بني حنيفة ، وحبّذا الحكم المقتدي ، ومن يهد الله فهو المهتدي ،
واكْبَحُوا الألسن عن طلاقها وذلاقتها ، ولا تكلفوا العقولَ فوق طاقتها ،
فلا بد من توقيف وتسليم ، وفوق كل ذي علم عليم ، وإذا محيّم فاثبتوا ،
أو نطق إنسان فاسكتوا ، ولا ترضوا أن تُكتبوا مع الذين كُبتوا ، ولكم الحظ
السنّي ، والوصل الهني .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وما خَلَقْنَا السَّمَاءَ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الأنبياء : ١٦) ذهب
بوجودكم العدم ، وابتلع حدوثكم القديم ، ورضيتم بالإشراف ، في الاستشراف ،
والتوغلّ لَزِيمُ الانحراف ، ومن جعل الحسَّ وَهْمًا ، فقد كابر العيان ظلماً ،
والعقل الذي غلّطكم هو آلةُ حكمكم ، وأداة علمكم ، والعوالم أوثق من أن
تكون تمويهَ راقش ، والوجودُ المطلقُ أبسطُ من أن يصير أبا بَرَأَقَش^٢ ، ثمّ
ما لكم والتبجح والتشبع^٣ ، والتعقب والتتبع ، ولم يغن العراك ، ووقع في
ثمرتكم الاشتراك ، فالفيلسوف يتّحد بالعلة القريبة من الخلق ، ثمّ يتلاشى في
ذات الحق ، والحكيم يَجُوز إلى عين الحق رتبة الفناء المطلق ، والمشرّع قد

١ ابن قسي : ثار في أعقاب دولة المرابطين وتسمى تلك الثورة « ثورة المريدين » وكان شيخاً من
مشايخ الصوفية وهو صاحب كتاب خلع النعلين ، وقد انتشرت طريقته بشلب وكثر خوض أتباعه
في الكتب التصوفية وموضوعات الغلاة من الباطنية ؛ وأبو الحكم ابن برجان أيضاً من المتصوفة ،
وقد غربه علي بن يوسف اللمتوني وتوفي بمراكش سنة ٥٣٧ هـ (انظر أعمال الأعلام : ٢٤٨ -
٢٥٢) .

٢ أبو بَرَأَقَش : رمز للتلون ، وهو اسم طائر يتنفس فيتغير لونه .

٣ التشبع : أن يدعي المرء ما لا يحسن .

عضده ونصره ، « كُنتَ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ » ، وإن كان معظم القول الهذر ،
ففيكم بعدُ نظر .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا
لِنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (النكبات : ٦٩) أنتم الأحباب ،
ولكم يفتح من الجنان^١ الأبواب ، ركبتم ظهور الأعمال ، وركب غيركم
ظهور الآمال ، وفزتم بسحب الأذيال ، ومن دونكم يحوك عناكب الخيال ،
فبدأيتكم الأساس الوثيق ، الذي يبنى عليه التحقيق ، ونهايتكم إليها ينتهي الطريق ،
وبها يحط فريق الله تعالى ونعم الفريق ، أولكم المقرب المدرّب ، وأوسطكم
الفرد المعرب ، وآخركم الولي المقرب ، حضرتم بذكر محبوبكم حتى غبتم ،
فهنيئاً لكم طبتم ، حواسٌ مسدودة ، وخيوط أفكار كلّها ممدودة ، ومشاهد
مشهودة ، ومغلطات تتجاوز حُرّاسها ، وقواطع معترضة بحلّ مِرّاسها ، إلى
أن لا توجد تقيّة ، ولا تبقى بقية ، عند تجلي المعالم الخفية ؛ لو اشتمل العلم على
عملكم ، لكان الكلُّ من هملكم ، بحيث تتعين المراتب وتتميز ، وتقرر
المشارب وتتحيز ، فلا يعترض قاطع إلا وقد علم شأنه ، وتعين وقته ومكانه ،
ولا تمثل غاية إلا ودرجها محدودة ، ومراحلها معدودة ، ومشاهدها قبل دخول
الطريق مشهودة ، فهناك تُطوَى المراحل ، ويلوح في اللّوحة القريبة الساحل ،
ويأمن طول الطريق الواصل .

وكان في رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم وأدخلوا ، من بعد ما تخيروا
للإصطفاء وانتخلوا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ
وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ،

واللهُ سميعٌ عليمٌ ﴿٣٣﴾ (آل عمران : ٣٣ ، ٣٤) أنتم الأحباب ، ولباب الألباب ، وبوساطتكم اتصلت بين النفوس وبين الحق الأسباب ، لولاكم لم يُفتح الباب ، فلا يصل إلا مَنْ أوصلتم ، ولا يُحجب إلا من قطعتم وفصلتم ، أنتم الرعاة والحلق الحمل ، وأنتم الدعاة لمن يريد نيلَ الأمل ، مهّدت لكم سررُ القرب تمهيداً ، وبُعثتم إلى الناس ليوحدوا الله توحيداً ﴿٣٤﴾ ولتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴿٣٥﴾ (البقرة : ١٤٣) فطوبى لمن أصاخ منكم إلى نِدا ، واستضاء بنور هدى ، صلواتُ الله عليكم أبداً ، أنتم أولو الأولوية المعقودة ، والعساكر المحشورة المحشودة ، ورؤساء أهلِ المحبة ، وأدلاء مبتغي الوسيلة والقُرْبَة ، ومسالكم قد بينتها الصحفُ المنزلة ، والملائكة المرسلّة ، ودخلت على العذارى خدورها ، وعمت السماء وبدورها ، وأغنت عن تقرير نحلها المكاتبُ المائجة بالصبيان ، والسنن المعقودة لها حلق التبيان ، والقواعد المفترضة على الأعيان ، والخزائن المرصوفة بعلوم الأديان ﴿٣٦﴾ اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴿٣٧﴾ (المائدة : ٣) وقيل لأتباعهم من الجمهور ، وأقطاب فلكهم المشهور : على قدر أتباعكم ، مناقل أبواعكم ، وبحسب اقتدائكم ، يكون سماع ندائكم ، والمهادُ لمن وثره ﴿٣٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٣٩﴾ (الزلزلة : ٧) وتأخيركم في التوقيع هو التقديم ، و«ساقى القوم آخرهم شرباً» مثلٌ قديم ، قال المخبر : فرأيت وجوههم قد تهللت ، ونوآسم المسرّات نحوهم قد أقبلت ؛ ومَنْ سواهم من خالص وزائف ، بين راجٍ وخائف . وسمعت أن طائفة استدعيت بحثٍ حفيّ ، وأدخلت من باب خفيّ ، قيل لهم : هم أصحاب الخبر المكتوم ، وأرباب المقام غير المعلوم ، جعلنا الله تعالى منهم برحمته :

ولولا الحبُّ ما قَطَعُوا الفيافي ولولا الحبُّ ما قَطَعُوا البحارا
فدَعَهُمُ والذي ركبوا إليه وبحثاً عن خلاصك واختبارا

فلا تشغل بحبّ ديار لَيْلى ولكن حبّ من سكن الديارا^١

وقال قبل هذه الخاتمة بعد كلام كثير ما نصّه : وقد أتينا على ما شرطنا من تقرير ما أمكن من هذه الآراء ، وهم ما بين سابق للخيرات ومقتصد وظالم لنفسه ، ومع ذلك مُخَبِّون ، وعلى آثار الحبيب مُكَبِّون ، ما كلّ طريقٍ تُوَصِّلُ ، ولا كلّ تجارة على الربح تحصّل ، ومن العشاق مهجور ومطرود ، وموصل وموعود ، ومغبوط ومحسود ، ومحروم ومجدود ، ومرحوم ومردود :

يا غايّتي ، ولكلّ شيء غاية ، والحبّ فيه تأخّرٌ وتقدّمٌ
قلّ لي بأيّ وسيلة يحظى بما يرجوه غيري من رضاك وأحرّم

ورقة : ولكلّ دائرة مفروضة ، وهالة حول قَمَرِ الحق معروضة ، تعود الخطوط من محيطها المُسَدَّد ، إلى مركزها المحدد : فالفيلسوف يروم التثبيت بالعلّة الأولى ، ويعني بها ذات الحق ، أو أن يتحد بالثانية ، وهي مرآة وجه الحق ؛ والإشراقي يروم التَجَوُّهُرُ بنور الأنوار المعبر عنه بالحق ، والاتصال به إمّا بواسطة من الحق أو بغير واسطة من الحق ؛ والحكيم أن يؤديه فكره إلى الحق ، ثم يفتنى في الحق ، ثم يبقى بالحق ، والمتشرّع أن يُجَنَّ في جنة الحق ، ويحصل على جوار الحق ، وينظر إلى جوار الحق ؛ وصاحب الوَحْدَةِ المطلقة أن يكون المتفرّق عين الحق ، فسبحان الحق ، المعبود بالحق ، الموجد الجمع في الفَرَق ، لا إله إلا هو . وزيد في هذا المحض الذي كثر في قربه الدعداع^٢ ، وطال على الرؤوس منه الصُّدَاع ، ما تفرد له المقالة المختصرة ، والعناية الميسرة ، بحول مَنْ لا حول ولا قوّة إلاّ به . انتهى .

وقال رحمه الله تعالى في عد ما عدد من فرق الاعتزال ما نصّه :

١ حور قول الشاعر :

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

٢ الدعداع : العدو فيه بطة والتواء .

الحبُّ حرَّكهم لكلِّ جدالٍ والحُبُّ أقحمهم على الأهوالِ
والحبُّ قاطَعَ بينهم وأضلَّهم عن نيلِ ما راموه كلَّ ضلالِ
والحبُّ أنشأ فيهمُ عصبيةً بالقيْلِ أضرم نارها والقالِ

ولئنما استكثرنا من ذكرهم عبرة لمن تأمل حركاتِ هذا الفَرَّاشِ المختلفِ
الآراءِ عن ذُبَالِ الحقِّ ، يبتغون إليه الوسيلةَ ، قومٌ بالطاعة ، وقومٌ بالمعصية ،
وما منهم إلا مُدَّعٍ في المحبة متهاك ، خريص على السعادة بزعمه ﴿ وجوه ﴾
يومئذٍ خاشعةٌ عاملةٌ ناصبةٌ ﴿ (الفاشية : ٢) ﴾ ممن قصد الحق فأخطأه ، وأراد
الصوابَ فضلَّ عنه ، واشتهر بالحكمة بعدُ في الملة الإسلامية جماعةٌ
بالمشرق والأندلس ، فمن المشاركة : أبو الفرج ^١ ، ويعقوب الكندي ،
وحنين بن إسحاق ، وثابت بن قرّة ، فكان عندهم مباشرتها من حيث الترجمة
والمزاولة ، إلى أن قال : ومن أهل الأندلس : محمد بن مسعدة السرقسطي ،
وأحمد بن طاهر الطرطوشي ، ويحيى بن عمران القرطبي ، وطُفَيْل بن
عاصم ، وكُليِّب بن همام البياسي ، والحسن بن حرب الداني ، وابن مسرة ،
ومسلمة المجريطي ، وأبو بكر ابن الصائغ ، وأبو بكر ابن طُفَيْل ، وأبو
الوليد ابن رُشد ^٢ ، وكلُّ هؤلاء المتقدمين والمتأخرين محب عاشق مستهلك ،
قال الشاعر :

وعليّ أن أسعى وليّ س عليّ إدراكُ النجاحِ

حيارى يَمِيدُ بِهِمْ شَجْوُهُمْ كأنهم ارتَضَعُوا الخندريسا

١ أبو الفرج هو عبد الله بن الطيب وسنترجم له بعد صفحات .
٢ قد جمع لسان الدين هنا عدداً من المشتغلين بالحكمة من الأندلسيين وإذا استثنينا آخر خمسة
ذكرهم وجدنا البقية ممن لم يعرفوا معرفة واضحة .

إذا لم يكن "عَوْنٌ" من الله للفتى أتته الرزايا من وجوه الفوائد^١
﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ ، ولا يزالون مختلفين ،
إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم
من الجنة والناس أجمعين ﴿(هود : ١١٨)﴾ ﴿فريقاً هدى ، وفريقاً حقاً
عليهم الضلالة﴾ ﴿(الأعراف : ٣٠)﴾ ﴿قل سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ، ﴿قل فَلَلهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ ، فلو شاء لهداكم
أجمعين ﴿(الأنعام : ١٤٩)﴾ والخلق قد مدوا أبصارهم وآمالهم ، وتحركوا طوعاً
وكرهاً يَعْشُونَ إلى نور الله تعالى ، فمن أعمى أصم لا يسمع ولا يبصر ،
وأعمى فقط يجترىء عن العيان بالمخبر ، وأحول يبصر الشيء شيئين ، والواحد
اثنين ، كما قال الشاعر :

أحوى الجفون له رقيبٌ أحولُ الشيء في إدراكه شيان
فيلوح في عيني منه واحدٌ ويلوح في عينيه منه آثان
يا ليتني ترك الذي أنا مبصرٌ وهو المخيرُ في الحبيب الثاني
وضعيف لا يبصر من بعيد ، وأجهر لا يبصر من قريب ، وأعشى تكثر في
عينه الأشعة ، وربما تندر ، وزرقاء اليمامة :

سبحان من قَسَمَ الحظوظَ فلا عتاب ولا ملامه^٢
أعشى وأعمى ، ثم ذو بصير ، وزرقاء اليمامة
لولا استقامة من هدا هُ لما تبينت العلامة
ومجاورُ الغرر المخيف له البشارةُ بالسلامه

أقام سبحانه الحجة ، وفرق بين الأمر والإرادة ، وأعطى الكفاية من القدرة
﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وكثيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿(الحديد : ٢٦)﴾ اقتصرنا من هذا البحر

١ البيت لأبي فراس الحمداني ، ديوانه : ٨٣ وفيه : « إذا كان غير الله للمرء عدة » .

٢ قد أورد المقرئ هذه القصيدة في المجلد الأول : ٧ وانظر مقدمة المحقق : ١٤ .

على نقطة ، ومن هذا الودّ ق على قَطْرَة :

ومن يَسُدُّ طريقَ العارضِ الهَطِلِ^١ ؟

* * *

عَدُّ الحصى والقَطَرِ ليس يُرامُ

وذكرنا الرسل والأنبياء والأتباع ذكرًا من غير تبويب ولا تعيين ، لشياع آرائهم ، والعلم بمقاصد ملهم ، وأغراض دعواتهم ، من توحيد الله تعالى وتنزيهه وصفاته وأسمائه ، وكيف يُحشر الناس ليوم لا ريب فيه ﴿ ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ ﴾ (الحائية : ٢٢) وتعليم طرق النجاة ، وإيضاح سبيل الله تعالى ، والتحذير من الغفلة عمّن إليه الرُّجعى ، وله الآخرة والأولى ، والتخويف من كل ما يقطع عنه ، والترغيب فيما يوصل إليه ، وشأن الرياضة والتدريج في أحوالها حتى تنتقل من الظواهر إلى البواطن ، وتَسْري في الخلف من السلف ، والندب إلى الاقتصار على الضرورة والقناعة بالبلاغ ، وتبين الرسم فيها ، والتعيين لحدودها ، قد تضمنت ذلك كله آياتُ الله التي تكفل بحفظها ، وسنة رسوله التي قَيَّضَ مَنَاخل الصدق لتصحيح نقلها ، فالمكاتب — والمنّة لله تعالى — ماثجة ، والمدارس حافلة ، فما لنا والإطالة في الموجود الذائع ، والمشهور الشائع :

والشمسُ تكبرُ عن حلّي وعن حلل

* * *

فهي الدراري في التقليدِ بالدرر

ما أغنى الشمس عن مدح المادح ، تحصيلُ الحاصل عناء ﴿ هوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) .

فلنذكر بعضَ أرباب الآراء من قريب وبعيد ، وخلق جديد ، على صورة

١ للمتنبّي ، وصدّره : وما ثنّاك كلام الناس عن كرم .

المثال المفروض وليكون كعرض الحبوب الذي تجزى منه الحفنة عن الحفنة ،
والقربة عن القرية ^١ ، ونقتصر على السير لإقامة الترتيب ، وإحكام التبويب ،
وليرى الواقف عليه أننا قد نفصنا الزوايا ، ورشفنا الروايا ، وامتكنا العظام ^٢ ،
واستقصينا النظام ، حرصاً على نشيدة الحق أن تُعقل ، وعلى الطباع أن تُنقل ،
وعلى المرائي الصّدّة أن تُصقل ، وعلى صورة النجاة أن تمقل ، ونسأل الله تعالى
هداية توصل إليه ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ؛ انتهى .

وقال رحمه الله تعالى فيما قبل هذا الكلام بكلام ما صورته : غصن المحبين ،
وأصنافهم المرتبين ، ويشتمل على مقدمة بيان ، وستة أفنان .

فالمقدمة . . . فنقول : أصناف المحبين والعشاق كثير ، وهباء نثر ،
وجرّاد أثارها مثير ، بحيث يشق إحصاؤهم ، ولا يتأتى استقصاؤهم :

فقلتُ كما شئت وشاء لها الهوى : قتيلك ، قالت : أيُّهم فهم كثر ^٣ ؟
ثم مدّ النفس بما لا يقتضي المقام الاختصاري ذكره في هذا الموضع .

وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة ، وهي الخاتمة التي تنبه النفوس
الصّبة ، على حكم المحبة ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ
عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال : ٤٢) بعد كلام ما صورته : فقرر في معنى هذه الخاتمة فيها
حكم تنثال ، وتجري مجرى الأمثال :

المحبة بحر بعيد الشط ، وخطّ والفناء منتهى الخط ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ
— إلخ ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

المحبة مهووى بعيد ، ومجال وعد ووعد ، مرجل يغلي ، ثم خيال
يولي ، وليس له حد عليه يعول .

المحبة ظهر لا يركبه ، من يرى الموت فيتنكبه ، ولا يعلوه ، من يأتي

١ يريد أن بائع الحبوب يعرض منها نموذجاً مثل ملء حفنة أو قربة .

٢ امتك العظم : امتص ما في داخله .

٣ البيت لأبي فراس ، ديوانه : ٢١١ .

إلى وادي الفناء فيسلوه ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ (البقرة : ٢٤٩) كم قصمت
المحبة من ظهر ، وكم سرّ صيرت إلى جهنم ، أولها العار المشهور ، وآخرها
الطي المنشور ، ثم الموت ثم النشور ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ
الكتاب﴾ (الزمر : ٦٩) .

المحبة أنس يستدرج ، ثم شوق يلجم ويُسرج ، ثم فناء يزعج ، عن
الوجود ويخرج :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائم

المحبة كاس ، كم جردت من كاس ، وآس ، من شمة لم يجد من آس :

متى أرتجي يوماً شفاي من الضنى إذا كان من يجني عليّ طيبي

تراحم أنفاس المحبين على خطرات الصبا ، تراحم الهباء على مطارح شعاع
الدبا ، فلولا بليها لالتهمت ، وتعليل عليها لتلك الأرقام لذهبت :

عليلة في حواشي مرطها بكلّ يهْدَى لكلّ عليلٍ منه إبلال

المحبة رقة ، ثم فكرة مسترقة ، ثم ذوق ، يطير به شوق ، ثم وجل
لا يبقى معه طوق ، ثم لا تحت ولا فوق :

أينما كنتُ لا أخلفُ رحلاً مَنْ رآني فقد رآني ورحلي

الهوى هوان ، وحمام له ألوان ، دمع ساجم ، ووجد هاجم ، وهيام
لا يبرح ، ثم وراءه ما لا يُشرح :

قال : بمنّ جنّ؟ وهل في الوري ما يبعث الحبل سوى حبه ؟

من اقتحم بحر الهوى ، هوى . لا تدخل في بحر الهوى حتى تشاور صبرك ،
وتجاور قبرك ، فإن كنت منّا أو فرح بسلام .

الهوى طريق ، ولسلوكة فريق . الزاد سر مكتوم ، ووفاء معلوم :

وللميادين أبطال لها خلُقوا وللدواوين حساب وكتاب

الحب حج ثان ، لا يثني نفس المرید عنه ثان ، طريقه التجريد ، وزاده الذكر ، وطوافه المعرفة ، وإفاضة الفناء ﴿ فإذا أفضم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ (البقرة : ١٩٨) .

الغرام ، صعب المرام ، والدخول فيه حرام ، ما لم يكن فيه شروط كرام . من عرف ما أخذ ، هان عليه ما ترك ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ (القصص : ٦٨) ظهر الهوى طريقاً سهلاً ، فكثرت التائهون جهلاً :

إذا لم يكن عون من الله للفتى أتته الرزايا من وجوه الفوائد والعكس :

قد ينجأ المحبوب في مكروها من ينجأ المكروه في المحبوب^١ وقال الشيخ^٢ :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل
وعش خالياً فالحب راحتُه عنا
نصحتك علماً بالهوى والذي أرى
فمن لم يمت في حبه لم يعيش به
فما اختاره مضني به وله عقل
وأولاه سقم وآخره قتل
مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو
ودون اجتناء النحل ما جنت النحل
طريق القوم مبنية على الموت ، وإليه الإشارة بقوله « موتوا قبل أن تموتوا » . بيدي لا بيد عمرو ، وقال بعضهم : رأيت رب العزة فقلت : يا رب بم أصل إليك ؟ قال : فارق نفسك وتعال :

١ انظر ما تقدم ص : ٣١٠ .

٢ البيت للسان الدين نفسه من بائية طويلة ستأتي عند ذكر شعره .

٣ هو ابن الفارض ، انظر ديوانه : ١٣٤ وديوان الصباية : ٢٥ .

رَفُضُ السَّوَى فرضٌ على العينِ لا تَخْلُطَنَّ الحقَّ بالمَيْنِ
والأَيْنُ والكَيْفُ سوى ظاهرٍ فاستغنِ عن كيفٍ وعن أينِ

الحشب ، الذي يُتَّخَذُ منه النشب ، ينقسم إلى أقسام ، وأجزاء جسام :
القسم الأول : في الحدود والمعرفات ، والأسماء الواقعة والصفات ^١ .

وللسان الدين رحمه الله تعالى في المواعظ اليدُ الطولى ؛ قال في الروضة في الفصل
الثاني في محركات العزيمة — وهي اليقظة — ما نصّه : قلت : والمحركات المشتركة
في باعث اليقظة كثيرة : منها الوعظ السائق بمقود الشارد عن الله تعالى إلى مَرَبُطِ
التوبة ، ومحرك العزيمة يُرَدِّدُ أذانه على نَوَامِ أهل الكهف ، وقد ضرب نومُ
الغفلة على آذانهم ، حتى يحول بينهم وبين آذانهم ، ويركبهم ظهر الرياضة التي تلحقهم
بالمجذوبين من إخوانهم ، ولما كان حب الدنيا هو المانع عن الشروع في إطلاق
العمل ، والقاطع به بعده لم يجد أساة خبل الهوى وجنون الكسل أنجعَ من رقى
العذل والتأنيب ، وتقبيح المحبوب ، سيما إذا انزعجت نبال نبلة عن حنيات
ضلوع الصدق ، وقال بعضهم : الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب :

أوقدِ النارَ من رسالةٍ لَيْلَى واحذرِ السيلَ بعدها من دموعي

ولا تعدلِ الوعظَ البليغَ باللسانِ الفصيح ، والقلبَ القَريح ، فإذا رأيت
الأرضَ قد اهتزت وربّتْ ، وهضابَ القُلُوبِ القاسية قد تقلبت ، فشمّرْ
للغراس والزراع عن الذراع ، واغتم السراع والإسراع :

إذا هبَّتْ رياحُكَ فاغتمها فَإِنَّ لكلَّ عاصفةٍ سكوناً

* * *

حفر لها ماء يريها بدءاً واضمنْ لها حوضاً وإن لم تحفرِ
واربأ بنفسك عن تسامحِ بائعٍ واغتم إذا سامتك شهوةٌ مشترى

قالوا : الوعظ يضرب وجه النفس عن التثبط في بساط اللذات ، وينقل

١ الحشب . . . والصفات : هذه العبارة مقحمة هنا وقد وردت ص : ٢٩٤ .

خطواتها عن الخطو في ملعب الخطيئات ، ويمثل لها الصبر عياناً ، ويبين العواقب المحجوبة بياناً ، ويُنشئ سحاب الحزن في أجواف أجزائها ، ويذكرها بآلها وانتهائها ، ويعرض عليها مصارع فنائها ، وخراب بنائها ، وفراق حبايبها وأبنائها ، عند نزول هاذم اللذات بفنائها ، فترجع إلى الله تعالى بحكم الاضطرار أفكارها ، وتخضع من خيفة الله تعالى وجلاله أبصارها .

والوعظ يكون بلسانين ، ويوجد فنين : لسان حال ، ولسان مقال ، وربما كان لسان الحال أبلغ ، وهو يُسمَع من القبور الموحشة ، والقصور الخالية ، والعظام البالية ، وفيه حكايات وأخبار ، ولسان المقال كقوله سبحانه وتعالى ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (إبراهيم : ٤٤) وهو سبيل الله تعالى التي بعث بها النبيين ، وضمن فصولها الكتاب المبين ، والسوط الذي يحمل على الأوبة ، ويسوق ذود المتطهرين إلى غدير التوبة ، ونحن نجعله هيئمة بين يدي الفراسة ، لتزكية النفوس إن صدق حكم الفراسة ، فمن ذلك ما صدر عني على لسان واعظ :

« الحمد لله الولي الحميد ، المبدئ المعيد ، البعيد في قربه من العبيد ، القريب في بُعدِه فهو أقرب من جبل الوريد ، محيي ربوع العارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومغني نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى العراض الزهيد ، ومخلص خواطر المحققين من سُجُون دُجُون التقييد ، إلى فُسْح التجريد ، نحمده وله الحمد المنتظمة درره في سلوك الدوام وسموط التأيد ، حمد من نزه أحكام وحدانيته ، وأعلام فردانيته ، عن مرابط التقليد ، ومخابط الطبع البليد ، ونشكره شكر من افتتح بشكره أبواب المزيد ، ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو شهادة نتخطى بها معالم الخلق إلى حضرة الحق على كبد التفريد ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفذلكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنشور الإدلال ،

وإقطاع الكمال ، بين مقام المرآد ومقام المرید ، الذي جعله السبب الأوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد ، وخاطبَ الحلائق على لسانه الصادق بحجتي الوعد والوعيد ، فكان ممّا أوحى به إليه ، وأنزل الملك به عليه ، من الذكر الحميد ، ليأخذ بالحُجَرِ والأطواق من العذاب الشديد ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونَعَلَّمْ ما توسوسُ بهِ نفسهُ ، ونحنُ أَقْرَبُ إليه من حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾ (ق : ١٦) إلى قوله (حديد) ، صلى الله عليه وعلى آله صلاةٌ تقومُ ببعض حقه الأكيد ، وتسري إلى تربته الزكية من ظهور المواجهِ الجاثية على البريد^١ :

قعدتُ لتذكيرٍ ولو كنتُ منصفاً لذكرتُ نفسي فهي أحوجُ للذكرى
إذا لم يكنْ مني لنفسيَ واعظٌ فيا ليتَ شعري كيف أفعلُ في الأخرى

آه ! أيُّ وعظ بعد وعظِ الله تعالى يا أحبّابنا يُسمَع ؟ وفي ماذا وقد تبين الرشد من الغي يطمع ؟ يا من يُعْطى وَيَمْنَع ، إذا لم تقم الصنيعة فماذا نصنع ؟ اجْمَعْنَا بقلوبنا يا من يفرق ويجمع ، وليّنْ حديدَها بنار خشيتك فقد استعاذ نبيّك صلى الله عليه وسلّم من قلبٍ لا يخشع ، ومن عينٍ لا تدمع ، اعلموا — رحمكم الله — أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه المَلَكُوان^٢ ، فإن الحق نور لا يضره أن يصدر من الحامل ، ولا يقصر بمحموله احتقارُ الحامل ، وأنتم تدُرُون أنكم في أطوار سفر لا تستقر لها دون الغاية رِحْلَةٌ ، ولا تتأتى معها إقامة ولا مُهْلَةٌ ، من الأَصْلَاب ، إلى الأَرْحَام ، إلى الوجود ، إلى القبور ، إلى النشور ، إلى إحدى داري البقاء ، أفي الله شك ؟ فلو أبصرتُم مُسافراً في البرية يَبْنِي ويفرش ، ويمهد ويعرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وتَعْجَبُونَ من ركاكة عقله ؟

١ يريد مواجد المشتاقين إلى زيارة قبره عليه السلام .

٢ الملوان : الليل والنهار .

ووالله ما أموالكم ولا أولادكم وشواغلُكم عن الله التي فيها اجتهدكم إلا بقاء سقَرٍ في قفَرٍ ، أو إعراس في ليلة نَفَرٍ ، كأنكم بها مَطْرَحَةٌ تعبر فيها المواشي ، وتنبو العيون عن خبرها المتلاشي ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٢٨) . ما بعد المقيِل إلا الرحيل ، ولا بعد الرحيل إلا المنزل الكريم أو المنزل الوَبِيل ، وإنكم تستقبلون أهوالاً سكراتُ الموتِ بَوَاكِيرُ حسابها ، وعتَبُ أبوابها ، فلو كشف الغِطاء عن ذرة منها لذهلت العقول وطاشت الأبواب ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (فاطر : ٥) . أفلا أعددتُم لهذه الورطة حيلة ، وأظهرتم للاهتمام بها مَخِيلَةً ؟ أتعويلاً على عفوه مع المقاطعة وهو القائل في مقام التهديد ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ؟ (إبراهيم : ٧) أأمناً من مكْرِهِ مع المنابذة ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٩) أطمعاً في رحمته مع المخالفة وهو يقول ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) أمشاقة ومعاندة ﴿ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ؟ (الحشر : ٤) أشكاً في الله ؟ فتعالوا نعيد الحساب ، ونقرر العقد ونتصف بدعوة الحق أو غيرها ، من اليوم تفقد عقد العقائد عند التساهل بالوعيد ، فالعامي يدمي الإصبع الوجعة ، والعارف يضمدها مبدأ العصب :

هكذا هكذا يكون التعامي هكذا هكذا يكون الغرور

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (يس : ٣٠) وما عدا عما بدا ؟ ورسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم « الكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » فعلام بعد هذا المعول ؟ وماذا يتأول ؟ اتقوا الله سبحانه في نفوسكم وانصحوها ، واغتنموا فُرَصَ الْحَيَاةِ وارْجُحُوهَا ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾

(الزمر : ٥٦) وتنادي أخرى ﴿ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (الشورى : ٤٤)
وتستغيث أخرى ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (الأعراف : ٥٣)
وتقول أخرى ﴿ رَبِّ أَرْجِعُونِي ﴾ (المؤمنون : ٩٩) فرحم الله مَنْ نظر لنفسه ، قبل
غُرُوب شمسهِ ، وَقَدَّمَ لَغْدَهُ مِنْ أَمْسِهِ ، وعلم أن الحياة تجرُّ إلى الموت ، والغفلة
تقود إلى الفوت ، والصحة مَرَكِبُ الأَلَمِ ، والشبابة سفينة تقطع إلى ساحل الهَرَمِ .
وإن شاء قال بعد الخطبة : إخواني ، ما هذا التواني ، والكلف بالوجود
الفاني عن الدائم الباقي والدهر يقطع الأمان ، وهازم اللذات قد شرع في نقض
المباني ؟ ألا معتبر في عالم هذه المعاني ؟ ألا مرتحل عن مغابن هذه المغاني ؟

ألا أذُنٌ تُصْغِي إِلَى سَمِيعَةٍ أَلْأَحَدُهَا بِالْصَّدَقِ مَا صَنَعَ الْمَوْتُ
مَدَدْتُ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَّاهُ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَأَ مِنْكُمْ فَلَمْ يَسْمَعْ الصَّوْتُ
هُوَ الْقَدَرُ الْآتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتَوَبُوا سَرَّاعاً قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْفَوْتُ

يا كلفاً بما لا يدوم ، يا مَفْتُوناً^١ بغرور الوجود المهدوم ، يا صريعَ جدار
الأجل المهدوم ، يا مشغلاً بينان الطرق قد ظهر المناخ وقَرُبَ القُدُومُ ،
يا غريقاً في بحار الأمل ما عساك تعوم ، يا مغلل الطعام والشراب ولمع السراب ،
لا بد أن تهجر المشروب وتترك المطعوم . دخل سارق الأجل بيت عمرك فسلب
النشاط وأنت تنظر ، وطوى البساط وأنت تكرب ، واقتلع جواهر الجوارح
وقد وقع بك النهب ، ولم يبق إلا أن يجعل الوسادة على أنفك ويقعد :

لو خَفَّفَ الْوَجْدُ عَنِّي دَعَوْتُ طَالِبَ ثَارِي

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ (المؤمنون : ١٠٠) كيف التراخي والفَوْتُ مع
الأنفاس ينتظر ؟ كيف الأمان وهاجم الموت لا يبقى ولا يَدَّرُ ؟ كيف الركون
إلى الطمع الفاضح وقد صحَّ الخبر ؟ مَنْ فُكِرَ فِي كَرْبِ الْحُمَارِ تَغَصَّتْ عِنْدَهُ

١ ق : منبونا .

لذة النبذ ، مَنْ أَحَسَّ بَلْغَطِ الحريق فوق جداره لم يُصْنَع بصوته لنغمة العود ،
مَنْ تيقن بذلَّ الغزلة هان عليه ترك الولاية :

ما قامَ خيركَ يا زمان بشره أولى لنا ما قلَّ منك وما كفى

أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه أن ضع يدك على
مَتْنِ ثور ، فبعدد ما حاذته من شعره تعيش سنين ، فقال : يا رب وما بعد ذلك ؟
قال : تموت ، قال يا رب فالآن :

رأى الأمر يُفْضِي إلى آخر فصيرَّ آخره أولاً

إذا شعرت نفسك بالميل إلى شيء فاعرض عليها غصة فراقه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَنْ بَيْتَةٍ وَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْتَةٍ﴾ (الأنفال : ٤٢) فالمفروح به هو المحزون
عليه ، أين الأحباب ؟ مروا ، فيا ليت شعري أين استقروا ، استكانوا والله
واضطروا ، واستغاثوا بأوليائهم ففروا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضرروا ، فالمنازل
من بعدهم خالية خاوية ، والعروش ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضل
متشابهة متساوية ، والمساكن تندب في أطلالها الذئاب العاوية :

صَحْتُ بِالرَّبْعِ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا	ليت شعري أين يمضي الغريبُ
وبجنب الدارِ قبرٌ جديدٌ	منهُ يستسقي المكانُ الجديبُ
غاض قلبي فيه عندَ التماحي	قلتُ هذا القبرُ فيه الحبيبُ
لا تسلُ عن رجعتي كيف كانت	إنَّ يومَ البين يومٌ عَصِيبُ
باقترابِ الموتِ علَّلتُ نفسي	بعد ألفي كلُّ آتٍ قريبُ

أين المعمّر الخالد ؟ أين الولد أين الوالد ؟ أين الطارف أين التالد ؟ أين المجادل
أين المجالد ؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم : ٩٨)
وَجُوهٌ علاهن الثرى ، وصحائف تُفَضُّ ، وأعمال على الله تُعرض . بحث الزهاد

والعباد ، والعارفون والأوتاد ، والأنبياء الذين يُهْدَى بهم العباد ، عن سبب
الشقاء الذي لا سعادة بعده ، فلم يجدوا إلا البعد عن الله تعالى ، وسببه حبُّ
الدنيا « لن تجتمع أمتي على ضلالة » :

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلِي فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلِي مِنْ حَبِيبٍ
وَمَاذَا أُرْتَجِي مِنْ وَصْلِ لَيْلِي سَتَجْزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبٍ

وقالوا : ما أورد النفسَ المواردَ وفتحَ عليها بابَ الحُتفِ إلا الأملُ ،
كلَّما قَوَّمتها مَثاقِفُ الحدودِ فَتَحَ لها أركانَ الرخصِ ، كلَّما عَقَدت صَوْمَ
العزيمة أَهداها طُرْفَ الغرورِ في أَطباقٍ : حتى ، وإذا ، ولكن ، وربما ، فأفرط
القلبُ في تَقْلِيبِها حتى أَفْطَرَ :

ما أَوْبَقَ الأَنْفَسَ إِلَّا الأَمَلُ وهو غرورٌ ما عليه عَمَلُ
يَفْرَضُ مِنْهُ الشَّخْصُ وَهَمًّا مَا لَهُ حالٌ ولا ماضٍ ولا مستقبلُ
ما فَوْقَ وَجْهِ الأَرْضِ نَفْسٌ حَيَّةٌ إلا قد انقَضَ عَلَيْهَا الأَجَلُ
لو أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِهَا قَدْ كَوَّنُوا لامتلاً السَّهْلُ بِهِمْ والجَبَلُ
ما ثَمَّ إِلَّا لُقْمٌ قَدْ هَيَّئْتُ للموتِ ، وهو الآكلُ المُسْتَعْجِلُ
والوَعْدُ حَقٌّ وَالْوَرَى فِي غَفْلَةٍ قد خَوَّعُوا بِعَاجِلٍ وَضَلُّوا
أَيُّنَ الَّذِينَ شَيَّدُوا وَاعْتَرَسُوا ومهتدوا وافترشوا وظلَّلوا
أَيُّنَ ذَوِ الرِّاحَاتِ زَادَتْ حَسْرَةً إِذْ جُنَّبُوا إِلَى الثَّرَى وَانْتَقَلُوا
لَمْ تَدْفَعْ الأَحْبَابُ عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّ بَكَوا عَلَى فِرَاقِهِمْ وَأَعْوَلُوا
اللَّهُ فِي نَفْسِكَ أَوْلَى مَنْ لَهُ ذَخَرَتْ نَصْحًا وَعَتَابًا يَقْبَلُ
لَا تَرَكْنَاهَا فِي عَمَى وَحَيْرَةٍ عَنْ هَوْلٍ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا تَغْفُلُ
حَقَّرْ لَهَا الْفَاقِي وَحَاوَلْ زُهْدَهَا وَشَوْقَهَا إِلَى الَّذِي تَسْتَقْبِلُ
وَفِدْ إِلَى اللَّهِ بِهَا مُضْطَرَّةً حَتَّى تَرَى السَّيْرَ عَلَيْهَا يَسْهَلُ

١ ق : بعد .

هو الفناء والبقاء بعده والله عن حكمته لا يُسألُ
يا قُرَّةَ العينِ ويا حَسْرَتَهَا يومَ يُوفَى الناسُ ما قد عملُوا

يا طرداء المخالفة ، إنكم مُدْرَكُونَ فاستبقوا باب التوبة ، فإن ربَّ تلك
الدار يجير ولا يحار عليه ، فإذا أُنتم فاذكروا الله كما هداكم ، يا طُفَيْلِيَّةُ
الهمة ، دُسُّوا أنفسكم بزُمر التائبين وقد دُعُوا إلى دعوة الحبيب ، فإن لم
يكن أكل فلا أقل من طيب الوليمة ، قال بعض العارفين : إذا عقد التائبون
الصلح مع الله تعالى انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال ﴿ وأشرقَت الأرضُ
بنور ربِّها ووُضِعَ الكتاب ﴾ (الزمر : ٦٩) . معاني هذا المجلس والله نسيم سحر ،
إذا استنشقه مخمور الغفلة أفاق ، سَعوط هذا الوعظ ينغص إن شاء الله زَكَاةُ
البطالة ، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ، إكسير هذا الكتاب يقلِّب بحكمة
جابر القلوب المنكسرة عَيْنَ مَنْ كان له قلب ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ،
وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ (الأنعام : ٣٦) إلهي دلنا من حيرة يضل فيها - إلا إن
هديت - الدليل ، وأجرنا من غمرة وكيف إلا بإعانتك السبيل ؟ نفوس صدى
على مرَّ الأزمان منها الصَّقيل ، ونبا بجنوبها عن الحق المقيس ، وآذان أنهضها
القول الثقيل ، وعثرات لا يقيها إلا أنت يا مقيل العثار يا مقيل ، أنت حسنا
ونعم الوكيل ؟ انتهى .

ومن مواعظ لسان الدين رحمه الله سبحانه ما أورده في الروضة إثر ما سبق ،
إذ قال : إخواني صَمَّتِ الآذان والنداء جهير ، وكذب العيان والمشار إليه
شهير ، أين الملك وأين الظهير ؟ أين الخاصة أين الجماهير ؟ أين القبيل والعشير ؟
أين كسرى بن أردشير ؟ صدق والله الناعي وكذب البشير ، وغُشَّ المستشار
واتهم المشير ، وسئل عن الكل فأشار إلى التراب المشير :

خذ من حياتك للمماتِ الآتي وبنِّدارٍ ما دامَ الزمانُ مُوَاتِي
لا تغترُّ فهو السَّرابُ بَقِيعَةٌ قد خودعَ الماضي بهِ والآتي

يا من يؤملُ واعظاً ومذكراً يوماً ليوقظه من الففلات
هلاًّ اعتبرتَ ويا لها من عبرةٍ بمسـدافنِ الآباءِ والأمّاتِ
قف بالبقيعِ ونادِ في عرّصاته فلَكمُ بها من جيرةٍ ولِيداتِ
درجُوا ولستَ بخالدٍ من بعدهم متميزٍ عنهم بوصفِ حياةٍ
والله ما استهلكتَ حيّاً صارخاً إلاّ وأنتَ تُعدُّ في الأمواتِ
لا فُوتَ عن درَكِ الحِمامِ لهاربٍ والناسُ صرعى معرَكِ الآفاتِ
كيف الحياةُ لدارجٍ متكلّفٍ سِنّةَ الكرى بمدارجِ الحياتِ
أسفاً علينا معشرَ الأمواتِ لا نفكُّ عن شُغلٍ بهاكِ وهاتِ
ويغرنا لمعُ السّرابِ فنغتدي في غفلةٍ عن هاذمِ اللّذاتِ
والله ما نصّحَ امرءاً من غشه والحقُّ ليسَ بخافتِ المشكاةِ

يا من غدا وراح ، وألف المراح ، يا من شرب الراح ، ممزوجة بالعذب
القراح ، وقعد لعيان صروف الزمان مقعد الأفراح ، كأنك والله باختلاف
الرياح ، وسماع الصياح ، وهجوم غارة الاجتياح ، فأدبل الخفوت من الارتياح ،
ونُسيت أصوات الغناء برنات الرياح ، وعوضت عُررُ الثوب القباح ، من غُرر
الوجوه الصّباح ، وتناولت الجسومَ الناعمة أيدي الاطّراح ، وتنوسيت العهود
الكريمة بمر المساء عليها والصبح ، وأصبحت كُماة النطاح ، من تحت البطاح ،
ونخملت المهنّدة والرماح ، ذليلة من بعد الجماح :

ولو كان هَوْلُ الموتِ لا شيءَ بعده لهان علينا الأمرُ واحتقر الهولُ
ولكنّه حَشْرٌ ونَشْرٌ وجَنّةٌ ونارٌ ، وما لا يستقلُّ به القولُ

يا مشتغلاً بداره ورَمَّ جداره ، عن إسراعه إلى النجاة وبِداره ، يا من
صاح بإنذاره شَيْبُ عِذاره ، يا من طَرَفَ^١ عينَ اعتذاره بأقذاره ، يا من قطعه
بُعْدُ مزاره وثِقَلُ أوزاره ، يا معتلفاً^٢ ينتظر هجوم جزّاره ، يا مختلساً للأمانة

٢ ق : معتلفاً .

١ ق : صرف .

يرتقبُ مفتش ما تحت إزاره ، يا من أمعن في خمر الهوى خَفُ من إسكاره ،
يا من خالف مولى رِقَه تَوَقَّ من إنكاره ، يا كلفاً بعارية تُرَدُّ ، يا مفتوناً
بأنفاس تُعَدُّ ، يا معولاً على الإقامة والرحال تُشَدُّ ، كأني بك وقد أوثق الشدَّ ،
وألصق بالوسادة الخدَّ ، والرجلُ تقبض والأخرى تمدَّ ، واللسان يقول ﴿ يا ليتنا
نُرَدُّ ﴾ (الأنعام : ٢٧) :

إنّا إلى الله وإنا له ما أشغل الإنسان عن شأنه
يرتاحُ للأثوابِ يزُهِى بها والحيطُ مغزولٌ لأكفانه
ويخزنُ الفلسَ لورائِهِ مُستنداً مبلغَ أكوانه
قوَّضَ عن الفاني رِحالَ امرئٍ مدّاً إليه عينَ عرفانه
ما ثمَّ إلا مُوقَفٌ زاهدٌ قد وكَّلَ العدلُ بميزانه
مُفَرِّطٌ يَشْقَى بتفريطه ومحسنٌ يُجْزى بإحسانه

يا هذا خفي عليك مَرَضُ اعتقادك فالتبس الشحمُ بالورَم ، جهلت قِيمَ^١
المعادن فبِعْتَ الشَّبهَ بالذهب ، فَسَدَ حِسُّ^٢ ذوقك فتفككت بحنظله ، أين
حرصك من أجلك ؟ أين قولك من عملك ؟ يدركك الحياء من الطفل فتتحمى
حمى الفاحشة في البيت بسببه ، ثم تُواقِعها بعين خالق العين ، ومُقدِّر الكيف
والأين ، تالله ما فَعَلَ فَعَلَكَ بمعبوده ، مَنْ قَطَعَ بوجُوده ﴿ ما يَكُونُ مِنْ
نَجْوَى ثَلَاثَةٍ - إلى عليم ﴾ (المجادلة : ٧) تعود عليك مَساعي الجوارح التي
سخرها لك بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فتبخل منها في سبيله بفلس ،
وأحدُ الأمرين لازم : إمّا التَكْذِيب ، وإمّا الحماقة ، وجمعك بين الحالتين
عجيب ، يرزقك السنين العديدة من غير حق وَجَبَ لك ، وتسيء الظن به في
يوم ؛ توجب الحق ، وتعتذر بالغفلة ، فما بال التماذي ؟ تعترف بالذنب فما

١ ق : فيه ، ولعلها « قيمة » .

٢ ق : حسن .

الحجة في الإصرار ؟ ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِيدًا﴾ (الأعراف : ٥٨) يا مدعي النسيان ماذا فعلت بعد التذكير ؟ يا معتذراً بالغفلة أين ثمرة التنبيه ؟ يا من قطع بالرحيل أين الزاد ؟ يا ذبابة الحرص كم ذا تلجج في ورطة الشهد ؟ يا نائماً ملء عينيه حذار الأجل قد أندر ، يا ثمل الاغترار قرُب خمار الندم ، تدعي الحذق بالصنائع وتجهل هذا القدر ، تبذل النصيح لغيرك وتغش نفسك هذا الغش ، اندمل جرح توبتك على عظم ، قام بناء عزمتك على رمل ، نبتت خضراء دعوتك على دمنة ، عقدت كفك من الحق على قبضة ماء ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (فاطر : ٨) إذا غام جو هذا المجلس ، وابتدأ رش غمام الدموع ، قالت النفس الأمارة : حوالينا لا علينا ، فدالت رياح الغفلة ، وسحاب الصيف هفاف ، كلما شد طفل العزيمة على درة التوبة صانعتة ظئر الشهوة عن ذلك بعصفور ، إذا ضيق الخوف فسحة المهل سرق الأمل حدود الجار ، قال بعض الفضلاء : كانوا إذا فقدوا قلوبهم ، تفقدوا مطلوبهم ، ولو صدق الواعظ لأثر ، اللهم لا أكثر :

طبيبٌ يداوي الناسَ وهو عليلٌ

والخطب جليل ، والمتفطن قليل ، فهل إلى الخلاص سبيل ؟ اللهم انظر إلينا بعين رحمتك التي وسعت الأشياء ، وشملت الأموات والأحياء ، يا دليل الحائرين دلنا ، يا عزيز ارحم ذلنا ، يا ولي من لا ولي له كن لنا كلنا ، إن أعرضت عنا فمن لنا ؟ نحن المذنبون وأنت غفار الذنوب ، فقلب قلوبنا يا مقلب القلوب ، واستر عيوبنا يا ستار العيوب ، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب ؛ انتهى .

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في المواعظ ما خاطب به بعض من استدعى منه الموعدة ، ونصه :

إذا لم أنح يوماً على نفسي التي بجرائها أحببت كل حبيب
وقد صحّ عندي أن عادية الردى تدبُّ لها والله كل ديب
فمنّذا الذي يبكي عليها بأدمعي إذا كنت موصوفاً برأي لبيب

كم قد نظرت إلى حبيب تغار من إرسال طرفك بكتاب الهوى إلى إنسانه ،
وقد ذبلت بالسقم نرجسة لحظه ، وذوّت وردة خدّه ، واصفرت لمغيب الفراق
شمسُ حسنه ، وهو يجود بنفسه التي كان يبخلُ منها بالنفس ، يخاطب بلسان
حاله مترجماً : « وليت الفجل يهضم نفسه » ، وأنت على أثر مسحبه إلى دسّت
الحكم ﴿ وما أدري ما يفعلُ بي ولا بكم ﴾ (الأحقاف : ٩) .
ومنها : تالله لو لم يكن المخبر صادقاً لنشب بحلق العيش بعده شوكة الشك :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكنّا إذا متنا بعثنا ونُسأل بعده عن كل شيء

فالحازم من بر الآمال طوعاً ، وقال : بيدي لا بيد حمرو ﴿ يا أيّها
الناسُ إنّ وعدَ الله حقٌ فلا تغرّنكمُ الحياةُ الدُّنيا ولا يغرنّكمُ بالله
الغرور ﴾ (فاطر : ٥) .

وقال أمير الوعاظ رحمه الله تعالى :

وبضدّها تبيّنُ الأشياءُ^١

يا مقتولاً ما له طالب ثار ، يريدُ الموت مُطلق الأعنة في طلبك ، وما
يحميك حصن ، ثوبُ حياتك منسوج من طاقات أنفاسك ، والأنفاس تستلب
ذرات ذاتك ، وحركات الزمان قويّة في النسيج الضعيف ، فيا سرّعة التمزق ،
يا رابطاً مناه بخيط الأمل ، إنه ضعيف الفتل ، صياد التلف قد بثّ الصقور ،
وأرسل العقبان ، ونصب الأشرار ، وقطع المواد ، فكيف السلامة ؟ تهباً

١ عجز بيت المتنبي ، وصدره : « ونذيمهم وبهم عرفنا فضله » .

لِسُرْعَةِ الموتِ وأشدَّ منها قلب القلب ، ليت شعري لما يؤول الأمر ؟
فوالله لا أدري أَيَغْلِبُنِي الهوى إذا جَدَّ جِدُّ البين أم أنا غالبُهُ
فإن أستطعُ أَغْلِبُ وإن يغلب الهوى فَمِثْلُ الذي لاقيتُ يُغْلِبُ صاحِبُهُ
مركبُ الحياة يجري في بحرِ البدنِ برُخاءِ الأنفاس ، ولا بدَّ من عاصفٍ قاصفٍ
بفُلِّكه ويغرق الركب :

فاقضوا مآربكم عِجْالاً إِنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ من الأسفار^١

وقال : كأنك بحرب التلّف قد قامت على ساق ، وانهزمت جنود الأمل ،
وإذا بملك الموت قد بارز الروحَ يجذبها بخطاطيف الشدائد من قِنانِ العروق ،
وقد شد كثافَ الذبيح ، وحرار البصر لشدة الهول ، وملائكة الرحمة عن اليمين
قد فتحو أبوابَ الجنة ، وملائكة العذاب عن اليسار قد فتحو أبواب النار ،
وجميع المخلوقات تستوكف الخبر ، والكون كله قد فاء على صيحة : سَعِدَ
فلان ، أو شقي فلان ، فهناك تنجلي أبصار الذين كانت أعينهم في غطاء عن
ذكرى ، ويحك ! تهيأ لتلك الساعة ، حصّل زاداً قبل الفوت :

تمتّع من شميم عرّار نجدٍ فما بعدَ العشيّة من عرّارٍ

مَثَلٌ لعينيك سُرْعَةُ الموت ، وما قد عزمت أن تفعل حينئذٍ في وقت الأسر
فافعله في وقت الإطلاق ، وقال أبو العتاهية^٢ :

خانك الطرف اتّند^٣ أيّها القلبُ الجموحُ
قدّواعي الخير والشرّ دُنُوٌّ ونُزوحُ
كيف إصلاحُ قلوبٍ إِنَّمَا هُنَّ قُرُوحُ

١ البيت لأبي الحسن التهامي ، من قصيدته « حكم المنية في البرية جاري » ، ديوانه : ٢٨ .

٢ ديوان أبي العتاهية : ٩٧ .

٣ الديوان : الطمّوح .

أَحْسَنَ اللَّهُ بِنَا
فَإِذَا الْمَشْهُورُ مِنَّا
كَمْ رَأَيْنَا مِنْ عَزِيزٍ
صَاحٍ مِنْهُ بِرَحِيلٍ
مَوْتُ بَعْضِ النَّاسِ فِي الْأَرْ
سِيبِ الْمَرْءِ يَوْمًا
بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ حَيٍّ
كَلْنَا فِي غَفْلَةٍ وَالْ
لَبِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْ
رُحْنٍ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحَ
كُلُّ نَطَاحٍ مِنَ الدَّهْرِ
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسْ
لَتُنُوحَنَّ وَلَوْ عُمَدٌ

أَنَّ الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ
بَيْنَ ثَوْبَيْهِ فَضُوحُ
طَوَيْتُ عَنْهُ الْكُشُوحُ
طَائِرُ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ
ضَى عَلَى بَعْضٍ فَتُوحُ
جَسَدًا مَا فِيهِ رُوحُ
عَلَّمَ الْمَوْتَ يَلُوحُ
لِدَهْرِ يَغْدُو وَيَرْوَحُ
يَا غَبُوقُ وَصَبُوحُ
بَيْنَ عَلَيْهِنَّ الْمُسُوحُ
رِ لَهُ يَوْمًا نَطُوحُ
كَيْنُ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
رَتَ مَا عُمَرُ نُوحُ

وقال في المعنى ١ :

لَمَنْ طَلَّلَ أَسَائِلُهُ
غَدَاةَ رَأْيِهِ تَنَعَى
وَكُنْتُ أَرَاهُ مَاهُولًا
وَكُلُّ لَاعْتِسَافٍ الدَّهْرِ
وَمَا مُتَمَلِّكٌ ٢ إِلَّا
فِيصْرَعُ مِنْ يَصَارِعُهُ
يَنَازِلُ مِنْ يَهْمُ بِهِ

مُعْطَلَةٌ مَنَاهِلُهُ
أَعَالِيَهُ أَسَافِلُهُ
وَلَكِنْ بَادَ أَهْلُهُ
رِ مُعْرِضَةٌ مَقَاتِلُهُ
وَرِيبُ الدَّهْرِ شَامِلُهُ
وَيَنْضِلُ مِنْ يَنْاضِلُهُ
وَأَحْيَانًا يُخَاتِلُهُ

١ ديوانه : ٣٢٧ .

٢ الديوان : وما من مسلك .

وأحياناً يؤخّره
كفاك به إذا نزلت
وكم قد عزّ من ملك
ويثني عطفه مراحاً
فلما أن أتاه الحق
فخفض^٢ عينه للمو
فما لبث السّياق به
فجهّزه إلى جدث
ويصبح شاحط المثوى
مخمّشة نوادبـه
وكم قد طال من أمل
رأيت الحق لا يخفي
لا فانظر لنفسك أي
لمنزل وحدة بين ال
قصير السّمك قد رصمت^٣
بعيد تجاور الجيرا
أيتها المقابر في
ومن كنا نتاجرهُ
ومن كنا نُعاشرهُ
ومن كنا نُشاربه
وتارات يعاجله
على قوم كلاكله
تحف به قبائله^١
وتعجبه شمائله
ولّى عنه باطله
ت واسترخت مفاصله
إلى أن جاء غاسله
سيكّر فيه خاذله
مفجّعة ثواكله
مسلبه حلائله
فلم يدركه آمله
ولا تخفى شواكله
زاد أنت حامله
مقابر أنت نازله
عليك به جنادله
ن ضيقة مداخله
لك من كنا ننازله
ومن كنا نعامله
ومن كنا نداخله
ومن كنا نُؤاكله

١ الديوان : قنابله .

٢ الديوان : فغض .

٣ الديوان : رصت .

وَمَنْ كُنَّا نُفَاخِرُهُ وَمَنْ كُنَّا نُطَاوِلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا نَرَاقِبُهُ وَمَنْ كُنَّا نُزَايِلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا نُكَارِمُهُ وَمَنْ كُنَّا نُجَامِلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا لَهُ الْفَأْ قَلِيلًا مَا نُزَايِلُهُ^١
 وَمَنْ كُنَّا لَهُ بِالْأَمِّ سِرَ إِخْوَانًا نَوَاصِلُهُ^٢
 فَحَلَّ مَحَلَّةً مَنْ حَلَّ هَا صُرِمَتْ حَبَائِلُهُ
 أَلَا إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْ هَلَّ وَالْخَلْقُ نَاهِلُهُ
 أَوَاخِرُ مَنْ تَرَى تَفْنَى كَمَا فَنِيَتْ أَوَائِلُهُ
 لَعَمْرُكَ مَا اسْتَوَى فِي الْأَمِّ سِرَ عَالِمُهُ وَجَاهِلُهُ
 لِيَعْلَمَ كُلُّ ذِي عَمَلٍ بِأَنَّ اللَّهَ سَائِلُهُ
 فَاسْرِعَ فَائِزًا بِالْخَيْرِ سِرَ قَائِلُهُ وَفَاعِلُهُ

ثم قال لسان الدين رحمه الله تعالى ، بعد ما سبق ، ما صورته : وهذا الغرض
 بحر ، ويكفي من خزائنه عرض ، ومن بيت ماله قرض ، إن شاء الله تعالى .
 ثم قال : تنبيه يشتمل على سؤالين : أحدهما أن يقال : الوعظ غير مناسب
 للمحبة ، إذ لا يحصل إلا بعد الفراغ واليقظة ، الثاني : أن يقال : عظمتم الحسرة
 لفراق عالم الحس ، وأطلتم في قشور ، فنجيب عن الأول : إننا لم نجلب الوعظ
 إلا بين يدي تأميل حضور المحبة ، فكأنه يجري مجرى الأسباب ، فإن الغرض
 به وجهة النفس من جو السرور ، واللعب بالزور ، إلى جو الحزن والارتماض ،
 ومن هنالك تأخذ بخطامها أيدي الاضطرار ، فتحصل اليقظة ثم التوبة ، ومنها
 يستقيم الطريق في منازل السائرين إلى الحق :

١ ق : نزاوله ، والتصويب عن الديوان .

٢ الديوان : ومن كنا بلايين أحييناً ...

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغِبَتْها وإذا تُرِدُّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ^١

وعند ذلك يُطَوَّى بساط الزجر والوعظ^٢ ، ويمدّ بساط الاعتبار والحب ،
إن شاء الله تعالى ، فإنّها كالشكلى بطبعها لما فارقتّه من عنصر نور الله تعالى
والعوالم الروحانية التي هي الشعار والدثار ، والأمل والدار ، والحياة والجمال ،
والوجود والكمال ، وإن كانت لا تشعر بالسبب ، ولا تستحضر ذكر العلة ،
فإذا ذُكر الفراق أنت ، أو تُنوشدت الآثار حنّت ، ويطرقها الحزن عند
الألحان الشجية ، وتحس بعض الأحيان بالمواجد العشقية :

وقالوا أنبكي كلَّ قبرٍ رأيتَه لقبر ثوى بين اللوى والدكادك^٣
فقلت لهم : إن الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كله قبر مالك

وعن الثاني : إن كثيراً من النفوس لا تشعر بوجود عالم الحس ، فضلاً عن النظر
فيه ، وإن شعرت بذلك عد منها نبلاً ، ومَن كان بهذه المثابة لا سبيل لندائه
إلا من باب القشور ﴿أولئك يُنادونَ من مكانٍ بعيدٍ﴾ (فصلت : ٤٤) إلى أن
يتأتى النداء من باب الله تعالى بفضل الله تعالى ، فالنفوس الشخصية غير متساوية ،
وهي بهوى الهوى هاوية ، فالقريب منها يُجذبُ بالأنامل ، والبعيدُ بالجزل
الكوامل ، وعلى قدر المحمول تكون قوّة الحامل :

يضع الهناء مواضع النقب^٤

يكفي اللبيب إشارةً مكتومةً وسواه يدعى بالنداء العالي
وسواهما بالزجر من قبل العصا ثمَّ العصا هي رابعُ الأحوال

١ لأبي ذؤيب الهذلي ، ديوان الهذليين ١ : ١١ .

٢ والوعظ : سقطت من ق .

٣ البيتان لمتعم بن نويرة في رثاء أخيه مالك .

٤ من أمثالهم ؛ وهو شطر بيت لدريد بن الصمة ، وصدره : «متبذلاً تبدو محاسنه» .

وقال رحمه الله تعالى في فصل ذم الكسل ، ما صورته : ونحن نجلب بعض
الأمثال في ذمّه ، ممّا يسهل حفظه ، ويجب لحظه ، فمن ذلك : الكسل منزلة
الربح ، ومسخرة الصبح . إذا رقدت النفس في فراش الكسل استغرقها نوم
الغفلة ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك : ١٠) .
الندامة في الكسل كالسم في العسل . الكسل آفة الصنائع ، وأرضة في البضائع .
العجز والكسل ، يفتحان الحمول ولا تسّل . الفلاح إذا ملّ الحركة ، عدم
البركة :

ظهران لا يُبْلِغانِ المرءَ إن رُكبا باب السعادة : ظهر العجز ، والكسلُ

وفي اغتنام الأيام : من أضاع الفرصة ، تجرع الغصة . إن كان لك من
الزمان شيء فالحال ، وما سواه فمُحال . تارك أمره إلى غد ، لا يُفلح للأبد .
الإنسان ابنُ ساعته ، فليُحطّطْها من إضاعته . التسويف سُمُّ الأعمال ، وعدو
الكمال . لم يُحرّم المبادر ، إلّا في النادر . ما درجت أفراخُ ذلّ إلا من وكّر
طماعة ، ولا بسقت فروعُ ندمٍ إلّا من جرثومة إضاعة . العزم سوق ، والتاجر
الجسور مرزوق . مَنْ وثق بعهد الزمان ، علقت يده بحبل الحرمان . الربح
في ضمن الخسارة ، والمضيق أولى بالخسارة .

ومن أمثالهم — في نظر الإنسان لنفسه ، قبل غروب شمسهِ — قولهم : اعلم
أن كلّ حكيم صانع إذا فكر في أمره ونظر في العواقب علم أنّه لا بد يوماً أن
ينحرب دكانه الذي هو محل بضاعته ، وتنحلّ أنقاضه ، وتكلّ أدواته ، وتضعف
قوّته ، وتذهب أيام شبابه ، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان ، واستغنى
عن السعي ، فإنّه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر ، ولا إلى أدوات مجددة ،
فليستجر بما اقتناه ويشغل بالانتفاع والالتذاذ بما كسبت يده ، وهذه حالة
النفس بعد خراب الجسد ، فبادر واجتهد واحرص واستعجل ، وتزوّد قبل

خراب دكانك وهدم بنيته ، فإن خير الزاد التقوى ، قال حسّان ^١ :

إذا أنْتَ لم ترحل بزاد من التَّقَى وأبصرت بعد اليوم من قد تزوّدَا
نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثلِهِ ولم تَتَرَصَّدْ مثلاً ما كان أرصدَا

قال أبو الفرج ابن الطيب البغدادي ^٢ في اغتنام الوقت في كتابه « في السياسة والآراء الفاضلة » : يجب أن تعيد وتمثل ، فإن الفكر مضطرب متشوش بكثرة نوازع النفس واختلاف قُواهرها ، والعمى في بعض الأوقات ، فإذا سنح للنفس وقتٌ فاضل بصفاء جوهرها ، وأبرمت قانوناً أو صورة متوسطة فاضلة ، يجب أن يقيد بذلك وقت سعد ربما لا يعاود أو يعاود ؛ انتهى .

٧٦ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان سلطانه إلى شيخ الموحدين بتونس ابن تافراجين ، يخبره بالتمحيص الجاري عليه ، ونصّه : « من أمير المسلمين أيده الله ونصره ، وأعلى أمره وأظهره ، إلى ولينا في الله تعالى الذي له القَدَمُ الرفيع المناصب ، والمجدُ السامي الذوائب ، والسياسة التي أخبارها سَمَرُ الركبان وحدُّ الركائب ، الشيخ الجليل الكبير ، الشهير الخطير ، الهمام الأمضى ، الرفيع الأعلى ، الأجد الأوحد ، الأسعد الأصعد ، الأوفى الظاهر الطاهر الفاضل الباسل الأرضي الأنقى المعظم الموقر المبرور ، عَلمَ الأعلام ، سلالة أكابر أصحاب الإمام ، مُعيد دولة التوحيد إلى الانتظام ، أبي محمد عبد الله ابن الشيخ الجليل الكبير الشهير الماجد الخطير الرفيع الأسعد

١ كذا والمشهور أن هذين البيتين من قصيدة الأعشى التي نظمها في مدح الرسول وحالت قريش بينه وبين الوفاة عليه ، ومطلعها « ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا » .

٢ أبو الفرج عبد الله بن الطيب عراقي فيلسوف اعتنى بشرح الكتب القديمة في المنطق والحكمة من تأليف أرسطوطاليس وكتب جالينوس الطبية (قيل توفي سنة ٤٣٥) ومن تلامذته ابن بطلان (القفطي : ٢٢٣ ، وابن أبي أصيبعة ١ : ٢٣٩) .

الأجد الحبيب الأصيل الأمضى الأرضى الأفضل الأكل المعظم المقدس^١ المرحوم
أبي العباس تافراجين ، وصَلَّ الله تعالى له عزة تناسب شهرة فضله ، وسعادة
تتكفل له في الدارين برفعة محله : سلام كريم يخص مجادتكم الفاضلة ، ورتبتكم
الحافلة ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

« أمّا بعدَ حمدِ الذي يُمَحِّصُ ليشب ، ويأمر بالاستقالة ليُجيب ،
ويُعَقِّبَ ليلَ الشدة بصبح الفرج القريب ، ويجني من شجر التوكل عليه ،
والتسليم إليه ، ثمَّ الصنع العجيب ، ويظهر العبر مهما كسر ثم جَبَرَ لكل ذي
قلب منيب ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي نلجأ إلى ظل شفاعته
في اليوم العَصيب ، ونستظهر بجاهه على جهاد عبدة الصليب ، ونستكثر عددَ
بركاته في هذا الثغر الغريب ، ونصُول منه على العدو بالحبيب ، والرضى عن
آله وصحبه نجوم الهداية من بعد الأمانة من الأفول والمَغِيب ، فإنّا كتبناه
إليكم - كتب الله لكم عزة متصلة ، وعِصْمة بالأمان من نوب الزمان متكفلة -
من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله تعالى الذي لطف
وجَبَرَ ، وأظهر في الإقالة وحسن الإدالة العِبر ، ممّن كتب الله تعالى له العقبي
لما صَبَرَ ، إلا الخبرُ الذي كسا الأعطافَ الحِبر ، والصنع الذي صدّق خبره
الخبر ، والحمد لله تعالى كثيراً كما هو أهله فلا فضل إلا فضله ، ولمكانتكم
عندنا المحلّ الذي قررت شهرة فضلكم قواعده ، وأعلت مضاعده ، وأثبت التواتر
شواهد ، إذ لا نزال نتحف بسيركم التي في التدبيرات تُقْتَفَى ، وعلم يُسْتَرشد به
إذا العلم اختفى ، والسبيل عفا ، وإن تلك الدولة بكم استقام أودّها ، وقامت
والحمد لله عُمْدُها ، وإنكم رعيتم في البنين حقوق آبائنا ، وحفظتم عليها ميراث
عليائها ، ولو لم تتصل بنا أنباؤكم الحميدة ، وآراؤكم السديدة ، بما يفيد العلم
بفضل ذاتكم ، ويغري قوى الاستحسان بصفاتكم ، لغبطنا بمخاطبتكم

ومفاتحتكم ، ما نجدُهُ من الميل لكم طبعاً وجبيلةً ، من غير أن نعتبر سبباً
أو علةً ، فالتعارف بين الأرواح لا يُنكر ، والحديث الكريم يؤيد من ذلك
ما يُنقل ويذكر^١ .

«وبحسب ذلك نطلعكم على غريب ما جرى به في ملكنا القدر ، وحيث بلغ
الورد وكيف كان الصّدَر ، وربما اتصلت بكم الحادثة التي أكفأها على دار
ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غادياً ، ولا برح في جوانب إحسانها رائحاً وغادياً ،
يتيم حجرها الكافل ، ورضيع درّها الحافل ، الشقي الخاسر ، الخائن الغادر ،
محمد بن إسماعيل بن محمد المستجير بنسبنا من لؤم غدره ، الخفية عنا حيلُ مكره
لحمول قدره ، إذ دَعاه محتومُ الحين ليهلك إلى أن يهلك ، وسوّلت له نفسه
الأمارة بالسوء أن يُملك أخانا الخاسر ثم يملك ، وسبحان الذي يقول ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود : ٤٦) ، وكيف تم له ما أبرمه من تسوّر الأسوار ،
واقترحام البوّار ، وتملك الدار ، والاستيلاء على قطب المدار ، وأنتا كنفتنا
عصمةُ الله تعالى بمتحولنا الذي كان به ليلتذّ محل ثوائنا ، وكفّت القدرة الإلهية
أكف أعدائنا ، وخلصنا غلاباً بحالٍ انفرادٍ إلّا من عناية [الله] ونعم الرفيق ،
وصدّق اللّجاء إلى رحمة الله تعالى التي ساحتها عن مثلنا لا تضيق ، مهما تنكّر
الزمان أو تفرق الفريق ، وشرذمةُ الغدر تأخذ علينا كلّ فج عميق ، حتى أويّنا
من مدينة وادي آش إلى الجبل العاصم ، والحجة المرغمة أنفَ المخاصم ، ثم
أجزّنا البحر بعد معاناة خطوب ، وتجهّم من الدهر وقطوب ، وبلا الله هذا
الوطنَ بمن لا يرجو لله وقاراً ، ولا يألو شعائره المعظمة احتقاراً ، فأضرمه
ناراً ، وجلّل وجوهَ وجوهه خزيّاً وعاراً ، حتى هتك الباطل حِمَاه ، وغيرَ
اسمه ومُسَمّاه ، وبدّد حاميته المتخيرة وشذّبها ، وسخّم دواوينه التي
محصّها الترتيبُ والتجريبُ وهذّبها ، وأهلك نفوسها وأموالها ، وأساء لولا

١ يشير إلى الحديث «الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف . . . إلخ» .

٢ ق : فمهما .

تَدَارِكُ اللهَ تعالى أحوالها .

«ولمّا تأذن جل جلاله في إقالة العِثَار ، ودرك الثار ، وأنشأت نواسمَ رضاه
إدامة الاستغفار ، ورأينا قلادة الإسلام قد آن انتشارها ، والملة الحنيفة كادت
تذهب آثارها ، ومسائل الخلاف يتعدد مثارها ، وجعلت الملتان نحونا تشير ،
والملك يأمل أن يوافيه بقدومنا البشير ، تحركنا حركة خفيفة تشعر أنها حركة
الفتح ، ونهضنا نبتدر ما كتب الله تعالى من المنح ، وقد امتعض لنا الكونُ بما
حمل ، واستخدم الفُلك نفسه بمشيئته تعالى واكتمل ، وكاد يقرب لقرى ضيفنا
الثورُ والحمل ، وظاهرنا محلُّ أخينا السلطان الكبير الرفيع المعظم المقدس أبي
سالم الذي كان وطنه مأوى الجنوح ، ومهَبَّ النصر الممنوح - رحمة الله تعالى
عليه - مظاهرةً مثله من الملوك الأعظم ، وختم الحميل بالحميل والأعمال
بالخواتم ، وأنفَ حتى عدوُّ الدين لنعمتنا المكفورة ، وحقوقنا المحجوبة المستورة ،
فأصبح بعد العدو حبيباً ، وعاد بعد الإبابة مُنبياً ، وسَخَّر أساطيله تخضيضاً على
الإجازة وترغيباً ، واستقبلنا البلاد وبحر البشر يزخر مَوْجُهُ ، وملك الإسلام قد
خرَّ على الحضيض أَوْجُهُ ، والرومُ مستوليةٌ على الثغور ، وقد ساءت ظنون
المؤمنين بالعقبي ولله عاقبة الأمور ، والحبيثُ الغادر الذي كان يمّوه بالإقدام قد
ظهر كذب دَعْوَاه ، وهان مَثْوَاه ، وتورط في أشراكِ المندمة تورطَ مثله
ممن اتَّبَعَ هواه ، وجحد نعمة مولاه ، فلولاً أن الله ، عزَّ وجلَّ ، تدارك
جزيرة الأندلس بركابنا ، وعاجل أوارها بانسكابنا ، لكانت القاضية ، ولم ترَ لها
من بعد تلك الريح العقيم من باقية ، لكنّا والفضل لله تعالى رفعنا عنها وطأةَ
العدوِّ وقد ناء بكتلِكَل ، وابتزناه منها أيَّ مشربٍ ومأكل ، واعتزنا عليه
بالله تعالى الذي يعز ويذل ، ويهدي ويضل ، فلم نسامحه في شرط يجرُّ غَضاضة ،
ولا يخلِّف في القلوب مضاضة ، ونخضنا بحر الهَوَل ، وبرثنا إلى الله تعالى ربنا
عن القوة والحَوَل ، وظهرت للمسلمين ثمرة سريرتنا ، وما بذلنا في مصانعة

العدو عن الإجهاز عليهم من حسن سيرتنا ، فقويت فينا أطماعهم ، وانعقد
على التحرم بنا إجماعهم .

« وقصدنا مآلقة بعد أن انثالت الجهة الغربية ، وأذعنت المعازل الأبية ،
فيسر الله تعالى فتحها ، وهياً منحها ، ثم توالى البيعات ، وصرخت بآذن
البلاد الدعاة ، واضطرب أمر الحائن وقد دلفت المخاوف إليه ، وحسب كل
صيحة عليه ، فاقتضت نعامته الشائلة ، ودولة بغية الزائلة ، وآراؤه الفائلة ، أن
ضم ما أمكنه من ذخيرة مكنونة ، وآلة للملك مَصُونَة ، واستركب أوباشه الذين
استباح الحق دماءهم ، وعرف الخلق اعتزائهم للغدر وانتماءهم ، وقصد
سلطان قشتالة من غير عهد ولا وثيقة ، ولا مثلى طريقة ، ولا شيمة بالرعي
خليقة ، لكن الله ، عز وجل ، حمله على قدمه ، لإراقة دمه ، وزين الوجود
بعدمه ، فلحين قدومه عليه راجياً أن يستفزه بعرض ، أو يحيل صحة عقده
المبرم إلى مريض ، ومؤملاً هو وشيعته الغادرة كرامة على الإسلام مُجَهِّزَة ،
ونصرة لمواعيد الشيطان مُنْجِزَة ، تقبض عليه وعلى شيعته ، وصم عن سماع
خديعته ، وأفحش بهم المثلة ، وأساء بحسن رأيه فيهم القِتلة ، فأراح الله تعالى
بإبادتهم نفوس العباد ، وأحيا بهلاكهم أرواق البلاد .

« وحششنا السير إلى دار ملكنا فدخلناها في اليوم الأغر المحجل ، وحصلنا
منها على الفتح الإلهي المعجل ، وعدنا إلى الأريكة التي بنا بنا عنها التمحيص
فما حسبناه إلا سراراً أعقبه الكمال ، ومرضاً عاجله الإبلال ، فثابت للدين
الآمال ، ونجحت الأعمال ، وبذلنا في الناس من العفو ما غفر الذنوب ، وجبر
القلوب ، وأشعنا العفو في القريب والقصي ، وألبسنا المريب ثوب البري ،
وتألفنا الشارد ، وأعذبنا الموارد ، وأجرينا العوائد ، وأسنيينا الفوائد ، إلا
ما كان من شردمة عظمت جرأثرهم ، وخبثت في معاملة الله تعالى سرائرهم ،
وعرف شومهم ، وصدق من يكلومهم ، فأقصيناهم وشردناهم ، وأجليناهم

عن هذا الوطن الجهادي وأبعدناهم .

« ولما تعرّف سلطان قشتالة باستقلالنا ، واستقرارنا بحضرة الملك واحتلالنا ،
بادر يُعرّف بما كان من عمله فيمن لحقّ به من طائفة الغدر ، وإخوان
الخدعة والمكر ، وبعث إلينا برؤوسهم ، ما بين رئيسهم الشقيّ ومرؤوسهم ، وقد
طفأ على جدّ أول السيوف حبّابها ، وراق بحنّاء الدماء خضابها ، وبرز الناسُ إلى
مشاهدتها معتبرين ، وفي قدرة الله تعالى مستبصرين ، ولدفاع الناس بعضهم ببعض
شاكرين ، وأحقّ الله تعالى الحقّ بكلماته وقطّع دابر الكافرين ، فأمرنا بنصب
تلك الرؤوس بمسورِ الغدر الذي فرعته ، وجعلناها علماً على عاتق العمل السيئ
الذي اخترعته ، وشرعنا في معالجة العلم ، وأفضنا على العباد والبلاد حكمَ
السلم ، فاجتمع الشمل كأحسن أحواله ، وسكن هذا الوطن بعد زلزاله ،
وأفاق من أهواله .

« ولعلمنا بفضلكم الذي قضياه شائعة ، ومقدّماته ذائعة ، أخبرناكم به على
اختصار ، واجتزاء واقتصار ، ليس دينكم المتين بتماسك هذا الثغر الأقصى
بعد استرساله ، وإشرافه على سوء مآله ، وكنا نخاطب محلّ أخينا السلطان الجليل
المعظم الأسعد الأوحّد الخليفة أمير المؤمنين أبي إسحاق ابن الخليفة أمير المؤمنين
المعظم المقدس أبي يحيى ابن أبي بكر ابن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين
— وصلى الله تعالى أسباب سعّده وحرس أكناف مجده — لولا أنّنا تعرفنا
كوّنَه في هذه المدة مقيماً بغير تلك الحضرة التونسية ، فاجتزأنا بمخاطبة جهتكم
السنية ، وبين سلفنا وسلفكم من الود الراسخ البنيان ، والكريم الأثر والعيان ،
ما يدعو إلى أن يكون سببُ المخاطبة موصولاً ، وآخره الود خيراً من الأولى ،
لكن الطريق جَمُّ العوائق ، والبحر مفروق^١ البوائق ، وقبُول العذر بشواغل

القطر بالفضل لائق ، ومُرَادنا أن يتصل الودُّ ، ويتجدّد العهد ، والله عز وجل يتولى أمور المسلمين بمتوارد إحسانه ، ويَجْمَع قلوبهم حيثُ كانوا على طاعة الله تعالى ورضوانه ، وهو سبحانه يُطِيل سعادتكُم ، ويحرس مَجادتكُم ، ويُنْجِح إدارتكم ، وَيُسَنِّي إرادتكم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

٧٧ — ومن نثره رحمه الله تعالى ما أنشأه عن سلطانه الغني بالله ، وذلك قوله : « يا أيها الناس ، ضاعف الله تعالى بمزيد النعم سروركم ؛ وتكفل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر الغريب أموركم ؛ أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم ، المترادفة بيمينه وسعادته نعمُ الله تعالى عليكم ، أمتع الله تعالى الإسلام ببقائه ، وأيده على أعدائه ، ونصره في أرضه بملائكة سمائه ، وأن الله تعالى فَتَحَ له الفتح المبين ، وأعزَّ بحركة جهاده الدين ، وبَيَّضَ وجوهَ المؤمنين ، وأظفره باطريرةَ البلد الذي فجع المسلمين بأسرهم فجيرةٌ تثير الحمية ، وتحرك الأنفس الأبية ، فانتقم الله تعالى منهم على يده ، وبلغه من استئصالهم غاية مقصده ، فَصَدَّقَ من الله تعالى لأوليائه وعلى أعدائه الوعدُ والوعيد ، وحكم بإبادتهم المبدىء المعيد ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود : ١٠٢) وَتَحَصَّلَ من سببه بعدما رويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة ، لم يُسْمَعْ بمثلها في المدد المديدة ، والعهود البعيدة ، ولم يُصَبَّ من إخوانكم المسلمين عددٌ يُذكر ، ولا رجل يُعتبر ، فتح هني ، وصنع سني ، ولطف خفي ، ووعد وفي ، فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته ، وقِفُوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته ، وقابلوا نِعَمَهُ بالشكر يَزِدْكم ، واستبصروا في الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ، واغتنبوا بهذه الدولة المباركة التي لم تَعْدَمُوا من الله تعالى معها عيشاً خصيباً ، ولا رأياً مُصيباً ، ولا نصراً عزيزاً ولا فتحاً قريباً ، وتضرعوا في بقائها ، ونصّر لوائها ، إلى مَنْ لم يزل سميعاً للدعاء مجيباً ، والله عز وجل

يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا أولي الأمر منكم توفيقاً وسعادة ، والسلام الكريم يخلصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته من مُبْلِغ ذلك فلان « انتهى .

٧٨ - ومن نثر لسان الدين - رحمه الله تعالى - ما أنشأه عن سلطانه الغني بالله تعالى - حين وصله ابنه الذي كان بفاس - يخاطب سلطان فاس ، ما نصّه : « المقام الذي تقلد نافلة الفضل شَفْعاً ، وجود سورة الكمال إفراداً وجمْعاً ، واستولى وجمَع ببرّه المنع ، والتهنئة والفتح ، فأحرز أصلاً وفرعاً ، واستحق الشكر عقلاً وشرْعاً ، وأغرى أيدي جوده ، بالقصد الذي هو حظُّ وليه من وجوده ، فأثار من جيش اللقاء نَقْعاً ، ووسَط به جمْعاً ، مقامُ محل أخينا الذي أقلامُ مقاصده دَرَبَة بحسن التوقيع ، وعيونُ فضله مُدْكَاة لإحكام الصنيع ، وعدّبات فخره تهفو بذروة العلم المنيع ، ومكارمه تتفنن فيها مذاهبُ التنويع ، أبقاه الله تعالى وألسنُ فضله ناطقة ، وأقيسةُ سعده صادقة ، وألويته بالنصر العزيز خافقة ، وبضائعُ مكارمه في أسواق البر نافقة ، وعصائبُ التوفيق لركائب أغراضه موافقة ؛ السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا : سلام كريم ، طيب برّ عميم ، ينخصُ مقامكم الأعلى ، وطريقتكم المثلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، مُجِلُّ قدرِكم ، وملترم برِكم ، وموجب حمدكم وشكركم ، فلان .

« أمّا بعد حمد الله تعالى الذي جعل الشكر على المكرمات وقفاً ، ونهج منه بإزائها سبيلاً لا تَلْتَبِس ولا تخفى ، وعقَد بينه وبين المزيد سبباً وحليفاً ، وجعل المودة في ذاته ممّا يُقَرَّبُ إليه زُلْفَى ، مربح تجارة من قصد وجهه بعمله حتى يرى الشيء ضعفاً ، وناصر هذه الجزيرة من أوليائه الكرام السيرة بمن يُوسِعُها فضلاً وعطفاً ، ومُدْنِي ثمار الآمال فتتمتع بها اجتناء وقطفاً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي الكريم ، الرؤوف الرحيم ،

الذي مدّ من الرحمة على الأمة سجّفاً ، وملاً قلوبها تعاطفاً وتعارفاً ولطفاً ،
القائل « مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادَ بِالْعُطِيَّةِ » ووعد مَنْ عامل الله تعالى بربح المقاصد
السنية ، وعداً لا يجد خُلُفاً ، والرضى عن آله وأصحابه الذين كانوا من بعده
للإسلام كَهُفاً ، وعلى أهله في الهواجر ظِلّاً ملتفّاً ، غيوثُ الندى كلما
شامُوا سَمَاحاً وليوثُ العدى كلما شَهِدُوا زَحْفاً ، والدعاء لمقام أخوتكم
الأسعد بالنصر الذي يكف من عُدُوَانِ الكفر كفاً ، والمجد الذي لا يغادر
كتابهُ من المفاخر التي ترك الأول للآخر حَرْفاً ، وإلى هذا — أيدكم الله بنصر
من عنده ، وحكم لملككم الأسمى باتصال سعده ، وأنجز في ظهوره على من
عاند أمره سابق وعده — فإننا نقرر لدى مقامكم وإن كان الغنيّ بأصالة عقْله ،
عن اجتلاء الشاهد ونقْله ، وجلاء البيان وصقْله ، أن الهدايا وإن لم تحلّ العينُ منها
كما حلت ، أو تناولها الاستنزارُ فما نبهت في لحظ الاعتبار ولا جَلَّتْ ، أو كانت
زَيْفاً كلما أغري بها الاختبار قلّت ، لا بد أن تترك في النفوس ميلاً ، وأن
تستدعي من حسن الجزاء كيلاً ، وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نيلاً ،
وأَيُّ دليل أوضح مَحَجّة ، وأبين حجة ، من قوله صلى الله عليه وسلّم
« تهادوا تحابوا » من غير تبين مقدار ، ولا إعمال اعتبار ، ولا تفرقة بين
لحين ولا نُضار ؟ فكيف إذا كانت الهدية فليْذة الكبد التي لا يلذ العيش بعد
فراقها ، ولا تضيء ظلّم الجوانح إلا بطلوع شمسها وإشراقها ، وجمع الشمل
الذي هو أقصى آمال النفوس الآلفة ، والبواطن المصاحبة للحنين المحالفة ، لا سيما
إذا اقتعدت محلّ الهناء ، بالفتح الرائق السناء ، وحفّت بها من خلفها وأمامها
صنائع البر وقوْمة الاعتناء ، فهناك تفخر ألسن الثناء ، وتتطابق أعلام الشكر
السامية البناء .

« وإنّا ورد علينا كتابُكم الذي سَطَّره البر وأملّاه ، وكنفَه اللَّحْظُ
وتَوَلّاه ، ووَشَّحه البيانُ وحلّاه ، مهنئاً بما منح الله جلّ جلاله من رد الحق ،
وتعيين الجمع ورفع الفرق ، وتطويق الأمان وأمان الطوق ، وإسعاد السَّعد ،

وبلوغ القصد ، وقطع دابر من جحد نعمة الأب والجد ، وسكّ سيف البغي
دامي الحد ، والحمد لله تعالى حمداً يلهمه ويتيح له ، ونسأله إمداداً يسوغه ويبيحه ،
على أن أحسن العُقْبَى وأعقب الحسنى ، وأرى النعم بين فرّادى ومثنى ،
وجمع الشمل الذي قد تبدد ، وجدّد رسم السعادة لهذا القطر فتجدّد ، وأخذ
الظالم فلم يجد من مَحِيص ، وجمع لنا الأجر والفخر بين تخصيص وتمحيص ،
وقلّد برؤوس الفَجْرَةِ الغدرة الفُرْضَةَ التي فرَعُوها ، وأطفأ بمُرَاقِ دمائهم
نار الضلالة التي شرَعُوها ، وكتب لقبيلكم الفضل الذي يُحمد ويُشكر ، والحقّ
الذي لا يُجحد ولا يُنكر ، فلقد أوى لما تبرأت الخُلُصان ، وتحفّى عندما
تنكر الزمان ، وسبّب الإدالة ، وطاوع الأصالة والجلالة ، حتى فرج الله تعالى
الكُرْبَةَ ، وآنس الغربة ، وأقال العثرة وتقبل القرية ، له الحمد على آلائه ،
وصلة نعمائه ، ملء أرضه وسماؤه .

« ووصل صحبته الولد مكنوفاً بجناح اللطف ، ممهداً له ببركتكم مهادُ
العطف ، فبرزنا إلى تلقيه تنويهاً لهديتكم وإشادة ، وإبداء في بركم وإعادة ،
وأركبنا الجيش الذي آثرنا حين استقلالنا عرضه ، وقررنا بموجب الاستحقاق
فرضه ، فبرز إلى الفضاء الأفّيح حسن الترتيب ، سافراً عن المرأى العجيب ،
ولولا الحنانُ الذي تجده النفوس للأبناء وتستشعره ، والشوق إلى اللقاء الذي
لا يجحده منصف ولا يُنكره ، لما شقّ علينا طول مقامه في حجركم ، ولا ثوائه
لصق أريكة أمركم ، فجواركم محل لاستفادة رسوم الإمارة ، وتعلّم السياسة
والإدارة ، حتى يزد علينا يقدمُ كتيبة جهادكم ، ويقود إلينا طليعة نصركم إيانا
وإمدادكم ، فنحن الآن نشكر مقاصدكم التي اقتضى الكمال سياقها ، وزين
المجد آفاقها ، وقدّر لها فأحكم طباقها ، ونقرر لديكم أن حظنا من ودادكم ،
ومحلتنا من جميل اعتقادكم ، حظٌّ بان رجحانه وفضله ، ولم يتأتّ بين من
سلف من السلف مثله ، من الصحبة في المنزل الحشّين وهي الوسيلة ، وفي رعيها

تظهرُ الفضيلة ، والاشتراك في لازم الوصول إلى الحق ، وضم أشتات الخلق ،
والمودة الواضحة الطرق ، إلى ما بين السلف ، من الود الآمن بدْرُهُ من الكلّف ،
المدخورة أذِمَّتُهُ للخلف ، فإذا كانت المعاملة جارية على حسبه ، وشعبها راجعة
إلى مذهبه ، جنى الإسلام ثمرة حافلة ، واستكفى الدينُ إيالة كافلة ، فالله ، عزّ
وجلّ ، يمهّد البلاد يمين تدبيركم ، ويُجْري على مهتّع السدادِ جميعَ
أموالكم ، ويجعلكم ممّن زين الجهاد عواتق أعماله ، وكان رضى الله تعالى
عنه أقصى آماله ، حتى تُربّي ماثركم على ماثر أسلافكم الذين عرف هذا الوطن
الجهادي إمدادهم ، وشكر جهادهم ، وقبل الله تعالى فيه أموالهم وأولادهم ،
وحسّن من أجله معادهم .

«وقد حضر بين يدينا رسولكم الذي وجهتم الولد - أسعده الله تعالى - لنظره ،
وتخيرتموه لصحبة سفره ، فلان ، وهو من الأمانة والفضل ، والرجاحة والعقل ،
بحيث طابق اختياركم ، واستحقّ إيثاركُم ، فأطنب في تقرير ما لديكم من
عناية بهذه الأوطان عينت الرشد ، وضربت الوعد ، وأخلصت في سبيل الله تعالى
القصد ، وغير ذلك ممّا يؤكّد المودة المستقرة الأركان ، المؤسسة على التقوى
والرضوان ، فأجبناه بأضعاف ذلك ممّا لدينا لكم ، وقابلنا بالثناء الجميل قولكم
وعملكم ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرّسُ مجدكم ، والسلام الكريم
يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .»

٧٩ - ومن ذلك ما كتبه - رحمه الله تعالى - على لسان الأمير سعد ابن
سلطان الغني بالله تعالى إليه وهو :

«مولاي ومولى كبيرى ومولى المسلمين ، ورحمتي المتكفلة بالسعد الرائق
الحبين . يقبل قدّمكم التي جعل الله تعالى الغزّ في تقيلها ، والسعد في اتباع
سبيلها ، عبّدكم الصغير في سنه ، الكبير في خدمتكم وخدمة كبيره في حياتكم
بفضل الله تعالى ومَنّته ، الهاشُّ لتمرّيع وجهه في كتابكم حسن الذراع ، المنبئة طباعه

عن العبودية الكامنة بالبيدار إلى ذلك والإسراع ، عبدكم وولدكم سعد ، كتبه من بابكم ، المحوط بعز أمركم ، المتحف إن شاء الله تعالى بأنباء نصركم ، وقد وصل إلى عبدكم تشريفكم السابع الحلال ، وتنويهكم المبلغ غايات الأمل ، وخط يدكم الكريمة وغمامة رحمتكم الهامية الدائمة ، فيا له من عز أثبت لي الفخر في أبناء الملوك ، وسار بي من الترشيح لرتب حظوتكم على المنهج المسلوك ، قرّر من عافية مولاي وسعادته ، واقتران السعود حيث حل بوفادته ، ما تكفل ببلوغ الآمال ، وتم لسان الحال في شكر الله تعالى لسان المقال ، والله تعالى يديم أيام مولاي حتى يقوم بحق شكر النعم لسانه ، وتؤدي بعده جوارحه من الدفاع بين يدي سلطانه ما يسر به سلطانه ، وبعث جوابه منقولاً ليد حمله من يده ليهنئ تقبيل اليد الكريمة بحال تأكيد ، ويقرر ما لعبده إلى وجهه الكريم من شوق شديد ، ويعرف شمول نعمة الله تعالى ونعمته لمن ببابه من خدم وحرّم وعبيد ، ويمدّ يد الرغبة لمولاه في صلة الإنعام بتشريفه ، وإعلامه بتزايدات حركته وتعريفه ، ففي ضمن ذلك كل عز مشيد ، وخير جديد ، وينتهي تحية أهل منزل مولاي على اختلافهم بحسب منازلهم من نعمة لحظه ، التي يأخذ منها كل بحظه ، والسلام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته .

٨٠ - وقال رحمه الله تعالى : ومن نثري ما خاطبت به السلطان على لسان ولده من مالمقة ، وقد وصلت به إليه من المغرب :

« مولاي الذي رضي الله تعالى مقرون برضاه ، والنجاح مسبب عن نيته ودُعاه ، وطاعته مرتبطة بطاعة الله ، أبقى الله تعالى عليّ بكم ظلّ رحماه ، وغمام نعماه ، وزادني من مواهبه هداية في توفية حقه الكبير فإن الهدى هدى الله : يقبل مواطئ أقدامكم التي ثراها شرف الحدود وفخر الجباه ، ويقرر من عبوديته ما يسجل الحق مقتضاه ، ويسلم على مثابة رحمتكم السلام الذي يحبه الله تعالى ويرضاه ، ولدكم وعبدكم يوسف ، من منزل تأييدكم

بظاهر مألقة، حرسها الله ، والوجود ألسنٌ بالعزّ بالله ناطقة ، والأعلام والشجر
ألويةٌ بالسعد خافقة ، وأنواع التوفيق متوافقة ، وصنائع اللطيف الحبير
مصاحبة مرافقة .

«وقد وصل يا مولاي لعبدكم المفتخر بالعبودية لكم ما بعث به عليّ مقامكم ،
وجادت به سحاب إنعامكم ، ولمن تحت حجة ستركم المسدول ، وفي ظل
اهتمامكم الموصول ، ولمن ارتسم بخدمة أبوابكم الشريفة من الخدام ، وأولي
المراقبة والالتزام ، ما يضيق عنه بيانُ العبارة ، ويفتضح فيه لسانُ القول والإشارة ،
من عنايات سنية ، ونعم باطنة وجلية ، وملاحظة مولوية ، ومقاصد ملكية ، فما
شئت من قباب مذهبة ، وملابس منتخبة ، وأسرّة مرتبة ، ومحاسن لا مستورة
ولا محجبة ، واللواء الذي نشرتم على عبدكم ظلّه الظليل ، ومددتم عليه جناح العز
الجليل ، جعله الله تعالى أسعد لواء يسير في خدمتكم ، ومد عليّ وعليه لواء
حرمتمكم ، حتى يكون لجهادي بين يديكم شاهداً ، وبالنصر العزيز والفتح
المبين عليكم عائداً ، ولطائفة الخلوص لأمركم قائداً ، ولأولياء بابكم هادياً
ولأعدائكم كائداً .

«واتفق يا مولاي أن كان عبدكم قد ركب مغتتماً برد اليوم ، ومؤثراً للرياضة
في عقب النوم ، والتف عليه الخدام ، والأولياء الكرام ، فلما عدنا تعرضت
لنا تلك العنايات المجلوة الصور ، المتلوة السور ، وقد حشر الناس ، وحضرت
منهم الأجناس ، فعلا الدعا ، وانتشر الثنا ، وراقت الأبصار تلك المهمة
العليا ، فنسأل الله تعالى يا مولاي أن يكافئ مقامكم بالعز الذي لا يتبدل ،
والنصر الذي يُستأنف ويُسْتَقْبَل ، والسعد الذي مُحْكَمه لا يتأوّل ، والعبد
ومَنْ له على حال اشتياق للورود على أبوابكم الرفيعة المقدار ، وارتياح لقرب
المزار :

وأبرحُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دنتِ الدّيارُ مِنَ الدّيارِ

« والعمل على تيسير الحركة متصل ، والدهر لأوامر السعد محتفل ، بفضل
الله تعالى ، والسلام على مقام مولاي مقام الشفقة والرحمة ، والمنّة والنعمة ،
ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

٨١ - ومن إنشاء لسان الدين في تولية الأمير يوسف المذكور مشيخة
الغزاة على لسان السلطان والده ما نصّه :
« هذا ظهير كريم فاتح بنشر الألوية والبُنود ، وقودِ العساكر والجنود ،
وأجال في ميدان الوجود ، جيادَ البأس والحدود ، وأضفى ستر الحماية والوقاية
بالتهايم والنجود ، على الطائفين والعاكفين والرُكّع السجود ، عقد للمعتمد به
عقد التشریف ، والقدر المنيف ، زاكي الشهود ، وأوجب المنافسة بين مجالس
السروج ومضاجع المهود ، وبشر السيوف في الغُمود ، وأنشأ ریح النصر آمنة
من الحمود ، أمضى أحكامه ، وأنهد الغزّ أمامه ، وفتح من زهر السرور والحبور
كمامه ، أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا
أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر - أيد الله تعالى أمره وخلد ذكره -
لكبير ولده ، وسابق أمدّه ، وريحانة خلدّه ، وياقوتة الملك على يده ، الأمير
الكبير الطاهر الظاهر الأعلى ، واسطة السلك ، وهلال سماء الملك ، ومصباح
الظلم الحلك ، ومظنة العناية الأزلية من مدير الفلك ومجري الفلك ، عنوان سعده ،
وحسام نصره وعضده ، وسَميّ جده ، وسلالة فضله ومجده ، السعيد المظفر
الهام الأعلى الأمضى ، العالم العامل الأرضي ، المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج
يوسف ، ألبسه الله تعالى من رضاه عنه حللاً لا تخلق جدتها الأيام ، ولا
تبلغ كنهها الأفهام ، وبلغه في خدمته المبالغ التي يُسرُّ بها الإسلام ، وتسبّح
في بحار صنائعها الأقلام ، وحرّس معاليها الباهرة بعينه التي لا تنام ، وكفّه
بركنه الذي لا يُضام ، فهو الفرع الذي جرى بخصله على أصله ، وارتسم
نصره في نصله ، واشتمل حده على فصله ، وشهدت ألسن خياله ، برفعة

جلاله ، وظهرت دلائلُ سعادته ، في بدء كل أمر وإعادته ، لماً صرف وجهه إلى ترشيحه ، لافتراع هضاب المجد البعيد المدى وتوشيعه ، بالصبر والحلم والبأس والندى ، وأرهف منه سيفاً من سيوف الله تعالى لضرب هام العدا ، وأطلعه في سماء الملك بدراً هدى ، لمن راح وغداً ، وأخذه بالآداب التي تقيم من النفوس أودا ، وتبذر في اليوم فتجني غدا ، ورقاه في رتب المعالي طوراً فطوراً ، ترقى النبات ورقاً ونوراً ، ليجده بحول الله تعالى يداً باطشة بأعدائه ، ولساناً مجيباً عند ندائه ، وطراراً على حلة علائه ، وغماماً من غمام آلائه ، وكوكباً وهاجاً بسماؤه ، وعقد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده ، قبل أن ينتقل عن مهده ، وظلّله بجناح رايته ، وهو على كتيد دابته ، واستركب جيش الإسلام ترحيباً بوفادته ، وتنوياً بمجاداته ، وأثبت في غرض الإمارة النصرية سهم سعادته ، رأى^١ أن يزيده من عنايته ضروراً وأجناساً ، ويتبع أثره ناساً فناساً ، قد اختلفوا لساناً ولباساً ، واتفقوا ابتغاء لمرضاة الله والتماساً ، ممن كرم انماؤه ، وزينت بالحسب العدّ سماؤه ، وعُرف غناؤه ، وتأسّس على المجادة بناؤه ، حتى لا يدع من العناية فناً إلاّ وجلبه إليه ، ولا مقادة فخر إلاّ جعلها في يديه ، ولا حلة عزّ إلاّ أضفى ملابسها عليه .

و [لما] كان جيش الإسلام في هذه البلاد الأندلسية — أمّن الله سبحانه خلاها ، وسكن زلزالها ، وصدق في رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء آمالها — كلّف همّته ، ومرعى ذمّته ، وميدان اجتهاده ، ومتعلّق أمل جهاده ، ومعرج إرادته ، إلى تحصيل سعادته ، وسبيل خلاه ، إلى بلوغ كماله ، فلم يدع له علة إلاّ أزاحها ، ولا طلبية إلاّ أجال قidahها ، ولا عزيمة إلاّ أورى اقتداحها ، ولا رغبة إلاّ فسح ساحها ، آخذاً مدوّنته بالتهذيب ، ومصافّه بالترتيب ، وآماله بالتقريب ، محسناً في تلقّي الغريب ،

١ هذا جواب « لما » في السطر الأول اعلاه .

وتأنيس المريب ، مستنجزاً له وبه وعد النصر العزيز والفتح القريب ، ورفع عنه
لهذا العهد نظر مَنْ حَكَمَ الأغراض في حُماته ، واستشعر غروق الحسائف
لتشذيب كماته ، واشتغل عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته ، وجلب
جباته ، وتثمير ماله وتوفير أقواته ، ذاهباً أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته ،
فانفرج الضيق ، وخلص إلى حسن نظره الطريق ، وساغ الريق ، ورضي الفريق ،
رأى - والله الكفيل لنجح رأيه ، وشكر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه - أن يجهد
لهم اختياره ، ويحسن لديهم آثاره ، ويستنيب فيما بينه وبين سيوف جهاده ،
وأبطال جلاده ، وحماة أحوازه ، وآلات اعترازه ، مَنْ يجري مجرى نفسه
النفيسة في كل مَبْنَى ، ويكون له لفظ الولاية وله - أيده الله تعالى - المعنى ،
فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكتاب ، ومقادة الجناث ، وأجمة الأبطال ،
ومُرْنة الودقِ الهطال ، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك
الكرام ، وأعلام الإسلام ، وسائر قبائل بني مَرين ، ليوث العرين ، وغيرهم
من أصناف القبائل ، وأولي الوسائل ، ليحوط جماعتهم ، ويعرف بتفقدته
إطاعتهم ، ويستخلص لله تعالى ولأبيه - أيده الله تعالى - طاعتهم ، ويشرف
بإمارته مواكبهم ، ويزين بهلاله الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار
كواكبهم ، تقديماً أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل ، وأحسن باقتراب ما
أمل ، فللخيل اختيال ومَرَّاح ، وللأسل السُمُر اهتزاز وارتياح ، وللصدور
انشراح ، وللآمال مَغْدَى في فضل الله تعالى ورواح .

« فليتول ذلك - أسعده الله تعالى - تولى مثله ممن أسرة الملك أسرته ، وأسوة
النبي صلوات الله تعالى عليه أسوته ، والملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب
العربي منجد لطيب طبعه ، آخذاً أشرافهم بترفيح المجالس بنسبة أقدارهم ،
مُغَرِّباً حسن اللقاء بإيثارهم ، شاكراً غناءهم ، مستدعياً ثناءهم ، مستدرّاً
لأرزاقهم ، موجباً المزية بحسب استحقاقهم ، شافعاً لديه في رغباتهم المؤمّلة ،
ووسائلهم المتحمّلة ، سهلاً الإذن لو فودهم المتلاحقة ، منفقاً لبضائعهم النافقة ،

مؤنساً لغرمائهم ، مستجلياً أحوال أهليهم وآبائهم ، مميّزاً بين أغفالهم ونبهائهم .
« وعلى جماعتهم - رعى الله تعالى جهادهم ، ووفر أعدادهم - أن يطيعوه
في طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ، ويكونوا يداً واحدة على دفاع أعداء الله تعالى
وأعدائيه ، ويشدوا في مواقف الكريهة أزره ، ويمثلوا نهيه وأمره ، حتى يعظم
الانتفاع ، ويشهر الدفاع ، ويخلص المِصال لله تعالى والمِصاع ، فاو وجد - أيده
الله تعالى - غايةً في تشریفهم لبلغها ، أو موهبة لسوّغها ، لكن ما بعد ولده
العزیز عليه مذهب ، ولا وراء مباشرتهم بنفسه معزّب ، والله تعالى منجح
الأعمال ، ومبلغ الآمال ، والكفيل بسعادة المآل .

« فمن وقف على هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمنه من أمر مطاع ،
وفخر مستند إلى إجماع ، ووجوب اتباع ، وليكن خير مرعِيٍّ لخير راع ،
بحول الله تعالى .

« وأقطعه - أيده الله تعالى - ليكون بعض المواد لأزواد سفره ، وسماط
نقره ، في جملة ما أولاه من نعمه ، وسوّغه من موارد كرمه ، جميع القرية
المنسوبة إلى عرب عِنان ، وهي المحلة الأثيرة ، والمنزلة الشهيرة ، تنطلق عليها
أيدي خُدّامه ورجاله ، جارية مجرى صريح ماله ، محررة من كل وظيفة
لاستغلاله ، إن شاء الله تعالى ، فهو المستعان سبحانه ، وكتب في كذا » انتهى .

٨٢ - وكتب لسان الدين - رحمه الله تعالى - في شأن تقليد الأمير سعد

أخي المذكور الأصغر منه سنّاً ما صورته :

« هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعقّد منه في سبيل الله تعالى
لواء منصوراً ، وأعطى المعتمد به باليُمن كتاباً منشوراً ﴿ وما كان عطاء ربك
مَحْظُوراً ﴾ (الإسراء : ٢٠) وأطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهز سُفوراً ، ويسطع
نوراً ، وأقر عيوناً للمسلمين وشرح صدوراً ، ووعد الأهله أن تصير بإمداد
شمس الهدى إياها بدوراً ، وبشّر الإسلام بالنصر المنتظر ، والفتح الرائق الغرر ،

مواسط وثغوراً ، وأتبع حماة الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية فأسعدُ بها آمراً
 وأكرمُ بها مأموراً ، أمرَ به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه ، أميرُ المسلمين
 عبد الله محمد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحجاج ابن أمير
 المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر ، أعلى الله
 تعالى رايته وسدد رأيه ، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه ، لقوة عينه ، ومقتضى
 حقه من العدو ودَيْنِه ، وغصن دَوْحِه ، وآية لَوْحِه ، ودرة قلادته ،
 ودُرِّيَّ أفلاك مجادته ، وسيف نصره ، وهلال قَصْرِه ، وزينة عصره ،
 ومتقبل هديه ورشده ، ومَظِنَّة إشراق سعده ، وإنجاز وعده ، ولده الأسعد ،
 وسليل ملكه المؤيد ، الأمير الأجلّ الأعزّ الأسنى الأطهر الأظهر الأعلى ،
 لابس أثواب رضاه ونعمته ، ومنحة الله لنصره وخدمته ، ومظهر عزّه وبعد
 همته ، التقيّ الرضيّ العالم العامل الماجد حامي الحمى تحت ظل طاعته ، وكافي
 الإسلام الذي يأمن من إضاعته ، المحرز مزايا الأعمار الطويلة حظّ الشهر في يومه
 وحظ اليوم في ساعته ، الموقر المهيب المؤمل المعظم أبي النصر سعد عَرَفَه الله
 تعالى ببركة سعد بن عبادة جده ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأعظمُ
 بمَجْدِه ، ووزيره في حَلّة وعَقْدِه ، وأجنّاه ثمرة النصر الذي كناه به ووصل
 سببه بسببه فما النصر إلا من عنده ، وأنتج له الفتح المبين من مقدمتي نصره
 وسعده ، لما صَرَفَ وَجْهَ عنايته إليه في هذه البلاد الأندلسية التي خلص لله انفرادها
 وانقطاعها ، وتمحّضَ - لأن تكونَ كلمة الله هي العليا - قِرَاعُهَا ، وصدق
 مِصَالُهَا في سبيله جلّ وعلا ومِصَاعُهَا ، إلى ما يمهّد أرجاءها ، ويحقق رجاءها ،
 من سلم يعقده ، ولا يعدم الخزم معه ولا يفقد ، وعطاء ينقده ، ورأي لا يتعقب
 ولا ينقده ، وحرّْب تُضَمَّرُ له الجِيَادُ ، ويُعْتَقَلُ الأَسْلُ المِيتَادُ ، وكان الجيشُ
 رَوْضَ أمله الذي في جَنّاه يسرح ، ومرمى فكره الذي عنه لا يبرح ، فديوانه
 ديوان أمانيه الذي تسهب فيه وتشرح ، أسْهُمَه من سياسته أوفى الحظوظ

وأَسْنَاهَا ، وقَصَرَ عليه لفظُ العناية ومعناها ، ووقف عليه مَوْحَدَهَا ومَثْنَاهَا ،
فأزاح عِلَّه ، وأَحْيَا أَمْلَه ، وأنشأ جَدَّاه ، ورفع عنه من لم يبذل الجَدَّ له ،
ولا أَخْلَصَ لله فيه عمله .

« واختار لقيادة مقابله المنصورة ، وإمارة غزواته المبرورة ، أقرب الناس
إلى نفسه نَسَباً ، وأوصلهم به سَبَباً ، وأحقهم بالرتب المنيفة والمظاهر الشريفة ،
ذاتاً وأباً ، وحدّاً وشبّاً ، وأمره على أشرافه ، ودل به الأنفال على أعرافه ،
وصرف إليه آماله ، واستعمل في أسنّته يمينه وفي أعنته شماله ، وعقد عليه
ألويته الخافقة لعزة نصره ، ورأى الظهور على أعداء الله تعالى جنّى فهيّأه لهصره ،
وأدار هالة قتّام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره ، ونبه نفوس المسلمين على
جلالة قَدْرِهِ ، وقَدَّمَهُ على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتملة على الأشياخ من
أولاد يعقوب كبار بني مَرِّين ، وسائر قبائلهم المكرمين ، وغيرهم من القبائل
المحترمين ، ينوب عن أمره في عَرَضِ مسائلهم ، وقِرَى وافدهم ، وإجراء
عوائدهم ، تقديماً تهلّل له الإسلام واستبشر ، وتيقن الظفر فاستبصر ، لما علم
بمن استنصر ، فليخلصوا له في طاعته الكبرى الطاعة ، وليعلقوا ببنان نداه بنان
الطماعة ، ويؤملوا على يديه نجاح الوسيلة إلى مقامه والشفاعة ، ويعلموا أن
اختصاصهم به هو العنوان على رَفَعِ محالهم لديه ، وعزة شأنهم عليه ، فلو وجد
هَضْبَةٌ أعلى لفرّعها لهم وعلاها ، أو عزة أعز لجلاها ، أو قبيلة أذكى لصرف
وجوههم شَطْرَها وولاها ، حتى تجنى ثمرة هذا القَصْد ، وتعود بالسعد حركة
هذا الرصد ، وتعلو ذؤابة هذا المجد ، وتشهد بنصر الدين على يده ألسنة الغور
والنَجْد ، بفضل الله سبحانه .

« وعليه — أسعد الله الدولة باستعماله مكافحاً بأعلامها ، وزيناً لأيامها ، وسيفاً
في طاعة إمامها — أن يقدم منهم في مجلسه أهلَ التقديم ، ويقابل كرامهم بالتكريم ،
ويستدعي آراء مشايخهم في المشكلات في أمور الحرب ، ويغضي جفون عزائمهم
في موقف الصبر والضرب ، ويتفقدتهم بإحسانه عند الغناء ، ويقابل حميد سعيهم

بالثناء ، على هذا يعتمد وبحسبه يعمل ، وهو الواجب الذي لا يُهمل ، وقصده
بالإعظام والإجلال ، والالتقياد الذي يعود بالآمال ، ويُنجح الأعمال ، بحول الله
تعالى متقبل ، وكتب في كذا » انتهى .

٨٣ - ومما اشتمل على نظم لسان الدين ونثره ما كتب به من سلا إلى
سلطان الغني بالله تعالى ، وقد بلغه ما كان من صنع الله سبحانه له [وعودته إلى
سلطانه] :

« هنيئاً بما حوَّلتَ من رِفْعَةِ الشَّانِ وَأَنْ خَصَّكَ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ أَغَارَ عَلَى كُرْسِيِّهِ بَعْضٌ جِنَّتِهِ فَلَمَّا رَأَاهَا فَتَنَةً خَرَّ سَاجِداً وَهَبَ لِي مَلِكاً بَعْدَهَا لَيْسَ يَنْبَغِي فَاتَاهُ لَمَّا أَنْ أَجَابَ دُعَاءَهُ وَأِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي الدَّهْرِ مَفْرُداً فَقَابِلٌ صَنِيعَ اللَّهِ بِالشُّكْرِ وَاسْتَعْنُ وَحَقُّ الَّذِي سَمَّاكَ بِاسْمِ مُحَمَّدٍ لَمَّا بَلَغَ النِّعْمَى عَلَيْكَ سُرُورَهُ فَإِنِّي أَنَا الْعَبْدُ الصَّرِيحُ انْتِسَابُهُ إِذَا كُنْتَ فِي عِزٍّ وَمُلْكٍ وَغِبْطَةٍ	وَأِنْ كَرِهَ الْبَاغِي وَإِنْ رَغِمَ الشَّانِي بِمَعْجَزَةٍ مَنْسُوبَةٍ لِسُلَيْمَانَ فَأَلْقَتْ لَهُ الدُّنْيَا مَقَالِدَ إِذْعَانٍ وَقَالَ إِلَهِي أَمْنُنْ عَلَيَّ بِغُفْرَانٍ تَقْلُدُهُ بَعْدِي لِإِنْسٍ وَلَا جَانٍ مِنَ الْعِزِّ مَا لَمْ يُوْتِ يَوْمَاً لِإِنْسَانٍ فَأَنْتَ لَهُ لَمَّا اقْتَدَيْتَ بِهِ الثَّانِي بِهِ وَأَجْزَ إِحْسَانِ الْإِلَهِ بِإِحْسَانٍ لَوْ أَنَّ الصَّبَا قَدْ عَادَ مِنْهُ بَرِيْعَانٍ أَلِيَّةٌ وَافٍ لَا أَلِيَّةَ خَوَّانٍ كَمَا أَنْتَ مُوَلَايَ الْعَزِيزِ وَسُلْطَانِي فَقَدْ نَلْتُ أَوْطَارِي وَرَاجَعْتُ أَوْطَانِي
---	--

« مولاي الذي شأنه عَجَب ، والإيمان بعناية الله تعالى به قد وَجَب ، وعزه
أظهره مَنْ بَرَدَاءِ الْعِزَّةِ احْتَجَب ، إِذَا كَانَتْ الْغَايَةُ لَا تُدْرَكُ ، فَأُولَى أَنْ تَسْلَمَ
وَتَتْرَكَ ، وَمِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ لَيْسَتْ مِمَّا يَشْرَحُ ، قَدْ عَقَلَ الْعَقْلُ فَمَا يَبْرَحُ ، وَقِيدَ
اللسان فما يرتعي في مجال العبارة ولا يسرح ، اللهم ألهمنا على هذه النعمة شكراً

ترضاه ، وإمداداً من لدنك نتقاضاه ، يا الله يا الله . سعود أنارت بعد أقول
شهابها ، وحياة كرت بعد ذهابها ، وأحباب اجتمعت بعد فراقها ، وأوطان
دنت بعد بُعد شامها من عراقها ، وأعداء أذهب الله تعالى رسم بغيهم
ومحاه ، وبُغاة أدار عليهم الدهر رحاه ، وعباد أعطوا من كشف الغم ما
سألوه ، ونازحون لو سئلوا في إتاحة القرب بما في أرواقهم لبذلوه ، وسبحان
الذي يقول ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أو اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ ﴾ (النساء : ٦٦) فليهن الإسلام بياض وجهه بعد اسوداده ،
وتغلب إيالة من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر على بلاده ، وعودة الملك المظلوم
إلى معتاده ، واستواء الحق النائي جنبه فوق مهاده ، ورد الإرث المغصوب إلى
مستحقه عن آبائه وأجداده . والحمد لله الذي غسل عن وجه الأمة الحنيفة العار ،
وأنقذ عهدها وقد ملكها الذعار ، فرد المعار ، وأعيد الشعار ، نحمدك اللهم
حمداً يليق بقدسك ، لا بل لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

« والعبد يا مولاي قد بهرت عقله آلاء الله تعالى قبلك ، فالفكر جائل واللسان
ساكت ، والعقل ذاهل والطرف باهت ، فإن أقام رسماً للمخاطبة فقلم مرح
وركض ، وطرس هز جناح الارتياح ونفض ، ليس هذا المرآم ممّا يرام ،
ولا هذه العناية التي تحار فيها الأفهام ، ممّا تُصمّي غرضه السّهام ، فنسأل
الله تعالى أن يجعل مولاي من الشاكرين ، وبأحكام تقلبات الأيام من المعتبرين ،
حتى لا يغره السّراب الخادع ، والدهر المرغم للأتوف الجادع ، ولا يرى في
الوجود غير الله من صانع ، ولا معطي ولا مانع ، ويمتعه بالعز الحديد ، ويوفقه
للنظر السديد ، ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد ، والسلام » انتهى .

٨٤ — وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى أبا عبد الله ابن عمر

التونسي قوله :

« سيدي الذي عهده لا ينسى ، وذكره يُصبح في ترديده بالحميل ويُمسّي ،

أبقاكم الله تعالى تجلون من السعادة شمسا ، وتصرفون في طاعته لساناً فرداً وبناناً
 خمسا : وصلني كتابكم الأشعث الأغبر ، ومقتضبيكم الذي أضغاثه لا تُعبر ،
 شاهدةً بعدم الاعتناء أوضاعه ، معدوماً إمتاعه ، قصيراً في التعريف بالحال
 المشوّف إليها باعه ، مضمناً الإحالة على خليّ من معناها ، غير ملتبس
 بمؤحّدها ولا مثناها ، سأله كما يسأل المريضُ عمّا عند الطبيب ، ويحرص
 الحبيبُ على تعرّف أحوال الحبيب ، فذكر أنّه لم يتحمل غير تلك السّحابة
 المغنية في الاختصار ، المجحفة بحظّي الأسماع والأبصار ، فهمتُ بالعتب ،
 على البخل بالكتب ، ثم عذرت سيدي بما يعترني مثله من شواغل تطرق ،
 وخواطر تومض وتبرق ، وإذا كان آمناً سِرُّه ، مُهنّاً سِرُّه ، فهو الأمل ،
 ويُقنع هذا المجل ، وإن كان التفسير هو الأكل ، وما ثمّ ما يعمل ، وودّه
 في كل حال ودّه ، والله سبحانه بالتوفيق يمدّه ، والسلام .

وكانت للسان الدين رحمه الله تعالى مخاطبات كثيرة لسلطان الدولة وأعيانها ،
 دلّت على قوّة عارضته في البلاغة ، وقد ألمعنا بجملة منها في هذا الكتاب في مواضع
 ولم نكثر منها طلباً للاختصار أو التوسط بحسب ما اقتضاه الباعث في الحال ،
 والله سبحانه وتعالى يبلغ الآمال ، ويزكي الأعمال .

٨٥ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه عن السلطان أبي الحجاج
 يوسف بن نصر إلى سيد العالمين صلى الله عليه وسلّم إثر نظم ، ونصّ الكَل هو :

إذا فاتني ظلّ الحمى ونعيمه	فحسبُ فؤادي أن يَهَبَ نسيمه
ويُقنعني أني به متكنّف	فزمزمه دمي ، وجسمي حطيمه
يعود فؤادي ذكر مَنْ سكن الغضا	فيقعدُه فوق الغضا ويقيمه
ولم أرَ شيئاً كالنسيم إذا سرى	شفى سقم القلب المشوق سقيمه
نعللُ بالتذكّار نفساً مشوقة	نديرُ عليها كأسه ونديمه

وما شفتني بالغور قد مرّح
ولا سهرت عيني لبرق ثنية
براني شوق للنبي محمد
ألا يا رسول الله ناداك ضارع
مشوق إذا ما الليل مدّ رواقه
إذا ما حديثك عنك جاءت به الصبا
أيجهر بالنجوى وأنت سمعها
وتعوزه السقيا ، وأنت غيائه
بنورك نور الله قد أشرق الهدى
لك أنهل فضل الله بالأرض ساكباً
ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى
لك الخلق الأرضي الذي جلّ ذكره
يجلّ مدى عليك عن مدح مادم
ولي يا رسول الله فيك وراثة
وعندي إلى أنصار دينك نسبة
وكان بودّي أن أزور مبوّاً
وقد يُجهد الإنسان طرّف اعتزاه
وعذري في تسويف عزمي ظاهر
عدتني بأقصى الغرب عن تربك العدا
أجاهد منهم في سبيلك أمة
فلولا اعتناء منك يا ملجأ الورى
فلا تقطع الحبل الذي قد وصلته

ولا شاقني من وحش وجرة ريمه
من الثغر يبدو موهناً فأشيمه
يسوم فؤادي برّحه ما يسومه
على النأي محفوظ الوداد سليمه
تهم به تحت الظلام همومه
شجاء من الشوق الحثيث قديمه
ويشرح ما يخفي وأنت عليه
وتتلفه الشكوى ، وأنت رحيمه
فأقماره وضّاحة ونجومه
فأنواؤه ملتفة وغيومه
خليل الذي أوطاها وكليمه
ومجدك في الذكر العظيم عظيمه
فموسر درّ القول فيك عديمه
ومجدك لا ينسى الذمام كريمه
هي الفخر لا يخشى انتقالاً مقيمه
بك افتخرت أطلاله ورسومه
ويُعوزه من بعد ذاك مرسومه
إذا ضاق عذر العزم عمن يلومه
جلالته الثغر الغريب ورومه
هي البحر يُعبي أمرها من يرومه
لريع حماه واستبّيح حريمه
فمجدك موفور النوال عميمه

وَأَنْتَ لَنَا الْغَيْثُ الَّذِي نَسْتَدْرُهُ وَأَنْتَ لَنَا الظِّلُّ الَّذِي نَسْتَدِيمُهُ
وَلَمَّا نَأَتْ دَارِي وَأَعُوزَ مَطْمَعِي وَأَقْلَقْنِي شَوْقٌ يَشْبُ جَحِيمُهُ
بَعَثْتُ بِهَا جَهْدَ الْمَقْلِّ مَعُولًا عَلَى مَجْدِكَ الْأَعْلَى الَّذِي جَلَّ خِيمُهُ
وَكَلْتُ بِهَا هَمِي وَصَدَقَ قَرِيحَتِي فَسَاعَدَنِي هَاءَ الرُّوِيِّ وَمِيمُهُ
فَلَا تَنْسِنِي يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى فَمِثْلُكَ لَا يُنْسَى لَدَيْهِ خَدِيمُهُ
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَمَا رَاقَ مِنْ وَجْهِ الصَّبَاحِ وَسِيمُهُ

« إلى رسول الحق إلى كافة الخلق ، وغمام الرحمة الصادق البرق ، الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق ، خاتم الأنبياء ، وإمام ملائكة السماء ، ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء ، شفيع أرباب الذنوب ، وطبيب أدواء القلوب ، والوسيلة إلى علاّم الغيوب ، نبي الهدى الذي طهر قلبه ، وغفر ذنبه ، وختم به الرسالة ربه ، وجرى في النفوس مجرى الأنفاس حبه ، الشفيع المشفع يوم العرض ، المحمود في ملائكة السماء والأرض ، صاحب اللواء المنشور يوم النشور ، والمؤمن على سِرِّ الكتاب المسطور ، ومُخْرِجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، المؤيد بكفاية الله وعِصْمَتِهِ ، الموفور حظّه من عنايته ونعمته ، الظل الحفاق على أمته ، مَنْ لو حازت الشمسُ بعضَ كماله ما عدمت إشراقاً ، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقاً ، فائدة الكون ومعناه ، وسر الوجود الذي يبهر الوجود سناه ، وصفيّ حضرة القدس الذي لا ينام قلبه إذا نامت عيناه ، البشير الذي سبقت له البشري ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، ونزل فيه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ (الإسراء : ١) مَنْ الْأَنْوَارُ مِنْ عِنْدِ نوره مُسْتَمَدَّةً ، والآثار تخلق وآثاره مستجدّة ، مَنْ طُوِيَ بِسَاطُ الْوَحْيِ لِفَقْدِهِ ، وسُدَّ باب الرسالة والنبوة من بعده ، وأوتي جوامع الكلم فوقفت البلغاء حَسْرَى دون حدّه ، الذي انتقل في الغرر الكريمة نوره ، وأضاءت لميلاده مصانع الشام وقصوره ، وطفقت الملائكة تحيته وفودها وتزوره ، وأخبرت الكتب

المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته ، وأخذ عهد الإيمان به على من اتصلت
بمبعثه منهم أيام حياته ، المفزع الأمانع يوم الفزع الأكبر ، والسند المعتمد عليه
في أهوال المحشر ، ذو المعجزات التي أثبتتها المشاهدة والحس ، وأقر بها
الجن والإنس ، من جماد يتكلم ، وجذع لفراقه يتألم ، وقمر له ينشق ،
وحجر يشهد أن ما جاء به هو الحق ، وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس ، وماء
من بين أصابعه يتجسس ، وغمام باستسقائه يصب ، وطوي يصبق في
أجاجها فأصبح ماؤها وهو العذب المشروب ، المخصوص بمناقب الكمال وكمال
المناقب ، المسمى بالحاشر العاقب ، ذو المجد البعيد المرامي والمراقب ، أكرم من
رُفعت إليه وسيلة المعترف المغترب ، ونجحت لديه قرينة البعيد المقرب ،
سيد الرسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذي فاز بطاعته المحسنون ،
واستنقذ بشفاعته المذنبون ، وسعد باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
صلى الله عليه وسلم ما لمع برق ، وهمع ودق ، وطلعت شمس ، ونسخ
اليوم أمس :

« من عتيق شفاعته ، وعبد طاعته ، المعتصم بسببه ، المؤمن بالله ثم به ،
المستشفى بذكره كلما تألم ، المفتتح بالصلاة عليه كلما تكلم ، الذي إن ذكر
تمثل طلوعه بين أصحابه وآله ، وإن هبّ النسيم العاطر وجد فيه طيب خلاله ،
وإن سمع الأذان تذكر صوت بلال ، وإن ذكر القرآن استشعر تردد جبريل
بين معاهده وخلاله ، لاثم تربه ، ومؤمل قربه ، ورهين طاعته وحبّه ،
المتوسل به إلى رضى الله ربه ، يوسف بن إسماعيل بن نصر :

« كتبه إليك يا رسول الله والدمع ماح ، وخيل الوجد ذات جراح ، عن
شوق يزداد كلما نقص الصبر ، وانكسار لا يتاح له إلا بدنو مزارك الحبر ،
وكيف لا يعي مشوقك الأمر ، وتوطأ على كبده الحمر ، وقد مطلت
الأيام بالقدوم على تربك المقدسة اللحد ، ووعدت الآمال ودانت بإخلاف
الوعد ، وانصرفت الرفاق والعين بنور ضريحك ما اكتحلت ، والركائب إليك

ما رَحَلَتْ ، والعزائم قالت وما فعلت ، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة
لم تسرَحْ ، وطيورُ الآمال عن وكور العجز لم تَبْرَحْ ، فيا لها من معاهدَ فاز مَنْ
حيَّاهَا ، ومشاهد ما أعْطَرَ رِيَّاهَا ، بلاد نيطت بها عليك التماائم^١ ، وأشرقت
بنورك منها النجودُ والتهائم ، ونزل في حُجُرَاتِهَا عليك الملك ، وانجلي بضياء
فرقانك فيها الحَلَك ، مَدَارِسُ الآيات والسور ، ومطالع المعجزات السافرة
الغُرَر ، حيث قضيت الفروض وحتمت ، وافتتحت سورة الرحمن وختمت ،
وابتدئت الملة الحنيفية وتمت ، ونُسخت الآيات وأُحكمت :

« أما والذي بعثك بالحق هادياً ، وأطلعك للخلق نوراً بادياً ، لا يطفىء غُلَّتِي
إِلَّا شَرِبُكَ ، ولا يُسَكِّن لوعتي إلا قربك ، فما أسعدَ مَنْ أفاض من حرم
الله إلى حرمك ، وأصبح بعد أداء ما فرضتَ عن الله ضيفَ كرمك ، وعفّر
الحدَّ في معاهدك ومعاهد أسرتك ، وتردد ما بين دارِيْ بعثتك وهجرتك ، وإنِّي
لما عاقتني عن زيارتك العوائق ، وإن كان شغلي عنك بك ، وعدتني الأعداء
فيك عن وصل سبي بسبيك ، وأصبحت بين بحرٍ تتلاطم أمواجه ، وعدوّ
تتكاثف أفواجه ، ويحجب الشمس عند الظهيرة عَجَاجُهُ - في طائفة من المؤمنين
بك ووطنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم ،
ورفعوا إلى مصارختك رؤوسهم ، واستعذبوا في مرضاة الله تعالى ومرضاتك
بُوسَهم ، يطiron من هيعة إلى أخرى ، ويلتفتون والمخاوف عن يُمْتِي
ويُسْرِي ، ويقارعون وهم الفئة القليلة جموعاً كجموع قيصر وكسرى ، لا
يبلغون من عدوّ هو الذرُّ عند انتشاره ، عُسْرَ معشاره ، قد باعوا من الله تعالى
الحياة الدنيا ، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا ، فيا له من سِرْب مَرُوع ،
وصريخ إلا منك ممنوع ، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع ، وصبية حُمُر

١ نثر فيه قول الأعرابي :

بلاد بها نيطت علي تماائم وأول أرض مس جلدي تراها

الحواصل ، تحفق فوق أوكارها أجنحة المناصل ، والصليبُ قد تمطى فمدّ
ذراعيه ، ورفعت الأطماع بضبيعه ، وقد حُجبت بالقَتَامِ السماء ، وتلاطمت
أمواج الحديد ، والبأس الشديد ، فالتقى الماء ، ولم يبق إلا الدَّماء ، وعلى ذلك
فما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون ، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى
تكاد تشاهده العيون ، إلى أن نلقاك غداً إن شاء الله تعالى وقد أبلينا العذر ،
وأرغمنا الكفر ، وأعمَلنا في سبيل الله تعالى وسبيلك البيض والسَّمَر - استنبت^١
رقعتي هذه لتطير إليك من شوقي بجناح خافق ، وتسعد من نيتي التي تصحبها برفيق
مُوافِق ، فتؤدّي عن عبدك وتبلغ ، وتعفّر الخدّ في تُربك وتمرّغ ، وتطيب
بريّاً معاهدك الطاهرة وبيوتك ، وتقف وقوف الخضوع والخشوع تجاه تابوتك ،
وتقول بلسان التملّق ، عند التشبث بأسبابك والتعلّق ، منكسرة الطرف ، حذراً
بتهرّجها من عدم الصرف : يا غياث الأمة ، وغمام الرحمة ، ارحم غربتي
وانقطاعي ، وتغمد بطولك قصر باعي ، وقوِّ على هيبتك خورَ طباعي ، فكم
جُزّت من لج مهوّل ، وجُبت من حزون وسهُول ، وقابِلٌ بالقَبول نيابتي ،
وعجّل بالرضى إجابتي ، ومعلوم من كمال تلك الشّيم ، وسجّايا تيك الديم ،
أن لا يخيب قَصْدٌ من حَط بفنائها ، ولا يظمأ وارداً أكبَّ على إنائها .

« اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة ، وأعطيته لواء
الحمد يسيرُ آدمُ فمن دونه تحت ظلاله المنشورة ، وملكته أمتة ما زوي له من
زوايا البسيطة المعمورة ، وجعلتني من أمتة المجبولة على حُبّه المفطورة ، وشوقتي
إلى معاهده المبرورة ، ومشاهده المزورة ، ووكلت لساني بالصلاة عليه ، وقلبي
بالحنين إليه ، ورغبتني بالتماس ما لديه ، فلا تقطع منه أسبابي ، ولا تحرمني
من حبه ثوابي ، وتداركني بشفاعته يوم أخذ كتابي .

« هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت داره ، وشطّ مزاره ، ولم يُجعل بيده

١ استنبت : جواب « لما » التي وقعت قبل سطور عديدة .

اختياره . فإن لم تكن ^١ للقبول أهلاً فأنت للإغضاء والسماح أهل ، وإن كانت ألفاظها وعرة فجنابك للقاصدين سهل ، وإن كان الحب يتوارث كما أخبرت ، والعروق تدس حسبما إليه أشرت ، فلي بانتسابي إلى سعدٍ عميدٍ أنصارك مزية ، ووسيلة أثيرة حفية ، فإن لم يكن لي عمل ترتضيه فلي نيّة ، فلا تنسني ومنّ بهذه الجزيرة المفتحة بسيف كلمتك ، على أيدي خيار أمتك ، فإنّما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك ، نعوذ بوجه ربّك من إغفالك ، ونستنشق من ريح عنايتك نفحة ، ونرتقب من محيا قبولك لمحة ، ندافع بها عدوّاً طغى وبغى ، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى ، فمواقف التمحيص قد أعيت منّ كتب وورّخ ، والبحر قد أصمت من استصرخ ، والطاغية في العدوان مستبصر ، والعدو محلق والولي مقصر ، وبجاهك ندفع ما لا نطيق ، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق ، فلا تفردنا ولا تهملنا ، وناد ربّك فينا ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا ﴾ (البقرة : ٢٨٦) ، وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم ، وربك يقول لك وقوله الحق ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال : ٣٣) والصلاة والسلام عليك يا خير منّ طاف وسعى ، وأجاب داعياً إذا دعا ، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك ، صلاة تليق بجلالك ، وتحق لكمالك ، وعلى ضجيعيك وصديقك ، وحبيبك ورفيقك ، خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على جلّتك ، وصهرك ذي النورين المخصوص ببرك ونحلتك ، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك ، بدر سمائك ووالد أهلتك ، والسلام الكريم عليك وعليهم كثيراً أثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته ، وكتب بحضرة جزيرة الأندلس غرناطة ، صانها الله تعالى ووقاها ، ودفع عنها ببركتك كيد عداها « انتهت الرسالة .

٨٦ — وكتب أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان مخدمه

١ الضمير يعود إلى « وسيلة » ويعني بها الرسالة .

السلطان الغني بالله محمد ابن السلطان أبي الحجاج — رحم الله تعالى الجميع —
ما صورته :

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبُ
مَدْلٌ بِأَسْبَابِ الرِّجَاءِ وَطَرْفُهُ
يَكْلِفُ قَرَصَ الْبَدْرِ حَمْلَ تَحِيَّةٍ
لَتَرْجَعَ مِنْ تِلْكَ الْمَعَالِمِ غَدَوَةٌ
وَيَسْتَوْدِعُ الرِّيحَ الشَّمَالَ شَمَائِلًا
وَيَطْلُبُ فِي جِيبِ الْجُيُوبِ جَوَابَهَا
وَيَسْتَفْهَمُ الْكَفَّ الْخَضِيبَ وَدَمْعَهُ
وَيَتَّبِعُ آثَارَ الْمَطِيِّ مَشِيعًا
إِذَا أَثَرَ الْأَخْفَافِ لَاحَتْ مَحَارِبًا
وَيَلْقِي رِكَابَ الْحَجِّ وَهِيَ قَوَافِلُ
فَلَا قَوْلَ إِلَّا أَنَّهُ وَتَوَجَّعُ
غَلِيلٌ وَلَكِنْ مِنْ قَبُولِكَ مِنْهَلُ
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي وَالْأَمَانِي ضَلَّةُ
أَيْنَجْدُ نَجْدٌ بَعْدَ شَحْطِ مَزَارِهِ
وَتُقْضَى دِيُونِي بَعْدَمَا مَطَّلَ الْمَدَى
وَهَلْ أَقْضِي دَهْرِي فَيَسْمَحُ طَائِعًا
وَيَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ لِحَوْمِي مَوْرَدُ
وَلَكِنَّكَ الْمَوْلَى الْجَوَادُ وَجَارُهُ
وَكَيْفَ يَضِيقُ الذَّرْعُ يَوْمًا بِقَاصِدِ
وَمَا هَاجَنِي إِلَّا تَأَلَّقُ بَارِقِ

وَأَنْتَ ، عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ ، قَرِيبُ
غَضِيضٌ عَلَى حَكْمِ الْحَيَاءِ مَرِيبُ
إِذَا مَا هَوَى وَالشَّمْسُ حِينَ تَغِيبُ
وَقَدْ ذَاعَ مِنْ رَدِّ التَّحِيَّةِ طِيبُ
مَنْ الْحَبِّ لَمْ يَعْلَمْ بِهِنَ رَقِيبُ
إِذَا مَا أَطْلَتِ وَالصَّبَاحُ جَنِيبُ
غَرَامًا بِخَنَاءِ النَّجِيعِ خَضِيبُ
وَقَدْ زَمَزَمَ الْحَادِي وَحَنَ نَجِيبُ
يَخْرُ عَلَيْهَا رَاكِعًا وَيَنْيَبُ
طِلَاحٌ وَقَدْ لَبَّى النَّدَاءَ لَيْبُ
وَلَا حَوْلَ إِلَّا زَفْرَةٌ وَنَحِيبُ
عَلِيلٌ وَلَكِنْ مِنْ رِضَاكَ طِيبُ
وَقَدْ تَخْطِئُ الْأَمَالَ ثُمَّ تَصِيبُ
وَيَكْثُبُ بَعْدَ الْبَعْدِ مِنْهُ كَثِيبُ
وَيَنْفُذُ بَيْنِي وَالْمَبِيعِ مَعِيبُ
وَأَدْعُو بِحَظِي مَسْمَعًا فَيُجِيبُ
لَدَيْكَ ؟ وَهَلْ لِي فِي رِضَاكَ نَصِيبُ ؟
عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ لَيْسَ يَخِيبُ
وَذَاكَ الْجَنَابُ الْمُسْتَجَارُ رَحِيبُ
يَلُوحُ بِفَوْدِ اللَّيْلِ مِنْهُ مَشِيبُ

ذكرتُ به ركبَ الحجاز وجيرةً
فبتُ وجفّني من لآلئِ دمعهِ
ترنّخي الذكري ويهفو بيّ الجوى
وأحضرُ تعليلًا لشوقي بالمنى
مرامي ، لو أعطى الأمانى ، زورةً
فقولُ حبيبٍ إذ يقول تشوقاً
تعجبتُ من سيفي وقد جاور الغضا
وأعجبُ أن لا يورقَ الرمحُ في يدي
فيا سرحَ ذاك الحيّ لو أخلف الحيا
ويا هاجرَ الجوّ الحديبِ تلبثاً
ويا قادحَ الزندِ الشّحاح ترفقاً
أيا خاتمَ الرسلِ المكين مكانهُ
فؤادي على جمرِ البعادِ مقلّبُ
فوالله ما يزدادُ إلا تلهباً
فليلتُهُ ليلُ السّليمِ ويومُها
هواي هُدًى فيك اهتديتُ بنوره
وحسبي على أنّي لصحبك مُثّم
عدتُ عن مغانيك المشوقة للعدا
حرّاصٌ على إطفاء نورٍ قد حثتهُ
فكم من شهيدٍ في رضاك مجدّل
تمرُّ الرياحُ الغُفلُ فوق كلومهم
بنصرِكَ عنك الشغلُ من غير منّةٍ

أهابَ بها نحو الحبيب مُهيبُ
غنيّ وصبري للشجونِ سليبُ
كما مال غصنٌ في الرياضِ رطيبُ
ويطرقُ وجدٌ غالبٌ فأغيبُ
يُبثُّ غرامٌ عندها ووجيبُ
عسى وطنٌ يدنو إليّ حبيبُ
بقلبي فلم يسبكه منه مذيبُ
ومن فوقه غيثُ المشوق سكيبُ
لأغناك من صوبِ الدموعِ صبيبُ
فعهدي رطبُ الجانبين خصبُ
عليك فشوقي الخارجيّ شبيبُ
حديثُ الغريبِ الدار فيك غريبُ
يُمّاحُ عليه للدموعِ قلبُ
أبصرتُ ماءً ثارَ عنه هيبُ
إذا شدّ للشوقِ العصابُ عصيبُ
ومنتسبي للصحبِ منك نسيبُ
وللخزرجيّين الكرامِ نسيبُ
عقاربُ لا يخفى هنّ ديبُ
فمستلبُ منّ دونه وسليبُ
يظله نسرٌ ويندبُ ذيبُ
فتعبقُ من أنفاسِها وتطيبُ
وهلّ يتساوى مشهدٌ ومغيبُ

فإن صَحَّ منك الحَظُّ طاوَعَتِ المُنَى
ولولاك لم يُعْجَمَ من الروم عودها
وقد كانتِ الأحوالُ ، لولا مراغبُ
فما شئتَ من نصرٍ عزيزٍ وأنعمِ
منابرُ عزٍّ أذنَ الفتحُ فوقها
نَقُودُ إلى هيجائها كلَّ صائلٍ
ونجتابُ من سَرَدِ اليقينِ مدارعاً
إذا اضطربَ الخطيُّ حولَ غديرِها
فعدراً وإغضاءً ولا تنسَ صارخاً
وجاهك بعدَ الله نرجو ، وإنه
عليك صلاةُ الله ما طَيَّبَ الفضا
وما اهترَّ قدٌّ للغصونِ مرنَّحٌ
ويبعدُ مرمَى السهم وهو مُصيبُ
فعودُ الصليبِ الأعجميِّ صليبُ
ضمنتَ ووعدٌ بالظهور ، تُريبُ
أثابَ بهنَّ المؤمنينَ مُثيبُ
وأفصحَ للعضبِ الطريرِ خطيبُ
كما ريعَ مكحولُ اللحاظِ ربيبُ
يكفُّها من يجتني ويثيبُ
يروقكَ منها لحنةٌ وقضيبُ
بعزكَ يرجو أن يجيبَ مجيبُ
لحظٌ مليٌّ بالوفاءِ رغبُ
عليك مطيلٌ بالثناءِ مطيبُ
وما افترَّ ثغرٌ للبروقِ شَنِيبُ

« إلى حجة الله تعالى المؤيدة ببراهين أنواره ، وفائدة الكون ونكتة أدواره ، وصفوة نوع البشر ومنتهى أطواره ، إلى المجتبي وموجود الوجود لم يغنَ بمطلق الوجود عديمه ، المصطفى من ذرية آدم قبل أن يكسو العظام أديمه ، المحتوم في القديم ، وظلمات العدم ، عند صدق القَدَم ، تفضيله وتقديمه ، إلى وديعة النور المنتقل في الجباه الكريمة والغرر ، ودرة الأنبياء التي لها الفضل على الدرر ، وغمام الرحمة الهامية الدرر ، إلى مختار الله تعالى المخصوص باجتماعه ، وحببه الذي له المزية على أحبائه ، وذرية أنبياء الله تعالى آبائه ، إلى الذي شرح صدره وغسله ، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله ، وأتمَّ عليه إنعامه الذي أجزله ، وأنزل عليه من الهدى والنور ما أنزله ، إلى بشرى المسيح والذبيح ، ومن لهم التجرُّ الربيع ، المنصور بالرعب والريح ، المخصوص

بالنسب الصريح ، إلى الذي جعله في المَحُولِ غماماً ، وللأنبياء إماماً ، وشقَّ صدره لتلقّي روح أمره غُلاماً ، وأعلّم به في التوراة والإنجيل إعلاماً ، وعلم المؤمنين صلاةً عليه وسلاماً ، إلى الشفيع الذي لا تُردُّ في العُصاة شفاعته ، والوجيه الذي قرنت بطاعة الله تعالى طاعته ، والرؤوف الرحيم الذي خلصت إلى الله تعالى في أهل الجرائم ضراعاته ، صاحب الآيات التي لا يسعُ ردها ، والمعجزات التي أربى على الألفِ عدها ، فمن قمر شقَّ ، وجذع حن له وحق ، وبنان يتفجّر بالماء ، فيقوم بريّ الظماء ، وطعام يُشبعُ الجمعَ الكثير يسيره ، وغمام يُظللُّ به مقامه ومسيره ، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض ، وأول من تنشقُّ عنه الأرض ، ووسيلة الله تعالى التي لولاها ما أقرض القرض ، ولا عرف النفل والقرض ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المحمود الحلال من ذي الحلال ، الشاهد بصدقه صحفُ الأنبياء وكتب الأرسال ، وآياته التي أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال ، صلى الله عليه وسلم ما ذرَّ شارق ، وأومض بارق ، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق ، صلاة تتأرج على شذا الزهر ، وتبليج عن سنا الكواكب الزهر ، وتردد بين السر والجهر ، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدهر :

« من عبد هُداه ، ومستقري مَوَاقِع نداءه ، ومزاحم أبناء أنصاره في متداه ، وبعض سهامه المفوقة إلى نحور عداه ، مؤمل العتق من النار بشفاعته ، ومحرز طاعة الجبار بطاعته ، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله تعالى وإضاعته ، متخذ الصلاة عليه وسائل نجاة ، وذخائر في الشدائد مُرتجاة ، متاجر بضائعها غير مُزجاة ، الذي ملأ بحبه جوانح صدره ، وجعل فكره هالة لبدرة ، وأوجب حقه على قدر العبد لا على قدره ، محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي ، نسيب سعد بن عبادة من أصحابه ، وبوارق سحابه ، وسيوف نصرته ، وأقطاب دار هجرته ، ظلّله الله تعالى يوم الفرع الأكبر من رضاك عنه بظلال الأمان ، كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان ، وجعله

من أهل السياحة في فضاء حُبِّك والهيمنان :

« كتبه إليك يا رسول الله - واليراع تقتضي الهبة صفرة لونه ، والمداد يكاد أن يحول سواد جَوْنَه ، وورقة الكتاب يخفق فؤادُها حرصاً على حفظ اسمك الكريم وصَوْنَه ، والدمعُ يقطر فتتقط به الحروف وتفصل الأسطر ، وتوهَّمُ المثل بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر ، عن قلب بالبعد عنك قَرِيح ، وجفن بالبكاء جريح ، وتأوّه عن تبريح ، كلما هَبَّ من أرضك نسيم ريح ، وانكسار ليس له إلا جَبْرُك ، واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك ، وإن يُقْضَ فقبرك ، وكيف لا يسلم في مثلها الأسى ، ويوحش الصباح والمساء ، ويرجفُ جبلُ الصبرِ بعدما رَسَا ، لولا لعلَّ وعسى ، فقد سارتِ الركبانُ إليك ولم يُقْضَ مَسِير ، وحومت الأسرابُ عليك والجنحُ كَسِير ، ووعدت الآمال فأخلفت ، وحلفت العزائم فلم تَفِ بما حلفت ، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل ، إلا على التمثيل ، ولا من المعالم الملتمة التنوير ، إلا على التصوير ، مهبط وحي الله تعالى ومنتزل أسمائه ، ومُتَرَدَّد ملائكة سمائه ، ومدافن أوليائه ، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه ، رزقي الله تعالى الرضى بقضائه ، والصبر على جاحم البعد ورَمَضائه - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك ، ومسحبة رَجْلِكَ يا رسول الله وخَيْلِكَ ، وأُنأى مطارح دعوتك ومساحب ذيلك ، حيث مصافّ الجهاد في سبيل الله وسبيلك قد ظللها القتام ، وشُهْبَانُ الأسنّة أطلعها منه الإعتام ، وأسواقُ بيعِ النفوس من الله تعالى قد تعدد بها الأيامى والأيتام ، حيث الجراحُ قد تحلت بعسجد نجيعها النحور ، والشهداء تحفُّ بها الحور ، والأمم الغريبة قد قطعها عن المدد البحور ، حيث المباسم المُفْتَرَّة ، تجلوها المصارع البرّة ، فتحياها بالعراء ثغورُ الأزاهر ، وتندبها صَوَادِحُ الأدواحِ برنات تلك المزاهر ، وتحلّي السحابُ أشلاءها المعطّلة من ظلّها بالجواهر ، وحيث الإسلام من عدوّه المكاييد بمنزلة

قطرة من عارض غمام ، وحصاة من ثبير أو شمام ، وقد سدت الطريق ،
وأسلم الفراقُ الفريق ، وأغص الريق ، ويشس من الساحل الغريق ، إلا أن
الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحبل الله تعالى وحبلك ، المهتدية بأدلة سبلك ،
سالم والحمد لله تعالى من الانصداع ، محروس بفضل الله تعالى من الابتداع ،
مقدود من جديد الملة ، معدوم فيه وجود الطوائف المضلّة ، إلا ما يخص
الكفر من هذه العلة ، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلة .
« ولهذه الأيام يا رسول الله أقام الله تعالى أودّه برّاً بوجهك الوجيه ورعياً ،
وإنجازاً لوعدك وهو الذي لا يخلف وعداً ولا ينخب سعيّاً ، وفتح لنا فتوحاً
أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب ، وبشّرتنا منه تعالى بغفر التقصير ورفع
الثريب ، ونصرنا وله المنّة على عبدة الصليب ، وجعل لألفنا الرديتي
ولامنا السّردي حكم التغليب ، وإذا كانت الموالي التي طوقت الأعناق مننّها ،
وقررت العوائد الحسان سيرها وسننها ، تبادر إليها نوابها الصرحاء وخدامها
النصحاء بالبشائر ، والمسرات التي تشاع في العشائر ، وتجلو لديها نتائج أيديها ،
وغايات مباديها ، وتتاحفها وتهاديها ، بمجاني جناها وأزاهر غواديها ، وتطرف
محاضرها بطرف بواديها ، فبابك يا رسول الله أولى بذلك وأحقّ ، ولك
الحق الحق ، والحرُّ منّا عبدك المسترقّ ، حسبما سجّله الرق ، وفي رضاك
من كل من يلتمس رضاه المطمع ، ومثواك المتجمّع ، وملوك الإسلام
في الحقيقة عبيد سُدّتك المؤمّلة ، وخوّلُ مثابتك المحسنة بالحسنات المجملّة ،
وشهب تعشو إلى بدورك المكملّة ، وبعض سيوفك المقلّدة في سبيل الله تعالى
المحملة ، وحرّسة مهادك ، وسلاح جهادك ، وبروق عهادك .
« وإن مكفول احترامك الذي لا يخفر ، وربّيّ إتعامك الذي لا يكفر ،
وملتحف جاهك الذي يمحي ذنبه بشفاعتك إن شاء الله تعالى ويغفّر ، يطالع
روضة الجنة المفتحة أبوابها بمثواك ، ويفتح صوّان القدّس الذي أجنّك وحوّاك ،

وينثر بضائع الصلاة عليك بين يدي الضريح الذي طَواكَ ، ويعرض جنى ما
غرست وبذرت ، ومصداق ما بشرت به لما بشرت وأندرت ، وما انتهى إليه
طَلَقُ جهادك ، ومَصَبُ عِهادك ، لتقرَّ عينُ نصحك التي أنام العيونَ الساهرةَ
هجوَعُها ، وأشبع البطونَ وروآها ظمؤُها في الله تعالى وجوَعُها ، وإن كانت
الأمور بمرأى من عَيْنِ عنايتك ، وغيبها متعرف بين إفصاحك وكنائتك ، ومجمله
يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلغ وسيّتي إليك ، هو أن الله سبحانه لما عرفني
لطفه الخفي في التمهيص ، المقتضي عدم المحيص ، ثم في التخصيص ، المغني
بعيانه عن التنصيص ، وفق بركاتك السارية رحمتها في القلوب ، ووسائل
محبّتك العائدة بنيل المطلوب ، إلى استفادة عظة واعتبار ، واغتنام إقبال بعد إدبار ،
ومزيد استبصار ، واستعانة بالله تعالى وانتصار ، فسكن هبوبُ الكفر بعد إعصار ،
وحلَّ مخنقُ الإسلام بعد حصار ، وجرت على سنن السنّة بحسب الاستطاعة
والمنّة السيرة ، وجُبرت بجاهك القلوب الكسيرة ، وسُهّلت المآربُ العسيرة ،
ورفع بيد العزة الضيّم ، وكشف بنور البصيرة الغيّم ، وظهر القليل على الكثير ،
وباء الكفرُ بخطة التعثير ، واستوى الدينُ الحنيفُ على المهاد الوثير ، فاهتبلنا
يا رسول الله غيرة الغدوّ وانتهزناها ، وشِمْنَا صَوَارِمَ عزة الغدوّ وهزّزناها ،
وأزحنا علل الجيوش وجهزناها .

« فكان ممّا ساعد عليه القدر ، والخطبُ المبتدر ، والورد الذي حسنَ بعده
الصدّر ، أننا عاجلنا مدينة بُرغُه^١ ، وقد جرّعت الأختين مالقة ورندة ،
من مدائن دينك ، ومزابين ميادينك ، أكواسَ الفِراق ، وأذكرت مثل من
بالعراق ، وسدت طرق التزاور عن الطُّراق ، وأسالت المسيلَ بالنجيع
المُراق ، في مراصد المراد والمُراق ، ومنعت المراسلة مع هدير الحمام ، لا بل
مع طيّف المنام عند الإلام ، فيسر الله تعالى اقتحامها ، وألحمت بيض الشفار

١ برغه (Burgo) بين مالقة ورندة .

في زُرُق الكفار إلحامها ، وأزال بَشْرُ السيوف من بين تلك الحروف إقحامها ،
فانطلق المَسْرَى ، واستبشرت القواعدُ الحَسْرَى ، وعدمت بطريقها المخيف
مصارع الصَّرْعَى ومثاقف الأَسْرَى ، والحمد لله على فتحه الأَسْنَى ومنَحِهِ
الأَسْرَى ، ولا إله إلا هو منقَلٌ قيصر وكسرى ، وفاتح مغلقاتها المنيعَة قَسْرًا ،
واستولى الإسلام منها على قرار جنات ، وأم بنات ، وقاعدة حصون ، وشجرة
غصون ، طهرت مساجدها المغتصبة المكرهة ، وفجع بحفظها الفيل الأفيْل وأبرهة ،
وانطلقت بذكر الله الألسنة المدرّهة ، وفاز بسبق ميدانها جياذك الفرهة ، هذا
وطاغية الروم على توفّر جموعه ، وهَوَلُ مرثيه ومسموعه ، قريبٌ جوارُه ،
بحيث يتصل خُوَارُه ، وقد حرك إليها الحنين حوَارُه .

« ثمَّ نازل المسلمون بعدها شجا الإسلام الذي أعيّا النطاسيَّ علاجُه ،
وكركَ^١ هذا القطر الذي لا تُطاول أعلامه ولا تصاول أعلاجه ، وركاب الغارات
التي تطوي المراحل إلى مُكايدة المسلمين طي البرود ، وحجر الحيات التي لا
تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود ، ومُنَغَّصُ الورود في العذب المورود ،
ومُقِصُّ المضاجع ، وحلم الهاجع ، ومجهز الخطب الفاجيء الفاجع ، ومستدرك
فاتكة الراجع ، قبل هبوب الطائر الساجع ، حصن آشر^٢ حماه الله تعالى دعاء
لا خيراً ، كما جعله للمتفكرين في قدرته معتبراً ، فأحاطوا به إحاطة القِلادة
بالجيد ، وأذلوا عزته بعزّة ذي العرش المجيد ، وحفت به الرايات يَسِمُها
وَسْمُكُ ، ويلوح في صفحاتها اسمُ الله تعالى واسْمُكُ ، فلا ترى إلا نفوساً
تتراحم على مَوْرَدِ الشهادة أسرابها ، وليوثاً يَصْدُقُ في الله تعالى ضِرابُها ،
وأرسل الله عليها رِجْزاً إسرائيليّاً من جرّاد السهام ، تشد آياته عن الأفهام ،

١ شبهه بحصن الكرك ، وكان ذا شأن ومنعة في الحروب الصليبية .

٢ حصن آشر (Iznajar) في الجنوب الشرقي لحصن روضة (Rute) على ضفة رافد من روافد
شليل ؛ وقد صحف في ق فكتب « أشب » .

وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام ، من بعد الاستغلاق والاستبهاام ، وقد عبثت جوارح صخوره في قنائص الهام ، وأعيا صَعْبُهُ على الجيش اللُّهَام ، فأخذ مسائغَهُ النقصُ والنقبُ ، ورَغَا فوق أهله السَّقْبُ^١ ، ونُصِبَت المعارج والمرَاقِي ، وقُرِعَت المناكب والترَاقِي ، واغتم الصادقون مع الله تعالى الحظ الباقي ، وقال الشهيد السابق : يا فوز استباقي ، ودخل البلد فألحم السيف ، واستُلبَ البَحْتُ والزيف ، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامك في أبراجها المشيدة ، وظفر ناشدُ دينك منها بالنشيدة^٢ ، وشكر الله تعالى في قصدها مساعي النصائح الرشيدة ، وعمل ما يرضيك يا رسول الله في سدّ ثلَمِها ، وصَوْنِ مستلمها ، ومُداواة أَلَمِها ، حرصاً على الاقتداء في مثلها بأعمالك ، والاهتداء بمِشْكَاة كمالك ، ورتب فيها الحماة تشجي العدو ، وتصل في مرضاة الله تعالى ومرضاتك برواحها الغُدُو .

« ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة^٣ بنت حاضرة الكفر إشبيلية التي أظلمت بالجنّاح الساتر ، وأنامتها في ضَمَان الأمان للحُسام الباتر ، وقد وتر الإسلام من هذه المومسة البائسة بوتر الواتر ، وأُحْفِظَ منها بأذى الوقاح المهاتر ، لما جرّته على أسراه من عمل الخاتل الخاتر ، حَسَبَ المنقول لا بل المتواتر ، فطوى إليها المسلمون المدى النازح ، ولم تشكُ المطيُّ الروازح ، وصدق الجِدُّ جَدَها المازح ، وخفقت فوق أوكارها أجنحةُ الأعلام ، وغشيتها أفواجُ الملائكة الموسومة وظلالُ الغمام ، وصابت من السهام ودَقَ الرُّهَام ، وكاد يكفي السهام على الأرض ارتجاج أجوائها بكلمة الإسلام ، وقد صَمَّ خاطبُ عروس الشهادة

١ السقب : ولد الناقة وفي العبارة إشارة إلى ما حل بقوم صالح عندما عقروا الناقة ، فيقال في المثل

لتصوير الهلاك « رغا فوقهم السقب » .

٢ النشيدة : الضالة التي تنشد أي تطلب .

٣ إطريرة (Utrera) إلى الجنوب الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٩ كيلومتراً ، وقد ضببت بكسر الهمزة وسكون الطاء .

عن الملام ، وسمع بالعزير المصون مبايع الملك العلام ، وتكلم لسان الحديد الصامت وصمت إلا بذكر الله لسان الكلام ، ووفت الأوتار بالأوتار ، ووصل بالخطي ذرع الأبيض البتار ، وسلطت النار على أربابها ، وأذن الله تعالى في تبار تلك الأمة وتبأها ، فنزلوا على حكم السيف آلافاً ، بعد أن أتلفوا بالسلاح إتلافاً ، واستوعب المقاتلة كثافاً ، وقرنوا في الجُدُلِ أكتافاً أكتافاً ، وحملت العقائل والخرائد ، والولدان والولائد ، إركاباً من فوق الظهور وإردافاً ، وأقلت منها أفلاك الحمول بدوراً تضيء من ليالي المحاق أسدافاً ، وامتلات الأيدي من المواهب والغنائم ، بما لا يصوره حلم النائم ، وتركت العوافي تتداعى إلى تلك الولائم ، وتفتن من مطاعمها في الملائم ، وشنت الغارات على حمص فجملت خارجها مغاراً ، وكست كبار الروم بها صغاراً ، وأجحرت أبطالها إجحاراً ، واستاقت من النعم ما لا يقبل الحصر استبحاراً .

«ولم يكن إلا أن عدل القسم ، واستقل بالقفول العزيز الرمم ، ووضع من التوفيق الوسم ، فكانت الحركة إلى قاعدة جيان قبة الظل الأبرد ، ونسيجة المنوال المفرد ، وكناس الغيد الخرد ، وكرمي الإمارة ، وبحر العمارة ، ومهوى هوى الغيث الهتون ، وحزب التين والزيتون ، حيث خندق الجنة تدنو لأهل النار مجانيه ، وتشرق بشواطئ الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانيه ، والقلعة التي تَخْتَمَتُ بنان شرفاتها بخواتيم النجوم ، وهمت من دون سحابها البيض سحائب الغيث السجوم ، والعقيلة التي أبدى الإسلام يوم طلاقها ، وهجوم فراقها ، سمة الوجوم لذلك الهجوم ، فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوادعة ، وأجابت منادي دعوتك الصادقة الصادقة ، وحبَّتْها بالفادحة الفادحة ، فغصت الربى والوهاد بالتكبير والتهليل ، وتجاوبت الخيل بالصهيل ، وانهاالت الجموع المجاهدة في الله تعالى انهيال الكتيب المهيل ، وفهمت نفوس العباد المجاهدة في الله تعالى حقَّ الجهاد معاني التيسير من ربّها والتسهيل ، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل ، وأربت المحلات المسلمة على التأمل ، ولما صبحتها

النواصي المقبلة الغرر، والأعلام المكتبة الطرر، برز حاميتها مصحرين^١،
وللحوزة المستباحة منتصرين، فكائهم من سرعان الأبطال رجل^٢ الدبا،
ونبت الوهاد والرّبي، فأقحموهم من وراء السور، وأسرت أقلام الرماح
في بسط عددهم المكسور، وتركت صرعاهم ولائم للنسور، ثم اقتحموا ربض
المدينة الأعظم ففرعوه، وجدّوا من دافع عن أسواره وصرعوه، وأكواس
الحتوف جرّعه، ولم يتصل أولى الناس بأخراهم، ويحمد بمخيم النصر العزيز
سراهم، حتى خذل^٣ الكافر الصبر وأسلم الجلد، ونزل على المسلمين النصر
فدخل البلد، وطاح في السيل الجارف الوالد منه والولد، وأتهم المطرف والمتلد،
فكان هولاً بعيد الشناعة، وبعثاً كقيام الساعة، أعجل المجانيق عن الركوع
والسجود، والسلام عن مطاولة النجود، والأيدي عن ردم الخنادق والأغوار،
والأكبش عن مناطق الأسوار، والنفوط عن إصعاق الفجار، وعمد الحديد،
ومعاول البأس الشديد، عن نقب الأبراج ونقض الأحجار، فهيلت الكشبان،
وأبيد الشيب والشبان، وكسرت الصلبان، وفجع بهدم الكنائس الرهبان،
وأهبطت النواقيس من مراقبيها العالية وصروحها المتعالية، وخلعت ألسنتها
الكاذبة، ونقل ما استطاعته الأيدي المجاذبة، وعجزت عن الأسلاب ذوات
الظهور، وجلل الإسلام شعار العز والظهور، بما خلت عن مثله سواف الدهور
والأعوام والشهور، وأعرست الشهداء ومن النفوس المبيعة من الله تعالى نحل
الصدقات والمهور، ومن بعد ذلك هدم السور، ومحيت عن محيطه المحكم
السطور، وكاد يسير ذلك الجبل الذي اقتعدته المدينة ويدك ذلك الطور، ومن
بعد ما خرب الوجار، عقرت الأشجار، وعفّر المنار، وسلطت على بنات

١ مصحرين : بارزين .

٢ الرجل : الجماعة ، والدبا : الجراد .

٣ في ق : جذل ، وصوبناه . ٤ ق : الأشلاء .

التراب والماء النار ، وارتحل عنها المسلمون وقد عمتها المصائب ، وأصمى لبّتها
السهمُ الصائب ، وجللتها القشاعيمُ العصائب ، فالذئاب في الليل البهيم تعسل ،
والضباع من الحَدَبِ البعيد تنسل ، وقد ضاقت الجُدُلُ عن المخانق ، وبيع
العِرْضُ الثمين بالدائق ، وسُبُكت أسورة الأسوار ، وسويت الهضاب بالأغوار ،
واكتسحت الأحوازُ القاصية سرايا الغوار ، وحجبت بالدخانِ مطالعُ الأنوار ،
وتخلفت قاعتها عبرة للمعتبرين وعظة للناظرين ، وآية للمستبصرين ، ونادى لسان
الحمية ، يا لثارات الإسكندرية ، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين ، وأحقَّ الله
الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين .

«ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى ، ولِدَتِها الحزينة عليها العبرى ، مدينة
أبدة^١ ذات العمرانِ المستبحر ، والربضِ الحرق المصحّر ، والمباني الشَّمَّ الأنوف ،
وعقائل المصانع الجمة الحلي والشنوف ، والغاب الأنوف ، بلدة التجر ، والعسكر
المَجْر ، وأفق الضلال الفاجر الكذب على الله تعالى الكاذبِ الفَجْر ، فعذل
الله تعالى حاميتَها التي يعي الحسبانَ عدُّها ، وسَجْر بحورها التي لا يرام مدُّها ،
وحقَّت عليها كلمة الله تعالى التي لا يستطاع رَدُّها ، فدُخِلت لأوّل وهلة ،
واستوعب جَمُّها والمنة لله تعالى في نهلة ، ولم يكف السيف من عليها ولا مهلة ،
فلما تناولها العفا والتخريب ، واستباحها الفتح القريب ، وأسندَ عن عوآليها
حديثُ النصر الحسن الغريب ، وأقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب ،
وأضُرِعتْ مسايِفها^٢ لهول المصاب ، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذي عظم
صيته ، والعز الذي سما طَرَفه واشْرأب لِيْتِه ، والعزم الذي حُمد مَسْرَاه
ومبيته ، والحمد لله ناظم الأمر وقد راب شتيته ، وجابر الكسر وقد أفات
الجبر مفيته .

١ أبدة (Ubeda) - بتشديد الباء - إلى الشمال الشرقي من جيان .

٢ المسايِف : جمع مسيف ، ويعني بها لسان الدين في الأرجح ، المدمالك (أي السطر من البناء) .

« ثم كان الغزو إلى أم البلاد ، ومشوى الطارف والتلاد ، قرطبة ، وما قرطبة ؟
المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل ، والكرسي
الذي بعصاه رُعي الحمل ، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والحمل ،
والأفق الذي هو لشمس الخلافة العَبْشَمِيَّة^١ الحمل ، فخيم الإسلام بعقوتها^٢
المستباحة ، وأجاز نهرها المعبي على السباحة ، وعم دَوَحها الأشيب بواراً ،
وأدار المحلات بسورها سيواراً ، وأخذ بمُخَنَّقها حصاراً ، وأعمل النصر بشجر
بصلها^٣ اجتناءً ما شاء واهتصاراً ، وجدل من أبطالها من لم يرض انجحاراً ، فأعمل
إلى المسلمين إصحاراً ، حتى فرغ بعض جهاتها غلاباً جهاراً ، ورفعت الأعلام إعلماً
بغز الإسلام وإظهاراً ، فلولا استهلال الغوادي ، وأن أتى الوادي ، لأفضت
إلى فتح الفتوح تلك المبادي ، ولقضى تَفَثُهُ^٤ العاكف والبادي ، فاقتضى
الرأي - ولذنب الزمان في اغتصاب الكفر إياها متاب ، تعمل ببُشْراه بفضل
الله تعالى أقتاد وأقتاب^٥ ، ولكل أجل كتاب - أن يُرَاض صَعْبُها حتى يعود
ذلولاً ، وتُعْفَى معاهدها الآهلة فتترك طُلُولاً^٦ ، فإذا فجع الله تعالى بمارج النار
طوائفها المارجة ، وأباد بخارجها الطائفة والدارجة ، خَطَبَ السيف منها أم^٧
خارجة^٨ ، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ومفارق الهضاب بالهشيم قد شابت ،
والغلات المستغلات قد دعا بها القَصْلُ^٩ فما ارتابت ، وكأن صحيفة نهرها لما

١ العبشمية : نسبة إلى عبد شمس .

٢ العقوة : الساحة . وفي ق : بعقرتها .

٣ ق : فأعمل النصر . . . نصها ؛ والمراد أن النصر حطم رماحها .

٤ التفث في الحج : الحلق والتقشير وقص الأظفار ونحر البدن وغير ذلك مما يفعله الحاج إذا حل من إحرامه ، والمراد أنه استوفى حجه ، فكفى به لسان الدين عن بلوغ غاية الأرب .

٥ أم خارجة : كانت سريعة الخطبة ولذلك قيل في المثل « أسرع من نكاح أم خارجة » وقد شبه قرطبة بها لتداول الغلبة عليها دهرأ بعد دهر ، وألمح ابن شهيد إلى هذا حين تغزل بقربانية فقال :

زنت بالرجال على سنّها فيا حبذا هي من زانيه

أضرمّت النار في^١ ظهرها ذابت ، وحيته فرّت أمام الحريق فانسابت ، وتخلّفت لغمام الدخان عمائم تلويها برؤوس الجبال أيدي الرياح ، وتنشرها بعد الركود أيدي الاجتياح ، وأغرّيت بأقطارها الشاسعة ، وجهاتها الواسعة ، جنود الجوع ، وتوعدت بالرجوع ، فسلب أهلها لتوقع الهجوم متزور الهجوع ، فأعلامها خاشعة خاضعة ، وولّدانها لثديّ البؤس راضعة ، والله سبحانه يُوفِدُ بخبر فتحها القريب ركابَ البُشرى ، وينشر رحمته قبلنا نشرًا .

«ثم تنوّعتُ يا رسول الله لهذا العهد أحوالُ العدو تنوّعاً يُوهم إفاقة من الغمرة ، وكادت فتنه تؤذن بخمود الحمرة ، وتُوقّع الواقع ، وحذّر ذلك السمُّ الناقع ، وخيف الحرق الذي يحار فيه الراقع ، فتعرّفتنا عوائد الله سبحانه ببركة هدايتك ، وموصول عنايتك ، فأُنزل النصر والسكينة ، ومكّن العقائد المكيّنة ، فثابت الغزائم وهبّت ، واطّردت عوائد الإقدام واستتبت ، وما راع العدو إلا خيل الله تعالى تجوس خلاله ، وشمس الحق توجب ظلاله ، وهُدَاك الذي هَدَيْت يُدْخِض ضلاله ، ونازلنا حصني قنيل والحائر^٢ ، وهما معقلان متجاوران يتناجى منهما الساكن سراراً ، وقد اتخذنا بين النجوم قرّاراً ، وفصل بينهما حسام النهر يروق غراراً ، والتفّ معصمُهُ في حُلّة العَصْب وقد جعل الجسر سواراً ، فخذل الصليبُ بذلك الثغر منْ تولاه ، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه ، وتبرجت عروسُ الفتح المبين بمجّلاه ، والحمد لله تعالى على ما أولاه .

ثم تحركنا على تفتة^٣ تعدّي ثغر الوسطة على عدوّه المساور في المضاجع ، ومصبحه بالفاجيء الفاجع ، فنازلنا حصن روضة الآخذ بالكظم ، المعترض بالشّجا اعراض العظم ، وقد شحنه العدو مدداً بثيساً ، ولم يألُ اختياره رأياً ولا تلبيساً ، فأعيا داؤه ، واستقلت بالمدافة أعداؤه ، ولما أتلع إليه جيد المنجنيق ،

١ ق : حافي ، ولعلها : حامي .

٢ ق : والحوائر .

٣ على تفتة : على أثر .

وقد برك عليه بروك الفنيق ، وشد عصام العزم الوثيق ، بلأ أهله إلى التماس
العهود والمواثيق ، وقد غصوا بالريق ، وكاد يذهب بأبصارهم لمعانُ البريق ،
فسكناه من حامية المجاهدين بمن يحمي ذماره ، ويقرر اعتماره ، واستولى أهل
الثغور إلى هذا الحد على معاقل كانت مستغلقة ففتحوها ، وشرعوا أرشيّة الرماح
إلى قلوب قلوبها فمتحوها .

« ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفضُ عن الأعراف متراكم الغبار ، وترخي عن
آباط خيلها شدَّ حُزْمِ المغار ، حتى عاودت النفوسُ شوقَهَا ، واستتبع ذوقَهَا ،
وخطبت التي لا فوقَهَا ، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية ، والمدارك
المتصاعدة على الأفكار المتعاصية ، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذي
منه طرقَ وادعُهُ ، ومطلع الحق الذي صدَّع الباطلَ صادعُهُ ، وثنية الفتح التي
برقَ منها لامعه ، ومشرف الهجوم الذي لم تكن لتعثر على غيره مطامعه ، وفرضة
المجاز التي لا تنكر ، ومجمع البحرين في بعض ما يذكر ، حيث يتقارب الشيطان ،
ويتوازي الخطان ، وكاد أن تلتقي حلقَتَا البِطَان ، وقد كان الكفرُ قدَرُ قدَرٍ
هذه الفرضة التي طرق منها حِمَاه ، ورماه الفتح الأول بما رَمَاه ، وعلم أن لا
تتصل أيدي المسلمين بإخوانهم إلا من تلقائِها ، وأنه لا يعدم المكروه مع بقائِها ،
فأجلب عليها برَجْلَه وخَيْلَه ، وسد أفق البحر بأساطيله ، ومراكب أباطيله ،
بِقِطْع لَيْلَه ، وتداعى المسلمون بالعدوتين إلى استنقاذها من لهَوَاتِه ، أو إمساكها
من دون مَهَوَاتِه ، فعجز الحول ، ووقع بملكه إياها القول ، واحتازها قَهْرُهَا ،
وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهراً ، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم ،
واسودَّت الوجوه لخبرها الهاجم ، وبكتها حتى دموع الغيث الساجم ، وانقطع
المدد إلا من رحمة من يُنْفَس الكروب ، ويغري بالإدالة الشروق والغروب ،
ولما سُكْنَا بشبَا الله تعالى نَحَرَهَا ، وأغصصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض
تُكَاثِر نجم السماء برها وبحرها ، ونازلناها نذيقها شديد النزال ، ونحجَّها
بصدق الوعيد في سبيل الاعتزال ، رأينا بأوآ لا يظاهَر إلا بالله تعالى ولا يُطال ،

وممنعةً يتحاماها الأبطال ، وجناباً روضه الغيث الهطال ، أما أسواقها فهي التي
أخذت النجد والغور ، واستعدت بجدال الجلال عن البلاد فارتكبت الدور^١ ،
تحوز بحراً من العمارة ثانياً ، وتشكك أن يكون الإنس لها بانياً ، وأما أبراجها
فصفوف وصفوف ، تزين صفحات المساييف منها أنوف ، وآذان لها من دوايح
الصخر شُوف ، وأما خندقها فصخر مجلوب ، وسورٌ مقلوب ، فصَدَقَها
المسلمون القتال بحسب محلّها من نفوسهم ، واقتران اغتصابها بيوسهم ، وأُفول
شموسهم ، فرشقوها من النبال بظلاله تحجب الشمس فلا يشرق سناها ،
وعرجوا في المراقي البعيدة يفرعون مبناها ، ونفوسها أنقاباً ، وحصونها عقاباً ،
ودخلوا مدينة البنة^٢ بنيتها غلاباً ، وأحسبوا السيوف استللاً والأيدي اكتساباً^٣ ،
واستوعب القتل مقاتلتها السابعة الحنن ، البالغة المن ، فأخذهم الهول المتفاقم ،
وجدلوا كأنهم الأراقم ، لم تفلت منهم عين تطرف ، ولا لسان يلي من يستطلع
الخبر أو يستشرف .

« ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سواراً على سورها ،
وتجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها ، وأدنوا إليها بالضروب
من حيل الحروب ، بروجاً مشيدة ، ومجانيق توثق حبالها منها نشيدة ، وخفقت
بنصر الله تعالى عذبات الأعلام ، وأهدت الملائكة مدد السلام ، فخذل الله تعالى
كفارها ، وأكهم^٤ شفارها ، وقلّم بيد قدرته أظفارها ، فالتمسوا الأمان
للخروج ، ونزلوا على مراقي العروج ، إلى الأباطح والمروج ، من سمائها ذات
البروج ، فكان بروزهم إلى العراء من الأرض ، تذكرة بيوم العرّض ، وقد

١ أي أنها وقعت في قضية دور (وهو من مصطلح المنطق) بسبب ما استعدت به من جدال المجالدة ؛
ولا ريب أن التلاعب بمصطلح أهل المناظرة هنا واضح .

٢ في ق : البنية ؛ والمقصود أن هذه المدينة « البنة » هي بنت الجزيرة الخضراء أي هي من توابعها .

٣ يقابل هنا بين الاحتساب - وهو ما كان لوجه الله تعالى - وبين الاكتساب .

٤ أكهم : أكل عن الضرب .

جلل المقاتلة الصغار ، وتعلق بالأمان النساء والصغار ، وبودرت المدينة بالتطهير ، ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير ، والذكر الجهير ، وطرحت كفارها الثماثيل عن المسجد الكبير ، وأزرى باللسنة النواقيس لسان التهليل والتكبير ، وأنزلت عن الصروح أجرامها ، يعيي الهندام^١ مرامها ، وألقي منبر الإسلام بها مجفواً فأنست غربته ، وأعيد إليه قربه وقربته ، وتلا واعظ الجمع المشهود ، قول منجز الوعود ومورق العود ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ، وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿هود : ١٠٢﴾ فكان الدمع يُغرق الآماق ، والوجدُ يستأصل الأرواق ، وارتفعت الرغبات ، وعلت السيات ، وجيء بأسرى المسلمين يرسفون في القيود الثقال ، وينسلون من أحداق الاعتقال ، ففُكت عن سوقهم أساود الحديد ، وعن أعناقهم فلَكَاتُ البأس الشديد ، وظلّلوا بجناح اللطف العريض المديد ، وترتبت في المقاعد الحامية ، وأزهرت بذكر الله تعالى المآذن السامية ، وعادت المدينة لأحسن أحوالها ، وسكنت من بعد أهوالها ، وعادت الجالية إلى أموالها ، ورجع إلى القطر شبابه ، ورُدَّ على دار الإسلام بابه ، واتصلت بأهل لا إله إلا الله أسبابه ، فهي اليوم في بلاد الإسلام قلادة النحر ، وحاضرة البر والبحر ، أبقي الله تعالى عليها وعلى ما وراءها من بيوت أمتك ، ودائع الله تعالى في ذمتك ، بكلمة دينك الصالحة الباقية ، وسدّل عليه أستار عصمته الواقية ؛ وعدّنا والصلاة عليك شعار البروز والقفول ، وهجيراً الشروق والأفول ، والجهاد يا رسول الله الشأن المعتمد ، ما امتدَّ بالأجل الأمد ، والمستعان الفرد الصمد .

« ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغت وسيلتي إليك ، بلغ من هذا

١ الهندام : الآلات .

الْقُطْرُ المرتدي بجاهك الذي لا يذل من ادَّرَعَهُ ، ولا يضل من اهتدى بالسبيل
الذي شرعه ، إلى أن لاطَفْنَا ملكُ الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد
اغتنبها ، ورفع التماثيل ببيوت الله تعالى ونصبها ، فانجأب عنها بتورك الحلك ،
ودار بإدالتها إلى دعوتك الفلك ، وعاد إلى مكاتبها القرآن الذي نزل به على قلبك
الملك ، فوجبت مطالعةُ مقرِّك النبويِّ بأحوالِ هذه الأمةِ المكفولة في حجرك ،
المفضلة بإدارة تجرك ، المهتدية بأنوار فجرك ، وهل هو إلا ثمراتُ سعيتك ،
ونائج رَعيتك ، وبركة حبك ، ورضاك الكفيل برضى ربك ، وغمام رعدك ،
وإنجاز وَعْدك ، وشعاع من نور سعدك ، وبَدْرٌ يجنى رَيْعُه من بعدك ، ونصر
رايتك ، وبرهان آيتك ، وأثر حمايتك ورعايتك .

« واستنبتُ هذه الرسالة مائحةً بحرِ الندى الممنوح ، ومُفاتيحةً بابِ الهدى
بفتح الفتوح ، وفارعة المظاهر والصروح ، وملقية الرحل بمتزل الملائكة والروح ،
لتمدَّ إلى قبولك يدَ استمناح ، وتطيرَ إليك من الشوق الحثيث بجناح ، ثم تقف
موقف الانكسار ، وإن كان تجرُّها آمناً من الحسار ، وتُقَدِّم بأنس القربة ،
وتحجم بوَحْشة الغربة ، وتتأخَّر بالهية ، وتُجْهش لطول الغيبة ، وتقول : ارحم
بُعْدَ داري ، وضعف اقتداري ، وانتزاح أوطاني ، وخلو أعطاني ، وقلة زادي ،
وفراغ مزادي ، وتقبلُ وسيلةَ اعترافي ، وتغمدُ هفوةَ اقترافي ، وعجلُ
بالرضى انصراف متحملي لانصرافي ، فكم جُبْتُ من بحر زاخر ، وقفر
بالركاب ساخر ، وحاش لله تعالى أن يخيب قاصدك ، أو تتخطاني مقاصدك ،
أو تطردني موائدك ، أو تضيقَ عني عوائدك ، ثم تمدَّ مقتضيةً مزيد رحمتك ،
مستدعيةً دعاء مَنْ حضر من أمتك ، وأصحابتها يا رسولَ الله عرضاً من النواقيس
التي كانت بهذه البلاد المفتحة تعيق الإقامة والأذان ، وتسمع الأسماع الضالة
والآذان ، مما قبِلَ الحركة ، وسالم المعركة ، ومكَّن من نقله الأيدي المشتركة ،
واستحق بالقدوم عليك والإسلام بين يديك السابقة في الأزل البركة ، وما
سواها فكانت جبلاً عَجَزَ عن نقلها الهدام ، فنسخ وجودها الإعدام ، وهي يا

رسول الله جنى من جناتك ، ورطب من أفنانك ، وأثر ظهر علينا من مسحة حنانك .

« هذه هي الحال والانتحال ، والعائق أن تشد إليك الرحال ، ويعمل الترحال ، إلى أن نلتقاك في عَرَصات القيامة شفيعاً ، ونحل بجاهك إن شاء الله تعالى محلاً رفيعاً ، ونقدم في زُمرّة الشهداء الدامية كلومهم من أجلك ، الناهلة غلّهم في سَجْلِكَ ، ونبتهل إلى الله تعالى الذي أطلعك في سماء الهداية سراجاً ، وأعلى لك في السبع الطباق معراجاً ، وأم الأنبياء منك بالنبي الخاتم ، وقفى على آثار نجومها المشرقة بقمرك العاتم ، أن لا يقطع عن هذه الأمة الغريبة أسبابك ، ولا يسد في وجوهها أبوابك ، ويوقفها لاتباع هداك ، ويثبت أقدامها على جهاد عِداك ، وكيف تعدم ترفيها ، أو تخشى بخساً وأنت موفّيها ، أو يعذبها الله تعالى وأنت فيها ؟ وصلاة الله وسلامه تحط بفنائك رحال طيبها ، وتهدر في ناديك شقاشق خطيبها ، ما أذكر الصباحُ الطلّقُ هداك ، والغمامُ السكْبُ نداك ، وما حنّ مشتاق إلى لثَمِ ضريحك ، وبليتْ نسمات الأسحار عما استرقت من ريحك ، وكتب في كذا » . انتهت الرسالة ، وفيها ما لا خفاء به من براعة لسان الدين ، رحمه الله تعالى وقدّس روحه الطاهرة ، آمين .

٨٧ - ومما علق بحفظي من نثره رحمه الله تعالى أثناء رسالة في الغزاء خاطب بها ملك المغرب قوله بعد كلام : أين مروان بن الحَكَم ودَهاؤه ، وعبد الملك بن مروان وبهاؤه ، والوليد وبنائؤه ، وسليمان وغذاؤه ، وعمر بن عبد العزيز وثنائؤه ، ويزيد ونساؤه ، وهشام وخيلائؤه ، والوليد وندمائؤه ، والجعدي وآراؤه ، أم أين السفاح وحُسامه ، والمنصور واعتزامه ، والمهدي وإعظامه ، والهادي وإقدامه ، والرشيد وأيامه ، والأمين ونيدامه ، والمأمون وكلامه ، والمعتصم وإسراجُه وإلجامه ؟ انتهى .

وقد تقدّم كلام أبي الخطاب ابن دحية في هذا المعنى بطوله في الباب الثاني من هذا القسم ، فليراجع ثمة ١ .

[للمقري محاكياً لسان الدين]

قلت : وقد تقدّم في الخطبة نظمي لمثل هذا ، وقد كنت نسجت على منوال لسان الدين وأنا بالمغرب نثراً مما لم يحضرني منه الآن غير قولي : أين الإسكندر ويونانه ، وشداد وبنياه ، والنمروذ وعدوانه ، وفرعون وهامانه ، وقارون وطغيانه ، وكسرى أنوشروان وإيوانه ، وقيصر وبطارقته وأعوانه ، وسيف ابن ذي يزن وغمدانه ، والمنذر ونُعمانه ؟ إلى أن قلت : وأين أبو بكر رضي الله تعالى عنه وثباته ، وعمر رضي الله تعالى عنه ووثباته ، وعثمان رضي الله تعالى عنه ورهباته ، أم أين علي رضي الله تعالى عنه وشجاعته وعلمه ، وأين معاوية رضي الله تعالى عنه وحمله ، وأين يزيد وظلمه ؟

ثم ذكرت ما تقدم للسان الدين ، وقلت بعده : وأين الواثق وغناؤه ، والمتوكل ومواليه وأولياؤه وأبناؤه ، والمتنصر وآماله ، والمعتز وجماله ، والمستعين وعمّاله ، والمهتدي وأعماله ، والمعتضد وذكاه وإحاطته بالأخبار واشتماله ، والمقتدر ونساؤه وإهماله ؟ إلى أن قلت : وأين بنو عبّيد وضلالهم ، وبنو بويه وجلالهم ، وبنو سلجوق ونظامهم ، وبنو سامان وإعظامهم ، وبنو أيوب وصلاحهم ، والجراكسة ومبائهم وسلاحهم ؟

ثم قلت في ملوك المغرب : وأين عبد الرحمن الداخل وأمرائه ، والناصر وزهراؤه ، والحكم ووزرائه ، والمؤيد وظهرائه ، أم أين المنصور بن أبي عامر وغزواته ومواليه ، والمظفر وأدواته ومعالیه ، أم أين بنو حمّود

وعُلاهم ، وأوصافهم وحِلاهم ، وبنو جَهْوَرٍ وحَزْمهم ، وبنو باديس وعَزْمهم ، وأين مُعْتَضِدُ بني عَبَّاد ، ومُعْتَمِدُهم الذي سَنَّا كَرَمِهِ للمُعْتَفِينَ باد ، وبنو ذي النون وَمَزِيَّتُهُمْ ، وبنو صُمَادِحٍ ومَرِيَّتُهُمْ ، وبنو الأَفْطُسِ وبنو هود ، وما كان لهم من المكارم في الحفل المشهود ، وأين لَمْتُونُهُ ، وصبرهم الذي ركبوا مُتُونُهُ ، أم أين الموحِّدون وناصرهم ومنصورهم ، ومصانعهم وقصورهم ، أم أين بنو الأحمر وغرناطتهم ، وإزالتهن عن حوزة الدين أدناسَ المعتدين وإماتتُهُمْ ، وجَعَلُهُمُ الأمورَ لمثل ابن الحكيم ولسان الدين وإِنَاطَتُهُمْ ، أم أين بنو مَرَيْنٍ وفارسهم ، ومغانيهم ومدارسهم ، وأين بنو زِيَّانٍ ومنازلهم الشاهقة ، وأشجار عزهم الباسقة ، وأين الحَفْصِيَّونَ ، ومستنصرهم الذي قضى للمعالي الديون ، وأبو فارس ، الذي شُنِّفَتْ بأخباره آذانُ الطروس والفهارس ؟ طحنت والله تعالى الجميعَ رَحَى المُنون ، وتَأَيَّمَتِ الأزواجُ ويتم البنون ، وطالت الأيام والسنون ، وبقيت القصور العالية خالية ، والرسوم المتكاثرة دائرة ، والسلوك المنظومة متناثرة ، وعن قريب يقف الكلُّ بين يدي ربِّ الأرباب ، في يوم تَذْهَلُ فيه الأبواب ، وتنقطع إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلّم الأسباب ، ويقتص للمظلوم من الظالم ، وتنبهم للنجاة الطرقُ والمعالم ، وتُبْلَى السرائر لدى مَنْ هو بها عالم ، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران : ٣٠) يوم يحكم الله تعالى في الخلق ، بالحق ، حسبما سبق في علمه إذ جعلهم قريباً وبعيداً ، وشقيئاً وسعيداً ، اللهم اجعلنا في ذلك اليوم الصعب ممّن فاز بالنجاة ، وحاز شفاعة نبيك ومُصْطَفَاكَ ذي الحرمة والجاه ، صلى الله عليه وسلّم وشرف وكرّم ؛ انتهى .

رجع لنثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

٨٨ - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به سلطان المغرب

أبا زِيَّان لما تمَّ له الأمر ، وهو مشتمل على نظم ونثر ، ونصّه :

يا ابن الخلائف يا سميَّ محمدٍ يا مَنْ علاه ليس يحصُر حاصِرُ
أبشُرُ فأنت مجدُّدُ الملكِ الذي لولاك أصبحَ وهو رَسْمُ دائِرُ
من ذا يعاندُ منك وارثه الذي بسعودِه فلكُ المشيئة دائِرُ
ألقْتُ إليك يدُ الخلافةِ أمرها إذ كنتَ أنت لها الوليُّ الناصرُ
هذا وبينك للصريخِ وبينها حربُ مضرَّسةٌ وبحرُ زاهرُ
من كانَ هذا الصنعُ أوَّلَ أمره حَسُنْتَ له العقبى وعزَّ الآخرُ
مولايَ عندي في علاكَ محبةٌ واللهُ يعلمُ ما تُكِنُّ ضمائرُ
قلبي يحدثني بأنَّكَ جابرُ كسري ، وحظي منك حظُّ وافرُ
بَرَى جدودك قد حَطَّطْتُ حقيتي فوسيلتي لعلاكَ نورُ باهرُ
وبذلتُ وسعي واجتهادي مثلما يلقي للملكِ سيفَ أمرِكَ عامرُ
فهو الولي لذي الذي اقتحم الردى وقضى العزيمة وهو سيفُ باترُ
وولي جدك في الشدائدِ عندما خذلت علاه قَبَائِلُ وعشائرُ
فاستَهدِ منه النُصحَ واعلم أنه في كلِّ معضلةٍ طيبٌ ماهرُ
إن كنت قد عجلت بعضَ مدائحي فهي الرياضُ ، وللرياض بواكرُ

«مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، الذي سخر الله تعالى البر والبحر بأمره ،
وحكم فوق السموات السبع بعز نصره ، وأغنى يوم سَعَدِه عن سَلِّ السلاح
وشَهَرِه ، وفتق عن زهر الصنع الجميل كمامة تسليمه وصبره ، وقبض له في
علم غيبه وزيراً مذخوراً لشدِّ أزره ، وقوِّد الملك إليه على حال حَصْرِه ،
الخليفة الإمام ، الذي استبشر به الإسلام ، وخفقت بعزّه الأعلام ، ولاح بدرُ
مُحيّاه فافتضَّ الظلام ، المقتدي بالنبي الكريم سميّه في المرشد التي تألّق منها
الصبح ، والمقاصد التي لازمها النُجح ، والتمحيص الذي نبع منه المنحُ ، حتى

في الهجرة التي جاءه بعدها الفتح ، أبو زيان ابن مولانا السلطان ولي العهد ترشيحاً ومالاً ، ومؤمل الإسلام تقلداً للمذهب الصريح وانتحالاً ، وأمير المسلمين لو أوسع قدر إمهالاً ، ووُسْطَى عقد البنين خلائق متعددة وخِلالاً ، المتحف بالشهادة ولماً يعرف بدره هلالاً ، المعوّض بما عند الله تعالى سعادة ألبسته سِرْبالاً ، وأبلغته من رضوان الله تعالى آمالاً ، أبي عبد الرحمن ابن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء ، وعنصر الصبر والوفاء ، وستر الله تعالى المسدول على الضعفاء ، والمجاهد في سبيل الله تعالى بنفسه وماله ، المنيف على مراكز النجوم بهمه وآماله ، المقدس أبي الحسن ابن موالينا الخلفاء الطاهرين والأئمة المرضيين ، من قبيل بني مَرَيْن ، وصفوة الله تعالى في هذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين ، وزينة الدنيا وعمدة الدين ، هنأه الله تعالى ما أورثه من سرير الملك الأصيل ، وخوّله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والتفصيل ، وتوّجه من تاج العزة القعساء عند اشتباه السبيل ، وعوّضه من قبيل الملائكة عند تشتت القبيل ، وجعل قدمه الراسخة ، وآياته الناسخة ، وربّوته السامية الباذخة ، وغرة نصره الشاذخة ^١ ، وأوزعه شكر آلائه ، في الخلاص من ملكة أعدائه ، وخطر البحر وعدوان مائه ، وغُول السفر ، وارتكاب الغرر ، وثبات أقدام أوليائه الذين ما بدّلوا تبديلاً ، ولا ارتضوا لقبيلة طاعته بعد أن ولوا وجوههم شَطْرَها تحويلاً ، بل صبروا صبراً جميلاً ، وباعوا نفوسهم تميماً لعقدة إيمانهم وتكميلاً .

« يسلم على مقامكم الذي وسم السعد مشرق جبينه ، وذُخِرَتْ قُبُلُ الطاعة ليمينه ، وأقسم الدهر بمظاهرة أمره السعيد فبراً - والشكرُ لله تعالى - في يمينه ، عبدكم الذي اعتلق منكم بالوسيلة الكبرى ، وقرّاً بملككم عيناً وشرح صدراً ، وبذل الجهد وإن قل قُدْرَةً وقدرًا ، والتمس لكم الدعاء علناً وسراً ، ابنُ الخطيب الذي حَطَّ رَحْلَ اقتصاده بتراب الملوك الكرام جدودكم ، محارب

١ شذخت الغرة : سالت فملأت الوجه دون أن تصل العينين .

بركم وأسباب وجودكم ، وآبائكم الذين في مظاهرتهم ورعيهم يظهر للناس
مخايلٌ هداكم وتدرُّ سحائبُ جودكم ، ملتحفاً منذ سنتين بأصونة قبورهم
وثيابها ، مستظلاً بأفنيتهما المعظمة وقباها ، ممرغاً خدّه بترابها ، مؤاصلاً الصراخ
يا لمرين ويا ليعقوب متطارحاً على أبوابها ، فلم يُتسحّر الله تعالى له نعمة ترعى
الضيف وتحمي الدخيل ، أو حميّة تدفع الضيم وتشفي الغليل ، إلاّ على يدكم
يا أيّها الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبطل الميدان في موقف الهول العظيم ،
المذخور لنصر المظلوم وإنصاف الغريم ، وإجالة أقلام الفتح بفتح الأقاليم .
» كتبه مهنتاً بما سنّى الله تعالى لملككم من الصنع الذي خرق حجاب العادة ،
وأرى إعجاز السعادة ، معجلاًً ذلك بين يدي المبادرة إلى لثم بساطكم الذي شرف
وجوهها بلثمه الوجوه ، وتخشاها الأملأك الجبابرة وترجوه ، وأداء الواجب من
القيام بمنظوم ثنائه في الحقل المشهود ، وإبلاغ لسان الحمد وسع المجهود ،
واللقاء ما عند العبد من خلوص وجنوح ، وحبّ واضح أيّ وضوح ، فوليّ
دعوتكم الشيخ أبو ثابت أعزّه الله تعالى يقرره ، ويبين مجمله ويفسره ، والعبد
واثق بفضل الله تعالى على ידיكم ، وملتمس النصر لديكم ، وقاطعٌ أن طلبته
بكم تتسنى ، وأنكم سبب عاقبته الحسنى ، إما بالظهور على الوطن الذي تجرأ
به المنقلبُ على ملككم ، ومدّ اليد إلى نثر سلككم ، ونقص إرثكم المسلم
المحرر ، وزلزل وطنكم المؤسس على الطاعة المقرر ، وأضرّم النار في بساطكم
وجبالكم ، وأطلق يد الفتنة على بيوت أموالكم متكرراً عليكم بالقلة ، متعزّزاً
بالذلة ، جانباً على داركم بما لا تبيحه الملة ، أو بالشفاعة الجازمة إن لم يتأذن
الله تعالى في الانتصاف ، والله يجعلُ الظهور بكم من الأوصاف ، ويعينكم
على جبر الكسير ، وتيسير الأمر العسير ، ويهنيكم منيحة الملك الكبير ، ويبقي
كلمته في عقبكم بعد تملؤ التعمير ، والسلام .

٨٩ - وله رحمه الله تعالى في مخاطبة السلطان أبي زيان المذكور: « المولى الذي طوق المنن ، وأحيا السنن ، وأنبت الله تعالى حبه في القلوب النبات الحسن ، ناظم كلمة الدين بعد انتشارها ، ومُقِيل عثارها ، والآخذ بثارها ، والمخلد لآثارها ، السلطان أبو زيان . . . إلخ - أبقاكم الله تعالى عالي القدم ، منصور العَلَم ، ظاهراً على الأمم ، مقصود الحمى كالركن الملتزم . عبدُ مقامكم الذي آوَيْتموه غريباً ، وأنستموه مريباً ، وأنلتموه على عدوه الدهر نصراً عزيزاً وفتحاً قريباً ، فلم يخش دركاً وتثريباً ، ولا عدم حظوة وشفقة ونعمة وتقريباً ، ابن الخطيب عن ثناء يعطر الآفاق ، ويرقم الأوراق ، ويخلق الجيوب والأطواق ، وحب بهر نوراً وراق ، وجاس اشتهاره الشام والعراق . ويطالع العبدُ محل مولاه الذي خلّف ببابه قلبه وولده ، وصبره وجلده ، وصير وطنه داره الحقيقية وبلده ، أنه لما قدم على محل أخيه ، المعتد بما أودع الله تعالى من الحلال الشريفة فيه ، مولاي ابن مولاي أبي عبد الله - كفل الله تعالى جميل رعيه وكرم عهده ، وحكم بإعلاء جدّه ومَضَاء حدّه - رَعَى الوسيلة ، وصَدَّق المخيلة ، وجلا عند اجتلاء مخاطبتكم أسارير الفضيلة ، فلم يَدَعُ حقّاً إلا صرفه ، ولا نكرة إلا عَرَفَه ، ولا نعمة إلا سَكَبَهَا ، ولا مزية إلا أَوْجَبَهَا ، ولا رتبة إلا أَعْلَاهَا ، ولا نعمة إلا أَوْلَاهَا ، وما ذاك يا مولاي وإن تعددت الرسائل والأذِمّة ، وادّكرت القُرْبُ بعد أمة ، إلا بوصاتكم التي لا تُهْمَل ، وحرمتكم التي لا تُجْهَل ، وعطف مقامكم الذي اشتهر ، واعتنائكم بعبدكم الذي راق وبهَر ، فالعبد عبدكم بكل اعتبار ، وخديمكم وإن نأت الدار ، ومحسوب على نعمه مقامكم الرفيع المقدار ، والأمل في مقامكم غير منقطع السبب ، والأهل والولد تحت كَنَف مقامكم الأصيل الحسب ، حتى يمنَّ الله تعالى بحج بيته وزيارة رسوله على يديكم ، ويكون قضاء هذا الوطر منسوباً إليكم ، وبعد هذا يستقرّ القرار ، حيثُ يُختار مَنْ يخلق ما يشاء ويختار ، بحول الله تعالى .

والعبد يذكر مولاه بما بشره به بين يدي وداعه ، وبمرأى وزيره السعيد واستماعه ، من انجلاء الحركة عن عزه وظهوره ، ونجاح أحواله واستقامة أموره ، ويهنيه بصدق الوعد ، وإمطار الرعد ، وظهور السعد ، وهي وسيلة إذا عُدَّت الوسائل ، وروعت الذمم الجلائل ، ومثل مولاي مَنْ رَعَى وأبقى ، وسلك التي هي أبرُّ وأتقى ، وما قصر عنه القلم من حق مولاي فالرسول أعزّه الله تعالى يتممه ، وما قصر عنه الرسول فالله تعالى يعلمه ، وهو جلّ وعلا يديم أيام مولاي ويبقي مجده ، ويصلّ سعده ، والسلام » انتهى .

٩٠ - ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى شيخ الدولة يحيى بن رحو^١ قوله : « سيدي الذي له المزية العظمى ، والمحلّ الأسمى ، شيخ قبيل بني مرّين ، وقطب مدار الأحرار على الإجمال والتعيين ، والمتميز بالدهاء والرجاحة ، والمعرفة الفسيحة الساحة ، والصدقة المباحة ، وشروط الصوفية من ترك الأذى ووجود الراحة ، أسلّم على ذاتكم الطاهرة التي بخلت الأزمان والله أن تأتي بنظيرها ، وتنافسست الدول في تكبيرها ، وسارت المواكب الملوكية بمسيرها ، وأثنت الألسن بفضلها وخيرها ، وأقرر لديها أنني أعددت من معرفتها بالأندلس كترًا لم أنفق منه إلى اليوم وزناً ، إعداداً له وخزناً ، إذ لا يخرج العتاد الكبير إلا عن حاجة وفاقه ، ولا ترد اليد إلى الذخيرة إلا في إضاعة وعجز طاقة ، وما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلي جهلاً بقيمتها العالية ، وإزراء بجهتها الكافية ، لكن نابت عن يدها أيد ، وكفى عن ابتذالها ما كف الله تعالى من عمرو وزيد ، والآن أقرر أنني قد كادت حاجتي إلى ذلك العتاد أن تتمحض ، وزبدته أن تتمحض ، إذ هو حظي من رعي ذلك القبيل الذي قصرت عليه رياسته ، والوزير

١ هو يحيى بن عمر بن رحو ، ولاء يوسف بن إسماعيل رئاسة الجند المغربي بعد أبي ثابت عامر بن عثمان (سنة ٧٤١) ، وهذه هي وظيفة شيخ الغزاة بالأندلس ، وقد بقي يحيى في هذه الوظيفة حتى سنة ٧٦٤ حين قبض عليه السلطان النصري وسجنه واستلبه جاهه (اللوحة البدرية : ١١٨) .

الذي من رأيه تستمد سياسته ، وإذا وفد خاصة هذه المدينة مُهَنِّين ، وبشكر
إياله الكريمة مُثْنِينَ ، فخيمته ظلٌ ظليل ، ومشاركته معتمدي في الكثير فكيف
ولا غرض لي إلا في القليل ، وعندي أن رَعِيَّه لمثلي لا يفتقر إلى وسيلة تجلب ،
ولا ذِمَام يحسب ، فمثله من قدر قدر الهناء ، وشد أعلام الحمد والثناء ، سامية
البناء ، وعرف أن الدنيا على الله تعالى أحقر الأشياء ، وقد رفعت أمري كله
بعد الله تعالى إلى رأيك ، وغنيت عن سعيي لنفسي بجميل سعيك ، والسلام .

٩١ - ومما خاطب به لسان الدين شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق
التلمساني رضي الله تعالى عنه قوله شافعاً : « يا سيدي أبقاكم الله تعالى مَحَطَّ
الآمال وقِبْلَةَ الوجوه ، وبلغ سيادتكم ما تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ،
وكلاً بعين حفظه ذاتكم الفاخرة ، وجعل عز الدنيا متصلاً لكم بعز الآخرة ،
بعد تقبيل يديكم التي يدها لا تزال تُشكر ، وحستها عند الله تعالى تُذكر ،
أنهي إلى مقامكم أن الشيخ الكذا أبا فلان - مع كونه مستحقَّ التجلَّة بهجرةٍ
إلى أبوابكم الكريمة قَدُمْتُ ، ووسائل من أصالة وحشمة كرمتم ، وفضل
ووقار ، وتنويه للولاية أن كانت ذات احتقار ، وسن اقتضى الفضلُ بره ،
وأدب شكر الاختبار عليه وسرّه - له بمعرفة سلفكم الأرضي وسيلة مرعية ،
وفي الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية ، وتوجه إلى بابكم ، والتمسك
بأسبابكم ، والمؤمل من سيدي ستره بجناح رعيه في حال الكبرة ، ولحظه
بطرف المبرة ، إماماً في استعمال يليق بذوي الاحتشام ، أو سكون تحت رعي
واهتمام ، وإعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام ، وهو أحق الغرضين بالتزام ،
وإحالة سيدي في حفظه رسم مثله ، على الله تعالى الذي يجزي المحسنين بفضله ،
ومنه نسأل أن يديم أيام المجلس العليّ محروساً من النوائب ، مُبَلِّغ الآمال
والمآرب ، والمملوك قد قرّر شأنه في إسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة إليكم ،
والتحسب في هذه الأبواب عليكم ، وتقليب القلوب بيد الله تعالى الذي يعطي

ويمنع ، ويملك الأمر أجمع ، والسلام .

٩٢ - وكتب إليه أيضاً في الشفاعة بما نصّه : « سيدي الأعظم ، وملاذي الأعصم ، وعروة عزي الوثقى التي لا تُفصم ، أبقاك الله تعالى بقاء آثارك آية للعز تأمر الدهر فيأتمر ، ويلبي بفنائك الطائف والمعتمر ، بأيّ لسان أثني على فواضلك وهي أمّهات المينن ، وطُرف الشام واليمن ، ومقامات بديع الزمن ، والتحف المرتفعة عن الثمن ؟ فحسبي دعاء أردده وأواليه ، وأرتقب مطلوب الإجابة من مُقدّمه وتاليه ، وإن تشوّف المنعم للحال الموقوف خيره بمشيئة الله تعالى على جميل سعيه ، الموسّد على وطاء لطفه المغشّي بغطاء رعيه ، قلب خافق ، وقلب مؤمن يجول به وسواس منافع ، وقد تجاوز موسى مجمع البحرين ، وأصبح سريّ بابه سريّ العين ، ولقد كانت مراحل الرّمّل قصيرة قبل أن يكسبها زجلي ثقل الحركة ، ويخلط خاصّي في وظائفها المشتركة ، وليت أمري برز إلى طرف ، وأفضى إلى منصرف ، وربما ظفر آيس بما يرجوه ، وبرز المحبوب من المكروه ، والله تعالى لا يفضّح جاه الكتاب الذي أحيا وأنشر ، وحيّا وبشر ، وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت مثابكم المحشر ، وموصل كتابي ، ينوب في تقبيل اليد العليا منابي .

« وليعلم سيدي أن هذا القطر على شهرته ، وتألّق مشريه وزهرته ، إذا انتحل كرامه ، وعهد الفضل لم يبق إلا انصرامه ، فهو لبابه المتخير ، وزُلاله الذي لا يتغير ، أصالة معروفة ، وهمّة إلى الإيثار مصروفة ، ونُبلًا على السنّ والكبرة ، ورجولية خليقة بصيلة الحرمة والمبرة ، والوسيلة لا تُطرح ، والمعنى الذي لا يفسّر لوضوحه ولا يُشرح ، وهو انتماؤه إلى جناب سيدي حديثاً وقديماً ، واعترافه بنعمه مديراً لها ومديماً ، والله تعالى يوفي من إيثار سيدي حظه ، ويجدّد لديه رعيه ولحظه ، حتى يعود خافقاً علّم إقباله ، معلماً بُرد اهتباله ، مسروراً

يبلوغ آماله ، فلعمرى إن محلّ ولايته لكفّ ، وإنّ عهد أمانته لوفى ، وإن عامل جدّه لظاهر وخفيّ ، وما يفعله سيدي من رعيه ، وإنجاح سعيه ، محسوب من مناقبه ، ومعدود في فضل مذاهبه ، والسلام الكريم يخلصكم ورحمة الله وبركاته » انتهى .

وقد تكررت في كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه الله تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظماً ونثراً ؛ إذ كان - أعني ابن مرزوق - رئيس الدولة ، ومعتمد الحيلة ، وسبق منا التعريف ببعض أحواله في باب مشايخ لسان الدين ممّا جرّته المناسبة ، فليرجع إليه منّ أراد ، والله تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة .

٩٣ - وممّا اشتمل على نثر لسان الدين ونظمه ما خاطب به الرئيس أبا زيد ابن خلدون ، لما ارتحل من بحر المرية واستقر ببلد بسكرة عند رئيسها أبي العباس ابن مزّني ، صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا ، وقد تقلّد كتابة صاحب تليمان ، ووصل الكتاب عنه من إنشائه ، وهذه صورة ما كتبه لسان الدين رحمه الله تعالى ١ :

بنفسي وما نفسي عليّ بهينة	فيتزلّني عنها المكاس ^٢ بأثمان ^٢
حبيب ^١ نأى عني وصمم لا يني	وراش سهام ^١ البين عمداً فأصماني
وقد كان همّ الشيب ^١ ، لا كان، كافياً	فقد آدني لما ترحل ^١ همّان ^١
شرعت ^١ له من دمع عيني ^١ مورداً	فكدّر ^١ شربي بالفراق ^١ وأظماني
وأرعيته من حسن ^١ عهدي جميمة ^١	فأجذب ^١ آمالي وأوحش ^١ أزماني
حلفت ^١ على ما عنده لي من رضى	قياساً بما عندي فأحنث ^١ أيماني
ولأني على ما نالي منه من قلى	لأشتاق ^١ من لقياه نغبة ^١ ظمّان ^١

١ وردت هذه الرسالة في التعريف : ١٠٤ .

٢ المكاس : المشاحة في الثمن .

سألتُ جنوني فيه تقربَ عرشه فقصتُ بجنّ الشوقِ جنّ سليمانِ
إذا ما دعا داعٍ من القوم باسمه وثبتتُ وما استثبتتُ شيمةَ هيمانِ
وتالله ما أصغيتُ فيه لعاذلٍ تحاميته حتى ارعوى وتحاماني
ولا استشعرتُ نفسي برحمة عابدٍ تظللُ يوماً مثله عبدَ رحمنِ
ولا شعرتُ من قبله بتشوقٍ تخلل منها بينَ روح وجثمانِ

أما الشوقُ فحدث عن البحرِ ولا حرج ، وأما الصبرُ فسلُ به أية درج ،
بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشقُ الفرَج ، والمؤمن ينشَق
من رَوْحِ الله تعالى الأَرَج ، وأنتى بالصَّبْر ، على إبر الدَّبْر ، لا بل الضرب
الهِبر^١ ، ومطاولة اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ؟ وهل للعين أن تسلو سلو
المقصر ، عن إنسانها المبصر ، أو تذهل ذهول الزاهد ، عن سرّها الرائي والمشاهد ؟
وفي الجسد بضعةٌ يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ،
وإذا كان الفراق هو الحِمام الأول ، فعلامَ المعوّل ؟ أعيتُ مرأوضة الفراق ،
على الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، أن تُفْضي إلى السِّياق :

تركتموني بعد تشييعكم أوسعَ أمرَ الصبرِ عصيانا
أقرعُ سني ندماً تارة وأستمحُ الدمعَ أحياناً

وربما تعللتُ بغشيانِ المعاهد الحالية ، وجددتُ رسومَ الأسى بمباكرة
الرسوم البالية ، أسأل نونَ النوى عن أهليه ، وميمَ الموقد المهجور عن مُصْطليه ،
وثاء الأثافي المثلثة عن منازل الموحدين ، وأحار بين تلك الأطلال حيرة الملحدّين ،
لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، كلّفتُ لعمر الله بسالٍ عن جفوني المؤرقة ،
ونائم عن همومي المتجمعة المتفرقة ، ظعنَ عن ملال ، لا متبرماً مني بشرّ
خلال ، وكدّر الوصل بعد صفائه ، وضرّج النصل بعد عهد وفائه :

١ الهبر : الذي يهر أي يقطع .

أَقِيلَ اشْتِيَاقًا أَيَّهَا الْقَلْبُ رَبِّمَا رَأَيْتَكَ تُصَنِّفِي الْوَدَّ مِنْ لَيْسَ جَازِيَا^١
فَهَا أَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ بَدَمِ أَسَالِهِ ، وَأَنْهَلُ فِيهِ أَسَى لَه^٢ ، وَأُعْلِلُ بِذِكْرَاهُ قَلْبًا^٣
صَدَعَهُ ، وَأَوْدَعَهُ مِنَ الْوَجْدِ مَا أَوْدَعَهُ ، لَمَّا خَدَعَهُ ، ثُمَّ قَلَاهُ وَوَدَّعَهُ ، وَأَنْشَقَ
رِيَّاهُ أَنْفَ ارْتِيَا حَقْدَ جَدَّعَهُ ، وَأَسْتَعْدِي بِهِ عَلَى ظَلَمِ ابْتَدَعَهُ :

خَلِيلِي هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا قَتِيلًا بَكِيٍّ مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي^٤
فَلَوْلَا عَسَى الرَّجَاءُ وَلَعَلَّهُ ، لَا بَلَّ شِفَاعَةُ الْمَحَلِّ الَّذِي حَلَّه ، لَمْزَجْتُ الْحَنِينَ
بِالْعَتَبِ^٥ ، وَبَشَّتْ كِتَابِيهِ كَهْنَاءَ فِي شَعَابِ الْكُتُبِ ، تَهَزُّ مِنَ الْأَلْفَاتِ رَمَاحًا خُزُرَ
الْأَسْنَةِ ، وَتَوَتَّرَ مِنَ النُّونَاتِ أَمْثَالُ الْقَيْسِيِّ الْمُرْنَةِ ، وَتَقَوَّدَ مِنْ بَيَاضِ الطَّرْسِ
وَسَوَادِ النَّقْسِ بُلُقًا تَرْدِي^٦ فِي الْأَعْنَةِ ، وَلَكِنَّهُ أَوَى إِلَى الْحَرَمِ الْأَمِينِ ، وَتَفِيًّا
ظِلَالِ الْجَوَارِ الْمُؤْمِنِ مِنْ مَعَرَّةِ الْعَوَارِ عَنْ الشِّمَالِ وَالْيَمِينِ ، حَرَمِ الْحِلَالِ الْمَرْزُوقَةِ ،
وَالظَّلَالِ الْيَزْنِيَّةِ ، وَالْهَمَمِ السَّيِّئَةِ ، وَالشِّيمِ الَّتِي لَا تَرْضَى بِالْدُّونِ وَلَا بِالْدَّيْنَةِ ،
حَيْثُ الرِّفْدُ الْمَمْنُوحُ ، وَالطَّيْرُ الْمِيَامِنُ يَزُجِرُهَا السُّنُوحُ ، وَالْمَثْوَى الَّذِي إِلَيْهِ -
مَهْمَا تَقَارَعَ الْكِرَامُ عَلَى الضَّيْفَانِ ، حَوْلَ جَوَابِي الْجَفَانِ - الْمِيلُ وَالْجَنُوحُ :

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَوْرًا ، وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودًا^٧
وَمِنْ حَلٍّ بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ فَقَدْ اِطْمَأَنَّ جَنْبُهُ ، وَتَغَمَّدَ بِالْعَفْوِ ذَنْبَهُ ، وَلِلَّهِ دَرُ
الْقَائِلِ حَيْثُ يَقُولُ :

١ البيت للمتنبي بعد فراقه لسيف الدولة وحلوله عند كافور .

٢ التعريف : وأندب في ربع الفراق ، آسى له .

٣ التعريف : وأشكو إليه حال قلب .

٤ البيت لجميل بثينة ، ديوانه : ١٧٦ .

٥ التعريف : لفشت ألوية العتب .

٦ تردي : تمشي الرديان ، وهو نوع من المشي دون العدو .

٧ البيت لأبي تمام (ديوانه : ٨١ ط . بيروت) .

فوحقّه لقد انتدبتُ لوصفه بالبُخلِ لولا أنْ حمصاً داره
بلد متى أذكره تهتجُ لوعي وإذا قدحت الزند طار شراره

اللهم غفراً ، لا كُفراً ، وأين قرارة النخيل ، من مَثْوَى الأقفال البخيل ،
ومكذبة المخيل ؟ وأين ثانية هجر ، من متبوعاً من ألد وفجر ؟

من أنكرَ غيثاً منشؤه في الأرضِ وليس بمُخلفها
فبنانُ بني مَزْنِي مَزْنٌ تنهلُ بلطفٍ مُصرِّفها
مَزْنٌ مذ حلَّ بيسكرةٍ يوماً نطقت بمُصحِّفها^١
شكرتُ حتى بعبارتها وبمعناها وبأحرفها
ضحكتُ بأبي العباس من الـ أيامِ ثنانيا زخرفها
وتنكرتُ الدنيا حتى عرفتُ منه بمعرفها

بل نقول : يا محلّ الولد ﴿ لا أقسمُ بهذا البلدِ وأنتَ حلٌّ بهذا البلدِ ﴾
(البلد: ٢، ٣) لقد حلَّ بَيْنُكَ عُرَى الجلد ، وخلق الشوق بعدك يا ابن خلدون
في الصميم من الخلد ، فحيّاً الله تعالى زمناً شُفِيَّتْ برُقي قربك^٢ زَمَانَتُهُ ،
واجتُلِيَتْ في صدف مجدك جمانتُهُ ، ويا من لمشوق لم تقض من طول خلّتك
لُبَانَتُهُ^٣ ، وأهلاً برَوْضٍ أظلت أشتات معارفك بَانَتُهُ ، فحمائمه بعدك تندب ،
فيساعدها الجُنْدُب ، ونواسيمُهُ ترقُّ فتغاشي ، وعشياته تتخافت وتتلاشي ،
ومزْنُهُ باك ، ودَوْحُهُ في مآتم ذي اشتباك ، كأن لم تكن قَمَرِ هالاتِ قبابه ،
ولم يكْ أنسُك شارعَ بابهِ ، إلى صفوة الظرف ولُبابهِ ، ولم يسبح إنسانُ عينك في
ماء شبابه ، فلهفي عليك من درة اختلستها يدُ النوى ، ومَطَل بردّها الدهر
ولوَى ، ونَعَق الغرابُ بينها في ربوع الجوى ، ونطق بالزجر فما نطق عن

١ مصحف بسكرة : بشكره أو تشكره .

٢ التعريف : في قربك .

٣ التعريف : وقضيت في مرعى خلّتك لبانتته .

الهوى ، وبأي شيء نعتاضُ منك أيتها الرياض ، بعد أن طمى نهرك^١ الفياض ،
وفهقت الحياض ؟ ولا كان الشائى المشنوء ، والجرب المهنوء ، من قطع
ليل أغار على الصبح فاحتمل ، وشارك في الدمّ الناقة^٢ والجمل ، واستأثر جناحه
ببدر النادي لما كمل ، نشر الشراع فرآع ، وأعمل^٣ الإسراع ، كأنما هو
تمساح النيل ضايق الأحباب في البرهة ، واختطف لهم من الشط نزهة العين
وعين النزهة ، ولحج بها والعيون تنظر ، والغمر عن الاتباع يحظر ، فلم
يُقدّر إلا على الأسف ، والتماح الأثر المنشف ، والرجوع بملء العيبة
من الحية ، ووقر الحسرة^٤ من الحسرة ، وإنما نشكو إلى الله البث والحزن ،
ونستمطر من عبارتنا المزن ، وبسيف الرجاء نصول ، إذا شرعت لليأس
النصول :

ما أقدر الله أن يدني على شحطٍ من داره الحزن ممّن داره صول^٥

فإن كان كلّم الفراق رغباً^٥ ، لما نويت مغيباً ، وجللت الوقت الهنيء
تشغيلاً ، فلعلّ الملتقى يكون قريباً ، وحديثه يروى صحيحاً غريباً .
إيه ثقة^٦ النفس كيف حال تلك الشمائل ، المزهرة الحمائل ؟ والشيم ،
الهامية الديم ، هل يمر بياها من راعت بالبعد باله ، وأخمدت بعاصف البين
ذباله ، أو ترثي لشؤون شأنها سكّب لا يفتر ، وشوق بيت حبال الصبر ويتر ،
وضننى تقصر عن حله الفاقعة صنعاء وتستر ، والأمر أعظم والله يستر ، وما
الذي يضيرك ؟ صين من لفح السموم نصيرك ، بعد أن أضرمّت وأشعلت ،

١ نهرك : سقطت من ق .

٢ التعريف : وواصل .

٣ الحسرة : الناقة ؛ والوقر : الحمل .

٤ البيت لهندج بن هندج المري ، (حماسة المرزوقي : ١٨٣١) .

٥ الجرح الرغب : الواسع .

٦ التعريف : إيه سيدي .

وأوقدت وجعلت ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، أن تترقق بدماء ، أو تردّ
بنُغْبَةٍ ماء ، أرماقَ ظمَاء ، وتتعاهد المعاهد بتحية يُشَمُّ منها شذا أنفاسك ، أو
تنظر إلينا على البعد بمُقْلَةٍ حَوْرَاء من بياض قرطاسك وسواد أنفاسك ، فربما
قنعت الأنفسُ المحبة بخيال زور ، وتعللت بنوال متزور ، ورضيت لما لم تصدِ
العنقاء بزرزور :

يا من ترحل والنسيم لأجله تشتاقُ إن هبت شذا رِيّاها
تحبي النفوس إذا بعثت تحية فإذا عزمت اقرأ ﴿ومن أحيها﴾^١

ولئن أحييت بها فيما سلف نفوساً تفديك - والله تعالى إلى الخير يهديك -
فنحن نقول معشر مريدك : ثنّ^٢ ولا تجعلها بيضة الديك^٣ ، وعذراً فإنّي لم
أجتر على خطابك بالفقر الفقيرة ، وأدلت لدى حجراتك برفع العقيرة ، لا عن
نشاط بعثت مرْمُوسَه ، ولا اغتباط بالأدب تغري بسياسته سُوسَه ، وانبساط
أوحى إليّ على الفترة ناموسَه ، وإنّما هو اتفاق جرّته نفثة المصدور ، وهناء
الحربِ المجدور ، وخارق لا مخارق^٤ ، فثم قياس فارق ، أو لحن غنى به بعد
الممات^٥ مفارق ، والذي سبّبه^٥ ، وسوّغ^٦ منه المكروه وحبّبه ، ما اقتضاه
الصنوّ يحيى - مدّ الله تعالى حياته ، وحرّس من الحوادث ذاته - من خطاب
ارتشف به لهذه القريحة بئالاتها ، بعد أن رضي علالاتها ، ورشح إلى الصّهر
الحضرمي سلالاتها ، فلم يسع إلا إسعافه ، بما أعافه ، فأملت مُجيباً ، ما لا

١ إشارة إلى الآية الكريمة : ومن أحيها فكأنما أحيّا الناس جميعاً (المائدة : ٣٢) .

٢ من قول بشار :

قد زرتنا مرة في العمر واحدة ثني ولا تجعلها بيضة الديك

٣ التعريف : وإن تعلل به مخارق .

٤ التعريف : بعد البعد .

٥ التعريف : والذي هيأ هذا القدر وسببه .

٦ التعريف : وسهل .

يُعدّ في يوم الرهان نجيباً ، وأسمعتُ وجيباً ، لما ساجلتُ بهذه الترهات سحرأ عجيباً ، حتى إذا أَلَفَ القلمُ العريان سَبَّحَه ، وجمع برذون الغرارة فلمْ أُطِقْ كَبَّحَه ، لم أُنْفِقْ من غَمْرَةِ غلوّه ، وموقف متلوّه ، إلا وقد تحيَّز إلى فتتك معترأً بل معترأً ، واستقبلها ضاحكاً مُفْتَرأً ، وهشاً لها برأً ، وإن كان لونه من الوجَلْ^١ مُصْفَرأً ، وليس بأول من هجر ، في التماس الوصل ممّن هَجَرَ ، أو بعث التمر إلى هَجَرَ ، وأي نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام ، وإجالة جياذ الأقلام ، في محاورة الأعلام ؟ بعد أن حال الجَرِيض ، دون القريض^٢ ، وشغل المريض ، عن التعريض ، واستولى^٣ الكسل ، ونصلت الشعرات البيض كأنّها الأسَل ، تروع برقط الحيات ، سِرْبَ الحياة ، وتطرق بذوات الغُرُرِ والشَّياتِ^٤ ، عند البيات ، والشيب الموت العاجل ، وإذا ابيضَّ زَرْعٌ صَبَّحَتْهُ المناجل ، والمعتبر الآجل ، وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده ، حُكِمَ في الظاهر بإبعاده ، وأسرّه في ملكةٍ عاده ، فأغضِ أبقاك الله واسمح ، لمن قَصَّرَ عن المَطْمَح ، وبالعين الكليلة فالبح ، واغتم لباسَ ثوب الثواب ، واشفِ بعض الجوى بالحواب ، تولاك الله تعالى فيما استضفت وملكك ، ولا بعدت ولا هلكك ، وكان لك أيةٌ سلكت ، ووَسَمَك من السعادة بأوضح السمات ، وأتاح لقاءك من قبل الممات ، والسلام الكريم يعتمد جلال ولدي ، وساكن خلّدي ، بل أخِي وإن غتبتهُ^٥ وسيدي ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

قلت : هذه الرسالة الرافلة في حلل البلاغة لم أر مثلها ولم أقف عليه ، فرحم الله تعالى لسان الدين ووجهه سحائب الرحمة إليه ، فلقد كان آيةَ الله في النظم

١ التعريف : الحجل .

٢ هذا مثل ؛ والجريض : ما يعترض في الحلق من غصص ، أي حال العائق دون قول الشعر ، ويتصل بقصة عبيد بن الأبرص ويوم البؤس عند النعمان .

٣ التعريف : وغلب حتى .

٤ ذوات الفرر والشَّيات هي الخيل .

٥ التعريف : وإن اتقيت عتبه .

والنثر وجميع العلوم على اختلافها .

٩٤ - وكما خاطب الولي ابن خلدون خايط أخاه أبا زكريا يحيى حسبما قال في بعض كتبه : ومما خاطبت به الفقيه أبا زكريا ابن خلدون ، لما ولي الكتابة عن السلطان أبي حمّو سلطان تلمسان من بني زيان واقرن بذلك نصر وصنع غبطته به وأشدّتُ به قصد تنفيقه وإنهاضه لديه : «نخص الحبيب الذي هو في الاستظهار به أخ وفي الشفقة عليه ولّد ، والولي الذي ما بعد قرب مثله أمل ولا على بُعده جَلَد ، والفاضل الذي لا يخالف في فضله ساكن ولا بلد ، أبقاه الله تعالى وفاز فوزه وعصمته لها من توفيق الله سبحانه عمد ، ومورد سعادته المسوغ لعادته لا غور ولا ثمد ، ومدى إمداده من خزائن إلهام الله تعالى وسداده ليس له أمد ، وحمى فرح قلبه بمواهب من ربه أن يطرّقه كمد .

« تحية مُجِلّه ، من صميم قلبه بمحلّه ، المنشئ رواق الشفقة ، مرفوعاً بعمد المحبة والميعة ، فوق ظعنه وحلّه ، مؤثره ومُجِلّه ، المعني بدقّ أمره وجِلّه ، ابن الخطيب ، من الحضرة الجهادية غرناطة ، صان الله تعالى خلاها ، ووقى هجير هجر الغيوم ظلالها ، وعمر بأسود الله تعالى أغياها ، كما أغرى بمن كفر بالله تعالى صياها ، ولا زائد إلاّ من من الله تعالى تصوّب ، وقوة يسترد بها المغصوب ، ويخفف الصليب المنصوب ، والحمد لله تعالى الذي بحمده يُنال المطلوب ، وبذكره تطمئن القلوب ، ومودتك المودة التي غدتها ثديّ الخلوص بلبانها ، وأحلتها حلائل المحافظة بين أعينها وأجفانها ، ومهدت موات أخواتها الكبرى أساس بنيانها ، واستحقت ميراثها مع استصحاب حال الحياة إن شاء الله تعالى واتصال زمانها ، واقتضاء عهود الأيام بيمينها وأمانها ، والله درُّ القائل :

فإن لم يكنّها أو تكنّه فإنّه أخوها غدته أمّه بلبانها^١

١ البيت لأبي الأسود الدؤلي (ديوانه في نفائس المخطوطات ٢ : ٣٧) وكان له غلام يتاجر إلى الأهواز ويشرب الخمر .

« وصل الله تعالى ذلك من أجله وفي ذاته ، وجعله وسيلة إلى مرضاته ، وقربة تنفع عند اعتبار ما روعي من سنن الجبار ومفترضاته .

« وقد وصل كتابكم الذي فاتح بالريحان والروح ، وحلّ من مرسوم الولاء محل البسْملة من اللوح ، وأذن لنوافح الثناء بالبوح ، يشهد عدله بأنّ البيان يا آل خلدون سكن من مثواكم دارَ خلود ، وقدح زنداً غير صلود ، واستأثر من محابركم السيالة ، وقضّب أقلامكم الميالة ، بأبٍ مُنْجِب وأم ولود ، يقفو شانيه غير المشنوّ ، وفصيله غير الحَرْبِ ولا المهنوّ ، من الخطاب السلطاني سفينة مُنْوَح^١ ، إن لم نقل سفينة نوح ، ما شئت من آل أزواج ، وزُمَر من الفضل وأفواج ، وأمواج كرم تطفو فوق أمواج ، وفنون بشائر ، وإهطاع قبائل وعشائر ، وضربٍ للمسرات أعياء الشائر ، فله هو من قلم راعى نَسَبَ القنا فوصل الرحم ، وأنجد الوشيح والملتحم ، وساق بعصاه من البيان الذودَ المزدحم ، وأخاف من شدّة عن الطاعة مع الاستطاعة فقال ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ (هود : ٤٣) ولو لم يوجب الحقّ بَرَقَه ورعده ، ووَعِيدَه ووَعْدَه ، لأوجبه يمنه وسعده ، فلقد ظهرت مَخَايِلُ نُجْحَه ، علاوة على نصحه ، ووضحت محاسن صُبْحَه ، في وحشة الموقف الصعب وقبحه ، وصلّ الله تعالى له عوائد منحه ، وجعله إقليداً كلّما استقبل باب أمل وكَلَّه الله تعالى بفتّحه .

« أمّا ما قرّره ولاؤكم من حب زكا على حبة القلب حبّه ، وأنبته النبات الحسن ربّه ، وساعده من الغمام سكّبه ، ومن النسيم اللدن مهبّه ، فرسم ثبت عند الوليّ نظيره ، ومن غير معارض يَصِيرُه ، وربما أربى بتذليل مزيد ، وشهادة ثابت ويزيد^٢ ، ولم لا يكون ذلك ، وللقلب على القلب شاهد ؟ وكونها

١ المنوح : العطايا .

٢ ثابت ويزيد : من أعلام التابعين الثقات كأن تقول : ثابت البناني ويزيد بن الأسود ؛ ثم يلمح إلى قول جميل :

إذا قلت ما بي يا بشينة قاتلي من الوجد قالت ثابت ويزيد

أجناداً مُجَنَّدَةً لا يحتاج تقريره إلى ماهد وجهْد جاهد ، ومودَّة الأخوة سبيلها
 لاحب ، ودليلُها للدعوة الصادقة مصاحب ، إلى ما سبق من فضل ولقاء ،
 ونظافة سقاء ، واعتقاد ، لا يُرَاع سِرُّهُ بذئب انتقاد ، واجتلاء شهاب وقاد ،
 لا يحوج إلى إيقاد ، إنما عاق عن مُواصلة ذلك نوى شَطَّ منها الشطن ، وتشذيب
 لم يتعين معه الوطن ، فلماً تعين ، وكاد الصبحُ أن يتبين ، عاد الوَمِيزُ دَيَّجوراً ،
 والثماد بحراً مسجوراً ، إلى أن أعلق الله تعالى منكم اليدَ بالسبب الوثيق ، وأحلَّكم
 مَنجى نيق^١ ، لا يخاف من منجنيق ، وجعل يراكم لسعادة موسى^٢ معجزة
 تأتي على الخبر بالعيان ، فتخرُّ لثعبانها سَحَرَةَ البيان :

أحيى سقى حيث لُحِتَ الحيا	فنعم الشباب ونعم الوكون
وحياً يراعى من آية	فقد حرك القوم بعد السكون
دعوت لخدمة موسى عصاه	فجاءت تَلَقَّفُ ما يَأفكُون
فأذعن من يدعي السحر رغماً	وأسلم من أجلها المشركون
وساعدك السعدُ فيما أردت	فكان كما ينبغي أن يكون

«فأنتم أولى الأصدقاء بصلَّة السبب ، ورعي الوسائل والقرب ، أبقاكم الله
 تعالى وأيدي الغبطة بكم عالية ، وأحوال تلکم الجهات بدرکم المهمات حالية ،
 ودِيمُ المسرات من إنعامكم المُبِرَّات على معهود المبرات متوالية .
 «وأما ما تشوقتم إليه من حال وليكم فأمل متقلص الظل ، وارتقاب لهجوم
 جيش الأجلِ المطلق ، ومُقام على مساورة الصلِّ ، وعمل يكذب الدعوى ،
 وطمأنينة تنتظر الغارة الشعوا ، ويد بالمدخور تفتح ، وأخرى تبجهد وتمنح ،
 ومرض يزور فيثقل ، وضعف عن الواجب يعقل ، إلا أن اللطائف تستروح ،

١ النيق : الطويل من الجبال .

٢ موسى : هو السلطان أبو حمو .

والقلب من باب الرجاء لا يبرح ، وربما ظفر البائس ، ولم تطَّرد المقاييس ،
تداركنا الله تعالى بعفوه ، وأوردنا من منهل الرضى والقبول على صفوه ، وأذن لهذا
الحرق في رَفْوِه .

« وأما ما طلبتم من انتساخ ديوان ، وإعمال بنان في الإتحاف ببيان ، فتلك
عهود لديّ مهجورة ، ومعاهد لا مُتَعَهِّدة ولا مَزُورة ، شغل عن ذلك حوضٌ^١
يعلو بلجه ، وحرص يُقْضَى من لغط المانع عجبُهُ ، وهول جهادٍ تساوى جُمادياه
وَرَجَبُهُ ، فلولاً التماسُ أجر ، وتعلُّل بربح تجر ، لقلت : أهلاً بذات
النحيين^١ ، فلئن شكت ، وبذلت المَصُون بسبب ما أمسكت ، فلقد ضحكت
في الباطن ضعف ما بكيت ، ونستغفر الله تعالى من سوء انتحال ، وإيثار المزاح
بكل حال ، وما الذي ينتظر مثلي ممّن عرف المآخذ والمثارك ، وجَرَّبَ لما بَلا
المبارك ، وخبر مساة الدنيا الفارك ؟

« هذا أيّها الحبيبُ ما وسعه الوقت الضيق ، وقد ذهب الشباب الرّيتق ،
فليسمح فيه معهود كمالك ، جَعَلَ الله تعالى مطاوعة آمالك ، مطاوعة يمينك
لشمالك ، ووطاً لك موطاً العزّ بباب كل مالك ، وقرن النّجح بأعمالك ،
وحفظك في نفسك وأهلك ومالك ، والسلام » انتهى .

٩٥ - ومن مخاطبات لسان الدين لصاحب العلامة أبي القاسم ابن رضوان :

« قد كنت أجهِدُ في التماس صنيعة نفساً شهابُ ذكائها وقادُ
وأقولُ لو كان المخاطب غيركم عِندَ الشدائد تذهبُ الأحقادُ

« سيدي ، أبقاكم الله تعالى علّم فضل وإنصاف ، ومجموع كمال أوصاف :
كلام النية قصير ، والله تعالى بحسنات الأقوال والأفعال بصير ، وإليه بعد هذا الحباط
كلّ رجعى منا ومصير ، وليس لنا إلاّ هو مولّى ونصير ، وهذا الرجل سيدي الخطيبُ

١ يكنى عن كثرة الشغل لقولهم في المثل : « أشغل من ذات النحيين » والنحي : ظرف السمن .

أبو عبد الله ابن مرزوق - جبره الله تعالى - بالأمس كنا نقف ببابه ، ونتمسك بأسبابه ، ونتوسل إلى الدنيا به ، فإن كنا قد عرفنا خيراً وجبت المشاركة ، أو كفافاً تعينت المشاركة ، أو شراً اهتبلت غرة الهدى الأنفس المباركة ، واتصفت بصفة من يُعصى فيسمح ، ويُسأل فيمنح ، ويعود إلى قبيح بالفعل الجميل ، ويُحسب يد التأمل ، ومع هذا فلم ندر إلاّ خيراً كرم منه المورد والمصرف ، ومن عرف حجة على من لا يعرف ، وأنتم في الوقت سراج علم لا يخبو سنانه ، ومجموع تخلق عرفنا منه ما عرفناه ، وهذه هي الشهرة التي تُغنم إذا سفرت ، والهنة التي تُحبر عليها النفس إذا نفرت ، حتى لا تجد بعون الله تعالى عارضاً يعوقها عن الخير ، وسبيل الكمال الأخير ، والأجر في استيفاء كتاب الشفاعة ، وتحري المقاصد النفاة ، وتنفيق البضاعة ، قد ضمنه مَنْ وَعَد بقيام الساعة ، والجزاء على الطاعة وغير الطاعة ، وهذه المشاركة تسجيل لفضلكم قبلي ، وهي في الحقيقة لي ، فكيف والله تعالى يرى عملكم وعملي ، والمتروك حقير ، والوجود إلى رحمة من رحمت الله تعالى فقير ، والسلام « انتهى .

٩٦ - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في مخاطبة شيخ العرب مبارك بن إبراهيم رحمه الله تعالى ١ :

« ساحات دارك للضياف مبارك »	وبضوء نار قِراك يَهْدِي السالك
ونوالك المبدول قد شمل الوري	طراً ، وفضلك ليس فيه مشارك
قل للذي قال الوجود قد انطوى	والبأس ليس له حسام فاتك
والجود ليس له غمام هاطل	والمجد ليس له همام باتك ٢
جمع الشجاعة والرجاحة والندی	والبأس والرأي الأصيل مبارك

١ وردت هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ١٣ - ١٥ .

٢ الباتك : القاطع .

للدن والدنيا وللشيم العُلا
عند الهياج ربيعة بن مُكَدَّم
ورث الجلالة عن أبيه وجده
فجواده للآملين مراكب
فإذا المعالي أصبحت مملوكة
يا فارس العرب الذي من بيته
يا من يُبشِّر باسمه قصَّاده
أنت الذي استأثرت فيك بغبطي
لا زلت نوراً يهتدي بضياؤه
وينخصُّ مجدك من سلامي عاطر
والجود إن شحَّ الغمامُ السافكُ
في الفضل والتقوى الفضيلُ ومالك^١
فكأنهم ما غاب منهم هالكُ
وخيامه للقاصدين أرائكُ
أعناقها بالحق فهو المالكُ
حرَّم لها حجٌّ به ومناسكُ
فلهم إليه مساربٌ ومسالكُ
وسواك فيه مأخذٌ ومتاركُ
من جنَّه للروع ليلٌ حالِكُ
كالمسك صاك به الغوالي صائك^٢

الحمد لله تعالى الذي جعل بيتك شهيراً ، وجعلك للعرب أميراً ، وجعل
اسمك فالاً ، ووجهك جمالاً ، وقربك جاهاً ومالاً ، وآل رسول الله صلى الله
عليه وسلم لك آلاً ، أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمرائها ، وقُطِبَ سيادتها
وكبرائها ، وأُهنِكَ بما منحك الله تعالى من شهرةٍ تبقى ، ومكرمةٍ لا يضلُّ
المتصفُ بها ولا يشقى ، إذ جعل خيمتك في هذا المغرب على اتساعه ، واختلاف
أشباعه ، مأمناً للخائف ، على قياس^٣ المذاهب والطوائف ، وصرف الألسنة
إلى مدحك والقلوب إلى حبك ، وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربك ، ولقد
كنت أيام تجمعني وإيتاك المجالس السلطانية على معرفتك متهاكاً ، وطوع الأمل
سالكاً ، لما يلوح لي على وجهك من سيما المجد والحياء ، والشيم الدالة على العلياء ،
وزكاء الأصول وكرم الآباء ، وكان والدي - رحمه الله تعالى - قد عينَ للقاء

١ الفضيل بن عياض ومالك بن دينار (وقد يكون : مالك بن أنس) .

٢ الغوالي : الطيوب ، مفرداً غالية ؛ صاك : خلط ومزج .

٣ الاستقصا : على كثرة .

خال السلطان قريبكم لما توجه في الرسالة إلى الأندلس نائباً في تأنيسه عن مخدومه ،
ومنوهاً حيث حلّ بقدومه ، واتصلت بعد ذلك بينهما المهاداة والمعرفة ، والوسائل
المختلفة ، فعظم لأجل هذه الوسائل شوقي إلى التشرف بزيارة ذلك الجنب الذي
حلّولُه شرف وفخر ، ومعرفته كثر وذُخِر ، فلما ظهر الآن لمحل الأخ الكذا
القائد فلان اللحاق بك ، والتعلق بسببك ، رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض
المؤمل بعضي والله تعالى يسر في البعض ، عند تقرير الأمن وهدنة الأرض ،
وهذا الفاضل بركة حيث حلّ لكونه من بيت أصالة وجهاد ، وماجداً وابن
أجداد ، ومثلك لا يُوصى بحسن جواره ، ولا يُنبه على إثارة ، وقبيلك في
الحديث - من العرب - والقديم ، وهو الذي أوجب لها مزية التقديم ، لم يفتخر
قطّ بذهب يجمع ، ولا ذخيرة يُرفع ، ولا قصر يبنى ، ولا غرس يُجنى ،
إنما فخرها عدو يُغلب ، وثناء يجلب ، وجزورٌ ينحر ، وحديث يذكر ،
وجود على الفاقة ، وسماحة بحسب الطاقة ، فلقد ذهب الذهب ، وفي النشب ،
وتمزقت الأثواب ، وهلك الخيل العراب ، وكلّ الذي فوق التراب تراب ،
وبقيت المحاسن تروى وتنقل ، والأعراض تجلى وتُصقل ، والله درُّ الشاعر
إذ يقول :

وإنما المرء حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى^١

هذه مقدمة إن يسر الله تعالى بعدها لقاء الأمير ، فيجلي اللسان عما في
الضمير :

ومدحي على الأملاك مدح ، وإنما رأيتك منها فامتدحت على وسمي
وما كنت بالمهدي لغيرك مدحتي ولو أنه قد حلّ في مفرق النجم «

١ من مقصورة ابن دريد (ص : ١١٥) .

٩٧ - ومن ذلك ما خاطب به شيخه الخطيب سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ،

وهو :

« راشَ زَمَانِي وَبَرَى نَبْلَهُ فَكُنْتَ لِي مِنْ وَقَعِهَا جُنَّةٌ
وَلَوْ قَهَرْتَ الْمَوْتَ أَمَتْنِي مِنْهُ وَأَدْخَلْتَنِي الْجَنَّةَ
فَكَيْفَ لَا أَنْشُرَهَا مِنْهُ قَدْ عَرَفْتَهَا الْإِنْسُ وَالْجِنَّةَ »

« بماذا أخطب به تلك الجلالة ، فيتيسر الخطاب وتحصل الدلالة ، أسيدي ويشركني فيه ، من قال لا إله إلا الله بفيه ؟ أو بروح حياتي ، ومقدم ماهية ذاتي ، وذخري الكبير الكثير ، لا بل فللشيء الأثير ، وهو تضيق على الولد والأهل ، وتعدي المراتب المحدودة من الجهل ، فلم يبق إلا الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان ، وهي بعض دلالات الإنسان ، أفدت الإكسير ، وجبرت الكسير ، ورويت يا أبا العلا^١ التيسير ، وغمرت بالكرم وأمن حمام الحرم الظعن والمسير ، فمن رام شكر بعض^٢ أياديك فلقد شد حقائب الرحال ، إلى نيل المحال ، والحق أن نكيل جزاك ، لمن جعل إلى المجد اعتراك ، ونولي شكرك وثناك ، إلى من عمر بما يرضيه من الرفق بالخلق وإقامة الحق إنأك ، وندعو منك بالبقاء إلى الروض المسجود ، وغمام الجود ، وإمام الرُّكع السُّجود ، لا بل لنور الله تعالى المشرق على التهائم والنُّجود ، ورحمته المبتوثة أثناء هذا الوجود .

« وليعلم سيدي أن النفس طماعة جماعة ، وسراب آمالها بحارُه لماعة ، فلا تفيق من كد ، ولا تقف عند حد ، سيّما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد ، ولم يسر منها في عالم الغيب البريد ، ولا تجلت لها السعادة التي يجذب بها المراد ويشمر لها المرید ، إلى أن يتأتى عما دون الحق المحيد ، ويصح التوحيد ،

١ ق : يا ابن العلاء .

٢ بعض : سقطت من ق .

وقد مثلت الآن خصماً ، توسعُ ظهر استظهارى بالتسليم قصماً ، وتقول :
 المال عديلي عند القيمة ، وطبيبي في الأحوال السقيمة ، وهو نتيجة كدّي عند
 الأقيسة العقيمة ، ومن استخلصني على شرفي إذا تفاضلت الجواهر ، وتبينت
 للحق المظاهر ، وتعينت المراتب التي يقتعدها على رأي البراهمة النور الاصفهندي
 والنور القاهر ، فخلاصُ المال طوعُ يديه ، وهو كما قال الله تعالى أهونُ
 عليه ، فألاطفها ، حتى تلين معاطفها ، وأخادعها ، حتى تلوي أخادعها ، وأقول :
 قد وقع الوعد ، وأشرق السعد ، ولان الجعد ، وسكن الرعد ، والله تعالى الأمر
 من قبلُ ومن بعد ، فتجيبني : العمر المنام ، وأيام الجاه والقدرة قد يحق لها
 الاغتنام ، وهمُ العاقل إلى وقته الحاضر مصروف ، و « إذا لم يغير حائطه »
 مثل معروف ، وفي الوقت زبون يرجي به استخلاصُ الحقوق ، ويُسْتَبْعَد وقوع
 العقوق ، فإن رأى مولاي أن يَشْفَعَ المنّة ، ويقرع باباً ثانياً من أبواب الجنة ،
 قبل أن يشغل شاغل ، أو يكدر الأكل والشرب وارش^١ أو واغل^١ ، أو يثوب
 للمتعدي نظر في اللجاج ، أو يُدَسَّ له ما يحمله على الاحتجاج ، — و « أو »
 متسعُ مناطها ، فسيحُ استنباطها ، كثيرُ هياطها ومياطها — فهو تمام صنيعته التي
 لم ينسج على منوالها الأحرار ، ولا اهتدت إلى حسنيتها الأبرار ، ولا عرف بدرُ
 مجدها السرار ، فإليه كان الفرار ، والله تعالى ثم له خلصَ الاضطرار ، ويستقر
 تحت دخيله القرار ، وتطمئن الدار ، فإنَّ ما ابتدأ به من عزّ ضربَ على الأيدي
 العادية منه حكمُ الحكام ، وفارع الهضاب والآكام ، على ملا ومجمع ،
 وبمرأى من الخلق ومسّمع ، يقتضي اطراد قياس الغزّة القعساء ، وسعادة
 الإصباح والإمساء ، وظهور درجات الرجال على النساء ، فهو جاهٌ حارت
 فيه الأوهام وهذه أذياله ، ومن ركب حقيقة أمرها هانَ عليه خياله ، والمال
 ماله ، والعيال عياله ، والوجود سريع زياله ، والجزاء عند الله تعالى مكياه ،

١ الوارش : المتطفل على الآكلين ؛ والواغل : المتطفل على الشاربين ؛ وفي ق : واش .

وعروض المغصوب باقية الأعيان^١ ، مستقلة الشجر قائمة البنيان ، تمنع عن شرائها قاعدة الأديان ، وغيرها من مكيل وموزون ، بين مأكول ومخزون ، والكتب ملقاة بالقاع ، مطرحة بأخبث البقاع ، فإن تأتّى الجبّر ، وإلا فالصبّر ، على أن وعدّ عمادي لا يفارق الإنجاز ، ومكرمه التي طوقها قد بلغت الشام والحجاز ، وحقيقة التزامه تباين المجاز ، وآية مجده تستصحب الإعجاز ، ولله در إبراهيم بن المهدي يخاطب المأمون ، لما أكذب في العفو عنه الظنون :

وهبت مالي ولم تبخل عليّ بهِ وقبلَ ذلك ما إن قد وهبت دمي^٢

وقد كانت هذه المنقبة غريبة فعززتها بأختها الكبرى ، وفريدة فجئت بأخرى ، وشفعت وتثرا ، أبقاك الله تعالى لتخليد المناقب ، وإعلاء المراتب ، وجعل أخص نعلك تاجاً للنجم الثاقب ، وتكفل لك في النفس والولد بحسن العواقب :

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا^٣

وأما تنبيه سيدي على إنشاء رزق ، وتقرير رفق ورفق ، فلا أنبه حاتماً وكعباً ، أن يملأ قعباً ، لمن خاض بجرأ أو ركب صعباً ، هذا أمر كفانيه الكافي ، وداء كوخز^٤ الأشافي ، أذهب الشافي ، والسلام « انتهى .

٩٨ — ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان السلطان قوله :

« هذا ظهير كريم ، مُضمّنهُ استجلاء لأُمور الرعية واستطلاع ، ورعاية

١ يشير لسان الدين هنا إلى ما أخذ منه بالأندلس ، من عروض ومكيلات وموزونات وكتب . . . إلخ ؛ ويقول إن أعيان العروض (من شجر ومبان) لا تزال شاهدة .

٢ الأغاني ١٠ : ١٢٥ وروايته : « رددت مالي ولم تمن علي به ؛ وقبل ردك مالي . . . إلخ » .

٣ انظر المجلد ١ : ١٧٥ .

٤ ق : لوخز ؛ والأشافي : جمع إشفى وهو المخرز .

كرمت منها أجناس وأنواع ، وعدل بَهَر منه شعاع ، ووصايا يجب لها إهطاع ،
أصدرناه للفقيه فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله ، رأينا أنه أحقّ مَنْ نَقْلُده
الهمّ الأكيد ، ونرمي به من أغراض البرّ الغرض البعيد ، ونستكشف به أحوال
الرعايا حتى لا يغيب عنا شيء من أحوالها ، ولا يتطرق إليها طارق من أهوالها ،
وينهي إلينا الحوادث التي تنشأ فيها إنهاء يتكفل بحياطة أبقارها وأموالها .

« وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا حاطها الله تعالى فيجمع الناس في مساجدهم ،
ويندبهم من مشاهدتهم ، ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم ، وإحساب
أموالهم ^١ ، ومكابدتنا المشقة في مداراة عدوهم الذي نعلم من أحواله ما غاب
عنهم دفعه الله تعالى بقدرته ، ووقى نفوسهم وحریمهم من مَعَرَّته ، ولما رأينا
من انبئات الأسباب التي تؤمل ، وعجز الحيل التي كانت تعمل ؛ ويستدعي
إنجادهم بالدعاء ، وإخلاصهم فيه إلى رب السماء ، ويسأل عن سيرة القواد ،
وولاية الأحكام بالبلاد ، فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه ، ويقصّها عليه ، ليلغها
إلينا ، ويوفدها مقررة الموجبات لدينا ، ويختبر ما افترض صدقة للجبل ، وما
فضل عن كريم ذلك العمل ، ليعيّن إلى بناء الحصن بجبل فارّه يسرّ الله تعالى لهم
في إتمامه ، وجعل صدقتهم تلك مسكة ختامه ، وغيره ممّا افترض إعانة
للمسافرين ، وإنجاداً للجهاد الكافرين ، فيعلم مقداره ، ويتولى اختباره ^٢ ، حتى
لا يجعل منه شيء على ضعيف ، ولا يُعدل به لمشروف عن شريف ، ولا تقع
فيه مضايقة ذي الجاه ، ولا مُخادعة غير المراقب لله ، ومتى تحقّق أن غنيّاً
قُصّر به عن حقّه ، أو ضعيفاً كلف منه فوق طوّقه ، فيجبر ^٣ الفقير من الغني ،

١ ق : آمالهم .

٢ ق : اختياره .

٣ ق : فيجبر .

وَيَجْرِي مِنَ الْعَدْلِ عَلَى السَّيِّئِ السَّوِي ، وَيَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّ هَذِهِ الْمَعُونَةُ ^١ وَإِنْ كَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَحَلِّ ضَرُورَتِهَا يَسِيرَةً ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَضَاعِفُهَا لَهُمْ أضعافاً كَثِيرَةً ، فَلَيْسَتْ مِمَّا يُلْزَمُ ، وَلَا مِنَ الْمَعَاوِنِ الَّتِي بَتَكَرَّرِهَا يُجْزَمُ ؛ وَيَنْظُرُ فِي عَهْدِ التَّوْفِيقِ فَيَصْرِفُهَا فِي مَصَارِفِهَا الْمُبَيَّنَةِ ، وَطَرَفِهَا الْوَاضِحَةِ الْبَيِّنَةِ .

« وَيَتَفَقَّدُ الْمَسَاجِدَ تَفَقُّدًا يَكْسُو عَارِيهَا ، وَيَتِمُّ مِنْهَا الْمَآرِبُ تَتِمِّمًا يُرْضَى بَارِيهَا ، وَيَنْدُبُ النَّاسَ إِلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لَصَبِيَانِهِمْ ، فَذَلِكَ أَصْلُ أَدْيَانِهِمْ ، وَيَحْذَرُهُمُ الْمَغِيبَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَعْشَارِهِمْ ، فَالزَّكَاةُ أُخْتُ الصَّلَاةِ وَهُمَا مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ بِأَقْصَى الْجِدِّ وَالْإِعْتِرَافِ ، وَرَفَعْنَا عَنْهُمْ رِسْمَ التَّعْرِيفِ نَظْرًا إِلَيْهِمْ بَعَيْنَ الْإِهْتِمَامِ ، وَقَدَمْنَا الثَّقَاتَ لِهَذِهِ الْأَحْكَامِ ، وَجَعَلْنَا الْحَرَصَ ^٢ شَرْعِيًّا فِي هَذَا الْعَامِ ، وَفِيمَا بَعْدَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَعْوَامِ .

« وَمَنْ أَهَمُّ مَا أَسْنَدْنَاهُ إِلَيْهِ ، وَعَوَّلْنَا فِيهِ عَلَيْهِ ، الْبَحْثُ بِتِلْكَ الْأَحْوَازِ عَنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَالسَّائِرِينَ مِنَ السَّبِيلِ عَلَى غَيْرِ السَّوَاءِ ، وَمَنْ يُنْبِزُ بِفُسَادِ الْعَقْدِ ، وَتَحْرِيفِ الْقَصْدِ ، وَالتَّلْبِسِ بِالصُّوفِيَّةِ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مِنْ أَهْلِ الْفُسَادِ ، وَالذَّاهِبِينَ إِلَى الْإِبَاحَةِ وَتَأْوِيلِ الْمَعَادِ ، وَالْمُؤَلِّفِينَ بَيْنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ ، وَالْمَتَّبِعِينَ لِمَذَاهِبِ الضَّلَالِ ، فَهُمَا عَثْرٌ عَلَى مُطَوَّقٍ بِالتَّهْمَةِ ، مَنْبِزٌ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَلْيَشُدِّ ثِقَافَهُ شَدًّا ، وَيَسُدِّ عَنْهُ سَبِيلَ الْخِلَاصِ سَدًّا ، وَيَسْتَرِعِي فِي شَأْنِهِ الْمَوْجِبَاتِ ، وَيَسْتَوْعِبِ الشَّهَادَاتِ ، حَتَّى يَنْظُرَ فِي حَسْمِ دَائِهِ ، وَيَعَاجِلِ الْمَرَضَ بِدَوَائِهِ ، فَلْيَتَوَلَّ مَا ذَكَرْنَا نَائِبًا بِأَحْسَنِ الْمَنَابِ ، وَيَقْصِدِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى رَاجِيًّا مِنْهُ جَزِيلَ الثَّوَابِ ، وَيَعْمَلْ عَمَلًا مَنْ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا لِيَجِدَ ذَلِكَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ .

« وَعَلَى مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوَادِ وَالْأَشْيَاخِ وَالْحُكَّامِ أَنْ يَكُونُوا مَعَهُ يَدًا وَاحِدَةً

١ المعونة : الضريبة ، والجمع معاون .

٢ الحرص : تخمين الكرم والنخيل خاصة ؛ وفي ق : الحرص .

على ما حررنا في هذه الفصول ، من العمل المقبول ، والعدل المبذول ، ومن قصر
عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضى من مقتضياته ، فعقابه عقاب من عصي
أمر الله وأمرنا فلا يلم إلا نفسه التي غرته ، وإلى مصرع النكير جرته ، والله
تعالى المستعان » انتهى .

٩٩ - ومن ذلك ما خاطب به تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني لما
قصدها عقب ما شرع في جواره وتوسل إلى أغراضه بذلك إلى ولده رحم الله
تعالى الجميع :

« السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذي عرف فضله الإسلام ،
وأوجبت حقه العلماء الأعلام ، وخفقت بجز نصره الأعلام ، وتنافست في
إنفاذ أمره ونهيه السيوف والأقلام . السلام عليك أيها المولى الذي قسم زمانه
بين حكم فصل ، وإمضاء نصل ، وإحراز خصل ، وعبادة قامت من اليقين على
أصل . السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية ، ومُشبع البطون الجائعة وكاسي
الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارية ، ومُكْتَب الكتاب الغازية
في سبيل الله تعالى والسرايا السارية . السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم ،
وملتقى أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم ، ومُفَوَّض الأمر في الشدائد
إلى السميع العليم ، ومُعْمَل البنان الطاهر في اكتاب الذكر الحكيم . كرم الله
تعالى تربتك وقدسها ، وطيب روحك الزكية وآنسها ، فلقد كنت للدهر جمالاً ،
وللإسلام ثمالاً ، وللمستجير مجيراً ، وللمظلوم ولياً ونصيراً ؛ لقد كنت للمحارب
صدراً ، وفي المواكب بدرأ ، وللمواهب بحرأ ، وعلى العباد والبلاد ظلاً ظليلاً
وستراً ؛ لقد فرعت أعلام عزك الثنايا ، وأجزلت همتك لملوك الأرض الهدايا .
كأنك لم تعرض الجنود ، ولم تنشر البنود ، ولم تبسط العدل المحدود ، ولم توجد
الجود ، ولم تزين الرُكَّع السُّجود ، فتوسدت الثرى ، وأطلت الكرى ، وشربت
الكأس التي يشربها الورى ، وأصبحت ضارع الحد ، كليل الحد ،

سالكاً سنن الأب والجد ، لم تجد بعد انصرام أجلك ، إلا صالح عملك ، ولا أصبحت لقبرك ، إلا رابع تجرك ، وما أسلفت من رضاك وصبرك ، فנסأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك ، ويَجُودَ بسحاب الرحمة ترابك ، وينفعك بصدق اليقين ، ويجعلك من الأئمة المتقين ، ويعلي درجتك في عليين ، ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين .

« وَلِيَهْنِكَ أَنْ صَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَلِكًا مِنْ بَعْدِكَ ، إِلَى نِيرِ سَعْدِكَ ، وَبَارِقِ رَعْدِكَ ، وَمَنْجَزِ وَعْدِكَ ، أَرْضَى وَلَدَكَ ، وَرِيحَانَةَ خَلْدِكَ ، وَشَقَّةَ نَفْسِكَ ، وَالسَّرْحَةَ الْمُبَارَكَةَ مِنْ غَرْسِكَ ، وَنُورَ شَمْسِكَ ، وَمَوْصِلَ عَمَلِكَ الْبَرِّ إِلَى رَمْسِكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ دَعْوَاتِكَ ، فِي خُلُوتِكَ وَأَعْقَابِ صَلَوَاتِكَ ، فَكَلِمَتِكَ وَالْمَنَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى بَاقِيَةٌ ، وَحَسَنَتِكَ إِلَى مَحَلِّ الْقَبُولِ رَاقِيَةٌ ، يَرَعَى بِكَ الْوَسِيلَةَ ، وَيَتِمُّ مَقَاصِدَكَ الْجَمِيلَةَ ، أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبَرَكَةِ رِضَاكَ عَلَى مَا قَلَدَهُ ، وَعَمَرَ بِتَقْوَاهُ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَأَبْعَدَ فِي السَّعْدِ أَمَدَهُ ، وَأَطْلَقَ بِالْخَيْرِ يَدَهُ ، وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَنْصَارَهُ وَالْأَقْدَارَ عُدَدَهُ .

« وَلَئِنِّي أَيْتَاهَا الْمَوْلَى الْكَرِيمَ ، الْبَرَّ الرَّحِيمَ ، لَمَا اشْتَرَانِي ، وَرَاشَنِي وَبَرَانِي ، وَتَعَبَدَنِي بِإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي اسْتِخْلَاصِي خُطْبَانَهُ ، وَوَصِيَّةَ لِسَانِهِ ، لَمْ أَجِدْ مَكَافَأَةً إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَيْكَ وَإِلَيْهِ بَرَثَائِكَ ، وَإِغْرَاءَ لِسَانِي بِتَخْلِيدِ عَلَيَّائِكَ ، وَتَعْفِيرِ الْوَجْنَةِ فِي حَرَمِكَ ، وَالْإِشَادَةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ بِمَجْدِكَ وَكَرَمِكَ ، فَفَتَحْتَ الْبَابَ فِي هَذَا الْغَرَضِ ، إِلَى الْقِيَامِ بِحَقِّكَ الْمَفْتَرَضِ ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَا تَصِلُ الْغَفْلَةُ عَنْ أَدَائِهِ وَتَمَادَتْ ، فَمَا يَبْسُتُ الْأَلْسُنُ وَلَا كَادَتْ ، مُتَحِيزَةً بِالسَّبْقِ ، إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْحَقِّ ، بَادِئًا بِزِيَارَةِ قَبْرِكَ الَّذِي هُوَ رَحْلَةُ الْغَرْبِ مَا نَوَيْتَهُ مِنْ رَحْلَةِ الشَّرْقِ ، وَمَا أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَأَقْطَعَهُ أَثَرُ مَوَاقِعِ الْإِسْتِحْسَانِ ، وَقَدْ جُمِعَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالتَّنْوِيهِ وَالْإِحْسَانِ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ عَمَلًا مَقْبُولًا ، وَيَبْلُغُ فِيهِ مِنَ الْقَبُولِ مَأْمُولًا ، وَيَتَغَمَّدَ مَنْ ضَاجَعْتَهُ مِنْ سَلَفِكَ الْكِرَامِ بِالْمَغْفِرَةِ الصَّيِّبَةِ ، وَالتَّحِيَّاتِ الطَّيِّبَةِ ، فَنَعْمَ الْمُلُوكُ الْكِبَارُ ،

والخلفاء الأبرار ، والأئمة الأخيار ، الذين كرمت منهم السيّر وحسنت الأخبار ،
وسعد بعزماهم الجهادية المؤمنون وشقي الكفار ، وصلوات الله تعالى عوداً
وبدءاً على الرسول الذي اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار ، وعلى آله
وأصحابه الذين هم السادة الأبرار ، وسلم تسليماً » انتهى .

١٠٠ — وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ومما خاطبت به الوزير المتغلب
على الملك بالمغرب ما نصّه :

« لا ترجُ إلاّ اللهَ في شدّةٍ وثيقٌ بهِ فهو الذي أيّدكُ
حاشاك أن ترجو إلاّ الذي في ظلمةِ الأحشاء قد أوجدك
فاشكره بالرحمةِ في خلقه ووجهك ابسط بالرضى أويّدك
واللهُ لا تُهملُ الطّافهُ قلادةَ الحقّ الذي قلّدك
ما أسعدَ الملكَ الذي سُسّتهُ يا عمرَ العدلِ ، وما أسعدك

« نخص الوزير الذي بهر سعده ، وحُمد في المضاء قصده ، وعول على الشيم
التي اقتضاها مجده ، وأورثه إياها أبوه وجدّه ، الوزير عمر الكذا ابن الشيخ الكذا ،
أبقاه الله تعالى ثابت القَدَم ، خافق العَلَم ، شهيراً حديثُ سعده في الأمم ، مثلاً
خبرُ بسالته وجلالته في العرب والعجم .

« تحيةٌ معظّم مجده الكبير ، المستند إلى عهده الوثيق وحسبه الشهير ، المسرور
بما سنّاه الله تعالى له من نُجحِ التدبير ، والنصر العديم النظر ، وإنجاده إيتاه
عند إسلام النصير ، وفراق القبيل والعشير ، ابن الخطيب ، واليدُ ممدودة إلى
الله تعالى في صلّة سعد الوزير — أبقاه الله تعالى — ودوام عصمته ، واللسان يطنب
ويسهب في شكر نعمته ، والأمل متعلّق بأسبابه الكريمة وأذيمته ، وقد كان
شيعه مع الشفقة التي أذابت الفؤاد ، وألزمت الأرق والسهاد ، على علم بأن
عناية الله تعالى عليه عاكفة ، وديم آلائه لديه واكفة ، فإن الذي أقدره وأيده

ونصره ، وأنفذت مشيئته ما دبّره ، كفيل بإمداده ، ومليّ بإسعاده ، ومرّجُوّ لإصلاح دنياه ومَعاده ، وفي أثناء هذه الأراجيف استولى على معظم وزارته الجَزَع ، وتعاورته الأفكار تأخذ وتدَع ، فإنّي كما يعلم الوزير أعزّه الله تعالى منقطع الأسباب ، مستوحش من الجهة الأندلسية على بُعد الجَناب ، ومستعدّي عليّ بكوني من المعدودين فيمن له من الخِصان والأحباب ، فشرعت في نظَرٍ أحصل منه على زوال اللبّس ، وأمان النفس ، واللحاق بمأمن يرعاني برعي الوزير ، بخلال ما يدبر الأمر منّ له التدبير ، ففي أثنائه ، وتمهيد أساس بنائه ، ورَدَ البشير بما سنّاه الله تعالى لسيدي وجابر كسري ، ومنصفي بفضل الله تعالى من دهري ، من الصنع الذي ظهر ، وراق نوره وبهر ، فأمنت وإن لم أكن ممّن جئني ، وحفتني المسرات بين فرادى وثئني ، وانشرح بفضل الله تعالى صدري ، وزارتي النعم والتهاني من حيث أدري ولا أدري ، ووجهت الولد الذي شملته نعمة الوزير وإحسانه ، وسبق إليه امتنانه ، نائباً عني في تقبيل يده وشكر يده ، والوقوف ببابه ، والتمسك بأسبابه ، أثرته بذلك لأمر : منها المزاولة فيما كان يلزمني من إخوته الأصاغر ، وتدريبه على خدمة الجلال الباهر ، وإفرادي له بالبركة ، ولعائق ضعف عن الحركة ، وبعد ذلك أشرع بفضل الله تعالى في العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العلية ، عارضاً من ثنائها ما يكون وفق الأمنية ، ورُبَّ عمل أغنى عنه فضل نية ، والسلام الكريم على سيدي ورحمة الله تعالى وبركاته .

١٠١ - قال : وكتبت إليه أيضاً على أثر الفتح الذي تكيف له :

« سيدي الذي أسرّ بسعادته ، وظهور عناية الله تعالى به في إبدائه وإعادته ، وأعلم كرم مَجادته ، وأعترف بسيادته ، الوزير الميمون الطائر ، الجاري حديثُ سعده ومَضائيه مجرى المثل السائر ، أبقاه الله تعالى عزيز الأنصار ، جارية يمين نقيبته حركة الفلك الدوّار ، معصوماً من المكاره بعصمة الواحد القهار ،

معظمُ سيادته الرفيعة الجانب ، وموقر وزارته الشهيرة المناسب ، الداعي إلى الله تعالى بطول بقائه في عزّ واضح المذهب ، وصنع واكف السحاب ، ابن الخطيب ، عن الذي يعلم سيدي من لسان طلق بالثناء ، ويد ممدودة إلى الله تعالى بالدعاء ، والتماس لما يعدُّ من جزيل النعماء ، والفتح الذي تفتح له أبواب السماء ، وقد اتصل ما سنّاه الله تعالى له من النصر والظهور ، والصنع البادي السفور ، لما التقى الجمعان ، وتهوديت أكواس الطعان ، وتبين الشجاع من الجبان ، وظهر من كرات سيدي وبسالته ما تحدث به ألسنة الركبان ، حتى كانت الطائفة لحزبه ، وظهرت عليه عناية ربه ، فقلت : الحمد لله الذي جعل سعد عمادي متّصل الآيات ، واضح الغرر والشّيات . وقد كنت بعثت أهنته بما قدم من صنع جميل ، وبلوغ تأميل ، فقلت : اللهم أقد علينا التهاني تتّرى ، واجعل الكبرى من نعمتك السالفة بنعمتك الرادفة الخالفة هي الصغرى ، واجمع له بين نعم الدنيا والأخرى ، والناس - أبقى الله تعالى سيدي - لهم مع الاستناد إليك جهات ، وأمور مشتبهات ، إلا المحب المتشيع فجهتك هي التي آنست الغربة ، وفرّجت الكربة ، ووعدت بالخير ، وضمنت عاقبة الضير ، وأنا أرتقب ورود التعريف المولوي على عبيده بهذه المدينة وأصل إن شاء الله تعالى لمباشرة الهناء ، وقرّة العين بمشاهدة الآلاء ؛ والله عزّ وجلّ يديم سعادة سيدي ويطيل بقاءه ، ويرادف قبلكه نعمه وآلاءه ، بفضلّه » انتهى .

١٠٢ - وقال : ومما خاطبت به المذكور وأنا ساكن بسلا :

« أيا عُمَرَ العدل الذي مَطَّلَ المدى	بوعدي الهدى حتى وفيت بدَيْته
ويا صارمَ الملك الذي يستعدّه	لدفع عِداه أو لمجلس زينه
هَنَّتْ عينُكَ اليقظي من الله عصمة	كفت وجه دين الله موقع شينه
وهل أنت إلا الملك والدين والدُّنا	ولا يلبس الحق المبين بمِئنه
إذا نال منك العين ضرٌّ فإنما	أصيب به الإسلام في عين عينه

« الوزير الذي هو للدين الوزر الواقى ، والعلم السامى المراقب والمراقى ،
والحلى المقلد فوق الترائب والتراقي ، والكنز المؤمل والذخر الباقي ، حجب الله
تعالى العيون عن عين كمالك ، وصير الفلك الدوار مطية آمالك ، وجعل اتفاق
اليمن مقروناً بيمينك ، وانتظام الشمل معقوداً بشمالك .

« اعلم أن مطلق لسان الثناء على مجدك ، والمستضيء على البعد بنور سعدك ،
ومعقود الرجاء بعروة وعدك ، لا يزال في كل ساعة يسحبُ الفلك فيه ذيلها ،
ويعاقب يومها وليلها ، مُصْغى الأذن إلى نيل يهدي عنك لله تعالى دفاعاً ، أو يمد
في ميدان سعدك باعاً ، وأنت اليوم النصير على الدهر الظلوم ، وآسى الكلوم ،
وذو المقام المعلوم ، فتعرفت أن بعض ما يتلاعب به بين أيدي السادة الخدام ،
وتتفككه به المشاقفة والأفدام^١ ، من كرة مرسله الشهاب ، أو نارنجة ظهر عليها
من اسمها صبغة الالتهاب ، حومت حول عينك لا كدّر صفاؤها ، ولا هُدم
فوق مهاد الدعة والأمن إغفاؤها ، فرعت حول حماها ، ورامت أن تصيب فخب
الله تعالى مرماها :

نرى السوء مما نتقي فنهاه^٢ وما لا نرى مما بقي الله أكثر^٣

« فقلت : مكروه أخطأ سَهْمُهُ ، وتنبيه من الله تعالى لمن نبل عقله وفهمه ،
ودفاع قام دليله ، وسعد أشرق جليله ، وأيام أعربت عن إقبالها ، وعصمة
غطت بسربالها ، وجوارح جعل الله تعالى الملائكة تحرسها ، فلا تغتالها الحوادث
ولا تفترسها ، والفطن يشعر بالشيء وإن جهل أسبابه ، والصوفي يسمع من
الكون جوابه ، فبادرت أهنته تهنته من يرى تلك الجوارح الكريمة أعز عليه
من جوارحه ، ويرسل طير الشكر لله تعالى في مساقط اللطف الخفي ومسارحه ،

١ المشاقفة : أهل الثقافة أي الذين يصارعون الحيوانات المتوحشة ؛ والأفدام : الحمقى .

٢ مر هذا البيت وقصته بين الأمير عبد الرحمن ووزيره الزجاجي في المجلد ٣ ص : ٦١٣ ، ٥٣٩ .

وسأله سبحانه أن يجعلك عن النوائب حِجْراً^١ لا يُقرب ، وربك ربّعا لا
 يخرب ، ما سَبَّحَ الحوتُ ودبَّ العقرب ، ثم إنني شفعت الهناء ووترته ،
 وأظهرت السرور فما سترته ، بما سنّاه لتدبيرك من مسألة تكذبُ الإرجاف ،
 وتغني عن الإيجاف ، وتخصب للابل العجاف ، وتريح من كيد ، وتفرغ
 إلى مجادلة عمرو وزيد ، وكأنني بسعدك قد سدّك الأمان ، وعدل الزمان ،
 وأصلح الفاسد ، ونفق الكاسد ، وقهر الروع المستاسد ، وسرّ الحبيب وساء
 الحاسد ، والسلام » انتهى .

١٠٣ - ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به الرئيس عامر
 ابن محمد بن علي الهنتاتي معزياً له عن أخيه عبد العزيز :

«أبا ثابت كن في الشدائد ثابتا	أعيدك أن يُلْفَى حُودُكَ شامتا
عزاؤك عن عبد العزيز هو الذي	يليقُ بعزّ منك أعجزَ ناعتا
فدوحتك الغناء طالت ذوائبا	وسرحتك السماء طابت منابتا
لقد هدّ أركان الوجود مُصابه	وأنطق منه الشجور من كان صامتا
فمن نفس حرّ أوثق الحزن كظمها	ومن نفس بالوجد أصبح خافتا
هو الموت للإنسان فصل لحدّه	وكيف ترجي أن تصاحب مائتا
وللصبر أولى أن يكون رجوعنا	إذا لم نكن بالحزن نرجع فائتا

«اتصل بي أيها الهمام ، وبدر المجد الذي لا يفارقه التمام ، ما جنته على
 عليائك الأيام ، واقتنصه مُحَلِّق الردى بعد أن طال الحيام ، وما استأثر به
 الحِمام ، فلم يغن الدفاع ولا نفع الذّمام ، من وفاة صنوك الكريم الصفات ،
 وهلاك وَسْطَى الأسلاك ، وبدر الأحلاك ، ومجير الأملاك ، وذهاب السّمح
 الوهّاب ، وأنا لديغُ صِلّ الفراق ، الذي لا يفيق بألف راق ، وجريح سَهْم

١ الحجر : المنوع المحمي .

البين ، ومُجاري العيون الحارية بدمع العين ، لفقد أنيس سهّل عليّ مَضَض النكبة ،
 ونحّي ليث الخطب عن فريستي بعد صدق الوثبة ، وآتسني في الاغتراب ،
 وصحبني إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغري خير الكفالة ، وعاملني من حسن
 العشرة بما سجّل عقد الوكالة ، انتزعه الدهر من يدي حيث لا أهل ولا وطن ،
 والاغترابُ قد ألقى بعطن ، وذات اليدِ يعلم حالها من يعلم ما ظهر وما بطن ،
 ورأيت من تطارح الأصاغر على شِلُو الغريب ، النازح عن النسيب والقريب ،
 ما حملني على أن جعلت البيت له ضريحاً ، ومدفناً صريحاً ، لأخدع من يرى
 أنه لم يزل مقيماً لديه ، وأن ظلّ شفقتَه منسحبٌ عليه ، فأعيا مصابي عند ذلك
 القرح ، وأعظم الظمأ البرح ، ونكأ القرح القرح ، إذ كان ركناً قد بنته لي يد
 معرفتك ، ومتصفاً في البرّ بي والرعي لصاغتني بكريم صفتك ، فوالهفا عليه من
 حسام ، وعز سام ، وأيادٍ جسام ، وشهرة بين بني حام وسام ، أيُّ جمالٍ خلّق ،
 ووجه للقاصد طلّق ، وشيم تطمح للمعالي بحق ، وأي عضد لك يا سيدي الأعلى
 لا يَهِنُ إذا سطا ، ولا يقهقر إذا خطا ، يوجب لك على تحليه بالشبية ، ما توجهه
 البُنُوّة من الهيبة ، ويرد ضيفك آمناً من الخيبة ، ويسد ثغرك عند الغيبة ، ذهبت
 إلى الجزع فرأيت مُصابه أكبر ، ودعوت بالصبر فولّى وأدبر ، واستنجدتُ
 الدمع فنضب ، واستصرخت الرجاء فأنكر ما روى واقتضب ، وبأي حزن يُلْقَى
 عبد العزيز وقد جلّ فقده ، أو يطفأ لاجعه وقد عظم وقّده ، اللهم لو بكى
 بندي أياديه ، أو بغمائم غواديه ، أو بعُباب واديه ، وهي الأيتام أي شامخ
 لم تهْدَه ، أو جديد لم تُبْلِه وإن طالت المدة ؟ فرقت بين التيجان والمفارق ،
 والحدود والنمارق ، والطلّي والعقود ، والكأس وابنة العنقود ، فما التعلّل بالفان ،
 وإنّما هي إغفاءة أجفان ، والتشبث بالحبائل ، وإنّما هو ظلٌّ زائل ؟ والصبر على
 المصائب ، ووقوع سهمها الصائب ، أولى ما اعتمد طلاباً ، ورجع إليه طوعاً
 أو غلاباً ، فأنا يا سيدي أقيمُ رسم التعزية ، وإن بُؤتُ بمضاعفٍ المرزية ، ولا
 عتب على القَدَر ، في الورْد من الأمر والصدّر ، ولولا أن هذا الواقع ممّا لا

يجدي فيه الخُلصان ، ولا يغني فيه السّراع ولا الحرصان ، لأبلى جهده من
أقرضتموه معروفاً ، وكان بالتشيع إلى تلك الهضبة معروفاً ، لكنها سوقٌ لا
ينفقُ فيها إلا سلعة التسليم ، للحكيم العليم ، وطَيّ الجوانح على المضض الأليم ،
ولعمري لقد خلدت لهذا الفقيد وإن طمس الحِمام محاسنه الوضاحة ، لما كبس
منه الساحة ، صحفاً منشرة ، وثغوراً بالحمد موثّرة ، يفخر بها بنوّه ،
ويستكثر بها مكتسبو الحمد ومُقْتَنُوهُ ، وأنتم عماد البازة ، وعلم المفازة ،
وقطب المدار ، وعامر الدار ، وأسد الأجمة ، وبطل الكتيبة الملجمة ، وكافل
البيت ، والستر على الحي والميت ، ومثلك لا يُهدى إلى نهجٍ لاحب ، ولا
ترشده نار الجباحب ، ولا ينبه على سنن نبيّ كريم أو صاحب ، قدرُك أعلى ،
وفضلك أجلى ، وأنت صدر الزمان بلا مدافع ، وخير مُعلٍ لأعلام الفضل
ورافع ، وأنا وإن أخرت فرض بيعتك لما خَصّني من المصاب ، ونالني من
الأوصاب ، ونزل بي من جور الزمان الغصّاب ، ممن يقبل عُذْرَهُ الكرم ،
ويسعه الحرم المحترم ، والله سبحانه الكفيل لسيدي وعمادي ببقاء يكفل به الأبناء
وأبناء الأبناء ، ويعلي لقومه رُتَبَ العزّ سامية البناء ، حتى لا يوحش مكان فقيد
مع وجوده ، ولا يحسّ بعضٌ زمانٍ مع جوده ، ويقر عينه في ولده وولد
ولده ، ويجعل أيدي مُناويه تحت يده ، والسلام .

١٠٤ — وخاطبه لسانُ الدين أيضاً بما نصّه :

« سيدي الذي هو رجل المغرب كله ، والمجمعُ على طهارة بيته وزكاء أصله ،
علم أهل المجد والدين ، وبقية كبار الموحدين .
« بعدَ السلام الذي يجب لتلك الجلالة الراسخة القواعد ، السامية المصاعد ،
والدعاء لله أن يفتح لك في مضيقات هذه الأحوال مسالك التوفيق ، ويمسكك
من عصمته بالسبب الوثيق ، أعرفك أن جبلك اليوم وقد عظم الرَّجَفَان ، وفاض
التور وطفى الطوفان ، تؤمل النفوسُ الغرقى جُودِيَّ جوده ، وتغبط غاية

الاغتراب بوجوده . والله لولا العلائق التي يجب لها الالتزام ، ما وقع على غير قصدك الاعتزام ، والله تعالى يمدك بإعانتة على تحمل القُصَّاد ، ويبقي محلك رفيع العماد كثير الرماد ، ويجعل أبا يحيى خلفاً منك بعد عمر النهاية البعيد الآماد ، ويبقي كلمة التوحيد فيكم إلى يوم التناد . وحامله القائد الكذا معروف النباهة والجهاد ، ومحلّه لا ينكر في الفؤاد ، لما اشتبهت السبل ، والتبس القول والعمل ، لم يجد أنجي من الركون إلى جنابك ، والتمسك بأسبابك ، والانتظام في جملة خواصك وأحبابك ، حتى ينبج الصبح ، ويظهر النُّجج ، ويعظم المنح ، ويكون بعد هجرته الفتح ، ومثلُكم من قُصِدَ وأُمِّلَ ، وأنْضِيَ إليه المطيِّ وأُعْمِلَ ، وأما الذي عندي من القيام بحق تلك الذات الشريفة ، والقول بمناقبتها المنيفة ، فهو شيء لا تفي به العبارة ، ولا تؤديه الألفاظ المستعارة ، والله تعالى المسؤول في صلة عز سيدي ودوام سعده ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

١٠٥ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ومما خاطبتُ به شيخ الدولة - وقد استقل من مرض - ما نصّه :

« لا أعدم الله دار الملك منك سنّاً يجلى به الحالكان الظلم والظلم وأنشدتك الليالي وهي صادقة » المجد عوفي إذ عوفيت والكرم^١ »

« مَنْ علم - أعلى الله تعالى قدرك - أن المجد جواد حُلاك شِيائنه ، لا بل الملك بدر أنت آياته ، لا بل الإسلامُ جسمٌ أنت حياته ، دعا منك بالبقاء لمجد يروق بك جبينه ، ومُلكٌ تنيره وتزينه ، ولدين تعامل الله تعالى بإعرازه وتدنيه ، فلقد ألت نفوس المؤمنين لآلامك ، ووجم الإسلام لتوقع إسلامك ، وخفقت الأعلام لتأخر إطفائك بمصالح الملك وإعلامك ، فإنما أنامل الدين والدنيا متشبهة بأذيال أيامك ، ورحال الأمل مخيمة بين حلالك وخيامك ،

١ صدر بيت للمتنبى ، وعجزه « وزال عنك إلى أعدائك الألم » .

فإذا قابلت الأشرافُ نِعَمَ الله تعالى بشكر ، ورمت الغفلة عن ذلك بنكر ، فاشكره
 جلَّ وعلا بملء لسانك وجنانك ، واجرٍ في ميدان حمده مطلقاً من عنانك ، على
 ما طوّقك من استرقاق حرّ ، وإفاضة أيادي غرّ ، واقتناء عسجدٍ من الحمد
 ودرّ ، وإتاحة نفعٍ ودفعٍ ضرّ ، وإدالة حلوٍ من مرّ ، وكنّ على ثقةٍ من مدافعةٍ
 الله تعالى عن حماك ، وعزّ تبلغ ذوائبه السّماك ، ورزق يحره فألّ متماك ،
 ودونك مجلسَ الإمامة فقدّ تديره بزمامك ، وحُظوة الخلافة فاستحقّها
 بوسائك القديمة وذمامك ، ومحاسن الدولة فاجلّها على منصة إمامك ، ورسوم
 البر فأغرّ بها عينَ اهتمامك ، وذروة المنبر فأمضِ بها ظُبّة حسامك ، وأجنّ
 الآملين زهرَ الأيادي البيض من كمائم أكمامك ، فيا عز دولة بك - يا جملة
 الكمال - قد استظهرت ، وأذلت المعاند وقهرت ، وبإعمال آرائك اشتهرت ،
 فراقت فضائلها وبهّرت : جزالةٌ كما شقّ الجوّ جارح ، ولطافةٌ كما طارح
 نغمَ التّأليفِ مطارح ، وفكر في الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم والعدل
 شارح ، ومكارم محت آثار الكرماء ونسخت ، وحتّت عقود أخبار الأجواد
 في الأعصار وفستخت ، فلم تدع لفضل الفضل ذكراً ، وتركت معروف
 يحيى بن خالد نكراً ، لا بل لم يبق لكعب ، من علو كعب ، وأنست دعوة
 حاتم ، بأيّ ماحٍ وخاتم ، قُصاره شيءٌ حوّار ، ومنع حوار ، وعقرُ ناب ،
 عند اقشعرار جناب ، وأين يقع من كبر قدّر ترفع عن الكبر ، وجودٍ خضّب
 الأيدي بحناء التبر ، وعزّ استخدم الأسلَ الطّوال ييراع أقلّ من الشبر ،
 وحقن الدماء المُرّاة بإراقة نجيع الخبر ، وفكّ العقال ، ورفع النّوب الثقال ،
 وراعَ الذرّة والمثقال ، وعشّر الزمان فأقال ، ووجد لسان الصدق فقال .
 «أقسمُ ببارئ النّسم ، وهو أبرُّ القسَم ، ما فازت بمثلك الدول ، ولا ظفرت
 بمثلك الملوك الأواخر والأول ، ولو تقدّمت لم يُضربْ إلاّ بك المثل ، ولم
 يقع إلا على سنّتك وكتابك والإجماع المنعقد على آدابك العمل ، والمملوك لما شام
 مالكة برّق العافية ، وتدرّع بالألطف الخافية ، كتب مبشراً بالهناء ، ومذيعاً

ما يجبُ من الحمد والثناء ، وشاكراً ما له بوجوده من الاعتناء ، فقد باذر ركن الدين بالبناء ، وأبقى الستر والمنّة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك ، ووسطى السلوك ، وسُلالة أرباب المقامات والسلوك ، ويبقيك وحصّة الصحة وافرة ، وغُرّة الغرة القعساء سافرة ، وغادة عادة السعادة غير نافرة ، وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غائمة ظافرة ، ما زحفت للصباح شهب المواكب ، وتفتحت بشطّ نهر المجرة أزهار الكواكب ، والسلام « انتهى .

١٠٦ — ومن ذلك ما خاطب به سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ، جواباً عن كتابه ، وقد استقر خطيب السلطان بتونس :

« ولما أن نأت منكم ديارٌ وحالَ البعدُ بينكمُ وبينِي
بعثتُ لكم سواداً في بياضٍ لأنظركم بشيءٍ مثل عيني

» بم أفاتحك يا سيدي ، وأجلّ عُددي ؟ [كيف أهدي] سلاماً ، فلا أحذر ملاماً ؟ أو أنتخبُ لك كلاماً ، فلا أجد لتبعية التقصير في حقك الكبير إيلاماً ؟ إن قلت : تحية كسرى في الثناء وتبّع ، فكلمة في مرتع العجمة تربع ، ولها المصيف فيه والمربع ، والحميم والمنبع ، فتروى متى شاءت وتشبع ، وإن قلت : إذا العارض خطر ، ومهما همى أو قطر ، سلام الله يا مطر^١ ، فهو في الشريعة بطر ، وركبة خطر ، ولا يرعى به وطن ولا يقضى به وطر ، وإنما العرق الأوشج ، ولا يستوي البان والبنفسج ، والغوسج والعرفج :

سلام وتسليم وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج^٢

١ من قول الشاعر :

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

٢ البيت لابن الرومي من قصيدته في رثاء يحيى بن عمر العلوي ومطلعها :

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

والسجسج : البرود .

«وما كان فضلك ليمنعي الكفرانُ أن أشكره ، ولا لينسني الشيطانُ أن أذكره ، فأتخذ في البحر سبباً^١ ، أو أسلك غير الوفاء مذهباً ، تأبى ذلك - والمنّة لله تعالى - طباع ، لها في مجال الرّعي باع ، وتحقيق وإشباع ، وسوائهم من الإنصاف ، ترعى في رياض الاعتراف ، فلا يطرّقها ارتباع ، ولا تخيفها سباع ، وكيف نجحد تلك الحقوق وهي شمسُ ظهيرة ، وأذان عقيرة^٢ جهيرة ، فوق مثذنة شهيرة ، آدت الأكتاد لها ديون تستغرقُ الدّم ، وتسرقُ حتى الرّم ، فإن قضيت في الحياة فهي الخطّة التي نرتضيها ، ولا نقنع من عامل الدهر المساعد إلا أن ينفذ مراسمها ويُمضيها ، وإن قُطع الأجل فالغني الحميد - من خزائنه التي لا تبید - يقضيها ، ويرضي من يقتضيها . وحيّا الله تعالى أيها العلم السامي الجلال ، زمناً بمعرفتكَ المبرة على الآمال ، برّاً وأتخف ، وإن أساء بفراقك وأجحف ، وأعرى بعدما ألحف ، وأظفر باليتيمة المذخورة للشدائد والمزاین^٣ ، ثم أوحش منها أصوّة هذه الخزاین ، فأب حنينُ الأمل بخفيّه ، وأصبح المغربُ غريباً يقلّبُ كفيّه ، ونستغفر الله تعالى من هذه الغفلات ، ونستهديه دليلاً في مثل هذه الفلّوات ، وأي ذنب في الفراق للزمن ، أو لغراب الدّمن ، أو للرواحل المدلجة ما بين الشام إلى اليمن ، وما منها إلا عبد مقهور ، وفي رُمة القدر مبهور ، عقد والحمد لله مشهور ، وحجّة لها على النفس اللوامة ظهور ، جعلنا الله تعالى ممّن ذكر المسبب في الأسباب ، وتذكّر ﴿ وما يذكّر إلاّ أولو الألباب ﴾ (البقرة : ٢٦٩ ، آل عمران : ٧) ، قبل غلق الرّهْن وسد الباب ، وبالحملة فالفراق ذاتي ، ووعدّه مائيّ ، فإن لم يكن فكأنّ قدّ ، ما أقرب اليوم من الغد ، والمرء في الوجود غريب ، وكلّ آت قريب ، وما من مقام إلا لزيال ، من غير احتيال ، والأعمار مراحِل والأيام أميال :

١ ناظر إلى الآية القرآنية : «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر . . . » .

٢ العقيرة : الصوت .

٣ المزاین : يريد أن الدرة تتخذ لأموال الزينة .

نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَيِّبٍ نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ^١

« جعل الله تعالى الأدب مع الحق شأننا ، وأبعد عنا الفراق الذي شأننا ،
ولمَّا أُسِرَ لسيدي بأن رعى الله تعالى صالح سَلَفِهِ ، وتداركه بالتلافي في
تَلَفِهِ ، وخلّص سعادته من كلفه ، وأحَلَّهُ من الأمن في كَنَفِهِ ، وعلى قدرها
تصاب العلياء ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء .

« هذا ، والخير والشرُّ في هذه الدار ، المؤسسة على الأكدار ، ظلالان
مضمحلان ، فقد ارتفع ، ما ضرَّ أو نفع ، وفارق المكان ، فكأنَّه ما كان ،
ومن كلمات الملوك ، البعيدة عن السلوك ، إلا أن يشاء ملك الملوك^٢ :

خذْ من زمانك ما تيسرْ	واترك بجهدك ما تعسرْ
ولربَّ مجملِ حالةٍ	ترضى به ما لم يُفسرْ
والدَّهرُ ليس بدائمٍ	لا بدَّ أن سيسوء إن سرَّ
واكتمْ حديثك جاهداً	شمتِ المحدثُ أو تحسرْ
والناسُ آنيةُ الزجاءِ	جِ إذا عثرتَ به تكسرْ
لا تعدمِ التقوى فَمَنْ	عدمِ التقى في الناسِ أعسرْ
وإذا امرؤُ خسراً إلّا	هَ فليس خلقٌ منه أخسرْ

« وإن لله تعالى في رَعْيِكَ لسرّاً ، ولطفاً مستمراً مستقراً ، إذ ألقاك اليمُّ إلى
الساحل ، فأخذ بيدك من ورطة الواحل ، وحرك منك عزيمة الراحل ، إلى الملك
الحلّاحل ، فأدالك من إبراهيمك سميّاً ، وعرفك بعد الواليّ وسَمِيّاً ، ونقلك
من عناية إلى عناية ، وهو الذي يقول وقوله الحق ﴿ ما ننسخ من آيةٍ —
الآية ﴾ (البقرة : ١٠٦) .

١ من قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة .

٢ الأبيات في مشاهدات لسان الدين : ١١٥ .

«وقد وصل كتاب سيدي محمد - والحمد لله - العواقب ، ويصف المراقبي التي حلّتها والمراقب ، وينشر المفاخر الحفصيّة والمناقب ، ويذكر ما هيّأه الله تعالى لديها من إقبال ، ورّخاء بال ، خصيصيّ اشتغال ، ونشوة آمال ، وأنه اغتبط وارتبط ، وألقى العصا بعدما خبط ، ومثل تلك الخلافة العلية من تزّن الذوات المخصوصة من الله تعالى بتشريف الأدوات بميزان تمييزها ، وتفرّق بين شبه المعادن وإبريزها ، و « شبه الشيء » مثل معروف^١ ، ولقد أخطأ من قال : الناس ظروف ، إنّما هم شجرات ربيع في بقعة ماحلة ، وإبل مائة لا تجد فيها راحلة^٢ ، وما هو إلا اتفاق ، ونجح للمسلك وإخفاق ، وقلّما كذب إجماع وإصفاق ، والجليس الصالح لرب سياسة أمل مطلوب ، وحظ إليه مجلوب ، وإن سئل أطرف ، وعمر الوقت ببضاعة أشرف ، وسرق الطباع ، ومدّ في الحسنات الباع ، وسلّى في الخطوب ، وأضحك في اليوم القطوب ، وهدى إلى أقوم الطرق ، وأعان على نوائب الحق ، وزرع له المودة في قلوب الخلق ، زاد الله تعالى سيدي لديها قرباً أثيراً ، وجعل فيه للجميع خيراً كثيراً ، بفضلته وكرمه .

«ولعلمي بأنه - أبقاه الله تعالى - يقبل نصحي ، ولا يرتاب في صدق صبحي ، أغبطه بمشواه ، وأنشده ما حضر من البديهة في مسارة هداه ونجواه :

بمقام إبراهيم عذّ واصرف به فكراً تؤرق عن بواعث تنبري
فجواره حرّم وأنت حمامة ورقاء والأغصان عود المنبر
فلقد أمنت من الزمان وربّيه وهو المروّع للمسيء وللبري

«وإن تشوّف سيدي فلعمري وليّه لو كان المطلوب دنيا لوجب وقوع الاجتراء،

١ من قول المتنبي :

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهاً بدنياً الطغام

٢ من حديث الرسول (ص) : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » .

ولا غبط بما تحصل في هذه الجزور ، المبيعة في حانوت الزور ، من السهام الوافرة
الأجزاء ، فالسلطان — رعاه الله تعالى — يوجب ما فوق مزية التعليم ، والولد
— هداهم الله تعالى — قد أخذوا بحظّ قلّ أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصة
والعامة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم ، وترك لما بالأيدي وتسليم ، وتدير
عاد على عدوّها بالعذاب الأليم ، إلا مَنْ أبدى السلامة وهو من إبطان الحسد
بحال السليم ، ولا ينكر ذلك في الحديث ولا في القديم ، ولكن النفس منصرفة
عن هذا الغرض ، نافضة يدّها من العرض ، قد فوتت الحاصل ، ووصلت في
الله تعالى القاطع وقطعت الواصل ، وصدقت لما نصح الفؤد الناصل ، وتأهبت
للقاء الحِمام الواصل ، وقلت :

انظر خضابَ الشباب قد نصّلا وزائرَ الأنسِ بَعْدَهُ انفصلا
ومطلبي والذي كَلِفْتُ بِهِ حاولتُ تحصيله فما حصلا
لا أملٌ مُسْعَفٌ ولا عَمَلٌ ونحن في ذا والموتُ قد وصلا

«والوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء في الأصائل والأسحار ، إلى مُقِيل العِثار ،
شديدُ الافتقار ، والله عزَّ وجلَّ يَصِلُ لسَيدي رَعِي جوانبه ، ويتولى
تيسير آماله من فضله العميم ومآربه ، وأقرأ عليه من التحيات ، المحملة
من فوق رحال الأريحيات ، أزكاها ، ما أوجع البرقُ الغمامَ فأبكاه ، وحسد
الروضُ جمالَ النجوم الزواهر فقاسها بمباسم الأزهار وحكاها ، واضطبن^١
هَرَمُ الليل عند الميل عصا الجوزاء وتوكاها ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

١٠٧ — ومما خاطب به لسان الدين — رحمه الله تعالى — ابن مرزوق
المذكور قوله :

١ اضطبن العصا : وضعها تحت ضبته ليتوكأ عليها ، والضبن : ما بين الخاصرة ورأس الورك .

«سيدي ، وعمادي ، كَشَفُ قناع النصيحة من وظائف صديق ، أو خديم لصيق ، وأنا بكلتا الجهتين حقيق ، ويتلجلج في صدري كلام أنا إلى نَفْثَه ذو احتياج ، ولو في سبيل هياج ، وخرقِ سياج ، وخوض دَيَاجٍ ، وقد أصبحت سعادتي عن أصل سعادتك فرعاً ، فوجب النصحُ طبعاً وشرعاً ، فليعلم سيدي أن الجاه ورطة ، والاستغراق في تيار الدول غلطة ، وبمقدار العلو — إلا أن بقي الله تعالى — تكون السقطة ، وأنه — والله تعالى يعصمه من الحوادث ، وبقيه من الخطوب الكوارث — وإن تبعه الجحْمُ فهو مفرد ، وبسهام الحَسَدَةِ مُقْصَد ، وأن الذي يقبَلُ يده ، يُضْمَرُ حسده ، وما من يوم إلا والعِلل تستشري ، والحيل تريش وتبري ، وسمومُ المكاييد تسري ، والعينُ الساهرة تطرقُ العينَ النائمة من حيث تدري ولا تدري ، وهذا الباب الكريم مخصوص بالزيادة والبركة ، وخصوصاً في مثل هذه الحركة ، فثم ظواهر تُخالف السرائر ، وحيلٌ تُصيبُ في الجوّ الطائر ، وما عسى أن يتحفّظ المحسود ، وقد عَوَتِ الكلابُ وزأرت الأسود ، وإن ظن سيدي أن الخطة الدينية تذب عن نفسها ، أو تنفع مع غير جنسها ، [فذلك] قياسٌ غير صحيح ، وهبوب الريح ، وإنّما هي درجة فوق الوزارة والحجابه ، ودهر يدعى فيبادر بالإجابة ، وجاه يجر على القبيل الأذيال ، ويفيدُ العزّ والمال ، وبجرّ هال ، وصدور تحمل الجبال ، وإن قطع بالأمان ، من جهة السلطان ، لم يؤمن أن يقع فيه ، والله سبحانه يقيّه ، ويمتّع به ويُسَبِّقِيه ، ما البشر بصَدَدِه ، والحي يجري إلى أمدِه ، فيستظهر الغير بقبيل ، ويجري من التغلب على سبيل ، ويبقى سيدي — والله تعالى يعصمه — طائراً بلا جناح ، ومحارباً دون سلاح ، ينادي من مكان يثق بودّه في طَلَل ، ويقرع سن النادم والأمر جَلَل ، ومثله بين غير صنفه — ممّن لا يتصف بظَرْفٍ ، ولا يلتفت إلى الإنسانية بظَرْفٍ ، ولا يعبد الله تعالى ولو على حَرْفٍ — محمول عليه من حيث الصنفية ، معتمد بالعداوة الخفية ، وإن ظن غير هذا فهو مخدوع مسحور ، ومفتون مغرور ، وبالفكر في الخلاص تفاضلت النفوس ، واستُدْفِعَ البوس ، وله وجوه كلّها متعذر

الحصول ، دونه بيضُ النصول ، إلا ما كان من الغرض الذي بان فيه بعد الجِدِّ الفُتُور ، وعدل عنه وقد أخذ الدستور ، وتيسرت الأمور ، وتقررت الأيمان والندور ، فإنه عَرَضَ قريب وسفر قاصداً^١ ، ومَسْعَى لا ينفق فيه سيدي من ماله درهم واحد ، ووطن^٢ لحركتِهِ راصداً ، لا يمنع عليه أهله ، ولا يستصعب سَهْلُهُ ، وأميره جبره الله تعالى يتطارح في تعيينكم لاقتضائه ، وإحكام آرائه ، وتأمين خائفه ، واستقدام أصنافه وطوائفه ، وتتحركون حركة العز والتنويه ، والقدر النبیه ، لا يُعْوزُكم ممتن وراءكم مَطْلَب ، ولا يُلْفَى عن مخالفتكم مذهب ، ولا يكدر لكم مَشْرَب .

«وتمر أيام وشهور ، وتظهر بطون للدهر وظهور ، وتُفْتَحُ أبواب ، وتُسَبَّبُ أسباب ، من رجوع يتأتى بعد السكون والفتور ، وقد سكنت الخواطر وتنوّعت الأمور ، أو مقام تمهّد به البلاد ، ويعمل في ترتيب الصلة الحسنة الاجتهاد ، وتستغرق في هذا الغرض الآماد ، ويتأتى ان حدث وتراكم حادث الاستقلال والاستبداد ، تنهّأ فيه الأعمار ، ويكون لمن ينتقل به على الشرق والغرب الخيار ، أو التحكم في ذخيرة سما منها المقدار ، وذُهِلَ عند مشاهدتها الاعتبار ، وخزانة الكتب بجملتها وفيها الأمّهات الكبار ، قد تجاوزت عنها الحاجة وعُدِمَ إليها الاضطرار ، والربع الذي يُسَوِّغُ بالشرع والعقار ، فهذا كله حاصل ، وثمّ ضامن لا يثّهم وكافل ، وعهود صِبْغُها غير ناضل .

«وبالجملة فالوطن لأغراض الملك جامع ، ولمقاصده من المقام أو الانتقال مطيع وسامع ، وإن توقع إثارة فتنة ، أو ارتكاب إحنة ، فالأمر أقرب ، وحاله المتيسّر أغرب ، وهذه الحجّة في تلمسان غير معتبرة ، وأجوبتها مقررة ، وقدوم رسول الطاغية وإعانتة تحصل في الغالب ، على هذه المطالب ، وبالجملة فالدنيا

١ من الآية الكريمة (التوبة : ٤٢) « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » .

قد اختلت ، والأقدامُ قد زلت ، والأموال قد قلت ، وشيبة الدهر ولت ،
وذلك القطر على علته أحكم لمن يرومُ الجاهَ وأمنع ، وأجدى بكل اعتبار
وأففع ، وقد حَضَرَتْ لاستخلاصكم إياه الآلةُ التي لا تتأتى في كل زمان ،
وتهيأ إمكان أي إمكان ، واقتضيت أيمان ، وعُرِضت سلع ثقلُها أثمان ،
وارتنت الوفاء مروعات وأديان ، وتحقق بذلك القطر الفساد الذي اشتهر به
مأموره وأموره وأميره ، والمنكر الذي يجب على كل مسلم تغييره ، فإن شئت شرعاً
فالحكم ظاهر ، أو طبعاً فالطبع حاضر ، وما ثمَّ عاذل بل عاذر ، والمؤونة
التي تلزم أقل من أن تكون ثمن بعض الحصون ، فضلاً عن الشجرة ذات
الغصون ، وما يُستهلك في هذا الغرض شيء له خطر ، ولا يُستنقذ من الصحيفة
سطر ، واليد محكمة بكلٍ أو شطر .

«وما يخص المملوك من هذا الأمر إلا استنقاذ نَشَب ، واستخلاص مؤمِّل
بين موروث ومكتسب ، وبعيد أن لا ينعر له في زمن من الأزمان ، فلا بدَّ في
كل وقت من أعيان ، ومروعات وأحساب وأديان ، والله سبحانه كل يوم هو في
شان ، وأما خدمة دوله فهي عليَّ حرام ، لا ينجح لي فيها أن أعتمدها مرام ،
وكأنني بالمشرق لاحق ، ولأنفاسه الذكية ناشق ، فما هي إلا أطماع ، سرَّابها
لما ، فإذا انقطعت ، انفسحت الدنيا واتسعت ، ومعاش في غمار ، أو عكوف
في كسر دار ، لمدائمة استقالة واستغفار ، والله ما تؤهم أن من بتلك البلاد
يستسر بُغائهُ عليكم ، أو يحتقر ما لديكم ، فقد ظهر الكائن ، وتطابق المخبر
والمعائن ، فسبحان من يقوي الضعيف ويهين المخيف ، ويجري يد المشروف
والشريف ، والهمم بيد الله تعالى يُنْجِدُهَا ويَحْذِلُهَا ، والأرضُ في قبضته يرعاها
ويهملها .

«هذا بثٌ لا يسع إفشاؤه ، وسر إن لم يُطوَّ سقط به على السرحان شاؤه^١ ،

١ أصل المثل « سقط العشاء به على سرحان » ، ولعل القراءة الصحيحة : « عشاؤه » .

وفيه ما ينكره الأمر ، وتتعلق به الظنون وتعمل الخواطر ، فتدبروه واعتبروه ،
وبعقلكم فاستبروه ، ثم غطوه بالإحراق واستروه ، والله تعالى يرشدكم للتي
هي أسد ، ويحكمكم على ما فيه لكم العز السرمد ، والفخر الذي لا ينفد ،
والسلام « انتهى .

١٠٨ - وقال رحمه الله تعالى : ومما صدر عني ما أجبته به عن كتاب
بعث به إليّ الفقيه الكاتب عن سلطان تلمسان أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي
الثغري :

«حَيَّا تِلْمَسَانَ الْحَيَّا فَرُبَّوْعَهَا صَدَفٌ يَجُودُ بِدَرِّهِ الْمَكْنُونُ
مَا شَتَّ مِنْ فَضْلِ عَمِيمٍ إِنْ سَقَى أُرَى وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَمْنُونِ^٢
أَوْ شَتَّ مِنْ دِينَ إِذَا قَدَحَ الْهَدَى أُرَى وَدُنْيَا لَمْ تَكُنْ بِالْدُونِ
وَرَدَ النَّسِيمُ لَهَا بِنَشْرِ حَدِيقَةٍ قَدْ أَزْهَرَتْ أَفْنَانُهَا بِفَنُونِ
وَإِذَا حَبِيبَةٌ أَمْ يَحْيَى أَنْجَبَتْ فَلَهَا الشُّفُوفُ عَلَى عَيُونِ الْعَيْنِ

«ما هذا النشر ، والصف والحشر ، واللف والنشر ، والفجر والليالي العشر ،
شدّاً كما تنفست دارين ، وسطور رقم حللها التزيين ، وبيان قام على إبداعه
البرهان المبين ، ونقص ، وشي به طرُس ، فجاء كأنه عيون العين ، لا بل
ما هذه الكتاب الكتبية التي أطلعت علينا الأعنة ، وأشرعت إلينا الأسنة ، وراعت
الإنس والجنة ، فأقسم بالرحمن ، لولا أنها رفعت شعار الأمان ، وحيّت
بتحية الإيمان ، لراعت السرب ، وعافت الذود أن يرد الشرب ، أظنها مدد
الجهاد قدم ، وشارد العرب استعمل في سبيل الله واستخدم ، والمتأخر على ما
فاته ندم ، والعزم وجد بعدما عدم ، نستغفر الله ، إنما هي رقاع الرفاع^٣ ،

١ ورى لسان الدين في هذه الرسالة عن أمور وحاطها بالغموض ولذا طلب أن تحرق الرسالة .

٢ المن : الفضل ؛ والممنون : المقطوع .

٣ ق : رقاع رقاع ؛ والرفاع : رفع الحب بعد الحصاد .

وصِلَات صَلَاة لَيْسَ فِيهَا سَبَقٌ وَلَا إِرْبَاعٌ^١ ، وَبَقَاعٌ^٢ لَهَا بَطَلٌ الطَّبَاعُ الْكَرِيمَةُ
 انْتِفَاعٌ ، وَالْحَانَ بَيَانُ يَعْصِدُهَا إِيْقَاعٌ ، وَدَرٌ مَنْسُوقٌ ، وَرَطْبٌ لِنَخْلِهَا بُسُوقٌ ،
 وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ : الْمَلِكُ سَوْقٌ^٣ ، وَمَنْ نَصِيرُ الشَّيْخِ عَلَى كَتِيبَةٍ تَعْقِبُهَا كَتِيبَةٌ ،
 وَاقْتِضَاءٌ وَجِيبَةٌ مِنْ ذِي غَلَّةٍ غَيْرِ نَجِيبَةٍ ، بَيْنَا هُوَ يَكَابِدُ مِنْ مَرَاجَعَةِ الْحَيِّ مِنْ
 حَضَرٍ مَوْتِ الْمَوْتِ ، وَلَا يَكَادُ يَرْجِعُ الصَّوْتُ ، إِذْ صَبَّحَتْهُ قَيْسٌ^٤ وَهِيَ الَّتِي شَدَّتْ
 عَنِ الْقِيَّاسِ ، وَأَجَحَمَتْ عَنْ مَبَارَزَتِهَا أُسُودُ الْأَخْيَاسِ^٥ ، فَلَوْلَا امْتِثَالُ أَمْرِ ،
 وَصَبْرٌ عَلَى جَمْرٍ ، لِأَعَادَ مَا حَكِيَ فِي مَبَارَزَةِ الْوَصِيِّ عَنْ عَمْرٍو^٤ ، فَتَحَرَّجَ مِنْ
 الْحَطْلِ ، وَبَيَّنَّ عُدْرَ الْمَكْرِهِ عَنْ مَنَاجِزَةِ الْبُطْلِ ، أَلَمْ يَدْرِ قَائِدُ رَعِيلِهَا ، وَزَائِرُ
 غِيلِهَا ، أَنِّي أُمْتُ بَذْمَةٍ مِنْ عَمِيدِهِ لَا تُخْفَرُ ، وَأَنْ ذَنْبٌ إِضَافَتِي لَهُ
 لَا يُغْفَرُ ، وَحَقُّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُجْحَدُ وَلَا يُكْفَرُ :

لَمَّا رَأَتْ رَايَةَ الْقَيْسِيِّ زَاخِفَةً
 قَلْتُ الْوَغَى لَيْسَ مِنْ رَأْيِي وَلَا عَمَلِي
 قَدْ كَانَ ذَاكَ وَرَنَاتُ الصَّهِيلِ ضُحَى
 وَالْآنَ قَدْ صَوَّحَ الْمَرْعَى وَقَوَّضَتْ
 قَالَتْ أَلَسْتَ شَهَابَ الدِّينِ تَضْرِمُهَا
 وَإِنَّ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا وَذَا وَزَرَ
 هُوَ الْحَمَى لِأَبِي حَمُوٍ اسْتَجْرَهُ فَفِيهِ
 وَاللَّهِ لَوْ أَهْمَلَ الرَّاعِي النَّقَادَ بِهِ
 إِلَيَّ رَيْعَتُ وَقَالَتْ لِي وَمَا الْعَمَلُ ؟
 لَا نَاقَةٌ لِي فِي هَذَا وَلَا جَمَلُ
 تَهَزُّ عِطْفِي كَأَنِّي شَارِبٌ ثَمِلُ
 خِيَمَاتِ وَالرَّكْبِ بَعْدَ اللَّبَثِ مُحْتَمِلُ
 حَاشَا الْعَلَا أَنْ يَقَالَ : اسْتَنُوقَ الْجَمْلُ
 بِمَثَلِهِ فِي الدَّوَاهِي يُبْلَغُ الْأَمَلُ
 هُ الْآمَنُ مُنْسَدِلٌ وَالْفَضْلُ مُكْتَمَلُ
 مَا خَافَ مِنْ أَسَدٍ خَفَّانٍ بِهِ هَمَلُ^٥

١ الإرباع : الإسراع . وفي ق : إرقاع .

٢ هو من المثل : « الملك سوق يحمل إليها ما نفق فيها » .

٣ ق : الأجناس .

٤ الوصي : علي بن أبي طالب ، ومبارزته لعمر بن العاص - فيما روي - تدل على أن عمر لم يكن

من أرباب المِبارزة وإنما من أهل الحيلة والدهاء .

٥ النقاد : الغنم ؛ وخفان : اسم موضع .

تكونُ من قوم موسى إن قَضَوْا عدلوا وإن تقاعدَ دهرٌ جائرٌ حملوا
هُمُ الجبالُ الرواسي كلما حلموا هُمُ البحارُ الطوامي كلما حملوا
فقلتُ : كان لكِ الرحمن بعدي ما سواهُ معتمدٌ والرأيُ معتمَلُ
فها أنا تحت ظلٍّ منه يلحفني والشملُ مني بسترِ العزِّ يشتمَلُ
فقلْ لقيسٍ لقد خاب القياسُ فلا تُذَكُّوا المصاعَ وتحت الليل فاحتملوا
دامتُ له ديمُ النعمى مُساجلةً يمناهُ ، تنهملُ اليمنى فتنهملُ
وآمنتُ شمسُ عليها الأفلَ إلى طيِّ الوجودِ فلا شمسٌ ولا حَمَلُ

«ولو خوى - والعود بالله - نجم هذا المتات ، ولم يتصف السبب - وحاشاه -
بالاتصال ولا بالانبتات^١ ، فمرعى العدل مكفول ، وسببُ الرفق موصول ،
وإن اشتجرت نُصُول ، والهرمُ تأبى الأبطالُ التزل إلى نزاله ، والناسكُ
التائبُ يدينُ ضربُ الغاراتِ باعتزاله ، إلا مَنْ أغرق في مذهبِ الخارجي
الأخرق ، نافع بن الأزرق ، وحسبي ، وقد ساء كسبي ، أن أترك الخطر
لراكبه ، وأخلّي الطريق لمن يبني المنارَ به ، ونسير بسير أمثالي من الضعفاء ،
ونكفّ فهو زمان الانكفاء ، ونسلم مخطوبةَ هذا الفن إلى الأكفاء ، ونقول :
بالبنين والرفاء ، فقد ذهب الزمن المذهب ، وتبين المذهب ، وشاخ البازي
الأشهب ، وعتادُ العمر يُنهب ، ومرهب الفوت من فوقِ الفود يرهب ،
اللهم ألهم هذه الأنفسَ رُشدَها ، وأذكرها السكرات وما بعدها .

«إيه أخي والفضلُ وصَفك ونعتك ، والزيفُ يُبهرجه بحتك ، وسهامُ
اليراعة انفردَ بها برّيك ونَحْتُك ، واصلتني رسالتك البرة ، بل غمامتك
الثرة ، وحيثي تُغور فضلك المُفترّة ، فعظمت بورودها المسرة ، جددت
العهدَ بمحبوب لقائك ، وأنهلت ظامي الاستطلاع في سقائك ، واقتضت تجديد
الدعاء ببقائك ، إلا أنها ربّما ذهلت عند وداعك ، وأبهر عقلها نورُ إبداعك ،

١ ق : ولو جرى ... المتاب ... بالانتياب .

فلم تَلْقَنْ الوصية ، وسلكتِ المسالك القصية ، وأبعدتُ من التطوّف ،
وجاءت تبتغي من أسرار التصوّف ، ومتى تُقَرَّنُ هبةُ السبع الشداد ، بحانوتِ
الحدّاد ، أو تنظر أحكام الاعتكاف ، بدكان الإسكاف ، أو يُتَعَلَّمُ طبعُ
المثقال ، بحانوتِ البقال ؟ والظن الغالب — وقد تلبس المطالب — أنكم أمرتموها ،
لما أصدرتموها ، بإعمال التشوّف ، فطردت حكم الإبدال ، غائبة عما يلزم من
الجدال ، وسمت الشين صاداً ، وعينت لزرع الوصية حصاداً ، والله تعالى
يجعل المحبّ عند ظنّ من نظر بمرآته ، أو وصّفه ببعض صفاته ، وهي تزلقُ
عن صفاته ، فالتصوّفُ أشرف ، وظلاله أَوْرف ، من أن يناله كلفُ بياطل ،
ومغرورٌ بسرابٍ ماطل ، لا برّبابٍ هاطل ، ومفتون بحالٍ حالٍ أو عاطل ، ومن
قال ولم يتصف بمقاله ، فعقله لم يَرِمُ عن عقاله ، وجبالُ أثقاله ، مانعة له
عن انتقاله .

«وعلى ذلك، وبعد تقرير هذه المسالك ، فقد عمرت يدها كيلا تعود بها صِفراً
بعد إعمال السفر ، أو ترى أنّها قد طولبت بذنب الغلط المغتفر ، وأصبحت
المراجعة بمجلس وعظٍ فتحت به باب الحرج ، إلى إنكار الإمام أبي الفرج^١ ،
وفنّ الوعظ لما سأل الأخ هو الصديق المسعد ، والمُبْرِقُ قبل غمام رحمته
والمُرْعِد ، والله در القائل : لست به ولم تبعد ، والاعتراضُ بعدُ مُلّازم ،
لكنّ الإسعافَ لقصده لازم ، وعامله عند الاعتلال بالعذر جازم ، وإغضاؤه
ملتَمَس ، وفضله لا يخبو منه قَبَس ، وعذراً أيّها الفاضل ، وبعد الاعتذار ،
عن القلم المِهْذَار ، وإغفال الحذار ، اقرأ عليهم من طيّب السلام ، ما يُخجلُ
أزهارَ الكمام عقب الغمام ، ورحمة الله تعالى مِن مُّحمّليه على الكاتب ، ولعلّها
تفتأ من عَتَبِ العاتب ، ابن الخطيب : فإنّي كتبته والليل دامس ، وبحرُ

١ يعني أبا الفرج ابن الجوزي شهرته في الوعظ .

الظلام طامس ، وعادة الكسل طبعٌ خامس ، والنافخُ بشكوى البرد هامس ،
والذبالُ المُنادم خافت ، لا يهتدي إليه الفَرَاشُ المتهافت ، يقومُ ويقعد ،
ويفيق ثم يرعد ، ويزفر ثم يخمد ، وربما صار ورقةَ آس ، أو مبضعَ آس ،
وربما أشبه العاشقَ في البَوح بما يخفيه ، وظهوره من فيه ، فتميله الآمال وتلويه ،
وتميته النواسم الهفافة بعدما تحييه ، والمطر ، قد تعذَّرَ معه الوطر ، وساقه الخطر ،
وفعل في البيوتِ المتداعية ما لا يفعل التركُ والطر ، والنشاطُ ، قد طُويَ منه
البساط ، والجوارحُ بالكلالِ تعتذر ، ووظائف الغدِ تنتظر ، والفكرُ في الأمور
السلطانية جائل ، وهي بحر هائل ، ومثلي مقنوعٌ منه باليسير ، ومعدورٌ في قِصرِ
الباع وضعفِ المسير ، والسلام « انتهى .
وهي من البلاغة في الذروة .

١٠٩ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله : وممّا صدر عني في
السياسة : « حدثت من امتاز باعتبار الأخبار ، وحاز درجةَ الاشتهار ، بنقل
حوادثِ الليل والنهار ، وولج بين الكمائم والأزهار ، وتلطف لحجل الورد
من تبسم البهار ، قال : سهر الرشيد ليله ، وقد مال في هجر النبيذ ميله ، وجهد
ندماؤه في جلب راحته ، وإلمام النوم بساحته ، فشحت عيهادهم ، ولم يُغنِ
اجتهادهم ، فقال : اذهبوا إلى طُرُقِ سمّاها ورسمها ، وأمّهاتِ قسمها ،
فمن عثرتُم عليه من طارقِ ليل ، أو غُثاءِ سيل ، أو صاحبِ ذَيْل ، فبلغوه ،
والأمنّة سوّغوه ، واستدعوه ، ولا تدعوه ، فطاروا عَجالي ، وتفرقوا
ركباناً ورجالا ، فلم يكن إلا ارتدادُ طرف ، أو فُواقِ حرف ^١ ، وأتوا بالغنيمة
التي اكتسحوها ، والبضاعة التي ربحوها ، يتوسطهم الأشعث الأغر ، واللجُّ
الذي لا يُعبّر : شيخٌ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، سبَلته مُشمطةٌ ،

١ الفواق : فترة ما بين الحلبتين ؛ والحرف : الناقة .

وعلى أنفه من القبع^١ مَطَّة ، وعليه ثوب مرقوع ، لطير الحرق عليه وقوع ،
يُهيئُ بذكر مسموع ، وينبئ عن وقت مجموع ، فلما مثلَ سلم ، وما
نبس بعدها ولا تكلم ، فأشار إليه الملك فقعد ، بعد أن انشمر وابتعد ، وجلس ،
فما استرق النظر ولا اختلس ، إنما حركة فكره ، معقودة بزمام ذكره ،
ولحظات اعتباره ، في تفاصيل أخباره ، فابتدره الرشيد سائلاً ، وانحرف إليه
مائلاً ، وقال : ممّن الرجل ؟ فقال : فارسي الأصل ، أعجمي الجنس عربي^٢
الفصل ، قال : بلدك وأهلك وولدك ؟ قال : أما الولد فولد الديوان ، وأما
البلد فمدينة الإيوان ، قال : النحلة ، وما أعملت إليه الرحلة ؟ قال : أما الرحلة
فلاعتبار ، وأما النحلة فالأمر الكبار ، قال : فنك ، الذي اشتمل عليه دنك ؟
فقال : الحكمة فني الذي جعلته أثيراً ، وأضجعت فيه فراشاً وثيراً ، وسبحان
الذي يقول ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة : ٢٦٩)
وما سوى ذلك فتبع ، ولي فيه مصطفى ومرتبّع ، قال : فتعاضد جدل^٣
الرشيد وتوفر ، كأنما أغشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر ، وقال : ما رأيت
كالليلة أجمع لأمل شارد ، وأنعم بموانسة وارد ، يا هذا إنني سائلك ، ولن تخيب
بعد وسائلك ، فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بلينا بحمل أعبائه ، ومُنينا
بمراوضة إباطه ، فقال : هذا الأمر قلادة ثقيلة ، ومن خُطة العجز مستقيلة ،
ومفتقرة لسعة الذرع ، وربط السياسة المدنية بالشرع ، يفسده الحكم في
غير محله ، ويكون ذريعة إلى حله ، ويُصلحه مقابلة الشكل بشكله ، ومن لم يكن
سبعاً آكلًا تداعت سباع إلى أكله .

« فقال الملك : أجملت ففصل ، وبريت فنصل ، وكلت فأوصل ،
وانثر الحب لمن يُحوصل ، واقسم السياسة فنونا ، واجعل لكل لقب قانوناً ،
وابدأ بالرعية ، وشروطها المرعية .

١ القبع : الصياح أو الإعياء والانبهار .

« فقال : رعيَّتكَ ودائع الله تعالى قبيلَكَ ، ومرآة العدل الذي عليه جبَلُكَ ، ولا تصل إلى ضبطهم إلاّ بإعانة الله تعالى التي وهب لك ، وأفضلُ ما استدعيت به عونَه فيهم ، وكفايته التي تكفيهم ، تقويمُ نفسك عند قصد تقويمهم ، ورضاك بالسهر لتقويمهم ، وحراسة كهلهم ورضيعهم ، والترفع عن تضييعهم ، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها ، أخذاً يحوطُ مالها ، ويحفظُ عليها كمالها ، ويقصرُ عن غير الواجبات آمالها ، حتى تستشعرَ عليتها رأفتك وحنانك ، وتعرف أوساطها في النصب امتنانك ، وتحذر سيفلتها سنانك ، وحظرُ على كل طبقة منها أن تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوزَ بأمر طاعتك فورها ، وسُدَّ فيها سبُلُ الذريعة ، وأقصرَ جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة ، وامنع أغنياءها من البطرِ والبطالة ، والنظرِ في شبهات الدين بالتمشديق والإطالة ، وليقلَّ فيما شجر بين الناس كلامها ، ويرفض ما تنبز به أعلامها ، فإن ذلك يُسقطُ الحقوق ، ويرتبُ العقوق ، وامنعهم من فحشِ الحرص والشره ، وتعاهدهم بالمواعظ التي تجلو البصائر من المره ، واحملهم من الاجتهاد في العمارة على أحسن المذاهب ، وانتههم عن التحاسد على المواهب ، ورضهم على الإنفاق بقدر الحال ، والتعزي عن الفائق فرَدُّه من المحال ، وحذر البخل على أهل اليسار ، والسخاء على أولي الإعسار ، وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر ، وامنعهم من تأويلها منع القاهر ، ولا تطلق لهم التجمع على من أنكروا أمره في نواديهم ، وكفَّ عنهم أكفَّ تعدّهم ، ولا تبع لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم ، ولتكن غايتهم ، فيما توجهت إليه إبايتهم ، ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم ، لإنهاء إلى من وكلته بمصالحهم من ثقاتك ، المحافظين على أوقاتك ، وقدم منهم من أمنت عليهم مكره ، وحمدت على الإنصاف شكره ، ومن كثر حياؤه من التأنيب ، وقابل الهفوة باستجابة المنيب ، ومن لا يتخطى عندك محله الذي حله ، فربما عمد إلى الميرم فحلّه ، وحسن النية لهم

بجهد الاستطاعة ، واغتفر المكاره في جنب حسن الطاعة ، وإن ثار جرادهم ،
 واختلف في طاعتك مُرآدهم ، فتحصن لثورتهم ، واثبت لفورتهم ، فإذا سالوا
 وسلّوا ، وتفرقوا وانسلّوا ، فاحتقر كثرتهم ، ولا تُقلّ عثرتهم ، واجعلهم
 لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا ، ولا تترك لهم على حلمك اتكالا .
 « ثم قال : والوزير الصالح أفضل عددك ، وأوصل مددك ، فهو الذي يصونك
 عن الابتذال ، ومباشرة الأنذال ، ويثب لك على الفرصة ، وينوب في تَجَرُّع
 الغصّة ، واستجلاء القصة ، ويستحضر ما نسيته من أمورك ، ويغلب فيه الرأي
 بموافقة مأمورك ، ولا يسعه ما تمكّنك المسامحة فيه ، حتى يستوفيه ، واحذر
 مصادمة تياره ، والتجوز في اختياره ، وقدم استخارة الله تعالى في إثارة ،
 وأرسل عيون الملاحظة على آثاره ، وليكن معروفاً بالإخلاص لدولتك ، معقود
 الرضى والغضب برضاك وصوّلتك ، زاهداً عما في يديك ، مؤثراً لكل ما
 يُزْلِفُ لديك ، بعيد الهمة ، راعياً للأذمة ، كامل الآلة ، محيطاً بالإيالة ،
 رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبيه الحي والميت ، مؤثراً للعدل
 والإصلاح ، درياً بحمل السلاح ، ذا خبرة بدخل المملكة وخارجها ، وظهرها
 وسرجها ، صحيح العقد ، متحرزاً من النقد ، جاداً عند لهوك ، متيقظاً في حال
 سهوك ، يلين عند غضبك ، ويصلّ الإسهاب بمقتضبك ، قلقاً من شكره
 دونك وحمده ، ناسباً لك الإصابة بعمّده ، وإن أعياء عليك وجود أكثر هذه
 الخلال ، وسبق إلى نقضها شيء من الاختلال ، فاطلب منه سكون النفس
 وهدونها ، وأن لا يرى منك رتبة إلا رأى قدره دونها ، وتقوى الله تعالى تفضل
 شرف الانتساب ، وهي للفضائل فذلكة الحساب ، وساو في حفظ غيبه
 بين قربه ونأيه ، واجعل حظه من نعمتك موازياً لحظّك من حسن رأيه ، واجتنب
 منهم من يرى في نفسه إلى الملك سبيلاً ، أو يقود من عيصه للاستظهار عليك
 قبيلاً ، أو من كاثر مالك ماله ، أو من تقدم لعدوك استعماله ، أو من سمّت
 لسواك آماله ، أو من يعظم عليه إعراض وجهك ، ويهمّه نادر نجهك ،

أو من يداخلُ غيرَ أحبابك ، أو من ينافسُ أحداً ببابك .

«وأما الجند فاصرف التقديمَ منهم للمقاتلة ، والمكايدة والمخاتلة ، واستوفِ عليهم شرائط الخدمة ، وخذهم بالثبات للصدمة ، ووفّ ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة ، وتعهدهم عند الغناء بالعلقة والطعمة ، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه ، وطاب في الذبّ عن ظنك ثناؤه ، وولّ عليهم النبهاء من خيارهم ، واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم ، ولا توطئهم الدّعة مهاداً ، وقدمهم على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً ، ولا تليّن لهم في الإغماض عن حسن طاعتك قياداً ، وعوّدهم حُسن المواساة بأنفسهم اعتياداً ، ولا تسمح لأحدٍ منهم في إغفال شيء من سلاح استظهاره ، أو عُدّة اشتهاره ، وليكن ما فضل من شيعتهم وريتهم ، مصروفاً إلى سلاحهم وزيتهم ، والتزيد في مراكبهم وغلمانهم ، من غير اعتبار لأثمانهم ، وامنعهم من المستغلات والمتاجر ، وما تكسّب به غير المشاجر ، وليكن من الغوار اكتسابهم ، وعلى المغانم حسابهم ، كالجوارح التي تفسد باعتيادها ، أن تطعم من غير اصطيادها .

«واعلم أنّها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان ، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان ، ويملك حركاتها بالتقويم ، ورُتّبها بالميزان القويم ، ومن ثق بإشفاقه على أولادها ، ويشري رضي الله تعالى بصبره على طاعته وجيلادها ، فإذا استشعرت لها هذه الخلال تقدمتك إلى مواقف التلف ، مطيعة دواعي الكلف ، واثقة منك بحسن الخلف ، واستبق إلى تمييزهم استباقاً ، وطبقهم طباقاً ، أعلاها من تأملت منه في المحاربة عنك أخطاراً ، وأبعدهم في مرضاتك مَطاراً ، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزمأ ووقاراً ، واستهانة بالعظام واحتقاراً ، وأحسنهم لمن تقلّده أمرك من الرعية جواراً ، إذا أجدت اختباراً ، وأشدّهم على مماطلة من مارسه من الجوارح عليك اصطباراً ، ومن بلا في الذي عن لك إحلاء وإمراراً ، ولحقه الضر في معارض الدفاع

عنك مراراً ، وبعده مَنْ كانَتْ محبته لك أزيد من نجدته ، وموقعُ
رأيه أنفع من موقع صعدته ، وبعدهما مَنْ حَسُنَ انقيادهُ لأمرائك ، وإحماده
لآرائك ، ومَنْ جعل نفسه من الأمر حيث جعله ، وكان صبره على ما عراه أكثر
من اعتداده بما فعله . واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه في الانتفاع ،
ولم يستحي من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع ، وشكا البخس فيما تعذر
عليه من فوائذك ، وقاس بين عوائد عدوك وعوائذك ، وتوعد بانتقاله عنك
وارتحاله ، وأظهر الكراهية لحاله .

«وأما العمال فإنهم ينبئون عن مذهبك ، وحالهم في الغالب شديدة الشبه بك ،
فعرّفهم في أمانتك السعادة ، وألزمهم في رعيّتك العادة ، وأنزلهم من كرامتك
بحسب منازلهم في الاتصاف ، بالعدل والإنصاف ، وأحلّهم من الحفاية ،
بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية ، وقفهم عند تقليد الأرجاء ، مواقف الخوف
والرجاء ، وقرّر في نفوسهم أن أعظم ما به إليك تقربوا ، وفيه تدرّبوا ، وفي
سبيله أعجموا وأعربوا ، إقامة حقّ ودحض باطل ، حتى لا يشكو غريمٌ
مطلّ ماطل ، وهو أثر لديك من كل ربّابٍ هاطل ، وكفّهم من الرزق
الموافق ، عن التصدي لدنيء المرافق ، واصطنع منهم من تيسرت كلفته ، وقويت
للعايا ألفته ، ومن زاد على تأمّيله صبره ، وأربى على خبره خبره ، وكانت
رغبته في حسن الذكر ، تشفّ على بنات الفكر ، واجتنب منهم من يغلب عليه
التخرق في الإنفاق ، وعدم الإشفاق ، والتنافس في الاكتساب ، وسهّل عليه
سوء الحساب ، وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية ، دون التقصي والكفاية ، ومن
كان منشؤه خاملاً ، ولأعباء الدناءة حاملاً ، وابغِ مَنْ يكون الاعتذار في
أعماله ، أوضح من الاعتذار في أقواله ، ولا يفتنك ممّن قلدته اجتلابُ الحظّ
المقنع ، والتنفقُ بالسعي المسمع ، ومخالفة السنن المرعية ، واتباعه رضاك
بسخط الرعية ، فإنه قد غشّك ، من حيث بلك ورشّك ، وجعل من يمينك

في شمالك ، حاضر مالك ، ولا تُضْمَنَّ عاملاً مال عمله ، وحُلْ بينه فيه وبين
 أمله ، فإنك تميمُ رسومك بمحياءه ، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إيتاه ،
 ولا تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببلد على بلد ، والاحتجاج على
 والد بولد ، واحرص على أن يكون في الولاية غريباً ، ومتقله منك قريباً ،
 ورهينة لا يزال معها مريباً ، ولا تقبل مصالحته على شيء اختانه ، ولو برغبة
 فتانه ، فتقبل المصانعة في أمانتك ، وتكون مشاركاً له في خيانتك ، ولا
 تطيل مدة العمل ، وتعاهد كشف الأمور ممن يرعى الهمل ، ويبلغ الأمل .
 «وأما الولد فأحسن آدابهم ، واجعل الخير دابهم ، وخف عليهم من
 إشفاقك وحنانك ، أكثر من غلظة جنانك ، واكتم عنهم ميلك ، وأفض فيهم
 جودك ونيلك ، ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلتك ، وأثبهم
 على حسن الجواب ، وسبق لهم خوف الجزاء على رجاء الثواب ، وعلمهم
 الصبر على الضرائر ، والمهلة عند استخفاف الجرائر ، وخذهم بحسن السرائر ،
 وحب إليهم مراس الأمور الصعبة المراس ، وحسن الاصطناع والاحتراس ،
 والاستكثار من أولي المراتب والعلوم ، والسياسات والحلوم ، والمقام المعلوم ،
 وكرة إليهم مجالسة الملحين ، ومصاحبة الساهين ، وجاهد أهواءهم عن عقولهم ،
 وحذر الكذب على مقولهم ، ورشحهم إذا آنت منهم رشداً أو هدياً ،
 وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثدياً ، لتمرّتهم على الاعتیاد ، وتحملهم على
 الازدياد ، ورُضهم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم ،
 وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم ، وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت ، واقدها
 إذا هجمت ، قبل أن يظهر تضعيفها ، ويقوى ضعيفها ، فإن أعجزتك في الصغر
 الحيل ، عظم الميل :

إنَّ الغُصونَ إذا قومَتِها اعتدلت ولَن تَلينَ إذا قومَتِها الخشبُ

وإذا قدرُوا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، إياك أن تُرطَنهم في

مكانك ، جهد إمكانك ، وفرقهم في بلدانك ، تفريق عبدانك ، واستعملهم
في بعوث جهادك ، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك ، فإن حَضَرَكَ تشغلهم
بالتحاسد ، والتباري والتفاسد ، وانظر إليهم بأعين الثقات فإن عين الثقة ،
تُبَصِّرُ ما لا تبصر عين المحبة والميعة .

«وأما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع ، وتبصر وتسمع ،
فَرُضُهم بالصدق والأمانة ، وصُنُهم صَوْنُ الحُمانة ، وخُدُهم بحسن الانقياد
إلى ما أثرته ، والتقليل مما استكثرت ، واحذر منهم من قويت شهواته ،
وضاقت عن هواه لهواته ، فإن الشهوات تنازعك في استرقاقه ، وتشاركك
في استحقاقه ، وخيّرهم من ستر ذلك منه بلطف الحيلة ، وآداب الفساد محيلة ،
وأشرب قلوبهم أن الحق في كل ما حاولته واستترته ، وأن الباطل في كل
ما جانبته واعتزلته ، وأن مَنْ تصفّح منهم أمورك فقد أذنب ، وباين الأدب
وتجنّب ، وأعط من أكدته ، وأضقت منه ملكه وشددته ، رَوْحَةً يشتغل
فيها بما يعنيه ، على حسب صعوبة ما يعاينه ، تغبطهم فيها بمسارحهم ، وتجم
كليّة جوارحهم ، ولتكن عطايك فيهم بالمقدار الذي لا يبطر أعلامهم ، ولا
يؤسِفُ الأصاغر فيفسد أعلامهم ، ولا ترم مُحسِنَهم بالغاية من إحسانك ،
واترك لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك ، وحذر عليهم مخالفتك ولو في
صلاحك ، بحدّ سلاحك ، وامنعهم من التوائب والتشاجر ، ولا تحمد لهم
شيم التقاطع والتهاجر ، واستخلص منهم لسرك من قلّت في الإفشاء ذنوبه ،
وكان أصبر على ما ينوبه ، ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك ، أكثر
من رغبته في إحسانك ، وضبطه لما تقلّد من وديعتك ، أحبّ إليه من حسن
صنيعتك ؛ وللسفارة عنك مَنْ حلا الصدق في فمه ، وآثره ولو باختطار دمه ،
واستوفى لك وعليك فهم ما تحمله ، وعني بلفظه حتى لا يهمله ، ولمن تودعه
أعداء دولتك مَنْ كان مقصور الأمل ، قليل القول صادق العمل ، ومن كانت

قسوته زائدة على رحمته ، وعظّمه في مرضاتك أثر من شحمته ، ورأيه في
الحذر شديد ، وتحرّزه من الحيل شديد ، ولخدمتك في ليلك ونهارك من
لانت طباعه ، وامتد في حسن السجية باعه ، وأمن كيده وغدره ، وسلم من
الحقد صدره ، ورأى المطامع فما طمع ، واستثقل إعادة ما سمع ، وكان بريئاً
من الملال ، والبشر عليه أغلب الحلال ، ولا تؤنسهم منك بقبیح فعل ولا قول ،
ولا تؤيسهم من طوّل ، ومكن في نفوسهم أن أقوى شفعاثهم ، وأقرب إلى
الإجابة من دعائهم ، إصابة الغرض فيما به وكلوا ، وعليه شكلوا ، فإنك لا تعدم
بهم انتفاعاً ، ولا يعدمون لديك ارتفاعاً .

«وأما الحرم فهنّ مغارس الولد ، ورياحين الخلد ، وراحة القلب الذي أجهده
الأفكار ، والنفس التي تقسمها الإحماد إلى المساعي والإفكار ، فاطلب منهن من
غلب عليهن من حسن الشيم ، المترفعة عن القيم ، ما لا يسوءك في خللك ، أن
يكون في ولدك ، واحذر أن تجعل لفكر بشرٍ دون بصرٍ إليهن سبيلاً ، وانصب
دون ذلك عذاباً ويلاً ، وأرعِهِنَّ من النساء العُجُرُ مَنْ بانت في الديانة والأمانة
سبله ، وقويّتْ غيّرته ونبله ، وخذهنّ بسلامة النيات ، والشيم السنيات ،
وحسن الاسترسال ، والخلق السلسال ، وحذّر عليهنّ التغامز والتغاير ،
والتنافس والتخاير ، وآس بينهن في الأغراض ، والتصامم عن الإعراض ،
والمحاباة بالأعراض ، وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك ، وأسبل لحرمتك ،
ولتكن عشرتك لمن عند الكلال والملال ، وضيق الاحتمال ، بكثرة الأعمال ،
وعند الغضب والنوم ، والفراغ من نصّب اليوم ، واجعل مبيتك بينهن تنم
بركاتك ، وتستتر حركاتك ، وافصل من ولدت منهن إلى مسكنٍ تختبر به
استقلالها ، وتعتبر بالتفرد خلاها ، ولا تطلق حرمة شفاعة ولا تدبيراً ، ولا
تنطّ بها من الأمر صغيراً ولا كبيراً ، واحذر أن يظهر على خدمهن في خروجهن
عن القصور ، وبروزهن من أجمة الأسد الهصور ، زي بارع ، ولا طيب
للأنوف مسارع ، واخصص بذلك مَنْ طعن في السن ، ويشس من الإنس

والجن ، ومن توفّر النزوع إلى الخيرات قبله ، وقصر عن جمال الصورة ورُسم بالبلّك .

« ثمّ لما بلغ إلى هذا الحد حمي وطيس اسحقفاره ، وختم حزبه باستغفاره ، ثم صمت ملكياً ، واستعاد كلاماً أولياً .

« ثم قال : واعلم يا أمير المؤمنين - سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته وعصمك من الزمان وآفته - أنك في مجلس الفصل ، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل ، في طائفة من عز الله تعالى تذبّ عنك حُماتها ، وتدافع عن حوزتك كُماتها ، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزري منه بضاعة ، أو يهجم بك رضاك على إضاعة ، ولتكن قدرتك وقفاً على الاتصاف ، بالعدل والإنصاف ، واحكم بالسوية ، واجنح بتدبيرك إلى حسن الروية ، وخفّ أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين ، أو تستفزك العجلة في أمر لم يتبين ، وأطع الحجة ما توجهت إليك ، ولا تحفلُ بها إذا كانت عليك ، فانقيادك إليها أحسنُ من ظفرك ، والحق أجدى من نفرك ، ولا تردّنّ النصيحة في وجه ، ولا تقابل عليها بنجّه ، فتُمنعها إذا استدعيتها ، وتُحجب عنك إن استوعبتها ، ولا تستدعها من غير أهلها ، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها ، واحرص على أن لا ينقضي مجلس جلسته ، أو زمن اختلسته ، إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة ، أو وثقت منه في معادك بفائدة .

« ولا يزهدنك في المال كثرته ، فتقل في نفسك أثرته ، وقس الشاهد بالغايب ، واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب ، فالمال المصون ، أمتع الحصون ، ومن قلّ ماله ، قصرت آماله ، وتهاون بيمينه شماله ، والملك إذا فقد خزينه ، أخنى على أهل الجدة التي تزينه ، وعاد على رعيته بالإجحاف ، وعلى جبايته بالإلحاف ، وساء معتاد عيشه ، وصغر في عيون جيشه ، ومنّوا عليه بنصره ، وأنفوا من الاقتصار على قصره ، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه ، وتربط آمال أهل السلاح به ، والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه ، فتجمع

بالشهوات بين إتلافك وإتلافه ، واستأنس بحسن جوارها ، واصرف في حقوق الله تعالى بعض أطوارها ، فإن فَضَلَ المالُ عن الأجل فأَجَلٌ ، ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عزّ وجلّ ، وما ينفق في سبيل الشريعة ، وسد الذريعة ، مأمول خَلَفُهُ ، وما سواه فمتعين تَلَفُهُ .

«واستخلص لنواديك الغاصة ، ومجالسك العامة والخاصة ، من يليق بولوج عَتَبَها ، والعروج لرتبها ، أمّا العامة فمن عظم عند الناس قدره ، وانشرح بالعلم صدره ، أو ظهر يساره ، وكان لله تعالى إخبأته وانكساره ، ومن كان للفتيا منتصباً ، وبتاج المشورة معتصباً ، وأمّا الخاصة فمن رَقَّت طباعه ، وامتد فيما يليق بتلك المجالس باعه ، ومن تبحر في سير الحكماء ، وأخلاق الكرماء ، ومن له فضل سافر ، وطبع للدنية منافر ، ولديه من كل ما تستر به الملوك عن العوام حظ وافر ، وصف ألبابهم بمحصول خيرك ، وسكّن قلوبهم بِئْمَن طيرك ، وأغْنِيَهُمْ ما قدرت عن غيرك . واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألّقة ، والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر تعاهدتها تبذل من الضياء ، وتجلو بنورها صُورَ الأشياء ، وفرغها لتحبير ما يزين مدتك ، ويحسن من بعد البلاء جدّتك ، وبعناية الأواخر ذكرت الأوّل ، وإذا محيت المفاخرُ خربت الدول .

«واعلم أن بقاء الذكر مشروطٌ بعمارة البلدان ، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان ، فاحرص على ما يوضح في الدهر سُبُلَكَ ، ويحرز المزية على من قبلك ، وأن خير الملوك من ينطق بالحجّة وهو قادر على القهَر ، ويبذل الإنصاف في السر والجهر ، مع التمكن من المال والظّهر ، ويسار الرعية جمال للملك وشرف ، وفاقتهم من ذلك طرف ، فغلب أليقَ الحالين بمحلك ، وأولاهما بظعنك وحيلك .

«واعلم أن كرامة الجور دائرة ، وكرامة العدل متكاثرة ، والغلبة بالخير

سيادة ، وبالشّر هَوَاة ، واعلم أن حسن القيام بالشرعية يحسمُ عنك نكايّة
الحوارج ، ويسمو بك إلى المعارج ، فإنّها تقصدُ أنواع الخدع ، وتوري بتغيير
البدع ، وأطلق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء ، وألسنة اللّيف من
الضعفاء ، واستشعر عند نكته شعار الوفاء .

«ولتكنْ ثقتك بالله تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها ، وكتيبة تنجدها ،
فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تُكتسب ، ويمهّد لك مع الأوقات نصراً لا يحسب .
«والتمس أبداً سلّم من سالمك بنفس ما في يدك ، وفضّلُ حاصل يومك
على مُنتظر غدك ، فإن أبي وضحت محجتك ، وقامت عليه للناس بذلك حجتك ،
فللنفوس على الباغين مَيْل ، ولها من جانبه نَيْل ، واستهد في كلّ يوم سيرة
من يناويك ، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك ، وأكذب بالخير ما
يُشيعه من مساويك ، ولا تقبل من الإطراء إلّا ما كان فيك فضل عن إطالته ،
وجد يُزري على بطالته ، ولا تلقَ المذنبَ بحميّتك وسبّك ، واذكر عند
حركة الغضب ذنوبك إلى ربك ، ولا تنسَ أن ربّ المذنب أجلسك مجلس
الفصل ، وجعل في قبضتك ريش النصل . وتشاغل في هدنة الأيام بالاستعداد ،
واعلم أن التراخي منذرٌ بالاستعداد ، ولا تهملْ عرض ديوانك ، واختبار
أعوانك ، وتحصين معاقلك وقلاعك . وعُمّ إياالك بحسن اطلاعك ، ولا تشغل
زمن الهدنة بلذاتك ، فتجني في الشدة على ذاتك ، ولا تطلق في دولتك ألسنة
الكهانة والإرجاف ، ومطاردة الآمال العجاف ، فإنه يبعثُ سوء القول ، ويفتحُ
باب العول ، وخذ على المدرسين والمتعلمين ، والعلماء والمتكلمين ، حمْل
الأحداث على الشكوك الخالجة والمزلات الواجحة ، فإنه يفسدُ طباعهم ،
ويغري سباعهم ، ويمدّ في مخالفة الملة باعهم ، وسدّ سبيل الشفاعات فإنّها
تفسد عليك حُسْنَ الاختيار ، ونفوس الخيار ، وابذل في الأسرى من حُسْن
ملكك ما يرضي من مَلِكك رقابها ، وقلّدك ثوابها وعقابها ، وتلقَ بده
نهارك بذكر الله تعالى في ترفعك وابتدالك ، واختم اليوم بمثل ذلك .

« واعلم أنك مع كثرة حُجَّابِكَ ، وكثافة حِجَابِكَ ، بمنزلة الظاهر للعيون ، المطالب بالديون ، لشدة البحث عن أموركَ ، وتعرف السرّ الخفي بين أمركَ ومأمورك ، فاعملْ في سرِّكَ ما لا تستقبِحُ أن يكونَ ظاهراً ، ولا تأنفُ أن تكونَ به مُجَاهِراً ، وأحْكِمْ بَرِّيك في الله ونَحْتِكَ ، وخَفْ مَنْ فوقَكَ يخفُ مَنْ تحْتَكَ ، واعلم أن عدوك من أتباعك من تناسيت حسنَ قَرْضِهِ ، أو زادت مؤونته على نصيبه منك وفَرْضِهِ ، فأصمت الحُجَجَ ، وتوقَّ اللَّجَجَ ، واستربَّ بالأمل ، ولا يحملنكَ انتظامُ الأمورِ على الاستهانة بالعمل ، ولا تحقرنْ صغيرَ الفساد ، فيأخذَ في الاستئساد ، واحبسِ الألسنةَ عن التخلي باغتيالِكَ ، والتشبَّثْ بأذيالِ ثيابِكَ ، فإن سوء الطاعة ينتقلُ من الأعينِ الباصرة ، إلى الألسنِ القاصرة ، ثم إلى الأيدي المتناصرة ، ولا تثقُ بنفسك في قتالِ عدوِّ ناواك ، حتى تظفرَ بعدوِّ غضبك وهواك ، وليكن خوفُكَ من سوء تدبيركَ ، أكثرَ من عدوك الساعي في تبيركَ^١ ، وإذا استترلت ناجماً^٢ ، أو أمنت ثائراً هاجماً ، فلا تقلِّده البلد الذي فيه نَجَمَ ، وهَمَى عارضُهُ فيه وانسجم ، يعظم عليك القدح في اختياركَ ، والغَضُّ من إثارك ، واحترز من كيدِهِ في حَوْرِكَ ومأمِكَ^٣ ، فإنَّكَ أكبرَ هَمِّهِ وليس بأَكْبَرِ هَمِّكَ ، وجَمَلِ المملكة بتأمين الفلوات ، وتسهيل الأقوات ، وتجديد ما يتعاملُ من الصرفِ في البياعات ، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات ، ولا تبخسْ عِيارَ قِيمِ البضاعات ، ولتكنْ يدُكَ عن أموال الناس محجورة ، وفي احترامها إلاَّ عن الثلاثة مأجورة : مال مَنْ عدا طَوْرُهُ طَوْرَ أهله ، وتخارقَ في الملابس والزينة ، وفضولِ المدينة ، يرومُ معارضتك بجهله ؛ ومَنْ باطنَ أعداك ، وأمينَ اعتداك ؛ ومَنْ أساء جوارَ رعيته بإخساره ، وبذل الأذية فيهم يمينه ويساره .

١ التتير : الهلاك .

٢ الناجم : النائر .

٣ الحور : العودة ؛ والمأم : القصد .

وأضرَّ ما مُنيتَ به التعادي بين عبدانك ، أو في بلد من بلدانك ، فسُدَّ فيه الباب ، واسأل عن الأسباب ، وانقلهم بوساطة أولي الألباب ، إلى حالة الأحباب ، ولا تطوق الأعلامَ أطواقَ المنون ، بهواجسِ الظنون ، فهو أمر لا يقفُ عند حد ، ولا ينتهي إلى عدِّ ، واجعلْ ولدك في احتراسك ، حتى لا يطمعَ في افتراسك .

« ثم لما رأى الليلَ قد كاد ينتصف ، وعموده يريدُ أن ينقصف ، ومجال الوصايا أكثر ممَّا يصف ، قال : يا أمير المؤمنين ، بحرُ السياسة زاهر ، وعمر المتمتع بناديك مستاخر ، فإن أذنتَ في فنٍّ من فنون الأنسِ يجذبُ بالمقاد ، إلى راحةِ الرقاد ، وَيُعْتِقُ النفسَ بقدرة ذي الجلال ، من ملكة الكلال .
« فقال : أمّا وقد استحسنّا ما سردت ، فشأنك وما أردت .

« فاستدعى عوداً فأصلحه حتى حمده ، وأبعد في اختباره أمدّه ، ثم حرك بجمته ، وأطال الجس ثمه ، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات ، ويصدع الحصة ، ويستفز الحليم عن وقاره ، ويستوقفُ الطير ورزقُ بنيه في منقاره ، وقال :

صاحِ ما أعطَرَ القبولَ بنَمّةٍ	أتراها أطالتِ اللبثَ ثَمّةٍ
هي دارُ الهوى مَنى النفس فيها	أبدَ الدهرِ والأمانِ جَمّةٍ
إن يكنْ ما تَأرَّجَ الجوُّ منها	واستفاد الشذا وإلا فمَمّةٍ
مَن لَطرفي بنظرة ولأنفسي	في رباها وفي ثراها بشمّةٍ
ذُكرَ العهدُ فانتفضتُ كأنّي	طرقَتني من الملائكِ لَمّةٍ
وطنٌ قد نَضِيتُ فيه شباباً	لم تُدَنِّسْ منه البرودَ مَدَمّةٍ
بنْتُ عنه والنفسُ من أجلٍ من قد	خَلَفْتَهُ خِلاله مُغْتَمّةٍ
كان حلماً فويحُ مَنْ أَمَلَ الدّه	رَ وأعماه جهلُهُ وأصمّةٍ
تأملُ العيشَ بعد أن خلقَ الجسد	م وبنيانُهُ عسيرُ المرمّةِ ؟
وغدت وفرةُ الشبيبة بالشيب	بِ على رغمِ أنفها معتمّةٍ

فَلَقَدْ فَازَ سَالِكٌ جَعَلَ الدَّهْرَ إِلَى اللَّهِ قَصْدَهُ وَمَأْمَهُ
مَنْ يَبْتَ مِنْ غُرُورِ دُنْيَا بِهِمْ يَلْدَغُ الْقَلْبَ أَكْثَرَ اللَّهُ هَمَّهُ

ثُمَّ أَحَالَ اللَّحْنَ إِلَى لَوْنِ التَّنْوِيمِ ، فَأَخَذَ كُلُّ فِي النَّعَاسِ وَالتَّهْوِيمِ ، وَأَطَالَ
الْجَسَّ فِي الثَّقِيلِ ، عَاكِفًا عَكُوفَ الضَّاحِي فِي الْمَقِيلِ ، فَخَاطَ عَيُونََ الْقَوْمِ ،
بِخِيُوطِ النَّوْمِ ، وَعَمَرَ بِهِمُ الْمَرَاقِدَ ، كَأَنَّمَا أَدَارَ عَلَيْهِمُ الْفِرَاقِدَ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ،
فَمَا عَلِمَ بِهِ أَحَدٌ وَلَا عَرَفَ ، وَلَمَّا أَفَاقَ الرَّشِيدَ جَدًّا فِي طَلْبِهِ ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِمُنْقَلَبِهِ ،
فَأَسَفَ لِلْفِرَاقِ ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيدِ حِكْمِهِ فِي بَطُونِ الْأَوْرَاقِ ، فَهِيَ إِلَى الْيَوْمِ تَتْلَى
وَتُنْقَلُ ، وَتَجْلَى الْقُلُوبُ بِهَا وَتُصْقَلُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ « انتهى .

قال في « الإحاطة » بعد إيراد نبذة من نثره ما صورته : فهذا ما حضر من
المنثور وحفظه عندي من الإجازة ضعيف ، وغرضه كما شاء الله تعالى سخي ،
لكن الله سبحانه بعباده لطيف ؛ انتهى .

١١٠ - ومما علق بحفظي من نثره قوله في تحليته لبعض أهل زمانه : هو
إمام الفئة ، وعين أعيان هذه المائة .

١١١ - وقوله في وصف فاس^١ : نعم العرين ، لأسود بني مَرَيْن ، ذات
المشاهد التي منها مطرح الجنة ومسجد الصابرين :

بَلَدٌ أَغَارَتْهُ الْحَمَامَةُ طَوْقَهَا وَكَسَاهُ رِيَشَ جَنَاحِهِ الطَّائِفُ^٢
فَكَأَنَّمَا الْأَنْهَارُ فِيهِ مُدَامَةٌ وَكَأَنَّ سَاحَاتِ الدِّيَارِ كُؤُوسٌ

جمعت ما ولد سام وحام ، وكثر الالتئام والالتحام ، واشتد الزحام ، إلى

١ انظر مشاهدات لسان الدين : ١١٠ - ١١١ والمقري ينقل من حفظه فلذلك اختلف ما أورده عن
النص الأصلي في عدة مواضع ، لا حاجة للإشارة إليها .

٢ مر البيتان والقول في نسبتها في المجلد ١ : ١٦٩ .

أن قال : يلقي الرجل أبا مثواه فلا يدعوه لبيته ، ولا يُطعمه من بَقْله وزيته ؛
لا يطرق الضيف حماهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسماتهم ﴿ إلا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ (ص : ٢٤) .

١١٢ - وقوله في وصف مراكش المحروسة : ذات المقاصر والقصور ،
ومأوى اللّيث الهصُور ، ومسكن الناصر والمنصور ، إلى أن قال : ومنارها
في الفلاة ، بمنزلة وآلي الولاية . ثمَّ بعد كلام : إلا أن خرابها هائل ، وزحامها
حرب وائل ، وعقاربها كثيرة الديب ، منغصة لمضاجعة الحبيب ؛ انتهى ما
كتبته من حفظي لطول العهد .

١١٣ - وقال رحمه الله تعالى في وصف مدينة بسطة^١ من كلام لم يحضرني
جميعه الآن : محل خصيب ، ومترل رحيب ، وكفاها مسجد الجنة دليلاً على
البركة وباب المسك دليلاً على الطيب ، ولها من اسمها نصيب ، إذ هي بحر الطعام ،
وينبوع العيون المتعددة بتعدُّد أيام العام ؛ انتهى .

[في ذكر بسطة]

ولما أجرى ذكر بسطة الإمام أبو الحسن القلصادي^٢ في رحلته قال : سقى
الله تعالى أرجاءها المشرقة ، وأغصانها المورقة ، شأيب الإحسان ، ومهداها
باهدنة والأمان ، دار تخجل منها الدور ، وتتقاصر عنها القصور ، وتقرّ لها
بالقصور ، مع ما حوته من المحاسن والفضائل ، من صحة أجسام أهلها وما طُبِعوا

١ المشاهدات : ٣١ .

٢ أبو الحسن القلصادي علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي نزيل غرناطة ، آخر من له التواليف
الكثيرة من أئمة الأندلس (إذ توفي سنة ٨٩١) . وقد ترجم له المقرئ في الراحلين إلى المشرق
(ج ٢ : ٦٩٢) .

عليه من كرم الشماثل ، وحسبك فيها من عدم الحرج ، أن داخلها باب الفرّج ؛
ثم قال : والله در القائل :

دارٌ مشى الإتقانُ في تنجيدها حتى تناسَبَ روضُها وبنائُها
مرقومةُ الجنباتِ ذاتُ قرارةٍ يمتدُّ قُدَّامَ العيونِ فضاؤها
ما زال يضحكُ دائماً نواها في وجهٍ ساحتهِ ويلعبُ ماؤها

ولبعض أصحابنا فيها وهو الأديب الكاتب أبو عبد الله ابن الأزرق :

في بسطةٍ حيثُ الأباطحُ مُشرِّقهُ أضحتُ جفوني بالمحاسنِ مُغلِّقهُ

وله أيضاً في تورية :

قلْ لِمَنْ رامَ النوى عن وَطَنِ قَوْلُهُ لَيْسَ بِهَا مِنْ حَرَجِ
فرَجِ الهمَّ بسكنى بسطةٍ إنَّ في بسطةٍ بابَ الفرَجِ

رجع :

١١٤ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به السلطان على لسان

جدّته ، وهو :

« إلى قرّة أعيننا وأعين المؤمنين ، وفلذة كبدنا الذي نصل للقائه الحنين بالحنين ،
وعزّنا الذي حللنا من كنفه بالحرم الأمين ، وسترنا الذي خلفنا برضاه من أفقده
الدهر من كرم البنين ، ووارثنا المستأثر بعدنا بطول السنين ، أمير المسلمين
الأسعد المؤيد الموفق الطاهر البر الرحيم الأرضي الكافل الفاضل حفيدنا محمد
ابن ولدنا الرضى وواحدنا الكريم الحفي السلطان الكبير الجليل السعيد الطاهر الظاهر
المقدس ، جعل الله تعالى من عصمته لزيماً يرافقه ، وأجرى القدر بما يوافقه ،
وحفظ عليه الكمال الذي تناسب فيه خلقه وخلائقه ، والبر الذي حسنت فيه
طرقه وطرائقه .

« من المستظلة بظلال رضاه وبرّه ، المبتهلة إلى الله تعالى في عزّ نصره ، وسعادة أمره ، الداعية إلى الله تعالى أن يسترها في الحياة وما بعدها بستره ، وما يفضّل عمرها من عمره ، جدته الثائقة إليه ، كتبه من كنفه العزيز بحمّرائه العلية عن الخير الدائم بدوامه ، واليسر الملازم ببركة أيامه ، ولا زائد بفضل الله تعالى إلا الشوق إليه ، وتحويم الكبد الخافقة خفوق رايته عليه ، وتجهيز مواكب الدعاء المقبول من خلفه ومن بين يديه .

« وقد وصل كتابه العزيز الوفاة والوصول ، الكريم الجُمْل والفصول ، مُطْلَع وجه السرور والجدل ، ومُهندي قصيّ الأمل ، ومجددُ العهد بحديثه الذي في ضمنه شفاء الغُلل ، وبرء العِلل ، مُهندياً تحفة عافيته وهي الهدية التي جَلّت عن المكافاة ، وترفعت عن المجازاة ، إنّما يجازي عليها مَنْ يصل بفضلها عاداتها ، ويُوالي بعد الإبداء إعاداتها . ووصفتم يا ولدي ما عرفتم من نعم الله تعالى التي انثالت عليكم سحابها ، وعنايته التي يلقي ركايبكم تسهاها وترحابها ، واستبشار الجهات بقدومكم الميمون ، واجتلاء وجهكم الذي فيه للإسلام قرّة العيون ، وكيف لا يكون ذلك وأنتم ذخركم العزيز ، وحرزهم الحريز ، والندرة التي خلصها من معادن سلفكم الذهب الإبريز ، في أيامكم والحمد لله نامت أجفانهم ، وتكيف أمانهم ، نسأل الله تعالى أن يديم لنا ولهم نعمة بقائكم ، ويُعلي الدين بعلوكم في معارج العز وارتقائكم ، فقابلنا ما قرره سلطانكم بالحمد والثناء ، والشكر المتصل على الآناء ، ومحضتكم من خالص الدعاء ، ما يتكفل لكم بالحسنى وما وعد الله تعالى من نيل الرجاء ، وتمهيد الأرجاء ، وأصدرت هذا الجواب لكم مصدر الهناء ، بنعم الله تعالى المُغْدقة والآلاء ، ونسألُ من فضلكم وبركم صلة التعريف بمثل هذه الأخبار السارة والأنباء ، وإتحافنا بمثلها مع الصباح والمساء ، وإن كان مجدكم غنيّاً عن الشبه لمثل هذه الأشياء ، أدام الله تعالى لكم أسباب البقاء ، وكان لكم في كلّ حال ، من إقامة وارتحال ، بعزة وجهه وقدرته » انتهى .

ويرحم الله تعالى لسان الدين ابن الخطيب ، فإنه يعبر في كل مقام بما يليق ، فتارة يترقى في أدراج البراعة ، وطوراً يهتك عنان البراعة .

[شعر لسان الدين]

وأما شعر لسان الدين رحمه الله تعالى فهو من النهاية في الحسن ، وقد قدمنا في هذا الكتاب منه نبذة في أثناء نثره وكلامه الذي جلبناه ، وفي مواضع غيرهما ، جملة مفيدة من شعره رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » ما نصّه : الشعر — ولنثبت جملة من مطولاته ، ونثله بشيء من مقطوعاته ، ونقدم من المطولات أمداح رسول الله صلى الله عليه وسلم تبركاً بها ، فمن ذلك قولي^١ :

هل كنت تعلم في هبوب الريح	نفساً يوجبُ لاجع التبريح
أهدتك من شيخ الحجاز تحية	فاحت لها عرض الفجاج الفيح
بالله قل لي كيف نيران الهوى	ما بين ريح في الفلاة وشيح
وخضبة المنقار تحسب أنها	نهلت بمورد دمعي المسفوح
باحت بما تخفي وناحت في الدجى	فرايت في الآفاق دعوة نوح
نطقت ، بما يخفيه قلبي ، أدمعي	ولطالما صمتت عن التصريح
عجباً لأجفان حملن شهادة	عن خافت بين الضلوع جريح
ولقلما كتبت روعة مدامعي	في صفحتها حلية التجريح
جاد الحمى بعدي وأجراع الحمى	جود تكل به متون الريح
هنّ المنازل ، ما فؤادي بعدها	سال ، ولا وجدي بها بمريح
حسي ولوعاً أن أزور بفكرتي	زوارها والجسم رهن نزوح ^٢

١ الإحاطة ، الورقة : ٤١٣ .

٢ الإحاطة : رهن ضريح .

فأبثَّ فيها من حديثِ صبابتي
ودُجْنَةٍ كادتُ تضلُّ بها السُّرى
رعشتُ كواكبُ جوِّها فكأنَّها
صابرتُ منها لحَّةٌ مهما ارتمتُ
حتى إذا الكفُّ الحُضيبُ بأفقهَا
شمتُ المنى وحمدتُ إدلاجَ السُّرى
فكأنَّما ليلى نسيبُ قصيدتي
لما حطَّطتُ لخيرٍ من وطىء الثرى
رحمى إله العرشِ بينَ عبادِهِ
والآيةُ الكبرى التي أنوارها
ربُّ المقامِ الصِّدقِ والآي التي
كهفُ الأنام إذا تفاقم مُعْضِلُ
يردون مِنْهُ على مثابةٍ راحمٍ
لهفي على عُمُرٍ مضى أنْضيتُهُ
يا زاجرَ الوجناء يعتسفُ الفلا
يَصِلُ السُّرى سبْقاً إلى خير الورى
لي في حمى ذاك الضريحِ لُبانةٌ
وبمهبطِ الروح الأمينِ أمانةٌ
يا صفوةَ الله المكينِ مكانُهُ
أقرضتُ فيكَ اللهَ صدقَ محبتي
حاشا وكلاءَ أن تخيبَ وسائلي
إن عاقَ عنكَ قبيحُ ما كسبتُ يدي

وأحثَّ فيها من جناح جنوحى
لولا وميضُ بارقٍ وصفيحِ
ورقٍ تُقلِّبها بنانُ شَحِيحِ
وطمتُ رميتُ عبابها بسُبُوحِ
مسحتُ بوجهٍ للصباحِ صَبِيحِ
وزجرتُ للآمالِ كلَّ سَنِيحِ
والصبحُ فيه تخلصي لمديحِ
بعنانِ كلِّ مولدٍ وصريحِ
وأمينه الأرضى على ما يوحى
ضاءتُ أشعتها بصفحةِ يوحى
راقتُ بها أوراقُ كلِّ صحيحِ
مثلُّوا بساحةِ بابهِ المَفْتُوحِ
جَمَّ الهباتِ عن الذنوبِ صَفُوحِ
في ملعبِ الترهاتِ فسبحِ
والليلُ يعثرُ في فضولِ مُسُوحِ
والركبُ بينَ مؤسَّدٍ وطريحِ
إن أصبحتُ لُبْنَى أنا ابنَ ذَرِيحِ
اليمنُ فيها والأمانُ لروحى
يا خيرَ مؤتمنٍ وخيرَ نصيحِ
أبكونُ تجرِي فيكَ غيرَ رِيحِ
أو أن أرى مسعايَ غيرَ نَجِيحِ
يوماً فوجهُ العفوِ غيرُ قَبِيحِ

واخجلتي من حلبة الفكر التي
 قصرت خطاها بعدما ضمّرتها
 مدحتك آيات الكتاب فما عسى
 وإذا كتابُ الله أثنى مفصلاً
 صلى عليك الله ما هبت صباً
 واستأثر الرحمن جلّ جلاله
 أغريتها بغرامي المشروح
 من كل موفور الحمام جموح
 يثني على عليك نظم مديحي
 كان القصور قصار كل فصيح
 فهفت بغصن في الرياض مروح
 عن خلقه بخفي سرّ الروح

وأنشدت السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين
 وسبعمائة هذه القصيدة :

تألق نجدياً فأذكّرني نجداً
 وميض رأى بُرد الغمامة مغفلاً
 تبسم في بحريّة^١ قد تجهمت
 وراود منها فاركاً قد تنعمت
 وأغرى بها كف الغلاب فأصبحت
 فحلتها الحمراء من شفق الضحى
 لك الله من برق كأن وميضه
 تعلم من مكانه شيم الندى
 وتوج من نوارها قنن الربى
 لسرعان ما كانت مناسف للصبا
 بلاد عهدنا في قرارها الصبا
 إذا ما النسيم اعتلّ في عرصاتها
 وهاج بي الشوق المبرح والوجد
 فمدّ يداً بالتبر أعلمت البردا
 فما بذلت وصلاً ولا ضربت وعدا
 فأهوى لها نصلاً وهددها رعدا
 ذلّوا ولم تسطيع لإمرته ردّاً
 نضاها وحلّ المزن من جيدها عقدا
 يد الساهر المقرور قد قدحت زندا
 فغادر أجراع الحمى روضة تندى
 وختّم من أزهارها القضب المُلدا
 فقد ضحكت زهراً وقد خجلت وردا
 يقلّ لذلك العهد أن يالف العهدا
 تناول فيها البان والشيع والرندا

١ الإحاطة : مفهماً .

٢ البحرية : صفة للسحابة .

فكم في مجاني وردها من علاقة
إذا استشعرتها النفس عاهدت الجوى
ومن عاشق حر إذا ما استماله
ومن ذابل يحكي المحبين رقة
سقى الله نجداً ما نضحت بذكرها
وأنس قلبي فهو للعهد حافظ
صبور وإن لم يبق إلا ذبالة
صبور إذا الشوق استجاد كتيبة
وقد كنت جلدأقبل أن يذهب النوى
أأجحد حق الحب والدمع شاهد
تناثر في إثر الحمول فريده
جری يققاً في ملعب الخد أشهباً
ومرتحل أجريت دمعى خلفه
وقلت لقلبي طيراً إليه برقعي
سرت صواع العزم يوم فراقه
وكحلت عيني من غبار طريقه
لي الله كم أهذي بنجد وحاجر
وما هو إلا الشوق نار كمينه
وما بي إلا أن سرى الركب موهناً
وجاشت جنود الصبر والبين والأسى
ورمت نهوضاً واعتزمت مودعاً
رقيق بدت للمشترين عيوبه

إذا ما استثيرت أرضها أنبتت وجدا
إذا التمحتها العين عاقدت السهدا
حديث الهوى العذري صيره عبدا
فيثني إذا ما هب عرفت الصبا قدأ
على كبدي إلا وجدت لها بردا
وقل على الأيام من يحفظ العهدا
إذا استقبلت مسرى الصبا اشتعلت وقدا
تجوس خلال الصبر كان لها بندا
ذمائي وأن يستأصل العظم والجلدا
وقد وقع التسجيل من بعد ما أذى
فلله عينا من رأى الجوهر الفردا
وأجهده ركض الأسى فجرى وردا
ليرجعه فاستن في أثره قصدا
فكان حماماً في المسير بها هدى
فلج ولم يرقب سواعاً ولا ودأ
فأعقبها دمعاً وأورثها سهدا
وأكني بدعد في غرامي أو سعادى
فأذهل نفساً لم تب عنده قصدا
وأعمل في رمل الحمى النص والوخدا
لدي فكان الصبر أضعفها جندا
فصدني المقدور عن وجهي صدأ
ولم تلتفت دعواه فاستوجب الردأ

تخلف مني ركب طيبة عانياً
مُخْلَفٌ سربٍ قد أُصيبَ جناحه^١
نشدتك يا ركبَ الحجاز ، تضاءلت
وجمَّ لك المرعى وأذعنتِ الصُّوى
إذا أنتَ شافهتَ الديارَ بطيبة
وآنستَ نوراً من جنابِ محمدٍ
فنبُّ عن بعيدِ الدارِ في ذلك الحمى
وقلْ يا رسولَ الله عبدٌ تقاصرتُ
ولم يستطعُ من بعد ما بَعُدَ المدى
تداركهُ يا غوثَ العبادِ برحمةٍ
أجار بك الله العبادَ من الردى
حمى دينك الدنيا وأقطعك الرضى
وطهر منك القلبَ لما استخصه
دعاهُ فما ولى ، هداه فما غوى
تقدمتَ مختاراً ، تأخرتَ مبعثاً
وعلةُ هذا الكونِ أنتَ ، وكلُّ ما
وهل هو إلا مظهرٌ أنتَ سرُّه
ففي عالمِ الأسرارِ ذاتك تجتلي
وفي عالمِ الحسِّ اغتديتَ ميوأً
فما كنتَ لولا أن ثبتَّ هدايةً
فماذا عسى يُثني عليك مُقَصِّرٌ
بماذا عسى يحزبك هاوٍ على شفاً
عليك صلاةُ الله يا كاشفَ العمى

١ ق : جناحه .

أما آن للعاني المعنى بأن يُفدى
وطرن فلم يسطع مراحاً ولا مغدى
لك الأرضُ مهما استعرض السهبُ وامتدَّ
ولم تفتقد ظلاً ظليلاً ولا وردا
وجئتَ بها القبرَ المقدسَ واللحدا
يجلِّي القلوبَ الغُلفَ والأعينَ الرمدا
وأذربِ بهِ دمعاً وعَفَّرُ بهِ خدّاً
خطاهُ وأضحى من أحبته فردا
سوى لوعةٍ تعتادُ أو مدحةٍ تُهدى
فجودك ما أجدى وكفك ما أُندى
وبوأهم ظلاً من الأمنِ ممتدّاً
وتوجك العليا وألبسك الحمدا
فجلَّلهُ نوراً وأوسعَه رشداً
سقاها فما يظما ، جلاه فما يصدا
فقد شملتُ علياؤك القبلَ والبعدا
أعاد فأنتَ القصدُ فيه وما أبدا
ليمتاز في الخلقِ المكبُّ من الأهدى
ملامحَ نورٍ لاحَ للطُّورِ فأنهدا
لتشفي من استشفى وتهدي من استهدى
من الله مثل الخلقِ رسماً ولا حدّاً
ولم يألُ فيك الذكرُ مدحاً ولا حمداً
من النارِ قد أوردته بعدها الخلدا
ومذهَّبَ ليلَ الروع وهو قد اربداً

إلى كم أراني في البطالة كأنما
تقضي زماني في لعل وفي عسى
حسامُ جبانٍ كلما شيمَ نصْلُهُ
ألا ليت شعري هل أراني ناهداً
رضيع لبان الصدق فوق شملة
فتُهْدَى بأشواق السراة إذا سرتُ
إلى أن أخطَّ الرحل في تربك الذي
وأطفئ في تلك الموارد غلتي
لمولدك اهتزَّ الوجودُ فأشرق
ومن رعبه الأوثانُ خرَّتْ مهابةً
وغاض له الوادي وصبَّح عزُّه
رعى الله منها ليلةً أطلع الهدى
وأقرض ملكاً قام فينا بحققها
وحيناً على شطِّ الخليج محلةً
وجاد الغمامُ العدُّ فيها خلانفاً
عليّاً وعثماناً ويعقوب ، لا عدا
حموا وهم في حومة البأس والندی
ولله ما قد خلفوا من خليفة
إذا ما أراد الصعب أغرى بنيله
وكم مُعتدٍ أردى وكم تائه هدى
أبا سالم دينُ الإله بك اعلى
فدُم من دفاع الله تحت وقاية
ودونكها مني نتيجة فكرة
ولو تركت مني الليالي صُباباً

وعمرى قد ولّى ، ووزري قد عدا
فلا عزمة تمضي ولا لوعة تهدا
تراجع بعد العزم والتزم الغمدا
أقودُ القلاص البدن والضامر النهدا
مُضمرة وسدت من كورها مهدا
وتُحْدَى بأشعاري الركاب إذا تحدى
تضوع ندّاً ما رأينا له ندّاً
وأحسب قرباً مهجة شكت البعدا
قصورٌ يبصرى ضاءت الهضب والوهدا
ومن هوله إيوان كسرى قد انهدا
بيوتاً لنارِ الفرس أعدمها الوقدا
على الأرض من آفاقها القمر السعدا
لقد أحرز الفخر المؤثّل والمجدا
يحالف من يتابها العيشة الرغدا
مآثرهم لا تعرف الحصر والعدا
رضى الله ذاك النجل والأب والحدّا
فكانوا الغيوث المستهلة والأسدا
حوى الإرث عنهم والوصية والعهدا
صدور العوالي والمطهمة الجردا
وكم حكمة أخفى ، وكم نعمة أبدى
أبا سالم ظلّ الإله بك امتدّا
كفاك بها أن تسحب الخلق السردا
إذا استرشت للنظم كانت صفّاً صلدا
لأجهدتها ركضاً وأرهقتها شداً

ولكنه جهْدُ المقلِّ بلغْتهُ وقد أَوْضَحَ الأعْذارَ مَنْ بَلَغَ الجهدا

وقلت أخاطب السلطان الملك الكبير العالم أبا عنان على أثر انصرافه من بابه رحمه الله تعالى :

أبدى لداعي الفوز وجهَ منيبِ
كلفُ الحنان إذا جرى ذكرُ الحمى
والنفسُ لا تنفكُ تكلفُ بالهوى
رحل الصَّبَا فطرحْتُ في أعقابهِ
أترى التغرُّلَ بعد أن ظعنَ الصَّبَا
أنَّى لمثلي بالهوى من بعد ما
لبسَ البياضَ وحلَّ ذرَّةَ منبرِ
قد كان يسترني ظلامُ شيبتي
وإذا الحديدانِ استجداً ألبيا
سلي عن الدهرِ الخؤونِ وأهله
متقلبُ الحالاتِ فاخبرُ تَقْلُهُ
فكلِ الأمورَ إذا اعترتكِ لربها
قد يخبأ المحبوبَ في مكروها
واصبرُ على مضضِ الليالي إنها
واقنَعُ بحظِّ لم تنلْهُ بحيلةٍ
يقع الحريصُ على الردى ولكم غداً
مَنْ رامَ نيلَ الشيءِ قبلَ أوانهِ
فإذا جعلتَ الصبرَ مفرعَ مُعضلِ
وإذا استعنت على الزمانِ بفارسٍ

وأفاقَ من عَذْلٍ ومن تأنيبِ
والبانِ حَنٍّ له حنينَ النِّيبِ
والشيبُ يلحظها بعينِ رقيبِ
ما كان من غَزَلٍ ومن تشيبِ
شأني الغداةَ أو النسيبَ نسيبي
لأوخطِ في الفودَيْنِ أيُّ ديبِ
مني ووالى الوعظَ فِعْلَ خطيبِ
والآنَ يفضحني صباحُ مشيبي
من لبسةِ الأعمارِ كلَّ قشيبِ
تَسَلِّ المهلَّبَ عن حروبِ شيبِ
مهما أعدتَ يداً إلى تَقْلِبِ
ما ضاقَ لطفُ الربِّ عن مروبِ
مَنْ يخبأ المَكْرُوهَ في المحبوبِ
لحواملٍ سَيَلِدُنَ كلَّ عَجيبِ
ما كلَّ رامٍ سهمهُ بمصيبِ
تركُ التَّسبِّبِ أنفعُ التَّسْيِيبِ
رامَ انتقالَ يَلْمَلَمِ وعَسِيبِ
عاجلتَ علتهُ بطبِّ طيبِ
لَبَّى نداءكُ منه خيرُ مجيبِ

١ فارس هو السلطان أبو عنان .

بخليفة الله الذي في كفه
المنتقى من طينة المجد الذي
يرمي الصعاب بصعبه فيقودها
ويرى الحقائق من وراء حجابها
من آل عبد الحق حيث توشحت
أسد الشرى سرج الورى فمقامهم
إما دعا الداعي وثوب صارخاً
شهب ثواقب في سماء عجاجة
ما شئت في آفاقها من راح
عجبت سيوفهم لشدة بأسهم
نظموا بلبات العلا واستوسقوا
تروي العوالي والمعالى عنهم
من كل موثق به إساده
فأبو عنان عن علي نصه
جاءوا كما اتسق الحساب أصالة
متجسداً من جوهر النور الذي
متألقاً من مطلع الحق الذي
قل للزمان وقد تبسم ضاحكاً
هي دعوة الحق التي أوضاعها
هي دعوة العدل الذي شمل الورى
لو أن كسرى الفرس أدرك فارساً
لما حلت بأرضه مستملياً

غيث يروض ساح كل جديب
ما كان يوماً صرفه بمشوب
ذلاً على حسب الهوى المرغوب
لا فرق بين شهادة ومغيب
شعب العلا وربت بأي كتيب
لله بين محارب وحروب
ثابوا وأموا حومة الثوب
مأثورها قد صح بالتجريب
يبدو وكف بالنجيع خضيب
فتبسمت والجو في تقطيب
كالرمح أنوباً على أنوب
أثر الندى الملود والمكسوب
بالقطع أو بالوضع غير معيب
للقل عن عثمان عن يعقوب
وغدا فذاك^١ ذلك المكتوب
لم ترم يوماً شمسه بغروب
هو نور أبصار وسر قلوب
من بعد طول تجهم وقطوب
جمعت من الآثار كل غريب
فالشاة لا تخشى اعتداء الذيب
ألقي إليه بتاجه المعصوب
ما شئت من بر ومن ترحيب

١ فذاك : جمع فذلكة وهي محصل الحساب .

شمل الرضى فكان كل أقاحة
وأُتيتُ في بحرِ القيرى أمّ القرى
فرايتُ أمّن الله في ظلّ الثّقى
ورأيتُ سيفَ الله مطرورَ الشبا
وشهدتُ نور الحقّ ليس بأفل
ووردتُ بحرَ العلمِ يقذفُ موجهُ
لله من شيمٍ كأزهارِ الربى
وجمالِ مرأى في رداء مهابة
يا جنةً فارقتُ من غرفاتها
أسفني على ما ضاع من حظّي بها
إن أشرقتُ شمسٌ شرقتُ بعبرتي
حتى لقد علّمتُ ساجعة الضحى
وشهادةُ الإخلاص توجبُ رجعتي
يا ناصرَ الدينِ الحنيفِ وأهله
حقّقْ ظنونَ بنه فيك فإنهم
ضاقَتْ مذاهبُ نصرهم فتعلّقوا
ودجا ظلامُ الكفرِ في آفاقهم
فانظروا بعينِ العزّ من ثغرِ غدا
نادتْكَ أندلسٌ ومجدك ضامنٌ
غصَبَ العدوُّ بلادها وحسامك
أرضِ السوابح في المجازِ حقيقةً
يتأوّدُ الأسَلُ المثقّفُ فوقها

تومسي بثغرٍ للسلام شَنِيبِ
حتى حطّطتُ بمرفأِ التقريبِ
والعدلِ تحت سرادقِ مضروبِ
يمضي القضاء بحدّه المرهوبِ
والدينِ والدنيا على ترتيبِ
للناسِ من دررِ الهدى بضروبِ
غيباً انثيالِ العارضِ المسكوبِ
كالسيفِ مصقولِ الفرندِ مهيبِ
دارَ القرارِ بما اقتضته ذنوبي
لا تنقضي ترحاته ونحيبي
وتفيضُ في وقت الغروب غروبي
شجوي وجانحة الأصيل شحوبي
لنعيمها من غيرِ مسّ لغوبِ
أنضاء مسغبة وفلّ خطوبِ
يتعلّلون بوعدك المرقوبِ
بجنابِ عزٍّ من علّاك رحيبِ
أوليس صُبْحُك منهم بقريبِ؟
حدّرَ العدا يرنو بطرفِ مُريبِ
أن لا يخيبَ لديك ذو مطلوبِ
حاضي الشبا مسترجعُ المغصوبِ
من كلّ قعدةٍ مُحَرَّبٍ وجنّيبِ
وتجيبُ صاهلةً رغاءِ نجيبِ

١ المطرور : المشحوذ ؛ الشبا : الحد .

والنصرُ يضحكُ كلَّ مَسمِ غرة
والرومُ فارمٌ بكلِّ نجمٍ ثاقبٍ
بذوابلِ السُّلبِ التي تركتُ بني
وأضفُ إلى لامِ الوغى أليفَ القنا
إن كنتَ تعجمُ بالعزائمِ عودها
ولكَ الكتائبُ كالحماثلِ أطلعتُ
فمرنَّجُ العطفينِ لا من نشوةٍ
يبدو سدادُ الرأي في راياتها
وترى الطيورَ عصائباً من فوقها
هذبتها بالعرضِ يذكُرُ يومه
وهي الكتائبُ إن تُنوسِي عَرْضها
حتى إذا فرضَ الجلالُ جداله
قدَّمتَ سالبةَ العدوِّ وبعدها
وإذا توسطَ وصلُ سيفك عندها
وتبرأَ الشيطانُ لما أنْ علا
الأرضُ إرثُ والمطاميعُ جمّةٌ
وخلائفُ التقوى همُ وراثتها
لكأني بكَ قد تركتَ ربوعها
وأقمتَ فيها مأتماً لكنّه
وتركتَ مفلتها بقلبٍ واجبٍ
تبكي نوادبها وينقلنَ الخطأ

واليمنُ معقودٌ بكلِّ سيبٍ
يُذكي بأربُعها شواظَ لهيبٍ
زيّانَ بينَ مجدّالٍ وسليبٍ
تظهرُ لديكَ علامةُ التغليبِ
عودُ الصليبِ اليومَ غيرُ صليبٍ
زهرةُ الأسنّةِ فوقَ كلِّ قضيبٍ
ومُورّدُ الحدينِ غيرُ مريبٍ
وأمورها تجري على تجريبٍ
لحلولِ يومٍ في الضلالِ عصيبٍ
عرّضَ الوري للموعدِ المكتوبِ
كانتَ مدوّنةً بلا تهذيبٍ
ورأيتَ ريحَ النصرِ ذاتَ هبوبٍ
أخرى بعزّ النصرِ ذاتَ وجوبٍ^٢
جزأيّ قياسكَ فزتَ بالمطلوبِ
حزبُ الهدى من حزبه المغلوبِ
كلُّ يهشُّ إلى التماسِ نصيبٍ
فإليكها بالخطِّ والتعصيبِ
قفرأُ بكرَّ الغزو والتعقيبِ^٣
عرسُ لنسرٍ بالفلاةِ وذيبِ
رهباً وخدٍ بالأسى مندوبِ
من شلُو طاغيةٍ لشلوِ سليبِ

١ يؤمى إلى المدونة في الفقه المالكي ، وتهذيب المدونة للبرادعي .

٢ في هذا البيت وما بعده إشارات إلى المصطلح المنطقي .

٣ التعقيب : العودة ثانية ، وهو من قولهم « قدح معقب » أي يعاد إلى الخريطة مرة بعد مرة .

جعلَ الإلهُ البيتَ منكَ مثابةً
 فإذا ذكرتَ كأنَّ هَبَّاتِ الصَّبَا
 لولا ارتباطُ الكونِ بالمعنى الذي
 قلنا لعالمك الذي شرفتهُ
 ولأجلِ قطركَ شمسها ونجومها
 تبدو بمطلعِ أفقها فضيَّةً
 مولاي أشواقِي إليك تهزِّي
 بحلِي عَلاكَ أَطَلَّتْهَا وَأَطْبَتْهَا
 طالبتُ أفكاري بفرضِ بديها
 متنبئاً أنا في حلِّي تلكَ العلى
 والطبعُ فحلٌّ ، والقريحَةُ حرَّةٌ
 هابتَ مقامكَ فاطبَّيتُ^٢ صعاها
 لكنني سهَّلْتُها وأدَلَّتْهَا
 إن كنتُ قد قاربتُ في تعديلها
 عذري لتقصيري وعجزِي ناسخٌ
 مَنْ لَمْ يَدِنْ لَهِ فَيَكْ بِقَرَبَةٍ
 للعاكفينَ وأنتَ خيرُ مُثِيبٍ
 فَضَّتْ بِمَدْرَجِهَا لَطِيمةً^١ طيبِ
 قَصْرَ الحُجَى عن سرِّهِ المحجوبِ
 حسدُ البسيطِ مزيَّةَ التركيبِ
 عدلتُ من التَّشْرِيقِ للتَّغْرِيبِ
 وتغيَّبُ عندك وهي في تذهيبِ
 والنَّارُ تَفْضَحُ عَرَفَ عودِ الطيبِ
 ولكم مُطِيلٍ وهو غيرُ مُطِيبِ
 فوفتُ بشرطِ الفورِ والترتيبِ
 لكنَّ شعري فيكَ شعراً حبيبِ
 فاقبله بَيْنَ نَجِيبةٍ ونَجِيبِ
 حتى غدتُ ذُلُلاً على التدريبِ
 من كلِّ وحشيٍّ بكلِّ ربيبٍ^٣
 لا بدَّ في التعديلِ من تقريبٍ^٤
 ويجلُّ منك العفوُّ عن تريبِ
 هو من جنابِ الله غيرُ قريبِ

ولما احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب ، وتشتمل على أوصافٍ من ذكر الحلبة التي أرسلها ، والطلبة التي

١ اللطيمة : وعاء الطيب أو قافلة تحمل طيوباً .

٢ اطببت : استملت .

٣ الوحشي : اللفظ الوحشي ؛ والريبب : المربب المألوف في البيت يعني به القول ؛ ولعل فيه إشارة بعيدة إلى وحشي قاتل حمزة وإلى الريبب مثل عمر بن أبي سلمة الذي كان ربيب النبي (ص) .

٤ التعديل والتقريب من مصطلحات الحساب والفلك .

نصبها في الهواء للفرسان يرسلون العصي إليها ، والثيران التي أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها في صورة القرط من آذانها ، وهي آخر النظم في الأغراض السلطانية ، قصر الله تعالى ألسنتنا على ذكره ، وشغلها به عن غيره :

شَحَطْتُ وفودُ الليل بانَ به الوَحْطُ
أتاهُ وليدُ الصبحِ من بعدِ كبرةِ
كَأَنَّ النجومَ الزَّهرَ أَعشارُ سورةِ
وقد وردتْ نهرَ المجرَّةِ سحرةِ
وقد جعلتْ تَفْلي بَأَملها الفلا
يحفُّ عبابُ الليلِ عنها جواهرأ
فسارتْ خيالاً مثلها ، غير أنه
سَرَتْ سلخَ شهرٍ في تَلَفَتْ مقلّةِ
لي الله من نَفْسٍ شَعاعٍ ومهجةِ
ونقطةِ قلبٍ أصبحتْ منشأ الهوى
فأقسمُ لولا زاجرُ الشيبِ والنَّهى
لريع لها الأحراسُ مني بطارقِ
تنأقله كَوَماءُ ساميةِ الذِّرا
ولولا النَّهى لم تستهينَ سُبُلَ الهدى
ولولا عَوادي الشيبِ لم يبرحِ الهوى
ولولا أميرُ المسلمينَ محمدُ
ينوبُ عن الإصباحِ إن مظلَ الدجى
وعَسْكَرُهُ الزنجيُّ همَّ به القَبْطُ
أيولَدُ أجناً^١ ناحلُ الجسمِ مشمطُ
ومن خَطَرَاتِ الرِّجَمِ أثناءها مَطُ
غوائصَ فيه مثلاًما تفعلُ البطُ
ويرسلُ منها في غداثه مشطُ
فيكثرُ فيها النَّهْبُ للحينِ واللقطُ
من البثِّ والشكوى يبينُ له لغطُ
على قَتَبِ الأحلامِ تَسْمُو وتنحطُ
إذا قُدَحَتْ لم يخبُ من زندها سَقَطُ
وعن نقطةِ مفروضةِ ينشأ الخطُ^٢
ونفسُ لغيرِ الله ما خضعتْ قطُ
مفارقةُ شَمَطُ وأسيافه شُمَطُ
ويقذفه شهمٌ من النِّيقِ منحطُ
وكاد وزانُ الحقِّ يدركه الغمطُ
يهتجهُ نوءٌ على الرملِ مخنطُ
لهالتِ بحارُ الرَّوعِ واحتجبَ الشطُ
ويضمنُ سقي السَّرحِ إن عظم القحطُ

١ الأجناً - وهو مهموز الآخر - الأحدث .

٢ قد مر بنا استخدام لسان الدين لمعارفه في الشعر ، وهو هنا يظهر شيئاً من معرفته الهندسية .

تقرُّ له الأملاكُ بالشيَمِ العسلا
أرادوه فارتدُّوا ، وجاروه فانشوا
تُبِرُّ على المدّاحِ غُرُّ خلاله
تعلّمَ منه الدهرُ حالِيَه في الورى :
ويجمعُ بين القبضِ والبسطِ كفه
خلائق قد طابت مذاقاً ونفحةً
أسبطَ الإمام الغالبى محمّداً
وقتك أواقي الله من كلِّ غائلٍ
لقد زلزلتُ منك الغزائمُ دولةً
إيالةً غدرٍ ضيَعَ اللهُ ركنها
على قدَرٍ جلتى بكَ الله بؤسها
وكانوا نعيمَ الجنّتين تفيّأوا
فقد عوّضوا بالأثلِ والحمطِ بعدها
فمن طائحٍ فوق العراءِ مجدّالٍ
وأتحفَ منك الله أمةً أحمدٍ
أنمتَ على مهّدِ الأمانِ عيونها
وصمَّ صدى الدنيا فلماً رحمتها
وأحكمتَ عقْدَ السلمِ لم تألُ بعده
وأيقنَ مراتبٌ ، وأصبحَ نافرٌ

إذا بُذِلَ المعروفُ أو نُصبَ القسطُ
وساموه في مرّقى الجلالةِ فأنحطوا
وما رسموا فوق الطروسِ وما خطّوا
فآونةً يسخو ، وآونةً يسطو
بحكمةٍ من في كفه القبضُ والبسطُ
كما مُزجتُ بالباردِ العذبِ إسفنطاً^١
ويا فخرَ ملكٍ كنتَ أنتَ له سبطُ
فأيُّ سلاحٍ ما المجنُّ وما اللمطُ^٢
أناختُ على الإسلامِ تجني وتشتطُ
ونادى بأهلِها التّبارَ فلم يُبْطوا
ولا يكملُ البُحرانُ أو ينضجَ الخلطُ
ولمّا يقعَ منها النزولُ ولا الهبطُ^٣
وهيهاتِ أين الأثلُ منها أو الحمطُ
ومن راسفٍ في القيدِ أزهقه الضغطُ
أماناً كما يصفو على الغادةِ المرطُ
فيُسمعُ من بعد السهادِ لها غَطُّ
تزاحمَ مرتادٌ عليها ومختطُ
وجاء فصَحَّ العقدُ واستوثقَ الربطُ
وأذعنَ مُعتاصٌ ، وأقصرَ مشتطُ

١ الإسفنط : اسم للخمر .

٢ اللمط : الدرق اللطيفة ، منسوبة إلى لمطة من قبائل المغرب .

٣ استوحى في هذا البيت والذي يليه الآية الكريمة « لقد كان لسيا في مسكنهم آية جنتان . . . الآية » (سبأ : ١٥) .

والله مَبْنَاكَ الذي معجزاتُه
 وأنسَتْ غَرِيبَ الدارِ مسقطَ رأسه
 تناسبتِ الأوضاعُ فيكَ وأحكمتْ
 فجاء على وفق العلا رائقُ الحلَى
 والله إَعْذارٌ دَعَوْتَ لهُ الوري
 تقودهم الزُّلفى ، ويدعوهم الرضى
 وأغرِيتْ بالبهيمِ العلاجَ تحفياً
 أتتْ صورةً مَعْلولةً عن مزاجها
 قضيتْ بها دَيْنَ الزمانِ ، ولم يزلْ
 وأرسلتْ يومَ السَّبْقِ كلَّ طِمِرَةٍ
 رَنَّتْ عن كحيلٍ كالغزالِ إذا رنا
 وقامتْ على منحوتةٍ من زبرجدٍ
 وكلَّ عتيقٍ من تماثيلِ رومَةٍ
 وطاعنةٍ نحرَ السِّكَاكِ أَعَانَهَا
 تَلَقَّفَ حَيَاتِ العَصِيَّ إذا هَوَتْ
 أزرَتْ بها بحرَ الهواءِ سَفِينَةٌ
 وطاردتْ مَقْدَامَ الصُّوَارِ بِجَارِحِ
 متينُ الشَّوَا في رأسه سَمُهرِيَّةٌ
 وقد كان ذا تاجٍ فلما تعلقا
 وجيءَ بشبلِ الملكِ ينجدُ عزمه
 سمحتْ به لم ترعَ فرطَ ضنانه
 فأقدمَ مختاراً ، وحكمَ عاذراً

سَمَتَ أن توافيها الشفاهُ أو الخطُ
 ومن دون فرخيه القتادةُ والحرطُ
 على قَدَرٍ حتى الأرائكُ والبُسْطُ
 كما سُمِّطَ المنظومُ أو نُظِمَ السمطُ
 فهبّوا لداعيه المهيّبِ وإن شطّوا
 ويحدوهمُ الحصبُ المضاعفُ والغبطُ
 فلم يذخرِ الشئُ الغريبُ ولا السمطُ^١
 وأصلُ اختلافِ الصورةِ المزجُ والخلطُ
 أكّدَ كذوبَ الوعدِ يلوي ويشطُ
 كما قذفَ الملمومةَ النارُ والنفطُ
 وأوفتْ بهادٍ كالظليمِ إذا يعطو
 تخطُّ على الصَّمِّ الصِّلابِ إذا تخطو
 تأنقَ في استخطاطه القسُ والقمطُ
 على الكونِ عرقٌ واشجٌ ولحى سُبْطُ
 فتعبانها لا يَسْتَقِيمُ لهُ سرطُ
 على الجوّ لا الجوديُّ كانَ لها حطُ
 يُصابُ بهِ منه الصِّماخُ أو الإبطُ
 مقصّرةٌ عَنْهُنَّ ما يُنْبِتُ الخطُ
 بسامِعَتَيْهِ زانَهُ مهما قرطُ
 عليه الحفاظُ الجعدُ والخلقُ السبطُ
 وفي مثلها من سنّةٍ يتركُ الفرطُ
 ولم يشتملَ مَسْكٌ عليه ولا ضبطُ

١ السمط : الخفيف الجسم .

ولو غير ذات الله رامته نَضَضَتْ
وأسد نزال من ذؤابة خزرَج
جلادهم مثنى إذا اشتجر الوغى
كتائب أمثال الكتاب تتالياً
دليلهم القرآن ، يا حبذا الهدى
وبيض كأمثال البروق غمامها
ولكنه حكم يطاع سنة
وربت نقص للكمال ماله
فهنيته صنعاً ودمت مملكاً
ودون الذي يهدي ثناؤك في الورى
رضيت ومن لم يرض بالله حاكماً
حياتك للإسلام شرط حياته

قناً كالأفاعي الرقط أو دونها الرقط
بهاليل لا روم القديم ولا قبط
كان رعاء بالعضاه لها خبط
فمن بيضها شكل ، ومن سمرها نقط
ورهمهم الأنصار ، يا حبذا الرهط
إذا وشحت سحب القتام دم عبط
وأعمال بر لا يليق بها الحبط
ولا غرو فالأقلام يصلحها القبط
عزيزاً تشيد المعلوات وتختط
من الطيب ما تهدي الألوة والقسط^١
ضلالاً فله الرضى وله السخط
ولا يوجد المشروط إن عدم الشرط

هذا كاف في المطولات لنجلب منها عرضاً يدل على جوبها ، ونتحف منها أنفس
الظرفاء بمطلوبها ، منقولة من الكتاب المسمى بـ « أبيات الأبيات » ومن الكتاب
المسمى بـ « الصيِّب والجهام » .

فمن التورية على طريقة المشاركة قولي^٢ :

مضجعي فيك عن قتادة يروي وروى عن أبي الزناد فؤادي
وكذا النوم شاعر فيك أمسى من دموعي يهيم في كل وادي

ومن هذا الباب أيضاً :

١ الألوة : العود يتبخر به ؛ والقسط : عود هندي أيضاً يدخل في البخور والطيب .
٢ راجعت أكثر هذه المقطعات على نسخة الإحاطة ولكنها لم ترد على الترتيب الذي جاءت فيه في النسخ ؛
ولست أرى حاجة إلى شرحها في الحواشي ؛ وانظر أيضاً أزهار الرياض ١ : ٣٠٤ - ٣١٣ فقد
ورد أكثرها هنالك ؛ وكذلك نشر فرائد الجمان : ٢٤٨ - ٢٥٦ .

ولمّا رأّت عزمي حثيثاً على السّرى وقد رابها صبري على موقف البين
أنتُ بصحاحِ الجوهريِّ دموعُها فعارضت من دمعي بمختصرِ العينِ
وفي هذا المعنى :

كتبْتُ بدمعِ عيني صَفْحَ حَدّي وقد منع الكرى هجرُ الخليلِ
ورابَ الحاضرينَ ، فقلتُ : هذا كتابُ العينِ يُنسَبُ للخليلِ
ومن الأغراضِ الظريفةِ فيها :

تعجلت وخط الشيب في زمنِ الصِّبا لحوضي غمارَ الهمِّ في طلبِ المجدِ
فمهما رأيتم شيةً فوق مفرقي فلا تنكروها إنها شيةُ الحمدِ
ومن التورية بالنجوم ، والكاتب بيته بيت شرفه :

بأوتُ على زمي همّةً فأعتبني الزمنُ العاتبُ
وشرفني الله في موطني وفي بيته يشرف الكاتبُ

وأبدع منها قولي لمن يدعى بشمس الدين :

قلْ لشمسِ الدينِ وقَّيتَ الردى لم يدعْ سَقْمُكَ عندي جَلداً
رَمَدَتْ عَيْنُكَ هذا عَجَبٌ أوعَيْنُ الشمسِ تشكو الرّمداً

وقلت في غرض التورية بما يظهر من الأبيات :

أفلَ الأُلى كانوا نجو ما للورى فالكونُ مظلمُ
وتساكر الناسُ الحدي ث الحقَّ وافتقدَ المعلمُ
أنا كاتبُ السلطانِ ما طالعتُ قطُّ كتابَ مُسلمِ
إلاّ سخاماً قادحاً في الدينِ واللهُ المسلّمُ

وفي معنى الدعابة مع بعض الطلبة :

قال لي عندما أتى بجدال
ولساني يبدل الدال تاء
التمس مخرجاً يوافق قولي
وشكوك على أصول الدين
عاجز في الأمور عن تبين
قلت : أحسنت يا جلال التين

وفي التورية :

اذمم ذوي التطفيل مهما أتى
يمشي على رجله مع أنه
وإن تكن أجملتهم فاعنه
من جنس من يمشي على بطنه

وقلت :

أفقد جفني لذيد الوسن
عذاره المسكي في خده
من لم أزل فيه خليع الرسن
أنبت الله النبات الحسن

وقلت في رثاء من اسمه حسن :

أشكو إلى الله من بئ ومن شجتي
أصاب الحس العين التي رشقت
لم أجن من محنتي شيئاً سوى محن
وعادة العين لا تضمي سوى الحسن

وفي الشيب :

تفر عن الشيب الغواني تعزراً
بدا وضحاً في جدة العمر شانياً
كما يعترها إن رأت سام أبرصا
فمن سام شيخاً فهو قد سام أبرصا

وقلت في السها من النجوم الجوفية :

قالوا : السها بادي النحول كأنه
أتراه يشكو؟ قلت : هذا ممكن
متستر تبدو مخايل خوفه
والله يعلم داره من جوفه

وقلت :

عابوا وقالوا : بساقه شَعَرٌ
قلت: انظروا ورد روضِ وجنته
لقد عداه الكمالُ من ساقِ
وكلُّ وردٍ مُشَوَّكُ الساقِ

وقلت في التضمين :

رُفِعَتْ قصةُ اشتياقي ليحيى
ورمى بالكتاب ضعفَ اهتبالٍ
فَرَوَى الوجهَ رافضاً للفتوةِ
قلت يحيى خذِ الكتابَ بقوةِ

وقلت :

وذي حَيْكَلٍ يُعْمِي التَّقِيَّةَ أمرُهُ
يدبُ شَبُولَ اللَّيْثِ ، واللَّيْثُ سَاهِرٌ
مكايدُهُ في لَحَةِ اللَّيْلِ تسبحُ
ويسرقُ نَابَ الْكَلْبِ ، وَالْكَلْبُ يَنْبَحُ

وقلت :

لَمَّا رَأَوْا كَلْفِي بِهِ وَدَرَوَا
قالوا الفتي حلوا فقلت لهم
مقدار ما لي فيه من حُبٍّ
طلعت حلاوته على قلبي

وقلت ، ولهما حكاية :

وذي زوجة تشكو فقلت له : اسقيها
فقال : أبت شربَ الدواء بطبعها
دواءً من الحَبِّ المِلِّينِ للبَطْنِ
فقلت : اسقيها إن عافت الشربَ بالقرنِ

وقلت :

لعنوا بَرِيًّا من خبائثِ ظَنِّهِمْ
والله لا أوطأتُ ساقِي سوقَهم
فالله يلعنُ أهلَ سوقِ العنبرِ
أبدَ الزمان فتلك سوقُ آلِ العنْ بَرِي

ومن الفكاهات :

ولما دعاني داعي الهوى وأخلف ما كنت أملتُهُ
ولم يبقَ غير البكا حيلةً بكيتُ بمقدارِ ما نلتُهُ

وقلت ، وقد رُفِعَ للسلطان باكورة بنفسج :

قدم البنفسجُ وهو نعم الواردُ قد نَمَّ منه إليَّ طيبٌ زائدُ
فسألتُه : ما باله ؟ فأجابني والحقُّ لا يُبغى عليه شاهدُ
أقبلتُ أطلبُ من بنانِ محمدٍ صلةً فعادَ عليَّ منه عائدُ

وقلت من التشبيه :

سهرنا وفي سير النجوم اعتبارنا إلى أن ضفا لليلِ من فوقنا رَيطُ
فخللنا شهابَ الرجمِ لبرةً خائطٍ مسوحاً وما يبقى من الذنبِ الحيطُ

وقلت أودع صديقاً أنستُ به :

فلاحةٌ مثلي ممقوتةٌ وإن أعجبَ البدءُ منها وراقُ
زرعتُ اللقَاءَ وعالجتهُ فلمُ أستفدُ منه إلاَّ الفراقُ

ومن تضمين المثل :

لا تهيجُ بالذكرِ في كبدي نارَ وجدٍ شقٍّ محتَمَلُهُ
ويقولُ الناسُ في مثلي لا تحركُ من دنا أجلُهُ

ومن المدح :

عَجَباً لراحتك الملتة بالندى أن لا تكونَ على الغمامِ غماما
يهمني ووجهك نورُهُ متآلقٌ والقطرُ إن سَحَبَ السحابُ أغاما

ومن أبيات المدح :

يا ناصرَ الدينِ لما قلَّ ناصرُهُ
لولا التشهدُ والتردادُ منك له
ومطلع الجودِ في الدنيا - وقد أفلا
لم يسمعِ الناسُ يوماً من لسانك لا

ومن أوصاف صنيع سلطاني :

ماذا أحدثُ في صنيعِ خلافة
فكأنما الحوزاءُ حينَ تعرَّضتُ
هشتُ إليه الشُّهبُ في آفاقها
شدَّتْ لتخدم فيه عقْدَ نطاقها

ومن قصيدة في وصف قرس :

فبَوَّأتهُ مِنْ مِهْجَتِي مُتَبَوِّأ
ويا عَجَباً مِنِّي وفِرطَ تشييعي
خفياً على سرِّ الفؤادِ المكتَمِ
أهيم بوجدي فيه وهو ابن مُلْجَمِ

ومن الحماسة في التورية بالمنطق^١ :

حتى إذا فرضَ الجلادُ جداله
قدَّمتْ سَالِبَةً العدوَّ وبعدها
ورأيتُ ريحَ النصرِ ذاتَ هبوبِ
أخرى بغزِّ النصرِ ذاتَ وجوبِ
وإذا توسَّطَ حدُّ سيفك عندها
جزأي قِياسَ فزت بالمطلوبِ

وفي خاتمة قصيدة :

ما ضرَّني إنْ لم أجيء متقدِّماً
ولئن غدا رُبَّعُ البلاغةِ بَلَقْعاً
السبقُ يُعرِّفُ آخرَ المضمارِ
فلربَّ كنزٍ في أساسِ جدارِ

ومن المدح :

إنَّ أبهمَ الخطبُ جلَّى في دُجُنَّتِه
وإنَّ عتا الدهرُ أبدى من أسرَّتِه
رأياً يفرِّقُ بين الرأي والرشدِ
وكفه هَدْيَ حيرانِ وريِّ صدِّ

١ مرت الأبيات في البائية التي مدح فيها أبا عنان ، انظر ما تقدم ص : ٤٥٨ .

وإنْ نظرتَ إلى لآلئِ غُرَّتِه يوم الهياج رأيتَ الشمسَ في الأسدِ

ومن الأوصاف في قصيدة :

كم ليالٍ بتُّ في ظلمائها أمتطي من نار شوقي فُرُشا
وكأنَّ النّجمَ شَرِبْتُ ثَمْلُ واصلَ الثملةَ حتى ارتعشا

ومن التورية بالكفتين من الحيل العددية :

لا عدلَ في الملكِ إلّا وهو قد نصبه وصيرَ الخلقَ في ميزانه عَصَبَه
والكفتانِ ترى من كفه درتا أن تخرج العددَ المجهولَ للطلبه

وفي رجل يحتال على الولاية^١ :

حلفتُ لهم بأنّك ذو يسارٍ وذو ثقةٍ وبرٍّ في اليمينِ
ليستندوا إليك بحفظِ مالٍ فتأكلَ باليسارِ وباليمينِ

وقلت ، ولهما حكاية تظهر من الأبيات :

قلتُ لما استقلَّ مولاي زرعِي ورأى غلّةَ الطعامِ قليله
دمني لانتجاعي الحرثَ كلتُ فهي اليومَ دمنةٌ وكليله

ومما صدرتُ به كتاباً لأحد الفضلاء :

يا مَنْ تقلّدَ للعلاء سلوكا والفضلُ صيرَ نهجَه مسلوكا
كاتبتي متفضلاً فملكنتي لا زلتُ منك مكاتباً مملوكا

وقلت في غرض يظهر منه :

١ يتفق لسان الدين وابن رضوان في هذه التورية ، انظر ما تقدم ص : ١١٢ .

جلس المولى لتسليم الورى ولفصل البرد في الجو احتكام
فاذا ما سألوا عن يومنا قلت : هذا اليوم برد وسلام
وقلت من التورية :

يا مالكي بخلال تُهْدِي إلى القلب حيره
أضمرت قلبي نارا يا مالك بن نويره
وقلت في التورية :

أضاف إلى الحفون السود شعرا كجنع الليل أو صبغ المداد
فقلت أمير هذا الحسن تزكو ال أجور له بتكثير السواد
وقلت أيضا :

بأبي بدر غزاني مستيحاً شرح صدري
فأنا اليوم شهيد ال حب من غزوة بدر
وقلت ، ولهما ١ حكاية :

أيا ليلة بالخصب لم تال شهرة كما اشتهرت في فضلها ليلة القدر
فأمن قلب اللوز من علة ٢ النوى وأصبح فيها التين منشرح الصدر
ومن النزعات المشرقية في التورية :

يا قائدي نحو الغرام بمقلّة نفقت حلاوتها بكل فؤادي
ماذا جنيت علي من مضض الهوى الله ينصف منك يا قوادي

١ ق : ولها .

٢ ق : من غمة .

ومن هذا النمط المشرقي :

وقالتُ حلّقتُ الكسَّ مني بنوْرةً
ألا فابلغي عني فديتُكِ واصدقي
فقلتُ لها استنصرتِ من ليس ينصُرُ
مخلّق ذاك الكسَّ أني مقصّرُ

ومنها :

قال لي والدموعُ تنهلُ سحّاً
بك ما بي فقلتُ مولاي عافا
أنا جفني القريحُ يروي عن الأء
في عراضٍ من الحدودِ محولِ
لك المعافي من عبرتي ونحولي
مشٍ ، والجفنُ منك عن مكحولِ

ومن أبيات التورية أو ما داخلته :

في مصرٍ قلبي من خزائن يوسف
حلّيتُ شعري باسمه فكأنّه
حبُّ وعيرُ مدامعي تمتاره
في كلِّ قطرٍ حلّه ديناره

ومن المدح أيضاً ولا أستحضر لقبه :

رأيتُ بكفّك اعتباراً
فقلتُ وقد عجبتُ منها
بأساً وندي ما إن يباري
يا بحرُ متى تدعو نواراً

وقلتُ ممّا يجري مجرى الحكم :

إنَّ الهوى لشكايةٌ معروفةٌ
والنفسُ إن ألفتْ مرارةَ طعمه
صبرُ التصبرِ من أجلِّ علاجها
ضمنتُ بذلكَ له صلاحَ مزاجها

ومن الغرائب في الأوصاف :

كأنما الروضُ ملكٌ
باهي به جُلّسائه

١ ق : سجباً .

يرضى النديمُ فمهما سقى الرياض كساهُ

وفي غرض النسيب :

أصبحَ الخدُّ منكَ جنةَ عدنٍ مجتلى أعينٍ وشمَّ أنوفٍ
ظللتهُ من الجفونِ سيوفٌ جنةُ الخلدِ تحتَ ظلِّ السيوفِ

وقلت في النسيب :

أرسلتُ طرفي في حُلاكَ بنظرةٍ هي كانت السببَ الغريبَ لما بي
وأراكَ بالعبراتِ قد عاقبتها ليسَ الرسولُ بموضعٍ لعقابِ

ومن تحسين القبيح :

وأحوّلَ يعدي القلبَ سهمُ جفونه فتضحى صحيحات القلوب به مرضى
رأى الحسنُ أنَّ اللحظَ منه مهتدٌ فحرّفهُ كيما يكونَ له أمضى

ومن التزعّات الحسنة :

من لي بذكرى كلّما أوجزتها تمحو سُلُويَ واشتياقي تثبتُ
وسحابُ دمعٍ كلما أمطرته غير القتادِ بمضجعي لا يُنبِتُ

ومن النسيب :

جاء العذارُ بظلٍّ غيرِ ممدودٍ فمتهى الحسنِ منه غيرُ محدودٍ
ناديتُ قلبي إذ لاحت طلائعُه يا صبرَ أيوبَ هذا درعُ داودِ

وفي نقيضه :

ما ضرَّ مني أنْ أخلفْتُ موعودي وروض خذك أضحي ذاوي العُودِ
وقالَ قوسُ عذارٍ فوقَ صفحتهِ سفينة الحسنِ قد حطّت على الجودي

ومن التضمين :

يا مَنْ بأكثافِ فؤادي رَبَّعٌ^١ قد ضاقَ بي عن حبِّكَ المتسعُ
ما فيكَ لي جدوى ولا أرعوي «شعُّ مطاعٌ وهوى متَّبِعٌ»

ومن الأغراض المخترعة :

أنكرتُ لما أطلَّ عارضُهُ فقال لي حين رابهُ نظري
ألمْ تقلْ لي بأنَّني قَمَرٌ فانظر إلى وبرِّ أرنبِ القمرِ

ومن التضمين :

يا كوكبَ الحسنِ يا معناهُ يا قَمَرَهُ يا روضَهُ المتناهي الرَّيْعِ يا ثَمَرَهُ
أمرتني بسلوِّ عنك ممتنعٍ «مأمورٌ حسنكُ لما يقضِ ما أمره»

وقلت :

لما رضيتَ بفرقي وبعادي وصرمتَ آمالي وخنتَ ودادي
لأعنتُ أمَّ الصبرِ فيكَ وبعده ورثتُ للأشجانِ كثرَ فؤادي
فالصبرُ مني أجَنَّبني بعدها ولواعجُ الأشجانِ من أولادي

ومن الأغراض المشرقية :

سار بي للأمير يشكو اعتراضي يوسفٌ والشهودُ أبناءُ جنسِهِ
قال لي ما تقول قلتُ مجيباً لم نخفُ من نكاله أو لحبسه
حصَّصَ الحقُّ ياخوندُ فدعني أنا راودتُ يوسفاً عن نفسه

ومن الأوصاف :

١ ق : رنع .

بتنا نطارحُ همَّ القحطِ ليلتنا وأيدَ الهمَّ والسَّهْدُ البراغيثا
وكانَ يحمِدُ ما كنّا نكابدهُ منَ المشقةِ لو أنَّ البراغيثا

وفي قريب من المعنى :

وقالوا بدت منكم على الجسم حمرةٌ فقلتُ براغيثُ لكم رَقَطوننا
عدتْ نحونا ليلاً ومن بعدنا اغتدتْ كما رقصتْ في القلْبِ بزر قَطوننا

ومن التضمين :

قال جَوادي عندما همزتُ همزاً أعجزه
إلى متى تهمني ﴿ويلٌ لكلِّ همزَةٍ﴾

وفي رثاء السلطان أبي الحجاج رحمه الله تعالى :

غبتَ فلا عينٌ ولا مخبرٌ ولا انتظارٌ منك مرقوبُ
يا يوسفُ أنتَ لنا يوسفُ وكلُّنا في الحزنِ يعقوبُ

وقلت ، ولهما حكاية :

طالَ حزني لنشاطِ ذاهبٍ كنتُ أسقى دائماً من حانه
وشبابٍ كان يندى نضرةً نزلَ الثلجُ على ريحانه

وقلت ، وقد أعجبنى نشاطُ ولدي :

سرقَ الدهرُ شبابي من يدي ففؤادي مُشعرٌ بالكمدِ
وحمدتُ الأمرَ إذْ أبصرتهُ باعَ ما أفقدني من ولدي

١ ق : وشباب كان يندى من يدي .

وقلت ، ولهما حكاية :

قلت للشيب لا يربك جفائي في اختصاري لك البرور ومقتك
أنت بالعتب يا مشيبي أولى جثني غفلة وفي غير وقتك

ومما خططته في رملة نزلتها :

أقمنا برهة ثم ارتحلنا كذلك الدهر حال بعد حال
وكل بداية فإلى انتهاء وكل إقامة فإلى ارتحال
ومن سام الزمان دوام أمر فقد وقف الرجاء على المحال

وقلت أيام مقامي بسلا :

أيا أهل هذا القطر ساعداه القطر بليت فدلوني لمن يرفع الأمر
تشاغلنا بالدنيا ونمت مفرطاً وفي شغلي أو نومي سرق العمر

وقلت ، والبقاء لله وحده ، وبه نختم الهذر :

عدّ عن كيت وكيت ما عليها غير ميت
كيف ترجو حالة البق يا لمصباح وزيت

انتهى ما نقلته من « الإحاطة » من ترجمة نظمه ، وبعض ما ذكر هنا قد تقدّم ، وكرّره لكونه بلفظه في الإحاطة ، وقد ذكرت أثناء الأبواب غير هذا الباب من نظم لسان الدين - رحمه الله تعالى - كثيراً ، ولنعرّز ذلك هنا بذكر ما لم يتقدّم ذكره ، إذ نظمه بحر لا ساحل له ، ولذا كتب ابنه أبو الحسن على هذا المحل من الإحاطة ما صورته : ولوالدي أيضاً المترجم به - رحمه الله تعالى - في سكين الأضاحي لسلطان أبي الحجاج يوسف بن نصر فيما يكتب بالسكين المضحية :

ليَ الفخرُ إن أبصرتني أو سمعتَ بي على كلِّ مصقول الغرارين مرهفٍ
كفاني فخرًا أن تَرانيَ قسائمًا بسنة إبراهيمَ في كَفِّ يوسفٍ

ومقطوعاته كثيرة لم يتضمن هذا الديوان منها إلا القليل بسبب الاختصار ، ومن أراد الوقوف على جملتها فعليه بكتاب « الصيِّب والجهام » في شعره ، رحمه الله تعالى ، قال ذلك ولده علي ، لطف الله تعالى به آمين ؛ انتهى .

فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى ¹ :

عسى خطرة بالركبِ يا حادي العيسِ	على الهضبة الشمَّاء من قصر باديسِ²
لنظفَرَ من ذاك الزلالِ بعلَّة	وننعمَ في تلك الظلالِ بتعريسِ
حبستُ بها ركيّ فواقًا ، وإنما	عقدتُ على قلبي بها عقد تحبيسِ³
لقد رسختُ أيُّ الجوى في جوانحي	كما رسخ الإنجيلُ في قلب قيسِ
بمبدانٍ جنني للسهادِ كتيبةٌ	تغير على سرح الكرى في كراديسِ
وما بي إلا نفحةٌ حاجريةٌ	سرت والدجى ما بين وهنٍ وتغليسِ
ألا نفَسٌ يا ريح من جانب الحمى	تُنَفِّسُ من نار الجوى بعض تنفيسِ
ويا قلبُ لا تُلُقِ السلاحَ فربما	تعذَّرَ في الدَّهرِ اطرادُ المقاييسِ
وقد تُعْتَبُ الأيَّامُ بعدَ عتابها	وقد يعقب الله النعيمَ من البوسِ
ولا تخش لَجِ الدمعِ يا خطرة الكرى	إلى الجفن بل قيسي على صرح بلقيسِ
تقولُ سليمى ما لجسمك شاحباً	مقاله تأنيبٍ يُشَابُ بتأنيسِ
وقد كنتَ تَعْطُو كلما هبت الصِّبا	بريَّانَ في ماء الشبيبةِ مغموسِ
ومن رابحِ الأيَّامِ يا ابنةَ عامرٍ	بحجوبِ الفلا راحت يداهُ بتفليسِ

١ الإحاطة : ٤٢١ وأزهار الرياض ١ : ٢٣٤ .

٢ قصر باديس : فرضة بالمغرب تقابل مالقة من الديار الأندلسية .

٣ التحبيس : الوقف الدائم .

فلا تحسبي والصدقُ خيرُ سجيّةٍ
وقفراءٍ أمّا ركبُها فمضللٌ^١
سحبنا بها من هَضْبَةٍ لقرارةٍ
إذا ما نهضنا عن مقيل غزالةٍ
أدركنا بها كأساً دهاقاً من السُّرى
وحانة خمّارٍ هدانا لقصدها
تطلّع ربانيّتها من جداره
بكرنا وقلنا إذْ نزلنا بساحه
أيا عابد الناسوتِ إنّنا عصابةٌ^٢
وما قَصَدنا إلّا المقامَ بحانةٍ
فأنزَلنا قَوراءَ في جنباتها^٣
بدرنا بها طينَ الختامِ بسجدةٍ
ودارَ العذارى بالمدامِ كأنها
وصارفنا فيها نُصاراً بمثله
وقمنا نشاوى عندما متّع الضحى
فقال لبشّ المسلمونَ ضيوفنا
وهلّ في بني مَثْواكَ إلّا مبرّزٌ^٤
إذا هَزَّ عَسالَ اليراعةِ فاتكأَ
يقلّبُ تحتَ النّقعِ مقلةَ ضاحكٍ

ظهورَ النّوى إلّا بطون النّواميسِ^١
ومربعُها من آنسٍ غير مأنوسٍ
ضلالاً وملنا من كِناسٍ إلى خيسٍ
نزلنا فعرّسنا بساحةٍ عريسٍ^٢
أملنا بها عند الصباح من الروسِ
شميمٌ الحميّا واصطكأكُ النّواقيسِ
يهيّمُ في جنحِ الظلامِ بتقدّيسٍ
عن الصافناتِ الجُردِ والضُمّرِ العيسِ
أتينا لتثليثٍ بلى ولتسديسٍ
وكمْ ألبسَ الحقّ المين بتلّيسٍ
محاربٍ شتى لاختلاف النّواميسِ
أردنا بها تجديدَ حسرةِ إبليسِ
قطيعٌ تهادى في رياش الطواويسِ
كأنّا ملأنا الكاس ليلاً من الكيسِ
كما نهضتْ غلبُ الأسود من الخيسِ
أما وأبيكَ الحبر ما نحن بالبيسِ
بجلبةٍ شورى أو بحلقةٍ تدريسِ
أسالَ نجيعَ الحبرِ فوق القراطيسِ
إذا التفتَ الأبطالُ عن مُقلٍ شُوسِ

١ لعل صوابها : « النواويس » .

٢ العريس : عرين الأسد .

٣ ق : فوراً على جنباتها ، والتصويب عن أزهار الرياض والإحاطة .

٤ الأزهار : قفا تتهادى ؛ وسقط البيت من الإحاطة .

سبينا عُقار الروم في عقر دارها^١ بحليّة تمويه وخذعة تدليس
لئن أنكرت شكلي ففضلي واضح وهل جائز في العقل إنكار محسوس
رسبت بأقصى الغرب ذخر مضنة وكم درّة علياء في قاع قاموس
وأغريت سوسي بالعذيب وبارق على وطن داني الجوار من السوس

ومن أبدع ما صدر^٢ عن لسان الدين رحمه الله تعالى لاميته المشهورة التي خاطب
بها السلطان حين عاد من المغرب إلى الأندلس ، وأعاد الله تعالى عليه ملكه الذي
كان خلّع منه ، ويقال : إن السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالحمراء
إعجاباً بها ، وإنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التي استولى عليها العدو
الكافر ، أعادها الله تعالى للإسلام ، وأول هذه القصيدة :

الحقُّ يعلو والأباطلُ تسفلُ والله عن أحكامه لا يسألُ

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمها للسلطان - أسعده الله تعالى - وأنا بمدينة
سلا ، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس ، كان صنعُ الله تعالى براعة استهلالها ،
ووجهت بها إليه إلى رُندة قبل الفتح ، ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاء بنذري
وسميتها « المنح الغريب في الفتح القريب » ومنها :

وإذا استحالت حالة وتبدلت فالله عز وجل لا يتبدلُ
واليسرُ بعد العسر موعودٌ به والصبرُ بالفرج القريب موكلُ
والمستعدُّ لما يؤملُ ظافرُ وكفاك شاهد « قيدوا وتوكلوا »^٣
أحمدٌ والحمدُ منك سجيةٌ بحليتها دون الوري تتجملُ
أما سعودك فهي دون منازع عقدٌ بأحكام القضاء مسجلُ

١ الإحاطة والأزهار : خانها .

٢ انظر أزهار الرياض ١ : ٢٦٢ .

٣ يشير إلى الحديث « اعقلها وتوكل » .

ولك السجايا الغرُّ والشَّيمُ التي
ولك الوقار إذا تزلزلتِ الرُّبى
عوذ كمالك ما استطعت فإنه
تاب الزمان إليك مما قد جنى
إن كان ماضٍ من زمانك قد مضى
هذا بذاك فشفع الجاني الذي
والله قد ولاك أمر عباده
وإذا تغمَّدك الإله بنصره

ومنها :

وظعنت عن أوطان ملكك راكباً
والبحر قد حنيت عليك ضلوعه
ولك الجواري المنشآت قد اغتدت
جوفاء يحملها ومن حملت به

ومنها :

صبحتهم غرر الجياد كأنما
من كل منجرد أغر محجل
زجل الجناح إذا أجده لغاية^١
جيد كما التفت الظليم وفوقه^٢
فكأنما هو صورة في هيكلي

بغريبهما يتمثل المتمثل
وهفت من الروح الهضاب المثل
قد تنقص الأشياء مما تكمل
والله يأمر بالمتاب ويقبل
بإساءة قد سرك المستقبل^١
أرضاك فيما قد جناه الأول
لما ارتضى بك قيماً لا تغزل
وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

متن العباب فأي صبر يحمل
والريح تقطع للزفير وترسل
تختال في برد الشباب وترفل
من يعلم الآنثى وماذا تحمل

سد الثية عارض مهلل
يرمي الجلاد به أغر محجل
وإذا تغنى للصهيل فلبيل
أذن مشقة وطرف أكحل
من لطفه وكأنما هو هيكلي

١ سقط هذا البيت من ق .

٢ الأزهار : لغارة .

ومنها :

وخليج هندٍ راقٍ حُسْنُ صفائه
غرقت بصفحته النمالُ وأوشكتُ
فالصرحُ منه مُمرَّدٌ ، والصفحُ مذ
وبكلٍ أزرقٍ إن شكتُ الحاظه
متأوِّدٌ أعطافه في نشوةٍ
عجباً له أن النجيعَ بطرفه

ومنها :

لله موقفك الذي وثباته
والخيلُ خطٌّ ، والمجالُ صحيفةٌ
والبيضُ قد كُسرتُ حروفُ جفونها
لله قومك عند مشجر القنا
قومٌ إذا لفَحَ الهجيرُ وجوههم
ووثباته مثلٌ به يتمثلُ
والسُّمرُ تنقطُ ، والصوارمُ تشكُلُ
وعواملُ الأسلِ المثقفُ تعملُ
إذ ثوبَ الداعي المهيبُ وأقبلوا
حجبوا برايات الجهاد وظللوا

وهي طويلة لم يحضرني الآن منها سوى ما كتبه .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله ٢ :

يا إمامَ الهدى وأيَّ إمامٍ
أنتَ عبدُ الحليم ، حلمك نرجو
أوضح الحقَّ بعد إخفاء رسمه
فالمسمى له نصيبٌ من اسمه

وقال يخاطب عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن سلطان إفريقية
مودعاً ٣ :

١ الأزهار : مصندل .

٢ أزهار الرياض ١ : ٢٦١ .

٣ المصدر نفسه .

أبا مالك أنت نجلُ الملوكِ غيوثُ الندى وليوثُ النزالِ
ومثلك يرتاحُ للمكرماتِ وما لك بين الورى من مثالِ
عزيزُ بأنفسنا أن نرى ركابك مؤذنةً بارتحالِ
وقد خبرت منك خلقاً كريماً أنافَ على درجاتِ الكمالِ
وفازتُ لديك بساعاتِ أنسٍ كما زار في الليل طيفُ الخيالِ
ولولا تَعَلَّلُنَا أننا نزورك فوق بساطِ الجلالِ
ونبلغُ فيك الذي نبتغي وذاك على الله سهلُ المنالِ
لما فترتُ أنفُسُ من أسَى ولا برحتُ أدمعُ في انهمالِ
تلقَّتْكَ حيث حللتُ السعودُ وكان لك الله في كلِّ حالِ

وتوفي أبو مالك المخاطب بهذا في بلاد الجريد سنة ٧٥٠ .

ومن نظم ابن الخطيب قوله لما أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى^٢:

ماذا أحدث عن بحر سبَّحتُ به من البحارِ فلا إثمٌ ولا حرجُ
دحاهُ مبتدعُ الأشياءِ مستويًا ما إن به دركٌ كلاً ولا درجُ
حتى إذا ما المنارُ الفردُ لاحَ لنا صحت ابشري يا مطايا جءك الفرجُ
قربت من عامرٍ داراً ومنزلةً والشاهد العدل هذا الطيب والأرجُ

وقال رحمه الله تعالى^٣:

كأننا بتامسنا نجوسُ خلالها وممدودها في سيرنا ليس يقصرُ
مراكبُ في البحرِ المحيطِ تخبطُ ولا جهةً تدري ولا البرَّ تبصرُ

١ الأزهار : احتلت .

٢ أزهار الرياض : ٢٦٥ .

٣ المصدر نفسه .

وقال سأل الله تعالى ، وهو مكتوب بالمدرسة التي بناها السلطان أبو الحجاج ابن
نصر رحمه الله تعالى ^١ :

ألا هكذا تُبنى المدارسُ للعلمِ	وتبقى عهودُ المجدِ ثابتةَ الرسمِ
ويُقصد وجه الله بالعملِ الرضى	وتجنى ثمار الغزِّ من شجر الغزمِ
تفاخر مني حضرة الملكِ كلَّما	تقدم خصم في الفخار إلى خصمِ
فأجدي إذا ضنَّ الغمامُ من الحيا	وأهدى إذا جنَّ الظلام من النجمِ
فيا ظاعناً للعلمِ يطلبُ رحلةً	كفيت اعتراض البيد أو لجج اليمِ
بباني حطَّ الرحل لا تنوِ وجهةً	فقد فزت في حال الإقامة بالغيمِ
فكم من شهابٍ في سمائي ثاقبٍ	ومن هالةٍ دارت على قمرٍ ثم
يفيضون من نورٍ مبينٍ إلى هدى	ومن حكمةٍ تجلو القلوب إلى حكمِ
جزى الله عني يوسفًا خير ما جزى	ملوك بني نصر عن الدين والعلمِ

وقال رحمه الله تعالى ^٢ : مررت يوماً مع شيخنا أبي البركات ابن الحاج ببعض
مسالك غرناطة حرسها الله تعالى فأنشدني من نظمه :

غرناطةٌ ما مثلها حضرةٌ الماء والبهجة والحضرةُ

واستجازني رحمه الله تعالى ، فقلت :

سكانها قد أسكنوا جنةً فهم يُلَقَّون بها نضرةُ

وقال في تورية طيبة ^٣ :

إني وإن كنتُ ذا اعتلالٍ رثَّ القوى بيِّنَ الهزالِ

١ أزهار الرياض : ١ : ٢٧٢ .

٢ المصدر نفسه .

٣ أزهار الرياض : ١ : ٢٧٤ .

في عارض التيس لي شفاء فكيف في عارض الغزال

وقال رحمه الله تعالى يخاطب شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق موطناً على بيت المشاركة في العذار^١ :

أما والذي تبلى لديه السرائرُ	لما كنت أرضي الحسف لولا الضرائرُ
غدوتُ لضيم ابن الربيب فريسةً	أما ثار من قومي لنصري ثائرُ
إذا التمسْتُ كفتي لديه جرايتي	كأنني جان أوبقتُهُ الجرائرُ
وما كان ظني أن أنالَ جرايسةً	يحكم من جرّائها في جائرُ
متى جاد بالدينار أخضر زائفاً	ودارتُهُ دارتُ عليها الدوائرُ
وقد أخرج التعنيتُ كيسَ مرارتي	ورقتُ لبلوأي النفوسُ الأخائرُ ^٢
تذكرتُ بيتاً في العذار لبعضهم	له مثلُ بالحسن في الأرض ثائرُ
« وما أخضرَ ذاك الحدُّ نبأً ، وإنما	لكثرة ما شقتُ عليه المرائرُ »
وجاهُ ابن مرزوق لديّ ذخيرةٌ	وللشدة العظمى تُعدُّ الذخائرُ
ولو كان يدري ما دهاني لساءه	وأنكرَ ما صارتُ إليه المصائرُ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحد الشرفاء^٣ :

أعيا اللقاء عليّ إلا لمحةً	في جملة لا تقبلُ التفصيلاً
فجعلتُ بابك عن يمينك نائباً	أهديه عند زيارتي تقيلاً
فإذا وجدتُك نلتُ ما أملتُهُ	أو لم أجذك فقد شفيتُ غليلاً

ولما دخل رحمه الله تعالى مدينة أنفا^٤ ، ومر منها على دار عظيمة تُنسب إلى والي

١ المصدر نفسه .

٢ اضطربت هذه اللفظة في ق ، وأثبتنا ما في أزهار الرياض .

٣ أزهار الرياض ١ : ٢٧٥ .

٤ أنفا : هي الدار البيضاء الحديثة في المغرب .

جبايتها عبّو من بني الترجمان قارون قومه وغني صنفه ، قال ١ :

قد مررنا بدار عبّو الوالي وهي ثكلى تشكو صروف الليالي
أقصدت ربّها الحوادث لما رشقته بصائبات نبال
كان بالأمس والياً مستطيلاً وهو اليوم ما له من وال

وقال في الشيخ ابن بطّان الصنهاجي ٢ :

لله درك يا ابن بطّان فما لشهير جودك في البسيطة جاحد
إن كان في الدنيا كريم واحد يزن الجميع فانت ذاك الواحد
أجريت فضلك جعفرأ يحيا به ما كان من مجد فذكرك خالد
فالقوم منك تجمّعوا في مفرد ولد كما شاء العلاء ووالد
وهي الليالي لا تزال صروفها يشقى بموقعها الكريم الماجد
وبمستعين الله يصلح منك ما قد كان أفسده الزمان الفاسد

وقال رحمه الله تعالى وقد انتابه البرغوث ٣ :

زحفت ٤ إلى ركائب البرغوث نَمّ الظلام بركبها المحثوث
بالحبة السوداء قابل مقدمي لله أي قرى ، أعدّ ، خبيث
كسحت بهن ذباب سرح تجلدي ليلاً فجلّ الصبر جد رثيث
إن صابرت نفسي أذاه تعبّدت أو صحت منه أنفت من تحنيث
جيشان من ليل وبرغوث فهل جيش الصباح لصرختي بمغيث

١ أزهار الرياض ١ : ٢٨٨ .

٢ المصدر نفسه .

٣ أزهار ص : ٢٨٩ .

٤ ق : رجعت .

وقال يخاطب الوالي محمد بن حسّون بن أبي العلاء ، وصدرَ بها رسالة ^١ :

لم يُبق لي جودُ الولايةِ حاجةً	في الأمن أو في الجاه أو في المالِ
بعد اللقاء أولو الفضائلِ بغيتي	ورأيتُ هذا القصدَ شرطَ كمالِ
أجملتُهُ وتشوّفتُ لبيّانه	هممٌ فكنتُ مفسّرَ الإجمالِ
وخصّصتُ بالإلقاء غيركَ غيرَةً	وجعلتُ ذكركَ شاهدَ الأعمالِ
للبيتِ يا ابنَ أبي العلا قُشِبَ الملا	وتركتُ أهلَ الأرضِ في أسمالِ
إنْ دوّنَ الفضلاءَ فضلاً معلّماً	فلقد أتيتُ عليه بالإكمالِ
تُثني عليكَ رعيّةٌ آمالُها	في أنْ تفوزَ يداكَ بالآمالِ
أرعيّتها هملاً فلمْ يطرقْ لها	بمنيعِ سورك طارقُ الإهمالِ
من كنتَ واليه تولّتهُ العلا	ومن اطّرحتَ فما له من والي

وقال في عثمان بن يحيى بن عمر بن روح ^٢ :

أسميَ ذي النورين وجهك في الوغى	شمس الضحى حلّتْ بليث عرينِ
إنْ تفتخر بمرين أرضُ العدوّةِ الـ	قصوى فإنّك أنتَ فخرُ مرينِ

وقال رحمه الله تعالى عند وقوفه على مراکش واعتباره بما صار إليه أمرها ^٣ :

بلدٌ قد غزاهُ صَرَفُ الليالي	وأباحَ المصونَ منه مُبيحُ
فالذي خَرَّ من بناءٍ قتيلُ	والذي خَرَّ منه بعضُ جريحُ
وكأنَّ الذي يزورُ طيبُ	قد تأتّى له بها التشريحُ
أعجمتُ منه أربُعُ ورسومُ	كان قِدماً بها اللسانُ الفصيحُ

١ أزهار : ٢٨٩ .

٢ المصدر نفسه .

٣ أزهار : ٢٩٠ .

كم معانٍ غابت بتلك المغاني وجمال أخفاهُ ذاكَ الضريحُ
وملوكٍ تعبّدوا الدهرَ لما أصبح الدهرُ وهو عبدٌ صريحُ
دوخوا نازحَ البسيطةِ حتى قالَ ما شاء ذابِلٌ وشفيعُ
حينَ شبتَ لهم من البأسِ نارُ ثمَّ هبتَ لهم من النصرِ ريحُ
أثرٌ يندبُ المؤثرَ لما طال بعدَ الدنوِّ منهُ التروحُ
ساكن الدارِ روحها، كيف يبقى جسدٌ بعدما تولّى الروحُ ؟

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحمد بن يوسف حفيد الولي الصالح سيدي أبي محمد صالح النائم في ظل صيته رحمه الله تعالى ^١ :

يا حفيدَ الولي يا وارثَ الفخ رِ الذي نال في مقامٍ وحالٍ
لك يا أحمدَ بنَ يوسفَ جينا كلَّ قطرٍ يعيي أكفَ الرحالِ

وقال في « نفاضة الجراب » : لما خرجت من آسفي ^٢ سرت إلى منزل ينسب إلى أبي خدّو ، وفيه رجل من بني المنسوب إليه اسمه يعقوب ، فألطف وأجزل ، وآنس في الليل ، وطلبتني بتذكرة ثبت عندي معرفته فكتبت له ^٣ :

نزلنا على يعقوب نجل أبي خدّو فرعّنا الفضلَ الذي ما له حدُّ
وقابلنا بالبشرِ واحتفل القرى فلم يبقَ لحمٌ لم ننلّه ولا زبدُ
يحقُّ علينا أن نقومَ بحقه ويلقاه منا البرُّ والشكرُ والحمدُ

وقال :

ألقي إلى الأيام فضلَ مقادتي فتجنّبي ما بين كدٍّ وإرهاقِ

١ أزهار : ٢٩٨ .

٢ آسفي : بالمغرب على ساحل الاطلنطي ؛ والسين منها مفتوحة أو ساكنة .

٣ المصدر نفسه .

وأَتَلَفَ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ فَكَّرْتِي وَلَسْتُ بِخَلَّاقٍ وَلَسْتُ بِرِزَّاقٍ
إِذَا كُنْتُ بِالْإِثْرَاءِ لِي فِي تَمَلُّقٍ رَضِيتُ بِعِزِّ النَّفْسِ فِي عِزِّ إِمْلَاقٍ

وقال :

لَكَ الْمَلِكُ مَلِكُ الْحَسَنِ فَاقْضِ بِنَا الَّذِي تَشَاءُ فَمَا يُعْصِي لِأَمْرِكَ وَاجِبُهُ
إِذَا مَا كَسَرْتَ اللَّحْظَ مِنْ تَحْتِ حَاجِبٍ تَحْكَمُ فِي الْأَلْبَابِ كَسْرِي وَحَاجِبُهُ

وقال :

سَأَلْنَا رَبِيعَ الْعَامِ لِلْعَامِ رَحْمَةً فَضَنَّ وَلَمْ يَسْمَحْ بِذَرَّةٍ إِنْعَامٍ
فَقَلْنَا وَقَدْ رَدَّ الْوَجْوهَ وَلَمْ يُبَلِّ قَلِيلُ الْحَيَا قُبُّحَتِ وَاللَّهِ مِنْ عَامٍ

وقال :

تَخَوَّنَهُ صَرْفُ الزَّمَانِ وَهَلْ تَرَى بَقَاءَ لَحْيٍ أَوْ دَوَاماً عَلَى أَمْرٍ
هُوَ الدَّهْرُ ذُو وَجْهَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَنْ كَانَ ذَا وَجْهَيْنِ يَعْتَبُ فِي غَدْرٍ

وقال رحمه الله تعالى في شجر الجوز :

انْظُرْ إِلَى يَنْعِي وَحُسْنِ بُسُوقِي يَهْوُ النَّسِيمُ بِقَدِّي الْمَشُوقِ
يَجْلُو اللَّوَاظِظَ مَنْظَرِي حَسناً كَمَا يَجْلُو ثُغُورَ الْفَانِيَّاتِ عُرُوقِي

وقال رحمه الله تعالى في ساق :

كَيْفَ آمَنْتُمَا عَلَى الشَّرْبِ ظَبِيًّا لِحَظُهُ فِي الْقُلُوبِ غَيْرُ أَمِينٍ
رَاحَ يَسْقِي فَصَبَّ فِي الْكَأْسِ نِزْرًا ثِقَةً مِنْهُ بِالَّذِي فِي الْعَيُونِ

وقال يخاطب السلطان :

أَنْتَ لِلْمُسْلِمِينَ خَيْرُ عِمَادٍ وَمِلَازٍ وَأَيُّ حِرْزٍ حَرِيزٍ
 لَوْ رَأَى مَا شَرَعْتَ لِلخَلْقِ فِيهِ عَمْرُ الْفَاضِلِ ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 لَحَزَى مَلِكُكَ الْمُبَارَكَ خَيْرًا وَقَضَى بِالْشُفُوفِ وَالتَّبْرِيزِ
 فَاشْكُرَ اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتَ بِفَعْلٍ وَبِقَوْلٍ مُطَوَّلٍ أَوْ وَجِيزِ
 كُلُّ مَلِكٍ يُرَى بِصَحْبَةِ أَهْلِ الْإِ عِلْمٍ قَدْ بَاءَ بِالْمَحَلِّ الْعَزِيزِ
 فَإِذَا مَا ظَفَرْتَ مِنْهُمْ بِإِكْسِي رِمَالَتِ الْبِلَادِ مِنْ إِبْرِينِ
 وَالْبِرَايَا تَبِيدُ وَالْمَلِكُ يَفْنَى أَيْنَ كَسْرَى الْمُلُوكِ مَعَ أَبْرُونِ

وقال رحمه الله تعالى :

مَا لِي أَهْذَبُ نَفْسِي فِي مَطَامِعِهَا وَالنَّفْسُ تَأْنِفُ تَهْدِيهِ وَتَهْذِي بِي
 إِذَا اسْتَعْنْتُ عَلَى دَهْرِي بِتَجْرِبَةٍ تَأْبَى الْمَقَادِيرُ تَجْرِيهِ وَتَجْرِي بِي
 وقال :

مَنْ لَا نَصِيبَ لَصَحْبِهِ فِي خَيْرِهِ وَإِذَا سَعَى لَمْ يَقْضِ حَاجَةً غَيْرَهُ
 فَاقْصِدْ أَبَاهُ مَتَى أَرَدْتَ وَقُلْ لَهُ اللَّهُ يُلْهِمُهُ الْعِزَاءَ بِأَيْرِهِ

وقال رحمه الله تعالى :

أَمْسْتَخْرِجًا كَثَرَ الْعَقِيقِ بِأَمَاقِي أَنَا شِدَكَ الرَّحْمَنَ فِي الرَّمَقِ الْبَاقِي
 فَقَدْ ضَعَفْتُ عَنْ حِمْلِ صَبْرِي طَاقِي عَلَيْكَ وَضَاقْتُ عَنْ زَفِيرِي أَطَوَاقِي
 وقال رحمه الله تعالى :

إِذَا لَمْ أَشَاهِدْ مِنْكَ قَبْلَ مَنِي نَهَايَةَ آمَالِي وَغَايَةَ غَايَاتِي
 فَحَسُنْ عِزَائِي حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَقَرَّةَ عَيْنِي لَمْ تَحُلْ بِمِرَاتِي
 شَهُودِكَ أَمْنِي مِنْ عُدَاةِ خَوَاطِرِي وَقَرَبِكَ حِرْزِي مِنْ تَوَقُّعِ آفَاتِي

فإن لم يكن وصل فهبها إشارة فيا حسن شاراتي بها من إشارات

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الدنيا :

دُنْيَا خَدَعْتَ الَّذِي سَفَرْتَ لَهُ عَنْ صَفْحَةٍ لَمْ يَحُلْ بِهَا كَرَمُ
سَرَقْتَ حِظَّ الْإِلَهِ مِنْ يَدِهِ فَهَانَ مَا كَانَ مِنْهُ يُحْتَرَمُ
هَذَا الَّذِي نَالَ مِنْكَ لَيْسَ لَهُ مَنْقُطَعٌ دَائِمٌ وَمَنْصَرَمُ
وَهَبَهُ نَالَ الَّذِي أَرَادَ أَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ الْمَشِيبُ وَالْهَرَمُ

ولما أورد رحمه الله تعالى قول القائل^١ في وصف الدنيا :

كَلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً رَكَّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاةِ سَنَانَا
وَكَأَنَّا لَمْ نَرْضَ فِيهَا بَرِيًّا بِالدَّهْرِ حَتَّى أَعَانَهُ مِنْ أَعَانَا

قال أثره ما نصّه : والحق ما قلته من أبيات تناسب ذلك ، ولا حول ولا
قوة إلا بالله :

وَاللَّهِ إِنْ لَمْ يُدَارِكْهَا وَقَدْ وَحَلَتْ بِلَمْحَةٍ أَوْ بِلُطْفٍ مِنْ لَدُنْهِ خَفِي
وَلَمْ يَجِدْ بِتَسْلَافِهَا عَلَى عَجَلٍ مَا أَمْرُهَا صَائِرٌ إِلَّا إِلَى التَّلَفِ
فَحَبِ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ بَلِيَّةٍ ، وَلَوْلَاهُ لَمْ تَزَلِ النَّفْسُ صَافِيَةً عَالِيَةً عَنْ سَجِيَّتِهَا
الْأُولَى .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله :

إِنْ رَأَى الْحَقُّ فِيكَ مِنْهُ بَقِيَّةً فَاتَّقِ الْبَعْدَ فِيهِ حَقَّ التَّقِيَّةِ
وَلِذَا لَمْ يَكُنْ لِدَاثِكَ رَسْمٌ قَائِمٌ تِلْكَ حَالَةُ حَقِّيَّةِ

وقوله رحمه الله تعالى :

١ هو المتنبي ، من قصيدة له مطلعها « صحب الناس قبلنا ذا الزمانا » .

فسامح إذا ما لم تفدك عبارة
وتلخيص ما دندنت بالقول حوله

وقال رحمه الله تعالى ١ :

ففي عالم الأسرار ذاتك تجتلي
وفي عالم الحس اغتديت ميوأ
فما كنت لولا أن أتيت هداية
ملايح نور لاح للطور فانهدا
لتشفي من استشفى وتهدي من استهدى
من الله مثل الخلق رسماً ولا حدا

وهذه الأبيات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال رحمه الله تعالى :

حمامة البان ما هذا البكاء على
لا منزل بنت عنه أنت تندبه
لو كنت تنفت عن شوق منيت به
مر الليالي وما ذا البث والحزن
ولا حبيب ولا خل ولا سكن
إذا لصار رماداً تحتك الغصن

وقال رحمه الله تعالى مضمناً :

أعط عنك مهما استطعت كل إرادة
تكون مريداً ثم فيك إرادة
ولا فمغنى القوم عنك بعيد
إذا لم ترد شيئاً فأنت مريد

وقال رحمه الله تعالى :

تعلقته من دوحة الجود والباس
ضروباً بضرب للبراعة والقنا
يذكرنيه الصبح عند انصداعه
ويبدو لعيني شعره وجبينه
قضيماً لعبوا بالرجاء وبالياس
طروباً بحمل المشرفة والكاس
جمال رواء في تأرج أنفاس
إذا ما سفحت الخبر في صفح قرطاس

وقال رحمه الله تعالى :

أحبُّ لِحَبَّهَا جَمَلِي وَرَحَلِي وعزَمِي والقَتَادَةَ والطَرِيقَا
وَمَنْ أَخْشَاهُ مِنْ سَبْعٍ وَلَصَّ فكيفَ فَرِيقَهَا ؟ سلموا فَرِيقَا !
وكيفَ أَخْصَّ بِاسْمِ الْحَبِّ إِنْ لَمْ أحبُّ لِأَجْلِهَا إِلَّا صَدِيقَا

وقال رحمه الله تعالى : وقلت من قصيدة :

أَنَا نَسَخَةُ الْأَكْوَانِ أَدْمَجُ خَطَهَا فسرُّ ذَوِي التَّحْقِيقِ فِي طَيِّ أَوْرَاقِي
فَمِنْ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ لَيْلِي وَظَلَمَتِي ومن عَالَمِ الْأَرْوَاحِ نَوْرِي وَإِشْرَاقِي

وقال رحمه الله تعالى :

مَوْلَايَ مَوْلَايَ إِنْ أَرْضَاكَ بَذَلْتُ دَمِي فَقَدْ أَتَيْتُ بِهِ أَسْعَى عَلَى قَدَمِي
وإِنْ تَعَاظَمَ ذَنْبٌ قَدْ جَنَّتْهُ يَدِي وَطَالَ قَرَعِي عَلَيْهِ السَّنُّ مِنْ نَدَمِ
فَهَبْهُ لِي وَاعْتَفِرْ مَا كَانَ مِنْ خَطِيئَةٍ وَزَلَّةٍ وَارَعَ لِي حَبِي عَلَى الْقَدَمِ

وقال رحمه الله تعالى من قصيدته العينية السلوية التي وجهها إلى سلا أيام
خلف بها أهله وولده :

بُولِيَّ اللَّهُ فَايْدَأْ وَابْتَسِرْ وَاحِدِ الْآحَادِ فِي بَابِ الْوَرَعِ

[ترجمة الولي ابن عاشر]

قلت : هذا الولي هو العارف بالله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر أحد
الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب ، وقد زرت قبره بسلا عام تسعة
وألف ، وهو أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر^١ ، الأندلسي ، نزيل سلا ، الولي
الزاهد المشهور بالمناقب والأحوال .

١ انظر ترجمة ابن عاشر في نيل الابتهاج : ٤٣ والمقري ينقل عنه ؛ وأنس الفقير : ٩ .

قال ابن عرفة : ما أدركت مبرزاً في زماننا هذا إلا الشيخ أبا الحسن المنتصر
وأحمد بن عاشر بسلاً ؛ انتهى .

وقال بلدينا أبو عبد الله ابن سعد التلمساني في كتابه « النجم الثاقب فيما
لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان أحدَ الأولياء الأبدال ، معدوداً في كبار
العلماء ، مشهوراً بإجابة الدعاء ، معروفاً بالكرامات ، مقدماً في صدور الزهاد ،
منقطعاً عن الدنيا وأهلها ، ولو كانوا من صالحى العباد ، ملازماً للقبور في الخلاء
المتصل ببحر مدينة سلا ، منفرداً عن الخلق ، لا يفكر في أمر الرزق ، وله أخبار
جليلة ، وكرامات عجيبة مشهورة ، ممتن جُمع له العلم والعمل ، وأُلقي عليه
القبول من الخلق ، شديد الهيبة ، عظيم الوقار ، كثير الخشية ، طويل التفكير
والاعتبار ، قصده أمير المؤمنين أبو عنان ، وارتحل إليه عام سبعة وخمسين
وسبعمائة ، فوقف ببابه طويلاً ، فلم يأذن له ، وانصرف وقد امتلأ قلبه من
حُبِّه وإجلاله ، ثم عاود الوقوف ببابه مراراً فما وصل إليه ، فبعث له
بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته ، فأجابه بما قطع رجاءه
منه ، وأيس من لقائه ، واشتد حزنه ، وقال : هذا ولي من أولياء الله تعالى حجه
الله عنا ؛ انتهى .

ولما أجرى ذكره لسان الدين في « نقاضة الجراب » قال ما ملخصه :
ولقيت من أولياء الله تعالى بسلاً الولي الزاهد الكبير المنقطع القرين ، فراراً عن
زهرة الدنيا ، وعزوفاً عنها ، وإغفاء في الورع ، وشهرة بالكشف ، وإجابة الدعوة
وظهور الكرامة ، أبا العباس ابن عاشر ، يسر الله تعالى لقاءه على تعذره لصعوبة
تأتيه ، وكثرة هيئته ، قاعداً بين القبور في الخلاء ، رث الهيئة ، مُطْرِق اللحظ ،
كثير الصمت ، مفرط الانقباض والعزلة ، قد فرّ من أهل الدنيا وتطارحهم ،
فهو شديد الاشتراز من قاصده ، مُجَرَّمز للوثبة من طارقه ، نفع الله تعالى به .
وقال ابن الخطيب القسْمَطِينِي الشهير بابن قنفذ : لقيته بسلا سنة ٧٦٣ ،
وهو على أتم حال في الورع ، والفرار من الأمراء ، والتمسك بالسنة ، وهو الشيخ

الفقيه الولي ، توفي في سنة خمس وستين وسبعمائة ؛ انتهى .
وممن انتفع به ونال بركته الولي العارف بالله سيدي أبو عبد الله ابن عباد
شارح الحكم ، وقد ترجمناه في هذا الكتاب .
وقال ابن عباد المذكور في رسائله : وقد كنت قديماً خرجت في يوم مولده
صلى الله عليه وسلم صائماً إلى ساحل البحر ، فوجدت هناك سيدي الحاج ابن عاشر
رحمه الله تعالى وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه ، فأرادوا مني الأكل ،
فقلت : إنني صائم ، فنظر إلي سيدي الحاج نظرة منكرة ، وقال لي : هذا يوم
فرح وسرور يُستقبح في مثله الصوم كالعيد ، فتأملت قوله فوجدته حقاً ، وكأنه
أيقظني من النوم ؛ انتهى .

وقال ابن قنفذ السابق في رحلته ما صورته : وكان ابن عاشر رحمه الله تعالى
فريداً في الورع ، ميسراً عليه في ذاك أتم تيسير ، محفوظاً من كل ما فيه شبهة ،
كثير النفور من الناس ، وخصوصاً أصحاب الولاية في الأعمال ، وخرجت على
يده تلامذة نجباء أخيار ، وطريقه أنه جعل « إحياء علوم الدين » بين عينيه ، واتبع
ما فيه بجد واجتهاد ، وصدق وانقياد ، وكان الحجة في ذلك الطريق ، وأول
اجتماعي به نفّر مني ، فحبست يدي وهزرتي ، فتبسم ووقف معي ، وسألني
عن نسبي ، ودعا لي ، وطلبته بما يطعمني ، فاعتذر لي بالإقلال ، ثم قال : أمهل ،
فدخل وأخرج لي حبّات تين يابسة في يده اليمنى ، وغطاها باليد اليسرى ، ودفعها
إليّ ، وضحك معي ، وعجب الحاضرون من ليانته وانشراحه معي ، لأنه
لا ينبسط إلى أحد ، وحصل لي بذلك فخر لا يدري قدره إلا من حاول بعضه
معه ، وقصدني كثير من الخواص فسألني عن مجلسي معه وما وقع من جوابه
وسؤاله ، وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل إليه في عام سبعة وخمسين وسبعمائة
على لقائه فلم يقدر عليه بوجه ، وحجبه الله تعالى حتى تبعه يوم الجمعة من الجامع
الأعظم على قدمه ، والناس ينظرونه ، وهو لم يره ، فرجع ، ولم يكن قوته إلا
من نسخ العمدة في الحديث ، وكيف يبيعها ، ولمن يبيعها ، ولا يأخذ إلا قيمتها ،

ولم تزل حالته وبركته في زيادة إلى أن توفي سنة ٧٦٥ ، وسأله بعض الأخيار بمحضري عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني ؛ لوجود ذلك من بعضهم ، فقال : المسلم الذي له هذه الدرجة يرىء من العاهة ، والنصراني لا يرىء ، ثم قال : وهل يرىء الفقيه من العاهة ؟ فقال له : نعم ، ثم نظر يمينا وشمالا ليجد صاحب عاهة فيأتي بالبيان ، فلم يجد أحدا ، وكأنه اغتاض لهذا السؤال ، ثم أخرج يده وقال : يأتي لمن يقعد عن الحركة ، فيحبسه بيده ، ويقبضه وقد ذهب ألمه بعد أن جثا إلى الأرض في الصفة ، ثم قال : وسئل بعضهم عن هذا ، وكان السائل نصرانيا في زي المسلم ، فقال له : الفرق بينهما سقوط الزنار من وسطك ، قال : فسقط ، وفضحه الله تعالى ، وأسلم بسبب ذلك ؛ انتهى كلام ابن قنفذ القسطيني ، رحمه الله تعالى .

وترجمة ولي الله تعالى سيدي الحاج ابن عاشر - نفعا الله تعالى ببركاته - متسعة جدآ ، وكراماته ومناقبه لا تبلغ لها حدآ ، ولا نطبق لها عدآ ، وإنما ألمنا بذكره قصداً للتبرك به ، والله ولي التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

رجع إلى نظم لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، فنقول : ومن مداعباته رحمه الله تعالى قوله :

ومولع بالكتب يتساعها بأرخص السوم وأغلاه
في نصف الاستدكار أعطيته مختصر العين فأرضاه

ويعني بمختصر العين الزبيدي فافهم ، وقال رحمه الله تعالى من قصيدة :

ووالله ما اعتل الأصيل ، وإنما تعلم من شجوي فبان اعتلاله

وهذا غاية في المبالغة وحسن التعليل .

وقال رحمه الله تعالى^١ : وقفت على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمات في حركة
 راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية ، باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار ،
 عام واحد وستين وسبعمائة ، وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض ، وقد
 حفّت به سِدْرَة ، وإلى جنبه قبر « اعتماد » حظية مولاه رُمَيْك ، وعليهما
 هيئة التغرب ومعاناة الحمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ،
 فأنشدت في الحال :

قد زرتُ قبرك عن طوعٍ بأغماتِ رأيتُ ذلكَ من أولى المهمّاتِ
 لم لا أزوركِ يا أُنْدَى الملوكِ يداً ويا سراجَ الليالي المدهمّاتِ
 وأنت من لو تخطى الدهر مَصْرَعَه إلى حياتي لحادتُ فيه أبياتي
 أنافَ قبرك في هَضْبٍ يميّزهُ فتنتحيه حَفِيَّاتُ التحياتِ
 كرمتَ حيّاً وميتاً واشتهرتَ علّاً فأنتَ سلطانُ أحياءٍ وأمواتِ
 ما رىء مثلك في ماضٍ ، ومعتقدي أن لا يَرى الدهرُ في حالٍ ولا آتِ

وقد تقدّم هذا في القسم الأول في الباب السابع منه ، وكررتُه هنا ، والله
 الموفق .

وقال رحمه الله تعالى مورياً حين أكل مشرفُ الدار القابضَ ، أي أكل
 ماله^٢ :

مُشْرِفُ دارِ الملكِ ما باله منتفخ الجوفِ شكا نافضا^٣
 فقيلَ لي ليسَ بهِ علّة لكنّه قد أكلَ القابضا^٤

١ أزهار الرياض ١ : ٢٩٧ ، وانظر الأبيات في الجزء ٤ : ٩٨ .

٢ أزهار : ٣٠٠ .

٣ النافض : الحصى .

٤ القابض - في المصطلح الأندلسي - المال المقبوض .

وقال^١ :

يا نفسُ لا تصغي إلى سلوةٍ كم أخلف الموعدَ عرقوبُ
وأنتَ يا قلبي وصّاك إلهُ راهيمُ بالحزنِ ويعقوبُ

وقال في السعيد أبي بكر ابن السلطان أبي عنان :

أميرٌ كأنَّ قُميرَ الدُّجى أفاض الضياءَ على صفحتَيْهِ
تملأ قلبي مِن حبه غداةَ نظرتُ بعيني إليه
فلا بسطَ الدهرُ كف الردى لذاك الشخيصِ وذاك الوجيهِ

وقال يخاطب الخطيب ابن مرزوق :

تعلمَ طيفوري خلالَ سميهِ وإن كان منسوباً إلى غير بسطام^٢
وجاء فقيرَ الوقتِ لابسَ خرقةٍ فليس براضٍ غيرَ صحبةِ صوام
فديتك لا تردُّدُهُ عَنْكَ مخيباً ودرسهُ يا مولاي قصّةُ بلعام^٣

وقال : ممّا كتبت به إلى ابن مرزوق المذكور ، وقد وصل ولده إلى سلا
ومنع ابن الخطيب عن لقائه عذرُ مرضٍ ، وكان نزوله بزاوية النساك :

صدّني عَنْ لقاءِ نجلِكَ عذرٌ يمنعُ الجسمَ عن تمامِ العبادةِ
واختصرتُ القرى لأن حطّاً رحلاً في محلّ الغنى ودار الزّهادةِ
ولوّ آني احتفلتُ لم يُعِنِ الدهرُ رُؤًى ولا نلتُ بعضَ بعضِ أراحه
وعلى كلّ حالةٍ فقصوري عادةٌ إذ قبولُكَ العذرَ عادَه

١ هذه المقطوعة والعشر التالية لها في أزهار الرياض ٣٠٠ - ٣٠٤ .

٢ الطيفور : طبق عليه طعام أو مائدة صغيرة ، وفي الإسبانية (Ataifor) ، وانظر الحاشية : ٢

من ج ٤ : ٥١٠ ، وطيفور اسم أبي يزيد البسطامي .

٣ بلعام اسمه مشتق من البلع فهو يوري بذلك .

لا عدمت الرضى من الله والحسنى كما نصَّ وحيُّه والزياده

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبي الحسن بشالة لاستنهاض عزيمته في قضاء

غرضه :

برئت لله من حَوَلي ومن حِيالي
أصبحتُ ما لي من عطفِ أُمِّله
ما كنتُ أحسبُ أن أرمى بقاصيةٍ
من بعد ما خلصتُ نحوي الشفاعةُ ما
إن كنتُ لستُ بأهلٍ للذي طمحتُ
فكيفَ يُلغى ولا تُرعى وسيلته
من بعد ما اشتهرتُ حالي به وسرتُ
والرسلُ ترى ولا تخفى نتائجها
ولا لليلي من صبحٍ أطالعه
لو أنني بآبِ مرزوقٍ عقدتُ يدي
لكان كربي قد أفضى إلى فرجٍ
ألمحتُ بالعتبِ لم أحذرُ مواقعه
ولستُ أجحد ما خولتُ من نعم
ولستُ أياس من وعد وعدت به

إن نام عني وليي فهو خيرُ ولي
من غيره في مهماتٍ ولا بدَلٍ
للهمجر أقطعُ فيها جانبَ الأملِ
بين العُلا والدجى والبيض والأسلِ
إليه نفسي وأهوى نحوه أُملي
دخيلُ قبرِ أميرِ المسلمين علي
بها الركائبُ في سهلٍ وفي جبلٍ
عندَ التأملِ من قولٍ ولا عملٍ
كأنَّ همِّي قد مدَّ الدُّجْنَةَ لي
وكان محتكماً في خيرة الدولِ
وكان حزني قد أوفى على جدلي
« أنا الغريقُ فما خوفي من البللِ »
لكنَّها النفسُ لا تنفكُ عن أملٍ
« وإنَّما خلُقَ الإنسانُ من عَجَلٍ »

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا الحجاج :

أمولاي إنَّ الشعرَ ديوانُ حكمةٍ
وقد وُجدَ المختارُ في الحفلِ مُنصِباً
يفيد الغنى والعزَّ والجاه من كانا
لهُ وحباً كعباً عليهِ وحسانا

١ الأزهار : الفلا .

وفيما رواه الناقلون وأثبتوا
بأنَّ أبا بكرٍ خليفته الرضى
وأنَّ علياً قدسَ الله جمعهم
لهم في ضروب القولِ إذ هم فحوله
وفاض على أهل القريضِ نوالهم
وأنت أحقُّ الناسِ أن تفعلَ الذي
فما زلت تهدي في البرية هديه
وإن قيل قدرُ المرء ما هو محسنٌ

وقال موريا :

بنفسي حبيبٌ في ثنياه « بارق »
إذا كان لي منه عن الوصل « حاجر »

وقال :

عذبت قلبي بالهوى فقيامه
ولقد عهدتُ القلبَ وهو موحدٌ

وقال في التجنيس :

دعوتك للودِّ الذي جنباته
وقلتُ لعهد الوصل والقرب بعدما
ومنَّ شام من جوِّ الشبية بارقاً

وقال :

ناديت دمعِي إذ جدَّ الرحيلُ بهم
سقطت يا دمعُ من عيني غداة نأى

بذلك ديواناً صحيحاً فديوانا
وفاروقه الأدنى إليه وعثمانا
وكرمنا بالقرب منهم وحيانا
خطابٌ وشعرٌ يستقرَّان تبياناً
فروضَ روضِ القولِ سحاً وتهاناً
به فعَلَ المختارُ ديناً وإيماناً
وتقضي بما يرضيه سرّاً وإعلاناً
فصنعةُ نظمِ القولِ أرفعُه شأناً

ولكنها للواردين عذابٌ
فدمعي « عقيق » بالحفون مذابٌ

في نارِ هجرِكَ دائماً وقعوده
فعلامٌ يقضى في العذاب خلوده

تداعتُ مبانيها وهمتُ بأن تهى
تنأى وهل أسلو حياتي وأنت هي
ولم تنه عنه النهى كيف ينتهي

والقلبُ من فرَّقِ التوديع قد وجبا
عني الحبيبُ ولم تقضِ الذي وجبا

وقال :

شليراً لعمرى أساء الجوارَ وسدَّ عليَّ رحيبَ الفضا
هو الشيخُ أبردُ شيءٍ يُرى إذا لبسَ البرنسَ الأبيضُ

وقال : قلت أخاطب بعض من أدل عليه وما أولاني بذلك :

إذا قمتَ قلْ بعقيب الكرى إلهي أنتَ إله الورى
تباركتَ أنشأتهم من تراب وأنشأتني بينهم من خرا

قلت : ولا خفاء ببشاعة هذا ، فحذفه أولى من إثباته .

وقال يداعب بعض أصحابه :

شيخُ رباطٍ إن أتى شادنٌ خلوته عند انسدادِ الظلامِ
أدلى وقد أبصره دَلَّوه وقال يا بشرايَ هذا غلامٌ

وقال في غرض يظهر :

لم أجد فيه لينَ بثِّ لقلبي وقبولاً لحجتي واعتذاري
ثقلَ الله ظهره بعيالٍ سودَّ الله وجهه بعدارٍ

وقال من قصيدة :

أخذتَ وأمواجُ الردى متلاطمةً بضبنيَ يا نجلَ الوصيِّ وفاطمةً

وقال :

ووجه غرستُ الوردَ فيه بنظرةٍ فيا ليتَ كفتي مُتَّعتُ بجنتي غرسي
كأنَّ سوادَ الحالِ في وجناته علامةُ مولانا على أحمرِ الطرمسِ
وبينهما في باطن الأمرِ نسبةٌ لذلك أمضيتُ الغرامَ على نفسي

وقال يشير إلى بعض طبقات الغناء :

ضبط الفقيه فقلت ذاك غريبة ما كان ذلك منه بالمعلوم
فدنا إليّ وقال قد أصرفتكم من ضرتي بغريبة المزموم

وفي آخر سنة أربع وسبعين وجّه إلى السلطان أبي حمّو سلطان تلمسان أبياتاً
لزومية في غرض الهناء ، وهي :

وقف الغرام على ثناك لساني رعيًا لما أوليت من إحسان
فكأنما شكري لما أوليته شكرُ الرياض لعارض النيسان
أنا شيعّة لك حيث كنت ، قضية لم يختلف في حكمها نفسان
ولقد تشاجرت الرماح فكنت في ميدان نهرك فارس الفرسان
ورويت غرّ مآثر أسندتها لعلاك بين صحائح وحسان
ولأنت أولى بالتشيع شيمة لم تتفق لسواك من إنسان
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى بين الوري في مطلع شمسان
جبرت بجبرك كل نفس حرة وشدا بشكر الله كل لسان
وبدّت سعودك مستقيماً سيرها وعلت فقرّ أمامها النحسان
فاستقبل السعد المعاود سافراً عن أيّ وجه للرضى حسان
وابغ المزيد بشكر ربك ولتثّق بمضاعف الإنعام والإحسان
فالشكر يقتاد المزيد ركائباً تتاب بابك منه في أرسان
ثمّ السلام عليك يزري عرّفه طيباً بعرف العود والبلسان

وقال ٢ :

١ ق : بذكر .

٢ أزهار : ٣٠٤ .

بحقّ ما بيننا يا ساكني القصبه رُدُّوا عليّ حياتي فهي مغتصبه
ماذا جنيتم على قلبي بينكم وأنتم الأهل والأحباب والعصبه

قلت : ولعل ابن زمرّك قال أبياته التي على هذا الروي المذكورة في غير هذا
الموضع من هذا الكتاب جواباً لهذه حين كان ابن زمرّك من جملة أتباع لسان
الدين رحم الله تعالى الجميع .

وقال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ^١ :

حين ساروا عني وقد خنقّني عبرات قد أعربت عن ولّوعي
صحت من ينصر الغريب ؟ فلما لم أجد ناصراً بلغت دموعي

وقال :

قال لي والدموع تنهل سحبا في عراض ^٢ من الحدود محول
بك ما بي فقلت مولاي عافا لك المعافي من عبّرتي ونحولي
أنا جفني القريح يروي عن الأء مش والحنن منك عن مكحول

وقال :

أشكو لبسمه الحريق وقد حمى عني لماه المشتهى وريحه
يا ريقه حيرتني ومطلتي ما أنت إلا بارد يا ريقه

وقال فيمن ركب البحر وماد ^٣ :

ركب السفينة واستقل بأفقها فكأنما ركب الهلال الفرقد

١ أزهار : ٣٠٥ وكذلك القطعة التالية والتي بعدها .

٢ ق والأزهار : عراض .

٣ أزهار : ٣٠٦ والقطعة التي تليها أيضاً .

وشكوا إليه بميده فأجبتهم لا غرو إن ماد القضيبي الأملد

وقال عندما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجهاً إلى الأندلس لطلب
حقه :

ولما حثت السيرَ والله حاكم للملك في الدنيا بعزٍ وفي الأخرى
حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى ينقل من بيضاء إلا إلى حمرا

ويعني بالبيضاء فاساً الحديدية ، وبالحمراء حمراء غرناطة .
وتذكرت هنا أن بعض علماء الأندلس ، وأظنه أبا عبد الله ابن جزي ، لما
رمدت عينُ بعض أهل فاس سأله عنها ، فقال :

يا سيدي عيني قد أودى قذاها بالأنس
فانظر إليها ترها دار ملك الأندلس

يعني حمراء ، فأجابه بقوله :

وقيت مما تشكي من القذى والوصب
ما رمدت عيناك بل عينُ العلا والأدب
فلتحمدن أن لم تكن دار ملك المغرب

يعني بيضاء ، وهذا من غريب ما يحاضر به .

رجع - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى^١ :

أجاد يراعُ الحسنِ خطَّ عذاره وأودعه السرَّ المصون الذي يدري
ولم يفتقر فيه لحَمٍ وطابعٍ فمبسمه أغناه عن طابع السرِّ

١ هذه القطعة والقطع العشر التالية في أزهار الرياض ٣٠٧ - ٣١٠ .

وقال في غرناطة :

أحييك يا معنى الكمال^١ بواجب
تقسم منك الترب قومي وجيرتي
وأقطع في أوصافك الغر أوقاتي
ففي الظهر أحيائي وفي البطن أمواتي

وقال في غرض ينحو نحو المشاركة :

رموا بالسلو حليف الغرام
أعوذ بعزك يا سيدي
وأدمعه كالحيا الهاطل
لذلي من دعوة الباطل

وقال :

يا ليل طُلت ولم تجد تبسم
هلاً رحمت تغربي وتفرقي
وأريتني خلقت العبوس النادم
لله ما أقساك يا ابن الخادم

وقال في مروحة سلطانية :

كأنني قوس الشمس عند طلوعها
وإلا كما هبت بمحتدم الوغى
وقد قدمت من قبلها نسمة الفجر
بنصر ولكن من بنود بني نصر

وقال يخاطب شيخه ابن الحيات :

بين السهام وبين كتبك نسبة
وإذا أردت لها زيادة نسبة
فبها يصاب من العدو المقتل
هذي وهذي في الكنانة تجعل

وقال يتغزل ، وفيه معنى غريب :

إن اللحاظ هي السيوف حقيقة
لم يدع غمد السيف جفناً باطلاً
ومن استراب فحجتي تكفيه
إلا لشبه اللحظ يغمد فيه

١ أزهار : أحبك يا معنى الكمال .

قيل : وأحسن منه قول غيره :

إنَّ العيونَ النَّجْلُ أمضى موقِعاً من كلِّ هنديٍّ وكلِّ يمنيٍّ
فصلُّ العُيونِ على السيوفِ بأنَّها قتلتُ ولمْ تخرجْ من الأَجفانِ

وأصل ما قال لسان الدين قول الأول :

بينَ السيوفِ^١ وعينه مناسِبةٌ من أجلها قيل للأغمادِ أجفانُ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في الساعة ، وتسميها المغاربة المنجاة :

تأملِ الرملَ في المنجانِ منقطعاً يجري وقدَّرهُ عُمراً منك منتهباً
والله لو كان وادي الرمل^٢ ينجده ما طالَ كامله إلا وقد ذهباً

وقال :

أقولُ لعاذلي لما نَهاني وقد وجدَ المقالة إذ جَفاني
علمتُ بأنَّه مرُّ التجني وفاتك أنه حلُّ اللسانِ

وقال في غرض صوفي :

لا تنكروا إن كنتُ قد أحببتكم أو أنتي استولى عليَّ هواكم
طوعاً وكرهاً ما ترون فإنتي طفتُ الوجود فما وجدت سواكم

وقال يمدح ، وفيه تورية :

وإن نظَّرتَ إلى لآلئِ غُرَّتِه يومَ الهياجِ رأيتَ الشمسَ في الأسدِ

وقال ممّا يُكتب على طاق الماء بباب القبّة^٣ :

١ ق : اللحاظ .

٢ ق : الأرض .

٣ هذه القطعة والقطع الثلاث بعدها في الأزهار ٣١٢ - ٣١٣ .

أنا طاقٌ تزهو بي الأيامُ تعبتُ في بدائي الأفهامُ
وتبدَّيتُ للنواظر محمرا بأ كأنَّ الإناءَ فيَّ إمامُ
واقفٌ للصلاة حتى إذا ما جثت للشربِ حان مني سلامُ

وقال في ذلك أيضاً :

يا صانعي لله ما أحكمته فلأنتَ بينَ العالمين رئيسُ
أحكمتَ تاجي يوم صغت رقوشه فصبتُ إليه مفارقٌ ورؤوسُ
وأقمتَ في محرابه فكأنه مجلى إناءِ الماءِ فيه عروسُ

وقال في المشيب^١ :

أتى لمثلي بالهوى من بعد ما للوخط في القودين أيّ ديبِ
لبس البياضَ وحلَّ ذروة منبرٍ مني ووالى الوعظَ ، فعل خطيبِ

وقال رحمه الله تعالى :

والله ما جانٍ على ماله أو جاهه من ذبٍّ عن عرضه
والناسُ في خيرٍ وفي ضده هم شهداء الله في أرضه

وقال^٢ :

إلهي بالبيت المقدس والمسمى وجمّع إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا
وبالموقف المشهود يا رب في مني إذا ما أسال الناسُ من خوفك الدمعا
وبالمصطفى والصحب عجل إقالي وأنجح دعائي فيك يا خير من يدعى
صدّعتُ وأنتَ المستغاثُ جنابه أقبل عثرتي يا موثلي واجبر الصدعا

١ البيتان من بانيته التي تقدمت ص : ٤٥٥ .

٢ أزهار الرياض ١ : ٢٧١ .

وقال رحمه الله تعالى في بنيونش سبتة^١ :

بنيونش^٢ أسنى الأماكن رقعة^٣ وأجل^٤ أرض الله طراً شانا
هي جنة الدنيا التي من حلها نال الرضى والروح والريحانا
قالوا القروء بها فقلت فضيلة^٥ حيوانها قد قارب الإنسان^٦

وفي بنيونش هذه يقول أبو عبد الله ابن مجبر^٧ :

بنيونش^٨ جنة^٩ ولكن طريقها يقطع النياطا
وجنة الخلد لا يراها إلا فتى يقطع الصراطا

وقال ابن الخطيب رحمه الله تعالى^{١٠} :

إن^{١١} الهوى لشكاية معروفة صبر التصبر من أجل^{١٢} علاجها
والنفس إن ألفت مرارة طعمه يوماً ضمنت لها صلاح مزاجها

وقال رحمه الله تعالى^{١٣} :

ولما رأت عزمي حثيثاً على السرى وقد رابها صبري على موقف البين
أتت بصحاح الجوهري دموعها فقابلت من دمعي بمختصر العين

وقال رحمه الله تعالى :

تذكرت عهداً كان أحلى من الكرى وأقصر من إمام طيف خياله

١ أزهار الرياض ١ : ٣٤ .

٢ الأزهار : بليونش ، وهي لغة في بنيونش .

٣ ذكر في الاستبصار : ١٣٨ أن على قرية بليونش جبلاً عظيماً فيه القردة .

٤ وردا في أزهار الرياض (٣٤) منسوبين للقاضي عياض .

٥ مر البيتان في ما تقدم ص : ٤٧١ .

٦ مر البيتان في ما تقدم ص : ٤٦٤ .

فيا ليت شعري مَنْ أتاح لي المني وعذب بالي هل أمرٌ بباله

وقال رحمه الله تعالى :

عيني جنت فعلام تحرق أضلعي أما جنى جارٌ يعذبُ جارُ
يا قلبُ لا تدهشك نيرانُ الهوى فكنازِ إبراهيمَ تلك النارُ
فاصبرْ على ما حملوا تنلِ المني بالسبكِ أدرك نقشه الدينارُ

وقال رحمه الله تعالى :

وما كان إلا أن جنى الطرفُ نظرةً غدا القلبُ رهناً في عقوبةِ ذنبه
وما العدلُ أن يأتي امرؤُ بجزيرةٍ فيؤخذَ في أوزارها جارُ جنبه

وقال رحمه الله تعالى :

برى جسدي فيكم غرامٌ ولوعةٌ إذا سكن الليلُ البهيمُ ثورُ
فلولا أنيني ما اهتدى نحو مضجعي خيالكمُ بالليل حين يزورُ
ولو شئتُ في طيِّ الكتابِ لزرتكم ولم تدرِ عني أحرفٌ وسطورُ

وقال رحمه الله تعالى :

بلدٌ تحفٌ به الرياضُ كأنه وجهٌ جميلٌ والرياضُ عذاره
وكأنما واديه معصمٌ غادةٌ ومن الجسورِ المحكماتِ سواره

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا حمو صاحب تليمان ويشكره على
ما كان أعان به أهل الأندلس^١ :

لقد زارَ الجزيرةَ منك بحرٌ يمدُّ فليس تعرف منه جزراً

١ هذه القطعة والتي تليها في أزهار الرياض : ٢٦١ .

أعدت لها بعهدك عهد موسى سميتك فهي تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وأفدت كترأ ولو شئت اتخذت عليه أجرا

وقال أيضاً :

وقالوا الجزيرة قد صوّحت فقلت غمام الندى تنتظر
إذا وكفت كف موسى بها غماماً يعود الجنب الحضر

وقال رحمه الله تعالى عقب الإياب من الرحلة المراكشية ١ :

أفادت وجهتي بنداك مالا قضى ديني وأصلح بعض حالي
ومتعت الخواطرُ بانسراح وأطرفت النواظرُ باكتحال
وأبت خفيفَ ظهرٍ ، والمطايا بجاهك تشتكي ثقلَ الرحال
وشاني للمعالم غيرُ شانٍ وحالي بالمكارم جدُّ حال
فحبُّ علاك إيماني وعقدي وشكرُ نداك ديني وانتحالي
كما قد صحَّ لله انقطاعي بتأميلي جنابك وارتحالي
وما يبقى سوى فعلٍ جميلٍ وحالُ الدهر لا تبقى بحال
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاء وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحال
ومن سام الزمان دوامَ أمرٍ فقد وقف الرجاء على المحال

وقال رحمه الله تعالى في الضراعة إلى ربه ، والاعتراف بذنبه ٢ :

مولاي إن أذنبتُ يُنكرُ أن يرى منك الكمالُ ومنّي النقصانُ ؟
والعفو عن سببِ الذنوبِ مسببٌ لولا الجناية لم يكن غفرانُ

١ أزهار : ٢٧١ .

٢ أزهار : ٢١١ .

وقال رحمه الله تعالى ١ :

سلامٌ على تلك المربع إنَّها معاهدُ الألفي وعهدُ صحابي
ويا آسة المغنى انعمي فلطالما سكبتُ على مثواك ماءً شبابي

وقال سامحه الله تعالى :

أموطني الذي أزعجتُ عنه ولم أرزأ به مالا ولا دم
لئن أزعجتُ عنك بغير قصدٍ فقبلي فارق الفردوس آدم

ومن ميلادياته رحمه الله تعالى قوله ٢ :

ما على القلب بعدكم من جناحٍ أن يرى طائراً بغير جناحٍ
وعلى الشوق أن يشبَّ إذا ه بَ بأنفاسكم نسيمُ الصَّباح
جيرة الحَيِّ ، والحديثُ شجونٌ والليالي تلينُ بعد الجراح
أترون السلوَّ خامرَ قلبي بعدكم ؟ لا وفالق الإصباح
ولَو أني أعطى اقتراحي على الـ أيام ما كان بُعدكم باقتراحي
ضايقتني فيكم صروفُ الليالي واستدارتُ عليَّ دَوْرَ الوشاح
وسقتني كأسَ الفراقِ دهاقاً في اغتباقي مواصلٍ واصطباح
واستباحَت من جدتي وفتاتي حرماً لم أخلّه بالمستباح

ومنها :

يا ترى والنفوسُ أسرى أمانٍ ٣ ما لها من وثاقها من سراح
هل يُباح الورودُ بعد زيادٍ أو يتاح اللقاء بعد انتراح

١ أزهار : ٦ .

٢ أزهار : ٢٣٧ والإحاطة : ٣١٥ .

٣ الإحاطة : الأمان .

وإذا أعوز الجسم التلاقي ناب عنه تعارف الأرواح

وهي طويلة لم يحضرني منها الآن سوى ما ذكرته .

وقد حذا حذوها الفقيه الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون أخو قاضي
القضاة ولي الدين بن خلدون صاحب التاريخ ، فقال في مولد عام ثمانية وسبعين
وسبعمائة ، واستطرد لمدح السلطان أبي حمّو موسى صاحب تلمسان الذي تقدم
ذكره قريباً :

ما على الصبّ في الهوى من جناح	أن يرى حلفَ عبدةٍ وافتضاح
وإذا ما المحبُّ عيلَ اصطباراً	كيف يُصغي إلى نصيحةٍ لاح
يا رعى الله بالمحبِّ ربّاً	أذنتَ عهده النوى بانتراح
كم أدركنا كأسَ الهوى فيه مزحاً	ربّ جدّ من الجوى في المزاح
هل إلى رسمه المحيل سبيلٌ	يا حُداة المطيِّ تلك الطّلاح
نسألُ الدارَ بالخليط ونسقي	ذلك الرّبّع بالدموع السّفاح
أيّ شجو عاينتُ بعد نواها	من أسى لازمٍ وصبرٍ مزاح
أهلَ ودي إن رابكم برّحٌ وجدي	من صبا بارقٍ وبرقٍ لباح
فاسألوا البرقَ عن خفوقِ فؤادي	والصبا عن سقامِ جسمي المتاح
يا أهيلَ الحمى نداءً مشوقٍ	ما له عن هوى الدُّمى من بّراح
طالما استعذبَ المدامعَ ورذاً	في هواكم عن كلّ عذبٍ قراح
عاده بالطلولِ للشوقِ عيدٌ	من حمامٍ بدوحنٍ صداح
من لقلبٍ من الجوى في ضرامٍ	ولحفنٍ من البكا في جراح
ولصبٍّ يهيجهُ الذكرُ شوقاً	فهو سكرأ يرتادُ من غيرِ راح
وليالٍ قضيتُ للهوى فيها	وطراً والشبابُ ضافي الجناح

راكباً في الهوى ذلول تصاب
ونجوم المني تنير إلى أن
أي مسررى حمدت لم أخل منه
واخساري يوم القيامة إن لم
لم أقدم وسيلة فيه إلا
سيد العالمين دنياً وأخرى
سيد الكون من سماء وأرض
زهرة الغيب مظهر الوحي معنى الـ
آية المكرمات قطب المعالي
أول الأنبياء تخصيص زلفى
صفوة الخلق أرفع الرسل قدراً
من ميلاده بمكة ضاءت
وخبّت نار فارس وتداعت
من رقى في السماء سبعا طباقاً
ودنا منه قاب قوسين قرباً
من هدى الخلق بين حمر وسود
من يجير الوري غداً يوم يجزى
من إلى حوضه وظل لواه
أحمد المجتبي حبيباً ، وأنى
في أناجيله المسيح تلاه
ولكم حجة وبرهان صدق
إن في النجم والنبات آيات
معجزات فتن المدارك وصفاً

ساحباً في الغرام ذيل مراح
روّع الشيب سربتها بالصباح
بسوى حسرة وطول افتضاح
يغفر الله زلتي واجتراحي
حباً خير الورى الشفيع الماحي
أشرف الخلق في العلا والسماح
سره بين غاية وافتتاح
نور كنه المشكاة والمصباح
مصطفى الله من قريش البطاح
آخر المرسلين بعث نجاح
وسراج الهدى وشمس الفلاح
من قرى قيصر جميع الضواحي
من مشيد الإيوان كل النواحي
ورأى آي ربه في انضاح
ظافراً في العلا بكل اقتراح
وجلا ليل غيهم بالصباح
كل عاص وطائع باجتراح
يلجأ الناس بين ظام وضاحي
فوق عز الحبيب مرمى طماح ؟
باسمه ، والكليم في الألواح
في سماع أنى بها والتماح
بهرت والجماد والأرواح
وحساباً كالزهر أو كالصباح

يا رواة القريض والشعر عجزاً
إنما حسبنا الصلاة عليه
يا إلهي بحق أحمد عفواً
وأدم دولة الخليفة موسى
مفخر الملك مستقر المزاي
ناصر الحق خاذل الجور عدلاً
يتلقى الندى بوجه حيي
وله المكرمات إرثاً ولبساً
من عللاً باذخ وفخر صميم
وأحاديث في المعالي حسان
عاقده صفقة العلاء كل حين
للندی والهدى يروح ويغدو
ملك تشرق الأسرة منه
وإذا ما علا بعالي العوالي
لبس الدهر منه حلة حسن
وعلى عاتق الخلافة منه
ورث الملك شامخاً عن سرة
من بني القاسم الذين تحلوا
فرعوا هضبة الخلافة مجداً
نشروا راية المفاخر حمداً
يا إماماً بذكر الملوك جلالاً
أنت شمس الكمال دمت عليها
وبنوك الأعلون أنجم سعد
وأبو تاشفين بدر منير

ما عسى تدركون بالأمداح
وهي للفوز آية استفتاح
عن ذنوب جنيتهن قباح
ذي المعالي المينة الأوضح
مظهر اللطف ذو التقى والصلاح
متجاً الخائفين بحر السباح
ويلقي العدا ببأس صفاح
حاز حمداً بها معلن القيداح
وكمال بحت ومجد صراح
رويت عنه في العوالي الصراح
فأثر فيه سعيه بالرباح
أي مغدّى إلى العلاء ومراح
في سماء السرير نور صباح
صهوة الجرد فهو ليث الكفاح
وثى للسرور عطف مراح
طرز فخر سبي النهي بالتماح
شيدوا ركنه بأيدي الصفاح
بالمعالي واستأثروا بالفلاح
رفعوا سقفه على الأرماح
خافق النور بالرؤى والبطاح
وجمالاً فديت بالأرواح
في اغتباق من المنى واصطباح
زاهرات بنورك الوضاح
زانه الله بالخلال الصباح

أَكْمَلَ الْعَالَمِينَ خَلْقًا وَخَلَقًا أَشْرَفَ النَّاسِ فِي النَّدَى وَالْكَفَاحِ
وَبِكُمْ زَيَّنْتَ سَمَاءَ الْمَعَالِي وَاهْتَدَى النَّاسُ فِي الدَّجَى وَالصَّبَاحِ

وكان السلطان أبو حمّو المدوح بهذه القصيدة يحتفل ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله .

ومن احتفاله له ما حكاه شيخُ شيوخ شيوخنا الحافظ سيدي أبو عبد الله التنسي ثم التلمساني في كتابه « راحُ الأرواح فيما قاله المولى أبو حمّو من الشعر وقيل فيه من الأمداح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح » ونصّه : أنه كان يُقيم ليلة الميلاد النبوي - على صاحبه الصلاة والسلام - بمشورة من تلمسان المحروسة مدعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرّابي مبثوثة ، وبُسْطٍ مُوشَّاة ، ووسائد بالذهب مغشاة ، وشمع كالأسطوانات ، وموائد كالهالات ، ومباخر منصوبة كالقباب ، يخالها المبصرُ تبرأ مذاب ، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنّها أزهار الربيع المنمنمة ، تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر ، ويخالط حسن ربيّاتها الأرواح ويخامر ، رُتّبَ الناسُ فيها على مراتبهم ترتيبَ احتفال ، وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال ، وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكفّرات^١ ترغّب في الإقلاع عن الآثام ، يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجاة قد زخرفت كأنّها حلّة يمانية ، لها أبواب موجفة^٢ على عدد ساعات الليل

١ المكفّرات : أشعار تقال في التزهيد فتكفر ما كان من عبث ، وهي تشبه « المحصّات » .

٢ الأزهار : مرتجة .

الزمانية ، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب^١ من أبوابها ، وبرزت منه جارية صُورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويُسرّاها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة ، هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح ، ونداء المنادي حيّ على الفلاح ؛ انتهى .

وقال التنسي المذكور في كتابه المسمى : « نظم الدر والعقيان في شرف بني زِيّان وذكر ملوكهم الأعيان » ما نصّه : وكان السلطان أبو حمّو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يقيم مدّة^١ يحشر لها الأشراف والسوقة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولّدان قد لبسوا أقبية الخز الملّون وبأيديهم مباخر ومرشات ينال كلّ منها بحظّه ، وخزانة المنجاة ذات تماثيل لحين محكمة الصنعة ، بأعلاها أيكّة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه ، ويختله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الأيكّة صاعداً^٢ ، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُويّن رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان ، ففي كل واحد منهما صنجة صُفّر يلقيها إلى طست من الصفر مُجَوّف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرنّ ، وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يُفتح باب الساعة الذاهبة ، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء ، يُمَنّاها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوماً ، ويُسرّاها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة ، والمُسْمِع قائم ينشد

١ المدعاة : الدعوة .

٢ الأزهار : صعداً .

أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ،
ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دَوْرًا ، والرياض نَوْرًا ، وقد اشتملت
من أنواع محاسن المطاعم^١ على ألوان تشهيقها الأنفس وتستحسنها الأعين ،
وتلذُّ بسماع أسمائها الآذان ، ويشتره مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان
ليس بغرثان ، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتداء جلوسه فيه ، وكل ذلك بمرأى
منه ومستمع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح . على هذا الأسلوب تمضي ليلة
المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته ، أعلى الله تعالى مقامه في
عليين ، وشكر له في ذلك صنيعة الحميل آمين . وما من ليلة مولد مرت في أيامه
إلا ونظم فيها قصيداً في مديح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أول ما
يبتدىء المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه
العلي في تلك الليلة نظماً ؛ انتهى وهو أتم مساقاً مما في « راح الأرواح » .
ولا بأس أن نلمّ ببعض المقطوعات التي أنشأها الكاتب أبو زكريا يحيى
ابن خلدون المذكور على لسان جارية المنجاة في مخاطبة السلطان أبي حمو معلمة
بما مرّ من ليل ، ففي مضي ساعتين قوله^٢ :

أخليفة الرحمن والملك الذي	تغنوا لغز علاه أملاك البشر
لله مجلسك الذي يحكي علاه	بك مالكي أفق السماء لمن نظر
أوما ترى فيه النجوم زواهرأ	وجهه الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت	تثني عليك ثنا الرياض على المطر
لا زال هذا الملك منصوراً بكم	وبلغت مما ترتجي أسنى الوطر

وقوله في مضي ثلاث ساعات :

١ الأزهار : الطعام .
٢ وردت هذه المقطعات في بغية الرواد ٢ : ٢١٩ - ٢٢٢ وأزهار الرياض ١ : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

أُمُولَايَ يَا ابْنَ الْمُلُوكِ الْأُلَى
تَوَلَّيْتُ ثَلَاثَ مِنْ اللَّيْلِ أَبَقْتُ
فَدَمْتُ حُجَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ
لَهُمْ فِي الْمَعَالِي سِتِّي الرُّتْبُ
لَكَ الْفَخْرُ فِي عُجْمِهَا وَالْعَرَبُ
تَنَالُ الَّذِي شَتَّهَ مِنْ أَرْبُ

وقوله في مضي ست ساعات :

يَا مَاجِدًا وَهُوَ فَرْدٌ
سِتٌّ مِنْ اللَّيْلِ وَلَّتْ
دَامَتْ لِيَالِيكَ حَتَّى
تَخَالَهُ فِي عَسَاكِرٍ
مَا إِنْ لَهَا مِنْ نَظَائِرِ
إِلَى الْمَعَادِ نَوَاضِرِ

وقوله في مضي ثمان ساعات :

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ ذَاتًا
مَرَّتْ ثَمَانٍ وَأَبَقْتُ
فِيهِنَّ كَانَ شَبَابِي
وَلَّتِي بِهَا الدَّهْرُ عَنِّي
فَاللَّهُ يَبْقِيكَ مَوْلَى
وَأَشْرَفَ النَّاسِ أَسْرَةً
فِي الْقَلْبِ مِنِّي حَسْرَةً
أَخَا نَعِيمٍ وَنَضْرَةً
تُرَى لَهَا بَعْدُ كَرَّةً
يَطِيلُ فِي السَّعْدِ عُمُرَةً

وقوله في مضي عشر ساعات :

يَا مَالِكَ الْخَيْرِ وَالْخَيْلِ الَّتِي حَكَمَتْ
هَذَا الصَّبَاحَ وَقَدْ لَاحَتْ بِشَائِرُهُ
لِلَّهِ عَشْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ بَاهِرَةٌ
كَذَا تَمَرُّ لِيَالِي الْعُمُرِ رَاحِلَةٌ
نَمْسِي وَنَصْبِحُ فِي هُوِ نُسْرٍ بِهِ
لَهُ بَعِزٌّ عَلَى الْأَيَّامِ مُقْتَبِلٌ
وَاللَّيْلِ وَدَعَانَا تَوْدِيْعٌ مَرْتَحِلٌ
مُضِينَ لَا عَنْ قِلَّتِي مِنَّا وَلَا مَلَلِ
عَنَّا وَنَحْنُ مِنَ الْأَمَالِ فِي شُغْلِ
جَهْلًا وَذَلِكَ يُدْنِينَا مِنَ الْأَجْلِ

١ البنية : يا واحداً في علاه من نابه في عساكر .

والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفا
يا ليت شعري غداً كيف الخلاصُ به
يا ربُّ عَفْوِكَ عما قد جَنَّتْهُ يدي
يا ربُّ وانصر أميرَ المسلمين أبا
وأبقِ في الغزَا والتمكين مدتهُ
عليه إذ مرَّ في الآثام والزللِ
ولم نقدِّمُ لهُ شيئاً من العملِ
فليس لي بجزاء الذنبِ من قبَلِ
حمو الرضى وأنله غايةَ الأملِ
وأعلِ دولته الغرَّاء على الدولِ

انتهى المجلد السادس

محتويات المجلد السادس

الباب الرابع

١٦٣ - ٥

في مخاطبات الملوك والأكابر للسان الدين

٥	١ -	ظهير من أبي زيان المريني للسان الدين
٧		[ترجمة أبي زيان المريني]
١٣	٢ -	رسالة من أبي سالم إلى لسان الدين
١٤	٣ -	جواب لسان الدين
١٧	٤ -	رسالة من لسان الدين إلى أبي سالم
٢٢		[ترجمة أبي سالم المريني]
٢٤		[ثناء المغاربة والمشاركة على لسان الدين]
٢٨	٥ -	رسالة ابن خاتمة إلى لسان الدين
٣٠	٦ -	من لسان الدين إلى ابن خاتمة
٣٣		[رسالة ابن خاتمة إلى ابن جزى]
٣٤	٧ -	رسالة من ابن خاتمة إلى لسان الدين
٣٧	٨ -	رسالة أخرى من ابن خاتمة إلى لسان الدين
٣٨		[أحمد بن صفوان]
٤٠	٩ -	إجازة ابن صفوان للسان الدين
٤١	١٠ -	من العذري إلى لسان الدين
٤١	١١ -	رسالة من لسان الدين إلى ابن نفيس
٤٣	١٢ -	من لسان الدين إلى ابن رضوان
٤٤	١٣ -	جواب ابن رضوان
٤٤	١٤ -	من لسان الدين إلى الجنان
٤٥	١٥ -	جواب الجنان
٤٦		[ترجمة الجنان أحمد الأوسي]
٤٦		[مقطعات وقصائد تكتب على المباني]

٥٦	[رسالة من الفشتالي إلى المؤلف]
٥٩	[تعريف بأبي الحسن الشامي]
٦٠	١٦ - بين ابن الجياب ولسان الدين
٦٠	١٧ - قصيدتان للبلوي يخاطب بهما لسان الدين
٦٣	[ترجمة أبي يحيى البلوي]
٦٤	١٨ - رسالة من ابن مرزوق إلى لسان الدين
٦٥	١٩ - جواب لسان الدين
٦٧	٢٠ - من البرجي إلى لسان الدين
٦٨	[ترجمة أبي القاسم البرجي]
٧٥	٢١ - مخاطبات ابن زمرك للسان الدين
٨١	٢٢ - من ابن سلبطور إلى لسان الدين
٨٢	[ترجمة ابن سلبطور]
٨٤	٢٣ - من ابن راجح إلى لسان الدين
٨٤	٢٤ - جواب لسان الدين
٨٥	[ترجمة ابن راجح]
٨٥	٢٥ - من لسان الدين إلى ابن راجح
٨٦	٢٦ - جواب ابن راجح
٨٨	[بقية ترجمة ابن راجح]
٨٩	٢٧ - من العشّاب إلى لسان الدين
٨٩	٢٨ - من محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي إلى لسان الدين
٩٠	[ترجمة محمد بن محمد بن عبد الملك]
٩٠	٢٩ - من المكودي إلى لسان الدين
٩١	٣٠ - من أبي عبد الله اليتيم إلى لسان الدين
٩٢	٣١ - من لسان الدين إلى اليتيم
٩٥	[ترجمة أبي عبد الله اليتيم]
٩٦	٣٢ - مخاطبة الكرسوطي للسان الدين
٩٧	[ترجمة أبي عبد الله الكرسوطي]
٩٧	٣٣ - مخاطبة ابن الزبير للسان الدين
٩٨	[ترجمة أبي عمرو ابن الزبير]
٩٩	[ترجمة أبي يحيى الأكل]
٩٩	٣٤ - مخاطبة الأكل للسان الدين

١٠١	.	.	.	٣٥ - مخاطبة ابن عياش للسان الدين
١٠١	.	.	.	٣٦ - مخاطبة أبي عبد الله الوادي آشي للسان الدين
١٠٢	.	.	.	٣٧ - مخاطبة أبي محمد الأزدي للسان الدين
١٠٣	.	.	.	[قطع من شعر الأزدي]
١٠٦	.	.	.	٣٨ - من لسان الدين إلى ابن رضوان
١٠٦	.	.	.	٣٩ - جواب ابن رضوان
١٠٧	.	.	.	[ترجمة ابن رضوان]
١١٢	.	.	.	٤٠ - مخاطبة أبي بكر ابن عبد الملك للسان الدين
١١٣	.	.	.	[ترجمة أبي بكر ابن عبد الملك]
١١٣	.	.	.	٤١ - مخاطبة أبي سلطان الغرناطي للسان الدين
١١٥	.	.	.	[ترجمة عبد العزيز أبي سلطان]
١١٨	.	.	.	٤٢ - رسالة من النباهي للسان الدين
١١٩	.	.	.	[ترجمة النباهي]
١٢٤	.	.	.	٤٣ - مخاطبات بين لسان الدين وابن الجياب
١٢٨	.	.	.	٤٤ - من سعيد الغرناطي إلى لسان الدين
١٢٨	.	.	.	٤٥ - مخاطبات بين ابن البناء ولسان الدين
١٣١	.	.	.	[ترجمة ابن البناء]
١٣١	.	.	.	٤٦ - رسالة من لسان الدين إلى سلطان تونس
١٣٣	.	.	.	٤٧ - مخاطبة من ابن البربري المالقي إلى لسان الدين
١٣٥	.	.	.	٤٨ - مخاطبة من الحرالي إلى لسان الدين
١٣٥	.	.	.	[ترجمة أبي القاسم الحرالي]
١٣٥	.	.	.	٤٩ - رسالة من المنتشاقي إلى لسان الدين
١٣٧	.	.	.	٥٠ - رسالة من لسان الدين إلى المنتشاقي
١٣٨	.	.	.	[ترجمة أبي الحجاج المنتشاقي]
١٤٦	.	.	.	[تعليق الباعوني على كتاب الريحانة]
١٤٦	.	.	.	[نقل من الروض الأريض لابن عاصم]
١٤٨	.	.	.	[ترجمة أبي يحيى ابن عاصم]
١٤٨	.	.	.	[نموذج من نثر ابن عاصم]
١٥٠	.	.	.	[من نظم ابن عاصم]
١٥١	.	.	.	[قصيدة لابن الأزرق في مدح ابن عاصم]
١٥٣	.	.	.	[رسالة ابن عاصم إلى ابن طركاظ]

الباب الخامس

في إيراد جملة من نثر لسان الدين وشعره وموشحاته

١٦٥ - ٤٤٨

نثر لسان الدين .

- ١ - فاتحة كتاب « اللوحة البدرية » ١٦٥
- ٢ - قطعة له في الحوض على الجهاد ١٦٥
- ٣ - صديق لكبير الشرفاء بفاس ١٦٦
- ٤ - كتاب إلى بعض السادة (ابن رضوان) لمرض ألمّ به ١٦٧
- ٥ - من ترجمة أبي عبد الله الشديد في الإحاطة ١٦٨
- ٦ - كتاب إلى علي بن بدر الدين الطوسي ١٧٠
- ٧ - من ترجمة ابن خلدون في الإحاطة ١٧١
- ٨ - جواب لسان الدين عن رسالة لابن خلدون ١٧٣
- ٩ - رسالة لسان الدين في مداعبة ابن خلدون حين تسرى جارية رومية ١٧٤
- بقية ترجمة ابن خلدون عن الإحاطة ١٨٠
- [تعليق للمقري والباعوني] ١٩١
- ١٠ - من ترجمة يحيى البرغواطى ١٩٢
- ١١ - تعليق لسان الدين على كتاب ألفه البرغواطى ١٩٤
- ١٢ - رسالة إلى أبي حمّو مرفقة بقصيدة سينية ١٩٥
- ١٣ - رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب أيام أبي سالم ٢٠٤
- ١٤ - رسالة في تهنئة ابن أبي مدين صاحب الأشغال ٢٠٥
- ١٥ - رسالة إلى قاضي الجماعة بسبب غلط أحد الخدام ٢٠٦
- ١٦ - رسالة إلى بعض الفضلاء يعتذر عن الذهاب إليه ٢٠٧
- ١٧ - رسالة إلى أبي عبد الله ابن نصر حين وصل ولده الأندلس ٢٠٧
- ١٨ - رسالة في تهنئة ابن نوّار حين تزوج بنت المزوار ٢٠٨
- ١٩ - رسالة إلى عامر بن محمد الهنتاني عميد مراکش ٢٠٨

٢١٠	٢٠ - من مقامة له في البلدان يصف مدينة سبتة .
٢١١	٢١ - من « نفاضة الجراب » في وصف مكناسة الزيتون .
٢١٣	٢٢ - وصف مكناسة في مقامة البلدان .
٢١٣	[تعليق للمقري]
٢١٧	[زيارة لسان الدين لقبر السلطان أبي الحسن وقصيدته في رثائه]
٢١٩	٢٣ - نبذة من كتاب « أعمال الأعلام » .
٢٢٠	٢٤ - من كلامه ؛ وطريقته في كتابة التراجم .
٢٢٠	٢٥ - ٤٣ - نقول متفرقة من نثره في كتب التراجم .
٢٢٥	٤٤ - عن التاج في ترجمة ابن لب الأمي .
٢٣٠	٤٥ - عن التاج في ترجمة ابن عبد الرحيم الوادي آشي .
٢٣٠	٤٦ - عن الإكليل في ترجمة ابن العطار المزني .
٢٣٠	٤٧ - « » « » محمد بن علي ابن خاتمة .
٢٣١	٤٨ - « » « » ابن داود الحميري .
٢٣٦	٤٩ - « » « » ابن مقاتل المالقي .
٢٣٧	٥٠ - « » « » الشديد المالقي .
٢٣٩	٥١ - « » « » ابن الحسن العمراني .
٢٣٩	٥٢ - « » « » محمد المرادي العشاب .
٢٤٠	٥٣ - « » « » أبي عبد الله المليكشي .
٢٤٢	٥٤ - « » « » أبي عبد الله العبدري .
٢٤٢	٥٥ - « » « » أبي القاسم العزفي .
٢٤٣	٥٦ - « » « » أبي عبد الله المكودي .
٢٤٤	٥٧ - من نثره في ترجمة ابن بيش العبدري .
٢٤٥	٥٨ - عن الإكليل في ترجمة أبي عبد الله ابن هانيء السبتي .
٢٥٣	[همزية صفوان]
٢٥٥	٥٩ - عن التاج في ترجمة أبي محمد الأزدي .
٢٥٧	٦٠ - عن الإكليل في ترجمة أبي الحسن السكاك .
٢٥٧	٦١ - عن التاج في ترجمة ابن الصباغ العقيلي .
٢٦٠	٦٢ - عن التاج والإكليل في ترجمة ابن الحياض .
٢٦١	٦٣ - عن الإكليل في ترجمة ابن غفرون الكلبي .
٢٦١	٦٤ - « » « » ابن الجحد الفهري .

٢٦٢	.	.	٦٥ - عن الإكليل في ترجمة أبي عثمان الغساني
٢٦٢	.	.	٦٦ - » » » » أبي الحجاج الطرطوشي
٢٦٢	.	.	٦٧ - » » » » ابن المتأهل العذري
٢٦٣	.	.	٦٨ - عن التاج وعائد الصلة في ترجمة ابن باق
٢٦٥	.	.	٦٩ - عن الإكليل في ترجمة ابن فضيلة المعافري
٢٦٦	.	.	٧٠ - عن الإكليل والإحاطة في ترجمة أبي العباس الملياني
٢٦٨	.	.	٧١ - صورة من نثره في روضة التعريف
٢٧١	.	.	٧٢ - صورة أخرى من روضة التعريف
٢٧١	.	.	٧٣ - من رسالة له إلى يلبغا الخاصكي
٢٧٣	.	.	٧٤ - صدر كتابه المسمى « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة »
٢٧٨	.	.	[تعلق الوشرسي على هذا الكتاب]
٢٧٩	.	.	٧٥ - خطبة كتابه في المحبة
٢٩١	.	.	[برنامج كتابه في المحبة]
٣٠٠	.	.	[نماذج مختارة من كتابه في المحبة]
٣١٥	.	.	[نماذج منه في الوعظ]
٣٢٧	.	.	[قصيدتان لأبي العتاهية]
٣٣٠	.	.	[هل يناسب الوعظ المحبة]
٣٣٢	.	.	[فصول في ذم الكسل واغتنام الوقت]
٣٣٣	.	.	٧٦ - رسالة إلى ابن تافراجين على لسان السلطان
٣٣٩	.	.	٧٧ - رسالة إلى الشعب في البشارة بفتح إطريرة
٣٤٠	.	.	٧٨ - رسالة عن السلطان إلى سلطان فاس
٣٤٣	.	.	٧٩ - رسالة على لسان الأمير سعد ابن الغني بالله
٣٤٤	.	.	٨٠ - رسالة على لسان ولد السلطان من مالقة
٣٤٦	.	.	٨١ - ظهير في تولية الأمير يوسف مشيخة الغزاة
٣٤٩	.	.	٨٢ - ظهير في تقليد الأمير سعد مشيخة الغزاة
٣٥٢	.	.	٨٣ - رسالة كتبها من سلا إلى الغني بالله
٣٥٣	.	.	٨٤ - رسالة إلى أبي عبد الله ابن عمر التونسي
٣٥٤	.	.	٨٥ - رسالة على لسان أبي الحجاج إلى رسول الله (ص)
٣٦٠	.	.	٨٦ - رسالة على لسان الغني بالله إلى رسول الله (ص)
٣٧٩	.	.	٨٧ - من رسالة له في الغزاة
٣٨٠	.	.	[للمقري محاكاة لسان الدين]

٣٨٢	.	.	.	٨٨ - مخاطبة للسلطان أبي زيّان لما تمّ له الأمر
٣٨٥	.	.	.	٨٩ - مخاطبة أخرى للسلطان أبي زيّان
٣٨٦	.	.	.	٩٠ - مخاطبة ليحيى بن رحو
٣٨٧	.	.	.	٩١ - مخاطبة لابن مرزوق الخطيب
٣٨٨	.	.	.	٩٢ - رسالة إلى ابن مرزوق في الشفاعة
٣٨٩	.	.	.	٩٣ - رسالة إلى أبي زيد ابن خلدون
٣٩٦	.	.	.	٩٤ - رسالة إلى أبي زكريا ابن خلدون
٣٩٩	.	.	.	٩٥ - رسالة إلى أبي القاسم ابن رضوان
٤٠٠	.	.	.	٩٦ - رسالة إلى شيخ العرب مبارك بن إبراهيم
٤٠٣	.	.	.	٩٧ - رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب
٤٠٥	.	.	.	٩٨ - ظهير على لسان السلطان
٤٠٨	.	.	.	٩٩ - مخاطبة تربة السلطان أبي الحسن المريني
٤١٠	.	.	.	١٠٠ - رسالة إلى وزير المغرب
٤١١	.	.	.	١٠١ - رسالة أخرى إليه على أثر فتح
٤١٢	.	.	.	١٠٢ - رسالة ثالثة إليه من سلا
٤١٤	.	.	.	١٠٣ - رسالة إلى عامر بن محمد الهنتائي في التعزية بأخيه
٤١٦	.	.	.	١٠٤ - رسالة أخرى إليه
٤١٧	.	.	.	١٠٥ - رسالة إلى شيخ الدولة وقد أبلّ من مرض
٤١٩	.	.	.	١٠٦ - رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب
٤٢٣	.	.	.	١٠٧ - رسالة أخرى إلى ابن مرزوق
٤٢٧	.	.	.	١٠٨ - جواب عن كتاب من سلطان تلمسان
٤٣١	.	.	.	١٠٩ - مقامة في السياسة
٤٤٥	.	.	.	١١٠ - من نثره «عبارة واحدة»
٤٤٥	.	.	.	١١١ - من نثره في وصف فاس
٤٤٦	.	.	.	١١٢ - من نثره في وصف مراكش
٤٤٦	.	.	.	١١٣ - من نثره في وصف بسطة
٤٤٦	.	.	.	[في ذكر بسطة للقصادي]
٤٤٧	.	.	.	١١٤ - رسالة إلى السلطان على لسان جدته
٥١٧ - ٤٤٩	.	.	.	شعر لسان الدين
٤٤٩	.	.	.	مطلولات عن الإحاطة

٤٦٣	مقطعات عن الإحاطة
٤٧٥	مختارات أخرى من غير الإحاطة
٤٩١	[ترجمة الولي ابن عاشر]
٤٩٤	رجع إلى نظم لسان الدين
٥١٠	[قصيدة لأبي زكريا ابن خلدون]
٥١٣	[احتفالات أبي حمو بالمولد النبوي]
٥١٥	[مقطوعات لأبي زكريا ابن خلدون على المنجاة]